

دارفور والحق المر

الماضي / الحاضر / المستقبل
(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)



تأليف

د. سيك أحمد علي عثمان العتيق

عميد مكتبات جامعة النيلين
أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب



الدار العربية للنشر والتوزيع

دارفور.... والحقوق المسروقة

الماضي / الحاضر / المستقبل

(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)

دارفور والحقق المر

الماضي / الحاضر / المستقبل
(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)

تأليف

د. سيد أحمد علي عثمان العقيد

عميد مكتبات جامعة النيلين
أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب

الطبعة الأولى

٢٠٠٧

الدار العربية للنشر والتوزيع



حقوق النشر

اسم الكتاب : دارفور والحق المر
الماضي / الحاضر / المستقبل
(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)
اسم المؤلف : الدكتور / سيد أحمد علي عثمان العقيد
رقم الابداع: 2006/ 20871
الترقيم الدولي: 977-258-267-8
الطبعة الأولى: 2006

حقوق النشر محفوظة

للمدار العربية للنشر والتوزيع
32 شارع عباس العقاد - مدينة نصر
جمهورية مصر العربية - القاهرة

تليفون: 2753335

فاكس: 2753388

لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع
أو نقله على أى وجه، أو بأى طريقة، سواء أكانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو
بالتصوير، أو بالتسجيل، أو بخلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة
ومقدماً.

مقدمة الناشر

يتزايد الاهتمام باللغة العربية في بلادنا يوماً بعد يوم. ولا شك أنه في الغد القريب ستستعيد اللغة العربية هيبتها التي طالما امتهنت واذلت من أبنائها وغير أبنائها. ولا ريب في أن امتحان لغة أمة من الأمم هو إذلال ثقافي فكري للأمة نفسها. الأمر الذي يتطلب تضافر جهود أبناء الأمة رجالاً ونساءً طلاباً وطالبات، علماء ومثقفين مفكرين وسياسيين في سبيل جعل لغة العروبة تحتل مكانتها اللائقة التي اعترف المجتمع الدولي بها لغة عمل في منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها في أنحاء العالم لأنها لغة أمة ذات حضارة عريقة استوعبت - فبما مضى - علوم الأمم الأخرى وصيرتها في بوتقتها اللغوية والفكرية. فكانت لغة العلوم والأدب، ولغة الفكر والكتابة والمخاطبة.

إن الفضل في التقدم العلمي الذي تنعم به أوروبا اليوم يرجع في واقع الحال إلى الصحوة العلمية في الترجمة التي عاشتها في القرون الوسطى. فقد كانت المرجع الوحيد للعلوم الطبية والعلمية والاجتماعية هو الكتب المترجمة عن اللغة العربية لابن سينا وابن الهيثم والفارابي وابن خلدون وغيرهم من عمالقة العرب. ولم ينكر الأوروبيون ذلك، بل يسجل تاريخهم ما ترجموه عن حضارة الفراعنة والعرب والإغريق. وهذا يشهد بأن اللغة العربية كانت مطوعة للعلوم والتدريس والتأليف، وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجد من علوم. وأن غيرها ليس بأدق منها. ولا أقدر على التعبير.

ولكن ما أصاب الأمة من مصائب وجمود بدأ مع نهاية عصر الوجود التركي، ثم الاستعمار البريطاني والفرنسي مما عاق اللغة عن النمو والتطور، وأبعدها عن العلم والحضارة ولكن عندما أحس العرب بأن حياتهم لا بد من أن تتغير، وأن جمودهم لا بد أن تدب فيه الحياة، اندفع الرواد من اللغويين والأدباء والعلماء نحو إنماء اللغة وتطويرها حتى أن مدرسة قصر العيني في القاهرة، والجامعة الأمريكية في بيروت درست الطب بالعربية أول إنشائها. ولو تصفحنا الكتب التي ألقت أو تُرجمت يوم كان الطب يدرس فيها باللغة العربية لوجدناها كتباً ممتازة لا تقل جودة عن مثيلاتها من كتب الغرب في ذلك الحين. سواء في الطب أو حسن التعبير، أو براعة الإيضاح، ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربية فيما بعد، وسادت لغة المستعمر. وفُرضت على أبناء الأمة فرضاً، إذ رأى المستعمر أن في خنق اللغة العربية مجالاً لعرقلة الأمة العربية.

وبالرغم من المقاومة العنيفة التي قابلها، إلا أنه كان بين المواطنين صنائع سبقوا الأجانب فيما يتطلع إليه، ففتنوا في أساليب التملق له اكتساباً لمرضاته، ورجال تباثروا بحملات المستعمر الظالمة، يشككون في

قدرة اللغة على استيعاب الحضارة الجديدة، وغاب عنهم ما قاله الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا وانثروها حتى نحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر، فقد حكمناها حقيقة".

فهل لي أن أوجه نداءً إلى جميع حكومات الدول العربية بأن تبادر- في أسرع وقت ممكن- إلى اتخاذ التدابير. والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس في جميع مراحل التعليم العام والمهني والجامعي، مع العناية الكافية باللغات الأجنبية في مختلف مراحل التعليم لتكون وسيلة الإطلاع على تطور العلم والثقافة والانفتاح على العالم. وكلنا ثقة في إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب، نظراً لأن استعمال اللغة القومية في التدريس ييسر على الطالب سرعة الفهم دون عائق لغوي وبذلك تزداد حصيلته الدراسية. ويرتفع بمستواه العلمي، وذلك يعتبر تأصيلاً للفكر العلمي في البلاد. وتمكيناً للغة القومية من الازدهار والقيام بدورها في التعبير عن حاجات المجتمع، وألغاز ومصطلحات الحضارة والعلوم.

ولا يغيب عن حكوماتنا العربية أن حركة التعريب تسير متباطئة، أو تكاد تتوقف بل تحارب أحياناً ممن يشغلون بعض الوظائف القيادية في سلك التعليم والجامعات ممن ترك الاستعمار في نفوسهم عقداً وأمراضاً. رغم أنهم يعلمون أن جامعات إسرائيل قد ترجمت العلوم التطبيقية الحديثة إلى اللغة العبرية وعدد من يتخاطب بها في العالم لا يزيد عن خمسة عشر مليون يهودياً، كما أنه من خلال زياراتي لبعض الدول واطلاعي على مناهجها الدراسية وجدت كل أمة من الأمم تدرس بلغتها القومية مختلف فروع العلوم والآداب والتقنية كاليابان، وإسبانيا، وألمانيا، ودول أمريكا اللاتينية، ولم تشك أمة من هذه الأمم في قدرة لغتها على تغطية العلوم الحديثة، فهل أمة العرب أقل شأنًا من غيرها؟!.

وأخيراً.. وتماشياً مع أهداف الدار العربية للنشر والتوزيع، وتحقيقاً لأغراضها في تدعيم الإنتاج العلمي باللغة العربية، وتشجيع العلماء والباحثين في إعادة مناهج التفكير العلمي وطرائقه إلى رحاب لغتنا الشريفة تقوم الدار بنشر هذا الكتاب المتميز الذي يعتبر واحداً من ضمن ما نشرته - وستقوم بنشره - الدار من الكتب العربية التي قام بتأليفها أو ترجمتها نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المختلفة. وبهذا ... ننفذ عهداً قطعناه على المضي قدماً فيما أردناه من خدمة لغة الوحي وفيما أرادته الله تعالى لنا من جهاد فيها.

وقد صدق الله العظيم حينما قال في كتابة الكريم ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⁽¹⁰⁶⁾ ﴾ " سورة التوبة الآية "

محمد أحمد درباله

الدار العربية للنشر والتوزيع

المحتويات

9 مقدمة
---	-------------

الباب الأول

تاريخ دارفور السياسي إلى عام 1898م

31 الفصل الأول: جغرافية دارفور
31 أ- التضاريس والمناخ
36 ب- التكوين السكاني والنشاط الزراعي والعمرائي
57 الفصل الثاني: السلطنة الفوراوية وظروف النشأة
71 الفصل الثالث: علي دينار وحلم استعادة السلطنة ودوره في الحركة الوطنية

الباب الثاني

خطر التنظيم الفوراوي والدولة المهدوية

93 الفصل الأول: علي دينار ومقاومة القائد المهدوي عربي دفع الله
105 الفصل الثاني: علي دينار والمواجهة مع الفكي سنين ود حسين

الباب الثالث

علي دينار ومقاومة الاحتلال الثنائي

125 الفصل الأول: الفترة الأولى 1898-1901م
155 الفصل الثاني: الفترة الثانية 1902-1908م
181 الفصل الثالث: الفترة الثالثة 1909-1913م
223 الفصل الرابع: الفترة الرابعة 1914-1916م

الباب الرابع

أ- العلاقات بين الحركة الوطنية الفوراوية والحركة الوطنية الليبية السنوسية في

الربع الأول من القرن العشرين 1889-1916م

ب- سلطنة دارفور ومواجهة خطر الاحتلال الفرنسي لوداي

293 الفصل الأول: السنوسية والحركة الوطنية في دارفور
-----	---

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني: طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي	319
الفصل الثالث: الأسباب التي أضعفت الحلف السنوسي الفوراوي	325
الفصل الرابع: علاقات دارفور بوداي (تشاد الحالية)	333
الباب الخامس	
العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر	
الفصل الأول: العلاقات بين دارفور والحجاز	381
الفصل الثاني: العلاقات الفوراوية العثمانية ومصر	405
المصادر والمراجع	431

مقدمة

لقد كانت دارفور وستظل إحدى ثلاث مناطق مفصلية في تاريخ السودان الوسيط والحديث والمعاصر، وتعتبر أيضاً من أغنى المناطق تاريخاً وثقافة وأرضاً وإنساناً وعطاءً وموضوعاً وواقعاً. سواءً من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو من الوجهة التاريخية والروحية والعرقية.

كما أنها تعتبر من المناطق الواعدة اقتصادياً واجتماعياً، بالرغم من ظلام الحاضر وضبابية رؤية المستقبل. فهي منطقة مفصلية من الناحية الموضوعية، ومن وجهة النظر التاريخية لأنها شكلت بوتقة انصهار عرقي وثقافي وروحي واجتماعي يرجع مداها إلى أزمان سحيقة. وقد ظلت دارفور حاضنة ومفرخة لهذا الانصهار على نار هادئة وبدفء حنون لمدة تربو على الخمسة قرون من الزمان وهي فترة بكل المقاييس ليست بالقصيرة من تاريخ الأمم. ولقد ظلت دارفور باستمرار تشكل منطقة تمازج عرقي وحراك ثقافي وسياسي واجتماعي متنام، وتداخل إقتصادي عبر التاريخ، كما كانت نقطة التقاء وتحول خطير في تاريخ المنطقة سياسياً واجتماعياً وروحياً وفكرياً واقتصادياً، فقد ضمت دارفور بين حناياها أعراق متعددة، عربية وزنجية منذ القدم. وتعتبر دارفور من الناحية الحضارية من المناطق المفصلية الخطيرة والهامة في بنية السودان الحديث باعتبارها إحدى الحاضنات الرئيسيات لمكونات هويته الحضارية والثقافية والاجتماعية. فهي منطقة تلاقح فكري وعرقي واجتماعي فريد.

وقد تلقت دارفور عبر القرون هجرات كثيفة من الشمال والجنوب والشرق والغرب على حد سواء لأنها كانت ذات مبادرات جريئة وفريدة في ذات الوقت، حيث مدت جسور التواصل فيما بينها وبين المغرب العربي بمعناه الواسع، فوفد إليها

ألقاصي قبل الداني. وشكلت دارفور من زاوية أخري صورة مصغرة لسودان اليوم بكل أطرافه وأعراقه واتجاهاته وثقافته وألوانه. حيث عاش فيها الشمالي بجانب الجنوبي والشرقي بجانب الغربي والمصري بجانب التونسي، والمغربي بجانب الحجازي. وقام الجميع بعزف سيمفونية اسمها سلطنة دارفور الإسلامية وميلاد سودان اليوم وانسان السودان. ففي دارفور المساليت وهم من مسلاتة بليبيا، وبها المحاميد وهي قبائل مشتركة بين دارفور وليبيا. وبها قبيلة بني جرار وهي قبيلة مشتركة بين السودان وليبيا . وفيها الزغاوة وهي قبائل مشتركة بين كل من تشاد وليبيا ودار فور، وفيها الكيرا والطنجور والدا جو والكنجارا وهي من القبائل المشتركة بين السودان وتشاد والنيجر، وهي في أصولها قبائل خليط بين د ماء زنجية وعربية، وفيها البديات والبرقد وبني هلبة وهم خليط من الدم العربي والزنجي والنوبي والجعلي. والبيقو وهي قبائل من بحر الغزال. وقد اختلطت كل هذه القبائل وتصارفت مع بعضها الآخر في هذه الديار العظيمة، دون استعلاء أو تفرقة، أو فواح رائحة عرقية بغیضة. وفيها الرزيقات والتاما والبرتي وللبعض منهم انتماءات شمالية لا تنكر، وعلى العموم فإن دارفور ظلت وستظل تشكل سوداناً مصغراً من حيث البنية السكانية والتضاريس العرقية والموروث الثقافي والروحي والموروث الحضاري ومن حيث البعد التاريخي.

وقد قامت بدار فور سلطنة إسلامية دامت مدة خمسة قرون من الزمان، فوفد خلالها إلى دارفور عرب وزنوج وقوقازيين من داخل ومن خارج السودان. وشكلوا نسيجاً اجتماعياً فريداً، وأوقدت في هذه الديار نار القرآن والعلم والكرم. فكانت دارفور قبلة للعلماء والفرسان والزهاد من الحجاز وتونس والمغرب ومصر. ومن شمال وغرب وجنوب وشرق السودان الحالي دون استثناء، ومكنت بها هذه العناصر في توائم وسلام ومحبة وأخوة صادقة وتضاهر القادمون مع أهل البلاد الأصليين من زنوج وعرب، ونتجت عن هذا التمازج عناصر خليط. هي شعب دارفور أو هو شعب السودان الحالي بكل خصائصه وسلبياته وإيجابياته وأحلامه وآماله وآلامه.

وقد أشار محمد بن عمر التونسي إلى أن له أخوة بدار فور. وذكر أن أباه قد وفد إليها في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد في بداية القرن التاسع عشر، يوم أن كانت عقيدة المسلم هي هويته ودينه جنسيته، قبل الارتباط بهذه الوريقات المزيفة التي أسموها جنسية، ومنحه يومها هذا السلطان حاكورة (القطاعية). وتزوج أبوه عمر التونسي واستولد من أهل البلاد الأصليين، وهذه هي روح الإسلام الطاهرة التي تستكف من نثانة العرقية والإثنية القبيحة التي ترتد بالإنسان إلى مستوي البهيمة العجماء، ولعل ما يدور الآن من أحداث يلاحظ المرء فيه سيادة قانون الغاب وهو يشكل انتكاسة خطيرة في تاريخ دارفور بل في تاريخ الإنسانية قاطبة ولا نقول في تاريخ السودان فحسب. لأن معيار هذه الحركات هو معيار اللون والقوة ولا شيء غير القوة. أما في المقابل فإن المعيار الإنساني في الإسلام هو معيار فكر وسلوك وقِيم لا معيار جلود وألوان، وهو المعيار الإنساني المنطقي الذي يليق بالإنسان وتكريمه، لا المعيار الحيواني البهيمي الذي يعتمد على اللون والجنس والعرق كالضأن والماعز والإبل والأبقار، والذي برز إلى الوجود بمطلع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا. وانتقلت عدواه إلى العالم الإسلامي والعربي في بداية القرن العشرين تحت مسميات القومية والعرقية. واستمرت تفوح نثانته إلى نهاية هذا القرن، وبداية القرن الحادي والعشرين. ونحن كالعادة لا يبلغنا الصدى إلا بعد أن تتجاوز الأمم ذلك الأمر بعقود. فننلقف ما يلقي في مزابل الآخرين بغير وعي راشد أو توجه قاصد. ولا أزال أذكر أستاذنا أستاذ الأحياء في سبعينات القرن الماضي في المرحلة الثانوية وهو يتكلم بحماس شديد عن نظرية داروين باعتبارها نظرية علمية، وهي عند أهلها افتراض لا يرقى إلى درجة النظرية وإن كانت أوروبا في ذلك الحين قد تجاوزت هذه الخطرفة قبل مائة عام أو يزيد وبدا خطلها لدي كل راشد في أوروبا إلا أن واضعي المناهج في بلادنا وأسائذتنا ظلوا يرددون الصدى دون مواكبة لا سيما قبائل اليسار المفتونون بكل ما يفت في عضد الدين وثوابت الأمة بصلة ومن لف لفهم ونهج نهجهم.

خلال خمسة قرون من الزمان حكمت دارفور أسرة الكيرا وهي فرع من الفور مع خلطة عربية واضحة القسمات، فوطدت نظاماً فدرالياً اعترف لكل بخصوصيته

العرقية والإدارية والاجتماعية، وأصبحت هذه المنطقة تسمى دار فور، نسبة لهذه السلطنة العظيمة ذات العطاء المتواصل، والفضل المتجدد في إرسال محمل سنوي إلى كل من بيت الله الحرام، دعماً للحجاج الوافدين إلى بيت الله الحرام والسلطة الزمنية القائمة فيه، وزوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد تجاوزت هذه السلطنة النزعة الإقليمية الضيقة وسمت فوق الدعاوى العرقية الفتنة التي يحاول الأحفاد العاقون إحياءها وتغذيتها الآن فعلاً وقولاً عن وعي وعمالة أو عن غير وعي ورشد. مما لاشك فيه ومن خلال هذا العرض يتضح أن دارفور هي ملك لكل السودان بل لكل المسلمين لأن تراثها وتاريخها وعطاءها وإنسانها هو شأن إسلامي بحث، فكراً وعقلاً ووجوداً وتاريخاً. فأهل دارفور كلهم مسلمون ولعلمهم جميعاً يدينون بمذهب واحد وهو المذهب المالكي، والقرآن وخلويه سمة فوراوية بارزة. وأن أي محاولة في دارفور لإدخالها في قمع العرقية والإثنية الفتنة أو الحزبية الغبية العوراء هي محاولة عميلة دخيلة على فكر وتاريخ وتراث إنسان دارفور، دارفور القرآن، دارفور السلطنة، دارفور المحمل، دارفور العطاء، دارفور التاريخ، دارفور الهوية ودار فور مفصل السودان الحضاري الهام.

ولعل الكتاب بالرغم من أنه في الأصل كان مشروع دراسة أكاديمية في ثمانينات القرن الماضي. ولم يكن يومها بهذا الحجم، ولا بهذه الرؤية ولكنه كان أصيلاً من حيث الموضوع ومن حيث المادة الوثائقية الكثيفة التي توفر عليها المؤلف في دور الوثائق العالمية والمحلية. فقد قطع المؤلف المسافات الشاسعة من السودان إلى مصر والمملكة المتحدة وإلى شمال بريطانيا حيث تقع جامعة درم، التي بها مكتبة السودان القابعة بمدرسة الدراسات الشرقية والتي بها كنوز من تاريخ السودان الحديث والمعاصر. ولبراءة الكاتب وثقته يومها في أمانة العلماء علي حسب ما تلقيناه من علم علي أيدي أساتذة كبار لا يشق لهم غبار من أمثال الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود والأستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق والدكتور العالم الزاهد إيزاهيم بشير رحمهم الله تعالى جميعاً وأجزل ثوابهم، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري وكوكبة من العلماء الأفاضل الذين تزينت بهم جامعة الرياض في ثمانينات القرن الماضي الذين تلقينا عليهم علماً صافياً صفاء وجدانهم هذا أولاً، وجامعة الرياض التي أصبحت فيما بعد تعرف

بجامعة الملك سعود وهو اسمها السابق حين كان الملك سعود علي سدة الحكم فقد جمعت فأوعت. ما كان يدور بخلاي أن عملاً علمياً كهذا قضيت فيه سنوات عدة، وأفنيت فيه لحظات من أغلي لحظات العمر يمكن أن يتعرض لنهب وسرقة بواسطة أساتذة كبار من فصائل اليسار في السودان، لهم قامات ولكنها زائفة، وفي جامعة يزعم بأنها الأولى من نوعها في البلاد. فبعد نيل درجة الماجستير وليت وجهي شطر السودان، وكانت تراودني فكرة التحضير للدكتوراه بنفس واحد دون انقطاع، فنصحتني أستاذي الفاضل المرحوم بإذنه تعالى الدكتور إبراهيم بشير بالاتصال بزميله الأستاذ المشارك يومئذ الدكتور حسن أحمد إبراهيم والبروفيسور الآن. لا سيما بعد أن علم أستاذنا الدكتور إبراهيم بشير أن زميله حسن قد أصبح عميداً لكلية الآداب من خلال خطاب أرسله له الأخير يهنئه فيه بقرار إرجاعه إلي الجامعة. وطلب الدكتور إبراهيم بشير مني بعد وصولي السودان أن أكون علي اتصال به. وكان الدكتور إبراهيم بشير من القلائل من أولاد البلد السودانيين، إذ كان نعم الأستاذ والأخ الأكبر. فقد سألتني عن مشروعاتي المستقبلية قبيل المجئ إلي السودان. فقلت له: سأشتري عربة مستخدمة في حدود إمكانياتي البسيطة وسأذهب إلي السودان وأرخصها عربة أجرة وأقودها بنفسي. وكانت الفكرة يومها في عام 1984م غريبة بعض الشيء حتى لدي بعض رجال الأمن يومئذ، لأن التصديق يومها كان يتم في المعتمدية مكان مجلس الوزراء الحالي بشارع الجامعة، ولا بد أن يمر إجراء الترخيص لأي سيارة الأجرة عبرهم، فسألني أحدهم كيف يمكن لشخص يحمل مؤهلاً بهذا القدر أن يقود عربة أجرة، فقلت لهم: إن هذا أمر عادي في كثير من الدول وسيصبح الأمر في السودان في يوم من الأيام أكثر من عادي. وقد كان فبعد قيام ثورة رجب (ابريل) 1984م التي قلبت الطاولة على نظام المشير جعفر نميري وصعد من صعد وهبط من هبط من أهل وقبائل النظام المايوي. كما هو شأن السلطة التي لا تدوم لأحد. أو كما قال الفنان السوداني المشاكس للنظام المايوي (ما دوامة). فدخل في مهنة التاكسي عسكريون ومدنيون وإداريون وأساتذة جامعات ممن كانوا بالأمس أصحاب سلطة و سطوة وأنف شامخ، فسبحان مغير الأحوال الذي له الملك. يعز من يشاء ويذل من يشاء وفق حكمة

وعزة. وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولقد ولجت هذا المجال طوعاً ولقناعة مؤداها بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، ولخبرة طويلة مع التنظيمات العقائدية التي تدعي الشورية وهي أبعد الناس عنها. وتدعي الحرية ولم تمارسها ولو لحظة مع عضويتها. ووصلت إلي قناعة راسخة مؤداها أن التنظيمات السياسية سواءً العقائدية أو الطائفية منها تتعامل مع عضويتها تعامل رعاة البقر مع الحصين. فما أن يكون الحصان قوياً يمتطي بواسطة القيادة إلي أن يجد المتسييس الأوحده، وحيد زمانه وفريد أقرانه الذي يظن انه معصوم من الخطأ، والزلل ذو الرأي السديد والعمر المديد حصاناً أحسن أو اقوي من الأول يجيد الركض والنفاق والمسح علي الجوخ فيهمل الأول ويمتطي صهوة الثاني. وتجار السياسة والمتسييسون المتعطلون في بلادنا الذين يأكلون علي أكتاف الآخرين في هذا البلد هم أذن لكل سوء ولذلك لا يطيب لأهل الفكر الحر والرأي السديد الاستمرار معهم، والعيش في كنفهم طويلاً. لذا لا يصانهم إلا منافق أو من يملك صفات المنافقين، فيزين لهم أفعالهم وأقوالهم وإن كانت باطلا. ونتيجة لذلك أصبح هذا الصنف الغريب من الساسة لا يحتملون صوتاً يعلو علي أصواتهم أو فكراً يزاحم فكرهم المريض. ولعل الأقدار هي التي جعلت السودان رديحاً من الزمن تحت رحمة نفر من هذا النوع الذي لا يتجاوز أصابع الرجل الواحدة، هم الفلاسفة وهم العالمون ببواطن الأمور وهم الساسة وهم المفكرون وهم الشيوخ وهم الأساتذة وهم الذين لم تلد حواء لهم نظيراً، ديناصورات هذا الزمان كانوا بلية هذا البلد لأكثر من ثلاثة عقود أو يزيد. هذا الفهم الراشد وهذه التجربة الحية هي التي أوحى إلي بأن أشق طريقي في الصخر بلا كلل ولا ملل أو تزلف أو مداينة لأحد كائناً من كان، ولذا لم أرهن إرادتي لأحد منذ البداية. واستغرقني أمر المعاش سنوات معدودات، ولكن لم يحل ذلك دون تحقيق الهدف. ومما جعل شخصية أستاذي دكتور بشير تكبر في نفسي أن أرسل إلي خطاباً بعد ثلاث سنوات من قدومي إلي السودان يستفسر فيه عن أحوالي ويحثني علي مواصلة مشوار الدكتوراة. وذكر لي بأنه سيتكفل بأي مصاريف يمكن أن تشكل عقبة في طريقي. ووجهني لأن اتصل بالدكتور حسن إبراهيم عميد الكلية بجامعة الخرطوم بغية التسجيل للدكتوراة

بكلية الآداب. وبالفعل اتصلت به وطلب مني الشهادات الأصلية والرسالة لحاجة في نفس يعقوب قضاها. فأحضرت له أصول الشهادات ونسخة أصلية من الرسالة. وشغلتنني عن ذلك بعض الشواغل أياماً عدداً. ولظروف قاهرة لم أتمكن من مواصلة الإجراءات يومها. وبعد أشهر معدودة طلبت منه أصول الشهادات وأصل الرسالة فطلب مني السماح له بإطلاع أحد الطلاب الذين يشرف عليهم علي هذه الرسالة. ولتقتي المطلقة يومئذ في الأسماء التي تحمل لقب الأستاذية من أمثال الأستاذ الدكتور حسن احمد إبراهيم عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم في أوائل الثمانينات من القرن الماضي سمحت له بذلك. وكان مبعث تلك الثقة لاعتبارين أولاً: اسم جامعة الخرطوم. وثانياً: سمعة بعض الأساتذة الأفاضل كأستاذنا البروفيسور عبد الله الطيب الذي درسنا بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة أم درمان الإسلامية مادة الأدب العربي. وكنت أحسبه من هذا الطراز أو شبيه بتلك الكوكبة. بيد أن الأمر كان بخلاف ذلك حيث قام الأستاذ المذكور بإعطاء الطالب الرسالة كاملة والذي قام بدوره بسرقة الموضوع برمته والمصادر والمحتوي مع تقديم وتأخير تحت عين وبصر المشرف، وأرجع إلي الأستاذ الرسالة بعد فترة وكان شيئاً لم يكن. وبعد عامين من تاريخه كانت المفاجأة بان ظهرت الرسالة في قسم التاريخ كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية بصورة شائنة. ولبعدي يومئذ عن الأوساط الأكاديمية كان يمكن لهذا الأمر أن يمرر دون صخب أو ضجة لولا عناية الله التي جعلت أحد المناقشين وهو أستاذنا الفاضل النابه البروفيسور أحمد إبراهيم الذي قابلني صدفة ذات مرة في الشارع وقال لي: إن لديه رسالة ماجستير سيناقشها بعد أسبوع والمشرّف عليها هو الدكتور حسن إبراهيم، ويشك دياب في أن هذه الرسالة هي عين الرسالة التي تقدمت بها إلي جامعة الملك سعود من قبل. وطلب مني نسخة، فقلت له: إن الدكتور حسن أحمد إبراهيم كان قد أخذ مني نسخة لأكثر من شهر قبل عامين. وبالفعل أحضرت له نسخة من الرسالة. ولدي إجراءات المقارنة كانت المفاجأة حيث وجد أن تلك الرسالة مخلوق مشوه مما قمت به في بحثي الآنف، وطلب مني حضور المناقشة. ولقد فاجأ البروفيسور دياب الحضور بأن قال بالحرف الواحد: إن هذه الرسالة هي مسروقة بكاملها من رسالة الأستاذ العقيد،

وأحضر النسخة الأصلية معه وقام بتمزيق أوراق من تلك الرسالة القميئة المقدمة من الباحث يومئذ. ومن المعروف أن بروفيسور دياب دقيق في مناقشته ومنهجيته. ونتيجة هذا الكشف لم يرض الدكتور حسن احمد إبراهيم وزمزمته في جامعة الخرطوم عن بروفيسور دياب. وبالتالي حرم منذ يومها من أي مناقشة في جامعة الخرطوم قسم التاريخ إلى هذه اللحظة لئلا يكشف البلاوي المخبأة والأبحاث المسروقة والادعاءات الكاذبة من قبل صنائع كرتونية. ومن الغريب أن الباحث كان أستاذاً بجامعة جوبا والذي حاول عبثاً أثناء المناقشة أن ينكر السرقة. بيد أن السرقة قد تبذرت في أنه لم يغادر السودان ولو أسبوعاً كما ذكر لي أحد المقربين منه إلى الأماكن التي سبق ذكرها. وهي الأماكن التي توجد بها تلك الوثائق المستخدمة في هذا الكتاب وبعد أخذ ورد، طلب المناقشون من الطالب أن يذكر بأنه قد استفاد من رسالتي لأنه أقر أمام الجميع بإطلاعه عليها. ومنح علي حسب ما أذكر الدرجة بعد ستة أشهر من تاريخ المناقشة. وكان يفترض أن يطرد من الوسط الأكاديمي هو وأستاذه، لو كانت هناك قوانين ونظم هرمية في هذا البلد. ولقد حصلت علي نسخة الطالب وعرضت الأمر برمته علي الأستاذ الألمي أحمد سليمان المحامي، وكان يومها رئيس مجلس إدارة جريدة الراية التي كانت تصدرها الجبهة القومية الإسلامية في فترة ما يسمي بالديموقراطية الثالثة. وبعد إلقاء سيادته نظرة علي العملين قال لي بالحرف الواحد: هذه صورة شائنة من عمالك الذي تقدمت به من قبل. واستشرته يومها في رفع قضية ضد الأستاذ والطالب والجامعة، فذكر لي أن السودان لا يوجد به قانون حماية الملكية. كما أن المسألة يمكن أن تنال من سمعة الجامعتين إضافة إلي طول الإجراءات وتكاليفها. ففوضت أمري إلي الله في بلد تضيق فيه حقوق الضعفاء والمساكين كما هو شأن بيتي الذي هدمته حكومة الإنقاذ دون وجه حق ودون تعويض مجز، وظللت لأكثر من خمس سنوات من مكتب إلي مكتب دون جدوى، لأن المقصود أساساً كان لي ذراعي الأيمن وإرجاعي إلي بيت الطاعة علي طريقة الإنقاذ ولكن هيهات. وبعد هذا العمل الإجرامي الفريد من نوعه والذي تمثل في سرقة جهدي في وضوح النهار من غير استحياء قمت بجمع النسخ التي كانت مودعة ببعض المكتبات السودانية إلي أن

هيا الله لي هذه الفرصة بعد عشرين سنة أو يزيد أن أجد متسعاً من الزمان والمكان لكي أخرجها في ثوب جديد مع استيعاب لما يدور من أحداث بقدر من التحليل المستقل غير المنحاز وغير مدفوع الأجر من احد أو جهة، وبقدر من التأمل الواعي وقدر من الدراسة ومستوى من الإشارات التي يمكن أن تعين من يريد أن يفهم التركيبة السكانية والطبيعة الجغرافية والخلفية التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية لدار فور. وفي تقدير المؤلف أن هذه المذكورات تعتبر مفردات غنية ومهمة في مربع التحليل والتعاطي مع أبعاد القضية القائمة الآن. ولا شك أن تجاوز أي مفردة منها وبأي قدر كان يصب في خانة تعقيد القضية والبعد عن الحلول الموضوعية والمنطقية لهذه المشكلة.

فتركيبة دارفور السكانية على قدر من التعقيد الذي لا يمكن لدارس له أدنى معرفة بالمنطقة تبسيطه إلى حد السذاجة حسب ما رواه وهدف إليه كتاب الكتاب الأسود في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي ممن يعانون من عقدة التعويق الداخلي والنقص المعرفي. ونعني بها عقدة الشوفونية الناتجة عن عقدة نقص داخلي، وهذا النوع من التعويق يعتبر من الأدواء الخطيرة التي يصعب علاجها، وهو داء كثير ممن تصدي للعمل العام، وهو داء كثير من السياسيين في السودان، إذ لا يمكن لدارس أن يصف أن الأمر في دارفور هو عبارة عن صراع بين عرب وزنوج، إذ لا تصدر هذه المقولة إلا عن جاهل بمفردات تاريخ المنطقة وتركيبها السكانية وخلفيتها الثقافية والاجتماعية والدينية.

ولعل أحدث الدراسات الجينية والتي قام بها فريق ألماني متخصص؛ قد أثبتت خطأ هذا الزعم الباطل الذي حاول ترويجه تلاميذ أبناء الثقافة العربية العميلة في بلادنا. وقد وردت الإشارة إلى هذه الدراسة في ثانيا هذا الكتاب وفي كتابنا: (العلاقات المكية السودانية) الذي أصدرته الدار العربية بالقاهرة عام 2005م. والذي تم نشره ضمن فعاليات الندوة العلمية الكبرى بمناسبة مكة عاصمة للثقافة الإسلامية في سبتمبر 2005م، وذكرنا هناك أن التي قامت بهذه الدراسة دولة استغلالية استعمارية لها ضلع كبير فيما يجري الآن في دارفور من أحداث ومن صراعات ليست في مصلحة

دارفور ولا في مصلحة المواطن الدار فوري ولا في مصلحة الوطن الأم السودان. ولكنها كانت دراسة ذات أهداف استراتيجية خطيرة، وان تدرت بالعلمية والموضوعية، إلا أنها كانت في الواقع تهدف إلى تحقيق أجندة خفية خفيت حتى على القائمين على أمر هذه الحروب من الطرفين على حد سواء. وهي ضمن مخطط استراتيجي كبير غايته تفتيت وحدة السودان إلى كيانات يسهل استقطابها واحتواؤها وإلى فتات يصعب لملمته. ولا يخفي على متأمل أن أي تفتيت لوحدة السودان ينال في المقام الأول من سيادة مصر ويهدد أمنها القومي. ولذا كان ينبغي على مصر أن تحسن اللعبة السياسية وأن تتعامل مع هذه القضية بمسؤولية وباهتمام زائد وبجدية وإلا سيجرفها الطوفان.

ولقد جاءت هذا الكتاب في مقدمة وخمسة أبواب بفصولها، حيث تعرض لطبيعة المنطقة وموقعها وسكانها وتركيباتها السكانية وخصوصياتها الاقتصادية والروحية والعرقية. وأورد خلفية تاريخية عن قيام سلطنة الفور ودورها التاريخي ومدى قدرتها على الاستمرارية لمدة خمسة قرون من الزمان. وأبان كيف أصبحت هذه المنطقة بفضل وجود هذه السلطنة، منطقة محورية على امتداد العالم الإسلامي والعربي والأفريقي. وهي خلفية هامة وضرورية لتفسير الأحداث الجارية الآن وفق رؤية تاريخية عميقة، إذ يمكن من خلالها استشراف المستقبل وصناعة الحاضر.

وتعرض الكتاب لسلطنة الفور في الفترة الواقعة ما بين (1898 - 1916م) ومدى علاقتها بالحكم الثنائي ومصر والحجاز وتشاد والسنوسية في ليبيا وتركيا باعتبارها بداية المقاومة الوطنية الجادة في السودان، والتي لم يكن لها بعد عمالة لجهة محتلة. وأكد موضوع الكتاب على أن سلاطين الفور كانوا متقدمين فكراً على كثير من القيادات السودانية في بداية القرن العشرين صنيعة الاستعمار، والقيادات الحالية سواء أكانت في إقليم دارفور أو السودان عموماً. ويأتي التفوق الفوراوي من حيث شمولية الرؤية ووضوح الفكرة وإسلامية التوجه وقوة الإرادة. وتعرض المؤلف لعلاقة دارفور بالطريقة السنوسية في ليبيا التي شكلت رأس الحربة في مقاومة المستعمر في

البلاد العربية والإسلامية والأفريقية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. هذا في وقت استسلمت فيه كثير من القيادات التقليدية يومئذ التي شكلت أصول الموجودات السياسية على الساحة السودانية الآن دون استثناء علي المستوي المحلي. وهذا الكتاب هو دراسة أكاديمية في المقام الأول إذ اعتمد المؤلف على الوثائق الخام، وعمل على تحليلها واستخلاص عبرها واستثمار مؤشراتنا في تفسير الحاضر واستبصار المستقبل، لو كان لدينا ساسة يقرأون ويعتبرون بما يقرأون. أو يفهمون ما يقرأون، أو كانوا ساسة بالمعني والمبني لا تجار سياسة أو متسيسين كما هو الحال الآن، أولئك الساسة الذين يحسنون النقد والتظير حين يكونون في المعارضة وما أن يمتطوا صهوة السلطة حتى يخلعوا لباس الحق والعدل ومطالب الجماهير ويكون همهم أنفسهم ويضربوا بمطالب الجماهير عرض الحائط. حتى غدا السودانيون كالفئران في مشرحة المجانين كل من هب ودب يجرب عليهم خطراته وتخيلاته وأوهامه وهواجسه المريضة. ولا يقتصر الأمر علي السودان ولكنه - أي السودان - يعتبر أحد النماذج الأفريقية والعربية والآسيوية في عصرنا الحالي.

ولا يخفي علي ذي بصر وبصيرة أننا في عالمنا الثالث قد ابتلينا بتجار السياسة الذين لا بصر لهم ولا بصيرة، ممن لا يقرأون، وإن قرأوا لا يفهمون وإن فهموا لا يعتبرون، لأن العبرة قيمة إيمانية ومستوى عقلي راق، وكلاهما عملة نادرة في دنيا شئون السياسة في زماننا هذا، لا سيما لدى الذين يتعاطونها. لأنه لا يتعاطى السياسية إلا فاشل أو متسلق أو منافق أو نفعي له مآرب أخرى، فشل في تحقيقها عن طريق الباب فلجأ إلي تحقيقها عن طريق النافذة، وذلك على مستوى السودان والعالم الإسلامي والعربي والأفريقي على حد سواء. بل علي مستوى العالم. وما يمكن تقريره أن ما يدور في دارفور ليس هو حرباً عرقية أو أثنية بين عرب وزنوج، بقدر ما هو صناعة غربية مدفوعة الأجر. ولغفلة القيادات السياسية المعارضة والمؤيدة على حد سواء بدأت تدق الطبول للحرب دون إدراك لإستراتيجية هذه العملية أو هذه الخطة الخبيثة.

فدار فور من الناحية الجغرافية والإستراتيجية تقع في منطقة الحزام الساري، وهو من المناطق الغنية بثرواتها وخاماتها، والواعدة بمسقبلها، وقد لا يدرك ساسة اليوم ممن لا نظر لهم ولا فكر أو عقل مدبر هذه الحيثية ذات البعد التاريخي والاستراتيجي إلا بعد فوات الأوان. ويؤمل الغرب أن تكون دار فور وتشاد بديلاً استراتيجياً من الناحية النفطية عن دول الخليج التي اشتعلت فيها نار يستحيل إخمادها. ونؤكد علي أن تجزئة دار فور وتفتيتها تقع ضمن استراتيجية أمريكية- بريطانية- ألمانية قديمة. أما عن هذه الأدوات التي أعني بها القيادات السياسية علي المستوى القيادي، سواء أكانت مؤيدة أو معارضة من شتى ألوان الطيف السياسي في السودان، فهم أرجوازات وبطاقات وجياد صافقات غايتها أن تمتطي إلى حين. وبعد أداء دورها يلقي الغرب بها في قارعة الطريق إن لم نقل في سلة المهملات. وهذا شأن غربي قديم حديث، وهذا هو الموقع الطبيعي للمغفلين من الساسة والقيادات الفكرية والاجتماعية دون استثناء، الذين لا يدركون الحقائق إلا بعد فوات الأوان. لا سيما تلك القيادات التي لا تعتبر بعبر التاريخ ولا تقرأ مفرداته بذكاء ووعي.

1- غرض موضوع الكتاب:

دراسة وتحليل سياسة السلطان علي دينار الخارجية في الفترة (1889 - 1916م) وعلاقاته مع كل من المهدية والحكم الثنائي وليبيا ووداي والحجاز والدولة العثمانية ومصر. هذا علي وجه الخصوص، وإبراز الدور الوطني المعاصر في المقاومة للحكم الأجنبي بالبلاد في محاولة غايتها قراءة مفردات هذه الفترة في ضوء الحاضر واستشراف رؤية المستقبل. وهذا هو دور المؤرخ. ومحاولة ربط الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي علي نسق يمكن القائمين بالأمر من التوطن في اتخاذ القرارات المصيرية وفق رؤية موضوعية وإرث تاريخي ماجد.

2- المنهج المتبع في هذا الكتاب:

اتبع الكاتب منهج البحث التاريخي القائم علي جمع المادة وتوصيفها وترتيبها وفرزها وتحليلها وفق منظور منطقي.

أما أقسام الكتاب فقد جاء في خمسة أبواب رئيسية، تحت كل باب فصلين أو أكثر. الباب الأول من الكتاب: يتناول التركيبة الجغرافية والسكانية لدارفور وأحوال السلطنة وظروف نشأتها حتى سقوطها 1874م، ودور السلطان علي دينار في استعادتها 1898م. وهي قضية مفصلة في تفسير الأحداث التاريخية في منطقة دارفور. ويشكل ذلك خلفية ضرورية لتفسير كثير من الأحداث الجارية الآن. ولعل الفارق الجوهرى بيننا وبين أعدائنا أنهم يعرفون تاريخنا ونفسية وميول شعوبنا أكثر منا. فقد ذكر لي بروفيسور أحمد حمو عميد القانون بجامعة النيلين أنه قد اطلع علي توصية من قبل واضعي القوانين الإنجليزية في فترة الاحتلال بأن يكون الغلاف لمجلدات القوانين عند طباعتها أخضر ليكون مقبولا من قبل السودانيين ذوي الخلفية الصوفية والمهدوية.

والباب الثاني:

يتعرض للعلاقات الفوراوية المهدوية بإيجاز لفترة ما قبل علي دينار وبتفصيل لفترته. لا سيما موقفه من الجيوب المهدوية في الجنوب والغرب علي حدود سلطنته.

أما الباب الثالث:

يناقش موقف السلطان وعلاقاته بالحكم الثنائي في السودان الشرقي في الفترة (1898-1916م). وقد تناول هذا الباب أهم الأحداث التي أثرت علي العلاقات الفوراوية الثنائية، سلباً وإيجاباً والقيام بتحليلها. ويبرز هذا الباب بفصوله مدى قدرة علي دينار علي الاستقلال عن الهيمنة الأجنبية. وثمكته من المراوغة وإدارة اللعبة السياسية باقتدار فائق.

والباب الرابع:

يدور حول العلاقات الفوراوية السنوسية. حيث يتناول علاقات السلطنة والسنوسية، والتقارب السنوسي الفوراوي في فترة السلطان علي دينار وتطوره وإيجابيات الحلف السنوسي الفوراوي في مواجهة الاحتلال وسلبياته. ويؤكد هذا الباب علي أن العقلية السودانية التي كان يمثلها علي دينار كانت ذات أشواق إسلامية أكثر منها غربية.

ويتناول هذا الباب أيضاً العلاقات الفوراوية الوداوية تحت السلطنة الإسلامية والاحتلال الفرنسي. حيث تعرض لطبيعة وتطور هذه العلاقات، عبر الفترات المختلفة، وبتركيز أثناء فترة السلطان علي دينار.

أما الباب الخامس:

فقد تناول العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر. وفيه نبذة تاريخية عن طبيعة هذه العلاقات وتطورها وأسباب نجاحها وفشلها. هذا بالإضافة إلى خاتمة قصيرة أتت علي أهم نتائج البحث.

3- المصادر:

اعتمد المؤلف علي مادة أرشيفية كثيفة تعددت مناطق وجودها بين السودان ومصر وبريطانيا. وهي التي شكلت المصادر الأولية لهذا الكتاب. وتحتوي المجموعات التالية:

أ- مجموعة المخابرات السودانية (GX): وهي تشمل وثائق مخطوطة ومطبوعة. هذا بالإضافة إلى الوثائق الأخرى التي هي عبارة عن رسائل بين السلطان والحكومة الثنائية، أو بين الحكومة الثنائية والقاهرة أو لندن بشأن السلطان. وهي في مجملها مادة غزيرة موضوعية في ملفات وفق ترتيب تاريخي، وإن كانت هناك مجموعات تفتقر إلى التنظيم التاريخي. ولكن الآن وبعد بروز العمل الإلكتروني ووسائله وأدواته وإمكاناته يمكن أن يجري ترتيبها وفهرستها وصفيًا وموضوعيًا وتوزيعها علي شكل أقراص مرنة علي مراكز الأبحاث. لا سيما وقد نمي إلي علمي أن مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درم (در هام) تفكر الآن في التخلص من هذا الإرث القومي الهام لندرة الرواد السودانيين عليه. وهو مما سرق من بلادنا شأن الكثير من الآثار والكنوز الأثرية الثمينة المودعة الآن بمتاحف أوروبا. وقد حدث ذلك فيما مضى تحت مسمى الانتداب أو البحث العلمي الأثري أو تحت التأهيل للشعوب زوراً وافتراء كما يحدث الآن في أفغانستان والعراق تحت مظلة الديمقراطية والحرية والمساواة ومنظمات المجتمع المدني إذ أن لكل فترة لبوسها

ودثارها. حبذا لو تكاثفت جهود عدة مؤسسات علمية وطنية بالسودان لإنقاذ هذا الإرث التاريخي الهام عن طريق الشراء والتصوير الملون الذي يعطي صورة طبق الأصل بكيفية غير مسبقة في التاريخ البشري. وهو في النهاية بضاعتنا قد ردت إلينا ويمكن لهذه الدول التي نهبت آثارها وكنوزها القومية أن تقاضي هذه الدول الاحتلالية أمام المحاكم الدولية. وإن تشكل في هذه الدول جمعيات وإتحادات علي غرار منظمات المجتمع المدني لرد إعتبارها ومنهوباتها من قبل الدول الكبرى، والمطالبة بتعويضات مالية، ومعنوية علي غرار اعتذار الرئيس الأمريكي السابق كلينتون لدول غرب أفريقيا لدى زيارته جزيرة العبيد في ليبيريا، وإن يكون ذلك الاعتذار مكتوباً إضافة إلي التعويض المادي للخسائر التي لحقت بهذه الشعوب.

ب- تقارير المخابرات (DF): وهي عبارة عن تقارير شهرية رسمية ظلت تصدرها هذه الإدارة الاحتلالية منذ عام 1892م. وقد تم الإطلاع علي كل التقارير التي تتصل بموضوع هذا الكتاب، وهي في شكل مجلدات نظمت تنظيمياً دقيقاً منذ مارس 1900م. ولها ملاحق تتضمن الرسائل بين السلطان والحكومة الثنائية.

ج- أوراق ونجت (TL): وهي عبارة عن المذكرات اليومية والرسائل الشخصية والرسمية التي تخص السير ريجنالد ونجت المسئول الأول عن الاستخبارات والذي أصبح فيما بعد الحاكم العام في الحكومة الثنائية البريطانية في الفترة ما بين: (1899-1916م). ورسائله الرسمية والشخصية توجد في ملفات. أما المذكرات اليومية فتوجد في مجلدات. بيد أن الأوراق عموماً تحتاج إلي تنظيم شأنها شأن أوراق كل من سلاطين وما كمايكل الآتينتين.

د- أوراق سلاطين باشا (ZY): مفتش عموم السودان (1900-1914م): تشمل مذكرات سلاطين باشا (رودلف كارل النمساوي والذي شغل وظيفة المفتش العام في فترة الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد مكافأة له علي مساعدته الإستخباراتية وكتابه السيف والنار الذي ملأه بالأكاذيب والأباطيل عن الدولة المهدوية) ورسائله الشخصية والرسمية.

هـ- أوراق. هـ. أ. ما كمايكل (RB): نعني بها الأوراق التي تخص رجل المخابرات الثنائي البريطاني هارولد ما كمايكل و الذي أصبح السكرتير الإداري في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي. وهو الذي أصدر قانون المناطق المقفولة في السودان، الذي تسبب في تفجير قضية الفصل بين الجنوب والشمال لفترة من الزمن وفق إستراتيجية بريطانية بعيدة النظر. كانت من أهم ثمارها وآثارها مشكلة الجنوب الحالية بكل أبعادها وإفرازاتها وثمارها المرة. وهو أحد رواد دراسة تاريخ العرب في السودان بمنظور خاص، والذي يعتبره البعض نتيجة غفلة وغباء مصدراً هاماً. وأوراقه تشمل يومياته ومذكراته ورسائله بنوعيهما الشخصي والرسمي.

و- وثائق مجلس الوزراء (DC): هي عبارة عن الرسائل الرسمية التي تشمل برقيات ومراسيم ومكاتبات مجلس الوزراء المصري وقراراته وتوصياته. وهي في ملفات منظمة حسب ترتيب تاريخي دقيق.

ز- المصادر الأولية: كتب:

1- عربية: نعني بها ما كتبه الرحالة العرب في القرن السابع الهجري وما بعده عن دار فور. وتشمل كذلك جل ما كتبه عرب معاصرون مثل كتاب محمد عمر التونسي: شحيد الأذهان بسيرة بلاد السودان، وما كتبه رجل الاستخبارات اللبناني نعوم بك شقير وما كتبه زميله المصري إبراهيم فوزي اللذان كانا يعملان في جهاز المخابرات المصري الإنجليزي. الأمر الذي يقتضي قدراً من الحذر والدقة في التحليل لدي التناول لما أوردته هذه المجموعة من الكتاب من معلومات تاريخية معاصرة. وذلك لتوفر الغرض الذي ينافي الحيدة التاريخية والتحليل الموضوعي. وإن كان للأسف قد انخدع الرعيل الأول من المؤرخين السودانيين بكتابات هذه المجموعة، فريق منهم فعل ذلك غن قصد والبعض الآخر عن غفلة وبعض عن عمالة لأنه رضع من ندي هؤلاء وأولئك الخبثاء، أو نتيجة ميل فكري مريضة من بقايا وبغايا اليسار التي أصبحت بعد سقوط الاتحاد السوفياتي

من أخطر عملاء الولايات المتحدة والغرب في السودان وفي العالم من غيرهم مما أسقط عن سواء آتاهم القبيحة ورقة التوت .

2- أجنبية: وهي عبارة عن كتب كتبها إداريون وباحثون أوروبيون ورجالات استخبارات. تناولت تاريخ دارفور في فترة معاصرة وسابقة من هؤلاء ما كمايكل وسلاطين وتشرشل وونجت وكتشنر.

ط- الدراسات الحديثة: رواد البحث عن دارفور: يمكن القول أن الدراسة الحديثة عن دارفور قد استهلها نفر من الباحثين المؤرخين، في النصف الأول من القرن الماضي في عدة بحوث قاموا بنشرها في مجلة السودان في رسائل ومدونات. نخص بالذكر منهم أ. ج. آركل الذي اعتمد في دراسته الآثار أكثر من الرواية وجل كتاباته عن تاريخ دار فور القديم. وهي كتابات لا تخلو من سم أوروبي وغرض سياسي وبعد ديني علي وجه العموم :

و ج. د. "لامبين" و"بوستد" (وصموئيل عطية) الذين اعتمدوا الرواية في كتاباتهم عن فترة السلطان علي دينار وما قبله بقليل ويعتبر هؤلاء رواداً في هذا المجال. بيد أن أبحاثهم لا تخلو من غرض، وبالتالي فإن المؤرخ النابه ينبغي أن يكون حذراً لادي مطالعته لكتابات هذا الرعيل من المؤرخين الفرنجة ومن لف لفهم وسار علي نهجهم.

المؤرخون المحدثون: منذ مطلع الستينات ظهرت دراسات حديثة عن تاريخ دارفور اعتمدت الوثائق والمادة الأرشيفية علي وجه العموم مصدراً أولياً لها. وقد جاءت في شكل بحوث علمية ذات منهج ودراسة واضحة مثل أطروحة الدكتورة للإنجليزي:

أ- أ. ب. ثيسوبولد : كتب رسالة دكتوراة قدمها لجامعة لندن تحت عنوان علي دينار آخر سلاطين دارفور (1898-1916م). "ALI DINAR THE LAST SULTAN OF DARFUR 1898-1916"

أورد فيه سيرة ذاتية للسلطان علي دينار. هذا بعد مسح جغرافي وسكاني لدار فور. وتعرض في هذا البحث للعلاقات الفوراوية الثنائية والمشاكل التي أثرت علي طبيعة هذه العلاقة. لاسيما مشاكل قبائل الحدود مع الحكومة الثنائية، وجبهة الحدود الفوراوية الوداوية أثناء الاحتلال الفرنسي. وقد استفدت من دراسته كثيراً في الباب الأول والثالث والخامس من هذا الكتاب الذي بين أيدينا. وإن كان لديه تعميمات وأحكام لا تمت بصلة للحيدة العلمية حيث يصف بعض القبائل علي وجه العموم بالغباء ولا يخفي أن التعميم بهذه الكيفية يناقي المنهج العلمي.

ب- موسى المبارك: وكتابه: تاريخ دارفور السياسي (1882-1898م). اعتمد فيه مؤلفه علي وثائق المهدية والمخابرات وغيرها. وركز فيه علي تاريخ دارفور في الحقبة المهدوية. وكتابه عبارة عن رسالة ماجستير قدمها لجامعة الخرطوم - كلية الآداب عام 1964م. وقد استفدت منه أيضاً بحسابه دارساً لوثائق شبيهة وبعضها مطابق لما اعتمد عليه المؤلف. ويلاحظ أن موسى وثيوبولد كتباً بحثيهما في فترة متزامنة، لذا لم يستفيدا من بعضهما البعض الآخر.

ج- يونان لبيب رزق: وكتابه: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (1898-1924م). وقد اعتمد أيضاً وثائق المخابرات والتقارير ووثائق المهدية إلى غير ذلك من المادة الأرشيفية التي اعتمدها سابقاه.. بيد أنه أخذ منحى يختلف عنهما إذ يدور بحثه حول الإدارة الثنائية بدءاً بالحملة المصرية الإنجليزية (1897م) وانتهاء بثورة 1924م. وقد أفرد في بحثه الفصل السابع لعلاقة علي دينار بالحكم الثنائي البريطاني. وقد استفدت منه في تأليف هذا الكتاب. وكتابه عبارة عن رسالة دكتوراة قدمها لجامعة القاهرة فرع الخرطوم 1976م. وقد تمت طباعته كسابقه.

ي- كتابات عامة : أجنبية : اعني بها الكتابات التي تتناول تاريخ السودان عموماً وهي كثيرة استفاد الباحث مما له صلة بفترة دراسته علي الصعيد الثنائي أو الفوراوي.

4- رحلات علمية:

في سبيل الحصول علي ما سبق ذكره من مادة ومعلومات قام المؤلف برحلات علمية أولاها: إلي القاهرة للإطلاع علي الوثائق ذات الصلة بموضوع الكتاب في دار الوثائق القومية بالقلعة. وكلية الآداب بجامعة عين شمس. وقد تم العثور علي وثائق لا بأس بها قد تضمنها البحث.

ثانيها: قام الكاتب برحلة علمية إلي بريطانيا زار فيها المتحف البريطاني ومكتبة جامعة لندن، قام خلالها بجمع ما توفر من معلومات. وبعدها قام بزيارة لجامعة (درم) شمال بريطانيا للإطلاع علي قدر هائل من الوثائق ذات الصلة الوثيقة بتاريخ السودان عموماً وتاريخ دارفور علي وجه الخصوص. وهي مودعة بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية (بدرم).

د. سيد أحمد علي العقيد
عميد مكتبات جامعة النيلين
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
الخرطوم - 2005م

الباب الأول

تاريخ دارفور السياسي

إلى عام 1898م

الفصل الأول: جغرافية دارفور

أ- التضاريس والمناخ

ب- التكوين السكاني والنشاط الزراعي والعمراني

الفصل الثاني: السلطنة والنظام السياسي

الفصل الثالث: علي دينار وحلم استعادة

السلطنة ودوره في الحركة الوطنية

الفصل الأول

جغرافية دارفور

تمهيد :

جغرافية دارفور :

أ - التضاريس والمناخ :

منطقة دارفور تعني بلاد الفور. والفور هو اسم القبيلة التي تقيم في هذا الإقليم⁽¹⁾، وحدها من جهة الشرق أقصى الطويشة. ومن الغرب آخر دار المساليت (وأول دار تاما وهو الخراب الكائن بينها وبين دار فرتيت ومن الشمال المزروب وهو أول بئر يتعرض لمن يتوجه إليها من الديار المصرية)⁽²⁾. وتحد دارفور بخطي العرض 16 - 10 من الشمال إلى الجنوب، وهي مساحة كبيرة بكل المقاييس، كما تحد بخطي الطول 27.30 - 22 غربا. وتشكل دارفور الحدود الدولية للسودان المعاصر الحالي مع كل من ليبيا وجمهورية تشاد وأفريقيا الوسطى. وشمالاً تجاور الولاية الشمالية حالياً، وشرقاً تحدها ولايتي كردفان. وجنوباً ولايتي بحر الغزال. وتمثل دار فور 20% من مساحة السودان الحالية⁽³⁾. وهذا مما يعطيها بعداً جغرافياً سياسياً جديداً، ولهذا السبب ولغيره تبدو أهميتها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية. ومن خلال إشارة التونسي يلحظ المرء الفرق الواضح بين دار فور الحالية والسابقة. وفي عهد

⁽¹⁾ Rex. Sean Ofahey- > the Growth and Development of the Kiera Sultanate (without date) Typescript, pp. 15, 16.

⁽²⁾ محمد بن عمر بن سليمان التونسي: تضييق الأذهان بمسيرة بلاد العرب والسودان - تحقيق خليل محمود عساكر، مصطفى محمد مسعد مصر/ القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965م ص 1360 .

⁽³⁾ A.B. Theobald: Ali Dinar the Last Sultan of Darfur (1898-1916) First ed. Bristol Western Printing Service Ltd. (1965) p. 1.

الإنقاذ أيضاً، ولذا تسهلاً علي الباحث تم التعريف لحدود دارفور بالولايات الحالية وفق التقسيم الإنقاذي الراهن. ولا ندري ما تغيبه أهواء الساسة غداً.

تنقسم دارفور من الناحية الجغرافية إلى ثلاث مناطق ذات خصائص طبيعية متميزة:

أ- شمال دارفور:

هو عبارة عن منطقة شبه صحراوية تحد بالصخرات الكبرى شمالاً وتقع بين خطي العرض 14:30 - 16 شمالاً وأمطارها اقل من 10. وهذه المنطقة تتعذر فيها الزراعة المتوسطة ولكن بها حشائش وشجيرات تصلح للرعي. ويرفدها كل من وادي أزوم وباري بالمياه في فصل الجفاف. وتسمى هذه المنطقة بالجيزو.⁽⁴⁾ وبها جبل المديوب وعدد من الجبال البركانية والسهول.

ب- وسط دارفور:

هو الإقليم الذي ينحصر بين خطي العرض 14:20 - 12 شمالاً ومتوسط الأمطار في هذا الإقليم 30 في السنة وتكثر به الشجيرات والأعشاب ويتوسط هذا الجزء جبل مرة الذي يعتبر أحد جنان السودان الفاتنة ومناطقه الساحرة لسو صدقت العزائم وخلصت النوايا من أدران السياسة النتنة والتفت إليها المتسيسون ومنافقوهم بجد وعزم لأضحت تلك المنطقة منتجاً سياحياً جاذباً، ولوفر ذلك للبلد عملات صعبة تساعد في عملية البناء الاجتماعي والعمراني. وتمتاز هذه المنطقة دون بقية دارفور بالارتفاع ووفرة المياه والحدائق الغناء والخضرة البهيجة. وفي الصيف يعتمد الأهالي علي أشجار التبليدي والحفائر والبطيخ. ولعل وجود وديان غنية بالمياه غرب جبل مرة شجعت علي إقامة قرى مستقرة علي ضفاف كل من وادي أزوم وباري. وفي هذه المناطق يمكن حصول المياه علي عمق ثلاثة أقدام في حالة جفاف هذه الأودية⁽⁵⁾. مما يؤكد علي أن هذه المنطقة ذات مستقبل واعد إذا خلصت النوايا وشمر القوم في دارفور

(4) ibid

(5) موسي المبارك مصدر سبق ذكره، ص 17، أنظر أيضاً:

A.B. Theobald: op. cit. pp.

G.D. Lampen: History of Darfur, S.N.R. Vol 31 (1950) p. 177.

عن سواعد الجد والاجتهاد بدلاً عن المشاكسات السياسية التي لا تعمل علي تقدم البلاد والعباد. ولو حدث ذلك لجنبت البلاد شر التدخل الأجنبي ومكايدات تجار السياسة في الداخل والخارج. والسياسة المتورطون في هذه الأحداث سواء أشعروا أم لم يشعروا فهم أدوات ليس إلا، أما لقوي أجنبية أو لصالح تصفية حسابات داخلية لا تصب في مصلحة السودان الوطن الأم أو دارفور علي وجه الخصوص . وأن ما يشعلوها الآن من حرب ستقضي علي الأخضر واليابس وإن آثارها المدمرة ستتجاوز دارفور إلي كل مناطق السودان دون تمييز، وقد أدت هذه السلوكيات الغبية بسرعة جنونية إلي تدويل القضية دون مبرر اللهم إلا تحقيق مأرب رخيصة مقارنة بما تخسره البلاد من مدر وبشر ووقت وجهد ومال كان الأحرى أن يصرف في التنمية وفي مجالات رفع كفاءة المواطن الدارفوري.

ج - القطاع الجنوبي:

يحد هذا القطاع بخطي العرض 12 - 10 شمالاً وبالقوز وجبل مرة. وجنوباً يحد ببحر العرب ومناطق ذبابة التسي تسي، أمطاره منا بين 25 - 35. وهو موطن أصحاب المواشي والأبقار وأهم الأودية هنا وادي بلبل، إذ يذهب الرعاة إلى ضفافه صيفاً للزراعة.⁽⁶⁾

وقد تمتعت دارفور بحدود طبيعية فريدة شمالاً وشرقاً وجنوباً. أما من ناحية الغرب فلا يوجد اختلاف مناخي أو نباتي أو تضاريسي. لذا نجد إن الحدود قد قررتها الأحداث السياسية أكثر منها العوامل الطبيعية⁽⁷⁾. وبالتالي كانت ولا تزال هذه الحدود سبباً في كثير من المنازعات الإقليمية والمحلية علي حد سواء.

ورغم أن هذه الجواجز الطبيعية فقد أصبحت دارفور في بداية القرن التاسع الميلادي بمثابة شبكة تخرج منها عدة طرق تجارية أطلت من خلالها دار فور علي

⁽⁶⁾ موسى المبارك مصدر سبق ذكره ص 20 انظر أيضاً:

G.D. Lampen: (op. cit. pp). 177-8; Theobald: op. cit. p.2.

⁽⁷⁾ موسى المبارك ص 20 .

See also. Lampen: Op. cit. pp. 177-8; Theobald: op. cit. p2.

الخارج. ووفدت إليها عن طريقها الآثار الفكرية والحضارية إلى دارفور أولاً ومن ثم إلى السودان. فعن طريق الأربعين الذين يمتد من كوبي⁽⁸⁾ إلى أسويوط في جنوب مصر، استوردت دارفور الأقمشة والملابس والأسلحة والقهوة من خارج الحدود، وصدرت السن وقرن وحيد القرن والصمغ والريش⁽⁹⁾. وعن طريق طرابلس - بنغازي - الكفرة - دارفور كان التبادل التجاري والثقافي مع ليبيا في الشمال أيضاً.⁽¹⁰⁾ أما الطريق الثالث الذي يتجه من دار فور إلى وادي بورتو، فقد ظل يشكل الحزام السوداني غرباً وشرقاً إذ يتجه شرقاً إلى كردفان ومن ثم إلى البحر الأحمر ثم الجزيرة العربية، وكان هذا الطريق يمثل معبراً تجارياً وثقافياً وفكرياً هاماً وخطيراً في ذات الوقت بين دارفور والحجاز. فعن طريقه وفد المذهب المالكي والأشراف الحجازيون والآثر الحجازي إلى دارفور، ومن جانبها رفدت دارفور الحجاز اقتصادياً مدة خمسة قرون من الزمان.⁽¹¹⁾ ومن ثم انتقلت هذه الآثار الحضارية إلى السودان عموماً مما يفسر مدي الأثر الثقافي والاجتماعي والروابط الروحية العميقة بين دارفور وبلاد الحرمين منذ أزمان بعيدة موعلة في القدم، والتي سبق وان أكدنا عليها في كتابنا العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ الذي نشرته. الدار العربية بالقاهرة 2005م وفي البحث الذي نشر ضمن إصدارات الندوة العلمية الكبرى لمكة عاصمة الثقافة الإسلامية.

وبالإضافة إلى ذلك هناك عدة طرق أخرى تمتد من دارفور إلى صوماليا وإثيوبيا فحوض النيل الأوسط. وبعض منها يتجه نحو هضبة البحيرات ثم شمالاً عبر بحر الغزال إلى دارفور. ونتج عن ذلك المنفذ تواصل ثقافي وعرقي عميق الجذور بين دار فور وجنوب السودان الذي حاولت فيما مضى وتحاول القوي الأجنبية أن تمزق أوصاله الآن. ولقد تجلّى هذا التواصل العرقي في أبهى صورته في أم السلطان الفور اوي محمد الفضل ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد (أم بوسة) البيقوية الجنوبية

(8) عاصمة الفور التجارية القديمة.

(9) G.D. Lampen op. cit. 177-8; Theobald'op. cit. pp. 1-2; R.S.O Fahey: op. cit pp. 219 .

(10) G.D. Lampen op. cit. 177-8; Theobald op. cit. pp. 1-2; R.S.O Fahey: op. cit pp. 219 .

(11) R. S. O Fahey: op. cit. pp. 219. ..

التي تعتبر الجدة الرابعة لعبد الرحمن المهدي. وهناك طرق أخرى تربط بين الكونغو ودار فور. وعلي هذا النحو من تجمعات الطرق التجارية ونجاح المسلمين في ممارسة التجارة تكونت لهم رباطات ذات دور هام في المراكز المتعددة في هذه المناطق، الأمر الذي أدى بمرور الوقت إلى إسلام هذه البلاد في فترة مبكرة بسلام وهدوء⁽¹²⁾. ودون حساسية عرقية أو احتكاك أو صراع ديني، الأمر الذي اقتضي وجسوداً مبكراً للعنصر العربي والإسلامي بدارفور. والذي يمكن أن يدحض كل المحاولات الخارجية الحالية في دار فور لفصم عراها وإجبارها علي نزع جلدتها وإغراقها في مستنقع العرقية الآسنة الكريهة.

ونتيجة لاتساع دارفور وتنوع مناخها فقد لعبت دور الوسيط التجاري لعدة قرون وحتى نهاية القرن التاسع عشر بين دول المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط⁽¹³⁾. مما يعني أنها كانت منطقة محورية اقتصادياً وسياسياً وإجتماعياً وأضحت منطقة مفصلية في ذات الوقت. وهي ستظل كذلك رغماً عن سحابة الصيف الحالية وإفرازات السياسة النتنة الراهنة.

ومن حيث التضاريس يلاحظ أن الفاشر وكنم تفوقان أركويت إرتفاعاً. وتصلحان لأن تشكلا منطقة سياحية أخرى جاذبة في دارفور لو أحسن القائمون التدبير، وأحسن الساسة التفكير. لا سيما إذا ما توفرت دراسة جدوي وعبدت الطرق، وتمت إدارة اللعبة السياسية وفق معايير أخلاقية بعيداً عن المزايدات وحب الذات. أما من حيث الأمطار فتلثا دارفور لا يستطيع الاستفادة منهما في الزراعة لندرة الأمطار فيهما. أما الثلث الباقي من دارفور تبلغ أمطاره 800 ملم⁽¹⁴⁾. وهناك العديد من الأودية التي لعبت دوراً في الإستقرار وتيسير سبل العيش في زمان الجفاف⁽¹⁵⁾. وبهذا فقد تضافرت عوامل جغرافية عديدة مكنت دارفور من أداء دورها التاريخي الحافل منها:

(12) لشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط/ مصر/ القاهرة/ الهيئة المصرية للكتاب القاهرة 1972م. ص 382 - 383.

(13) صلاح الدين محمد كركوس، مصدر سبق ذكره، ص 9.

(14) مذكرة أبو سن عن دارفور، مصدر سبق ذكره، ص 14 - 15 D.S.A. Box 79.

(15) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 18.

أولاً: توفر المياه:

فقد أدى وجود كتلة جبل مرة إلى وفرة الأمطار بكثافة في بعض المناطق التي شكلت محور الحركة والسكون والصراع. وقامت الأودية بحمل مياه الأمطار غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، ومن جانب آخر فقد أدى توفر الماء الباطني قريباً من سطح الأرض إلى استقرار مجتمع الفور الزراعي.

ثانياً: التنوع في الإنتاج:

فهناك محاصيل مطرية مثل الدخن والذرة الرفيعة والسمسم والشطة والبامية والقطن. وهناك محاصيل تزرع في فصل الجفاف بالإضافة إلى الإنتاج الحيواني الرعوي الأمر الذي يضمن نشاط الأسواق وحيويتها طوال العام دون انقطاع.

ثالثاً: حصانة موقعها الطبيعي:

إذ تحميها تلال الفور الشرقية من الغزو. ومن الشمال تحميها الصحراء الكبرى بيد أنها لم تحل دون اتصالها بجيرانها عن طريق الأربعين وسواه من الطرق العديدة التي تمت الإشارة إليها في ثنايا هذا الكتاب.

رابعاً: الموقع الجغرافي:

الممتاز لدارفور حيث تمتد من منطقة الغابات المدارية حتى حدود الصحراء الكبرى مما يقتضي ضرورة مرور تجارة أفريقيا المدارية بدار فور قبل أن تصل طرابلس أو القاهرة⁽¹⁶⁾. وهذه في حد ذاتها ميزة اقتصادية واجتماعية وثقافية هامة.

ب- التكوين السكاني والنشاط الزراعي والعمراني:

يشكل الفور أكبر مجموعة مستقرة في غرب دارفور. ويطلق اسم الفور علي سكان دارفور الأصليين تمييزاً لهم عن الوافدين عليها، هذا باستثناء أسرة الكيرا المالكة التي اختلطت ابتداءً بدماء عربية⁽¹⁷⁾. ولقد تعددت الآراء حول أصل الفور لانعدام

(16) صلاح الدين محمد كر دوس، مصدر سبق ذكره، ص 5 - 7.

(17) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 18 أنظر أيضاً:

المصادر الأولية المكتوبة عنهم أولديهم. وكل ما جاء حول أصلهم لا يعدو عن كونه رواية مشوبة بقدر كبير من الأسطورة. ولقد حاول أحد الدارسين للآثار أن يستخلص من أوجه الشبه والاختلاف بين الرواية والنذر اليسير من الأثر الذي عثر عليه أن الفور ذوو أصول زنجية وينتمون إلى فيرات وهو أخ لفر. وكانوا في يوم من الأيام ذوي السيادة على هذه المناطق. ويورد (آركل) تفسيراً آخر لكلمة فور بأنهم أبناء (فر) بينما ينتمي الفرثيت إلى (فيرات، وفر). وفر وفيرات أخوان، وتعني لفظة الفرثيت الوثني. والفور إسم يميز المسلمين عن غيرهم من الوثنيين وهي لفظة أو مصطلح تعني أتباع⁽¹⁸⁾.

والفور كما يذكر (ثيوبولد)⁽¹⁹⁾ فيما يبدو أنهم خليط من السلالات الحامية والزنجية ولكن الذي يبدو لي أنهم خليط من ثلاث سلالات هي الحامية والزنجية والسامية. وهم يعيشون على امتداد السلسلة المعروفة بسلسلة جبل مرة. ورغماً عن الغموض الذي اكتنف أصل الفور ولغتهم. وبالرغم من أن تاريخهم القديم لا يعدو عن كونه ضرباً من الأساطير، إلا أن رواياتهم قد اتفقت على تعاقب ثلاث عوائل على الحكم وهي: الداو والطنجور والكيرا الفور. ولهذه الروايات ما يعضدها من الآثار. حيث قام هـ.ج (بأول)⁽²⁰⁾ بأول دراسة موضوعية عميقة توصل فيها إلى خمسة نتائج متفق عليها. أولها: افتراض أن الداو سلالة سودانية تدين بالسيادة والسيطرة لجنس مهاجر دون تحديد لهوية ذلك الجنس. ثانيها: أن الداو كانوا يحكمون في النصف الجنوبي من المنطقة المقصودة بالدراسة. والطنجور قد تألق نجمهم في النصف الشمالي. والكيرا برز وجودهم في الجزء الأوسط من دارفور. ثالثها: أن الأسر الثلاث خلفت بعضها دون إراقة دماء، بمعنى آخر أنها قد تداولت السلطة سلمياً ودون إراقة دماء مما يعني أنها كانت تتمتع بوعي سياسي مقدر. رابعها: ثلاثتهم كان نظامهم أو توفراطياً أي

H.A. MacMicheal: A History of the Arabs in the Sudan, and some account of the People who preceded them and of the tribes inhabiting Darfur, 2Vols. Cambridge 1922. vol. 1 P.99.

(18) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 18. انظر أيضاً:

A.J. Arkell: The History of Darfur. A.D. 1200-1700 S.N.R. vol. 33 (1952) P.152-4,182.

(19) A. B. Theobald, op. cit. PP.5.

(20) D.S.A .box 110/6 ,H.A : MacMicheal: notes on Darfur tribes. Khartoum. 191.5.(Typescript). P. 58-59.

فردياً استبدادياً. خامساً: بالرغم من أن الدين الإسلامي قد أصبح دين القصر خلال حكم الطنجور إلا أنه لم ينل قدراً من الانتشار الواسع والهيمنة التامة، ربما يعود ذلك لغياب المؤسسات الدعوية والتربوية الفاعلة. ولما تقرر أن الداجو والطنجور والكنجارا من أوائل الأجناس التي استوطنت هذا الإقليم وبسطت سلطانها السياسي عليه اقتضى ذلك تناولهم تفصيلاً بالدراسة.

1- الداجو:

لفظة الداجو من الكلمات التي أصابها التحريف كثيراً في كتابات المؤرخين والرحالة المسلمين وغيرهم ولم تخل كتابات الأوائل من الإشارة إلى بلاد الداجو باسم التاجو. ومما لا شك فيه ومما لا يختلف فيه اثنان أو يتناطح فيه قرنان فإن قلب الـتاء دالاً والدال تاء أمر مألوف في اللهجات العربية علي اتساع نطاقها وفي لغة العرب الأم علي وجه الخصوص. لا سيما في حالة اتحاد المخرج في تقدير الكاتب. أما عن موطنهم يحدد الإدريسي موطن التاجويين بقوله: (ومن مدينة مانان إلى مدينة تاجوه ثلاث عشرة مرحلة (والمرحلة هي عشرون ميلاً) وهي قاعدة بلاد التاجويين. وهم مجوس لا يعتقدون شيئاً وأرضهم متصلة بأرض النوبة. ومن بلادهم سمنة.. وهي الآن خراب. ومن مدينة تاجوه إليها ست مراحل ومن مدينة نوايه ثمان عشرة مرحلة⁽²¹⁾).

ويعرض ابن سعيد لموطنهم بقوله: "ومجالات التاجويين والزغاوين ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال وهم جنس واحد"⁽²²⁾. وينقل ابن سعيد عن ابن فاطمة قوله: (إن الملوك من الكانم وتاجوه إنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فانه يكثر من مجاورة النيل - يقصد نهر النيل الحالي - فيشتد أذاه علي الآدميين والخيول).⁽²³⁾

(21) عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي ت 560هـ: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزين، إيطاليا، نابولي، تحرير ونشر أ. كوريللي وآخرين معهد الدراسات الشرقية طبعة نابولي 1970 - 1971، ج1، ص 29 - 30.

(22) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي. لبنان/ بيروت/ المكتب التجاري/ الطبعة الأولى، 1970م، ص 94-95، 97.

(23) المرجع نفسه.

هذه الإشارات في مجملها لا تبعد كثيراً عن بعضها الآخر، إذ تفيد أن الداجو قد انتقلوا من بلاد النوبة، من منطقة شمال السودان، الأمر الذي يؤكد علي رباطهم العرقي بسكان شمال السودان. وبعبارة أدق فهم من شمال السودان الحالي بتاريخه وتكوينه الديموغرافي المعروف وخطاته العرقية المعروفة، حيث أن سمنه اسم معروف في بلاد النوبة في شمال السودان في منطقة المحس. والأسباب التي قادها ابن فاطمة تبدو معقولة من الناحية المنطقية. إذ أن الهجرات خلال هذه السديار لا تستبعد لتجاورها وقربها من بعضها. وأن سكانهم جوار النوبة أمر له مدلوله الأثني والعرقي وبعده التاريخي والحضاري. إذن يمكن أن نقول وباطمئنان شديد أن الداجو وافدون علي دارفور من شمال السودان الحالي وهم أبناء عمومة وخوولة الدناقلة والمحس والحفاويين الحاليين علي حسب ما أورد (ابن فاطمة) الذي نقل عنه (ابن سعيد). ويذكر ابن سعيد أن مملكة الكانم كانت قاعدتها مدينة جيمي. وكانت الكانم مملكة إسلامية اشتهر سلطانها (بالجهاد وأفعال الخير وهو محمدي من ولد سيف بن ذي يزن ... أسلم منهم جده الرابع علي يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم ولهذا السلطان هنالك ممالك مثل سلطنة تجوه ومملكة كوارو ومملكة فزان)⁽²⁴⁾. ولا شك أن النسبة إلي سيف بن ذي يزن ذات دلالة تاريخية تشير إلي أن وجوداً عربياً سابقاً للإسلام بهذه المناطق. وتقع الكانم وفقاً للوحدات السياسية القائمة الآن ضمن دولة تشاد الحالية، الأمر الذي يعطي العلاقة السودانية التشادية بعداً تاريخياً جديداً. إن هذه الإشارات مما لا شك فيه ذات دلالة موضوعية وتاريخية وحضارية وعرقية تحتاج إلي قدر من البحث والتحليل والعمق في التناول. ويمكن أن ندرك من خلال مفردات هذه الإشارات مدى الترابط بين دارفور وشمال السودان، وبين دارفور وجنوب ووسط الجزيرة العربية، وبين دارفور وغرب أفريقيا، أو السودان الغربي كما كان يسمى سابقاً.

هذه خلاصة ما أورده الأقدمون بالإضافة إلى إشارات وشذرات آخر وردت في صبح الأعشى⁽²⁵⁾ وتاريخ ابن خلدون⁽²⁶⁾ تفيد أسلمة هذه البلاد منذ فترة مبكرة من

(24) ابن سعيد المغربي مصدر سبق ذكره، ص 97.

(25) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - 14 جزء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1963م، ج 5، ص 280 - 281.

(26) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (808هـ) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - 7 أجزاء - دار الطباعة الخديوية ببولاق القاهرة، 1284هـ، ج 5، ص 433.

الزمان، لاسيما بلاد الكانم والتكرور التي دخلت الإسلام منذ فترة متقدمة. كما تؤكد علي أن المذهب المالكي قد غزا بلاد الكانم منذ فترة مبكرة. الأمر الذي يدل علي الصلة التاريخية والتبادل الثقافي والحضاري بين بلاد الكانم وغانة الوسيطة وبلاد التاجو منذ فترة طويلة. أما من حيث المادة الأثرية فإن المادة الموجودة عن الداجو تعتبر ضئيلة وهي تتمثل في المباني الحجرية في جبل نمره وأكوام قليلة من المقابر مبعثرة هنا وهناك. هذا بالإضافة إلي مدينة الحجر التي توجد في جبل سيمييات الذي يقع علي بعد عشرين ميلاً شرق الفاشر الحالية. وتدعى البقية الباقية من الداجو نسبة عربية، ويذكرون بأنهم قد قدموا من الشرق ولا يستبعد ذلك الادعاء إذا أخذنا في الاعتبار ما سبقت الإشارة إليه من أنهم قد هاجروا من شمال السودان كما ذكر ابن فاطمة ونقل عنه ابن سعيد. وسكان شمال السودان هم خلطة عربية حامية. وإن كانت تقاليد الداجو في الظاهر لا تمت إلى العرب بصلة إلا أنه لا مشاحة في هجرتهم وقدمهم من الشرق كما تقدم.⁽²⁷⁾ وفي تقدير الباحث لا تعتبر هذه حجة داحضة إذ لا تشكل دفعا قوياً في نفي نسبتهم العربية لأن مسألة التبنّي للغة وعادات وتقاليد المنطقة له شواهد في السودان. كما هو الحال بالنسبة للكنوز في الشمال والبيعة في شرق السودان. إذ ربما وفد الداجو بعاداتهم العربية ولكن بكثرة الاختلاط وطول المعاشرة تبنوا عادات أهل البلاد الأصليين. وعلي وجه العموم فهناك عدة نظريات تقول: إحداهما: بأن الداجو هم سكان دارفور الأصليين. وتذهب ثانية: إلى أنهم هاجروا من شمال أفريقيا. وتقرر ثالثة: إن هجرتهم كانت من النيل واستوطنوا بدار فور حيث أسسوا ملكهم⁽²⁸⁾. والخلاصة أنهم قبيلة زنجية حامية سامية. ولا يستبعد وجود دماء سامية أي عربية تجري في عروقهم، ويعيش جزء غير يسير منهم في نبالا. ويشغلون بالزراعة ويربون الأبقار. وجزء آخر منهم يعيش في دار سلا وفي الجنوب لدار مساليت⁽²⁹⁾. ولقد عمرت دولة الداجو ما بين القرن الرابع والسابع الميلادي⁽³⁰⁾.

⁽²⁷⁾ Gustav Nachtigal: Sahara and Sudan (Voyage 1824) trans, by A.G. &H. Fisher : 4. Vols. London (1971) Val 2. P.272-274 .

⁽²⁸⁾ موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 24.

⁽²⁹⁾ A.B. Theobald. op. cit. PP.7.

2- الطنجور:

تضاربت الآراء وتعددت حول أصل الطنجور وأن كانوا يدعون كسابقيهم نسبة عربية، وأنهم قدموا من تونس. ويذكر (ناكتيجال) حين مروره بكانم تواجد عدد كبير من الطنجور بتلك المنطقة، هذا بالإضافة الي أنه قد وجد هناك منطقة تسمى تونس. ومما لا شك فيه إن هذه الإشارة لها دلالتها التاريخية والمنطقية والتحليلية. وكما هو معلوم أن القبائل أثناء تجوالها لا تتسنى موطنها الأول وقد تسمى به مقامها الجديد⁽³¹⁾. ويبدو ذلك أكثر وضوحاً للمتأمل في المسميات التي عرفت مناطق عدة في العاصمة الخرطوم وضواحيها بعد الجفاف والتصحر في بدايات ثمانينات القرن الماضي والهجرات القادمة من غرب السودان في أواخر عهد المشير جعفر نميري الرئيس الأسبق، من أمثال سوق: (كرور) وسوق: (خمسة دقائق) وسوق: (أم دفسو)، وهي مسميات وافدة من غرب السودان مع من وفدوا. وكذلك أسماء الأشخاص في محاولة للارتباط بالأصل ولو عن طريق الأشواق الأمر الذي يدل على الصلة بينهم وبين الأصل. وهذا ما يمكن أن يقال عن الطنجور بان بينهم وبين تونس صلة. ويلاحظ أنهم يتمتعون بخلاف رصفائهم برقي عقلي وذكاء يتمثل في استلامهم السلطة من أسلافهم بغير مقاومة، وعدم ذوبانهم في الشخصية الجاهلية الوثنية⁽³²⁾ السابقة لهم. وهذا في حد ذاته سلوك حضاي راق محمود وإرث سوداني ينبغي إبرازه.

ونسبة الطنجور العربية في تقديري لا تستبعد لاسيما وقد أشار عدد من الباحثين⁽³³⁾ إلى الهجرات العربية المبكرة إلى هذه الديار - وقد سبقت الإشارة إلى ارتباط دارفور الوثيق بالعالم الخارجي بعدة طرق تجارية - ومن هؤلاء الباحثين (بودج) الذي يقول ما ترجمته: (منذ القرن الثامن (الميلادي) من عصرنا لقد استوطنت

⁽³⁰⁾ موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 26. أنظر أيضاً:

Gustav Nachtigal: op. cit. PP. 272-74.

⁽³¹⁾ الشاطر بصيلي عبد الجليل، ص 383 أنظر أيضاً:

H.A. MacMicheal : op. cit. vol.1. PP. 274 -5 (Notes) op . cit. PP.1.

⁽³²⁾ Gostav Nachtigal: op. cit. PP.274.

⁽³¹⁾ نفس المرجع السابق.

دارفور بعدد من القبائل، بعض منها عربي الأصول والبعض الآخر غير معروف الجذور، إلا أنهم علي أبة حال لم يكونوا زنجياً⁽³⁴⁾ ويقرر (ناكتيجال) ما نصه: (لا أحد يستطيع أن يجزم متى جاء الطنجور إلى تلك المنطقة ولكن الذي لا يمكن الجدل حوله هو أنهم ادخلوا اللغة والعادات العربية في المنطقة)⁽³⁵⁾. لعل هذه الإشارة أكثر إعراباً عن الحقيقة في هذا الموضوع، إضافة إلى إشارة ابن فاطمة وابن سعيد السابقتين إذ كلها تلقي الضوء وتزيح الستار وتزيل الغموض الذي اكتنف أصول الطنجور، فتجعل الباحث المدقق يطمئن إلى درجة كبيرة إلى عروبة أصلهم. لا سيما وأن الطنجور لا زالوا يوجدون في مجموعة ضئيلة وهم لا يتكلمون أي لغة أو لهجة أخرى غير اللغة العربية⁽³⁶⁾. في تقدير الباحث أن هذه المفردات التاريخية الهامة يمكن أن تجتث أي دعوة عنصرية غايتها محاولة خلق فجوة عرقية في دارفور بين العرب والزنج حيث يرجع الوجود العربي في دارفور بجذوره إلى أكثر من اثني عشر قرناً من الزمان.

وعموماً تكثر الآثار الطنجورية في دارفور. أهمها التي توجد في الشمال الشرقي من جبل مرة في كوستي ومدينة الحوائط الحجرية في أورى في أقصى الشمال. وهناك عدد من المباني في عين فارح أو عين فرح⁽³⁷⁾. وعلي هذا التقرير يمكن القول بان الوجود العربي بدارفور سابق بكثير جداً لقيام السلطنة الفوراوية في القرن الخامس عشر الميلادي. مما يعطي الوجود العربي في دارفور بعداً وفهماً ونظراً جديداً، ينبغي أن تكون له نتائج ذات اثر فاعل فيما يدور الآن من أحداث في هذه المنطقة الحيوية والهامة في ذات الوقت بعيداً عن المزايدات السياسية الفارغة والتدخلات الأجنبية الفاجرة.

⁽³⁴⁾ E.A. Budge: Egyptian Sudan Its History & Monument. - First ED. Boston: Public Library New York (1976) Vol. 2. P. 23.

⁽³⁵⁾ ibid.

⁽³⁶⁾ Gostav Nachtigal: op. cit. PP.274-5. See also A.B. Theobald op. cit. pp.9.

⁽³⁷⁾ A.J. Arkell: Op. cit. PP. 274-272. See also A.B. Theobald. Op. PP. 15-18.

3- الكنجارا:

تنقسم الكنجارا إلى خمسة أقسام :

أولاً: الكيرا : وخرج من هؤلاء الملوك والسلاطين، ويرجح أن جد الكيرا هو أحمد المعقور الهلالي الذي تزوج إحدى بنات الداجو وكان من أحفاده دالي مؤسس عائلة الكيرا. وتنتشر الكيرا في كل من دارفور وكردفان علي حد سواء. ويرجع تاريخ هذه العائلة إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وشكلت حضوراً سياسياً واجتماعياً ودينياً وعرقياً وإقليمياً ومحلياً لمدة خمسة قرون من الزمان فكانت السلطنة التي وطدوا أركانها بؤرة وبوتقة أنصهار عرقي منقطع النظير بين عرب وزنوج وحاميين وملتقي حضارات وثقافات وأعراق.

ثانياً: مورقينقا (Morginga)، وهؤلاء يقطنون ما بين جنوب وجنوب غرب جبل مرة. وهم أولياء ورثة المنطقة. وقد تفرعوا إلى عدة فروع اختلط جزء منهم بالتعايشة والآخر بالمسبغات ولهم اعتقادات في الأشجار والخرافات.

ثالثاً: أمنقا (Amunga)، أو أهالي دار أبو أمه حامل لقب ولي العهد. وهذا الفرع يتفرع بدوره إلى ثلاثة فروع ويقطنون غرب جنوب غرب الفاشر.

رابعاً: الموقانقا (Muganga) ويقطنون في داري كيرنو ودار فيا.

خامساً: كونيانقا ويقطنون دار التكنياوي التي تمتد من شمال الفاشر إلى منطقة جبل مرة والتي يقطنها حالياً الزغاوة والبرقو والبرتي والعرب وهؤلاء يقومون بدور الوزراء للسلطان⁽³⁸⁾ في تاريخ دارفور، ولعل هذا التجاور التاريخي والجغرافي ينفي خبث الإثنية الجديدة التي أرادت أن تمزق أوصال أبناء العمومة وتذهب بريح وحدة البلاد عموماً ودارفور خصوصاً إلى الفشل والتناحر بدلاً عن التواصل والإخاء والمودة.

⁽³⁸⁾ D.S.A. Box 110/6. H.A. Macmicheal (Notes on History) op. cit. PP. 67-72.

ويقرر (ماكمايكل)⁽³⁹⁾ عروبة الكيرا وكذا ثيوبولد⁽⁴⁰⁾. والكيرا يفتخرون بنسبتهم العربية. ويتجاهلون في الوقت ذاته أية صلة لهم بالعناصر الأخرى الزنجية⁽⁴¹⁾. ومما تجدر الإشارة إليه أن كل الفور مسلمون. وتتفرد كل قرية فورلوية في دارفور بمسجدها وأمامها وشيخها الذي يقوم بتدريس القرآن. وإن كان ذلك لا يعني إختفاء العادات الوثنية الموروثة قبل الإسلام في مجال إنزال الأمطار وتقليد السلاطين وبعض الأحكام.

هذه الإشارة تأتي أهميتها فيما يدور الآن من أحداث في دارفور حيث أن تمزيق دارفور يرمى إلى ضرب السودان التاريخ والثقافة والعروبة والقيم والإسلام في أهم مفاصله التاريخية والحضارية والثقافية والعرقية والاجتماعية.

ويربي الفور الأغنام والجمال، وتعتبر الجمال في دارفور مفخرة ومظهراً من مظاهر الغنى إضافة إلى ألبنائها. والجدير بالذكر أن المرأة لدى الفور كانت ولا زالت تتمتع بمكانة اجتماعية هامة من حيث نشاطها العام ومشاركتها للرجل. وتشكل المرأة الفورلوية مفردة هامة وخطيرة في المجتمع الدارفوري. إذ تلعب دوراً هاماً في الحرب والسلام علي حد سواء. وتتمتع المرأة في دارفور بملكية خاصة لقطعة من الأرض وإن كانت أصغر نسبياً من الرجل. كما تتمتع بحرية اجتماعية تفوق رصيفاتها في بقية أجزاء السودان. وللمرأة في دارفور دور اقتصادي بارز أكثر من الرجل. فهي التي تزرع وهي التي تحصد، والرجل لا يفعل شيئاً يذكر بالقياس إلي إزاء ما تقوم به المرأة. ولعل ذلك هو الذي حدا بالكثير من أبناء الشمال الذهاب إلي دارفور ومصاهرة قبائلها والإقامة بين ظهرانيهم. لان الرجل بالنسبة للمرأة في دارفور هو سلطان وملك كما ذكر لي بعض الشماليين الذين استقروا بدارفور لأكثر من خمسين عاماً، حيث أكد لي بان الرجل لا يفعل شيئاً علي الإطلاق ويلقي من الإحترام من قبل المرأة ما لا يلقاه سواء. فالمرأة هي التي تقوم بكل شيء في الداخل والخارج نيابة عن الرجل. ومعروف عن المرأة في دارفور بالإضافة إلي ما تقدم ذكره بحسن تبعليها لزوجها، وهذا ما أكدته

(39) المرجع نفسه.

(40) A.B. Theobald. op .cit. PP. 18-19.

(41) المرجع نفسه.

لى إحدى الميامر المسلاتية زوجة المرحوم أخ الدكتور حسن تاج الدين. ولذا نجد كل من ذهب من أبناء الشمال إلى دارفور لا يؤمل في رجوعه إلى أهله تارة أخرى. لعل هذا القدر من الحرية الذي تتمتع به المرأة في دارفور قد يحتاج إلى قدر من التأطير⁽⁴²⁾. بيد أن أمر الرجل في دارفور في تقديره ونتيجة عدة دراسات يحتاج إلى عملية قيصرية ليملاً مقعده الحضاري ويمارس دوره الاقتصادي بفعالية لأن دارفور كنوز مطمورة وأنهر مغمورة وإمكانات فوق الأرض وتحت الأرض وعلي الأرض ضائعة. الأمر الذي قد يقتضي هزة ثقافية هائلة لكي ما يتمكن الرجل الدارفوري من استثمار قدراته وإحتلال موقعه في البناء والتعمير والولاء لمنطقته وأهله وعشيرته. حيث نلاحظ أن كثيراً من المثقفين المنتمين لدارفور لا يولون المنطقة العناية اللازمة رغماً عن إحتلالهم لمناصب ووزارات متنفذة في ظل كل الحكومات التي تعاقبت علي السودان منذ الاستقلال إلى الآن. وإن كان البعض منهم قد تجاوز دارفور وارتبط بأجنيبيات فانقطع عن أصله وأصبح بعيداً عن عشيرته. هذا بالرغم مما تتميز به المرأة في دارفور من مزايا تفوق بنات (جون البيضاوات والشقراوات) تبعلاً وتواؤماً معيارياً وروحياً وثقافياً. وهؤلاء هم الذين أصبحوا يشكلون الطبقة الجديدة المعارضة في دارفور. رغماً عن بعدهم عن هموم إنسانها البسيط الذي يكدح من أجل لقمة العيش الكريم بعيداً عن نزلاء الفنادق وقرناء البيضاوات والشقراوات الأوروبيات.

يزرع الفور الذرة والفل السوداني، والشطة، والسسم والبطيخ والدخن والبصل، والياطين، والطماطم. كما يزرعون القمح مرتين في العام والبامية والبطاطس، ويزرع القطن علي نطاق واسع في دارفور. ولكل قرية في دارفور نسيجها ومحلجها⁽⁴³⁾. مما يعني أن دارفور قد طرحت شعار نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع عملاً لا قولاً منذ فترة سابقة علي ما طرح من شعارات جوفاء للاستهلاك السياسي في الفترات اللاحقة في لحظات الغيبوبة السياسية. ولعل ذلك في تقديره يشير إلى أن منطقة دارفور هي منطقة من مناطق الاكتفاء الذاتي في السودان، وأنها تعتبر من المناطق الواعدة إذا تم استثمار مخزونها التاريخي والثقافي والاقتصادي وتوظيفه بصورة موضوعية

⁽⁴²⁾ لمزيد من البحث والإطلاع يراجع كتابنا المرأة السودانية عبر العصور فصل المرأة في دارفور وعلي وجه الخصوص بحثنا عن دور المرأة السودانية في عصرى الفور والفونج الذي قدم لورشة كرسى لليونسكو بالسودان في 2004م.

⁽⁴³⁾ A.B. Thcobald. Op. CIT. PP. 5-6 .

واستراتيجية بعيداً عن تجاذب القوى الخارجية ومشاكسات أطفال الداخل الذين لا هم لهم إلا أنفسهم أولاً وثانياً وثالثاً.

ويبني الفور منازلهم على شكل مخروطي وتسقف بالقش. ولغة الفور هي خليط بين اللهجة السودانية العربية واللغة الحامية. فأضحيت لغة متميزة عن العربية من حيث القواعد وتركيب الجمل⁽⁴⁴⁾.

ويعتبر الزغاوة من أقدم القبائل التي شاركت الفور سكني هذه المنطقة. وقد شاركت في حياكة الماضي وحفر مجاريه وغزل نسيجه وفي تشكيل الحاضر بجانب الفور والقبائل الأخرى المجاورة لهم في السكني .

أ- المجموعات شبه العربية:

1- الزغاوة:

يعتبر الزغاوة من أكبر قبائل دارفور. وهم خليط من التيبو والحاميين الزنوج ولغتهم من لهجات التيبو. وحدد ابن سعيد موطنهم بقوله: (وفي شرقي مانان مجالات الزغاوين ومعظمهم مسلمون تحت طاعة الكانمي)،⁽⁴⁵⁾ وهم يتحدثون اللغة العربية. ويرعي الزغاوة الأغنام والضأن مع قليل من الإبل ومنطقتهم غير ملائمة لتربية الجمال. ومنهم عدد مقدر منتفذ الآن في السلطة سواء في المجلس الوطني المركزي أو القيادة السياسية أو العسكرية أو التعليمية في عهد الإنقاذ وفي المعارضة أيضاً. ولكن للأسف فيما يبدو أن أثرهم الإيجابي ظل ضعيفاً في مجال التأثير على مجريات الأحداث الجارية. ربما لانقطاعهم عن أصولهم أو لربما لم يكونوا من الأسر ذات النفوذ التاريخي فكان وجودهم الحالي سواء في الحكومة أو المعارضة تعويضاً عن إرث تاريخي لم يتمتعوا به من قبل. ويشكل الزغاوة الآن ثقلًا اقتصادياً مهولاً. قد ينذر بخطر عظيم يهدد أمن البلاد الإقتصادي والاجتماعي والسياسي لأن أيلولة أعنة الإقتصاد لفئة بعينها من دون الفئات الأخرى يهدد بثورة وخروج علي السلطة القائمة كما يغري هذه الفئة باستخدام كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة فسي سبيل

⁽⁴⁴⁾ ibid.

⁽⁴⁵⁾ أبو الحسن علي المغربي، ص 96، أنظر شهاب الدين أبو عبد الله يلقوت. معجم البلدان 10 أجزاء بيروت، دار مصادر (1955 - 195م) (1374هـ) ج8، مادة: كلوار (أشار إليها بقوله: ".... ولهم سلطان في عهد ملك الزغاوة").

الحفاظ علي وضعها المتميز علي حساب الآخرين . ولعل من أخطاء الإنقاذ القادحة أنها ركزت الثروة في أيدي قلة محدودة فازداد الأغنياء من فئات بعينها غني وازداد الفقراء عموماً فقراً علي فقر . ولقد منحت حكومة الإنقاذ الزغاوة فرصة نفوذ إقتصادي وسياسي لم يحلموا بها من قبل . فأصبح نفوذهم الإقتصادي يضارع وينافس أي وجود آخر في البلاد كلها . ولهم دور كبير فيما يدور الآن في دارفور من أحداث ويعتبرون أحد اللاعبين الخطيرين علي مستوى الحكومة والمعارضة علي حد سواء . وإن كان لا يتناسب ذلك مع حجمهم ونفوذهم لأن احتراق دارفور يعني احتراق الكل مركزهم وأقول نجمهم وهذا ما عنياه بضعف أثرهم الإيجابي .

2- البدايات:

يقيمون في أقصى الشمال الغربي لدار فور قرب جبل العوينات الذي يقع علي الحدود السودانية المصرية - الليبية . ومنطقتهم تجاور دار الزغاوة شمالاً . وجزء منهم يصل إلي كتم وككبكية أثناء تجوالهم . وهم لا يتكلمون العربية . ويعتبرون علي صلة قوية بالزغاوة من حيث سواد البشرة والاستقلالية . ويرجح بأنهم زنوج⁽⁴⁶⁾ .

3- البرتسي:

يقطنون شرق دارفور ولا تزال بقية منهم تعيش حول مليط . ويعتقد بأنهم خليط من الفور والعرب المتأثرين بالزغاوة⁽⁴⁷⁾ . ومنهم والي دارفور الحالي (كبر) والبروفسور عبد الرحمن حسب الله عميد كلية الآداب / جامعة أم درمان الإسلامية (السابق) ، ومنهم عدد متنفذ الآن في حكومة الإنقاذ . ولكن قد ظل أثرهم محدوداً في مجريات الأحداث الجارية الآن . ولعل الغالب منهم وقع أسير الدعاية الغربية دون وعي شان سابقهم . وهذا ما نكرره دوماً من أن قضية دارفور هي قضية سودانية أولاً وثانياً وثالثاً وأخراً . ولو أنزل الله البركة علي أبناء دارفور لتمكنوا من النهضة بها وحل مشاكلها لما لهم من امكانات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية ونفوذ

⁽⁴⁶⁾ D. S. A. Box 110 / 6. Macmicheal : (A history). OP. CIT. VOL.2. PP. 55-65. See also: A.B. Thcobald. OP. CIT. PP. 7-11.

⁽⁴⁷⁾ -S. N. A. Intel 128/5 H.A. Macmicheal: Notes on Darfur History (1916) typescript. P. 6-21.

وعضوية في الأحزاب الحاكمة والمعارضة في ظل كل الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال وحتى اللحظة التي خرج فيها هذا الكتاب إلى النور. شأن الزغاوة والفور والمساليت والبرتي وغيرهم.

4- الميما:

هم خليط من التيبو والزنوج العرب. ويشاركون بني فضل والمناصرة في منطقة ودعة. وقد وفد الميما إلى وداي من تمبكتو ثم إلى دارفور. الأمر الذي يؤكد علي التداخل العرقي بين السودان وجيرانه عبر الزمان وبين دارفور وجيرانها ولغة التيبو في وداي شبيهة بلغة الزغاوة والقرعان⁽⁴⁸⁾ وهاتان القبيلتان أيضاً لهما امتداد في تشاد. الأمر الذي يشير إلى انسيابية الحركة والاستيطان في هذا الحزام الإفريقي الخطير قبل قدوم الاحتلال المسمى زوراً وبهتاناً استعمار إلى هذه المنطقة وقيامه بترسيم الحدود داخل الغرف المغلقة في برلين (1884-1885م) وفقاً لأهوائه الاستغلالية الإحتلالية وتتافسه علي تسخير العباد والبلاد من أجل رفاهية الرجل الأبيض.

5- البيقو:

يرجح بأنهم قد نزحوا من بحر الغزال إلى دارفور منذ زمن بعيد وعوملوا معاملة العبيد في بداية الأمر في هذه المنطقة إلى أن حررهم السلطان محمد الفضل حيث كانت أمه أم بوسة منهم، ومنطقتهم تجاور البرقد والداجو⁽⁴⁹⁾. وقد تزوج أبوه عبد الرحمن الرشيد منهم حيث تزوج أم بوسة الجدة الرابعة لعبد الرحمن المهدي من جهة والدته مقبولة بنت السلطان نورين بن السلطان محمد الفضل. ولعل هذه النسبة التي تربط آل المهدي بجنوب السودان تعتبر في تقديري أقوى من الانتساب إلي الأشراف عن طريق فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعن أبيها من حيث المدة الزمنية وعدد الأجداد وكلا النسبتين هي نسبة إلي امرأة عن طريق أم الأب. وهذه الأخيرة نسبة لا

⁽⁴⁸⁾ S. N. A. Intel 128/5 H.A. Macmicheal: Notes on Darfur History (1916) typescript. P. 6-21.

⁽⁴⁹⁾ موسى المبارك، مصدر سبق ذكره 25 انظر أيضاً:

D.S.A. Box 110 /6 H.A. Macmicheal (Notes) OP. cit. PP.6-21. See also A.B. thecobald, OP. cit. PP.18.

شك فيها لقربها بينما الأولي مثار جدل لبعدها، إذ أن معظم الأشراف في أفريقيا وفي السودان على وجه الخصوص ينتسبون إلي الحسن العسكري ويشك في أنه قد خلف أبناء من ورائه الأمر الذي قد يشكك في صحة النسبة من أساسها. ويتطلب الأمر مزيداً من البحث والتدقيق.

ب- المجموعات النوبية:

1- البرقـد :

يذهب ما كمايكل⁽⁵⁰⁾ إلى أنهم من أصل نوبي للتشابه بين لهجتهم ولغة النوبة وهم زنوج يشبهون مواطني أفريقيا الوسطي من حيث البنية الجسمية والعادات. ويقطنون شمال وشرق نبالا ويشغلون بصناعة الحديد ومن مراكزهم برنجيل.

لعل ذلك يعكس عدم جدية وواقعية ادعاء جنس واحد مهما تمتع بنفوذ سياسي واقتصادي الآن بأنهم أهل دارفور الأصليين دون غيرهم. ولا شك في أن أي دعوى من هذا النوع هي قدر من الخطرفة ونوع من تزيف الحقيقة التاريخية وقدر من أقدار ذوي الأفق الضيق. ومستوي من العمالة المكشوفة.

2- الميسدوب :

هم قبيلة شبه رعوية ويربون الماعز والضأن وبعض الأبقار والجمال وتقع منطقتهم شمال شرق دارفور. ويعتقد بأنهم أصلاً قد جاءوا من دنقلا لتشابه لغتهم مع لغة المحس⁽⁵¹⁾. وهذه مفردة أخرى تنفي بصورة قاطعة بأن أهل دارفور هم صنف خالص من الزنوج ولا شيء غير ذلك. فدارفور هي بؤرة وبوتقة انصهار عرقي سوداني خالص تمازجت فيها كل الأعراق السودانية دون تمييز. وتغلغلت الدماء العربية في كل شبر من دارفور وفي كل مليمتر من إنسان دارفور. كما دخل الدم الزنجي في كل مليمتر من إنسان السودان دون تفرقة. فالعرب من المعروف تاريخياً

⁽⁵⁰⁾ موسى المبارك مصدر سبق ذكره، ص 16، 25 أنظر أيضاً

H.A. MACMICHEAL (A history Of The Arabs) OP. cit. Vol.1 PP. 55-60.

⁽⁵¹⁾ نفسه . ibid

أنهم جاءوا السودان دون نساء وتزوجوا من الزنوجيات فأنجبين شعب السودان في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب لا سيما وان الدينكا يدعون نسبة جعالية. ولم يرتبط دخول العرب إلى السودان بدخول الإسلام، وإنما كان دخولهم سابقاً جداً للإسلام. بل إن الدم العربي نفسه في جزيرة العرب لم يسلم من مخالطة الدم الزنجي وبدرجات متفاوتة وان الوجود الزنجي في مكة والمدينة كان كثيفاً وفي بلاد النهرين أيضاً. وبالتالي تسقط كل دعاوى الجنس الخالص (the pure race). لا علي مستوي السودان فحسب وإنما علي مستوي العالم كله إلا ماندر وندر جداً.

ولعل هذه الحقائق التاريخية تأتي أهميتها من أنها تشكل مفردات يمكن أن تكشف كثيراً من الحقائق وتصلح باعتبارها موجهات لإدارة الحوار بين الأطراف المتنازعة الآن في إقليم دارفور الذي شكل في الماضي بوتقة انصهار جاذبة لعناصر حاميه وسامية وزنجية. وتمكنت هذه العناصر بفضل هذا التمازج التلقائي والتكامل الثقافي خلال أطوار تاريخية متطاولة أن تحدث قدراً حضارياً وثقافياً متماسكاً. ولكن تحاول الآن بعض الجهات الأجنبية تفتيته وتجزئته وزرع روح الكراهية بين فسيفسائه المعقدة المركبة.

ج- المجموعة العربية :

1- الرزيقات :

يقطنون في الركن الجنوبي الشرقي من دارفور ومن فروعهم الماهرية والمحاميد والنوايبية ولكل من هذه الفروع بطون وأفخاذ. ويشتغلون بالرعي وأرضهم كثيفة الشجيرات وهم من أغنى قبائل البقارة (52).

2- التعايشة :

ينقسمون إلى قلادة وعريج ويقطنون جنوب غرب دارفور. ولهم فروع عديدة كأولاد سرحان وأولاد أبو رحيمة والجوارحة وأولاد عباس (53). وهؤلاء منهم الخليفة

(52) D.A.A. 110 /6. H.A. Macmicheal (Notes) op. cit. PP. 6-21.

See also A.B. Theobald. OP. CIT. PP. 11.18.

عبد الله التعايشي الذي خلف المهدي في السودان مدة أربع عشرة سنة من الزمان في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي. وهو الذي يرجع إليه الفضل في تثبيت أركان الدولة المهدوية، وإن أصبح فيما بعد عاملاً من عوامل هدمها نتيجة سياساته غير المتوازنة والاختراق الذي حدث لدولته من قبل الاستخبارات الأجنبية. هذا بالإضافة إلى تعاظم النعرات الجهوية والعرقية في فترة حكمه والتي أدت بوحدة البلاد إلى الهاوية فتمكن الأعداء نتيجة ذلك من النفاذ إلى تقطيع أوصالها وإذهاب ربحها.

3- الحمر البقارة:

هم أحد فروع المسيرية، ويعيشون بين الخط 12، وبحر العرب وقد انفصلوا عن المسيرية الذين ينقسمون إلى (زرق)⁽⁵⁴⁾، و(حمر) لعشرة أجيال خلت. ويقطن المسيرية الآن شمال شرق نيالا في منطقة صغيرة واقعة بين البرقد والداجو وهم مستقرون نسبياً، أما بالنسبة للحمر فإن مدينتهم الرئيسية المجلد. ويتنقلون شأن قبائل البقارة في دارفور شتاءً وخريفاً⁽⁵⁵⁾.

4- المعاليا :

ينقسمون بين دارفور وكردفان. وكانوا من المتمردين علي السلطان علي دينار، ولهم صلة قرابة بالحمر. ويجاورون الرزيقات في الشمال الغربي من دارفور⁽⁵⁶⁾.

5- المساليب:

هذه القبيلة تقطن في أقصى غرب دارفور بين خطي العرض 12، 14. ويدعون نسبة إلى الأصل العربي بالرغم من غلبة الصفات الزنجية عليهم وإن كان ذلك لا يعني اختفاء الصفات العربية لديهم تماماً وبرز الصفات الزنجية، والتي تكون قد حدثت

(53) موسى المبارك مصدر سبق ذكره، ص 22-23 انظر أيضاً:

A.B. Macmicheal: (A history).OP. Cit. Vol.1, PP.55-65.

(54) الأزرق: هو استخدام سوداني خالص ينم عن حب جم وخلق رفيع، فالأزرق لدي السودانيين يقصد به الأسود. ولكن أهل السودان لا يقولون أسود من باب الإحترام ومراعاة لشعور الآخرين. وهذا جزء من التراث السوداني الأصيل النبيل والثقافة السودانية الأصيلة. التي ينبغي إبرازها.

(55) D.S.A. Box. 110 /6 H.A. MacMicheal (Notes) op.cit. PP. 27-33,43-44.

(56) A.B. THEOBALD. op. cit. PP. 11.13.

نتيجة المصاهرة والزواج. واللغة العربية مفهومة ومنتشرة بينهم. ويشتهرون بأنهم رجال حرب. ويزرعون الدخن والبصل. ولهم سلطنة بمراسيمها وتقاليدها وأعرافها. ولديهم عدد متنفذ في السلطة القائمة الآن وفي المعارضة ومنهم دكتور حسن تاج الدين عضو مجلس السيادة السابق والذي كان من اذرة حزب الأمة فيما سبق ومن استشاريي القصر الحاليين في العهد الإنقاذي ودكتورة نجوي بحر الدين الأستاذة بجامعة النيلين وغيرهم كثير.

6- المسائل:

يسكنون غرب البيقو والبرقد. وهم من عنصر المساليت إلا أنهم أكبر تأثراً بالعرب ويقطنون على حدود دارفور الغربية ويشتهرون بالشجاعة⁽⁵⁷⁾. مما لا شك فيه أن هذا الوجود العربي على هذا القدر من الكثافة لم يشكل حدوداً حادة بين عنصر وآخر، وإنما ساعد على التزاوج والانصهار والتمازج والتداخل. وتمكنت هذه العناصر فيما مضى بروح مدنية راقية أن تتعايش وأن تتبادل أقدارها الثقافية والاجتماعية والإقتصادية بهدوء وأن تحل مشاكلها بأريحية سودانية لا مثيل لها عن طريق الزعماء والشيوخ والسلاطين والشراتي. وفق نظام متوارث وهو نظام الأجويد ورؤساء العشائر والقبائل والشيوخ والدمالج والعمد والنظار؛ في الوقت الذي عجز فيه تلامذة الغرب الجدد أن يحققوا نسبة 5% مما حققه أسلافهم الذين لم ينالوا 5% مما ناله الأحفاد من المعرفة. ولكن كما يقال في المثل السوداني القلم لا يزيل البلم. والعمالة لا تحتاج إلى ضوء يدل عليها.

ولعل من أخطائنا التاريخية المتمثلة في اتخاذ قرارات متعجلة وغير صائبة في ساعات الثورة والغليان دون روية: هي ستة قرارات على قدر من الحماسة والعجلة والاندفاع المجافي لروح العقل أولها: أعقب ثورة أكتوبر حين انحرف الساسة دون وعي وإدراك ودراسة نحو شعار اليساري (التطهير واجب وطني). فتخلصت البلاد من أحسن قدراتها الإدارية وخبراتها في مجال الخدمة المدنية التي ظلت كسيحة فيما

(57) موسى المبارك مصدر سبق ذكره ص 14. انظر أيضاً:

بعد إلي يومنا هذا. والقرار الثاني: هو قرار تصفية الإدارة الأهلية الذي اتخذ في لحظات غيبوبة الوعي المايوي دون وعي وبتأثر واضح بالطرح اليساري الجسارفي يومها. ونتيجة غفلة سياسية لازلنا نتجرع كؤوس هذه الغلطة لأن ما يدور في دارفور كان يمكن استيعابه وإمتصاصه إذا فكر انقلاب مايو تفكيراً موضوعياً بتطوير الإدارة الأهلية بدلاً عن إلغائها. وفي بلدان كالولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تحتفظ بهذا الإرث التقليدي لكن مع العمل علي تطويره باستمرار. وكذلك في بريطانيا في المراسيم الملكية تظهر مظاهر تعود في أصولها إلي القرون الوسطى ولكنها ذات دلالة ثقافية وتاريخية. والإدارة الأهلية اتفقنا أو اختلفنا حولها وحول نشأتها فهي موروث سوداني له دوره التاريخي والثقافي والاجتماعي الذي لا ينكر حكمة وموضوعاً وواقعاً. ولو كان لدينا سياسيون لديهم وعي تاريخي وحس سياسي أصيل وخلفية تاريخية واعية لأعيدت الإدارة الأهلية. لأنها هي الأقدر علي استيعاب ما يدور الآن في دارفور أكثر من بغال الفنادق التي لا أرضاً قطعت ولا ظهراً أبقت. والقرار الثالث: هو السلم التعليمي الذي أصبح به الطالب منذ البداية يقرأ ولا يكتب وانتهى به المطاف الآن حتى غدا الطالب في بلادنا لا يقرأ ولا يكتب لأن السلم التعليمي لم تتم معالجته علي نار هادئة. وهذه مشكلة كل المشاريع الحيوية في البلاد التي أصيبت بالفشل نتيجة العجلة وعدم التروي وإسناد الأمور إلي غير أهلها تنتج عنها مخلوقات شائنة وغريبة لا هي حصان ولا حمار ونتج عن ذلك ضياع أجيال هم حملة المشعل وبناء الحاضر وعدة المستقبل. واضحي التعليم تجارة نخاسة فأمست هناك مدارس الخصوص وخصوص الخصوص. إذ نسمع الآن عن الروضة التي تبلغ رسومها السنوية مليونان وثلاث علي مسمع ومرأي من الحكومة، ورجالات التربية والتأليم عفوا أقصد التعليم، ونسمع عن مدارس الأساس الخاصة التي بلغت رسومها الدراسية ثلاثة ملايين وأربعة، والحصص الخاصة سواء في المدارس الحكومية أو الخاصة تبلغ أضعاف هذه المبالغ المهولة في بلد يكدح الناس فيه بالكاد من أجل الحصول علي لقمة العيش الكريم، هذا هو الواقع والحق المر، في بلد يتصارع فيه الساسة علي جيفة السلطة دون برامج ودون فكر وحلول موضوعية لقضايا الأمة المصيرية ولا ندري ما يخبئه المستقبل لأفراخنا الزغب تحت مظلة الطيش السياسي الذي لا يرعى إلا ولا ذمة ولا يحقق مصلحة للأمة. وللأسف لا يزال هناك عدد من المتثاقفين والدهماء والرجرجة الذين يلهثون

وراء هؤلاء الساسة الذين لا خير فيهم ولا بركة. والقرار الرابع: قرار التأميم وهو شعار يساري أجوف فارغ المعني، وقد أضر بإقتصاديات البلاد ضرراً بالغاً علي المستوي المحلي والعالمي، وهو شعار قبائل اليسار البائد إذ دفع بقوة بالمستثمرين الأجانب والمحليين إلى الإحجام عن الاستثمار في السودان. ولقد رجعت مايو عن هذا الطرح الأخرق بعد أن إستبان لها خطأه ولكن بعد خراب مألطة، واهتزاز الثقة بالقيادات السودانية ذات المزاج المتقلب. وللأسف بهذا هو شأن السياسة السودانية الخرقاء التي لا تهتدي بمشورة ولا تطيق سماع صوت الآخر حينما تكون في السلطة. وإنما تعتبر مقدرات البلد ومصالحها وشعبها مختبر فئران يجرب فيه الساسة فشلهم وخيبتهم وعدم قدراتهم علي الإبداع في مجال تخصصاتهم. وهذا مصير كثير من الأطروحات في عهد الإنقاذ منذ 1989م وحتى الآن والتي تبخرت وتبددت، الشعار تلو الآخر. والقرار الخامس: قرار التحرير الاقتصادي في بلد متخلف إجتماعياً وقانونياً وإقتصادياً وسياسياً. فنتج عنه الإرتشاء وضياع الذمم والبضائع الفاسدة والكسب غير المشروع والإنهيار الأخلاقي المريع وإرتفاع الأسعار والتهديب لكل ما هو ممنوع. كل ذلك حدث لأن القرار لم يتم نتيجة دراسة جدوي عميقة ومعرفة معالجة آثاره الجانبية. وإنما كان نتاج نزوة سياسية وخطرفة فردية، ككثير من الشعارات التي رفعتها الإنقاذ وتم ترديدها أثناء غيبوبة الوعي السياسي، وأصبحت الآن في طي النسيان إن لم نقل قد أُلقي بها في مزبلة التاريخ السياسية. إما القرار السادس: فهو إلغاء النقل الميكانيكي والذي تم أيضاً دون دراسة أو تخطيط وحدث ذلك بذات الدعوي التي ألغيت بموجبها الإدارة الأهلية من قبل في ظل النظام المايوي البائد. مما يعني أننا أمة قدرها النسيان وعدم الإعتبار. ودرجنا علي أن نلذغ من ذات الجحر مرات ومرات. وإلا فليسأل أي سوداني في هذا البلد بلد المليون مربع ماذا قدمت له هذه الأحزاب بشقيها الطائفي والعقائدي العلماني والديني، وقياداتها منذ الاستقلال وحتى لحظة قراءته لهذا الكتاب، غير الوعود الكاذبة والخزي والخيبة والندامة والمشاكسة علي كراسي الحكم بالمنطق الشارعي الصعلوكي (يا فيها يا أطفئها). والإستئثار بخيرات البلاد دون الآخرين والإقتتال من أجل جيفة السلطة والإنفراد بها. ويكون السياسيون أعطف ما يكونون وأرأف ما يكونون وأبلغ وأعرب ما يكونون حينما يكونون خارج السلطة، ففي أيام الإنتخابات والأزمات يمسخون أحذية الشعب

ويدغدغون مشاعره إلى أن يصلوا إلى دفة الحكم، وبعدها يضربوا بضرورياته عرض الحائط. فالسياسيون مناققون ووصوليون إلى النخاع وإن تذرّوا في الظاهر بألف قناع.

7- الهبانية:

الهبانية ينقسمون إلى الطارة والسوط. وهم يقطنون غرب الرزيقات وجنوب المسلات وشرق التعايشة وشمال بحر العترب ومركزهم الكلكلة أو برام حالياً. ويعتمدون في نشاطهم الإقتصادي ومعاشهم على الذرة الشامية وعلي قليل من الدخن⁽⁵⁸⁾.

8- بنو هلبة :

يعيشون شمال التعايشة. وقد دخلوا مع السلطان علي دينار في حروب اقتضت هجرتهم⁽⁵⁹⁾ من ديارهم.

9- القمـر:

يسكنون شمال المساليت وجنوب الزغاوة في سهل رملي تكثر فيه الصخور ويرجعون بنسبهم إلى الجعليين ولا يتحدثون غير اللغة العربية. ويرعون الضأن والبقر. ويزرعون الدخن.

10- المناصرة وبنو فضل:

يقيمون في مثلث قمته الطويشة وقاعدته الفاشر وجبل الحلة بدار فور. تقلص نفوذهم في عهد المهديّة والسلطان علي دينار وهجروا موطنهم حيث لم يتبق منهم إلا القليل⁽⁶⁰⁾.

11- الزيدانية :

تعتبر الزيدانية من أكبر القبائل صاحبة الجمال. في دارفور، وينتسبون إلى فزارة وهم يحتلون منطقة هامة بين الميدوب والبرتي⁽⁶¹⁾. إن هذا الوجود العربي القديم

⁽⁵⁸⁾ A.B. Theobald OP. CIT. PP. 13.

⁽⁵⁹⁾ ibid.

⁽⁶⁰⁾ A.H. MacMicheal: (History) op. cit. PP. 55.

⁽⁶¹⁾ D.S.A. Box 110 /6 . H.A.Macmicheal (notes) Op. Cit. PP. 38.

والكثيف بهذا القدر وعلي هذا المستوي في آن واحد لا يمكن اجتثاثه نتيجة نزوة سياسية طائشة أو محاولة غريبة هادفة، لبذر بذور الفتنة بين أبناء الوطن الواحد. فالدم العربي الآن يجري في عروق كل دارفوري. والثقافة الإسلامية والإرث العربي يتفاعلان في تلافيف مخ كل دارفوراي، فدارفور هي الحضارة وهي التاريخ وهي نموذج التصاهر والتزاوج والتمازج الثقافي والاجتماعي والديني. وأن ما يحدث الآن هو أشبه ما يكون بالجرح السطحي. فحرى بنا أن نقرأ تاريخ هذه المنطقة بوعي وبذكاء بعيداً عن الإنفعالات والعواطف والنعرات الننتة، وأن نتفق علي قواسم مشتركة وأن نقف علي أرضية صلبة.

الفصل الثاني

السلطنة الفوراوية وظروف النشأة

كانت سلطنة الفور تشكل وحدة متماسكة ومستقرة. وقد ازدهرت لقرون عدة متواصلة. ولقد كان لموقع البلاد الممتاز، الذي يقع علي طريق الحج الأفريقي المتجه إلى مكة المكرمة، والذي يتوسط المسافة بين إقليم البحر الأبيض المتوسط والأقاليم المدارية الاستوائية⁽¹⁾ أثر في ازدهار وشهرة السلطنة وارتفاع شأنها. فهي تعتبر واحدة من أعظم السلطنات الإسلامية التي انتظمت وسط أفريقيا في العصور الحديثة⁽²⁾. ومنطقتها تعتبر منطقة مفصلية في تاريخ السودان الحديث والمعاصر لأنها شكلت بوتقة إنصهار فريد من الوجهة التاريخية والعرقية والثقافية والاجتماعية.

ولقد دار إختلاف كبير حول نشأتها، وهيمنة العنصر العربي عليها، وبسروز الشخصية الإسلامية فيها. ولعل إدراك أن العنصر العربي قد عرف طريقه إلى هذه المناطق منذ فترة مبكرة قبل الإسلام قد يلقي الضوء علي بعض جوانب القضية. فإن الإشارة التي أوردها ابن سعيد بقوله: (ومن مدن كانم المشهورة مائان ... وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد محمدي من ولد سيف بن ذي يزن ... ثم أسلم منهم جده الرابع علي يد فقهاء الإسلام. ولهذا السلطان هنالك مثل سلطنة تجوه)⁽³⁾. ذات دلالة علي الهجرة العربية والإسلامية المبكرة إلى هذه البلاد. أما ياقوت الحموي في معرض حديثه عن كانم ينقل عن البكري قوله: (بين زويله وبلاد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء الصحراء ... وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية

⁽¹⁾ H.A. Macmicheal, (Ahistory) op. cit. PP.91.

⁽²⁾ A. J. Arkell. Op. cit. PP. 52-4, 181.

⁽³⁾ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، مصدر سبق ذكره ص 94-95.

صاروا إليهم عند محنتهم ببني العباس، وهم علي زي العرب وأحوالها⁽⁴⁾. ومن المعروف أن محنة بني أمية كانت في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري أي في القرن الثامن الميلادي. الأمر الذي يدل على أن الهجرات العربية قد جاءت في فترة مبكرة إلى هذه المناطق، وأن تغلغل العنصر العربي الإسلامي يرجع إلى القرن الثامن والتاسع الميلادي. أما الوجود العربي غير الإسلامي في تقديري يرجع إلى فترات سحيقة موغلة في القدم. ولعل إشارة القلقشندي تزيد الأمر وضوحاً وجلاء حيث ذكر أن: (مملكة الكانم هم مسلمون والغالب علي ألوانهم السيواد. وبلادهم بين أفريقية (تونس) وبرقه (في ليبيا).. وسلطان هذه البلاد رجل مسلم. قال في تقويم البلدان: (وهو من ولد سيف بن ذي يزن. وأول من بث فيهم الإسلام الهادي العثماني، إدعى أنه من ولد "عثمان بن عفان" رضى الله عنه وملكها، ثم صارت بعده لليزنيين). هذه الإشارة تؤكد علي أن الوجود الإسلامي سابق لمحنة العباسيين. ومن جانب آخر يؤيد ذلك الرأي الذي يذهب إلى أن الوجود العربي سابق للوجود الإسلامي بكثير، لأن وجوداً بهذه الكثافة التي تجعله يبلغ حد الوصول إلى السلطة وبسط سلطاته علي أهل البلاد الأصليين وبهذه الكيفية لابد وأن يمر بأطوار تاريخية متطاولة وبأبعاد إجتماعية وسياسية وزمانية.

وذكر القلقشندي في التعريف بهذه السلطنة: (أن سلطان الكانم من بيت قديم في الإسلام، قال: والعدل قائم في بلادهم، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وقد بنوا مدرسة بالفسطاط ينزل بها وفودهم)⁽⁵⁾. ويشير إلى استقرار القبائل العربية بهذه المناطق، كما يشير إلى هذا الوجود العربي الكثيف ملك البرنو في خطاب بعث به إلى سعيد برقوق سنة 794هـ ورد فيه قوله: (... وبعد فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكننا فإن الأعراب الذين يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان، وضعفاء الرجال وفي قرابتنا وغيرهم من المسلمين. ومنهم من يشركون بالله يمارقون للسدين -

(4) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، مصدر سبق ذكره، ج 8 ص 422.

(5) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، مصدر سبق ذكره ج 5، ص 280-281.

هكذا- فغاروا علي المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً ونحن بنو سيف بن ذي يزن ... كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها.. وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين وبييعونهم لجلابي مصر والشام وغيرهم ويختدمون بعضهم... فتبعثوا الرسل إلي جميع أرضكم ... ينظرون ويبحثون ويكتشفون فإذا وجدوهم فالينزعوهم من أيديهم ... قال الله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر).

وقال عليه السلام: (المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه)⁽⁶⁾

هذا الخطاب يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك علي تغلغل النفوذ العربي والقبائل العربية ومدى توغلها في هذه المناطق منذ فترة مبكرة. كما يشير إلي رسوخ المفاهيم الإسلامية والمعرفية بدلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الواردة في هذا الخطاب. ويدل أيضاً علي أن الإسلام عاد له نفوذ قوي في هذه البلاد. وغنى عن القول أن الصلة بين دارفور وهذه الأقاليم لم تكن مستبعدة. لاسيما وأن جزءاً كبيراً من دارفور كان تابعاً من الناحية السياسية لدولة كانم المسلمة، حسبما تقدمت الإشارة. ولعل ما مضت الإشارة إليه يدفع أي تقدير يذهب إلي أن قيام السلطنة تم في القرن السابع عشر الميلادي الذي ذهب إليه كثير من الباحثين الغربيين وأيدهم فيه بعض الباحثين السودانيين وغيرهم. وفيه تأييد واضح لما قاده الأستاذ الشاطر بصيلي⁽⁷⁾ من أن قيام السلطنة الفوراوية تم في القرن الخامس عشر الميلادي. وقاد أدلة قوية علي صحة هذا الرأي منها:

1- أن هذه المنطقة كانت ملتقى لهجرات من حوض النيل الأوسط والأمثلة علي ذلك هجرة الأسرة الحاكمة في مملكة مروي (الواقعة شمال الخرطوم) في القرن الثالث عشر الميلادي، بعد استيلاء النوبة علي الحكم في المملكة.

2- خروج ملك علوة نحو الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي. هذا بالإضافة إلي هجرات العرب المسلمين التي بدأت إلي سواحل أفريقيا الشرقية منذ القرن الأول

(6) المصدر السابق مصدر سبق ذكره ، ج8، ص 116-117.

(7) الشاطر بصيلي عبد الجليل مصدر سبق ذكره، ص 373-387.

الهجري بغرض التجارة، وقد أعادوا طرق القوافل فأسسوا المراكز والمحطات. لذا لا يستبعد هجرتهم غرباً منذ وقت مبكر. وقد أيد هذا الرأي كل من (ماكمايكل)⁽⁸⁾ و(بودج)⁽⁹⁾ ويزيد الأمر وضوحاً في تقدير الباحث أن الإسلام قد عرف طريقه إلى هذه البلاد قبل القرن الثالث عشر الميلادي، وأن هجرات القبائل العربية قد سبقت ذلك الوجود الاسلامي بكثير. كل ذلك يقتضي ترجيح التقدير الأسبق إذ أن مائتي سنة قد تكون كافية للتأثير ولبروز دور الإسلام في المنطقة. وبروز دور العنصر العربي الفاعل في التاريخ بعد الإسلام، لأنه من المعروف أن العنصر العربي عموماً والمسلم علي وجه الخصوص كان خلواً من التعويق الداخلي فيما يتصل بالمصاهرة والتزاوج مع أي عنصر آخر، ولديه القدرة علي التكيف مع كل الظروف القاسية التي قد لا تكون بأي حال من الأحوال أقسى وأصعب من الظروف الصحراوية التي عاش فيها. مما جعل أثرهم قوياً ودورهم فاعلاً في كل المناطق التي دخلوها تجاراً أو دعاة.

1- أصل الأسرة المالكة ومؤسس السلطنة:

يذهب (بيتون)⁽¹⁰⁾ إلى أن سليمان سولون الهاللي هو الذي أسس السلطنة - وكلمة سولونج أو سولون أو صولون تعني في لهجة الفور: العربي - وذلك علي وجه التقريب في نهاية القرن الخامس عشر. وهذا الرأي في تقديري قريب جداً مما ذهب إليه (ناكتيجال)⁽¹¹⁾ حيث يقول: (إن تزواجاً حدث بين الطنجور العائلة المالكة والكيرا الذين هم الفور. ونتيجة لهذا التزاوج استطاع الكير "نزع الملك بالقوة - والكيرا كما قدمنا هم العائلة المالكة من الفور - وأن الإسلام لم تكن له السيادة إلا في عهد حكم السلطان سليمان صولون. وأول من حكم من هذه العائلة دالي واسمه الصحيح دليل. ولعل دليل هو الذي أسس قواعد الحكم وانتهى حكمه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي). في ظني أوشك أن يتفق الرجلان من حيث زمن النشأة إلا أن هناك إختلافاً

(8) S.N.A. Intell 90/6-7 (Notes) (19.2).

(9) E.A. Wallies Budge OP. Cit. PP. 398.

(10) A. C. Beaton: The Fur. S.N.R. VOL. 29 (1948) P.4.

(11) Gostav Nachtigal. OP. Cit. Vol.4 P.74-76.

حول المؤسس. فنلاحظ أن (بيتون) أورد اسم "دليل" باعتباره المؤسس بيد أنه لم يتجاهل دور سليمان صولون في إدخال الإسلام وتمكينه. وعلي كل يكاد أن يكون هناك إجماع أو شبه اتفاق علي أن السلطنة قد قامت في القرن الخامس عشر الميلادي. ويقرر نعوم شقير⁽¹²⁾ أن المؤسس هو سليمان الأول وأن فترة حكمه بين (1445-1476م) (848-880هـ). وأشار إليه بقوله: (هو رأس سلاطين الفور... قيل لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة). وأورد في قائمته أسماء إسلامية مثل عمر وأحمد ومحمود وعبد الرحمن، ومما لا شك فيه أن الأسماء ذات دلالة تاريخية وثقافية بعيدة الأثر. الأمر الذي يدل علي إسلامية هذه السلطنة وتحديد هويتها منذ فترة مبكرة. إذ لا يخفي ما لهذه الأسماء من دلالة موضوعية وحضارية مفادها أن تبني الأسماء يدل علي الإعجاب والإفتتان والتقصص لثقافة وحضارة صاحب الأسماء. كما فيها دلالة علي تمكن الجانب الإسلامي والعربي في المنطقة وهيمنته الثقافية فأصبحت أسماؤه هي السائدة. واعتمد الفريق المعارض رواية التونسي⁽¹³⁾ عن نشأة وقيام السلطنة. ويبدو أن سليمان الثاني قد قام بفتوحات ومجهودات أذهلت بعض الباحثين⁽¹⁴⁾ وذلك خلال القرن السابع عشر الميلادي فحدا بهم ذلك إلى القول بأنه المؤسس. لاسيما وأنه قد قام بفتوحات جعلت حدود دارفور تبلغ أقصى اتساع لها في تاريخها في عهد السلطان محمد تيراب (1752-1787م) الذي استطاع أن يضم إلي سلطنته كردفان. وضمت السلطنة كل القبائل التي تقطن الرقعة الممتدة بين الصحراء الكبرى شمالاً ومملكة الفونج شرقاً، وغرباً. وسبق أن دخل المساليت في الطاعة أيام سليمان صولون. واستطاع خلفاؤه أن يسيطروا علي دارفور ودار تاما اللتين أثبتتهما التونسي في خريطته. كذلك شملت السلطنة دار كوبي والإمارات الشرقية من وداي⁽¹⁵⁾.

(12) نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، دار بيروت للجيل، 1981م، ص 150-153.

(13) يرى التونسي أن الدولة الفوراوية نشأت في القرن السابع عشر الميلادي، التونسي مصدر سبق ذكره، ص 83-84، هامش 5.

(14) A.J. Arkell. op.cit. PP. 274-281.

(15) محمد عمر التونسي مصدر سبق ذكره، ص 141، 147. A.C. Beaton op. cit. PP.5.

يبدو أن سليمان صولون المقصود هنا في هذه الإشارة، والذي دارت حوله رواية التونسي وبنى عليه فرضيته في نشأة السلطنة هو سليمان الثاني. ومما مضى يترجح أن قيام السلطنة كان في القرن الخامس عشر الميلادي وأن المؤسس هو سليمان صولونج أي سليمان الأول. ولربما كان اسم دالي مرادفاً لاسم سليمان الأول.

ولعل مما يدل على قوة النفوذ العربي والإسلامي أن خمسة عشر سلطاناً من الذين أعقبوا - سليمان الأول - أو دالي أن أسماءهم عربية وإسلامية مثل إدريس ومحمد وصالح وشريف، وابن عمر وسالم، ومحمود الخ⁽¹⁶⁾. وقد لا يقتصر الأمر على دعوى وجود نفوذ عربي. وإنما يمكن الحكم بأن هذه السلطنة أضحت سلطنة إسلامية عربية وأنها قد تجذرت بعروبتها وبقياداتها في الوسط الفوراوي، وأن الدم العربي أضحي يجري في عروق شعوب المنطقة منذ تلك الفترة المبكرة من الزمان. وبالتالي تتضح سذاجة وبساطة دعوى من يرى أن دارفور زنجية خالصة أو أن الوجود العربي طارئ لا سيما من خلال نظرة عاجلة إلى الخريطة السكانية الماضية. لذا كل من يدعي أو يحاول إخراج العنصر العربي منها فهو أما بليد الحس التاريخي أو صاحب غرض سياسي أو عميل أو خائن لمفردات تاريخ أمته.

2- أيلولة السلطنة إلى عناصر عربية:

أما عن كيفية انتقال الحكم إلى أيدي السلاطين ذوي الأصول العربية يذهب الباحثون إلى أن سليمان سولون (صولون) الذي قام بحكم قد ولد أصلاً من أم طنجورية. وأن والده عربي قد جاء من الشمال. وإن الحكم قد انتقل إلى ابنه جرياً على عادة وراثته ابن البنت التي كانت ابنة للملك. والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هل وراثته ابن البنت: عادة نوبية؟ أم عادة أفريقية؟ هذا سؤال مشروع. والراجح عندي أنها عادة نوبية أصيلة لأصالة هذه الحضارة. هذا إذا علمنا أن هناك أبحاث ودراسات حديثة تؤكد على أن الحضارة النوبية سابقة للحضارة المصرية القديمة. ومن خلال هذا الترجيح يمكن الربط بينه وبين هجرة الداو ومعظم قبائل دارفور من شمال السودان

⁽¹⁶⁾ G. Nachtigal op. cit. PP. 77.

إلى تلك المنطقة حسب ما تقدم منذ أزمان بعيدة. ولا يستبعد من أن الطنجور قد استفادوا من هذه التقاليد المحلية في الوصول إلى سدة الحكم بسلام ودون مقاومة كما استفاد من ذلك في ذات الفترة أبناء عمومته في الشمال. فاقاموا دولة الكنوز.

وقد أغرب (اركل)⁽¹⁷⁾ بقوله: (ولم يكن للقبائل العربية دور في توجيه سياسة أو مصير دارفور). لا شك أن هذا سم زعاف يتم حشره في ثنانيا ما يسمي بأبحاث ظاهرها العلمية وباطنها العذاب والتشكيك في الحقائق. هذا القول لا يمكن قبوله إلا إذا كان يعني القبائل التي لا تزال تحتفظ بدمائها العربية شبه النقية. وهذه واحدة من مستحيلات الدنيا السبع إذ يكذب من يدعي نسبة عربية نقية سواء في السودان أو في أنحاء الأرض من المعمورة، حيث لا يوجد في الدنيا كلها نسب خالص إلا نادراً والنادر لا حكم له. وإن لا فإن العائلة المالكة في دار فور (الكيرا) فهي ذات أصول عربية لا يشكك في مصداقيتها أحد بما في ذلك أركل نفسه. وقد استطاعت القبائل العربية في دارفور عن طريق المصاهرة الوصول إلى سدة الحكم كما حدث ذلك في أكثر من موقع وفي أكثر من زمان في أرض السودان عبر فترات تاريخية متطاولة. وفيما يبدو أن وراثته ابن البنت هي عادة نوبية قديمة انتقلت إلى هذه المنطقة مما يؤكد في نظر الباحث علي حسب ما سبقت الإشارة إليه علي وجود رابطة قوية تؤكد علي نزوح كثيف من الشمال السوداني إلى دارفور. مما يعطي الإثنية الفوراوية اليوم بعداً جديداً يقتضي قدراً من التحليل والدراسة. ويعطي قضية دارفور بعداً جديداً ينبغي أن تؤخذ في إطاره.

3- السلطنة والإسلام:

من خلال دراسة الآثار الموجودة بعين فرح⁽¹⁸⁾ إحدى العواصم الفوراوية القديمة يتضح أن هناك مساجد كانت بالقرب من قصر السلطان، الأمر الذي يدل علي عمق الروح الديني لدى الهيئة الحاكمة ودورها في بناء هذه المؤسسات الإسلامية الهامة،

⁽¹⁷⁾ A.J. Arkell. op. cit. PP. 274-281.

⁽¹⁸⁾ تقع شمال دارفور علي بعد 50 ميلا غرب كتم بها آثار قصر السلطان شاور دور شيد وكما توجد بها آثار مدينة قديمة.

لأن من المعلوم أن المسجد في الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامي يشكل حجر الزاوية. حيث يقوم بأدوار تربوية واجتماعية وسياسية وروحية وعسكرية. وقد اتسعت السلطنة في عهد سليمان الأول والثاني، وقد عمل سليمان الثاني علي نشر الإسلام واتخذ من (طرة) شمالي جبل مرة عاصمة له. وقام حفيده أحمد بكر بن موسى بن سليمان (1682-1722م) بجهود كبيرة لنشر الإسلام وتشجيع الفقهاء علي الإقامة في دارفور وتسهيل مهامهم بإعفائهم من الضرائب. وذلك بعد أن قام هو وابنه بنقل عاصمتهم إلى الفاشر⁽¹⁹⁾ الحالية. أما عمر ليل بن محمد دور بن أحمد بكر (1732-1752م) فقد جعل عاصمته بالقرب من نيالا، وكذا أبو القاسم بن أحمد بكر (1739-1752). ولقد شهدت السلطنة قمة عظمتها واتساعها في عهد السلطان محمد ثيراب (1752-1787م). ففي عهده تمت هزيمة الفونج واتسعت السلطنة حتى وصلت أم درمان⁽²⁰⁾. ثم أعقبه أخوه عبد الرحمن الرشيد (1787-1802م) أصغر أبناء السلطان أحمد بكر الذي نشأ علي (أحسن حال، حفظ القرآن وقرأ في الفقه وعرف الحلال والحرام...، كان صالحاً تقياً، يحب العلم والعلماء فعمل علي نشر المعرفة وتشجيع الفقهاء)⁽²¹⁾. (وفي أيامه انتشر العلم في دارفور واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الإسلامية لأنه كان عالماً ورعاً. وفي عهده في سنة 1793م زار السائح الإنكليزي بروان دارفور من طريق الأربعين)⁽²²⁾. وكانت للسلطنة في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد صلات خارجية واسعة، وقد ذاع صيت هذا⁽²³⁾ السلطان، ولقد أسماه بهذا الاسم السلطان العثماني. لما ذاع عنه من عدل ورجاحة عقل وسداد رأي. ولا شك أن ذلك جانب إيجابي يحسب لصالح سلاطين الفور. ويؤكد علي أنهم كانوا في قلب الحدث وأنهم كانوا أرقاماً علي مستوي العالم الإسلامي والعربي.

(19) S.N.A. Intell 1/78 // 1282/2 G.D. Lampen. OP. Cit. PP.177-179.

(20) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 159-160.

(21) محمد عمر التونسي مصدر سبق ذكره، ص 99.

(22) نعوم شقير مصدر سبق ذكره ص 161-162.

(23) وهو من قبيلة الجميعاب التي ترجع بنسبتها إلى: (جميع أو جموع بن غاتم) الذي رحل من بغداد (1280م) بعد تخريب المنول لها. فحط رحاله في الشام ثم مصر. وفي عصر المعز لدين الله الفاطمي رحل بعشيرته جنوباً حيث استقرت تلك العشيرة في أرض السودان الحالي. ولد الزبير بين جبل قرى والشيخ الطيب شمال أم درمان في 8/7/1831م. بعد السادسة من عمره تعلم للقراءة والكتابة وحفظ القرآن. وفي الخامسة والعشرين اشتغل بالتجارة وأظهر نجاحاً في هذا المجال.

ومن أعماله البارزة علي المستوي الداخلي أنه قد نقل عاصمته إلى الفاشر ثم أعقبه أبنة السلطان محمد الفضل (1802-1839م) والذي نقل بدوره العاصمة إلى كوبي. وفي عهده تم تنظيم الإدارة والحدود القبلية وتم تعيين المقدومين. ثم جاء عقبه السلطان محمد حسين (1839-1873م). فقام بتثبيت نظام أبيه. بيد أن عاصمته قد حوصرت في عهده بواسطة الزبير ود رحمة أحد كبار تجار السودان يومئذ. في سنة 1856م اتصل بتاجر مصري أصله من (نجع حمادي) وقد اتجه إلى الجنوب وأصبح من كبار تجار بحر الغزال ويسمى (علي عموري). وأصبح الزبير وكيلاً له فيما بعد. وبعد وقت قصير استقل بتجارته عن (علي عموري). وتوغل جنوباً وتزوج بابنة سلطان (نيام نيام) ولخوفه من السلطان الذي بدأ يتوجس خيفة من نفوذ الزبير ود رحمة الذي يمثل العنصر الشمالي المتفوق بالمعرفة وحسن الإدارة والتدريب العسكرية والتنظيم، رحل الزبير جنوباً إلى منطقة أخرى دارت بينه وبين ملكها معارك انتصر فيها الزبير في نهاية المطاف، وامتلك تلك البلاد نتيجة ذلك التفوق. بعدئذ دانت له كل جهات بحر الغزال وأسمى (بايه) عاصمة قولو بـ (ديم الزبير). وحكم البلاد بالكتاب والسنة كما قال ذلك: (وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في مدينتها وعمارتها)⁽²⁴⁾. ولعل ما قام به الزبير بإمكاناته المتواضعة قياساً لما يملكه الغربيون من إمكانات هائلة يعتبر تعميراً حقيقياً وإنجازاً حضارياً. إذ لم يعمل الغربيون أثناء تواجدهم بالبلاد علي تنمية إنسان الجنوب تحت أي مسمى من المسميات وإنما أبقوا عليه مغللاً متخلفاً بغية استغلاله واستعباده. ومما لا شك فيه أن زواج الزبير ود رحمة من ابنة السلطان الجنوبي يدل علي حقيقة تاريخية وحضارية مؤداها أن العنصر العربي والمسلم أو العنصر شبه عربي في السودان قد تمتع بقدر وافر من التحرر من عقد التعويق الداخلي المتمثلة في التعالي علي أهل البلاد الأصليين مما مكنهم من النفوذ والسلطان وقبول الأهالي لهم دون حساسية عرقية آثمة.

(24) نعوم شقير، ص 285-266. أنظر أيضاً: شوقي الجمل: تاريخ السودان وادي النيل: حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر في جزئين مصر/القاهرة مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1969م، ج2، ص 168-170.

ومن الأسباب التي أحدثت خلافاً بين سلطان الفور والزبير ود رحمه تواتر اعتداء عربان الرزيقات علي تجار بحر الغزال. فقام الزبير بتجريد حملة عليهم بيد أن سلطان الفور كان يرى أن هذه المنطقة تابعة له لذا قام بإيواء من هرب من الرزيقات، لا سيما شيخين من شيوخهم وهما عليان ومنزل. فقام الزبير بإرسال سبعة خطابات إلى السلطان إبراهيم قرص الذي خلف والده في 1873م يحذره فيها من مغبة إيواء عليان حامد ومنزل رؤساء الرزيقات. هذا بعد إستيلائه علي شكا. وأفاده بأنهما كانا سبباً في قطع الطريق ونهب المسافرين، وتعطيل طرق التجارة.

لم يستجب السلطان إبراهيم قرص لذلك النداء وهذا التهديد، لا سيما وهو سليل السلاطين. لذا طلب الزبير إنفاً من الإدارة العثمانية المصرية والتي قد استعصت عليها هذه السلطنة زمناً طويلاً بغزوها. فرأت الإدارة المصرية أن الفرصة سانحة فأضاعت النور الأخضر للزبير. ووجهت حكمدارها في الخرطوم بالتوجه إلى الفاشر لضم دارفور إلى الإدارة العثمانية. وقد دافع السلطان إبراهيم من جانبه بشراسة عن عاصمته دفاعاً مستميتاً إلى أن قتل في بلده منواشي في 25 أكتوبر 1874م⁽²⁵⁾.

وبالرغم من ذلك فإن هذه السلطنة لم تنقرض عائلتها المالكة حيث شكلت حكومة ظل وجبهة مقاومة سرية عنيدة. وتم اختيار أول سلطان لها في الظل وهو حسب الله محمد الفضل الذي احتفى بجبل مرة. ولكن الزبير. لاحقه فقبض عليه وعلي عبد الرحمن شراتوت والأمير عبد الحامد. وأرسلهم إلى القاهرة مع بقية أولاد السلاطين. ومن ثم تابع الزبير ملاحقته للعائلة المالكة فلحق بعد ثلاث سنوات بالأمير بوش وقضي عليه في معركة فاصلة في أغسطس 1875م.

لقد حاول الزبير استئصال شأفة العائلة المالكة فلحق بسيف الدين وكان مع الأمير بوش في سرق الدجاج بكبكاوية. وقد اختفى بعدئذ الزبير من المسرح نتيجة مؤامرة من قبل النظام القائم في مصر يومئذ. هذا وقد تمت تولية هارون بن سيف الدين سلطاناً وقائداً للمقاومة الفوراوية في (1875م). وبعد القضاء عليه في (1880م) بواسطة

⁽²⁵⁾ A. C. Beaton OP. Cit. PP.4. see also D.S.A Box 110 /5 MacMicheal (Notes) op. cit. PP. 23, Moreover, see A.B Theobald op. cit. PP. 20-21.

النور عنقرة مدير منطقة كلكول خلفه عبدالله دود بنقه بن أبكر بن السلطان محمد الفضل (1880-1884م) كما سيأتي.

ثم جاء بعد مقتله أبو الخيرات (1888-1897م). وقام بدور بارز في قيادة المقاومة الفوراوية أثناء الحركة المهدوية في البلاد. لا شك أن هذا الإصرار وهذا العناد علي المقاومة والبقاء يعطي صورة واضحة عن الشخصية الفوراوية علي وجه الخصوص والدارفورية علي وجه العموم ومدي قدرتها علي الصمود والتنظيم والنفس الطويل في قيادة المقاومة. وقد استفادت الأحزاب الوصولية والجهوية بشقيها الطائفي والعائدي من هذه الميزة ووظفتها لصالحها دون إعتبار لمصلحة الوطن، فكانت هذه النار التي اشتعلت في دارفور التي لم تبق ولا تذر.

وأبو الخيرات هو أخ ليوسف بن السلطان إبراهيم⁽²⁶⁾ الذي كان قائداً لمعارك ضارية ضد القائد المهدوي عثمان آدم المعروف بعثمان جانو. واتصل أبو الخيرات بثائر آخر ضد الحركة المهدوية يدعي أبو جميزة والذي كان قد ادعى الخلافة إلي أن قضى نحبه ثم تبع أبو الخيرات بعدئذ أخا أبي جميزة المدعو أساغة يعني (أسامة) بلغة أهل دارفور. وبعد هزيمة أساغة ومقتله في 1889/2/22م. لجأ أبو الخيرات إلى جبل مرة بصحبه ابن عمه علي دينار بن زكريا وهناك ثار عليه رجاله فقتلوه. يتهم البعض علي دينار بقتله وقد أشار إلى ذلك ماكمايكل تلميحا: (ويذكر أن قاتله كان مضجعا علي عتبة علي دينار)⁽²⁷⁾. الأمر الذي لا تزال صفحته حتى الآن مطوية ولا يملك المرء دليلاً يجزم به علي صحة هذا الافتراض أو ذاك، هذا بالرغم من أن (بوستد) (ولامبين) قد جزموا بقتل علي دينار لابن عمه⁽²⁸⁾. ولما كان للمخابرات الثنائية دور لا يخفي بصدد تشويه سمعة السلطان علي دينار، فإن ذلك يجعل المرء يتحفظ قدراً ما في أخذ مثل هذه الآراء والتحليلات بصورة قاطعة. بيد أنها شكوك مشروعة في مجال البحث والتحقيق، ذلك لأن الرماد يدل علي نار وكذلك الشكوك والقرائن التاريخية تدل علي أن هناك حدثاً ما.

⁽²⁶⁾ A. S. A. 110/5 H.B. Macmicheal (Notes) op. cit. PP. 26.

See also A. B. Theobald op. cit. PP. 23-24.

⁽²⁷⁾ H. B. Macmicheal: (Notes). OP. CIT. PP. 27.

⁽²⁸⁾ J. E. H. Boustead: The Youth and Last days of Ali Dinar.

ووقع بعدئذ إختيار الفور علي السلطان علي دينار⁽²⁹⁾ الذي تمكن من إستعادة مجد السلطنة وإستعادة بنائها من جديد.

وقد قام بدور المجدد لبناء السلطنة في الفترة: (1898 - 1916م)⁽³⁰⁾، حتى بذل روحه فداءً لذلك دفاعاً عن عقيدته وبلاده. وهو يشكل حلقة من حلقات الحركة الوطنية الحديثة والمعاصرة الواعية ضد الوجود الأجنبي في البلاد، استناداً إلى رصيد تاريخي وحق وراثي في حكم دارفور. ومهما يكن من أمر وجدال حول هذه الأحقية أو واقعيتها أو منطقيتها فإن السلطان علي دينار قد لعب دوراً لا ينكر في الحركة الوطنية السودانية الحديثة والمعاصرة سواءً اتفقنا أو اختلفنا معه، وقد تمتع بقدر من القراءة الصحيحة لمجريات الأحداث في الوقت الذي اندفع فيه أبناء البيوت الدينية والسياسية الكبيرة يلهثون وراء النظام الجديد بعضهم رغبة وتصفية لحسابات والبعض الآخر رهبة وطمعاً، وغدوا يمسحون حذاء السلطان ويمتدحون وجوده ويرجون بركته وخيره. وفي ظل الدولة المهدوية أظهر السلطان علي دينار قدرته الفائقة علي التنظيم والاحتفاظ بقدر منظم من أتباعه داخل فسيفساء الدولة المهدوية دون أن يشعر بخطرهم أحد، بالرغم من الحس الأمني العالي للخليفة وشكه في كل أحد. تمكن علي دينار بواسطتهم وعن طريقهم استعادة سلطنة آبائه وأجداده بعيد معركة كرري التي لم يدخل في معامعها ابتداء لأنه رأى أنها خاسرة. وقد أثبت أنه سياسي من الطراز الأول، إذ استطاع في ظل تلك الظروف الدولية القائمة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أن يلعب علي كل الحبال تحقيقاً لهدفه وإبطالاً لأهداف الاستعمار في المنطقة. وقد شكل دوره رأس الحربة في الحركة الوطنية الحديثة والمعاصرة. وقد استطاع بإقتدار أن يحافظ علي وجود السلطنة لمدة تزيد علي السئة عشر عاماً دون منازع، كما تمكن من تثبيت هوية السلطنة وتوجهاتها في العلاقات الدولية. وشكلت حركته حركة المقاومة الأولى في تاريخ السودان الحديث والمعاصر دون منازع، في وقت كملت فيه الأفواه ورضي فيه السادة والأشراف والزعامات ذات التاريخ بالأدنى

⁽²⁹⁾ S.N.R. VOL.22 (1939) P. 149-154.

⁽³⁰⁾ G.D . Lampen. OP. Cit. PP. 195-196.

الفصل الثاني - السلطنة الفوراوية وظروف النشأة

من العيش والوجود والكرامة، وأصبحوا يوعي أو بغير وعي أدوات في يد الإستعمار دون استثناء. في ذلك الظرف ظل علي دينار الرقم الصعب في وجه الغزاة المحتلين وبدأ أكثر وعياً وأقوي شكيمه وأبعد نظراً من كل هذه القيادات التاريخية التي أفرخت وتربت في أحضان الإستعمار ورضعت من ثديه لتحل محله بعد رحيله. وأخذت ترخيصاً علي ممارساتها ووجودها وقيام مؤسساتها وأفكارها من الإحتلال مقابل السلامة الشخصية والحواكير والدرهيمات المعدودات.

..

الفصل الثالث

علي دينار ودوره في استعادة السلطنة وقيادة الحركة الوطنية

أ- المولده - والنشأة:

ولد علي دينار فيما بين (186، 1870م) بقرية الشوايا بالقرب من الملو من مسافة ثمانين ميلاً جنوب غرب نبالا. ويعتبر أبوه أصغر أبناء السلطان محمد الفضل بن السلطان عبد الرحمن الرشيد وهو مغمور بين أخوته. ويعتبر علي دينار خالاً للسيد عبد الرحمن المهدي جد الصادق المهدي ووصال زوجة د. حسن الترابي لأبيهما. لأن علي دينار هو ابن زكريا بن السلطان محمد الفضل ووالدة عبد الرحمن المهدي هي مقبولة الفوراوية ابنة نوري بن السلطان محمد الفضل وبالتالي فهي ابنة عمه لزوماً.

ولا يعرف كثير شيء عن حياة علي دينار الأولى لاسيما في صباه وشبابه، سوى أنه ظهر فجأة مع ابن عمه أبي الخيرات. وذلك حين إنضمام المقاومة الفوراوية إلى حركة أبي جميزة. ولجأ يومئذ إلى سلطان سلا واختلفا معه. هذا ما حدث بعد هزيمة (أساغه) بلغة الفور تعني (أسامة) ونتيجة لإختلافهم مع سلطان سلا، اتجها صوب جنوب غرب جبل مرة في منطقة نائية في (كلمي)⁽¹⁾. وكان علي دينار قد عرف بشدة المراس والعناد. ونتيجة هذا التمرد الطبعي في شخصيته درج علي القيام بعدة غارات علي التعايشة بمبرر ودون مبرر. ولم يسلم من غاراته واعتداءاته الجائرة الفور أنفسهم مما اقتضى تأنيبه بالكلمات الجارحة⁽²⁾. من قبل قيادته يومئذ مما يدل علي تكوين نفسي متمرد ممزوج بحماس وإندفاع الشباب. ولربما كان ذلك بداية الخلاف مع ابن عمه وركوبة الصعب للتخلص منه.

⁽¹⁾ A. B. Theobald. op. cit. PP. 26-28.

⁽²⁾ J. E. H. Boustead. op. cit. PP. 149-150.

ب- علي دينار والنفاذ إلى السلطة:

هناك عدة خطوات دفعت بالأحداث قدماً لوصول علي دينار إلى السلطة. ورغم أنه مندرج تحت قائمة سلاطين الظل في العهد المهدي إلا أن أمره جدير بالأفراد. لاسيما وأن هذا الكتاب يتعرض لفترة حرجة وهامة من تاريخ دارفور الجرح الغائر الآن، وهو في مجمله يدور حول الخلفية التاريخية لتاريخ منطقة أضحت تشكل محور الأحداث ليس علي نطاق السوان وإنما علي مستوي المجتمع الدولي وبالتالي فلا بد من إلمامة سريعة بقدر من حياة هذا البطل القومي والوطني الذي كان لاعباً خطيراً وهاماً في السياسة السودانية والإقليمية في مطلع القرن العشرين وتفوق علي ذاته وأقرانه وزمائه لذا اختص أمره بهذا الفصل. وأولى هذه الخطوات التي قادته إلى السلطة تلك التي سلكها لتسليم العرش:

أ- علي دينار وابن عمه أبو الخيرات:

مما لا شك فيه أن وجود علي دينار في معسكر المقاومة الفوراوية بقيادة أبي الخيرات لفترة من الزمن وهو أحد أبناء السلاطين قد صقل شخصيته وأكسبه تجربة ومراساً وتدريباً عملياً علي ممارسة الأقدار السياسية والعسكرية والتنظيمية. وأهله ذلك التواجد في مراكز القيادة لبناء ذاته بناء أهله للقيادة منفرداً فيما بعد. إذ لا شك أن قيادته لعدة غارات مستقلة عن قيادة أبي الخيرات وبغير رضاه شكلت حجر الزاوية في اختلافه مع ابن عمه. وتلقي تلكم التصرفات الضوء علي تفرد إرادته وبحته عن القيادة المستقلة وعدم انصياعه للنظام الفوراوي القائم في ظل القيادة الحالية. وفي الوقت ذاته تشكل تنافساً علي كرسي القيادة الفوراوية. ورأي (بوستد) في ذلك دليلاً قوياً علي أن السلطان علي دينار قد شارك فعلياً في إزاحة ابن عمه عن القيادة حيث يقول: (إن علي دينار قد دبر بليل خطة للقضاء عليه - أي علي أبي الخيرات - حيث جمع حوله عدداً من خدمه الفرثيت وقضى علي ابن عمه ودفنه في معسكره في وادي عريبو (Aribo) وسمى نفسه سلطاناً)⁽³⁾. وأياً كانت هذه الاتجاهات أو تلكم الادعاءات فإن السلطان

⁽³⁾ J. E. H. Boustead .o p. cit. PP. 149-150.

علي دينار قد خلف سلفه ابن عمه أبا الخيرات في قيادة الفور وحقق ما كان يهدف إليه في 1891م⁽⁴⁾. ولكن هذا الأمر قد يقع في دائرة التخمينات، ولئن كان في الممارسة السياسية كل الإحتمالات غير الأخلاقية واردة وغير مستبعدة، إلا أننا في هذه الواقعة لا نجد دليلاً أو برهاناً قوياً يؤيد هذا الادعاء الذي يرمي إلى اتهام السلطان باغتيال ابن عمه والولوج إلى السلطة من هذا الباب القذر، وإن كنا في الواقع المعاصر نجد لذلك سنداً قوياً فيما حدث بين دكتور الترابي وزمرته، وما حدث بين الصادق المهدي وأفراد أسرته منذ الستينات ومروراً بالألفية الثالثة، ونقد وتيسير مدثر وشرذمتيهما سواء في الستينات من القرن الماضي أو في بدايات القرن الحالي. إذ أن القراءة التاريخية الواعية والقادرة علي ربط الأحداث تدل علي نماذج تاريخية تكاد تكون متشابهة ومتكررة في هذا الشرذم وهذا التجزؤ والتفتت وهذا الاغتيال الجسدي والفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والروحي، سواء علي مستوي السودان أو القارة الأفريقية أو العالم العربي والإسلامي. وهو في تقدير المؤلف يدل علي سوء التقدير وعدم وضوح الرؤية وذاتية النظرة وأنانية القيادة التي لا تعترف بكينونة الآخر وإن كان يقف معها في خندق واحد. وضيقها ذرعاً بالنقد الذاتي البناء وانخداعها بالمدح والثناء الزائف من قبل محدودي الأفق والقدرات والإمكانات .

ب- علي دينار مجبر أخاك لا بطل:

في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ السودان الحديث فقدت المهديّة أحد قادتها الكبار الذين لا يشق لهم غبار في منطقة دارفور. وبدأت أسهم المهديّة تأخذ في الانحسار والنزول بعد هلاك (عثمان آدم). وعين الخليفة علي الغرب خلفاً له محمود ود أحمد ابن عمه وهذه بدايات دخول الدولة المهديّة في النفق المظلم بتقديم الولاء والجهوية والعرقية علي الكفاءة، وهو اتجاه سبق للمهدي أن رفضه في تأسيس بناء دولته. وهو مؤشر ضعف في تاريخ الدول قديماً وحديثاً لأنه يولد أحقاداً وحسداً ويساعد علي بروز روح العنصرية النتنة. فوصل الأخير إلي الفاشر في 27 يناير 1891م. وتولى القيادة مكان عثمان آدم الذي راح ضحية مرض فتك به. وكان مركز محمود قبلاً في

(4) تقارير المخابرات 1 - 1920/1/31م انظر ايضا:

S.I.R. 90/ 8 . A.B. Theobald. op. cit. PP. 28-29 .

كردفان، لذا ولى علي الفاشر عبد القادر دليل. وحاول محمود ود أحمد استدعاء علي دينار الذي احتذى بأتباعه في جبل مرة لأداء فروض الطاعة لقائده عبد القادر دليل في دارفور. إلا أن علي دينار أخذ ينتحل الأعذار الواحد تلو الآخر. فتارة يعتذر ببعد المشقة وأخرى بترك أتباعه له. وكان علي دينار حينذاك قد لقب نفسه بعبد ربه أمير المؤمنين السلطان علي دينار بن المرحوم السلطان زكريا. ودرج علي المراسلة بهذا اللقب⁽⁵⁾. يلاحظ المرء دهاء علي دينار ومدى قدرته علي التحايل علي القائد المهدي، وأنه كان يخشى أن يتم الفتك به قبل تحقيق أمنية الفور في استرداد سلطانتهم الضائع. ولكنه في الوقت ذاته كان يخشي بطش المهدي فقدر أن خير وسيلة ينتهجها في التعاطي مع هذا الواقع هو أسلوب التقية.

ولظروف خاصة به وبأتباعه لا تزال غامضة لم يكشف عنها النقاب بعد فقد تخلى عنه أتباعه⁽⁶⁾. وما أن شعر علي دينار بالوحدة القاتلة حتي بدأ ينمق عباراته ويحسن ألفاظه في مخاطبة محمود ود أحمد تقية ومدارة ريثما يتمكن من استعادة أنفاسه ومركزه بين أتباعه. الأمر الذي يدل علي أنه قد نهج سياسة جديدة، ربما أراد بها أن يستفيد من تجربة ابن عمه يوسف بن السلطان إبراهيم قرض في مهادنة المهدي بغية انتزاع السلطة من أنياب الثورة المهدوية مرة أخرى. فأعلن ولاءه للمهدي وفقاً لما ورد في كلماته الآتية: (قلوبنا مليئة بحبكم هدفنا الاتصال بكم والتعاون معكم لرفع كلمة الدين، وإتباع طريق المهدي.. إلا أن الذهاب والانتظار بيد الله)⁽⁶⁾. ويؤكد علي أن خطابات محمود ود أحمد قد زادت رغبة في زيارته ورؤيته وتقبيل أيديه⁽⁷⁾. إن هذه

⁽⁵⁾ تقارير المخابرات 1 - 1920/1/31م انظر أيضا:

S.I.R. 90/ 8: See also A.B. Theobald. OP . Cit . PP.28-29 .

⁽⁶⁾ يبدو أن السياسة المهدوية المرنة قد نجحت في استقطاب أتباعه. والتعامل الحسنة من قبل الخصم دائماً تكون لها آثار سلبية علي المقاومة التي صمدت فترة طويلة. بمعنى آخر أن الحوار الهادئ نتاجه اقوي من استخدام القوي. وفي الواقع المعاصر توجد أدلة كثيرة في التاريخ القديم والحديث والمعاصر علي ذلك ففي التاريخ الاسلامي لقد استطاع معاوية ابن أبي سفيان أن يكسب الجولة لصالحه عن طريق اتفاق عام الجساعة. وفي التاريخ الحديث والمعاصر لقد تمكن النظام المايوي في سبعينات القرن العشرين من أضعاف الأحزاب المنضوية تحت لواء الجبهة الوطنية عن طريق التفاوض المباشر مع رئاسة الجبهة الوطنية (الصالح المهدي) دون علم وشورة الأطراف الاخرى فضعفت الجبهة الوطنية وذهبت ريحها وتلطح الجميع من أقصى اليمين إلى أقصى المشاركة في ذلك النظام الغابر ابتداء أو انتهاء ونجحت الإنقاذ في تثبيت شمل خصومها عن طريق التفاوض وإغراءات المناصب لاسيما مع ميلان لعاب الكثيرين أمام المناصب والمكاسب الآتية من أحزاب وأفراد وهيئات.

⁽⁶⁾ تقارير المخابرات 1 - 1902/1/31م S. I. R. 90/8 .

⁽⁷⁾ المرجع السابق.

الإشارات تدل علي أنه كان قارئاً جيداً لمعطيات الواقع لاسيما بعد أن تخلى عنه بعض أتباعه، وأضحى في موقف لا يحسد عليه. لربما كان للحركة المهدوية دور في هذه التعرية السياسية، فقبل أن يصاب بتصحّر سياسي فتاك وتموت آماله وتقر أحلامه في استعادة أمجاد آبائه، لجأ إلى المصالحة مع النظام المهدوي القائم باعتباره واقعاً لا فكاك منه ولا مناص من التعامل معه. وهي قراءة سياسية ذكية قادرة علي التلون والتكيف مع الوقع دون إخلال بالأهداف. وهي في تقدير الكاتب لا تعدو عن كونها مصالحة مرحلية كما سنرى. وتحت ضغط الإلحاح والطلب والظروف التي أحاطت به استجاب علي دينار للتسليم عام (1893م). وركب الصعب متجهاً صوب الفاشر. وعند وصوله الفاشر استقبله عبد القادر دليل استقبلاً حافلاً. وأكد علي دينار في خطاب بعث به إلى محمود ود أحمد أنه: (وفقاً للتعليمات الصادرة من قبل مولانا وسيدنا خليفة المهدي عليه السلام ولكم فلقد أصبحت أحد أفرادكم وتحت حمايتكم والآن تحت أوامر عبد القادر ... وأسأل الله أن يرينا وجهكم بأسرع ما يمكن)⁽⁸⁾.

يلاحظ المرء أن الصيغة قد تغيرت لاسيما التي كان يعنون بها مراسلاته من أمير المؤمنين السلطان علي دينار إلى عبد الله علي بن زكريا⁽⁹⁾. ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب الفوراوي الجديد اقتضته الظروف الآنية. وحاولت القيادة الفوراوية أن تستمد مواقفها من الاستفادة من تجارب سابقة والاعتبار بما حدث للسلطان يوسف بن إبراهيم في مهادنته للحركة المهدوية واستطاعته التمرد عليها حين تمكن واشتد ساعده. ولعل الاستقبال الحافل له يدل علي أن القيادات المهدوية كانت علي مستوى رفيع من المسؤولية وقارئة جيدة للواقع فاحترام قيادة قومية مثل علي دينار واستقبالها له علي هذا المستوى له مردود ايجابي علي أتباع علي دينار ومحاولة جادة لسحب البساط من تحت قدميه بنعومة زائدة.

ومن جانب آخر قام عبد القادر بتركية سلوك علي دينار لقائده محمود وطلب منه له الأمان. ونتيجة لذلك كتب علي دينار إلى ابن عمه إسحاق يطلب منه القدوم إلى الفاشر والخضوع للنظام القائم، وشرح له حسن الاستقبال الذي لقيه من قبل القيادة

(8) المرجع السابق.

(9) المرجع السابق.

المهدوية في الفاشر. من خلال الإطلاع علي هذا الخطاب يلمح المرء لفئة ذكية من علي دينار تؤكد علي أنه كان يعي طبيعة الفور واستعدادهم للالتفاف حول أي قيادة أخرى من أبناء السلاطين إذا تنازل هو طواعية عن هذا الدور القيادي وانخرط في سلك النظام المهدوي المرفوض من قبلهم. لذا لا غرابة أن أراد بذكاء ودهاء أن يحتفظ بحقه في القيادة والتوجيه وأن لا يدع الأمر يفلت من بين يديه. كما عقد العزم علي أن لا يدع مجالاً لأي منافس آخر خارج دائرة نفوذه يمكن أن يتحكم في الفور من وراء ظهره. وفي دعوة ابن عمه للانتظام في سلك المهدية يكمن مغزى تغيير اتجاه السياسة الفوراوية تجاه الحركة المهدوية التي استعصت وشكلت قوة ذات نفوذ ووزن في المنطقة. فلا بد إذن من مهادنتها ومحاولة الإعداد والتنظيم داخل أراضيها وهدم بنيانها من الداخل، والاستفادة من مظلتها للاتصال بالأطراف الفوراوية الموجودة داخل تركيبة الدولة المهدوية، وهذا ما حدث بالفعل ونجح بصدده علي دينار. لا يختلف اثنان في أن هذا أسلوب سياسي ذكي لا زالت وستظل القوى السياسية القارئة الجيدة لمعطيات الواقع في ظل مواجهة سلطة قوية رادعة، أن تتعاطى هذا القدر من الجرعات السياسية في التعامل والتعاطي مع السلطة القائمة بغية هدمها من الداخل.

وقد لجأت إلى هذا الأسلوب الجبهة الوطنية السودانية في سبعينات القرن الماضي وعملت خلافاتها مع المشير جعفر نميري يومئذ، وتمكنت بواسطة عناصرها الفاعلة من أن تهدم البيت من الداخل. وكذلك سلكت هذا السلوك بعض الأحزاب الجنوبية والشمالية مع حكومة الإنقاذ فتمكنت بذكاء أن تنشئت شمل الإسلاميين وإن تلقى بينهم العداوة والبغضاء حتي وصل الحد بأحد المتنفذين في سلطة الإنقاذ بأن يستعدي نائبه وهو علماني فارغ ومغفل نافع بأن يضايق الإسلاميين الموجودين في كبرى إحدى مؤسسات التعليم التي يقوم هذا الإسلامي بإدارتها وقد قام الأخير بواجبة علي أحسن وجه. ولعل الاتفاقات الأخيرة التي مهرتها الإنقاذ تصب في هذا الاتجاه، وبالتالي فإن كثيراً من المشاريع الكبيرة والتي فشلت سواء في ظل مايو أو في ظل الإنقاذ تصب في هذا الاتجاه حيث تم تنقيتها وإفراغها من محتواها. وهي من باب تهديد الحصون من الداخل. وتم كل ذلك تحت أشرف قيادات منائفة داخل تركيبة النظام لإفساد

الفصل الثالث - علي دينار ودوره في استعادة السلطنة وقيادة الحركة الوطنية

المشروعات الكبيرة وأضعاف البني الأساسية للدولة من الداخل بدلاً من معارضتها من الخارج. سواء في الخدمة المدنية أو مؤسسات التعليم العالي أو في الخدمة الإلزامية أو المؤسسات السياسية حتي أضحت رائحة الفساد تتركز الأنوف تحت مظلة المشروع الإسلامي وتحت سمع وعين أرقام إسلامية كانت في نون من الأيام تملأ الدنيا طينياً ووعظاً وتكلم الناس عن عفة اليد المتوضئة التي أضحت ملوثة بطينة خبال السلطة فنسبت ما كتب عليها في اللوح المحفوظ من عهود موثيق فشهد عليها أهل السماء والأرض سواء في الصحف أو في الجمعية التأسيسية الهالكة.

وتم اقتياد علي دينار بعدئذ مكرهاً أخاك ولا بطل إلى القائد المهدي محمود ود أحمد في الأبيض. وكان الخليفة في عجل من أمره فكتب إلي علي دينار بعدئذ يستدعيه إلى أم درمان بيد أن الأخير قد تردد كثيراً في تلبية هذه الدعوة ولما لم يجد بداً لبي النداء. وخوفاً من هروبه جعله الخليفة ضمن حرسه الخاص وهذه سياسة برج الخليفة علي أتباعها إزاء الذين يشك في ولائهم، وتم إلحاقه فعلياً بفرقة إبراهيم الخليل أخ محمود ود أحمد وهو ابن عم الخليفة. وفي هذه الفترة نشأت بينه وبين سلاطين باشا النمساوي الذي كان يحكم دارفور من قبل الدولة المصرية صداقة حميمة. مما كان له أكبر الأثر في علاقته فيما بعد بالحكم الثنائي في البلاد فيما بعد⁽¹⁰⁾. إن هذه الإشارة التاريخية لها دلالتها إذ تؤكد علي أن علي دينار لم يؤمن يوماً ما بالمهدية، ولكنه كان مجبراً علي التظاهر بما تظاهر به، تقية وتحيناً لفرصة استعادة مجد أجداده. ومن جانب آخر فإن الخليفة عبد الله بعينه الناقبة كان يدرك ذلك. ومن هنا فلاحظ أنه احتفظ به في أم درمان وهذه سياسة اتبعها الخليفة إزاء كل المشكوك في ولائهم من أمثال سلاطين وغيره كما سبقت الإشارة إليه. ورغماً عن هذه المهادنة الظاهرة والخضوع الأسمى من قبل علي دينار للدولة المهدوية إلا أنه لم يغيب عن ذهنه حكم بلاده واسترداد مجده وحضارة سلطنة أجداده.

⁽¹⁰⁾ D.S.A. box 110/6 H.A. Macmicheal. OP. cit. PP. 22 See also: G.D. Lampen OP. cit. PP. 196.

تقارير المخابرات 1 - 1902/1/31 م S.I.R. 90/8 .

ج - علي دينار وعيون الخليفة:

سبق الإشارة إلى أن علي دينار بعد تردد قديم إلى أم درمان في فترة مبكرة. وأن كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أنه ظل مع محمود ود أحمد في الأبيض حتى استدعائه لمواجهة الحملة المصرية الإنكليزية عام 1896م. حيث يذكر علي دينار بنفسه أنه قد شهد مع محمود ود أحمد معركة عطبرة. بيد أن ذلك لا يتفق وما تقدم من أن علي دينار بقي تحت عين الخليفة في أم درمان إلى لحظة ما قبيل معركة كرري بأم درمان. ولا خلاف بين الباحثين بأن علي دينار قد ألحق بفرقة إبراهيم الخليل (11). مما تقدم يتضح أن الثورة المهدوية لم تقتنع هذه المرة باستسلام قيادة الفور وبقائها في منطقة الغرب حتى لا تتكرر تجربة يوسف إبراهيم. لذا كان إصرار الخليفة علي استقدام علي دينار إلى أم درمان وبقية أبناء السلاطين له ما يبرره. وتلكا علي دينار أولاً حتى لا يفقد قاعدته الجماهيرية. ولما لم يكن بد من الانصياع لثوغيها الخليفة المعروف بحزمه وعزمه ونفاذ كلمته جاء علي دينار إلى أم درمان ولكن بثقة الأعيان والتنظيم للفور وتجميع أكبر قدر منهم تحت قيادته والعمل على هدم النظام من الداخل. وكان الخليفة عبد الله من جانبه يرى أن وجود علي دينار تحت عينه يشاعده علي عدم تكرار تجربة (يوسف قرص) وتكرار محاولة الانفصال بدارفور مرة ثانية تحت أي ظرف أو تحت أي مسمى. بيد أن علي دينار بحال أتواجه بأم درمان ثم تمكن من أن يعمل علي تجميع رجاله حوله (12) في نية خفية.

هذا وبالرغم من عدم وجود وثائق يمكن أن تكشف النقاب عن فترة أم درمان بالنسبة للسلطان علي دينار إلا أن القرائن وما تلي من أحداث تفسر وتؤيد ما سبقت الإشارة إليه. فإذا تقرر أن علي دينار لم يشترك في معركة أم درمان الكبرى بكرري 1898م، وأن ذهابه إلى الغرب لم يكن بمفرده وإنما تبعه رجاله ولحقه به فرقة أخرى من أتباعه، فإن ذلك يدل في تقديري علي وجود تخطيط مسبق، وتنظيم دقيق، وثوقيت مناسب. ولعل عبارة نعوم شقير اللبناني الأصل وهو رجل استخبارات من

(11) Ibid

(12) نعوم شقير مصدر سبق ذكره ص 845-846.

الطراز الأول ووصفه لعلّ دينار الوارد في العبارة التالية يدلان علي أن علي دينار كان أثناء أقامته في أم درمان علي اتصال دائم بكبار رجالات البلاط الفوراوي والذين قد تبوأوا مكانة مرموقة في ظل الثورة المهدوية وحازوا علي ثقة الخليفة نفسه حيث يقول: (أما علي دينار فقد مر أنه قر من واقعة أم درمان بنفر من أهله وأخصائه وفيهم الأمير قمر الدين البرناوي من أمراء الأرباع والفقير أمين الفلاتي وهو من رجال السلطان إبراهيم قرص الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى وسداد الرأي. وقد كان عند الخليفة أميناً للجبخانه فسار بهم علي دينار إلى التربة الخضراء وكانت فيها أبل الخليفة فأخذها وتقدم إلى كحمر فأقام فيها ثمانية أيام إلي أن تكامل الفارون من أهل دارفور من عرب وسود، وسار بهم إلى الفاشر)⁽¹³⁾. يلاحظ المرء أن دارفور طوال تاريخها الماضي كانت تحكمها قومية واحدة ولا تعرف التفرقة العنصرية والإثنية البغيضة إليها سبيلاً، فالذين ساروا تحت راية علي دينار هم عرب وزنوج وفلاته.

هذه الإشارات في مجملها تقرر أن علي دينار كان علي صلة دائمة برجال دارفور الموجودين في أم درمان. وأن عملية الإعداد التي كان يقوم بها خلال تواجده في أم درمان أتت ثمارها بأن تجمع حوله كبار رجالات دارفور وكبار القيادات في الدولة المهدوية من الفور. واستطاع أن يجمع صفوفهم بعيداً عن عين الخليفة ورقابته وإن يفر بهم عشية الحملة الإنكليزية المصرية علي أم درمان 1898م. ولعل خروجه في هذه اللحظات الدقيقة والحرية من تاريخ الثورة المهدوية يؤكد علي أنه لم يكن في يوم من الأيام يكن وداً أو أخلاصاً لها ولقياداتها أو يؤمن بأطروحات الثورة المهدوية. كما أن انتظاره في مكان معين لجمع صفوف الفارين من أهالي دارفور يدل علي التخطيط المسبق والتوقيت الدقيق. ولعل الدولة المهدوية بالرغم من حذر الخليفة الزائد لم تكن تملك جهاز استخبارات علي قدر من اليقظة والفاعلية، وإن لا فإن الذي قام به علي دينار يدل علي قدرته الفائقة علي الاستقطاب والجاذبية القيادية والاختراق الفاضح لاستخبارات المهدية وتمكنه من المحافظة علي سرية الإعداد والتنظيم في مركز الدولة. وفي ذات الوقت يدل ذلك علي غفلة الدولة المهدوية حتى في العاصمة. ولعل

(13) لغوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 964-965.

كتاب (أوهر والدر) مما يمكن أن يفسر به ما يجري في أطراف الدولة المهدوية من انفراط عقد الأمن وضعف أجهزتها الاستخباراتية. وما كتبه (أوهر) عن الدولة المهدوية ونشره في أوروبا يؤكد على أنها دولة كان يمكن اختراقها بسهولة وببساطة بواسطة أي إستخبارات خارجية، وهذا الضعف الأمني في حد ذاته يفسر هروب كل من (أوهر والدر) (وسلاطين باشا). ويشير في الوقت ذاته إلى تورط عناصر داخلية وطنية في التعامل مع هذه الجهات الخارجية. ولعل ذلك نتج نتيجة جهوية الخليفة، الأمر الذي ولد مرارات وأحقاد وضغائن.

د- علي دينار والهيمنة علي دارفور:

مما سبقت الإشارة إليه يمكن القول بأن علي دينار لم يكن علي وفاق تام مع المهدية من أول يوم وحتى آخر لحظة من لفظ أنفاسها. وأن إذعانه لم يكن إلا توجهاً مرحلياً، ومهادنة مؤقتة، بغية تجميع وإعداد رجالات دارفور ومحاولة انتهاز أية فرصة مناسبة للانقضاض والاستيلاء علي دارفور. وإقامة نظام ومراسم السلطنة من جديد علي تربتها. علّ ذلك تبينه لنا مغادرته أم درمان في وقت كانت الثورة المهدية بحاجة فيه إلى أي جهد وطني وقوة أي رجل في قلبه ذرة إيمان بمبادئ المهدية. في هذا اللحظات الحرجة من تاريخ المهدية (فر السلطان بأنصاره إلى دارفور) (14). الأمر الذي يؤكد علي وجود التنظيم والترتيب والتخطيط والإعداد المسبق. إذن كان علي دينار في أم درمان وقلبه في الفاشر ودارفور عموماً. وأن الكفاءات المقتدرة التي جمعها حوله تدل علي نظرته البعيدة. وكما تقدم فقد اتجه عشية الحملة الإنكليزية المصرية صوب الفاشر. وكان محمود ود أحمد قد ترك في الفاشر حامية مؤلفة من ثلاثمائة رجل بقيادة أمبدي الرضي التعايشي، وحامية أخرى في كبكابية مسلحة بـ 50 بندقية بقيادة سنين التاماوي.

وفي 1897م هرب رجل من سلاطين الفور يدعي إبراهيم علي من جيش محمود ود أحمد ولجأ إلى السردار قائد الحملة الإنكليزية المصرية علي السودان. وأذن له

(14) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 823.

السردار بالذهاب إلى دارفور وجمع أهلها علي طاعة الحكومة. ولكنه تأخر وقبل وصوله أم شنقة كانت واقعة أم درمان 1898م. وفي هذا الأثناء أتى علي دينار الفاشر وطرده أمبدي الرضي منها، فأنضم الأخير إلى إبراهيم علي في أم شنقة، ورأي علي دينار أن دخول إبراهيم عليه في الفاشر يعتبر تعدياً⁽¹⁵⁾ صريحاً وتجاوزاً للخط الأحمر. وأيضاً كان هناك دعي فوراي آخر يدعى حسين أبو كوده الفوراي. بيد أنه بوصول علي دينار سلم إليه زمام الأمر فعينه الأول أميراً علي الكرنك⁽¹⁶⁾. أما إبراهيم علي فلم يجد بداً من التقهقر بعد أن جرد عليه علي دينار جيشاً فهزمه وردّه علي أعقابهِ. فبعث إبراهيم إلى السردار يستعديه علي علي دينار ويطلب منه المدد. بيد أن السردار كتب إليهما يوفق بينهما حتى يتسنى للجيش التفرغ لإحتلال دارفور. ورأي إبراهيم علي أن لا مناص من التراجع فكر راجعاً إلى أم درمان⁽¹⁷⁾. يبدو أن المعلومات التي وفرها سلاطين عن علي دينار للجيش الغازي وقيادته لم تكن مطمئنة ولم تدفع بالجيش الغازي وقيادته إلى إختيار علي دينار إختياراً أوحد ليكون عميلاً آخر بديلاً عن إبراهيم علي. بيد أن سكوت الجيش الغازي ومحاولته التوفيق بينهما هو من باب التسكين المؤقت ريثما تتجح الحملة في مسعاها بالاستيلاء علي كل السودان وتوطيد أقدامها ومن ثم تلتفت إلى دارفور وتستولي عليها بالقوة.

هـ- علي دينار والاحتلال:

رأينا أن إختيار الجيش الغازي قد وقع علي إبراهيم علي ليقوم بإخضاع دارفور تحت راية الجيش المحتل. بيد أن علي دينار الذي ألقى ربحاً من عمره قائداً وهو من أبناء السلاطين وقد آلت خلافة قيادة الفور إليه لا يمكن أن يغفل دوره في مثل هذه الظروف الحرجة. ولا يسمح لأحد أن يتجرأ علي انتزاع القيادة منه. لذا سارع ودونما توجيه من أحد إلي الفاشر رأساً لاستعادة سلطنة آبائه. وكان مستعداً لأية مقاومة وهذا يفسره موقفه تجاه رجلين من أبناء السلاطين أولهما أبو كوده وثانيهما إبراهيم علي. فقد

(15) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 964-965. انظر أيضاً:

H.A. Macmicheal: (Notes) OP. cit. PP. 27.

(16) المرجع نفسه.

(17) المرجع نفسه.

أخذ من الأول زمام المبادرة وسحب البساط من تحت الآخر وجرد عليه جيشاً لهزيمته. ولم يكن علي دينار يومئذ في موقف يؤهله لمقاومة الجيش الغازي. ولكن الخطير في الأمر أنه قد ناصب مبعوث السردار العداء منذ الوهلة الأولى، الأمر الذي قد جبر عواقب وخيمة عليه وعلي بلاده. بيد أن الجيش الغازي لم يكن يومها في وضع يؤهله لمواصلة غزو بقية بقاع السودان الشاسعة ودارفور علي وجه التحديد. وكانت قوات الاحتلال ترمي إلى إيجاد شخصية فوراًوية كارزمية خلاف علي دينار تستطيع القضاء علي نفوذ المهدية في دارفور وتحكم البلاد وتخضعها للحكم الثنائي دونما خسائر. لذا نلاحظ أن خطاب السردار إلى كل من إبراهيم وعلي دينار كان يعني قدراً من المرونة. ويوحى بأن هناك خيطاً ممدوداً يمكن التعامل من خلاله.

لقد اهتبل السلطان علي دينار هذه الفرصة وبحث بخطاب إلى السردار يعلن فيه طاعته. ويبيدي رغبة أكيدة في أنه سيحكم دارفور مقابل ضريبة يدفعها لحكومة السودان⁽¹⁸⁾، وللمرة الثانية يكرر علي دينار ذات اللعبة السياسية الذكية التي لعبها من قبل مع المهدية، ولكنه هذه المرة يكررها علي مسرح آخر، ومع قيادة جيش الاحتلال الجديد، مما يدل علي قراءته الجيدة لمعطيات الواقع ووضوح رؤاه المستقبلية. فبذات القدر الذي ظلت تلعب فيه السلطة المحتلة معه دوراً مرحلياً كان هو من جانبه يقوم بمغازلتها بذات المستوي من الذكاء وكان كل منهما يتعامل مع الآخر من زاويته التي تقاطعت فيها مصالحه مع الآخر. وهو دور أشبه ما يكون بدور القط والفار، الكل يتربص بالآخر ويرى أن الأيام كفيلة بحسم الأمر لصالحه. وبمجرد وصول علي دينار إلي دارفور عمل ختماً نقش فيه: السلطان علي دينار بن السلطان زكريا بن السلطان محمد الفضل بن السلطان عبد الرحمن الرشيد بن السلطان بكر 1316هـ⁽¹⁹⁾. فيما يتصل بالنقطة الأولى ومراسلاته ومبادرته للسردار بإعلان الطاعة أمر له مدلوله من الناحية السياسية إذ كان ينشد بذلك الخطاب نزع اعتراف مبدئي بسلطانه علي سلطنة

(18) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 965. انظر أيضاً:

H.A. Macmicheal. (Notes). op. cit. P.27.

(19) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 965. انظر أيضاً

A.C. Beaton op. Cit. PP.5

Moreover see: S.I.R. 90/8-9 1st to 31st January, 1902

آبائه وأمجاده. من هذا الغازي المحتل الذي لا يرحم. هذا بالرغم من عدم قناعته بلزوم ذلك حيث أعلن نفسه سلطاناً علي دارفور من أول يوم وصل فيه إلى ديار آبائه وأجداده وعمل الخاتم الرسمي وهو منظر سيادي مما يدل علي تصميمه المسبق علي استعادة مجده وإحياء سلطنة الآباء. ولكن المصلحة العاجلة، والدهاء السياسي يقتضي منه ذلك السلوك المرحلي. أما محاولة إثبات شرعية سلطانه ليست بحاجة إلى إقرار الحكومة الثنائية. ولكن كان يدرك مدى الخطر الذي يحدق ببلاده في حالة مناصبته العداء لهذا النظام السياسي الجديد في البلاد. فقد رأى بأن عينيه ما حاق بالثورة المهدية من تقتيل دون رحمة أو معيار أخلاقي وبشريد وخراب ديار. لذا جازل انتزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية. وضمن خطابه إقراره بدفع جزية سنوية ليضمن استقلاله شيئاً ما، وليصفي شرعية قانونية علي نظامه وجوده. في رأي المؤلف أن هذا السلوك من علي دينار في وقته يدل علي واقعيته وقدرته علي التعاطي مع الواقع بذكاء وبوعى عفاً عن الأيديولوجية لا يتركها له، والسياسي الناجح هو الذي يستطيع التضحية بالأهداف الثأورية في حيل لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الجوهرية. ⁽²⁰⁾ إن ذلك كانت دبلوماسية علي دينار ذكية ومباشرة ناجحة لا سيما على مستوى وجود سلاطين باشا في صفوف الجيش الغازي وصدقة علي علفا القديمة لفقد إقامته فهي انتزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية بسيادته علي بلاده ⁽²⁰⁾. ويمكن علي دينار من توظيف وإستثمار هذه العلاقة إلي أقصى مدى ممكن.

ومن المعروف أن سلاطين باشا كان حاكماً سابقاً لدارفور في الفترة التركية وقد تناول في تاريخ دارفور بشيء من التفصيل وبقدر من التعاطف في كتابه السيف والنار المطبوع (1895م). وقد قام صديقه ونجت (ريجنالد) بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية (1896م) ⁽²¹⁾. فعمل لصدقة علي دينار وصلته بسلاطين أثر في ذلك، أي في تناول سلاطين لتاريخ دارفور بشيء من التعاطف. كما أثرت تلك الصداقة علي الإسراع بانتزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية بسيادته علي بلاده باعتباره سلطاناً مستقلاً:

⁽²⁰⁾ Sir Reginald Wingate, OP. Cit. PP. 10366.

⁽²¹⁾ نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 845-847.

(أسس حكومته علي مثال سلطنة أجدره وصنع ختمًا للسلطنة كأختام أجدره)⁽²²⁾ هذه العبارة أوردها نعوم شقير في كتابه تاريخ وجغرافية السودان ومن المعلوم أن كتابه قد ألفه (1903م). وهو رجل يتبع للمخابرات الثنائية، لذا فإن ورود هذه الإشارة وبهذا القدر من قبل رجل الاستخبارات في الحكم الثنائي تدل علي استقلالية السلطان ببلاده منذ اليوم الأول وأن الحكومة الثنائية كانت علي علم بذلك. وبذا نستطيع أن نجزم بأن علي دينار استطاع ومنذ اليوم الأول أن ينتزع الاعتراف به من قبل الحكومة الثنائية باعتباره كياناً مستقلاً وباعتباره أمراً واقعاً ورقماً لا يمكن تفاديه أو تجاوزه في المعاملة السودانية. بيد أن مناقشة هذا الجانب وطبيعة العلاقة بين الطرفين، فقد خصص لها الباب الثالث من هذه الكتاب. لا شك أن هذا القدر من الحقيقة التاريخية في دارفور يمكن أن تفسر من خلاله أحداث دارفور المعاصرة إذ تخطئ أي حكومة تتجاوز الفور أصحاب السلطة التاريخية في موازقاتها السياسية وفي تركيبها الإدارية. فالفور كانوا ولا زالوا وسيظلوا يشكلون محور الأحداث والفاعلية الإيجابية في دارفور. فهم أصحاب سلطة تاريخية ومجد حضاري فاعل في المنطقة كلها. مما يعني ضرورة إعطائهم مساحة من الحركة في أي معادلة سياسية قائمة. وإن لا فهم جاهزون لإحداث هزة في النظام السياسي القائم مهما كان توجهه ولونه وطبيعته.

و- السلطنة والحفاظ علي الهوية:

لقد استطاع السلطان علي دينار انتزاع الاستقلال من قبل الحكم الثنائي 1900م⁽²³⁾. ولعل وجوده بأمر درمان قد كون لديه شعوراً بضرورة أحياء العقيدة في مجال سياسة الرعية. فبوصوله القاهر أطلق علي نفسه ألقاباً ذات صلة وثيقة بالنظام السياسي الإسلامي مثل قوله: (فمن... أمير المؤمنين... السلطان علي دينار)⁽²⁴⁾. وقوله في خطاب آخر: (فمن عبد ربه الراجي عفو المعتصم بالله أمير المؤمنين

(22) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 965.

(23) Sir Reginald Wingate op. cit. PP. 10366.

(24) خطاب من علي دينار بتاريخ 1316/4/1م الي كاتبة من يطلع علي هذا الرسم

وسلالة الطيبين الطاهرين⁽²⁵⁾. وفي خطاب ثالث جاء قوله: (فمن حضرة السلطان الأعظم والخليفة الأكرم من دانت له جميع الأمم وخضعت له رقاب العرب والعجم أمير المؤمنين)⁽²⁶⁾. هذه الإشارات لها دلالتها الموضوعية والواقعية والتاريخية والعرقية والحضارية، فدارفور كانت ولا تزال وستظل هي موطناً وموئلاً للعرب والعجم والإسلام والقرءان. ولأن دماء كل فريق سواءً أكانوا عرباً أم عجماً قد جرت في شرايين الفريق الآخر تزاوجاً ومصاهرة ومؤكلة ومشاربة وثقافة وديناً. ولا يخفي أن أي محاولة تتجاوز هذه المعرفة التاريخية وهذه المفردات الثقافية مصيرها الفشل. وأي حزب يتبنى طرحاً خلاف ذلك هو حزب منبت الأصل والفكر تاريخياً واجتماعياً وثقافياً عن موروث دارفور السياسي والاجتماعي والثقافي. ومعظم خطابات السلطان علي دينار التي كتبها في فترة مبكرة تحتوي علي مثل هذه العبارات الإسلامية التي تفوق الحصر. وهذه دلالة إسلامية تلقي الضوء علي هوية السلطنة والسلطان منذ الوهلة الأولى. وهناك دلالة أخرى تتمثل في استخدامه التاريخ الهجري في كل مكاتباته الرسمية والشخصية علي الإطلاق. وهو بهذه الكيفية قد تجاوز عقدة الدونية التي شكلت رؤي كثير من الساسة وقادة الفكر الحديث والمعاصر وبعض الكاديمين الذين مسح الغرب هويتهم فدفعوا ثمناً لنيل الشهادات منه أخلاقهم وقيمهم وموروثهم الروحي والحضاري فاضحوا كالبغال وشكلوا مخلوقاً شائهاً لا إسلامياً محضاً ولا غربياً محضاً، وللأسف وللأسف الشديد هم الذين تبواؤا المناصب العليا الآن سواءً علي مستوي السودان أو العالم الإسلامي ممن أصبحوا يقدمون في مراسلاتهم التاريخ الإفرنجي علي التاريخ الإسلامي. ودلالة ثالثة تؤكد علي إسلاميته التي لا تقبل الجدل تتجسد في تطبيقه الأحكام الشرعية دون هوادة، وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فهو أني معاهد الله أن الذي يغير أو يبدل الأحكام الجارية حسب الأصول العادلة من جماعتنا التي تحت ركاب دولتنا ولو يكون ابني لو انحرف عن الحق الشرعي لا أرفع عن إيقاع أحكام الجزاء اللايق به كما يقتضيه الشرع المحمدي)⁽²⁷⁾.

S.N.A. Intel 1/30

S.N.A. Intel 1/30

S.N.A. Intel 7/1/5

(25) خطاب من علي دينار في 1317/4/8هـ

(26) خطاب من علي دينار في 1316/8/4هـ

(27) خطاب من علي دينار إلى سلاطين في 1321/3/3هـ

إذن دولته كانت تحكم بشرع الله وتتفد أحكامه العادلة ولا تتعامل إلا بمصطلحات القاموس الإسلامي. ولا يكاتب علي دينار أحداً إلا بالتاريخ الهجري. وهذا التوجه فيه محاولة جادة لإبطال المشروع الغربي في السودان وفي العالم الإسلامي والذي شكلت كلية غوردون التذكارية ووريثتها جامعة الخرطوم والغالب الأعم من خريجيها أحد دعائم هذه الانهزامية الحضارية والثقافية في البلاد حيث كان الإداريون ورجالات الاستخبارات البريطانية هم الأساتذة فيهما والمشرقون علي رسائل رعيتهما الأولى والثاني والثالث والرابع. ودلالة رابعة علي وطنيته وأصالته: وهي أن حكمه لا يعدو عن كونه امتداداً طبيعياً لسلطنة آبائه وأجداده وهي سلطنة إسلامية ويقرر ذلك بقوله: (أن مملكة دارفور في العادة القديمة ملوكها وكافة أهل الوظائف التابعين ركاب السلطنة لهم عوايد تجري عليهم من آباتنا وأجدادنا السلاطين الماضين. كانت قبل خراب دارفور موجودة .. والآن بعودة أهل الوظائف من الملوك والشراتي والدمالج وسلاطين ديار رغبوا منا إعمال عوايدهم لهم كالعادة القديمة)⁽²⁸⁾. بهذا النص أراد السلطان أن يقرر قيام نظام إداري جديد أصيل علي غرار ما كان سائداً في السلطنة قبل خرابها. وهذه التسميات لم يسبق لنظام آخر قيامه بها، وهي مصطلحات إدارية تفردت بها سلطنة الفور تاريخياً عن غيرها فالشراتي: هم المدراء. والدمالج: تعني مأمورين. والملوك هم رجالات الإدارة المركزية في البلاد⁽²⁹⁾.

وبهذه الإشارة أكد علي أن النظام قد استكمل بناءه وفقاً لما كان في عهد أجداده ودل علي أنه امتداد طبيعي لما انقطع من مشوار هذه السلطنة ونظامها السياسي والإداري. وهذا بدوره يعطي بعداً استقلالياً متميزاً. ويوحى بأن التبعية الفوراوية للحكومة الثنائية كانت تبعية إسمية. إن هذه المفردة التاريخية الهامة تأتي أهميتها في أنها تشير بوضوح لا لبس فيه إلي أن دارفور يغلب عليها النظام السياسي التقليدي من حيث الإذعان والطاعة للأرقام التاريخية أكثر من استجابتها للعناصر الحديثة منبئة الأصل أو التي تحمل ثقافة وقيماً غربية مخالفة للموروث السياسي والمعرفي في

⁽²⁸⁾ D.S.A. Box 110/6 Macmicheal (Notes) OP. Cit. PP. 27-33.

⁽²⁹⁾ نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 176-177. انظر أيضاً: محمد بن عمر بن سليمان التونسي: (ملحق جومار)، ص 416-417.

دارفور. وبالتالي فإن فرض أي نظام حديث يتجاوز هذه الأطر التقليدية يكون خاطئاً إلا بعد حدوث تحول ثقافي عميق وتحول إجتماعي دقيق. ولعل الغالب الأعم من الساسة عندنا في السودان إنفعاليون مرتزقة وتجار سياسة نفعيون أكثر منهم عقلانيون والبعض الآخر مغفل نافع وجزء آخر نفعي فاشل. وإن أمر السياسة في السودان وفي كثير من الدول العربية والإسلامية يقوم علي الأفعال وردودها، وعلي الارتزاق والكسب الرخيص مقابل التضحية بالأهداف القومية والوطنية. فبعد أكتوبر في السودان رفع اليسار شعار التطهير واجب وطني ففقد السودان بذلك خيرة كوادره المدنية نتيجة حسد وغيرة وتصفية حسابات شخصية لا تمت للمصلحة الوطنية بصلة. وفي عهد مايو رفع اليسار مرة أخرى شعاراً آخر ألا وهو تصفية الإدارة الأهلية دون دراسة واعية وتحليل موضوعي ففقد السودان أحد ركائز الاستقرار. ولم يكن البديل واقعياً أو فعالاً والذي تجسد في خطرقات جعفر محمد علي بخيت والتي قبرت بزواله وهلاكه. وتمت أنفاذ عملية السلم التعليمي دون دراسة فأصبح الطالب يقرأ ولا يكتب إلى أن جاء الوقت الذي لا يحسن فيه القراءة ولا يجيد فيه الكتابة كما قدمنا. وتمت تصفية النقل الميكانيكي في عهد الإنقاذ دون دراسة. فامتأ السودان بقدر هائل من الحديد والسيارات التي لا تناسب البلد من حيث الطرق والمناخ والاستخدام والاحتياج الفعلي للبلد. فقد تم استيرادها بعملات صعبة خصماً علي مقدرات هذه الأمة ودخلها القومي. وتم التوقيع علي اتفاقية نيفاشا دون أخذ رأي الأمة. فأصبح الشعب السوداني عبارة عن قطيع تقوده زمرة أو شُرْزْمة قليلة يمنية ويسرة سواء من المعارضة أو الحكومة فلا خير في احمد ولا حاج احمد. وأمسّت الأمة مغيبة حتي في مجال البت في القرارات المصيرية، وهكذا ما حدث في القاهرة من اتفاق لا يعدو عن كونه تهافت من أجل الحصول علي كراس في الحكم دون مراعاة حقوق ومصالح الشعب. ويجتمع في الخرطوم ثلاثة من الشيوخ الذين تجاوزهم الزمن من أقصى اليمين إلي أقصى اليسار ليقرروا دون تفويض مصير أمة ويزعمون بأنهم قادرون علي إيقاف الحرب في دارفور وهم فتيلة إشعالها وهم ديناصورات السياسة السودانية وكان الاحري أن يودعوا في متاحف التاريخ السوداني لتجاوز الزمن لاطروحاتهم وتخريفاتهم. والسؤال من الذي أعطاهم التفويض ليتحدثوا باسم شعب السودان وهم ما بين تعيس وخائب الرجاء ولعل من مصائب هذه الأمة أن يتسلط عليها أمثال هؤلاء المتسيسون الأنانيون.

ز- السلطنة بين سندال الاستقلال والتبعية:

لعل نقاشاً حاداً قد يدور حول مدى الاستقلالية التي تمتعت بها هذه السلطنة. وبما ترى هل هذه السلطنة كانت مستقلة أم لا؟ في تقدير الكاتب أن هذه السلطنة قد تمتعت باستقلالية تامة وواضحة سواء أكانت دستورية أم إدارية أم عسكرية أم شكلية، ومارستها السلطنة فعلياً وواقعاً لا مرأى فيه. الأمر الذي اقتضى دراسة علاقاتها علي ضوء هذا التقدير. ولهذا الاستقلال براهين وملاحح غاية في الوضوح والجلء.

♦ الملاحح الاستقلالية:

أولاً: مما لا شك فيه أن التسميات⁽³⁰⁾ التي وردت في وثائق هذه السلطنة تعكس روحاً استقلالية عن النظام الأوربي المزمع قيامه في البلاد جملة وتفصيلاً. وينافي وجودها من جانب آخر التبعية بأي مستوى للخديوية المصرية أو الحكومة الإنجليزية. وتعتبر هذه المصطلحات ذات دلالة تاريخية في النظام السياسي الإسلامي.

ثانياً: لا يخفي علي ذي بصيرة بأن الحكم بشروع الله له مغزى استقلالي عن النظام المطبق في بقية أجزاء السودان الخاضعة للحكم المصري الإنكليزي.

ثالثاً: لقد أراد السلطان باستخدام التاريخ الهجري داخل حدود سلطنته أن يضفي عليها بعداً استقلالياً واضحاً.

رابعاً: إقدام السلطان علي دينار ومنذ الأيام الأولى علي صك عملة خاصة بدولته يعتبر ذلك عاملاً استقلالياً هاماً⁽³¹⁾. لا يستطيع أحد إنكاره حتي بمقاييسنا الحالية. لأن العملة مظهر سيادي في أي دولة في العالم اليوم وغداً.

خامساً: ظل السلطان وبصورة مزعجة للنظام الثنائي يكرر مطالبته المستمرة بتحديد الحدود الفاصلة بينه وبين الحكومة الثنائية. وطفق يكرر الإشارة إلى أن حدود دارفور قديماً كانت تشمل كذا وكذا يدل ذلك علي قناعته التامة بالاستقلال وعدم التبعية للحكم المصري الإنكليزي في البلاد⁽³²⁾.

(30) J.E. Boustead. OP. Cit. PP. 142-149.

(31) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 189. وقد قام السلطان علي دينار بصك العملة لأول مرة في 1317هـ. 1899م.

S.N.A. Intel 7/3/7

(32) السلطان إلي سلاطين في 1901/2/7م

سادساً: إن ورود كلمة دولتنا الأتفة وقوله: (ولكنني مما صار جلوسي في كرسي مملكة آبائي وأجدادي...) (33).

كل ذلك فيه دلالة إعلامية للحكم المصري الإنكليزي بأن السلطان في دارفور مستقل بحكم بلاده. وهو مقتنع في قرارة نفسه بهذه الكيفية الاستقلالية وكل ما عدا ذلك يفسر لصالح هذا الاستقلال.

سابعاً: قيام نظام إداري يعتبر صنواً لما كان سائداً في السلطنة قبل سقوطها 1874م فيه دلالة قوية علي استقلالية هذه السلطنة، وبذا تعتبر هذه الفترة امتداداً طبيعياً لسلطنة الفور بتقاليدها وإداراتها وأقاليمها (34).

ثامناً: حلما وصل علي دينار دارفور قام بتكوين جيش وعليه فإن وجود جيش مستقل عن جيش الاحتلال شكلاً ومضموناً، ولا يخضع جملة أو تفصيلاً لأوامر الخرطوم وحكومتها الثنائية البريطانية يعتبر ذلك في تقدير الكاتب دلالة استقلالية.

تاسعاً: إتباع علي دينار لسياسة داخلية تقتضي تثبيت دعائم حكمه مثل حملته علي كل من المعاليا والرزيقات وكاجا سروج، ومحاولة إخضاع هذه القبائل وتلك المناطق لسلطانه دون أذن أو علم الحكومة المصرية الإنكليزية يضاف إلى ما مضت الإشارة إليه. وإن كانت هذه النقطة في تقدير المؤلف ذات بعد موضوعي هام في تفعيل الأحداث في دارفور بعيداً عن الاستغلال الأجنبي الحالي. فإن دارفور منطقة رعي وزراعة كانت ولا تزال، ومنطقة قبائل رحل وقبائل مستقرة. ومن المألوف في ظل هذه الظروف أن تحدث منازعات وتمردات وخروج علي السلطة المركزية، وهي قضية قديمة حديثة من باب تنازع الزعامة، أو من باب الاعتداء الفردي أو الجماعي علي أراضي أو مزارع الغير. وهي مسألة طبيعية في ظل ظروف مكانية واجتماعية بهذا القدر. ولا يمكن تجاوزها أو حلها إلا إذا حدث تحول اقتصادي واجتماعي وثقافي. لأن مشكلة دارفور هي مشكلة ثقافية أكثر منها عرقية. ويخطئ من يريد تحويلها إلى مشكلة بين العرب والزنوج لأن نسبة الدم العربي في كل سكان دارفور دون

استثناء هو ما بين 40% إلى 80% حسب الدراسات الجينية الحديثة التي قامت بها بعض الدول الأوروبية (ألمانيا) لتحقيق أجندة خفية وما أن جاءت الدراسة مخيبة لآمال الدولة الممولة لهذه الدراسة حتي قامت بإخفائها ولمزيد من البحث يمكن الرجوع إلى بحثنا عن العلاقة المكية السودانية عبر القرون المقدم لندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية في أغسطس 2005م أو كتابنا عن ذات الموضوع وبذات العنوان والذي نشرته الدار العربية بالقاهرة 2006م لإجلاء الموقف أكثر مما هو وارد في هذه العبارة الموجزة⁽³⁵⁾.

عاشراً: كان السلطان حذراً إزاء الإنجليز وهذا يفسره عدم سماحه لأي مسؤول مصري أو أوروبي بدخول بلاده طوال فترة حكمه وكذا عدم خروجه لمقابلة أي مسؤول من الحكومة المصرية الإنكليزية، هذا الموقف يعتبر مظهراً استقلالياً واعتداداً بالذات وإدراكاً لما وقع فيه الزبير ود رحمة من أخطاء حين سافر إلى القاهرة بحسن نية، فتم احتجازه هناك إلى أن قضى نحبه، هذا مما يؤكد علي قدرة السلطان علي دينار علي الاعتبار بمفردات التاريخ ووعيه لمرامي الإنجليز في المنطقة، وقدرته علي المراوغة والمرونة في التعاطي مع الأضداد دون التفريط في مكتسباته التي حققها بعزم واقتدار. مما مضى يتضح أن السلطان علي دينار أفلح إلي حد كبير في استعادة السلطنة الفوراوية فأقام فيها نظاماً إدارياً شبيهاً بنظام السلطنة في عهد أجداده وأنشأ بها نظاماً قضائياً مستقلاً يعتمد الكتاب والسنة باعتبارهما مصدراً للتشريع الإسلامي. وعين علي كل جهة مقدوماً يتولى الإدارة السياسية والاقتصادية والعسكرية. وقسم البلاد إلي حواكير، وأنشأ جيشاً لحماية البيضة في البلاد. وقام بإزاحة كل العقبات التي تعترض هيمنته علي البلاد. فقام بطرد عربي دفع الله من دارفور⁽³⁶⁾. واخضع القبائل التي لم تدن له بالسيادة، وفي مجال العلاقات الخارجية كان له نشاط وافر اقتضى تخصيص هذا السفر للإمام بأطرافه حسبما توفر للكاتب واستطاع جمعه من وثائق ومراسلات ومطبوعات.

⁽³⁵⁾ يراجع في ذلك كتابنا العلاقات السودانية المكية عبر القرون الذي صيّر مؤخراً عن الدار العربية للنشر بالقاهرة 2005م وبحثنا الذي نشرته الندوة العلمية الكبرى لمكة عاصمة الثقافة الإسلامية / سبتمبر 2005م / المحور التاسع.

⁽³⁶⁾ A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 34.

الباب الثاني

خطر التنظيم الفـوراوي والدولة المهدوية

الفصل الأول: علي دينار ومقاومة القائد
المهدوي عربي دفع الله
الفصل الثاني: علي دينار والمواجهة مع
الفكي سنين ود حسين

الفصل الأول

علي دينار ومقاومة القائد المهدوي عربي دفع الله

بعد استيلاء علي دينار علي الفاشر عاصمة أجداده. وتحقق الحلم الفوراوي النزاع إلى الاستقلالية تتويجاً لمقاومة شرسة دامت لأكثر من أربعة وثلاثين عاماً. سقط فيها خيرة رجالات الفور وقياداتهم، واجه علي دينار أخطاراً أهمها الجيوب المهدوية في الجنوب والغرب. ولا شك أن تعامله مع هذه الجيوب يكشف لنا جانباً هاماً من شخصيته وعلاقاته بالمهدية فكرة ودولة.

وأحد هذه الجيوب المهدوية كان علي رأسه عربي دفع الله وهو من قبيلة البقارة. وهو من القيادات المهدوية المخلصة المؤمنة بالفكرة المهدوية إيمان العجائز كما يقول أهل أصول الدين من شيوخنا، وكإيمان كثير من أهلنا الغبش المخدوعين والمغيبين عن الحقيقة المرة والمنتمين إلي أحدي الطائفتين أو ممن ينتمون إلي الطبقة الجديدة من الأحزاب العقائدية التي خدعت قطاعاً كبيراً من المتأقفين. بيد أنها بشقيها قد سقطت في أولي عتبات التجربة العملية واستبان أمرها لكل ذي بصيرة. والله در عمر الخليفة الراشد حين جاءه أحد الناس يزكي آخر فسأله عمر رضي الله عنه بقوله: هل سافرت معه؟ هل تعاملت معه بالدرهم والدينار؟ فقال الرجل لا. فقال عمر أنت لا تعرفه. ونحن نشهد علي أن من كنا نحسبهم في مقامات السلف الصالح تقوي وورعاً اكتشفنا أنهم فراعنة ودجالي سياسة ليس إلا. وقد ترقى عربي دفع الله في مناصب عدة ونال ثقة القيادة المهدوية. ولقد كان بحق من الأفاضل الذين لا يبيعون مبادئهم بالدرهم والدينار كما هو حال كثير من القيادات السياسية المعاصرة سواء أكانت إسلامية أو علمانية عقائدية أو طائفية. فعمل عربي دفع الله مساعداً لوكيل أمارة دنقلا مساعد قيودوم

1307هـ . وفي 10 ربيع الثاني 1311هـ، 21 أكتوبر 1893م أرسله الخليفة بدلاً من أبي قرجه عاملاً علي بحر الجبل فوصل الرجاف في أوائل 1894م. وكان القصد من إرساله صد الهجوم البلجيكي ومحاولة إيقاف تقدم البلجيكي في هذه المناطق. وظل يحمل الراية المهدوية مدافعاً عن حدود دولتها. ودخل في معارك ضارية مع البلجيكي ولم يثته عن عزمه تخلي بعض القيادات المهدوية غير المخلصة لمبادئها من العملاء أو هروب أفراد من قواته والتحاقهم بالبلجيكي. الأمر الذي يدل علي ضعف الانتماء للفكرة وأن الدولة المهدوية بدأت تتهدد حصونها من داخلها. وأن المهدويون قد تم اختراقهم بصورة أو أخرى وأن البعض كان يدين للمهدية كرهاً لا طوعاً. وهذا النوع من الولاء السياسي سرعان ما تتكشف عورته ويصبح فيه الصديق عدواً ويخر السقف علي الجميع. ولعل خير مثال علي ذلك في عصرنا ما حدث في العراق وما جرى وما يجري في السودان الآن يعطي قراءة صحيحة لهذه النظرية. وعند دخول الحملة الإنكليزية لأم درمان ومطاردتها للخليفة غرباً علم عربي دفع الله بذلك ففر بجيشه إلى شكا. وأرسل السردار قائد الحملة الإنكليزية المصرية في أثره مجموعة من الباشبوزق لمطاردته⁽¹⁾ ولما كانت شكا واقعة ضمن حدود دارفور لذا فكر علي دينار بعد تسنمه العرش في ترسية أركان حكمه. وأولى أمر هذا القائد العنيد الذي استطاع أن يحمي الدولة المهدوية من شرور الهجمات البلجيكية ربحاً من الزمن عناية خاصة حتى لا يشكل خطراً علي وجوده في المنطقة. وهناك دافع آخر وهو الحصول علي السلاح الذي معه حتى يتقوى به علي دينار في مواجهة ما يستجد من أحداث وتأميناً لحدود سلطنته الجنوبية. وليضاعف من عديته العسكرية.

وفي هذا الأثناء ووجه عربي دفع الله بقوات متعددة المقاصد أولاها: الباشبوزق بقيادة كل من عبد الرحيم أبو دقل الحمري والقائد حسن وراق وقد تم ابتعاشهم بإيعاز من السردار لإستتصال شافة المقاومة المهدوية في البلاد. وهؤلاء اساساً كانوا من القيادات المهدوية ولكنهم لم يكونوا من أصلب العناصر لأصلب المواقف. وثانيتهما: بقيادة محمد علي الدادينقاوي في أواخر 1899م وهو مبتعث من قبل علي دينار. لذا

(1) نعوم شقير: تاريخ السودان، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، بيروت دار الجيل، سنة 1981م، ص 848، 849، 951. أنظر أيضاً: يونان لبيب رزق، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (1899 - 1924م) مصر/ القاهرة/ معهد البحوث والدراسات العربية، 1976، ص 241.

هجر عربي (شكا) إلى كالاكا⁽²⁾. ويرجح أن عربي دفع الله قد ترك الرجاف قبل قدوم كل من حسن وراق وعبد الرحيم أبو دقل لضغط البلجيك المتكرر عليه وتفرق رجالاته عنه. لا سيما بعد واقعة الرجاف واستبساله وهزيمته أمام أعدائه. وقد فر في معيته عدد من الأنصار. وحاول الاتصال بقيادته في أم درمان بيد أن الحملة الإنكليزية كانت قد وصلت أم درمان وسيطرت علي الموقف تماماً. ولم يكن أمام الخليفة بد ففر في وجهها تجاه الغرب⁽³⁾ في 2 سبتمبر 1898م.

ويؤيد الرأي السابق ما ورد في تقرير سابق للمخابرات جاء فيه: (قاعدة عربي دفع الله من المحتمل أن تكون في شكا ترك شكا إلى كالاكا)⁽⁴⁾.

وتبدو درجة اهتمام علي دينار بتصفية الجيوب المهدية بإنفاذه حملة بقيادة محمد علي الدادينقاوي وفضل الله ودغور في بداية حكمه لاستئصال شأفة أذئاب الدولة المهدية وتصفية جيوبها في المنطقة، وواد أية مقاومة مهدوية يمكن أن تتخذ من حدوده نقطة انطلاق لعملياتها التنظيمية أو العسكرية. وقد تم ذلك في أواخر 1899م.

وبذل السلطان جهداً جديراً بالملاحظة تجاه تصفية وجود قوة عربي دفع الله في المنطقة بإنفاذ ثلاث حملات متوالية في أقل من أربعة أشهر. ودارت بين هذه الحملات وعربي دفع الله معارك ضارية كسب عربي أولها. بيد أنه واجه نقصاً في المواد التموينية وحاول خلق جبهات إمداد فطلب العون من سلطان دارسلا (أبو ريشة) الذي تمكن من إمداده بإمدادات محدودة. بيد أنه لم يستطع الاستمرار في ذلك الموقف حتى مارس 1900م.

وفي 17 مارس بعثت الحكومة الثنائية في الخرطوم خطاباً إلى عربي حيث كانت حريصة على استئصال جذور المهدية من البلاد بأي وسيلة وبأسرع فرصة ودون هوادة. وفي الوقت ذاته كانت جادة في القضاء على أية قيادة ذات صبغة دينية بإمكانها

⁽²⁾ يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 241، أنظر أيضاً:

G. D. Lampen. OP. Cit. PP. 196-197.

⁽³⁾ نعوم شقير، مصدر سبق ذكره، ص 950 - 951.

⁽⁴⁾ يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره، ص 242 أنظر أيضاً:

S.I.R. 65 /2 Ist Sep to 20th Nov, 1899.

أن تشكل خطراً على الوجود الإستعماري في البلاد. إذ كانت تخشى من تفريخ مثل هذه الجيوب وتشكيلها خطراً لا يدفع، فطلبت منه ابتداءً الاستسلام وحاولت إغراءه بأن العفو سيشمله إن استسلم. وبعثت بخطاب آخر لعلّي دينار طلبت منه فيه عدم التعرض لعربي دفع الله في حالة قدومه صوب أم درمان⁽⁵⁾. في هذه الحالة تضاربت مصالح الفريقين فحاول علي دينار أن يلعب الورق لصالحه بذكاء وبوعي. فلم يستجب لطلب الحكومة الثنائية بالكف عن ملاحقة عربي دفع الله لأنّ له أجندته الخاصة.

وفيما يبدو أن هذا الحل لم ينل رضا علي دينار. إذ أنه كان يرغب في القضاء علي عربي بنفسه والاستيلاء علي ما معه من أسلحة ورجال لتقوية نفوذه وتعزيز موقفه. لذا لا غرابة أن أبدي تدمره من إجراءات الحكومة الثنائية بإرسالها قوة مكلفة بمطاردة عربي دفع الله لتكون قيادتها: من حسن وراق وعبد الرحيم أبو دقل. ولإفساد مسعى الحكومة بذل علي دينار وشاية للحكومة الثنائية فحواها أن عبد الرحيم أبو دقل لا يزال يبطن اعتقاداً مهدوياً وأنه أحد إتباع الخليفة الهارب⁽⁶⁾. ولعله قصد من الضرب على هذا الوتر الحساس لمعرفته بحساسية الحكومة المفرطة تجاه كل من تشتم فيه رائحة المهدية. وذهب بعيداً في اتهامه لأبي دقل الذي قال عنه بأنه قد ارتكب أعمالاً غير إنسانية أثناء مطاردته لعربي دفع الله. وذكر بأنه قد ارتكب أيضاً أعمالاً هددت أمن المنطقة عموماً ودارفور خصوصاً. ومما قاله في حق أبي دقل ما يلي: (أن شخصاً مثله غير جدير بتولي وظيفة صغيرة في الحكومة وإني لأوصي بمحاكمته بدلاً من أن يوظف في الحكومة)⁽⁷⁾.

في مواجهة هذا النص وهذا الموقف من قبل علي دينار تجاه أبي دقل لا يجد المرء له تفسيراً سوى العداء والتنافس ومحاولة القضاء على أية قوى محلية يمكن أن تشكل خطورة علي وجوده. إذ كان يرى في استسلام عربي دفع الله لأبي دقل تقوية

⁽⁵⁾ S. I.R. 68/2 9th March to 9th Apr. 1900.

⁽⁶⁾ وحتى منتصف سنة 1899م لم يتم للقضاء علي الخليفة عبد الله التعليشي الذي كان علي رأس الدولة المهدوية في السودان.

⁽⁷⁾ من علي دينار إلي الحاكم العام بتاريخ 22 جمادي الأولى 1318هـ.

S.I.R. 75/5-1 8th August to 8th Nov. 1900.

لمركز الأخير وإضعافاً لموقفه هو تجاه الحكم الثنائي في البلاد. وأن ذلك سيكون بداية النهاية للقضاء على الصرح الذي يرغب في بنائه. ويبدو أن علي دينار كان يلعب بذلك لصالح أوراقه.

لذا ضرب صفحاً عن خطاب الحكومة السابق بالأعراض عن عربي دفع الله والسماح له بالقدوم إلى أم درمان. حيث كان يرغب في هزيمته وضمه إلى معسكره تقوية لنفوذه، وتعزيزاً لموقفه. فحاول أن يركز في خطاب أرسله إلى المفتش العام علي نقطة مفادها انشغاله هذه الأيام بقضية: (المخدول الشقي عربي دفع الله بالحدود) (8). هذا بعد أن أعلن الحكومة بتعزيزه لقواته وتجهيزها بالمعدات الكافية لمهاجمة عربي دفع الله بقوله: (لقد قمت بإرسال أربعة آلاف بندقية للهجوم على عربي دفع الله وطرده. وأني لآمل في القضاء عليه حالاً) (9). هذا الخطاب أرسل بغية أن يؤدي دورين أولهما: إشعار الحكومة بأنه مستمر في ملاحقته لعربي دفع الله. وثانيهما: إشعار الحكومة الثنائية بقوته وقدرته على تطهير حدود دارفور من أي وجود غير مرغوب فيه. وأن لديه من العتاد والرجال ما يمكن أن يرد به على كل معتد على بلاده.

وعلى الجانب الآخر صمد عربي دفع الله صمود الأبطال. ولم يتنازل عن قناعته بدعوته أو يمتثل بالاستسلام لمن حطم دولته، وهزم قيادته. وفي الوقت ذاته لم تحدثه نفسه بالاستسلام لعلي دينار إذ كان يرى في ذلك خيانة لمهديته فلا عجب أن ظلت علاقته بعلي دينار رديئة. وتحت ضغط الظروف أصابه قلق تجاه الاستسلام للحكومة الثنائية لاسيما بعد انفصام العلاقة بينه وبين حليفه أبو ريشة سلطان سلا الذي كان يمدّه بالسلاح. ووردت إشاعات قوية بأن عربي دفع الله عزم اللجوء إلى سلطان بورنو طلباً للأمان عنده (10). بيد أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة حيث ظلت مقاومة عربي صامدة حتى يوليو 1902م. وما يمكن قوله أن عربي دفع الله نموذج رائع

(8) خطاب من علي دينار إلى المفتش العام في 29 رمضان 1318هـ S.N.A Intell 7/1/2

(9) من علي دينار إلى القائم بأعمال الحاكم العام في 12 جمادي الأولى 1313هـ S.I.R 75/6

(10) خطاب من أحمد سالم النور إلى أخيه شيخ الأضية علي جمعة بتاريخ 14/4/1901 S.I.R. 75/6

للفاء والإخلاص للفكرة والدعوة المهدوية رغماً عن أنه لا ينتمي إلى قبيلة المهدي. وقد ظل مخلصاً في وقت تتصل فيه الجميع عن إنتمائهم السابق للمهدية، وإن كانوا من قبيلة الدناقلة التي جاء منها المهدي. أو من الأشراف أو من التعايشة.

ونتيجة لصمود عربي دفع الله فقد طلب كرم الله شيخ محمد من علي دينار السماح له بقيادة جيش ضد عربي دفع الله. بيد أن شكوك علي دينار في حديثه وهو قائد مهدي سابق ورجل إدارة محنك وخوفه من انضمام كرم الله إلى عربي بعد وصوله إلى معسكره وتشكيله قوة مرهوبة الجانب يمكن أن تهدد وجوده في المنطقة لذا لم يوافق علي اقتراحه و أرجأ طلبه⁽¹¹⁾.

أن هذا التقرير بإشارته المتقدمة يلقي الضوء على فترة علي دينار في أم درمان إذ أن وجود كرم الله شيخ محمد وهو أحد القيادات المهدوية الدنقلوية في معسكر علي دينار أمر له أهميته. حيث نلاحظ أن علي دينار قد أفلح في أن يضم إلى تنظيمه السري كل العناصر سواء أكانت عربية أو قوراوية، شمالية أو جنوبية. مما يدل على قدرته على التأثير حيث تمكن من اختراق حصون مهديوية قيادية وكسبها لصفه، من أمثال كرم الله شيخ محمد وهو قائد مهدي وذو مكانة مرموقة في الدولة المهدوية. وهو من التجار الدناقلة الذين استقروا في بحر الغزال واستجاب للدعوة المهدوية وباع المهدي الذي أرسله أميراً على بحر الغزال التي استسلمت ودانت له وبقي فيها إلى 1886م حيث استدعاه الخليفة. فأنضم إلى أخيه كركسابوي في شكا وبقي فيها بأمر الخليفة إلى 1888م⁽¹²⁾ بعدئذ دعاه الخليفة إلى أم درمان⁽¹³⁾. فوجود كرم الله بعدئذ في معسكر علي دينار يعني انضمامه لانتصار السلطان علي دينار أثناء تواجدهما في أم درمان، ويدل ذلك أيضاً على أنه قد فر مع علي دينار عشية معركة كرري - وربما يشير هذا الأمر إلى أن عدداً من (جلاية) بحر الغزال القدماء كانوا يدعمون علي دينار في قضيته العادلة المتمثلة في إحياء سلطنته ويرون في ذلك فرصة جديدة لهم في

⁽¹¹⁾ S.I.R 93/78 1st Apr, 1902.

⁽¹²⁾ نعوم شقير، مصدر سبق ذكره، ص 412-419.

⁽¹³⁾ نفسه، 726.

الانتعاش التجاري وممارسة مهنتهم القديمة. وبقراءة متأنية يتضح أن الولاء الديني والفكري والمعنوي كان ضعيفاً لدى بعض القيادات المهديّة. وأن الدين لم يتمكن في النفوس بالقدر اللازم لاستمرار الدعوة والفكرة المهديّة بعد أن أفلت شمس القائد الملهم الذي أدعي أن أمره موصول بالسماء وحاول خليفته من بعده أن يأخذ القفاز ويلعب علي ذات الوتر ويغزل علي منوال سلفه. بيد أن الرياح قد أتت بما لا تشتهي السفن. ولربما لعبت الظروف السياسية بعد وفاة المهدي دوراً بالغاً في التفكير المصلحي الذاتي، حيث شعرت بعض العناصر بالغبن فبدأت تفكر في مصالحها أكثر من التفكير في الدعوة والفكرة والدولة. ولأن نبوءات المهدي قد استبان زيفها وتحطمت علي صخرة الواقع. وبالتالي فأضحى الأمر أمر سياسة ومصالح. وهذا لا يبعد عن الحقيقة كثيراً لأن ما حاق بالإسلاميين في عهد الإنقاذ بعد وصولهم إلى السلطة وتخليهم عن كثير من مبادئهم يصب في صالح هذا التحليل الموضوعي والمنطقي في آن واحد. ونلاحظ انه في عهد الخليفة خمدت روح الحماسة والدافع الديني القوي الذي أشعل المهدي جذوته بشخصيته الكارزمية الجذابة. وظهرت الجهوية فأفسدت صفاء الدعوة وهذا بالضبط ما حدث في عهد الإنقاذ حين سقطت ورقة التوت عن الإسلاميين، وظهرت كثير من القيادات علي حقيقتها دون رتوش ووقفت أمام مرآة السلطة بقبح سواتها الكريهة دون حياء. وصدق من قال: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

ولا تبدو أية غرابة في شكوك علي دينار تجاه كرم الله. إذ أن الشك في مثل هذه المرحلة ضرورة يقتضيها الوعي السياسي والقراءة الذكية لمعطيات الواقع، فإن من بايع صاحب الفكرة والدعوة كان حرياً به أن لا يتحول تحولاً كاملاً. كما أن من يبيع فكرته ودعوته بهذه الكيفية لا يستبعد أن يبيع غيره ويكون شخصاً نفعياً، وهذا النوع من البشر من أسوأ خلق الله إنساناً إذ ينبغي أن لا يعتمد عليه من قبل القيادة الواعية الذكية. وإذا لم تستنب الأمور ولم تتباين الخيوط فإن الحذر لازم والتحقق واجب. وهذه مشكلة السياسة السودانية أمس واليوم وغداً وبعد غد ما لم يمسك بزمام الأمر قادة علي مستوى من الوعي والإدراك اللازم إزاء من يغيرون ملابسهم وجلودهم ومواقفهم بين الحين والآخر من أجل السلطة والسمعة والمنصب والدراهم المحدودة. فهؤلاء لا يؤمن

لهم جانب ولا يمكن الاعتماد عليهم فهم أحسن خلق الله علي الإطلاق إنساناً. وبالتالي ويل للإنقاذ من شر اقتراب.

وفي الوقت ذاته كان اهتمام الحكومة الثنائية بخضوع عربي دفع الله لا يقل عن اهتمام علي دينار. وكانت ترجح كفة علي دينار باعتباره أهون الشرين ولعل ذلك يفسره خطاب الحاكم العام إلى علي دينار مهنتاً إياه بانتصاراته الأولية على خصمه عربي دفع الله بقيادة محمد علي الدادينقاوي وودغور والتي تم بموجبها إجلاؤه عن سكا. هذا بعد أن قام علي دينار بإعلان انتصاراته تلك⁽¹⁴⁾ بهذا الإعلان أراد السلطان أن يرجح كفته في موازين حسابات الحكومة الثنائية في المنطقة لعل ذلك يردّها عن أية نية تجاه بلاده، وأن تنتظر إليه بعين الاحترام والتقدير.

أما عربي دفع الله رغماً عن شح الموارد وانقطاع السبل عن إمداده لم يرق له التسليم. بيد أن الظروف التي أحاطت به كانت أكبر وأقوى من عزمه الصارم، والهجمات المتوالية على قواته كانت أعتى من رجالاته وعتاده. إذ أحاط به الأعداء من كل جانب. وكان تصميم علي دينار قوياً لإخضاع كل الجيوب المهدوية بغية إرث ما لديها من خبرات وعتاد ورجال⁽¹⁵⁾. وتحت مطارق هذا الضغط المتواصل استطاع عربي دفع الله أن يصمد وأن يقوي قبضته على داركارا مدة سنتين ونصف من الزمان، ولما لم يكن من التسليم بد لأخذ المعسكرين فضل الانضمام إلى علي دينار ابن وطنه ودينه⁽¹⁶⁾.

و في محاولة لإخراج الاستسلام في ثوب مقبول كتب عربي دفع الله خطاباً إلى علي دينار يطلب منه فيه الإتحاد معه فأجابه علي دينار بالقبول. حيث رأي علي دينار في ذلك نصراً لمجهوداته لكي ما يتفرغ لجبهات أخرى. فقدم عربي الله الفاشر في 5 ربيع الآخر 1320هـ الموافق 1902/7/9م يصحبه ستمائة رجل ومائتا فارس وثلاثة آلاف بندقية وخمسون صندوقاً من الذخيرة⁽¹⁷⁾. لقد عزز ذلك الانضمام من

⁽¹⁴⁾ S.I.R. 65/2 1st Sep. to 20th Nov. 1899

خطاب من علي دينار إلى الحاكم في 1 رمضان 1317هـ S.I.R. 67/19 D/A

⁽¹⁵⁾ A.B. Theobald OP. Cit. PP. 54-55.

⁽¹⁶⁾ نفسه، ص 54-55 أنظر أيضاً: S.I.R 98/6 1st to 30th, Sep. 1902

⁽¹⁷⁾ نفسه S.N.A intel 7 1/4

موقف علي دينار ورفع من روحه المعنوية. ونفخ روحاً جديدة في سلطنته الناشئة وقوته الصاعدة.

وخرج علي دينار بنفسه لاستقبال القائد المهدي بعد أن عسكر الأخير خارج الفاشر يوماً كاملاً. لاشك أن ذلك السلوك من قبل علي دينار يدل على اهتمامه البالغ بهذا الحدث ومدى قدرته على التعاطي مع الواقع بإيجابية. وقد كان استقباله لعربي دفع الله حفلاً مهيباً إذ لقيه بحفاوة بالغة⁽¹⁸⁾. ودخل القائد المهدي الفاشر معززاً مكرماً فآدى قسم الولاء للسلطان. وذكر يونان لبیب رزق: أن استسلام القائد المهدي كان في 1903م. إلا أن الراجح لدى الباحث بناء على ما ورد في المصادر الأولية لا سيما خطاب علي دينار نفسه إلى المفتش العام مخبراً إياه بانتصاراته علي عربي دفع الله وخضوع الأخير واستسلامه له⁽¹⁹⁾. وأن ذلك قد تم في يونيو 1902م كما تقدمت الإشارة إليه. ولم يقتصر خطاب علي دينار إلى الحكومة الثنائية علي الخبر فقط باستسلام عربي دفع الله. بيد أنه قد أشتمل على إشارة مقصودة إلى أن الاستسلام لم يتم عرضاً وعن رضي وقناعة من قبل عربي دفع الله. وإنما جاء عربي دفع الله قهراً وغلبة وعن غير رغبة⁽²⁰⁾.

هذه الإشارة تؤكد أن علي دينار كان يهمل أن يشعر الحكومة الجديدة بقوته، وأنه قد انتصر بعدده وعتاده على هذا القائد المهدي العنيد. مما يدل على أن هذا الأمر لا يعدو عن كونه مجرد دعاية غايتها إشعار النظام الجديد في الخرطوم بأنه رقم صعب ينبغي على النظام الجديد أن يضع له وزناً في المعادلة السياسية القائمة في البلاد. ولكننا في الوقت ذاته لا ننسى أن نقرر صحة الجزء الأخير من تقريره. إذ أن الظروف المحيطة بعربي والعقل الراجح هو الذي اقتضى تجاوبه معها فأدى إلى تسليمه لعلي دينار. أما فيما يتصل بالمبادرة لإعلان الاستسلام فلقد جاءت ابتداءً من

⁽¹⁸⁾ نفسه S.N.A intel 7 1/4

⁽¹⁹⁾ علي دينار إلى سلاطين 29 شعبان 1320هـ، 30 نوفمبر 1902/12/1م.

G.D. Iampen Op. Cit. PP. 197-198 ..

⁽²⁰⁾ الخطاب السابق، انظر أيضاً: يونان لبیب، مصدر سبق ذكره، ص 241-242 انظر أيضاً:

S.N.A. Intel 7/1/2.

عربي دفع الله وكان بإمكانه لحظتئذ الانضمام إلى أية قوة أخرى في الجنوب أو الغرب بل إلى الحكومة الثنائية نفسها. ولكنه بموازات صيابة قدر أن الانضمام إلى علي دينار هو أفضل الأطروحات التي بين يديه. وقد سبق أن طلبت الحكومة الثنائية خطب وده وأقدمت على إغرائه ببذلها له العفو والأمان بيد أنه قد أثر الانضمام إلى ابن جلدته على الغريب، وهو تقدير صائب بكل المقاييس ومتقدم على فهم كثير من القيادات السياسية الحالية. وبالرغم من محاولة الحكومة الثنائية تسهيل مهمة استسلامه لها بيد أن نفسه لم تساعد أو تحدثه بالميل والإلتحاق بها فأختار أمون الشرين إذا جاز التعبير. وبهذا التصرف الحكيم أثبت وطنيته وقوميته وأصاله دينه حين قرر الانضمام إلى بني جنسه وبني وطنه. وقدر أن الانضمام تحت أي مسمى إلى الحكومة الثنائية فيه خيانة لفكره ودعوته التي ظل مخلصاً لها رغماً عن إختفاء رموزها وزوال رسومها. هكذا في تقدير الباحث غير المنتمي يكون أصحاب الدعوات الذين لا يتزحزون ولا يتلونون ولا يركعون ولا يركبون مع الموجة الغالبة يتقلبون معها ذات اليمين والشمال، كما هو حال كثير الآن ممن ذاقوا طعم السلطة فكل يوم يخلعون جلدًا ويلبسون جلدًا آخر بغير حياء ولا خلق ولا كرامة ولا دين. وقد فاق عربي دفع الله بهذه التصرفات أهل زمانه وكل القيادات التاريخية والزعماء الطائفيين الثلاثة ورؤساء العشائر الذين ارتموا بلا خجل ولا حياء في أحضان الغزاة المحتلين. وشكلوا طابوراً خامساً داخل البلاد وعملوا بجهد واجتهاد علي تخدير الجماهير باسم الدين، وبذلك كسبوا موقعاً مرموقاً في ظل النظام الاحتلالي البغيض، وملكوا أراض وريعاً في العاصمة المثلثة ثمناً لطاعتهم وتسويقهم لفكره وتسويغهم لوجوده. وأحسب أنه قد آن الأوان لأن توضع النقاط فوق الحروف وأن يكتب التاريخ بلا رتوش أو أصباغ زائفة ودون خوف أو وجل بغية إعطاء كل ذي حق حقه، فكفي نفاقاً وكذباً وتزييفاً للحقائق والتاريخ، فالوثائق لم تعد طلسمًا أو سرًا من الأسرار المقدسة التي لا يصل إليها أحد، وهي موجودة في كل من دار الوثائق القومية بالخرطوم وبدرم بانجلترا بمدرسة الدراسات الشرقية وبالقلعة بجمهورية مصر العربية. لقد آن الأوان ليتم فضح أصحاب المجد الزائف في هذا البلد الأبي. لأن تاريخ هذا البلد وهذه الأمة هو ملك لهذا الشعب

ولأبنائه البررة. لقد انتهى عهد تاريخ أصحاب الجاه والسلطان، وعهد أولئك المنافقين من الأكاديميين الذين يتزلفون على موائد أصحاب المجد الزائف ويطلبون كسباً رخيصاً وثمناً بخساً عن طريق ليّ الحقيقة وتزوير التاريخ الذي يكتب وفق أهواء هؤلاء السادة وإرادتهم الزائفة. ينبغي لهذه الأمة أن تطلع على الحقيقة التاريخية العارية من كل لبوس زائف، وعلى حقائق الماضي كما هي دون تزييف أو تزوير من قبل مساحي الجوخ ومن ماسحي أحذية الأنظمة والأسر الكبيرة الحالية والغابرة، لأن التاريخ حقائق ووقائع ينبغي أن يكتب كما هو دون مجاملة أو نفاق لأحد، ولا نامت أعين الجبناء والخونة الآكلين على كل الموائد، وهم ولا شك من شر خلق الله إنساناً سياسياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً وأكاديمياً.

وعلي سعيد آخر فإن هذا الظرف الذي أدّى إلي استسلام عربي دفع الله أنما كانت أبعاده يعتبر فرصة سانحة للسلطان علي دينار للاستفادة منه واستفاد أغراضه. بعد وصول نبأ استسلام عربي دفع الله للحكومة الثنائية لم يكن أمامها بد من الاعتراف بالأمر الواقع وتهنئة علي دينار على هذا النصر. وبذلها له الأمان وموافقتها له على حسن استقباله والإحسان إليه⁽²¹⁾. وإن كانت في الواقع تعض الأنامل غيضاً وحنقاً ولكن الأمر أصبح واقعاً لا بد من التعاطي معه بعقلانية وبطول بال.

هذا الموقف يبدو أنه من قبيل المجاملة حيث من المعلوم أن استسلام عربي دفع الله من شأنه تعزيز موقف سليل السلاطين وتقوية شوكته. ولم تكن الحكومة الثنائية يومئذ راغبة في تعزيز أي قوة وطنية بإمكانها أن تشكل خطورة على مستقبل الموقف الثنائي في البلاد عموماً. ولا يغيب عن الذهن أن استسلام عربي دفع الله في حد ذاته قد أزال كابوساً أقلق منام الحكومة الثنائية رداً من الزمن. لاسيما وهو أحد جيوب الأعداء الألداء الذين يستندون إلى مستند ديني. وكانت الحكومة الثنائية لحظت ذلك وتمنع بحساسية مفرطة ضد القيادات المهدوية التي أذاقت كلاً من مصر وبريطانيا الويلات. الأمر الذي أفقدهما رجالاً وكبدتهما خسائر مادية ووقتاً وجهداً. لذا لا عجب أن كان

⁽²¹⁾ S. I. R. 66/6 1st to 31st oct. 1902.

اهتمام الحكومة الثنائية بهذه الجيوب المهدوية يفوق أي اهتمام آخر، يتضح ذلك من استعجال السردار بإرسال مجموعة من الباشبوزق لمطاردة عربي دفع الله عقيب دخول القوات الغازية العاصمة المهدوية. بيد أن الأخير كان صامداً عنيداً. وكان أنموذجاً رائعاً من حيث التضحية والوفاء للمبادئ والفكرة والدعوة التي آمن بها. فقد نذر نفسه لهذه الفكرة التي أخلص لها ولم يتحزح عنها قيد أنملة ووفق معادلة موضوعية ومنطقية وواقعية وزمانية، رجع بموجبها الإنضمام إلى علي دينار كما قدمنا بدلاً عن العدو الغازي الذي كان رمز الكفر والطغيان والإستبداد والعدوان والإحتلال وقساوون الغاب.

هذا وبالرغم من إستسلام عربي دفع الله وإنخراطه في خدمة علي دينار إلا أنه بذلك لم ينج من الشكوك التي أحاطت به كما أحاطت بغيره من قواد المهدية الذين استسلموا لعلي دينار وانخرطوا في خدمته. حيث تم إعدامه 1915م لشكوك دارت حوله⁽²²⁾. ونتيجة لهذه الشكوك رأي علي دينار التخلص منه. أما عربي وهو قائد مهدي مجرب فلربما قد شعر بدقة موقف السلطان، فحاول اتخاذ موقف معاد له مما أودى بحياته.

وبذا انطوت صفحة قائد من قيادات المهدوية المخلصة. وأثبت علي دينار أنه كان مستقلاً في تفكيره وفي موقفه. وأن علاقته بالمهدية لا تعدو عن كونها رضى بالواقع. ولكنه في الوقت ذاته كان يضمّر لها العدااء. هذا خلال تواجده في الفاشر أو أم درمان على حد سواء.

(22) G . D. Lampen OP. cit. PP. 198.

الفصل الثاني

السلطان علي دينار والمواجهة المسلحة

مع الفكي ود حسين

سبقت الإشارة إلى أن علي دينار بعد استرداده لعاصمة سلطنة بلاده وإرث أسلافه اتجه أول ما اتجه إليه إلى تصفية جيوب الوجود المهدوي في المنطقة. وكانت أولاهما بقيادة القائد المهدوي العنيد عربي دفع الله في الجنوب والذي مرت قصته في الفصل الأول من هذا الباب. وكان الجيب الثاني في الغرب بقيادة الفكي سنين ود حسين التاماوي.

سنين التاماوي:

أصل سنين ود حسين: هو عربي الأصل قدم جده الأكبر من الشرق إلى دار تاما، فأقام بها وهو من قبيل الأشراف وتزوج من قبيلة تاما. وبذا أصبح يعرف بالتاماوي نسبة لأمه وهذا شأن عربي وسوداني مكيّن إذا قدر للشخص أن يعيش أو يزور أهل أمه فإنهم ينادونه بنسبة أمه وأهل أبيه ينادونه بنسبة أبيه. وأصبح لسنين نفوذ عظيم وسط قبيلة تاما لهذه النسبة إلى الأرومة الشريفة. وهذا شأن عربي قديم في السودان فإن العرب حين قدموا إلى السودان شرقه وشماله وغربه قدموا في الغالب الأعم رجالاً دون نساء. ولخلوص العناصر العربية الواقعة من داء التعويق الداخلي والتي قبلها أهل البلاد الأصليين طوعاً وحجاً فقد تزوجوا من أهل البلاد الأصليين وتكاثروا معهم دون استعلاء أو ازدراء، عكس العنصر الأوربي المتصلف الذي جاء متسلطاً ومحتلاً ومستغلاً للعباد والبلاد ومستعلياً على أهل البلاد الوطنيين وزارعاً بينهم

الفرقة والشتات. وهذا الوجود العربي الكثيف في دارفور يؤكد ما سبق تقريره من جريان الدم العربي في عروق كل سكان دارفور دون تمييز بين قبيلة وقبيلة أو عرق وعرق.

وما أن سمع الفكي سنين ود حسين بدعوة المهدية حتي آمن بمبادئها ولبى مطالبها سراعاً، لاسيما وأن القائم بأمر هذه الدعوة يدعي نسبة الأرومة الشريفة. ولقد تمكن الفكي سنين في وقت وجيز من أن يجمع حوله عدداً ضخماً من أفراد قبيلته التاماء، معلناً ولاءه المطلق والصادق للدعوة المهدوية الجديدة دون شرط أو أدنى تردد. واتجه فوراً صوب أم درمان حيث وصلها بعد وقت وجيز من سقوط الخرطوم يوم الجمعة ساعة الصلاة في يد الجيوش المهدوية. فرأي المهدي بأم عينيه ذلك العدد الضخم بصحبة الفكي سنين ود حسين وهو قادم لمبايعته فسأل. عنه فأخبر به فدعا له ولهم وأمرهم بالإلتحاق بعبد الرحمن التاماوي تحت قيادة حمدان أبو عنجة وهما يقااتلان يومئذ في جبهة جبال النوبة (1).

ولقد أصبح سنين من المخلصين لدعوة المهدية فقاتل ببسالة تحت قيادة حمدان أبو عنجة. وبعد وفاة المهدي، استدعى لأم درمان فاستجاب لنداء الخليفة دون أدنى تردد وقام بتجديد البيعة على يد الخليفة. وأرسل إلى الغرب مرة أخرى. وقاتل في القلايات (1887-1889م) ومن ثم سحب الأمير عبد القادر دليل الذي أرسل في عهد الخليفة عبد الله ليحكم في غرب دارفور تحت إمرة عثمان آدم في كيكابية (2). وبعد وفاة القائد المهدوي عثمان آدم استدعى عبد القادر دليل إلى الفاشر ليحل محال الفراغ السياسي الذي خلقه موت القائد المهدوي في الفاشر. وقبل مغادرة الأخير كيكابية موقع عمله عين في مكانه سنين حاكماً علي غرب دارفور تاركاً لديه أسلحة كوديعة. وعقب معركة أم درمان القاصمة في كرري 1898 ومقتل الخليفة غدرأ في جديد (أم دبيكرات) في 24 نوفمبر 1899م، اتجهت أعداد من الأنصار بعد مقتل قائدهم

(1) Samuel Bey Atiya: Senin and Ali Dinar S.N.R. Vol.7 (1924) Part2 P. 63.

(2) أنظر: كلاً من: يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242 .

A. B. theobald. OP. cit. PP.35 .

الفصل الثاني - السلطان علي دينار والمواجهة المسلحة مع الفكي ود حسين

الأعلى إلى الفكي سنين، وظل (الفكي) سنين على عهده متحمساً للمهدية حتى بعد سقوط الخليفة وأرأس رسوم الدولة المهدوية رمز السيادة. وقد ذاع صيته باعتباره رجل دين مهدي غيور⁽³⁾. وتسربت إليه أفواج من الأنصار تبعاً زرافات ووحداناً حتى تجمعت لديه قوة مهابة الجانب طرقت بذئوع بصيتها أسماع علي دينار من حيث قوتها وصمودها وإخلاص أفرادها ومصادقية قيادتها⁽⁴⁾، الأمر الذي أقلق مضجع السلطان وجعله يفكر جاداً في القضاء علي نواة هذه القوة المنافسة له الخطرة في غرب دارفور، وأصبح الفكي سنين التاماوي الملجأ والملاذ لكل (الأنصار) حتى صار من معه يصل إلى أربعة آلاف من الأنصار، لذا يخشي علي دينار على نفسه ودولته من تعاضم قوة سنين ونفوذه وتسليح أتباعه بالعقيدة الدينية ذات الاتجاه المهدوي الصارخ⁽⁵⁾.

كان عمر سنين في عام 1900م إحدى وخمسون سنة وهو طويل القامة فارح الطول ذو شكل مهيب وذو أثر قوي فيمن حوله⁽⁶⁾ مما يدل علي تمتعه بصفات القيادة والرياسة، لاسيما بعد خلو الساحة المهدوية من الرموز الفاعلة ممن ينوء بحمل عبء المقاومة، واستعادة الدولة وكرامة الأمة التي مرغ. انفها الوجود الأوروبي الآثم. واستطاع سنين بشخصيته القوية الجابة وملكاته القيادية المتميزة جمع أعواناً مخلصين كانوا بمثابة مستشاريه ويده اليمنى من أمثال (أبو كابير) التاماوي وجبريل هوارى، وعبد الله ود أزرق التاماوي⁽⁷⁾. إن وجود أربعة آلاف مقاتل منهم ألف أنصاري صادقين على استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل الله ودعوتهم المهدوية، والثلاثة آلاف الآخرون لا ينكصون ولا تخور لهم عزيمة إن وجدوا الدافع القوي مع وجود شخصية قيادية متمرسية ذات لبوس ديني واضح، لا شك أن ذلك كان ولا زال وسيظل من الأمور التي كانت وستظل محط أنظار الباحثين. هذا بالرغم من سقوط الدولة

(3) نعم شقير، مصدر سبق ذكره، ص 930، 945، أنظر أيضاً:

Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 64.

(4) A. B. Theobald OP. Cit. PP.36.

(5) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.

(6) Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP.67.

(7) Ibid.

المهدوية واستشهاد قادتها واستسلام قياداتها ووقوع كثير من جيوبها في أيدي الحكم الثنائي البريطاني. هذا بالرغم من أن أجزاء كبيرة من غرب السودان قد وقعت في أيدي السلطان علي دينار، إلا أن الفكي سنين ود حسين ظل محافظاً علي عهده وولائه للمهدية وتمسكه بمبادئها. وبالرغم من أنه قد انقطعت عنه الأخبار وأصبح في شبه جزيرة معزولاً بكل المقاييس، بيد أن ذلك لم يفت من عزمه علي الصمود وإستجابته الفاعلة للتحدي الراهن. كما لم يستجب لدواعي الإستسلام والخضوع وإغراءات السلطة الزمنية القائمة سواء أكانت فوراوية أو بريطانية. وقد ظل الفكي سنين علي هذه الحالة مدة عشر سنوات ما لانت له قناة ولم ينكص لحظة عن الدفاع عن عقيدته ومبادئه. كما لم يلق بالاً لتهديدات السلطان علي دينار المستمرة وهجماته المركزة. وقد أثر ذلك الموقف علي دارفور سياسياً واقتصادياً وإدارياً وعسكرياً⁽⁸⁾.

ولقد تعاظمت قوة سنين إلي درجة شكلت تهديداً دائماً لخطوط مواصلات علي دينار إلي كل من المساليت وتاما ودار قمر. إضافة إلي أن علي دينار راوده الطمع في الأسلحة التي ورثها سنين من سلفه عبد القادر دليل. وما حصل عليه الفكي سنين من جيش عمر آدم أثناء انسحابه من دار تاما 1890م: لذا طلب علي دينار من سنين الإستسلام والخضوع له وتسليم الفكي سنين كل ما لديه من أسلحة للسلطان حيث كان علي دينار يعتبر دار تاما جزءاً لا يتجزأ من سلطنته. وقد جاء رد سنين علي ذلك بقوله الصريح الخالي من النكهة الدبلوماسية والرافض للحلول الوسطية: (إنه يرفض الإستسلام لرجل ترك العقيدة المهدوية وهرب من ميدان المعركة)⁽⁹⁾. لقد كان سنين من خلال منظوره العقائدي الواضح المعالم يرى في سلوك علي دينار خيانة للمبدأ والوطن وخروجاً علي العقيدة. وقد كان هذا الرد الحاسم من قبل سنين هو السبب الأول والمباشر في إشعال نار الحرب بين الرجلين. حيث اقتنع علي دينار بأن سنين لا يعرف لغة في التعاطي مع الواقع سوى لغة الحرب. فاختار السلطان علي دينار الطريق الصعب لحسم الأمر.

⁽⁸⁾ Ibid.

⁽⁹⁾ يوتان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.

ويمكن إدراك دقة موقف الطرفين إذا أخذنا في الاعتبار وجهة نظريهما معاً. أولاً: يستند السلطان علي دينار في دعواه على حق تاريخي وحضاري وموروث ثقافي وسياسي وجغرافي، ويهدف بمحاولاته تلك إلى إسترداد السيادة الفوراوية المسلوبة. والسيادة الفوراوية في نظر السلطان وحدة موضوعية وتاريخية وسياسية وإدارية وعسكرية وجغرافية لا تقبل التجزئة أو التنازل. وينبغي أن تبسط على أجزاء دارفور بأكملها. أما الفكي سنين فكان مستنده ديني وفقاً للدعوة المهدوية التي يؤمن بها بأن السيادة في البلاد لله، تمارسها القيادة المهدوية خلافة عن الله في الأرض بشروطها. وأن المهدية هي خاتمة المطاف، كما أن الحكم في الإسلام لا يعرف الإرث، وأن الحركة المهدوية بحلولها في السودان قد قضت على كل الحقوق التاريخية دينياً وسياسياً واجتماعياً، وخلقت واقعاً جديداً يقوم على الكسب الديني والإخلاص للدعوة الجديدة والتضحية والاستبسال في سبيلها، كما قضت على كل الرؤى التقليدية في البلاد قاطبة. وعلى صعيد آخر فقد رأى سنين في ترك علي دينار للدعوة المهدوية في لحظات محنتها خيانة عظمي يشيب لها الولدان، ويتبغى أن ينبذ نتيجة ارتكابه لهذه الجريمة النكراء لا أن يصبح قائداً في البلاد يتناول على المخلصين من أمثال سنين ويطلب منه الإستسلام. بالتأكيد هذه هي الرؤية المهدوية الصادقة والحقيقية بيد أن آل المهدي فيما بعد نكصوا عن ذلك وجعلوا الأمر وراثته مجد ودعوة مما يعتبر مغالطة تاريخية، إذ لو أراد المهدي ذلك لجعل الأمر في أهل بيته كما فعل حفيده الصادق وأحفاده الباقيين. وما كان لأهل السودان أن يدينوا للمهدي الدنقلوي بالطاعة لنسبه أو لقبيلته أو لشرفه وإنما دانوا له بالدين وبالدعوة الصادقة والإخلاص والزهد الذي بدا عليه، وإلا فقد كان دنقلوياً فقيراً مغموراً ابن أسرة فقيرة صناعتها المراكب الشراعية تتحصل على قوت يومها بالكاد. وبالتالي على أحفاده أن يدركوا هذه الحقيقة المرة وأن يسيروا على ركب جدهم من حيث التدين والزهد والإخلاص، إن أرادوا أن يتقدموا الصفوف ويصافحوا الكفوف ويحرزوا سبقاً سياسياً واجتماعياً، وألا فإن التاريخ لا يرحم والحقائق التاريخية وإن طال الزمن لا بد أن تتبش وأن تبدو عارية من كل الرتوش.

ومن جانب آخر فإن موقف علي دينار من المهدية ومنذ اليوم الأول كما مر كان عدائياً وأن خضوعه لم يكن سوى إستجابة آنية للأمر الواقع وقد مجبراً أخاك ولا بطل. ولقد كان في قرارة نفسه يتحرق شوقاً للساعة التي يرى فيها تضعضع الدولة المهدوية وأقول نجمها. لذا كانت الحملة الإنكليزية المصرية وهزيمتها للجيش المهدوية بمثابة إشعال فتيلة المقاومة لديه وشكلت ساعة الصفر لتحركه، الذي ظل يعمل من أجله جهراً وسراً سنوات عدداً من غير كلال أو ملل ودون أن يفت في عضده ما فعلته به الأيام والسنون. ولم يكن فراره في اعتقاده خيانة، وإنما كان تصرفاً طبيعياً. وقد كان في معيته يومها عدد من إتباعه بعضهم كان يتبوأ مناصب قيادية في الحركة المهدوية. حيث اتجه من أم درمان صوب سلطنة آبائه وأجداده. وما كان يظن بعد سقوط العاصمة المهدوية وتشتت شملها أن يصمد في وجهه رجل كسنيين وبشكل حجر عثرة في وجه تحقيق طموحاته وأحلامه الغالية التي ظل ينتظرها ويخطط لها كل هذه السنوات. ويبدو أن المعادلة كانت تشتمل على طرف ثالث كما هو الحال مع عربي دفع الله وهو الحكومة الثنائية البريطانية. بيد أنها حتى هذه اللحظات كانت تعتمد على الشائعات وما تنقله أقلام مخابراتها حيث وردت في عام 1898م إشاعات مغزاهما: أن السلطان علي دينار استطاع بقواته أن يهزم سنين وأن يحاصره في كيكابية⁽¹⁰⁾.

ويتضح من قراءة وثائق هذه الفترة أن الحكومة الثنائية البريطانية وأقلام مخابراتها في السنوات الأولى لم تكن تملك ما يمكنها من معرفة ما يدور على الجبهة الغربية بدقة. لذا لا عجب أن ورد في بعض التقارير البريطانية الرسمية عن سنين ما نصه: (وأفاد الحجاج الذين وفدوا بأن لسنين ميولاً مهدوية) (Dervish Leanings) ⁽¹¹⁾. بيد أن الملفت للنظر أن وجوداً مهدوياً علي هذا القدر لم يكن علي مستوى من التنسيق والتخطيط اللازمين في مثل هذه الظروف الحرج، فلو قدر الإتصال والتنسيق والتخطيط بين كل من عربي دفع الله في جنوب دارفور والفكي سنين ود حسين في غربها لحدث تحول ما في تاريخ السودان الحديث والمعاصر ولو

⁽¹⁰⁾ S. I. R. 67/2.

⁽¹¹⁾ Ibid.

إلى حين. بيد أن ذلك لم يحدث مما يدل علي ضيق الأفق لدى تلك القيادات المهدوية ذاتها وعدم مقدرتها علي التعاطي مع المعطيات الواقعية بفاعلية واقتدار واستراتيجية.

وفي الوقت ذاته كان السلطان علي دينار علي إحاطة تامة بما يدور في غرب دارفور ومدركا لإبعاد ما يتهدهه من خطر. وبدأ يشعر أنه في سباق مع الزمن. لذا عجل بإيفاد حملة عسكرية بقيادة كيران الرزيقي في عام 1900م. وتقدر عددية تلك الحملة بأربعة آلاف جندي. وقد قام هذا الجيش بثلاث محاولات باءت كلها بالفشل. وكان حصادها هزيمة السلطان علي دينار الذي فقد صوابه حيث أقدم علي إعدام قائده عقوبة له⁽¹²⁾. هذا السلوك من قبل السلطان علي دينار يدل علي هيمنة عقلية بدائية عليه في ساعات الإخفاق والتي لا تؤمن بأن الهزيمة والنجاح متلازمان عكس توازن العقلية العلمية التي تؤكد علي أنه لا ينجح الإنسان أو ينتصر علي الدوام، كما أنه يستحيل أن يكون الإنسان منهزماً علي الدوام، وللنجاح أسبابه ووسائله ومؤهلاته، وللهزيمة كذلك أسبابها ووسائلها ومؤهلاتها فكان ينبغي عليه البخت عن أسباب الهزيمة بدلاً من إعدام قائده وفقدان صوابه.

وبالنظر إلى خطابات سنين الواردة إلى الحكومة الثنائية البريطانية أراد أن يفتح بها مغلقاً وأن يذراً بها خطر الحكومة الثنائية ولو إلى حين معلناً الولاء الظاهري لها، كما أن الإشارة إلى غلبة الحكومة الإنكليزية المصرية والقضاء علي قادته في العاصمة المهدوية لم تزل خطأ وافراً من الثناء علي الحكومة لفعل ذلك. وإنما جاءت الإشارة عابرة في خطابه، مما يدل علي أن سنين أراد من خطابه هذه أن تكون بمثابة تقيّة يدفع بها شر هجوم الحكومة البريطانية وخطر علي دينار. بيد أن البطاقة الراجعة يومها لم تكن في صالحه وكذلك الوقت وبالتالي فإن الأوراق التي لعبها في تلك اللحظات كانت غير رابحة. وحتى اللحظة ما فتئ السلطان علي دينار يعد عدته ويتأهب بكامل قواته للقضاء علي الفكي سنين في مهده قبل أن يستقحل أمره. ولم يطلب حتي تلك اللحظة أدنى عون من الحكومة الثنائية البريطانية حين قام بإنفاذ حملة

(12) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.

S. I. R. 67/3. 10th Apr. to 2th May 1900.

نظر أيضاً:

عسكرية ثانية تحت قيادة آدم علي رجال في عام 1901م. وكان تعداد هذه الحملة قد بلغ ستة آلاف جندي وخلال معركتين متتابعتين في ظرف خمسة عشر يوماً تمت هزيمة الجيش الفوراوي للمرة الثانية.

وتجرع علي دينار كنوس الهزيمة للمرة الثانية ولكن لم تكن قناته أو يضاعف عزمه. كما لم يصل إلى قناعة مؤداها الكف عن مواجهة هذا المارد الجبار. لذا جهز حملة عسكرية ثالثة بقيادة محمود آدم الدادينقاوي في عام 1902م علي رأس جيش تعدده اثنا عشر ألفاً. وفي معركة واحدة تمت هزيمة الدادينقاوي⁽¹³⁾. لعل هذه الحقيقة تؤكد ما ذهب إليه الباحث من أهمية وضرورة وجود تنسيق بين عربي دفع الله وسنين في هذه الفترة إذ لو وجد ذلك التحالف لأحدث تحولاً خطيراً في تاريخ السودان الحديث والمعاصر ولانقلبت موازين معادلات كثيرة في المنطقة، كما لو حدث تنسيق بين هذه القيادات وبين رابع الزبير (رابع فضل الله) في تشاد لتغير تاريخ المنطقة بالكامل. وان كانت هذه هي مشكلة السياسة والقيادات السياسية الحالية في العالم الإسلامي والآسيوي والتي دفعت بأعدائنا للاستهانة بنا. إذ لا يوجد لدى الدول العربية أو الإسلامية أو الأفريقية أو الآسيوية تخطيط أو رؤية استراتيجية محددة للنظرة المستقبلية التي تحدد السقوف الانتمائية من حيث التعاون والتكامل والتكاتف فيما بين هذه المجموعات الإقليمية، وتوحيد المواقف الاستراتيجية مما جعل الأعداء يستهينون بهم. ويضربونهم الواحد تلو الآخر. إذ أن ما حدث في أفغانستان هو ذات (السيناريو) الذي حدث في العراق ويمكن أن يحدث في سوريا ولبنان لأن ما يجري الآن في لبنان ومقاومة حزب الله الفدائية المصادمة التي استطاعت لأول مرة أن تضرب في العمق الإسرائيلي وتثبت قدرة الأمة على أنجاب أبطال أشاوس بالرغم من ضباب خيبة القيادات الموجودة على السطح والتي هي أشبه ما تكون بيزيد. ولا شك أن مواقف الدول العربية المخزية والمحنة في ذات الوقت الحالية تؤكد على ما سبق ذكره. والدور القادم سيكون على السودان ومصر والسعودية وإيران. والسياسة والقادة العرب دون استثناء يعيشون في غيبوبة الوعي التاريخي والبلادة الحسية والغباء منقطع النظر.

⁽¹³⁾ Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP.67.

وبعد فشل الوسائل الجديدة لجأ علي دينار إلى استغلال حساسية الحكم الثنائي البريطاني المفرطة ضد كل من تشتم فيه رائحة التنظيم والقوة المهدوية طالباً منها المساعدة وعلل تباطؤه في الالتزام بواجباته تجاه الحكم الثنائي البريطاني بانشغاله بأمر الفكي سنين حيث قال: (... وان ديارنا الذي عليها المدار هما كبكائية ودار مسلاة (مسلات) موجودين بها شخصين يزعموا أنهم من بقية الدراويش⁽¹⁴⁾. وساعين في أحياء ثورتهم فهما سنين حسين والمسلاتي وصارت لهم نايحه وقد رأينا إذا تغافلنا عنهم زيادة عما مضى يسحرون الناس ويفسدون الديار وتهيج بأهلها⁽¹⁵⁾ أن الضرب علي نغمة الدراويش يعتبر أمراً مثيراً للحكومة الثنائية البريطانية التي لم تلتق أيديهما بعد من جراء تصفية الثورة المهدوية وقياداتها في البلاد، وتتحضر للقضاء علي كل من يطل برأسه من القيادات المهدوية الفاعلة. وجاء خطاب السلطان علي دينار متأخراً حيث كان ينوي القضاء علي سنين أولاً ثم يزف أخبار هذا النصر للحكومة الثنائية البريطانية. بيد أن تلك الأحلام قد تحطمت علي صخرة الواقع وعناد هذا المهدوي الصامد. وبالتالي فإن حسابات السلطان لم تأت بثمارها أو بنتائجها المرجوة، لذا لم يكن أمامه من سبيل سوى استجداء الحكومة الثنائية البريطانية، مستعداً آياها ومثيراً لحفيظتها بالعزف علي وتر الدراويش الذين يوشكوا أن يحيوا الثورة المهدوية من جديد ويقتلعوا جذور الوجود البريطاني من البلاد كلها. الأمر الذي سيفزع الحكومة الثنائية البريطانية، فتبادر إلى مساعدته لا باعتباره حليفها بل لأنه أهون الشرين وأفضل الخيارين. وأشار السلطان في خطابه المتقدم إلى أن نصره هو نصر للحكومة وهذا أسلوب إغراء ذكي، ووفقاً لما تقدم يطلب من الحكومة مدداً وعناداً بغية تقوية مركزه وهزيمة سنين الذي دوخ جنوده وهذا ما ورد في العبارة التالية: (... فما دام اليد واحدة والنتاج منذاك عايد للحكومة نرغبوا الائتماس من سعادتكم وسعادة أفندم السردار إرسال واحدة مكنة حربية بمؤنتها من الجبخانة للمساعدة وإزالة أهل المفاسد⁽¹⁶⁾). وفي هذا الأثناء وصل علي دينار إلى قناعة مؤداها القيام بغارات خاطفة والاكتفاء بالسلب

⁽¹⁴⁾ من علي دينار إلى مفتش عموم السودان شوال 1320 هـ / 1902 م. S.N.A. Intell 7/1/6

⁽¹⁵⁾ Ibid.

⁽¹⁶⁾ S.I.R. 107/2 1st July 1903

انظر أيضاً: Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP.68.

والأسر فقط دون الدخول في المواجهة المباشرة مع جيش الفكي سنين. ولعله لجأ إلى هذه الخطة ريثما يبني قواته من جديد بناء يؤهلها للتغلب على سنين وقواته.

وفي المقابل قابل سنين خطة السلطان علي دينار بخطة مشابهة حيث قام في عام 1903م بغارات خاطفة على قرى شمال كتم والواقعة شمال غرب دارفور. حيث تمكنت تلك الغارات الخاطفة من زعزعة الأمن في المنطقة ونهب ثلاثين قرية ودفعت بأهلها إلى الهجرة إلى كينغابية. وفي هذا الأثناء وإمعاناً في التصدي والصمود بنى الفكي سنين مقبرتين إحداهما لدفن السلطان علي دينار والثانية له إن حاول علي دينار أن يثار لهذه الغارات التي قام بها سنين ولعله بذلك أراد أن يبعث برسالة قوية ومعبرة إلى السلطان علي دينار مقادها دون استلامه رويحيهما معاً. وسبق القول أن سياسة السلطان علي دينار الحربية قد اكتفت بالغارات الخاطفة. لذا قام بإنفاذ حملة في عام 1903م عدديتها خمسمائة رجل وكان من مهامها القيام بهجمات خاطفة دون الاشتباك المباشر. وبالفعل استطاعت هذه السرية أن تفاجئ سنين. بيد أنه سرعان ما استجمع قواته ولملم شتات رجالاته حتى تمكن من استرداد ما سلب منه وتشتت رجالات علي دينار شذر مذر. وغنم رجالات سنين خمسمائة وعشرين فرساً من جيش السلطان علي دينار بعد فرار فرسانها⁽¹⁷⁾.

وأنفذ السلطان علي دينار قوة أخرى لاسترداد كرامة جيشه بيد أنها منيت بهزيمة كسابقاتها وطاردتها قوات سنين حتى جبل أساغبا (أسامه بلغة أهل دارفور)⁽¹⁸⁾. إن هذه الحروب تؤكد على طبيعة أهل دارفور العنيدة التي لا تعرف المهادنة، وتشير في الوقت ذاته إلى عنف المعاملة وشراسة الطبع ولعل هذه الإشارة تفسر ما يدور الآن من حروب عصابات ومعارضة وغيرها.

ويبدو أن السلطان علي دينار بعد هذه الهزائم المتكررة قد شعر بقوة خصمه وبفشل كل وسائله للقضاء عليه في حرب خاطفة كما كان يحلم، لذا تفرغ لإعداد وبناء قواته تجويداً للأداء وإستعداداً للقاء الحاسم من جديد. ولا عجب إذن أن رأينا أن

⁽¹⁷⁾ Ibid.

⁽¹⁸⁾ Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP. 68.

الحرب بين الفريقين قد هدأت لمدة خمسة أعوام متوالية. واكتفى السلطان خلالها بالغارات الخاطفة التي اعتادت على غنم كل ما تجده من نساء وأطفال وأغنام بغية الفت في عضد الفكي سنين ود حسين، أما الرجال من أتباع سنين فقد درج السلطان على قطع أيديهم وأرجلهم ويتركون تحت رحمة الموت. لعله بهذه القسوة قصد إقلاق سنين حتى لا يتمكن من استعادة بنية قواته ودخال الرهبة والخوف في نفوس أتباعه للتفرق عنه⁽¹⁹⁾. وهي ذات الظاهرة الماثلة الآن بكل تفاصيلها ودقائقها. قتل وسلب ونهب وسبي للنساء بين أبناء المنطقة الواحدة من أجل الزعامة وتوحيد الإرادة. هذا بالرغم من العلاقات العرقية والاجتماعية والتاريخية القائمة فيما بين الأطراف المتضادة.

وفي منتصف عام 1906م جاءت إشاعات مؤداها أن علي دينار أخذ يعد العدة لإنفاذ حملة ضد سنين. وبالرغم من قلة عددية سنين إلا أن أهالي غرب دارفور كانوا يعتقدون أن النصر سيكون حليف سنين⁽²⁰⁾. لا يخفى أن هذه المنطقة كانت ولا تزال ذات تاريخ عريق في الاعتقاد في الشيوخ والإيمان بالخوارق، وللسحر فيها صولات وجولات والدين في هذه المناطق يختلط فيها بالخرافة، لا سيما وأن سنين فكي ويدعي نسبة شرفية. ومصطلح فكي في غرب السودان على وجه الخصوص والسودان على وجه العموم ذو نكهة خاصة تفوح منها رائحة التأثير في الأرواح والأجساد بفضل القوى الغيبية .

ولقد شكل هذا الاعتقاد عاملاً نفسياً قوياً لدى جنود سنين ورفع من روحهم المعنوية. وفي الوقت ذاته فقد ألقى في روع جنود علي دينار الخوف. وقد أنبنى هذا الافتراض علي التجارب التي خاضتها جيوش السلطان ضد سنين. لاسيما وأن سنين من أتباع محمد أحمد المهدي. هذا الرجل الذي علي يديه ظهرت أمور لا يمكن قياسها بالمعايير الظاهرة فقط مثل انتصاره على هكس باشا وخلاف ذلك. ولا يخفى أن سنين في منطقة للاعتقاد فيها أثر كبير علي نفسية الأمة يمثل هذه الأمور التي يعدونها ضرباً من الخوارق كما قدمنا.

⁽¹⁹⁾ Ibid.

⁽²⁰⁾ S. I. R. 138/4 .

ووردت أخبار في أواخر عام 1906م تفيد بأن سنين قد اتحد مع المساليت وقام بإغلاق الطريق بين دارفور ودار برقو⁽²¹⁾. إن هذه التدابير تبدو أنها ضرورة اقتضاها ظرف سنين الحرج. وأن اتحاده مع المساليت كان أمراً لا بد منه إذ لا يقوى علي المقاومة والصمود طوال هذه الفترة دون ظهور يشد من أزره.

وقد شعر سنين بأن هذه التدابير والاحتياطات التي قام بها لم تكن ذات جدوى. لذا لا غرابة أن وجدناه يطلب من الحكومة الثنائية إنقاذه من الحالة غير السلمية التي يعيشها. لا سيما بعد ورود أخبار تفيد بأن علي دينار قد عزم علي إعداد حملة كبيرة يقوم بقيادتها بنفسه. بيد أن رجاله من المستشارين أقنعوه بالعدول عن ذلك وتولى قيادة الحملة آدم رجال. إلا أنها لم تخرج بعد، وفي المقابل ورد خطاب من المفتش العام إلى علي دينار⁽²²⁾ يطلب منه فيه إقامة صلح بينه وبين سنين وذلك بقوله: (فإننا نرغب كثيراً أن يتم الصلح بينكم ولا بد لي أن أذكر لكم، أنه يجب عليكم عدم محاسبة أو إدانة الناس الذين يبقون في الدار. بل يجب أن ترسلوا إليهم أمانكم وعفوكم عن كل ما مضى من أفعالهم ضدكم وعدواتهم لكم والعفو من قيم الكرام)، وأرسل إليه صحيفة ذلك خطاب سنين الذي طلب فيه السماح له بالذهاب إلى بيت الله الحرام والوساطة له لدى علي دينار للسماح له بذلك. فيما يبدو أن سنين قد بلغ حداً من اليأس والقنوط، ومن الغريب أن هذه هي ذات النعمة التي كررها علي دينار حين ضاقت به الحال عام 1916م. وما أن علم دينار بهذا الأمر حتي تجدد عزمه علي قيادة الحملة بنفسه. ولكن في تقدير الباحث أن ذلك كان من باب الحرب النفسية والدعاية التي يراد بها التأثير علي نفسية أتباع سنيين لأن علي دينار لم يتصد ولو مرة لقيادة حملة ذات شأن بنفسه. ومعظم الحملات المصيرية أوكل أمرها إلي قيادته وما أن يفشل أحدهم حتي يقوم بإعدامه أو إقصائه شأنه في ذلك شأن الخليفة عبد الله التعايشي. إذ لم يخرج لمعركة إلا مضطراً. لاسيما إذا كانت احتمالات هزيمته واردة، فإنه لا يخرج لئلا يعرض نفسه لفقدان الثقة وتفرق أتباعه عنه. وذكرت بعض المصادر بأنه قد تخلى عن هذه الخاطرة

⁽²¹⁾ S. I. R. 147/3 Oct. 1906.

⁽²²⁾ من المفتش العام الي السلطان بتاريخ 12 فبراير 1907م S. N. A Intéll 7/3/8
انظر أيضاً: S. I. R. 148/6. 6th Dec. 1906

الفصل الثاني - السلطان علي دينار والمواجهة المسلحة مع الفكي ود حسين

لاسيما وأن بعضاً من قاداته يعارضون هذه الفكرة⁽²³⁾. هذا من باب التبرير الذي يتم اللجوء إليه في ظل الأنظمة الشمولية.

وقد ترجحت لديه يومئذ فكرة مؤداها الحصار الطويل المدى للفكي سنين وتجويع أتباعه وإجبارهم علي الهجرة إلى معسكر السلطان. وأعد لهذه الخطة عدتها، حيث أرسل حملة ضخمة بقيادة كل من آدم رجال ومحمود الدادينقاوي. فجاء أحدهم من الجنوب والثاني من الشرق وحفر كل منهما خندقاً حول معسكر سنين وبنى زريبة⁽²⁴⁾. للإيحاء بأن أمد هذا الحصار سيطول.

وهذا الإجراء في حد ذاته هو ضرب من الحرب النفسية المؤثرة علي روح الخصم المعنوية، لاسيما إذا كان المرء في وضعية سنين الذي ظل يسبح ضد التيار وحده في هذا الوقت الصعب، وفي هذا الأثناء كانت الحكومة الثنائية تتابع الأمور عن كثب وتترقب الموقف بحذر. فلربما كانت تريد ضرب و تحطيم القوتين الوطنيتين المتصارعتين ببعضهما الآخر. ويدرك المرء أبعاد هذه السياسية الأجنبية في البلاد بالنظر لما ورد في أحد تقارير المخابرات الآتي نصه: (لقد أعلن علي دينار مرة أخرى نيته بمهاجمة سنين وبقيادة الجيش بنفسه ولكنني أشك فيما إذا كان سيتولى القيادة بنفسه. ومن المؤكد أن جيشه سيهزم مرة أخرى إذا كان هو في القيادة وسيعني ذلك نهايته. ولكن في حالة إرساله أميراً فسيمكنه عزو الهزيمة إلى خطأ القائد)⁽²⁵⁾. من خلال هذا التقرير يلاحظ المرء أن الحكومة الثنائية ترغب في فناء القوتين ولا تبدي تعاطفاً واضحاً مع أحدهما. إلى حد المساندة المادية والعسكرية. وفي ذات الوقت يقرر ما سبقت الإشارة إليه في الفقرة السابقة.

باستطاعة المرء الادعاء بأن موقف الحكومة، من القوتين المتصارعتين هو موقف المراقب أكثر منه المناصر. وإن كانت هناك ميول ظاهرة تجاه علي دينار باعتبار

⁽²³⁾ S. I. R. 157/4 1st Sep. 1907- 8159/4 4th Nov. 1907.

⁽²⁴⁾ S. I. R. 157/4 1st Sep. 1907-8. 159/4 4th Nov. 1907

انظر أيضا كلا من: Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 68-79

يونان ليب رزق ، مصدر سبق ذكره، ص 243. A. B. theobald OP. cit. PP. 76.

⁽²⁵⁾ S. I. R. 157/4 1st Sep. 1909.

ممثلاً لها، فإن ذلك لا يعدو عن كونه خط رجعة، ولصيرورته أمراً واقعاً ولعل عداوتها له تدفعه للاتحاد مع هذه القوة المانعة ذات النزعة الدينية الواضحة.

وقد حاول سنين أن يمد جسور التفاوض بينه وبين الحكومة الثنائية. بيد أن خطابه قد قوبلت بفتور شديد لأن الحكومة الثنائية كانت لا تهدف إلى إثارة علي دينار⁽²⁶⁾. وليست لديها رغبة في التعاون مع من تعتقد أن جرثومة المهدية ما زالت تجري في عروقه. والقضية لا تعدو عن كونها موازنات سياسية مدروسة، فعلي دينار بكل المقاييس في تقديرها أهون شراً من سنين في تقدير الحكومة الثنائية.

وقد شغل حصار سنين جزءاً كبيراً من تفكير السلطان علي دينار ولا أدل علي ذلك من قوله أنه مشغول بـ (تمهيد البلاد وتنظيفها من الأشرار ولا يخفي ذلك لمسامح سيادتكم ما نحن عليه الآن من أمر الشقي سنين وما معه من بقية الدراويش وأما من أسباب طول المدة التي حصلت في حصاره وأرجو عن قريب مساءلتهم تنتهي لأنه قد حصل عليهم الضيق الشديد من الجوع)⁽²⁷⁾.

ويعكس هذا لخطاب غيظ علي دينار وانفعاله من وجود شخصية عنيدة مثل سنين في جزء من أجزاء سلطنة آبائه. ويرى ضرورة أزاحته فسخر كل إمكاناته لتحقيق هذه الغاية. ثم لم يلبث أن أرسل خطاباً آخر يذكر فيه أنه قد أوشك أن يقضي علي سنين بقوله: (إن الأحوال إن سألتوا عنها فالشقي سنين تلاشي أمره وصار في حالة ضعف وأشرف على الهلاك، وما فضل له إلا القليل وقريباً إن شاء الله ستقضي مسألته على أحسن حال)⁽²⁸⁾.

من خلال هذه المراسلات كان السلطان علي دينار يهدف إلى انتزاع الاعتراف به من قبل الحكومة باعتباره كياناً مهاب الجانب. كما أراد أن يثبت أنه أقدر من يحكم في دارفور، ومن يقضي علي التمرد والعصيان في سلطنته.

⁽²⁶⁾ موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 233. انظر أيضاً: يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 243.

⁽²⁷⁾ من علي دينار إلى المفتش العام بتاريخ 20 ربيع الأول 1326هـ ، 1908م.

S. N. A. Intell 7/1/9.

⁽²⁸⁾ من علي دينار إلى المفتش العام بتاريخ 13 ذو القعدة 1326هـ ، 1908م.

وكان سنين علي الصعيد الآخر يمثل شخصية قوية وعنيدة في آن واحد، شخصية مؤمنة بأهدافها ومبادئها وصادقة في اعتقادها وتوجهها. الأمر الذي مد من طول فترة الحصار حيث بلغت سبعة عشر شهراً. ودارت خلال هذه الفترة مناوشات لم يقلل من حدتها سوى الخريف. وقد كان لطول فترة الحصار أثر عكسي علي جنود سنين إذ لجأوا إلى أكل الحشائش والحيوانات المختلفة دون تفريق، وأوراق الأشجار وذلك خلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة من الحصار. وقبل ذلك هرب عدد كبير من جنود سنين وانضموا إلى معسكر علي دينار الذي آواهم واتبع معهم سياسة العفو دون عقوبة⁽²⁹⁾. وهي سياسة ناجحة وجاذبة في ذات الوقت وفي مثل هذه الظروف بالذات.

أما سنين فلم يقف مكتوف الأيدي أمام تطور وتجدد الأحداث في البلاد عموماً وقد كان مدركاً لأبعاد الواقع الذي أحاط به. ونزولاً عليه فقد حاول عدة مرات إنفاذ رسله إلى الحكومة الثنائية باعثاً بخطاباته لها. إلا أن علي دينار كان له بالمرصاد. حيث قام بقطع أية صلة بينه وبين الحكومة. وصادر كل خطاباته المرسلة. ولم يفلت من خطابات سنين إلا خطاب واحد استطاع رسل سنين بسرية تامة إيصاله إلى الحاكم العام، وفي هذا الخطاب شرح سينين موقفه بالتفصيل. فعرض لطبيعة المشكلة القائمة بينه وبين علي دينار. وأوضح أن الأسلحة التي لديه هي عبارة عن أمانة أودعها أبيه قائده عبد القادر دليل. ولهذا السبب لا يمكن أن يفرط فيها أو يعطيها لعلي دينار. لاسيما بعد ما علم بسقوط الدولة المهدوية. وأشار إلى المحاولات العديدة التي بذلها علي دينار لقطع الطريق على رسله ومصادرة خطاباته المتكررة إلى الحكومة.

ونفي أن يكون قد نصب نفسه ملكاً أو شيخاً وإنما هو علي استعداد لأن يكون موظفاً خادماً في الحكومة الثنائية، لعله بذلك أراد التعريض بعلي دينار حيث أراد أن ينفي عن نفسه التشبث بالسلطة أو السعي لها، وأكد أنه علي استعداد لتسليم ما لديه من أسلحة للحكومة أو من تفوضه لأخذها إن أرادت. وبهذا الأسلوب أراد أن يستعدي الحكومة على علي دينار ويبيدي استعدادده لإرسال خمسمائة جندي إن اقتضى الأمر.

⁽²⁹⁾ Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP. 68-69.

أنظر أيضاً: S. I. R. 164/11 March 1908.

وإن لا فيطلب من الحكومة الضغط على علي دينار للسماح له بالمرور، وفتح الطريق ما بينه وبين الحكومة. ولم يغفل الإشارة في خطابه من باب الإعتداد بالذات إلى الهزائم التي ألحقها بعلي دينار في أكثر من معركة⁽³⁰⁾.

وقد أثرت تلك الخطة والاستراتيجية التي أتبعها السلطان تجاه سنين علي قوة الأخير ونفسية جنوده. لذا ما أن دخلت الجيوش الفوزاوية عاصمة سنين كبكابية بعد ذلك الحصار الطويل حتى أدركت أنه لم يتبق معه إلا حوالي أربعمئة أنصاري صمدوا صمود الأبطال الأشاوس مع قيادتهم لمواجهة قدرهم المحتوم. ولقد أبت نفس قائدهم إلا أن تسقط في ساحة المعركة ليكون صاحبها شهيداً دفاعاً عن عقيدته ومبادئه، صادقاً مع نفسه، ومعه من رجاله ابن أخيه وقائده الشهير شيخا وعبد الله أزرق. ورقصت دارفور طرباً بسقوط هذا الحصن المنيع⁽³¹⁾.

وقد تم ذلك الاقتحام في يناير عام 1909م بعد أن تأكد قادة علي دينار من ضعف سنين وقواته. وقام السلطان علي دينار بتسجيل تاريخ هذا الانتصار في خطاب بعث به إلى مفتش عموم السودان معلناً إياه بهزيمة سنين بقوله: (انه في يوم الأربعاء الموافق 5 محرم عام 1327هـ. قد أيد الله جنودنا الذين كبكابية ونصرهم وأظفرهم بالشقي سنين وقتلوه هو وكبراء قومه وجميع من معهم ... وبيوم الجمعة 7 الجاري أحضرت لنا رأس الشقي سنين ورؤوس كبراء قومه وراياتهم وتعلق بالسوق وارتاحت أفكارنا من شواغل الفتن والضلال)⁽³²⁾.

يعبر هذا الخطاب عن الفرحة التي غمرت السلطان بانتصاره وتجاوزه لهذه العقبة الكئودة. وفي الوقت ذاته يعكس لنا مدى الغيظ والكراهية التي انتابت السلطان من جراء مقاومته له. وبهزيمة السلطان لسنين تنفس الصعداء وارتاحت أفكاره. كما يلقي ذلك الضوء على مدى الجهد المبذول والإمكانات التي سخرها السلطان بغية القضاء

⁽³⁰⁾ هذا الخطاب جاء في 1907/6/27 S.I. R. 6412/06

انظر أيضاً: D. S. A. Box 131: Samuel Bey Atiya OP. Cit. P. 64-66.

⁽³¹⁾ Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 68-69.

انظر أيضاً: S. I. R. 164/11 march 1908. 163/7 10/2/1908

⁽³²⁾ من علي دينار إلى مفتش عموم السودان في 14 محرم 1327هـ ، 1909م.

الفصل الثاني - السلطان علي دينار والمواجهة المسلحة مع الفكي ود حسين

علي هذه المقاومة العنيدة التي لم تثن لها قناة طوال عشر سنوات متواصلة. ففي سبيل القضاء علي سنين فقد السلطان مالا ورجالا وجهداً وتعبيراً عن هذا الغيظ الكامن فإن من أخذهم من نساء وأطفال جيش سنين وسمهم باعتبارهم أرقاء (33).

ولم يقتصر الأمر علي الإعلان فقط وإنما بعث برأس سنين وعلمه إلى المفتش العام لإثبات انتصاره عليه وبعث برسله إلى الخرطوم ليحملوا البشري بالانتصار إلى الحاكم العام. وقد وصلوا الخرطوم في 15 مارس 1909م (34) وبذا أراد أن يثبت قدرته علي قهر معانديه وأنه الأقوى في الساحة وبإمكانه سحق كل معارضيه، وأنه مستعد لقهر أية مقاومة أو أية قوة تحول دونه وعرش سلطانه أجداده. كما أنه أراد بإرساله رأس سنين إرهاب المفتش والحاكم العام.

وبنهاية الحرب بينه وبين سنين قام علي دينار بتعمير المسجد الذي تهدم في ككبائية نتيجة هذا الصراع الذي ألحق بالمنطقة الخراب، وعين للمسجد إماماً للصلاة مما له دلالة علي عمق الروح الديني لدى السلطان:

وبذا انطوت صفحة آخر معقل مهدوي في البلاد. ونعم السلطان علي دينار بعدئذ بالسيطرة الكاملة علي مملكة آبائه وأجداده. وأثبت أنه أقدر وأجدر من يحكم هذه البلاد. واستطاعت جيوشه بعد لأي أن تهد قلعة ظلت صامدة لأكثر من تسع سنوات وأوشكت هذه القلعة أن تكون شرارة مهدوية وأن تعصف بأخلامه أدراج الرياح.

وتجدر الإشارة إلى أن سنين بالرغم من انقطاع كل السبل وانسدادها في وجهه كان قوي الإيمان بمبادئه، شديد التمسك بدعوته، صادق الاعتقاد بمهديته، الأمر الذي شكل وقوداً مرحلياً ضمن له البقاء كل هذه الفترة وهو يقاوم لا تلين له قناة. بيد أن العزلة التي أحاطت به والهجمة الاستعمارية علي المنطقة، والحساسية المفرطة ضد دعوته وما أحدثته من تغيير وما سببته من متاعب للوجود الاستعماري في المنطقة كان طبيعياً أن يؤدي به إلى هذه النتيجة لاسيما وهو قد واجه طموحاً فتياً تمثل في شخصية السلطان علي دينار.

(33) Samuel Bey atiya: OP. Cit. PP. 69.

انظر أيضاً: R. 163/7 10 FEB 1908

(34) S. I. R. 176/5 March 1909.

انظر أيضاً: Samuel Bey Atiya OP. Cit. PP. 69.

الباب الثالث

علي دينار ومقاومة الإحتلال الشنائي

الفصل الأول:

الفترة الأولى 1898 – 1901م

الفصل الثاني:

الفترة الثانية 1902 – 1908م

الفصل الثالث:

الفترة الثالثة 1909 – 1913م

الفصل الرابع:

الفترة الرابعة 1914 – 1916م

الفصل الأول

الفترة الأولى 1898-1901م

مقدمة:

لقد تميزت علاقة السلطان علي دينار مع الحكم الثنائي في الفترة بين 1898-1916م بسمات عدة. إذ تفاوتت هذه العلاقة بين الود والشد والجذب. وشكل بحثها مادة ثرة بالنسبة للباحث، وتعددت المؤثرات الإيجابية والسلبية علي هذه العلاقة مما اقتضى تفصيل ذلك واستقصاء جوانبه. فجاءت دراسة ذلك وفق فترات متميزة كل فترة لها سماتها ومشاكلها وسلبياتها وإيجابياتها وأثرها الواضح علي ما يليها من فترات. لذا اقتضى الأمر تقسيم ذلك إلى أربع فترات أتى الباحث في نهاية كل فترة منها بخلاصة احتوت علي أهم مظاهر تلك الفترة وما اقتضته طبيعة الموضوع. ونوعية المؤثرات علي العلاقة الفوراوية الثنائية.

والحكم الثنائي البريطاني هو ذلكم النظام الإداري والسياسي والقانوني والاقتصادي والتربوي الذي أصبح علي رأسه حاكم عام إنجليزي يعتبر مسؤولاً أمام الحكومتين المصرية والإنجليزية في تصريف شؤون السودان المصري الإنجليزي بعد القضاء علي الثورة المهدوية في البلاد. وبذا حل ما خلفته من فراغ. والحكم الثنائي البريطانية وبدعة إنجليزية خالصة، وكان يومها يجسد أحدث ما أنتجته وابتدعته العقلية الإنجليزية المحتلة من غش وخداع ولعب علي الذقون لفرض هيمنتها وسيطرتها علي السودان ومصر. وتم إخفاؤه تحت لبوس براق وجلباب فضفاض فكان ذلك النظام بدعة في القانون الدولي، وتحايلاً علي الشركاء الأوروبيين، شأنه شأن ما ابتدعته أمريكا والمملكة المتحدة في نهايات القرن العشرين والحادي والعشرين من مسميات وأحلاف

ظاھرھا الرحمة وباطنھا العذاب وغايتها فرض سيطرتھما علي العالم الإسلامي والعربي من مسميات الشرعية الدولية والحريات العامة وحقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني. وللأسف قد انطلت الخدعة الجديدة علي الكثيرين ممن لم يعتبروا بالماضي ولم يقرأوا مفردات التاريخ بنكاء ووعي لازم، ولدغت الأمة من ذات الجحر أكثر من مرة نتيجة غباء وغفلة القيادات السياسية وغياب القيادات الفكرية الفاعلة والتي غيبت في بعض الأحيان بقصد وعمد.

ويعتبر الحكم الثنائي بكل المقاييس ردة دينية وفكرية وسياسية وقانونية واقتصادية، وشكل تسلطاً لا مبرر له من قبل قوة قاهرة غالبية أرادت أن تصبغ البلاد بصبغة علمانية غربية، وأن تصدها إلى حظيرة الذيلية والتبعية البغيضة للغرب. ولعل علي دينار في هذا الخضم كان يمثل إنعتاقاً جديداً من هذه المحاولة الجائرة ويعكس تقلباً من تلك المحاولة الظالمة، ويبرز وجهاً مشرقاً لأمتنا في تاريخها الحديث والمعاصر برفضها للذيلية والتبعية وقدرتها علي التعبير عن هويتها الإسلامية بذات القدر الذي عبرت عنه في المهدية. ولكن من موقع غير الموقع الأول وظل يلعب دوراً لا يقل أهمية عن الدور المهدوي السابق ولكن علي مسرح جديد وبممثلين آخرين. ولبت القيادات السياسية والفكرية والاجتماعية علي مستوى دارفور والسودان ككل تقرأ هذه المفردات وترقي إلي مستوى المسؤولية التاريخية في التعاطي مع مشكلة دارفور خصوصاً والسودان عموماً دون مزايدات رخيصة.

السودان والصراع الغربي:

في سنة 1890م وقعت اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا تم بموجبها تحديد أكثر دقة لحدود المناطق الواقعة تحت نفوذ كل من البلدين في شرق أفريقيا. ووقعت كل من بريطانيا وإيطاليا بروتوكولاً في النصف الأول من 1891م. يعين مصالحها والحدود الفاصلة بين كل من السودان وإريتريا المستعمرة الجديدة لإيطاليا، وفي ذلك الوقت اشتد نشاط البلجيكيين والفرنسيين⁽¹⁾. وبتغيب متعمد لإرادة الأهليين والتصرف في

(1) يونان ليب زرق، مصدر سبق ذكره، ص 69-72. انظر أيضاً: محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان (1900-1969) ترجمة هنري رياض، وإيم رياض، للجديد علي عمر، دار للنشر والتأليف، جامعة الخرطوم - الخرطوم 1980، ص 26-27.

أملكهم دون مشورتهم. لم يحدث ذلك في القرون الوسطى التي سادها قانون الغاب في أوروبا ولكن حدث ذلك في بدايات القرن العشرين ومن قبل دول تدعي الديمقراطية والدستورية واحترام الشرعية الدولية. وبالتالي فإن ما جري في نهايات القرن العشرين وفي بداية القرن الحادي والعشرين لا يختلف كثيراً عما حدث قبلاً لكننا أمة لا تقرأ مفردات تاريخها للاعتبار.

ففي عام 1892م عبرت حملة كنغولية الأراضي الواقعة بالقرب من نهر النيل الكونغولي⁽²⁾. وفي 1897م احتل البلجيك مدارج جبل لادو أو حاجز لادو. وبحلول شهر فبراير 1899م احتل الفرنسيون بحر الغزال⁽³⁾. واشتد أوار المنافسة الأوروبية. لعل هذه الإشارات السابقة تلقي الضوء على طبيعة الصراع والتنافس الإستغلالي الإستعماري للاستيلاء على السودان. الأمر الذي دفع ببريطانيا للتسّتر بالسيادة الخديوية⁽⁴⁾، وببدعة الحكم الثنائي للإنفراد بالسيادة والسيطرة على السودان خلال فترة زمنية وجيزة وبتخطيط مدروس.

ونتيجة لاشتعال المنافسة الاستعمارية في المنطقة، فإن بريطانيا غلفت استعمارها للبلاد بقولها: (نظراً للمساعدات المادية التي قدمتها الحكومة البريطانية للحكومة المصرية من الناحيتين الحربية والمادية فقد قررت حكومة جلالة الملكة رفع العلم البريطاني إلى جانب العلم المصري في الخرطوم)⁽⁵⁾ علي ضوء هذه التعليمات ووفقاً للاتفاقية الإنجليزية المصرية المبرمة في 19 يناير 1899م فقد منحت بريطانيا نفسها بقدرة قادر الوصاية على السودان بناء علي حق الاحتلال. وأضحت بريطانيا وفقاً لذلك تمثل الشريك الأقوي والمسيطر، وفي معظم الأحيان وعلي أرض الواقع وهي السيد الوحيد والي ذلك أشار اللورد كرومر بقوله: (إنجلترا - وليست مصر - هي التي قامت فعلاً بفتح هذه البلاد ... كانت القيادة العليا والطولي لبريطانيا)⁽⁶⁾. وفي الواقع قد أوجدت هذه الاتفاقية مخلوقاً جديداً وفريداً وهو ما يسمى بالحكم الثنائي فسي السودان

(2) المرجع السابق

(3) المرجع السابق.

(4) نفسه.

(5) يونان ليبب زرق، مصدر سبق ذكره، ص 43، أنظر أيضاً: محمد عمر بشير، مصدر سبق ذكره، ص 26، 27، 28.

(6) محمد عمر بشير، مصدر سبق ذكره، ص 29.

وقد استمر لمدة خمسين عاماً⁽⁷⁾ من الزمان أحدث خلالها تحولات إجتماعية وسياسية وفكرية وأقتصادية وقانونية وإدارية وثقافية .

ولم تجرؤ بريطانيا علي وضع النقاط فوق الحروف وتكشف عن وجهها الكالح منذ الوهلة الأولى وتتفرد بحكم السودان للأسباب التالية أولها: الأطماع المصرية في البلاد لتقرير المصير السياسي. ثانيها: أن عملية الغزو تمت تحت اسم الخديوي عام 1898م. ثالثها: خوف بريطانيا من اعتراضات الدول الأوربية الأخرى التي كانت تسعى لذات الغرض.

أما أهدافها من الإحتلال بهذه الصورة فهي تتمثل أولاً: في الرغبة بأن تحكم بلا مسؤوليات أو تكاليف لنلا تتقل كاهل الخزانة البريطانية. ثانياً: تأمين وضعيتهم في مصر بالسيطرة علي منابع النيل. ثالثاً: إن سيطرة بريطانيا علي السواحل الغربية للبحر الأحمر التي تشمل مصر والسودان تشكل صمام أمان لخط مواصلاتها مع الهند. رابعاً: أن السودان كان يشكل حجر الزاوية في المشروع البريطاني لربط شمال القارة بجنوبها بواسطة خط حديد الكاب - القاهرة⁽⁸⁾.

وركزت بريطانيا القيادة العسكرية والإدارة المدنية في يد ضابط يسمى حاكماً عاماً ويتم تعيينه بمرسوم خديوي بناء علي موافقة حكومة جلالة الملكة البريطانية. وجعل ذلك بالإمكان استمرارية التوصية من قبل بريطانيا بحاكم بريطاني توقع مصر علي تعيينه دون اعتراض أو إيداء رأي، كما أنها لا تملك حق استبعاده دون موافقة بريطانيا. ومنح هذا الحاكم بموجب هذه الاتفاقية وملحقاتها سلطة مطلقة سياسياً وعسكرياً وإدارياً وقضائياً وأضحت أحكامه وقراراته غير قابلة للنقض، حيث لا توجد سلطة تملك حق إيقاف المراسيم التي يصدرها، ونتيجة لذلك فرضت علي السودان أحكام عرفية. وأصبح الحاكم العام ملزماً بإطلاع حكومة جلالة الملكة علي كل ما يتصل بسياسة السودان الخارجية، أو اتخاذ أي قرار يتعلق بمصائر البلاد. ويقوم برفع تقرير سنوي عن الإدارة في السودان إلى حكومة جلالة الملكة⁽⁹⁾. وأمسي وجود مصر

(7) نفسه، ص 28.

(8) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 44 - 48.

(9) المصدر السابق، ص 84 - 86.

صورة وحكمها إسمياً إذ غدا أمر السودان جملة وتفصيلاً يقرر في بريطانيا وليس في مصر، تقرر حكومة جلالة الملكة وليست حكومة الخديوية. هذه هي الصورة المتفق عليها، والتي سادت السودان بعد الحملة الإنجليزية المصرية بقيادة (هربرت كتشنر) سردار الجيوش المصرية الإنجليزية، والتي قضت على الدولة المهدوية بعيد معركة كرري 1898م ومقتل الخليفة في أم ديبكرات عام 1899م.

بيد أن دارفور قد تميزت طيلة تاريخها الطويل بوضع متميز. لذا فمن الطبيعي أنه بمجرد سقوط الدولة المهدوية أن ظهر علي السبطح عدد من ادعاء سلطنة الفور، كان من بين هؤلاء إبراهيم علي الذي هرب من الجيش المهدوي والتحق بالحملة الإنكليزية المصرية 1898م. ونال رضا كتشنر وحصل من القيادة علي الموافقة المبدئية لاستلام دارفور بيد أنه قد تكلأ بعض الشيء وانشغل بمناوشات جانبية⁽¹⁰⁾، مما يوحي بأنه لم يكن الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة التاريخية، وبهذا الدور الخطير في تاريخ السودان الحديث، وأن القيادة الإنجليزية قد أخطأت الحساب بإختيارها لهذا الرجل الصنيعة، ولربما كان يمثل أفضل الخيارات المتاحة لها يومئذ، ولمعرفتها بخطورة علي دينار أرادت بإنفاذ هذا الدعي أن تسحب البساط من تحت أقدام علي دينار. بيد أن هذا الخيار غير الموفق قد خيب آمال القيادة الإنجليزية.

وفي عشية 2 سبتمبر 1898م، 23 صفر 1316هـ والناس مشغولون بالتأهب لمعركة كرري تسال علي دينار ومعه ثلاثمائة رجل من أتباعه حتى وصل إلى مشارف الفاشر⁽¹¹⁾ وحقق قصب السبق علي مبعوث الحملة الإنجليزية المصرية. وتسلم زمام الأمر من دعي آخر يدعي أبو كوده كما تقدم في الباب الأول والثاني. ولم يبق أمام السلطان علي دينار من ادعاء السلطنة سوى إبراهيم علي الذي كتب إلى كتشنر مستعدياً إياه علي علي دينار وذلك في 5 نوفمبر 1898م، 23 جمادي الأولى 1316هـ. وأشار في خطابه إلى أن أهالي دارفور يقفون معه ما عدا أولئك المقيمون في الفاشر وما حولها. وأمعن في عدائه فوصم علي دينار بميول مهدوية بغية إثارة

(10) انظر أيضاً: A. B. Theobald: op. cit. pp. 34

(11) يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 230.

الحكومة الثنائية ضده. إلا أن القيادة الثنائية كانت علي إطلاع واسع ومعرفة تامة بعلي دينار⁽¹²⁾ من خلال صديقه القديم سلاطين الذي هرب من قبضة الدولة المهدوية في 1895م. وشغل سلاطين في الحملة يومئذ وظيفة مساعد مدير المخابرات الثنائية في الفترة ما بين: (1896-1898م). وفي 1898م منح سلاطين وسام الفارس من الملكة فكتوريا ورقي إلى رتبة لواء في الجيش المصري مع منحه درجة باشا بواسطة الخديوي. وفي أكتوبر عام 1900م تم تعيينه مفتشاً عاماً علي السودان في الفترة (1900-1914م) وأعطيت له صلاحيات واسعة وأصبح بمثابة المستشار الخاص للحاكم العام في السودان في كل الأمور التي تتصل بإدارة البلاد⁽¹³⁾.

في هذا الأثناء لم تكن الحكومة الثنائية على استعداد للدخول في معارك جانبية هذا بالإضافة إلى إمامها بحقيقة علي دينار. لذا كتب كتشنر خطابين إلى كل من علي دينار وإبراهيم علي في 23 نوفمبر 1898م. ففي خطابه إلى إبراهيم علي أوضح له أن علي دينار لم يكن يوماً من أعداء الجيش الغازي. وفي الوقت ذاته يلومه على عدم أدائه لمهمته على الوجه المطلوب ويحذره من الاعتداء عليه أو منازعته بعد الذي حدث⁽¹⁴⁾. وأداء المهمة على الوجه المطلوب المشار إليها في هذا الخطاب أن يسبق علي دينار ويستولي علي دارفور وهذا ما لم يحدث. مما يوحي بندم الحاكم علي اختياره له لمهمة لم يكن في قامتها التاريخية. وفي خطاب كتشنر لعلي دينار حاول أن يركي سلوكه بعدم المقاومة لجيش الاحتلال والاتجاه إلى دارفور عشية المعركة ومعه مجموعة من رجاله. ويطلب منه عدم إثارة الفتن في المنطقة. وأشار إلى أنه قد علم حاله من (رودلف فون سلاطين). لاسيما ظروف إحضاره إلى أم درمان والذي قد تم كرهاً. وطلب منه الرد على خطابه، ومعاملة إبراهيم بالحسنى إلى أن تجئ الجيوش الغازية لترتيب وتنظيم دارفور وتولية الأصلح من أبناء السلاطين⁽¹⁵⁾.

(12) المصدر السابق، ص 231-232. انظر أيضاً: A. B. Theobald OP. Cit. PP.31-32

(13) D. S. A. 223/1. Written by Wingate. 403/6. Salatin to H. B See also: H. A. Macmicheal march 1909

(14) خطاب من السردار إلى إبراهيم علي بتاريخ 23 نوفمبر 1898م، جمادي الثانية 1316هـ. S. I. R. 60/140.

(15) من السردار إلى علي دينار بتاريخ 23 نوفمبر 1898م، 15 جمادي الثانية 1316هـ. S. I. R. 60/140.

هذا الخطاب يمتاز بأهمية خاصة باعتباره أول خطاب رسمي يتسلمه علي دينار من سردار الجيش الغازي. وقد وردت فيه عبارات تحدد العلاقات بين الأمير علي دينار وسردار الجيوش الغازية. بيد أن الإشارة إلى أن الجيش الغازي قادم لترتيب الأمور في دارفور مما يقلق مضجع علي دينار. كما أن الأمر بالتزام السكوت تجاه إبراهيم بعد طرده من الفاشر وإمكانية محاولته تكوين مقاومة ضد علي دينار لم يرق له. أما تولية الأصلح من أبناء السلاطين هذا ما يرفضه علي دينار جملة وتفصيلاً. إذ أنه يرى أحقيته بذلك المنصب دون سواه. وقد بذل في سبيل ذلك وقتاً وجهداً. لذا لا غرابة أن ضرب بهذه الأوامر عرض الحائط فهاجم إبراهيم علي. وذلك بعد أن أدرك من كلمات السردار أن كتشنر لا يمانع في توليته أمر دارفور. وأن الحكومة الثنائية لا ترغب في تأييد إبراهيم علي، هذا بعد أن تبين لها عدم صلاحيته لخدلانه لها واشتغاله بقضايا جانبية دون بلوغ الغاية التي بعث من أجلها. ورأي علي دينار أن إبراهيم علي في وضع لا يحسد عليه لذا عاجله فألحق به هزيمة بواسطة قائده كيران الرزيقي⁽¹⁶⁾ في فوجه في 26 يناير 1899م، 9 رمضان 1316هـ. بعد هذه الهزيمة صدرت التعليمات لإبراهيم علي بالقدوم إلى الخرطوم الأمر الذي يشعر بأن الحكومة أصيبت بخيبة تجاه مبعوثها، وفي الوقت ذاته قد اقتنعت بأن السلطان علي دينار لا يسمح لأي دعي آخر بالتواجد في تلك المنطقة. ومن جانب آخر خشي علي دينار أن يكون قد أغضب الحكومة الثنائية، لذا أرسل خطاباً إلى السردار ذكر فيه بأن المبادرة بالمهاجمة كانت من قبل إبراهيم الذي حاول قطع خطوط المؤاصلات بينه وبين الحكومة الثنائية. وأن كيران لم يرسل للقتال وإنما أرسل للإطلاع علي حقيقة الأمر بيد أن إبراهيم فاجأه بالحرب. ولم ينس أن يختم خطابه بالمطالبة للاعتراف به سلطاناً علي دارفور. فبعثت الحكومة وفداً للتأكد من صحة ولاء علي دينار فأعلن علي دينار ولاءه مرة أخرى⁽¹⁷⁾.

⁽¹⁶⁾ الخطابين مؤرخين في 19 أبريل 1899م انظر أيضاً S. I. R. 63/6 16 May to 15th July 1898. يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 231-232. See also A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 32. موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (1882 - 1898م) - السودان - الخرطوم، جامعة الخرطوم 1964م، ص 229 - 230.

⁽¹⁷⁾ الخطابين مؤرخان في 19 أبريل 1899م S. I. R. 63/6 16 May to 15th July 189. يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 231-232 A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 32 موسى المبارك الحسن: مصدر سبق ذكره، ص 229 - 230.

يبدو أن علي دينار قد سلك مع الحكومة الثنائية التي تملك العدة والعتاد ومنذ اللحظة الأولى أسلوب التقية رغباً عن عدم قناعتة بشرعية سيطرة الوضع الحالي. بيد أنه كان يتحين الفرص. ولا أدل علي ذلك من مخالفتة الصريحة لأمر السردار بالقضاء علي إبراهيم علي مبعوث الحملة الإنكليزية المصرية. وحاول تبرئة نفسه من مبادأة العداوة للحفاظ علي شعرة رفيقة بينه وبين النظام الجديد. واشترط منذ البداية لولائه أن يعترف به سلطاناً.

وفي هذا الأثناء كانت المشاورات والمداولات بشأنه تجري بين الحاكم العام في السودان والمندوب السامي البريطاني في القاهرة ووزير الخارجية البريطاني. ورأت السلطات البريطانية إحياء اقتراح غوردون باشا عام 1884م بضرورة اختيار سلطان أو حاكم من أبناء السلاطين لإدارة دارفور. ولا سيما وأن دارفور شاسعة وأن دخلها غير ذي بال. ومن المحتمل أن تصبح عبئاً ثقیلاً علي الخزانة وبالإمكان مواجهة كل احتياجات السودان إذا هدأت هذه المديرية وسمح فيها بالاتجار⁽¹⁸⁾. من هذه الإشارة يتضح الفارق الشاسع بيننا وبين الغرب في تعاطيه مع السياسة والإدارة، حيث نلاحظ أن اتخاذ القرار لديهم ينبني علي المعلومة الصحيحة بينما الأمر عندنا ينبني علي الانفعال الآني والخاطرة العابرة دون تقدير ماض أو رؤية حاضر أو استشراف مستقبل. هذه جملة المبررات التي سيقّت لإعطاء دارفور نوعاً من الحكم الذاتي. لاسيما بعد تجربة طويلة أوضحت أن المقاومة المحلية لأية نوع من أنواع الحكم الأجنبي لا يهدأ لها بال. وأن المقاومة الدارفورية كانت تتمتع بتنظيم دقيق وسط العائلة المالكة.

ومن جانب آخر كان هناك صراع عنيف حول السيادة علي السودان بين مصر والحكومة البريطانية وكانت مصر تمثل الجناح المهيض والشريك الذي ليس له رأي والشاهد الذي لم ير شيئاً. وفي زيارة لكرומר المندوب السامي البريطاني في القاهرة للسودان في يناير عام 1899م ألقى خطبة في أم درمان، أكد فيها أن حكم السودان سيتم بواسطة حكومة جلالة الملكة وخديوي مصر. ولكنه عاد وأكد بأن النائب الوحيد في

(18) يوان لييب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 233 - 234.

السودان عن الحكومتين البريطانية والمصرية هو السردار. وقد نددت في اليوم التالي الصحف المصرية بهذا الوضع وبهذا التصريح. ويبدو أن الذي حدث من كرومر قد تم دون علم الخديوي بل من وراء ظهره، هذا بالرغم من الموافقة المبدئية علي رفع العلمين البريطاني والمصري⁽¹⁹⁾. وحتى رفع العلمين كان المقصود منه خداع الشركاء الأوروبيين لئلا يجدوا فرصة للاحتجاج علي الوضع الغريب علي العرف الدولي يومئذ.

في هذا الأثناء استطاع علي دينار أن يهزم منافسه كما تقدم ورأت الحكومة الثنائية عدم الوضوح في موقف علي دينار تجاهها⁽²⁰⁾. ويبدو واضحاً أن موقف الحكومة في هذه اللحظة هو أن تترك خياراتها جُمُيعاً مفتوحة فيما يتصل بمن يحكم دارفور - وصلة الحكومة بالإقليم -. أما ما يورق علي دينار فهو ضرورة انتزاع اعتراف سريع من الحكومة والعمل بسرعة علي إكمال سيطرته علي الإقليم برمته، ولا يتم ذلك إلا بالقضاء علي جميع المعارضين. وبعد رجوع إبراهيم علي إلى أم درمان وصل خطاب آخر من علي دينار إلى السردار يعلن فيه ولاءه وولاء قائده كيران لأوامر الحكومة⁽²¹⁾ هذا الخطاب يؤكد حرصه علي انتزاع الاعتراف به. وسحب البساط من تحت أقدام منافسه إبراهيم علي.

بيد أن الحكومة الثنائية لا تزال مواقفها متأرجحة وشكوكها متصاعدة تجاه علي دينار. لذا فقد قامت باستجواب بعض الأشخاص القادمين من دارفور حول الأوضاع فيها وعن إذعان الناس لعل علي دينار. فأكد هؤلاء القادمون بأن علي دينار محبوب من قبل رعيته وأكد علي أن سلوك السلطان عادل جداً⁽²²⁾. ولكي يدفع السلطان علي دينار الشك حول تماطله في الرد علي خطاب السردار ألقى باللائمة علي إبراهيم ووجوده في المنطقة، حيث عمل علي قطع خطوط مواصلاته بين السلطان والحكومة الثنائية، ولئلا يشكل وجود إبراهيم في أم درمان خطورة علي الكيان القائم في دارفور نسب

(19) المصدر السابق ص 50 - 53.

(20) المخابرات S. I. R. 60/1-2 15th Jan. to 15th Feb. 1899

(21) S. I. R. 62/2 16th Feb. to 30th April 1899.

(22) S. I. R. 62/2 16th Feb. to 30th April 1899.

إليه السلطان أعمالاً ذكرت الناس بعهد الدراويش قلعه أراد بذلك استثارة السردار ضد إبراهيم. وضمن خطابه نفياً قاطعاً لنسب إبراهيم علي وصلته بالعائلة المالكة وادعى أنه من عبيده⁽²³⁾.

بهذه الإشارات أراد علي دينار دفع خطر وجود منافس آخر نال حظوة لدى الحكم الثنائي. فان نفى نسبه أمر مقصود، كأنه أراد أن يقول أن هذا الرجل لا يصلح لحكم دارفور ما دام غريباً عن العائلة. وبالإشارة إلى الأعمال التي ذكرت الناس بالدراويش أراد بها أن يشير إلى ظلمه وعدم عدله في الأحكام. وبالتالي فإن الواقع يقتضي عدم صلاحيته لحكم هذه الأقاليم. وليدفع خطر الحكم الثنائي نفسه أعلن خضوعه مرة أخرى وولاءه التام⁽²⁴⁾، للحكم الثنائي.

في 17 ديسمبر 1899م استولت الحكومة الثنائية علي الأبيض عاصمة مديرية كردفان بعد هزيمة الخليفة عبد الله التعايشي في 24 نوفمبر 1899م. ومن ثم أصبحت حدود الحكومة الثنائية مجاورة لحدود دارفور⁽²⁵⁾. الأمر الذي شكل معادلة جديدة واقتضي حسابات جديدة، وكان من عزم الحكومة الثنائية التقدم نحو دارفور بيد أن قوة علي دينار التي غدت قوة ذات وزن كففت من أطماعها في دارفور في الوقت الراهن فاقتضت الحكومة الثنائية بحدود كردفان⁽²⁶⁾، من باب التعاطي مع الواقع وإن كان دون الأهداف الإستراتيجية للوجود الإنجليزي بالبلاد.

وعاش الطرفان في جوار يسوده ارتياب مستمر، فالحكومة تتلقى تقارير منتظمة عن أحوال دارفور بواسطة عملاء مخابراتها في الفاشر. أما علي دينار فقد قام بدعوة كل الأعراب للالتحاق بقواته رغماً عن ميولهم للحكومة الثنائية. وقد اتخذ مثل ذلك الإجراء تحسباً لما كان يراوده من أن الحكومة تهدف إلى الاستيلاء علي دارفور أرض أجداده ومهد سلطنة أسلافه⁽²⁷⁾.

⁽²³⁾ S. I. R. 63/6 15th May to 18th July 1899 .

⁽²⁴⁾ A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 33.

⁽²⁵⁾ A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 33.

⁽²⁶⁾ Ibid. P. 35-37.

⁽²⁷⁾ حسن وراق إلي المخابرات في 10 / 12 / 1899 S. I. R. 62/3

ففي 28 ديسمبر من عام 1899، 25 شعبان 1317هـ أرسل السلطان علي دينار خطاباً⁽²⁸⁾ أراد به جس نبض الحكومة. حيث صدر الخطاب بقوله: (من علي دينار سلطان دارفور إلى الحاكم العام). وأفاد فيه أنه قد استلم خطاباً من الحاكم العام في 1899/9/22م، 17 جمادي الأولى 1317هـ. وأكد السلطان في هذا الخطاب أنه قد أقام الاستقرار والأمان في المنطقة وأنه قد أصدر أوامره إلى أتباعه بعدم الاعتداء. ويطلب في النهاية ترقية من الحاكم العام.

هذه التأكيدات كانت تهدف إلى نزع الإعراف بسلطته علي دارفور، والتأكد من عدم وجود نوايا بغيتها إقصاءه. وفي الوقت ذاته حاول استخدام حقه في البقاء بإطلاق لقب سلطان علي نفسه باعتباره حقاً ذاتياً وشرعياً وتاريخياً. أما طلب الترقية الوارد في هذا الخطاب لا يعدو عن كونه مراوغة أو تقية، وإلا فإلي أي درجة وظيفية يمكن أن يرقى من أسمى نفسه سلطاناً؟! إلا إذا كان ذلك من باب المزايدات اللفظية في الخطاب الديبلوماسي.

ولعله بالخطاب الماضي أراد التمهيد للمطالبة بحدود دولته وفقاً لحدود السلطنة، كما أراد أن يؤكد علي أن فترته هي أحياء وامتداد طبيعي للمسيرة الفوراوية في المنطقة. وأرسل خطاباً آخر⁽²⁹⁾ وبنفس التاريخ ورد فيه: (وأن الحدود التي ممكن رفعها لعدالتكم ... هي من جهة الصباح - أي الشرق - حدها ولد بنده وما يليه من الريح - الشمال - داركاجا .. والأضية موقف الحد من جهة الصعيد - الجنوب - ولاكن من قربها شكا ومن شكا قربا - غربا - وريحا وصعيد لحد الحفرة - حفرة النحاس - وكاره وديار الصعيد عموماً تبعاً لدارفور وما يلي الفاشر من جهة الريح. والغرب جميعه كذلك ومتى فتحنا فتوح بهذه الديار. فهو لنا تبعاً للحكومة السنية. لأن المحسوب (منضمن) خدماها فتنظم بسلوكها الرفيع. وهذه الحدود في (زمننا) هذا اختصاراً عن المدة السابقة ودار حمر أقدم أنها من ضمن الحدود التابعة لدارفور في

⁽²⁸⁾ S. I. R. 67/22-23.

⁽²⁹⁾ علي دينار إلى الحاكم العام 28 ديسمبر 1899م، 25 شعبان 1317هـ.

S.N.A. Intell 2/3. S. I. R. 67/D/G A letter Dated 25 Shaaban 1317h.

see also: H. A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 24-25.

المدة السابقة ونظراً لقيام رؤساءها في خدمة ركاب الدولة ومساعدتهم لو أنها من الحدود ونظراً لذلك تركناها لهم ليستلوا عنها دون واسطتنا ونحن اختصرنا في الحدود الموضحة لسعادتكم).

يكتسب هذا الخطاب أهمية قصوى في مجال علاقة دارفور بالحكم الثاني حيث حاول السلطان ومنذ أيامه الأولى أن يرسم حدود سلطنته شرقاً وجنوباً وشمالاً وغرباً. وورود عبارة (الحدود السابقة) إشارة ذات مغزى إذ تفيد أن هذه الديار هي مسرح السلطنة السابقة، وأن السلطان مدرك لهذه الحقيقة. ويعبر ضمناً عن تضجره من إختصار حدوده بقوله: (ونحن اختصرنا في الحدود الموضحة لسعادتكم). وقد شعر بأن هذه الحدود هي دون حدود سلطنة آبائه وأجداده. وقد بذل محاولات جادة في هذا المجال لاستعادة حدود أجداده وذلك حين أو عز إلى كل الأعراب بالإنضمام إليه. بيد أنه أمام القوة العددية والعتادية الغاشمة تراجع وفق حسابات صحيحة. أما حدوده في الشرق فإن (ود بندا) تبعد عن الفاشر أربعين ميلاً شرقاً والأضية حوالي ثمانين ميلاً جنوباً. أما دعوى دار حمر فأنها تبعد للأذهان اتساع دارفور حتى بارا والأبيض في كردفان. وهذا حلم يراوده كما راود من سبقه من سلفه من السلاطين.

أما الإشارة إلى الغرب دون تحديد نقطة بعينها يوحي بأن مسألة الحدود الغربية في تقديره قضية قابلة لكل الاحتمالات ولأي تفسير⁽³⁰⁾ حيث أتاح لنفسه فرصة التحرك في حرية دون إعتراض. هذا بعد أن شعر أن حركته شرقاً وشمالاً وجنوباً غدت محكومة بعوامل طبيعية وسياسية وهو في بداية طريقه لترميم بناء تهدم واستعادة سلطنة شاخت فتكالبت عليها القوى الخارجية التي أودت باستمراريتها. بيد أن أبناء سلاطينها لا تزال فيهم بقية من قوة وعزم، ولهم تنظيم غاية في الإحكام والدقة والمرونة استطاع الصمود طوال هذه الفترة بصورة لم تعهدها مملكة أو سلطنة من السلطنات الأخرى التي سادت ثم بادت.

(30) A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 35.

وقام بإرسال خطابين آخرين⁽³¹⁾ طلب في أحدهما استعادة (الدارفوريين) الذين هجروا دارفور بسبب الثورة المهدوية إلى كردفان وغيرها من المناطق الأخرى لتعمير دارفور. بهذا الطلب هدف إلى تعزيز موقفه الداخلي ومضاعفة عددية سكان بلاده.

وفي الخطاب الآخر طلب إرسال نحاس وجببانة رامنتون وأسلحة وبنادق والنحاس الذي طلبه هو نحاس أجداده الذي أخذه المهدويون. يتضح مما سبق ذكره أن السلطان لا يدع خيطاً يربطه بماضي أجداده يفلت منه. وتبدو حنكته السياسية واضحة وواقعيته في المعالجة غاية في البيان. حيث أن مالا يدرك كله لا يترك كله فقنع بما حصل عليه من مكاسب، وبدأ يتطلع ويحلم ما شاءت له أحلامه أن يحلم، ويعمل ما وسعه الجهد من مطالبات ومحاولات لا يكل ولا تلين له قناة في سبيل بلوغ غاياته المرسومة.

وحاولت الحكومة ترضيته بإرسال اثني عشر ألفاً وخمسمائة ظرف فارغ، ومائة اطلاق رامنتون⁽³²⁾. هذا بالرغم من عدم اطمئنانها من ناحيته لا سيما بعد حدوث اضطرابات أثارتها الحكومة الثنائية بواسطة مندوبها (مختار عوض) والذي قد وصل من خلال وجوده في الفاشر إلى نتائج مؤداها:

أولاً: معظم الناس بحاجة إلى الحكومة الثنائية

ثانياً: أن علي دينار سلطان مستقل والناس خاضعون له خضوعاً تاماً.

ثالثاً: أظهر علي دينار خضوعه للحكومة الثنائية، ولكنه متى ما شعر بأن الحكومة تنوي غزو دارفور سيتخذ واحدة من اثنين أما الهروب إلى جبل مرة أو الصمود في وجه قوات الحكومة.

رابعاً: طلب علي دينار إمداده بأسلحة ونخيرة فإن لم تجب الحكومة طلبه ستكون موضع شك وريبة لديه مما سيضعها في موضع "حرج".

(31) السلطان إلى الحاكم العام بتاريخ 25 شعبان 1317هـ، 28 ديسمبر 1899 S.N.A. Intell 2/3

(32) Ibid.

خامساً: إذا نوت الحكومة غزو دارفور من الأفضل أن يكون ذلك في فصل الخريف.

سادساً: أشار إلى أن علي دينار كان حذراً تجاه الوافدين من قبل الحكومة الثنائية لذا لم يتح له الفرصة بالتجوال في الفاشر كما أنه لم يسمح له بالسير في الطريق المعتاد وأعطى في صلب ذلك التقرير وصفاً دقيقاً لدارفور (33).

احتوى هذا التقرير على معلومات وتفسيرات ونبوءات قد تكون صحيحة في كثير من عباراتها لاسيما استقلالية السلطان وأن خضوعه كان ظاهرياً وإمكانية هروبه إلى جبل مرة إذا ساءت علاقته بالحكومة الثنائية. ويلقي ذلك الضوء علي حذره تجاه موفدي الحكومة الذين يعتبرهم جواسيس وهم حقيقة كذلك. أما الإشارة إلى أن الناس بحاجة إلى الحكومة الثنائية مع قوله بأن الناس خاضعون لـ علي دينار فهاتان عبارتان متناقضان مقدمة ونتيجة ولا تستقيمان معنى أو واقعاً. لاسيما مع ملاحظة ما سبقت الإشارة إليه من أن السلطان عادل ومحبوب لدى رعيته. وأن حقه في الحكم هو حق تاريخي معترف له به من قبل مواطنيه. ومهما يكن من أمر فهو من بني جلدتهم وملتهم عكس الوجود البريطاني بالبلاد الذي يعتبر إحتلالاً قاهراً.

وأورد التقرير قراءة ذكية لما سيقدم عليه السلطان في حالة غزو الحكومة لبلاده. ولا يقل عنها اقتراح إرسال الجيوش خريفاً. وهذا ما سيأتي بيانه وتتحقق صدق نبوءته بنهاية هذا الباب. حيث أن الحكومة الثنائية والسلطان علي دينار كانا يلعبان لعبة القسط والفار، الكل يتربص بالآخر وينتظر لحظة الغفلة ليتمكن منه ويدبر الحيل ويراوغ من أجل خداع الطرف الآخر ويخفي حقيقته.

وأن الإشارة إلى استقلال السلطان هي إشارة ذات مغزى في معرض هذه الدراسة التي افترضت استقلال السلطنة بدءاً. وورود عبارة كهذه من مصادر حكومية شبه رسمية وتعمل في أخص أجهزة الحكومة الثنائية تظاهر غيرها من أدلة بأن السلطان كان إمتداداً طبيعياً لسلطنة مستقلة عن كل دول الأرض وأن حكمه كان إستثنافاً لمد استوقفته الأيام.

(33) تقارير المخابرات S.I.R. 67/24 D/L

حاول علي دينار أن يتقدم بقواته شرقاً حيث قام بإغراء الحمر بالتمرد، رغماً عن تأكيد الماضي بأنه قد تخلى عن جزء من حدود سلطنة آبائه ما دام خاضعاً للحكومة، بيد أن الحكومة الثنائية واجهت الأمر هذه المرة بحسم. زائد حيث قامت بإرسال قواتها إلى الحدود. وبذا رأى علي دينار أن الحكومة الثنائية ستشكل عقبة في سبيل استرداد حدود دولته الفوراوية التي يحلم بها (34).

بحلول عام 1900م اخترقت قوات الحكومة الثنائية حدود دارفور أثناء مطاردتها لعربي دفع الله فجأراً السلطان بالشكوى ضد هذا الاختراق. وأوضح بأنه ليس هناك قوة بإمكانها القضاء على دفع الله غيره. وهذه الشكوى كانت لعدة عوامل. أولها: أنه يريد تحقيق قصب السبق في انتصاره على عربي دفع الله لتقوية نفوذه. ثانيها: أصابه ذعر من هذا التحرك الذي لم يدرك أبعاده فلربما كانت للحكومة نوايا عدوانية. وفي نهاية شكواه أشار إلى أن دارفور بلد فقير، فليس من صالح قوات الحكومة دخوله وسلب أهله ومواطنيها (35).

أراد بهذه الإشارة الأخيرة دفع خطر الحكومة عن بلاده بتزهيدها فيها لإدراكه مغزى وجود القوات الأجنبية في المنطقة حيث أن الهدف من وجودها لا يعدو عن كونه هدفاً مادياً بالدرجة الأولى وغايته الاستفادة من خيرات البلاد وثرواتها.

وفي 2 يناير أرسل الحاكم العام خطابين إلى السلطان شدد فيهما علي: أولاً: ضرورة فتح الطريق بين كل من دارفور والأبيض ودنقلا. وثانياً: فتح طريق البريد مع الخرطوم فوراً بإنشاء محطات بريدية. ثالثاً: أهمية إقامة الاستقرار والسلام في دارفور. رابعاً: دفع الالتزامات المالية وفي المقابل ستحافظ الحكومة الثنائية على حدود وسلامة دارفور (36).

المراد من فتح طريق التجارة الاستفادة من ثروات دارفور الحيوانية والنباتية إضافة إلى تسهيل إمكانية الاختراق الأمني. أما المقصود من فتح طريق البريد فهو

(34) يونس لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 246.

(35) خطاب من علي دينار إلى مدير المخابرات 7 رمضان 1317هـ، 1900/1/9م. S.I.R. 67/36-37.

(36) الحاكم العام إلى علي دينار في 7 رمضان 1317هـ 1900/1/2م. S.I.R. 67/19-20

أيضاً للإطلاع علي أحوال دارفور بصورة مستمرة وبالسريعة المطلوبة مما يساعد علي أخذها علي غرة متي ما حانت الفرصة، فتح طريق البريد يعني فتح الباب علي مصراعه أمام عمل الاستخبارات الثنائية واستطلاع أخبار دارفور أولاً بأول.

ومع تزايد شكوك السلطان حول نوايا الحكومة الثنائية لم يشأ الموافقة علي طلب الحاكم بمقابلته، فلجأ إلى أسلوب المراوغة⁽³⁷⁾، هذا بالرغم من اقتراحه السابق الذي أكد فيه أنه علي استعداد لمقابلة الحاكم العام أو أي مسؤول حكومي آخر⁽³⁸⁾. ويبدو أن ذلك كان من باب الاستهلاك السياسي إذ لم يدر بخلده تحقق ذلك، لإستفادته من عبر التاريخ المعاصر حين استسلم سليمان الزبير لجسي الإيطالي غدر به، ذلك لأن الأوروبيين لا يحترمون العهود والمواثيق حيث أكد التاريخ الحديث والمعاصر هذه الحقيقة بأن يقظة العرب المزعومة كانت كذبة غربية، والشرعية الدولية بالونة غربية، وأثبتت الوقائع هذه الحقيقة التي لا مرأ فيها، سواء علي مستوى عصبة الأمم أو هيئة الأمم أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية الآن. الأمر الذي يؤكد علي ذكاء السلطان علي دينار ومدى قدرته علي المحاوره والمراوغة وعدم انخداعه بوعود الحكم الثنائي. إذ كان أذكي من كثير إن لم نقل من كل ممن عاصروه من حكام المنطقة العربية كلها، الذين انخدعوا بوعود بريطانيا الخلابه والتي كانت سراياً، ولم تجن أمهم من وراء تلكم الوعود البراقة الكاذبة سوي الحفظ المر استعماراً وتأخراً وإذلالاً. وفي فبراير عام 1900م قام السلطان علي دينار بتهنئة سلاطين بوضوله السودان ويشكر له جهود الحكومة الثنائية لإقرارها وإنقاذها البلاد بقوله: (ولو لا الحكومة وحلول ركابها لكنا في حالة العدم من بطش التعايشة الأشقيا واختراعاة أحكامهم وأفعالهم)⁽³⁹⁾.

وفي مارس عام 1900م رد الحاكم العام علي تهنئة السلطان له بالقضاء علي الخليفة ويطلب منه إقامة الأمن والاستقرار في دارفور، ويلوح له باختياره مدى الحياة حاكماً علي دارفور إن قام بتنظيم الزراعة وفتح المساجد وإستعادة الأراضي إلى أهلها

⁽³⁷⁾ علي دينار إلي الحاكم في 7 رمضان 1317هـ - 1900/1/2م S.I.R. 67/ 21

⁽³⁸⁾ علي دينار إلي الحاكم العام 7 رمضان 1317هـ - 1900/1/2م S.I.R. 67/19

⁽³⁹⁾ علي دينار إلي سلاطين باشا في 18 شوال 1317هـ - 1900/2/19 S.N.A. Intell 7/1/1

وتزويد الحكومة الثنائية بكل ما يهم دارفور زراعياً وتجارياً وعن مسار العلاقات بينه وبين وداي⁽⁴⁰⁾.

في المقابل حاول علي دينار التوصل من التزاماته تجاه الحكومة الثنائية لضعف العباد وفقر البلاد. وبعث مندوباً عنه لتقرير ثلاث مسائل أولها: الإعفاء عن الضرائب. ثانيها: تحديد الحدود لسلطنة الفور. ثالثها: استجلاب مدافع وبنادق وذخيرة. وأبدى موافقته حينئذ على الشروط التي تبرم بينه وبين ممثلي الحكومة⁽⁴¹⁾.

هذه المطالبات في مجملها تتعلق بالاعتراف باستقلالية بلادته وتثبيت نفوذه وتعزيز موقفه تحسباً لما يجد من أحداث.

ولعل من أعقد المسائل التي عكرت صفو العلاقة الفوراوية الثنائية هي قضية القبائل الحدودية ذات النزعة الاستقلالية. ففي منتصف عام 1900م قامت القبائل التي تقيم على الحدود ببعض الغارات وقام علي دينار بمطاردتها. بيد أنها توغلت في كردفان فطلب علي دينار إسترداد السلاح الذي نهبوه والرجال الفارين. فردت الحكومة السلاح بيد أنها لم ترد الرجال. ومن جانبه قام علي دينار بمهاجمة المسيرية والحمير فأشيع بأنه غير موال للحكومة الثنائية لأن هذه القبائل كانت أساساً تقيم في كردفان⁽⁴²⁾.

ومنذ يونيو عام 1900م بدأت العلاقات الثنائية الفوراوية يعتورها فتور، حيث بدأت الحكومة الثنائية تتشكك في نوايا علي دينار واتجاهه نحو السنوسية والاستقلال عنها⁽⁴³⁾. وحاول علي دينار من جانبه أن يثبت حسن نواياه إزاء الحكم الثنائي معلناً ولاءه التام له ومحذراً الحكومة من الاستماع إلي المغرضين⁽⁴⁴⁾.

⁽⁴⁰⁾ يونا ن لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 232-233. انظر أيضاً: S.I.R. 63/6 15th May to 15th July 1900.

⁽⁴¹⁾ علي دينار إلي الحاكم العام S.I.R. 6721 1st January to 5th March 1900.

⁽⁴²⁾ S.I.R. 71/2 9th June to 8th July 1900.

⁽⁴³⁾ الحاكم العام إلي علي دينار بتاريخ 1900/4/21 S.I.R. 68/12 (D).

⁽⁴⁴⁾ S.I.R. 72/14 9th June to 8th Apr 1900.

واستطاع السلطان علي دينار بصورة ملفتة للنظر أن يؤثر على الصحافة الرسمية في الخرطوم حيث دجبت جريدة اللواء في عددها (172) الصادر بتاريخ 1900/6/29م مقالة تزخر بمدح السلطان وإبراز دوره القيادي والوطني في دارفور⁽⁴⁵⁾. وهذا مما يؤدي إلى إعطائه حجماً وجعله رقماً صعباً في المعادلة السودانية. وهذا ما لا ترغب فيه الحكومة الثنائية بحال. وقد جعل منه ذلك (التلميع) المتعمد نواة لشرارة ثورة وطنية في البلاد. وهذا ما كانت تخشاه الحكومة الثنائية وتحسب له ألف حساب وترفضه بشدة ويقع في هذا الإطار رفضها لنشر كتاب يحكي سيرته بدعاوى واهية مقدمة ونتيجة.

ومع تزايد مشاكل قبائل الحدود ندد السلطان علي دينار بالإدارة الثنائية في النهود. وعزا ذلك إلى انهماك حاكم النهود في شرب الخمر والأعمال غير الأخلاقية. وطالب بإعطائه صلاحيات واسعة لاجتثاث الفساد في تلك الأنحاء⁽⁴⁶⁾.

وفي سبتمبر عام 1900م أرسل السلطان هدايا للحاكم وبضاعة لبيعها فصادرت الحكومة الثنائية كل ما تم إرساله مما اقتضى احتجازه واستعلامه عن ذلك، وحاولت الحكومة الثنائية استغلال رسل السلطان والشخصيات المقربة من البلاط الفوراوي بغية استخدامها كطابور خامس ضده. ولكن علي دينار كان حذراً تجاه هذه المخططات والتدابير الثنائية، وبناءً على حيثيات هذا الإجراء الثنائي قام بتجريد وزيره محمد فضل الذي استقطبته الحكومة الثنائية وأرسلته قافلاً إلى دارفور وبصحبه أحد ضباط المخابرات⁽⁴⁷⁾. مما يعني أن علي دينار لم يكن غافلاً عن تدابير الحكم الثنائي بحال، لذا كان رده سريعاً وحاسماً ومن غير هوادة، بيد أن هذه الأعمال غير المبررة لدى العامة هي التي زادت من حدة إتهاماته بالقسوة والظلم، وإن كان أمره فيها مبنياً على معلومات وحقائق موضوعية، ولم يحدث أن وقف خائن أمام الناس يوماً، وقال أنه خائن، لأن هذا الوزير الذي تم استقطابه أو قل تجنيده بواسطة الاستخبارات الثنائية فهو

⁽⁴⁵⁾ يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 239 - 240.

⁽⁴⁶⁾ S.I.R. 75/4 8th Oct. to 8th Nov, 1900.

⁽⁴⁷⁾ من علي دينار إلى الحاكم العام بتاريخ 22 جمادي الأولى 1318، 1900/9/21 S.I.R. 75/4 (A).

على اسوأ تقدير وفي كل أعراف الدنيا وقوانينها يعتبر خائناً لاسيما إذا كان ذلك لصالح دولة أجنبية وهذا ما حدث، والخيانة أو التخايير لصالح دولة أجنبية عقوبته الإعدام إذا كان يشكل تهديداً خطيراً للأمن القومي لبلده. وعلي صعيد آخر لقد كانت هذه التصرفات في الواقع لا تعدو عن كونها ضرورة أمنية اقتضاها أمنه الداخلي وحماية حكمه الوطني في دياره. ولعبت المخابرات الثنائية دوراً بارزاً فيما قام به من أحكام ونفذه من إجراءات⁽⁴⁸⁾. بإتباعها أساليب معادية لوجوده ومحاولتها المتكررة لاستغلال أقرب الناس إليه بغية القضاء عليه وتسويره بسياج من الجواسيس. ولكنه دوماً كان يتطلع إلى الانعتاق من القيود المكبلة لحركته. وكان شديد الحذر إزاء الحكومة في الخرطوم وقد تمتع بحس أمني عال ويقظة فائقة.

وبنهاية سنة 1899م تم تعيين سلاطين باشا مفتشاً عاماً بعد إختيار ونجت حاكماً عاماً علي البلاد وسرداراً للجيش المصرية الإنكليزية. وكان ونجت يشغل منصب مدير المخابرات أثناء وبعد الحملة الإنكليزية المصرية. ففي 23 ديسمبر 1899م، 20 شعبان 1317هـ أصدر الخديوي أمراً بتعيين الفريق السير ريجنالد ونجت باشا سردار الجيش المصري حاكماً عاماً للسودان بدلاً من اللواء كتشنر⁽⁴⁹⁾.

ولأهمية دوره سنأتي علي نبذة قصيرة من سيرته فهو ريجنالد ونجت ولد 1861م. التحق بالمدفعية الملكية 1880م. ثم التحق بالجيش المصري 1883م.

اشترك في حملة النيل (5- 1884م). واشترك في استعادة طوكر 1891م. ثم أصبح حاكماً عاماً لساحل البحر الأحمر وسواكن 1894م. ثم مديراً للمخابرات العسكرية في حملة السودان (6- 1898م). وكان قائد العمليات ضد الخليفة 1899م. ثم سرداراً للجيش وحاكماً عاماً للسودان (1899م- 1916م) ثم مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر.

⁽⁴⁸⁾ المخابرات S.I.R 79 /10-11

⁽⁴⁹⁾ دار المحفوظات المصرية 305 /3.

أصبح كولونياً في 1889م. ثم لواء 1903م. ثم فريقاً 1908م ثم جنرالاً 1913م. ونال أوسمة عدة وألقاباً كثيرة (50).

بتعيين سلاطين باشا مفتشاً عاماً تم الاعتراف بعلي دينار سلطاناً على دارفور وأعطى حرية التصرف. وأعلم بأن تعيين سلاطين قد تم بموافقة حكومة جلالة الملكة وخديوي مصر، وورد في خطاب ونجت إليه ما يلي: (وقد قلت في بعض مخابراتي أنني سأعنتم فرصة وأسعى لحصول مقابلة بيننا وبينكم والآن قد تعين سعادة اللواء سلاطين باشا مفتشاً عاماً للسودان وكلفته شخصياً بأن يقابلكم في مكان تعينه له للنظر معكم شفاهياً .. أن يقركم إسمياً علي جميع بلاد دارفور ويصادق على جميع المطالب التي فيها راحتكم وخير بلادكم) (51).

هذا الاعتراف لم يكن صريحاً لأن الحاكم العام لا يزال في انتظار رد المداولات الدائرة بين المندوب السامي البريطاني ووزير الخارجية حول وضعية السلطان وعلاقته بالحكم الثاني في الخرطوم. أذن القضية بالنسبة للحاكم كانت ترجية وكسب وقت ليس إلا، ووصل سلاطين النهود علي أمل اللقاء بعلي دينار إلا أن الأخير لم يشأ مقابلة أي مسؤول أوروبي خارج أو داخل بلاده. ومكث سلاطين فترة حتى أصابه اليأس. فبعث بخطاب إلي السلطان جاء فيه: (تراكمت على الأشغال المهمة ... حتى أنني صرت أرى أن ذهابي لمقابلتكم غير متيسر في الحالة الراهنة ولذلك الأحسن أن ترسلوا من تعتقدونهم من رجالكم .. لينوبوا عنكم في مقابلتنا بالنهود أو المحل الذي أكون موجوداً فيه لأجل المداولة معهم) (52).

ولئلا يغضب تمنع السلطان السلطات الثنائية حاول علي دينار أن يوسط شخصيات لها صلات وثيقة بالحاكم فمن هؤلاء، الزبير باشا ود رحمة الذي كتب لعلي دينار خطاباً ورد فيه: (وجميع ما ذكر لنا من سلطتكم الفخيمة .. عرضناه علي دولتلوا سردار الجيوش المصرية والحاكم العام فسر بذلك .. فلذلك أمرنا أن نعلم سلطنتكم

(50) A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 34.

(51) من الحاكم العام الي علي دينار في 9 نوفمبر 1900، 16 رجب 1318 S.N.A. Intel 7/3/1

S.N.A Intel 7/3/1

(52) سلاطين إلي علي دينار في 15/12/1900

بفايدة عمومية تتفع البلاد ... وتقوى روابط علاقات سلطنتكم الودية مع الحكومة السودانية⁽⁵³⁾ أن ورود عبارة (وتقوى روابط علاقات سلطنتكم الودية مع الحكومة السودانية) ذات دلالة تاريخية وموضوعية هامة، إذ تعني أن مفهوم السودان غير سلطنة الفور ولا يتضمنها. وأن حدود سلطنة دارفور خارجة عن حدود السودان. في هذا الأثناء تصاعدت مشاكل القبائل الحدودية التي استغلت الظروف، وأرادت الإصطياد في الماء العكر. فتسببت في إحداث شروخ في العلاقات الفوراوية الثنائية لقيامها بالتهب والسلب واحتمائها بالطرف الآخر. لذا قام سلاطين بإرسال خطاب في ديسمبر عام 1900م إلى السلطان بغية معالجة أمرها⁽⁵⁴⁾.

وقام مدير كردفان بشكوى القبائل الدارفورية إلى السلطان⁽⁵⁵⁾ ورد السلطان بقوله (وأجرى اللازم في أمر الحدود كما ذكرتموا وإن شاء الله لا تكون منازعة في المستقبل نحوى الحدود المذكورة كما الظن)⁽⁵⁶⁾. أن هذه الأحداث التاريخية سواء في فترة السلطان إبراهيم قرص في سبعينات القرن التاسع عشر أو في بداية القرن العشرين تؤكد علي أن مشكلة دارفور هي مشكلة ثقافية أكثر منها إثنية كما يراد لها الآن. وميزة هذه الإشارات التاريخية أنها تؤصل وتجذر لأبعاد ما يدور الآن في دارفور.

وطلب علي دينار من الحكومة الثنائية أن تزوده بأعلام وشدد على قضية الحدود، بيد أن الحاكم حتى الآن كان في انتظار موافقة المندوب السامي البريطاني في القاهرة ووزير الخارجية البريطانية. وأكد للمسؤولين في كل من القاهرة ولندن بأن دارفور إقليم بعيد وأن دخله ضئيل وأن الاعتراف بالسلطان علي دينار من قبل الحكومة الثنائية تم مؤقتاً باعتباره أمراً واقعاً، ويحث الجانبين على الموافقة على الإدارة الذاتية لدارفور. وبعد مداولات وأخذ ورد جاءت موافقة المندوب السامي على الاعتراف بعلي دينار حاكماً على بلاده، فتم الاعتراف به سلطاناً في عام 1901م. وفي هذه السنة بالتحديد قام بإرسال أول ضريبة في حدود خمسمائة جنيه⁽⁵⁷⁾.

⁽⁵³⁾ من الزبير باشا ود رحمة إلي علي دينار في 12 / 1900م، 1318/8هـ S.N.A Intel 7/3/1

⁽⁵⁴⁾ د. يونان لبيب رزق، مرجع سبق ذكره، ص 243.

⁽⁵⁵⁾ من مدير كردفان إلي علي دينار في 8 / 1318هـ، 12 / 1900م S.N.A Intel 7/3/1

⁽⁵⁶⁾ من علي دينار إلي مدير كردفان في 2 / 1318هـ، 10 / 1900م S.N.A Intel 7/3/1

⁽⁵⁷⁾ من الحاكم العام إلي علي دينار في 1 / 1901م S.N.A. Intel 7/1/2

وبحلول 1901م تجددت مشاكل القبائل مرة أخرى، وتدخل سلاطين للعفو عن موسى مادبو زعيم الرزيقات. وحينها قد وصل علي دينار إلى قناعة مؤداها أن موسى شخصية: (لا يصلح معنا ولا مع الحكومة) ⁽⁵⁸⁾ وان العفو عنه لا يتم إلا بشرط أن يحضر عندما يقابلنا ومن عندنا يتوجه إلى جهة شكا ⁽⁵⁹⁾. ولا يخفى أن الرزيقات مشكلتهم مع الغارات والتعدي هو شأن كل القبائل الرعوية الموجودة بدارفور وهي مرعى وأرض.

وتجدد طلب سلاطين بضرورة مقابلة السلطان بيد أن الأخير كرر إعتذاره ⁽⁶⁰⁾ فرد سلاطين بقوله (واني أخبركم بأني لا أقدر أن أبقى هنا طويلاً .. وطالما أن الأحوال لم تسمح بنوال رغبتني في مقابلتكم فإني أتأمل بعون الله من تدبير أمر المجيء إليكم ومشاهدتكم في الشتاء المقبل) ⁽⁶¹⁾. يبدو أن السلطان كان على وعي تام بأن محاولات الحكومة الثنائية لمقابلته، لها ما وراءها مما لا تحمد عقباه وأن هؤلاء الأوروبيين لا يؤمن لهم جانب. ولربما كان يعتقد أن خروجه سيفقده مركزه فلذا كان يماطل في مقابلة أي مسؤول أوروبي.

وضمن السلطان بأن يبعث بمن ينوب عنه لمقابلة سلاطين ⁽⁶²⁾. ورأى في وجود سلاطين خطورة على عرشه إذ من المعلوم أن سلاطين كان حاكماً للإقليم فيما قبل المهدية مما يعني بأن له صلات ومعارف قديمة بالأرض وبالناس يمكن أن يوظفها لصالح الحكم الثنائي ضد علي دينار، وبالتالي لم يكن علي دينار مغفلاً حتي يجهل هذه الحقائق. وفي اختيار الحكومة الثنائية لسلاطين باشاً لأداء هذه المهمة أخطار واضحة على علي دينار. لأن سلاطين خير من يقوم الوضع في دارفور والسلطنة على حد سواء إلى جانب إمكانية مقابلته لشخصيات لا يطمئن إليها علي دينار من أمثال مادبو

⁽⁵⁸⁾ D.S.A 110/5. H.A. Macmicheal: Notes on tribes of Darfur Khartoum Dec 1915. Typescript.

أنظر أيضاً A.B. Theobald OP. Cit. PP. 38-39. أنظر أيضاً: موسى المبارك، مرجع سبق ذكره، ص 230-231.

السلطان إلي سلاطين في 1318/9/14 هـ، 1901/1/1م S.N.A. Intel 9/1/2

⁽⁵⁹⁾ المرجع السابق.

⁽⁶⁰⁾ المرجع السابق.

⁽⁶¹⁾ سلاطين إلي السلطان في 1901/1/13م، 1318/7/9 هـ S.N.A. Intel 7/1/2

⁽⁶²⁾ السلطان إلي السلاطين 1318/7/29 هـ، 1901/16م S.N.A. Intel 7/1/2

زعيم الرزيقات. لذا حاول السلطان الإيقاع بين سلاطين ونائب الحاكم العام بغية إبعاده عن المنطقة حتي لا يؤثر في قياداتها الفاعلة، فطلب من نائب الحاكم العام إصدار أمر عاجل لإيقاف رحلة سلاطين المستقبل إلى دارفور لعدة اعتبارات أولها: إن هذه البلاد لا يقدر علي إدارتها إلا هو - علي دينار - ثانيها: إن قدوم سلاطين إلى المنطقة سيثير الأهالي باعتباره قادماً لخراب البلاد. ثالثها: إن غياب السلطان عن دارفور ولو لمدة يسيرة سيحدث فتنة، ويشير إلى ذلك بقوله (لا يخفي أن في هذه الديار أهالي أشبه بأعجام ولم يرد أحد له مزية خلافتنا لما جرت عاداتهم من زمن آباءنا السلاطين وإذا أردت خرجنا لأي جهة من الديار ولو مسافة قريبة لا يرضوا ... إذ كان بلغهم قدوم سلاطين فيظنون أن سلاطين قد حضر للخراب) (63).

ويبدو أن السلطان كان يدرك تماماً خطورة سلاطين لذا طالب بإيفاد شخص آخر (64). وإن كان في الواقع لا يهدف إلى مقابلة أي مسؤول أوروبي بغض النظر عن اسمه أو رسمه لذا اعتذر حين قدوم الحاكم العام نفسه إلى الأبيض عن مقابلته بالظروف المحلية وصعوبة حركته (65). وفي خطاب لسلاطين استصوب رجوع سلاطين إلى الأبيض (66). إن هذه المراوغة وهذه الدبلوماسية التي أتبعها السلطان إزاء الحكم الثنائي وقدوم سلاطين بالرغم من العلاقات الحميمة التي ربطت بينهم في أم درمان لم تنه عن تخوفه من سلاطين، ولربما كانت حساباته علي قدر من الصحة. ولذا قدر من الأصوب أن لا يقابله وأن يحول دون قدومه إلى دارفور.

ولا يزال يلح طالباً تحديد حدود سلطنته بقوله: (فإني أرغب أن .. تصدروا أوامر معاليكم بأعمال هذا الشرط. فأولاً يكرم علينا بإيضاح فصل حدود بلادنا ويتقرر ما يطلب منا.. اللوازم اللازمة لمساعدة العسكرية خدماً للدولة) (67).

(63) السلطان إلى نائب السردار في 1318/9/29 هـ، 1901/1/16 م S.N.A. Intel 7/1/2

(64) المرجع السابق.

(65) خطابين من السلطان إلى كل من الحاكم العام والمفتش العام بتاريخ 1318/10/6 هـ، 1901/1/22 م

S.N.A. Intel 7/1/2

(66) المرجع السابق.

(67) خطاب آخر إلى الحاكم العام في نفس اليوم S.N.A. Intel 7/1/2

في هذا الخطاب أراد السلطان أن يقوم بمقايضة مع الحكومة الثنائية، وأن يتبع أسلوباً إغرائياً، بغية حصوله علي الاعتراف بحدوده التي يحلم بها. وفي هذا الأثناء تصاعدت مشاكل الحدود وقضية القبائل الحدية والتي استغلت ظروفها⁽⁶⁸⁾ وظروف العلاقة القائمة بين كل من الحكومة الثنائية والسلطان وأرادت الاصطيداء في الماء العكر، فلجأ علي دينار إلى مطاربتها داخل الحدود الثنائية، الأمر الذي استدعى تنبيهه من قبل الحاكم العام⁽⁶⁹⁾ واستجاب السلطان لهذا النداء علي مضض. وأعلن إيقافه لغاراته للمعالية⁽⁷⁰⁾. وتبدو أهمية هذه الخلفية التاريخية لتفسير كثير من أحداث دارفور الجارية الآن والتي تحاول كثير من الجهات الانحراف بها عن مسارها الطبيعي وعن جذورها التاريخية.

وبدأ السلطان يشعر بتعاطف الحكومة الواضح مع التحرك القبلي علي الحدود بغية إضعاف قوته، لذا لجأ إلى التخلص من هذا الوضع بالبحث عن وسائل ناجعة لتقوية موقفه بشراء أسلحة وذخيرة عن طريق زوجات جنود الحكومة الثنائية في كردفان، والقيام بتهديبها في أكياس بلح إلى دارفور. ومن ناحية أخرى بدأ يتطلع إلى الإستعانة بقوة عظمى في المنطقة بإمكانها حماية عرشه إذا ما جارت الحكومة الثنائية علي بلاده. وقد جاءته نصيحة من سلطان وداي بطلب الحماية الفرنسية ليتسنى له البقاء سلطاناً مستقلاً⁽⁷¹⁾. ويعكس هذا الطلب طبيعة التنافس الحادث في هذه المنطقة بين الدول الإستعمارية، ويكشف عن مدي الأبعاد الموضوعية لما يجري الآن من أحداث، ويفسر دور كل دولة أوروبية في هذا الصراع المدمر للإنسان والبنيات التحتية في دارفور وهو أمر في حد ذاته مقصود، ومدير بإحكام من قبل الأعداء وبغفلة من قبل أصحاب المصلحة الحقيقية وهو المواطن الدارفوري البسيط الكادح من أجل البقاء ولقمة العيش الكريم.

⁽⁶⁸⁾ من علي دينار إلى مدير كردفان في 1318/12/21 هـ، 1901/4/18 م S.N.A. Intel 2/3/2

⁽⁶⁹⁾ تلغراف من السردار إلى علي دينار إبريل 1901 م S.N.A. Intell 6/3/ 2

⁽⁷⁰⁾ خطاب من علي دينار إلى السردار S.I.R. 82/8-9 1st to 31st May 1901

⁽⁷¹⁾ خطاب من أحمد النور إلي شيخ الأضبة بتاريخ 1901/4/14 م S.I.R. 82/4 1st to 3 1st July 1901.

من خلال ما مضى يتضح أن السلطان بدأ يشعر في دخيلة نفسه بخيبة الأمل تجاه الحكومة الثنائية من حيث مماطلتها في تحديد الحدود ومعالجتها لمشكلة القبائل الحدودية. تلك المشكلة التي كانت وما زالت وستظل قضية دارفور الأولى، وإن حاول البعض الآن الانزلاق بها إلى مسارات جديدة، وتحت سقوف جديدة من الإثنية والعرقية والتفرقة العنصرية البغيضة.

وبعد أربعة أشهر تالية قام السردار بالرد علي خطاب علي دينار السابق في 1901/5/12م بما يلي: (إني أخبركم أن الحدود ستكون كما كانت عليه في الأيام السابقة أعني تكون الحدود من أم شنقة إلى التوايشة - الطويشة ودار المعاليا - ودار الرزيقات لغاية بحر العرب والكلكلة، الملم ودار التعايشة والحدود السابقة مع برجو (برقو) أن الحكومة ليست في احتياج للمال لتساعد به وإنما... أن ذلك يكون دليلاً علي خضوعكم... فقد فرضنا عليكم مبلغ مائة كيس تقومون بتأديتها للحكومة سنوياً... وبناء عليه قد اعتمدنا تعيينكم حاكماً علي دارفور من قبل الحكومة طالما أنتم خاضعين لأوامرها وممثلين لأحكامها) (72).

أتى الخطاب الماضي علي بعض المكاسب التي استطاع السلطان انتزاعها من الحكومة، أولها: الإعراف بحاكميته لبلاده. وثانيها: تحديد حدوده وإن كانت هذه التحديدات تنقصها الدقة فالحدود الغربية والحدود الجنوبية لم تحظ أياً منها بإشارة دقيقة وواضحة وجلية. إذ من المعلوم أن الحدود مع وداي دوماً كانت مجال تنازع وإن السلطنات الصغيرة مثل دار قمر ومساليت وسلا كانت دوماً ميدان تنافس بين كل من وداي ودارفور (73). وهي سلطنات تغلب عليها التوجهات القبلية والعشائرية، وغالباً ما تقع أسيرة لهذه الأهواء أو تلك، ولقد ظلت دارفور لقرون طويلة تحتفظ بهذا الطابع الفدرالي، وهذا المستوى من الحكم القبلي العشائري المحلي، في ظل سلطنة أم، ألا وهي سلطنة دارفور الإسلامية.

(72) خطاب من السردار إلى علي دينار وكذا خطاب آخر من سلاطين بتاريخ 1901/5/21. S.N.A. Intel 7/3/22. (73) A.B. theobald Op. Cit. PP. 42-43.

أما بشأن نظرة علي دينار إلى الأوروبيين عموماً والمسيحيين الذين يحكمون في المنطقة يلقي الضوء عليها ما أشار إليه وزيره قمر الدين عبد الجبار والذي كان عميلاً للحكومة الثنائية بأن علي دينار كانت نظرته إلى المسيحيين تعتورها الشكوك. وكان دوماً يوجه حاشيته بالانتباه إلى مكائدهم وتدابيرهم⁽⁷⁴⁾: إن هذه الحساسية مبعثها موروث تاريخي في دارفور ومعطيات حية عاشها هو أثناء الفترة المهدوية مما يؤكد علي أنه كان قارئاً جيداً وذكياً للتاريخ والأحداث، وأنه كان أوعى من كثير من القيادات والزعامات الوطنية يومئذ علي مستوى السودان والعالم الإسلامي والعربي عموماً.

يمكن القول أن حساسية السلطان علي دينار تجاه المسيحيين بإمكانها أن تفسر جزءاً كبيراً من سياسة السلطان تجاه الحكومة الثنائية والفرنسية وموقفه الفاصل في الحرب العالمية الأولى. مما يوحى بأن موقفه موقف أصيل وينم عن خبرة وحكمة سياسية فريدة وتنبه وحذر دائم تجاه المخططات الاستعمارية في المنطقة. وهو شك وحذر له ما يبرره من معطيات التاريخ المعاصر والحديث للسلطان.

وفي يونيو عام 1901م تجددت أزمة القبائل الحدودية، وعقد علي دينار العزم علي تأديب زعيم الرزيقات تارة أخرى، بيد أن الحكومة الثنائية تدخلت مرة أخرى مما اقتضى عدول السلطان عن خطته لضرب كاجا سروج⁽⁷⁵⁾.

وفي محاولة لتتقية جو العلاقات قام السلطان بالاعتذار عن شكواه ضد سلاطين إلى كل من سلاطين والحاكم العام. وذكر في خطابه بأن سبب الشكوى هي أخبار وصلته بواسطة مبعوثي الحكومة والمقربين إليها. ولو شاعت الحكومة الثنائية معرفة أسمائهم لذكرها ولكنه الآن لا يفعل⁽⁷⁶⁾.

⁽⁷⁴⁾ قمر الدين عبد الجبار وزير علي دينار إلى سلاطين في 24/2/1901م وخطاب باشمعاون كردفان إلى سلاطين في

7 يوليو 1901م S.N.A. Intel 7/5/2

⁽⁷⁵⁾ خطابين من السردار وسلاطين باشا إلى السلطان علي دينار في 12/5/1901م S.N.A. Intel. 7/3/2

⁽⁷⁶⁾ خطابين من علي دينار إلى كل من السردار والمفتش العام في 28/صفر 1319هـ، 17/6/1901م

S.N.A Intel 7/1/3 .

هذه الإشارة في تقدير الباحث على قدر من الذكاء وهي تعني مواجهة التدابير الثنائية بما هو كفيل بإحباطها، وذلك بغرس بذور الشكوك بين الحكومة الثنائية ومبعوثيها وعملائها في دارفور. وبذا يكون قد ضرب عصفورين بحجر في آن واحد. وفي يوليو عام 1901م قام علي دينار بإرسال عدة أشخاص يحملون خطابات منه إلى الحكومة الثنائية بغية إيهامها بحسن العلاقات معها. بيد أن القصد الأساسي من إرسالهم هو الحصول على أسلحة عن طريق الشراء بعيداً عن رقابة الحكومة الثنائية وعلمها⁽⁷⁷⁾.

وبدأ السلطان يتضجر من تدخل الحكومة الثنائية في شؤونه الداخلية، ومحاولاتها الجادة لإخضاع رعاياه للسلطة المركزية. حيث يذكر أن الرزيقات ومنذ القديم تابعين لدارفور وإن موسى مادبو هو سبب كثير من المشاكل. وأنه قد عفى عنه بناءً على رغبة الحكومة الثنائية⁽⁷⁸⁾. وإلا فإن العرف والإرث والتاريخ والقانون يقف لصالحه، وقد تنازل عن كل ذلك نزولاً على رغبة الحكومة وعفا عنه.

وفي هذا الأثناء حاول سلاطين أن ينتهج سياسة مقتضاها إجبار القبائل المهاجرة من دارفور بالرجوع إلى مواطنها التي هاجرت منها هذا فيما يتعلق بالرزيقات. أما الكبابيش فقد هدد علي دينار من جانبه إبراهيم المليح ناظر الحمر أن لم يقم بمعاقبة الهاربين من حدود دارفور إلى كردفان من قبيلة الكبابيش سيعاقبه علي ذلك. وبذل سلاطين جهوداً لإلزام علي دينار جانب الصبر والحلم. ووجه قبيلتي المعاليا والرزيقات بالخضوع لأوامر السلطان وعدم تجاوز حدود دارفور إلى كردفان. بيد أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها⁽⁷⁹⁾.

ولما لم يستجب مشايخ المعاليا والرزيقات لمطالب السلطان ولا لنصائح الحكومة جرد عليهم السلطان حملة بقيادة (سليمان تيراب)، واستطاع الأخير هزيمتهم وهرب

⁽⁷⁷⁾ خطاب من أحمد سالم النور إلى أخيه شيخ الأضية في 1901/6/2 ربيع الأول 1319 هـ. S.I.R 85/5.

⁽⁷⁸⁾ خطاب من علي دينار إلى الحاكم العام بدون ردأ علي خطابه في أواخر 1901/6/6، أول ربيع الأول 1319.

S.N.a Intel 7/1/3

⁽⁷⁹⁾ A.B. Theobald Op. Cit. PP. 49-50.

من نجا منهم إلى كردفان محتمياً بشيخ الحمر في كردفان. فأرسل (سليمان تيراب) خطاباً شديداً للهجة إلى إبراهيم المليح يطلب منه فيه تسليم هؤلاء الفارين إليه، وكذا أرسل خطابين إلى كل من مدير كردفان والنهود بهذا الصدد. بيد أن الحاكم العام طلب من ناظر الحمر عدم تسليم هؤلاء المشايخ إليه مما يوحي بأن الحكومة كانت متواطئة ولو بقدر مع هؤلاء الشيوخ. ولم تلبث قوات علي دينار أن قامت بإحراق كاجا سروج الواقعة على حدود دارفور الشرقية لإيوائها بعض اللاجئين⁽⁸⁰⁾.

هذه السياسة الثنائية توحى بأن تحركات هذه القبائل كانت بإيعاز من قبلها. ولربما كان الغرض منها إضعاف قوة السلطان المادية والعسكرية وإضعاف مركزه الأدبي والسياسي. لذا ما أن تشعر الحكومة الثنائية بأن السلطان أوشك أن يستأصل شأفتها حتى تتدخل الحكومة لصالح تلك القبائل المتمردة. وتعمل علي توفير مظلة الحماية لها.

وتجراً الكبابيش علي النهب والسلب وتكررت النصائح بالحسن من قبل السلطان بيد أنها لم تجد فتيلاً⁽⁸¹⁾. وبدأ السلطان يشعر بدقة موقفه وتأكد لديه شعور بأن هذه القبائل مدعومة من قبل الحكومة الثنائية فلجأ إلى استقرازاها بالكتابة إلى شيوخ الحمر طالباً منهم القدوم إلى دارفور والإقامة فيها ونزع أيديهم من ولائهم للحكومة الثنائية⁽⁸²⁾. وفي الوقت ذاته عزم علي الإنتقام من هؤلاء المعتدين بيد أن خطاباً شديداً للهجة من قبل الحكومة جاءه مهدداً ورد فيه ما يلي: (وإذا بقي جيشك قريباً من الحدود فلا بد من حصول النزاع بينه وبين القبائل المجاورة ويفضي الحال إلى زعزعتهم فتضطر الحكومة للمداخلة وإرسال عساكر من قبلها)⁽⁸³⁾ وذلك بعد وصفه لإجراءات السلطان بأنها قد ألحقت الضرر والخراب بالناس وملزماً إياه بإصدار أوامر فورية لإيقاف حملاته علي القبائل المعتدية⁽⁸⁴⁾. مما لا شك فيه أن هذه السياسة الثنائية غايتها أن تغل من يد السلطان وأن تحد من سلطاته وهي سياسة منحازة لصالح القبائل من أجل إضعاف سلطان علي دينار.

(80) يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، 245.

(81) خطابان أحدهما من رجالات علي دينار في 1901/9/28م، 1319/6/13هـ. والثاني من علي دينار إلى مشايخ

الكبابيش في 1901/10/7م - 1319/6/21هـ S.N.A. Intell 2/3/14.

(82) من سلاطين إلى علي دينار في 1901/10/21م ربيع الأول 1319هـ S.N.A. Intell 7/3/2

(83) خطاب من السردار إلى علي دينار في 1901/10/21م، 6 ربيع الأول 1319هـ S.N.A. Intell 7/3/2

(84) المرجع السابق.

بيد أن جيش السلطان لم يأبه لهذه التهديدات وواصل حملاته ضد المتمردين. وعلي صعيد آخر لم تقف الحكومة الثنائية مكتوفة الأيدي فتحركت بسرعة بأن حشدت جزءاً من قواتها علي الحدود لردع قوات السلطان الذي لم يكن أمامه من سبيل سوى الاعتذار بغية تهدئة الموقف وحتى لا تضيق جيوده هباء أمام هجمات أو غارات ثنائية لم يكن قد أعد لها عدته (85).

ثم ما لبث أن قام بإرسال تهديد إلى ناظر الحمر ذكر فيه أن بعضاً من الأعراب قد اخترقوا حدود دارفور، وقاموا بالنهب والسلب. وأكد له إذا لم ترتدع هذه القبائل فإنه على استعداد لمطاردتها حتى داخل منطقتهم في كردفان (86) وطلب من إبراهيم المليح تسليم ورد ما تم سلبه ونهبه، وإن لا فإن قواته ستدخل المنطقة. بيد أن الحكومة لوحت بقواتها تارة أخرى مما اقتضى انسحاب قوات السلطان وإرساله اعتذاراً ثانياً (87).

بنهاية نوفمبر عام 1901م ساد المنطقة هدوء، ومنح السلطان الأمان لأهالي (كاجا سروج) بيد أنه رفض منحه لموسى مادبو زعيم الرزيقات (88). وتجاه نصائح الحاكم العام له بالتخلي بالصبر عبر السلطان عن تدمره وتضجره من غارات القبائل ونهبها وسلبها (89). فأرسل إلى الحاكم العام خطاباً يعلن فيه عفوه وأمانه لكل القبائل إلا موسى مادبو نتيجة لعصيانه وتمرده (90). وذكر أن هذه القبائل قد اعتمدت الكسب السهل بدلاً من التعمير والعمل الشريف وتعمير الأوطان وأن ردها في هذه الحال إلى صوابها لا يتم إلا بالقوة (91).

(85) S.I.R. 88/4-8. 1st to 30th Nov. 1901 .

(86) خطابين من علي دينار أحدهما إلى شيخ الكبابيش ودار حامد في 1901/11/5م وآخر إلى إبراهيم المليح في 1901/11/2م S.I.R. 88/4-8

(87) من علي دينار إلى إبراهيم المليح في 1901/11/24م S.I.R. 89/8-9

(88) A.B. Theobald OP. Cit. PP. 51-54.

(89) المرجع السابق.

(90) من علي دينار إلى الحاكم العام في 1901/12/28م.

(91) نفسه.

الفصل الثاني

الفترة الثانية 1902-1908

في أبريل عام 1902 بعث علي دينار بالضريبة في هيئة دواجن واعتذر بسوء الحالة الاقتصادية في البلاد نتيجة لتخريب الدراويش لها⁽¹⁾. وفي 18 أبريل بعث شيخ الحمر خطاباً يستعدي فيه الحكومة الثنائية البريطانية علي السلطان علي دينار باعتبار أن جيشه يتكون من فلول الدراويش وأنه لم ينفك عن غاراته علي الحمر⁽²⁾.

أن مسألة الدراويش أصبحت تهمة وخيانة عظمي يستخدمها كل خصم ضد الآخر لإدركه بحساسية الحكومة الثنائية تجاه كل ما يمت للدراويش بصلة. وإن لا فطن المعروف أن للسلطان حساسية مفرطة تجاه الدراويش. وقد تقدم موقفه منهم في الفصل الأول والثاني والثالث من الباب الثاني.

حاول علي دينار أن يمد حدوده إلى حفرة النحاس. وفي الوقت ذاته لم يكف عن تهديداته لقبائل الحدود التي أفلقت منامه. بيد أن هذه القبائل رأت ضرورة القيام بدور الإيقاع بينه وبين الحكم الثنائي البريطاني الأمر الذي يعطيها مساحة من الحركة واللعب على الحبل لصلحها. فبعثت بخطاباته التهديدية إلى الحاكم العام وهذه هي ذات مشكلة دارفور الآن التي يحاول بعض أبناء دارفور بوعي أو بدون وعي إلbasها ثوباً عرقياً وإثنيّاً نتناً يتفق ومعطيات الهيمنة الأمريكية وتفسيرها الكسيح المعوق للكثير من الأحداث وفق استراتيجية مصالحها القومية. وأبدى السلطان في الوقت ذاته ضيقاً من الضرائب البريطانية المفروضة عليه قسراً فطلب إعفاءه منها فورده خطاب⁽³⁾ تفصيلي

⁽¹⁾ A.B. Theobald of. Cit. PP.77.

⁽²⁾ علي محمود جلا شيخ الحمر في 8 محرم 1320هـ، 18 أبريل 1902م S.N.A. Intel 7/2/17

⁽³⁾ الحاكم العام الي علي دينار في 13 صفر 1320، 1902/5/20م S.N.A Intel 7/3/4

من الحاكم العام بشأن هذه القضايا مجتمعة ورد فيه: (.... ليس من رأيي أن تطلبوا صريحاً من الحكومة التنازل لكم عن المبلغ... وأن لا تعودوا مرة ثانية إلى كتابة جوابات تهديدية كما فعلتم مؤخراً عندما كتبتم لمشايخ الحمر لأن جواباتكم تلك أرسلها أولئك المشايخ لمدير كردفان وأخبروه أنك تقصد تهديدهم ومحاربتهم... قد أخبرنا أنكم اخذين في كتابة خطابات إلى نصر عندل..... وإرسال كشافين إلى حفرة النحاس مع أنه معلوم عندكم أن حدود دارفور الخط الذي يوصل بين الملم وبحر العرب).

هذه الإشارات الثنائية البريطانية اشتملت علي إغلال أبيادي السلطان وتقييد تحركاته تجاه القبائل المتمردة وتضع عقبات أمام توسعه. ولم تشأ الحكومة أن تفك أسره من الضريبة السنوية لأنها حلقة سيادية هامة وخيط عنكبوت ظلت تتمسك بأهدابه الحكومة الثنائية البريطانية من أجل ادعاء تبعيته لها. ولا شك أن محاولات السلطان الفكاك من أسر هذه الضريبة تصب في خانة الاتجاهات استقلالية لديه والتي ظلت الحكومة الثنائية البريطانية تعمل على كفكفتها وحسرها كلما سنحت لها فرصة. وبالرغم من ذلك لم يترك السلطان فرصة تمر دون أن ينتهزها للتعبير عن استقلاله والإنفكاك من أسر الارتباط بالحكم الثنائي وتبعيته المباشرة له. أما الحكومة الثنائية فبالرغم من عدم رضاها من وجوده في السلطة إلا أنه كان أمراً واقعاً حاولت التعامل معه بحذر بالغ بأن جندت لها جواسيس في بلاطه للإطلاع على سياسته واتجاهاته العدائية أو السلمية⁽⁴⁾.

في أغسطس 1902م تجددت شكوى السلطان "ضد قبائل الحمر التي تقيم على الحدود لذا كلف الحاكم العام مفتش مديرية كردفان بمهمة حل مشكلة الحدود⁽⁵⁾.

وبدأت شكوى السلطان تزداد تجاه نوايا الحكومة الثنائية إزاء سلطنته. فأكد له سلاطين حسن نوايا الحكومة الثنائية البريطانية. وعدم عزمها على تجاوز الحدود المعلومة (لبلاد دارفور)⁽⁶⁾. عبارة بلاد الفور ذات دلالة استقلالية لا سيما وإنها قد صدرت من الرجل الثاني في الحكومة.

⁽⁴⁾ S.I.R. 95/3 1st to 30th June, 1902.

⁽⁵⁾ خطاب من علي دينار إلى الحاكم العام في 21/8/1902م 13 جمادى الأولى 1320هـ ورده في نهاية أغسطس 1902. S.I.R. 98/6 1st to 30th Sep. 1902

⁽⁶⁾ خطاب من سلاطين إلى علي دينار في 30/9/1902، 23 جمادى الثانية 1320هـ S.I.R. 98/6

خلال شهر أكتوبر كثرت المكاتبات بين الطرفين الثنائي والفوراوي وذلك أثر شكوك السلطان التي تجددت إزاء الحكم الثنائي. وورد إلى مسامعه أن مدير كردفان قادم إلى حفرة النحاس. فنفي سلاطين هذه المقولة وتهدة لخاطره أتحف السلطان ببعض الهدايا وقام هو بدوره بإرسال هدايا إلى رجالات الحكم الثنائي⁽⁷⁾. هذا الجهد المبذول يلقي الضوء علي أن الأمر قد بلغ حداً اقتضاه من جانب السلطان والحكومة الثنائية علي حد سواء. وكانت الحكومة الثنائية البريطانية من جانب آخر تخشى حدوث خروج من قبل السلطان أو قيام ثورة وحدثت تضحيات وخسائر مادية وعددية في وقت لم تكن فيه الحكومة الثنائية علي استعداد لمواجهةها في الوقت الحالي علي الأقل.

وفي ديسمبر تجددت المشاكل وبدأت المناورة السياسية من قبل السلطان فقام بإرسال هدايا لسلاطين بمناسبة قدومه إلى النهود⁽⁸⁾. وأرفق ذلك بخطاب ورد فيه أنه قد بلغ مسامعه أن سلاطين يرغب في إرسال مدير كردفان إلى جهة حفرة النحاس بطريق شكا والكلكة .. وقد نظرنا أن هذه الأمر إذا حصل وصار مرور مدير كردفان بتلك الجهة فلا بد وأن تحصل الزعزعة للأهالي والاختلاط مع رجالنا بالحدود... وإذا كان في أمر لازم بحفرة النحاس وضروري أعلموني به فأنا أقوم بقضائه نائياً عن معالي الحكومة⁽⁹⁾. أما الهدايا التي أرسلها السلطان فقد أراد بها كسب سلاطين. وأعقب ذلك بما يعكس وجهة نظره تجاه إرسال أي مسؤول إلى داخل حدود دارفور حيث كان يرى في ذلك تدخلاً مسافراً في شؤونه الداخلية وتهديداً لوجوده لذا لجأ إلى أسلوب التهديد بقوله: (فلا بد أن تحصل الزعزعة للأهالي والإختلاط مع رجالنا بالحدود). ولئلا يعتبر ذلك منه موقفاً عدائياً صريحاً أبدى استعداده لتنفيذ كل ما يلزم بتلك الجهات بالإنابة عن الحكومة وهو من التهدة الناجمة في مواجهة ذلك الأسلوب الخشن السابق الوارد في ذات الخطاب. وهو لا يرغب في تواجد أي نفوذ غريب في المنطقة يمكن أن يؤثر علي موقفه وموقعه السياسي في البلاد.

(7) خطابات بين سلاطين والحاكم العام في 15-19/10/1902م، 8 رجب 1320هـ S.N.A Intell 7/3/2

(8) علي دينار إلى سلاطين في 7 رمضان 1320هـ، 13/12/1902م S.N.A. Intell 7/1/4

(9) خطاب آخر من علي دينار إلى سلاطين بنفس التاريخ السابق S.N.A Intell 7/1/4

ولئلا يتيح أي مجال للتدخل ثنائي تحت ذريعة اختراق الحدود من قبل أهالي دارفور قام بتطبيق أحكام رادعة ضد كل من يتجاوز حدود دارفور إلى كردفان الأمر الذي اقتضى تنبيهه من قبل الحكومة الثنائية⁽¹⁰⁾. إن هذا الاتجاه الإستقلالي هو توجه مكين يدعمه موروث حكم قديم وقبلية متمكنة. وبالتالي فإن معالجة أزمة دارفور الحالية لابد وأن تضع في إعتبارها هذه المفردات علي هذا المستوى من الوضوح لأن التركيبة الفوراوية (أو الدارفورية) إذا جاز التعبير، هي تركيبة متفردة من الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية والتاريخية والعرقية.

وبحلول 1903م تجددت غارات القبائل (الحدودية)⁽¹¹⁾ وتكررت تهديدات علي دينار لشيخ الحمر الذي قام بدوره بإرسال تلك التهديدات التي مدير كردفان وبعثها بدوره إلى الخرطوم واتبعها بوجهة نظره بأن تهديدات السلطان هذه لا تتبعها نتائجها⁽¹²⁾ وقد كان تقديره في مكانه حيث أن علي دينار بالرغم من كثرة تهديداته إلا أنه كان يشعر بأنه مغلول اليد وأن دخوله في معركة من هذا القبيل ستضعه في مواجهة مباشرة مع الحكم الثنائي. وقد رأى بأم عينيه ما حدث للدولة المهدية وهو قارئ جيد لمفردات التاريخ. لاسيما وأن هذه القبائل تقيم داخل حدود الحكومة الثنائية. وإن ملاحظتها يعني خرق الاتفاق القائم بينه وبين الحكومة والقاضي باحترام السيادة الإقليمية لكل من الفريقين.

وبحلول مارس تحسنت العلاقات الفوراوية الثنائية إذ يشير أحد التقارير إلى أنه قد: (بدأت العلاقات التجارية بين دارفور وحكومة السودان)⁽¹³⁾. وقد أخذت طابعاً واضحاً. ومن خلال الإشارة السابقة يتضح أن هناك فصلاً واضحاً في أوساط الأجهزة الرسمية في الحكومة الثنائية بين حكومة السودان ودارفور. الأمر الذي له مغزاه في مفهوم (دارفور) واستقلاليتها عن حكومة السودان.

(10) السردار إلي علي دينار 1902/12/19م، 1320/11/14هـ S.N.A Intell 7/3/3

(11) علي دينار إلي مشايخ الحمر 1903/2/18م، 1320/12/-هـ S.N.A. Intell 2/3/14

(12) A.B. Thesbald Op. Cit. PP. 73-74.

(13) S.I.R. 104/27 Ist to 31th March 1903.

وفي أبريل غادرت قافلة تجارية دارفور إلى أم درمان. وبعث علي دينار ب خطاب يطلب فيه تزويده بذخيرة وظروف ذخيرة فارغة. وخطاب آخر يفيد فيه مغادرة القافلة لدارفور⁽¹⁴⁾. هذه المكاتبات تكشف عن انتعاش التجارة الخارجية وتحسن العلاقة الفوراوية الثنائية وهدوء الأحوال. بيد أن السلطان لم يدع تلك الفرصة تمر دون استغلالها ومحاولة التخلص من آثار الضريبة المفروضة عليه من قبل الحكومة الثنائية وأغلالها، وتركيزه علي أن دارفور هي مهد سلطنة آبائه وأجداده ومسقط رأسه حيث يقول: (ولو أنها - دارفور - ديار آباءنا وأجدادنا ومحل المربا - تربيتنا - والوطن لم نر ثمرة كليتا - كلية - ... ونقول أن المجبول عليها سنوي مداركته منا بغاية التعب وهو مبلغ الخمسمائة جنيه والدار لا يكون بها شيء أبداً ولم يؤمل فيها مداركة المبلغ تؤمل المراجعة فيذلك - في ذلك - وتأخير مائتان جنيه... ويكون المربوط ثلاثمائة شفقة بالرعية)⁽¹⁵⁾.

لم يلجأ إلى المطالبة بالإلغاء تماماً ولكنه اتبع أسلوباً عليه يفيد في إلغاء التبعة شيئاً فشيئاً. وهو كان بعينه البصيرة يدرك أن هذه الشعرة تصير عليها الحكومة باعتبارها مظهراً من مظاهر سيادتها عليه، لذا كان يعمل ما وسعه الجهد لإضعاف هذه الشعرة حتى يتخلص منها نهائياً. وشكلت هذه الضريبة قيوداً في نظره، إذ كانت ترمز إلى التبعية والخضوع للحكومة الثنائية بصورة غير مباشرة. رغماً عن شعوره بالاستقلال ومحاولته لانتهاز أية فرصة للتعبير عن ذلك. وهذا ما قصده بإشارته أن دارفور (ديار آباءنا وأجدادنا) وهي عبارة ذات دلالة قوية علي الاستقلال والحق التاريخي في الوجود والحكم والتصرف. لذا كان السلطان حريصاً علي التنصل من هذه الالتزامات والفكاك من هذا الإسار ولو جزئياً. وفي 5 يونيو 1903م احتج علي دينار لدى الحكومة الثنائية لإختراق أوربيين غير معروفين حدود بلاده ورفعوا علماً في حفرة النحاس. وردت الحكومة بأن هؤلاء الأوربيين هم حاكم بحر الغزال وبعض الضباط الإنجليز. الأمر الذي دفعه للتذمر ورأي في ذلك تغولاً علي حقوقه في السيادة علي بلاده وإعتداء علي حدوده⁽¹⁶⁾.

(14) خطابين من علي دينار إلي الحاكم بتاريخ 25 محرم 1321هـ، 1903/4/28م S.N.A.Intell 7/1/5

(15) علي دينار إلي سلاطين في 25 محرم 1321هـ 1903/4/28م S.N.A.Intell 7/1/5

(16) علي دينار إلي سلاطين في 1903/7/1، 29 ربيع الأول 1321هـ S.N.A.Intell 7/1/5

أنظر أيضاً: A.B. Theobald. Op. Cit. PP. 65-66

وهنا يجب أن لا ننسى أن حساسية علي دينار من ظهور رجال الحكم الثنائي في حفرة النحاس لها ما يبررها. فعلي دينار وغيره من رجال القور يعلمون تماماً أن سلطنتهم سبقت في الماضي علي يد غاز قادم من بحر الغزال: (الزبير باشا) في مثل هذه الظروف لا يستبعد من الحكومة الثنائية وهي قارئة جيدة لمفردات تاريخ المنطقة بذكاء وبوعي أرادت أن تقوم بعملية جس نبض لقوة وإمكانات السلطان، لذا كرر استعداداته لتنفيذ أي التزامات تتعلق بهذه المنطقة، دفعاً لأي وجود أوروبي في بلاده. ويعتبر السلطان أن الدخول إلي هذه المنطقة يعني تجاوز الخطوط الحمراء وينذر بخطر إزاء وجوده وسلطته القائمة.

ووضع السلطان في حسابه غدر الحكومة الثنائية به لذا قام بتهريب السلاح الثنائي إلى بلاده بالاتفاق مع تاجر يهودي يسمى محمد سعيد المالح⁽¹⁷⁾ وكان هذا التاجر يقوم بتهريب الأسلحة إلى دارفور من النهود بمساعدة شريكه سعيد عامر وحسن حدربي ومساعدة مأمور النهود⁽¹⁸⁾. بيد أن العجيب في هذه الإشارة أن التاجر اليهودي يسمى محمداً ذلك لأن عدداً من العوائل اليهودية قد دخلت الإسلام في فترة المهديّة وإن قضية التدين في السودان لم تقم علي الحدة المعهودة في كثير من أجزاء العالم الإسلامي حيث السماحة الدينية هي سمة سودانية خاصة إذ نجد في البيت الواحد: المسلم والمسيحي. وأن قضية التحول الديني لم تثر كقضية خطيرة في السودان عبر التاريخ لأن الإسلام قد دخل هذه البلاد سلمياً ولم يدخلها بالسيف والمسألة مسألة اقتناع أكثر منها إجبار ولربما كان للأمر تفسير آخر كما أشرنا إليه في الهامش (1).

ولقد تجددت مشاكل الحدود مع القبائل تارة أخرى. بيد أن السلطان لم ينس في معرض شكواه التتويه علي ضرورة عدم الاعتداء. لاسيما من مدير بحر الغزال من ناحية حفرة النحاس وفاروجي⁽¹⁹⁾.

(17) اسحاق صالح إلى مساعد مدير المخابرات في 24 ربيع الثاني 1321هـ، 1903/7/26م. ومن الغريب أن هذا اليهودي يسمى محمداً وربما كان ذلك من باب التقية. لأن اليهودي يمكن أن يفعل أي شيء من أجل بلوغ غايته إذ قد يستغرب القارئ هذه التسمية، بيد أن ذلك لا غرابة فيه إذا علمنا الطبع اليهودي للوصولي. إذ بإمكان اليهودي في سبيل تحقيق مآربه أن ينزع جلده الظاهر من أجل تحقيق أهداف إستراتيجية أو كبسب مادي رخيص. فكثير من اليهود الآن يوجدون في كثير من الدول العربية تحت أسماء مزورة وتحت مظلة هويات وشركات إنجليزية وأمريكية خدمة لأهدافهم دون علم تلك الدول. S.N.A Intell 2/3/14

(18) Ibid.

(19) خطاب من علي دينار إلي الحاكم العام في 1903/8/26م، 25 جمادى الأولى 1321هـ S.N.A Intell 7/1/5

وطلب السلطان السماح له بالغارات غرباً لتوسعة حدوده، وتمكينه من أداء التزاماته المالية تجاه الحكومة الثنائية⁽²⁰⁾. هذه المبررات التي ساقها قد لا تكون هي المقصودة بقدر ما تنم عن تحرك يتسم بكثير من الذكاء. هذا لأن الإنجليز كانوا قلقين من تقدم الفرنسيين نحو أرض النيل بعد هزيمتهم لرابح الزبير - أحد رجالات الزبير باشا الذين رفضوا الاستسلام 1879م بعد سفر الزبير إلى القاهرة. واتجه رابح صوب الغرب حيث أسس دولة إسلامية كبرى. وتولى عبء المقاومة الاستعمارية في المنطقة، وقد عمل علي نشر الإسلام ورفع راياته في تلك المناطق. ولدى احتدام المنافسة الاستعمارية بين الدول الأوروبية وتهافتهم علي أفريقيا، دخل رابح فضل الله مع الفرنسيين في صدامات أبلى فيها بلاء حسناً. ولم يرض إن لا إن يقدم روحه شهيداً في سبيل مبادئه التي آمن بها. وقد تمت هزيمته بواسطة الفرنسيين في 21 أبريل 1900م⁽²¹⁾ ونتج عن ذلك التهامهم لإمبراطوريته التي تمتد إلى حدود دارفور وبحر الغزال.

وطلب علي دينار تزويده بأسلحة تعزيزاً لموقفه الحربي تجاه الغارات الفرنسية علي الجبهة الغربية، وإن كان القصد تقوية ترسانته الحربية مستقبلاً إزاء الغدر الثنائي. وحتى لا تتأب الحكومة شكوك تجاه طلباته قام بإرسال الضريبة السنوية. وبالرغم من هدوء الحال نسبياً إلا أن القبائل التي تقيم علي الحدود قامت مرة أخرى بإختراق حدود دارفور. فجار السلطان بالشكوى بعد التحقيق مؤكداً بأن أوامره قد صدرت إلى رجالاته ومسؤوليه بعدم الاعتداء. فأشار إلى أن (المطلوب عدم اعتماد كلام شفاهي. إنما إذا كانت صدرت أوامرنا بختمنا فهي المعتمدة ونتعامل بما فيها وبخلاف ذلك لا نتعامل بالأقوال). وبهذا أراد أن يبعد عن نفسه تهمة التحريض لرجالاته بإختراق الحدود. وفي سبتمبر 1903م جار بالشكوى ضد مأمور النهود واتهمه بتسميم أحد رعاياه إبراهيم المليح. هذا بالرغم مما تقدم من أن العلاقة بينه وبين إبراهيم المليح ليست علي ما يرام. ولكن يبدو أنه كان ينتحل الأسباب لإبعاد شخصية

(20) علي دينار إلي الحاكم العام خطاب آخر بنفس التاريخ S.N.A Intell 7/1/5

(21) نعوم شقير: تاريخ السودان. تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم دار الجيل بيروت 1981م، ص 298-303.

المأمور عن النهود لأنه كما تقدم فإن المأمور كان يشارك في تهريب الأسلحة إلى دارفور. لذا فإن تغير سياسة السلطان تجاهه تعني تغيراً في سياسة المأمور وعدم تسهيله لعملية التهريب السابقة.

ويؤكد علي دينار بأنه قائم على العهد القائم بينه وبين الحكومة. وأشار إلى الإعتداء الذي جرى من قبل عبد الرحيم أبو دقل والكباشي بقوله: (ونظراً لما بيننا وبين الحكومة من الإتفاق والوقوف على حالة الإلتباع فالرفع لمعاليها واجباً). وفي هذا الأثناء تجدد طلب سلاطين بمقابلته بيد أنه أعترى بقوله: (تريدون حصول المقابلة الشخصية معي سعادتكم بجبل الحلة للتوصل إلى نتيجة موافقة لمصلحة الحكومة ومصالحتنا ... ولا يخفاكم أن الأمور حركاتها وسكناتها بيد الله ... غير أن في عوايد الآباء والأجداد السابقين لم جرت والعادة أن يقدم صباحاً مسافة يوم واحد... فبذلك تحصل عطلة مقابلتنا وبناء علي تطلب سعادتكم قد تعين ولدنا جابر عبد الرحمن نائياً عنا وتحرر معه لصوب سعادتكم ما هو لازم)⁽²²⁾. في هذا الخطاب يقود السلطان سبباً أوهى من خيط العنكبوت مؤداه أن الخروج تجاه الشرق مناف للعادات السلطانية الموروثة. وإن نتيجته ستكون وخيمة علي السلطان حسب العادات السلطانية الموروثة من الآباء.

وبذا لم يعد السلطان ما يقتضي عدم تحقيق المقابلة. حيث كان في الواقع. يعتقد أن خروجه من الفاشر عاصمته لأي سبب يعني ذلك نهايته. ولم يقبل حتى تلك اللحظة إجراء مفاوضة مباشرة بينه وبين أي أحد من المسؤولين في الحكومة الثنائية. ولعل ذلك يؤكد أن العلاقة الثنائية الفوراوية هي علاقة مرحلية اقتضتها الواقع وأملت لها الضرورة، وأن السلطان لم يقم على أمر دارفور بواسطة الحكم الثنائي. وإنما حكم بلاده بنفوذه وسلطانه إعتماً على حق الإرث التاريخي للسلطنة الفوراوية السابقة. وقد جاء طلب سلاطين بعد حدوث اشتباكات بين قوات الحكومة الثنائية وقوات السلطان وتوغل رجاله مسافة مائة ميل في كردفان لمطاردة الكبابيش في سودري. واحتج علي دينار على تدخل قوات الحكومة. وأعلن أنه قد أصدر أوامره إلى رجاله بعدم

(22) علي دينار إلى سلاطين 1903/11/20 رمضان 1321هـ Ibid ..

تجاوز حدود دارفور. وأبدي استعدادَه لحل الأشكال القائم سلمياً⁽²³⁾. كل ذلك دفعاً لأي تدخل ثنائي أو إجراء مقابلة مع أي مسؤول ثنائي بأي صفة.

ودارت مكاتبات عدة بشأن الإشكال القائم. وقام السلطان بإتحاف القيادة السياسية في الحكومة بهداياه. ونتج عن ذلك حلّ الأشكال لصالح السلطان، وبالتالي حصلت دارفور علي مكاسب في مجال تجارتها الخارجية بأن تم إعفاء بضائعها من الجمارك المفروضة علي كل التجار من وطنيين وأجانب⁽²⁴⁾. سواء أكانوا قادمين أو خارجين.

وورد السلطان خطاب آخر من سلاطين يحدد فيه حدود دارفور التي ينبغي عدم تجاوزها (فحدها من المُلَم بالخط الذي يستمر حتى الحدود الغربية للتعايشة - المَسَلَات ويمتد حتى حدود دار تاما والحدود القديمة بين دارفور وودّاي علي طول الحدود الغربية للزّغاوة كوبي ودار البديّات. وهذا التحديد تم بناء علي الحدود الغربية لدارفور)⁽²⁵⁾.

ولم يرد السلطان علي هذا الخطاب مما يدل علي عدم رضاه عن هذا التحديد الذي لا يرضي طموحاته. هذا بالإضافة إلى الغموض الذي احتواه⁽²⁶⁾. وفي المقابل تجددت طلباته لتزويده بالسلاح، ويبدو أن الحكومة الثنائية كانت مدركة لإبعاد خطته لذا ظلت تزوده بما يحفظ استمرارية العلاقة ويبقي علي شعرة معاوية، وهو يقابل ذلك بالشكر والثناء بالرغم من قناعته من أن ذلك دون ما طلبه ولا يسد رمقه⁽²⁷⁾.

وتجدر الملاحظة إلى أن السلطان درج من أول يوم علي مهر خطاباته بالسلطان علي دينار. بينما تتزع عنه خطابات الحاكم العام هذه الصفة ويعنون إليه بالأمير علي دينار عكس خطابات الرجل الثاني في الحكومة الثنائية سلاطين باشا علي وجه العموم الذي درج علي مراسلته باسم السلطان علي دينار⁽²⁸⁾. الأمر الذي يدل علي قدر من الارتباك وعدم وضوح الرؤيا لدي القيادة الثنائية.

⁽²³⁾ A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 67.

⁽²⁴⁾ خطابات من سلاطين إلى علي دينار في 1903/12/15م، 16 رمضان 1321هـ S.N.A Intell 7/3/4

⁽²⁵⁾ سلاطين إلى علي دينار في 1908/12/22، 3 شوال 1321هـ S.N.A Intell 1/1/2

⁽²⁶⁾ A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 69 .

⁽²⁷⁾ علي دينار إلى سلاطين في 1903/12/14 S.N.A. Intell 7/1/5

⁽²⁸⁾ السردار إلى علي دينار 26 ديسمبر 1903م، Ibid 7/3/4-5

وفي عام 1904م رفع السلطان شكوى ضد أعيان الحكومة لا سيما مأمور النهود وعبد الرحيم أبو دقل الذي يصفه السلطان بقوله بأنه: (من أهل السوابق وواقعة منه تعديات كثيرة علينا وممن أشاع الأخبار الكاذبة في حقنا وهو من أهل الفتن... أما مأمور النهود ما دام من موظفي الحكومة يتأكد عليه إما يعتدل ويترك أمر الإشاعة ورفع الكلام البطل بالكذب للحكومة أو يعزلوه)⁽²⁹⁾.

عله أراد بذلك زعزعة ثقة الحكومة في موظفيها وأهل الثقة لديها وإشغالها عن التدخل في شؤونه. ودرءاً لعدائها بعث بتأكيد مفاده أنه موال ومؤيد لكل ما تصدره الحكومة الثنائية من أوامر⁽³⁰⁾. وأكد له سلاطين حسين نوايا الحكومة تجاه بلاده وقياداته بقوله: (وإني أؤكد لكم طالما تعتمدون على إظهار الطاعة والولاء للحكومة فدوام ملككم على سلطنة آبائكم يكون أكيدا)⁽³¹⁾ إن كلمتي (ملككم)، (سلطنة آبائكم) ذاتا دلالة موضوعية وقانونية واضحة، ووقع طيب في نفس السلطان - فإذن القضية ليست هي قضية تبعية، كما يتبادر إلى الذهن، وأن حكمه على حد تعبير سلاطين الرجل الثاني في الحكم الثاني لم يكن منه من الحكومة الثنائية بقدر ما هو حق مثوارث، وإحياء لمجد أفل نجمه. وهذه العبارات تجسد قدراً من الاعتراف بحقه في السلطنة، وفي الموروث التاريخي لأبائه وأجداده وهو مستند قوي لأنه اعتراف من الخصم.

في أبريل 1904م تجددت اعتداءات القبائل الحدودية وجار السلطان بالشكوى بقوله: (وهذه المسالة الذي حصلت من عربان الكبابيش قد شوشت الخواطر تشويشاً... وإن لم حصل لهم - يحصل لهم - إمتثال وخالفوا الأوامر واعتدوا ثانياً يوزن - يؤذن - لنا بصددهم وقبضهم وإرسالهم)⁽³²⁾.

بتلك العبارات يبدي تضجره ويطالب بأخذ الثار له من هذه القبائل، وإن لا فيسمح له بمقاتلتهم وتأديبهم داخل حدود كردفان. وقامت هذه القبائل بشكوى مضادة بغية إضاعة الحق⁽³³⁾. وقام السلطان من جانب آخر بتكذيب هذه الدعوي وفرض قيوداً

⁽²⁹⁾ علي دينار إلى سلاطين في 1/1/1904م Ibid 7/3/5 .

⁽³⁰⁾ علي دينار إلى سلاطين في أواخر يناير 1904 Ibid .

⁽³¹⁾ من سلاطين إلى علي دينار في 15 فبراير 1904 Ibid 7/3/5 .

⁽³²⁾ من علي دينار إلى سلاطين في 4/4/1904م، Ibid 7/1/6 .

⁽³³⁾ من علي دينار إلى سلاطين في 10/4/1904م، 12 محرم 1322 هـ - 7/1/18 S.N.A Intell.

قاسية على رعاياه بعدم مغادرة حدود دارفور إلا بإذنه حتى لا يدع ذريعة تمتطيها قبائل الحدود ضده⁽³⁴⁾. وفرض ضرائب على رعاياه فتمرد الرزيقات على ذلك الإجراء. بيد أن الحكومة لم يكن أمامها من سبيل سوى تأييد سياسته الأنفة، فورده خطاب جاء فيه: (وطالما أنكم تحكمون بالعدل والإنصاف بين كافة أفراد الرعية فنحن لا نرغب أن يترك أحد بلادكم علي الإطلاق بدون إذنكم، ثم من جهة ما ذكرتموه عن الرزيقات فقد علمناه جيداً وطالما أن البلاد وهؤلاء العربان تابعين لكم وتحت إدارتكم فلکم تمام الحق أن تحصلوا على ضريبة السن وخلافه)⁽³⁵⁾.

وقام السلطان بإرسال هدايا إلى كل القيادات السياسية. بما في ذلك المندوب السامي البريطاني في القاهرة الأمر الذي اكسبه أرضية في دوائر الحكومة الثنائية. ونال عطف المسؤولين في كل من الخرطوم والقاهرة لاسيما الجانب البريطاني⁽³⁶⁾.

وببداية 1905م قام السلطان بتسديد التزاماته المالية دلالة على وفائه بواجباته⁽³⁷⁾. وفي هذا الوقت قامت قبيلة المعاليا برفع دعوى كاذبة ضد السلطان. وبعد التحقيق اتضح بطلان فحواها. ولذا رأي سلاطين أن إيواءهم يعني إضعاف سلطة علي دينار وإشاعة الفوضى والقضاء على الأمن في دارفور. الأمر الذي لا ترغب فيه الحكومة في الوقت الحالي على الأقل. لذا اقترح أن يرسل علي دينار أماناً لهؤلاء الأعراب وأن يكلفوا بالرجوع لبلادهم⁽³⁸⁾. هنا تبدو رغبة سلاطين الجادة في معالجة قضايا الحدود وتعزيز موقف علي دينار، وتشجيع الحكومة على اتخاذ التدابير الكفيلة بتعزيز موقف السلطان على الأقل في الوقت الحالي.

ولقد أثمرت سياسة الهدايا التي انتهجها السلطان ثماراً يانعة، حيث وصلته خطابات من كرومر المندوب السامي البريطاني بالقاهرة يشكره فيها على هداياه ويرسل له بندقية وجبخانه⁽³⁹⁾. لقد تعامل السلطان علي دينار مع الواقع بذكاء وبدهاء

(34) نفسه.

(35) من السردار إلي علي دينار في أوائل يوليو 1904م جمادي 1322هـ S.N.A. Intell 7/3/5

(36) من سكرتير الضرائب في 1904/11/16م، 2 شعبان 1322هـ إلي السلطان. S.N.A. Intell 7/3/5.

(37) من علي دينار إلي الحاكم العام 1905/1/4م، S.N.A. Intell 7/1/6

(38) سلاطين إلي الحاكم العام في 1905/1/12م، S.N.A. Intell 7/2/19

(39) من كرومر إلي علي دينار في 29 يناير 1905م S.N.A. Intell 7/3/6

بالغ، فقد تجاوز أمره الحاكم العام في السودان حيث تمكن من أن يبني جسور الصلة مع المندوب السامي البريطاني في القاهرة ولقد أثمرت جهوده في هذا المجال.

يبدو أن سياسة السلطان هذه كانت ذات اثر على اتخاذ القرار السياسي في الدوائر الثنائية تجاه سلطنة الفور مما يدل على بعد نظر السلطان وفهمه لما يحيطه من واقع اقتضى ذلك القدر من التعامل، وذلك الأسلوب السياسي الفطن.

بيد أن السلطان بدأ يتذمر من السياسة الثنائية الرخوة في معالجة مشاكل قبائل الحدود التي بلغت حداً لا يحتمل. فبعث بتهديد لهذه القبائل، وبدأت شكوكه تزداد يوماً بعد يوم تجاه السياسة الثنائية فقام بتهديد الحكومة الثنائية مما اقتضى تهديداً مماثلاً وردّه من الحكم الثنائي في الخرطوم جاء فيه: (وليكن معلوماً لديك... أن كثرة الرجال وتماهم معداتها لا يقف في سبيل الحكومة إذا استدعت الحال للقتال لأن الحكومة من القوة وشدة البأس يجعل كل ذلك عديم الجدوى كما رأيت ذلك عياناً في مسألة الخليفة الذي كان يظن نفسه قويا للغاية)⁽⁴⁰⁾. ورغم ذلك فقد سعى سلاطين لحل الأشكال القائم بالطرق الدبلوماسية. فاقترح أن تقوم الحكومة الثنائية بمعاينة رؤساء المعالي لخرجهم على سلطة السلطان. وإعلامه بأن الحكومة ليست لديها الرغبة للتدخل في الشؤون الداخلية لسلطنته، ما دام يحكم بالعدل والأنصاف⁽⁴¹⁾. إن إطلاق صفات العدل والإنصاف على حكم السلطان في هذه الفترة ومن قبل الرجل الثاني في الدولة الثنائية ذات دلالة سياسية، ومغزي هام تدفع كل ما ألصق بالسلطان من قسوة وتجاوز للحد فيما بعد حين ساءت العلاقات بينه وبين الحكم الثنائي. وهو شئنة غريبة قديمة حديثة. فمن كان معهم ولو كان أسوأ خلق الله إنساناً فهو بطل، ومن كان ضدهم ولو كان أكرم خلق الله فهو أسوأ البشر. حيث ما نلاحظه الآن من أن أسوأ الأنظمة وأردئها ما دامت موالية للغرب فهي صديقة وممتازة وعادلة ومنصفة. وما كان ضدهم من أنظمة فهو رديء وإن مارس تجربة الحرية بكيفية أفضل من الغرب نفسه فهو في استراتيجياتهم وإعلامهم ظالم ومنتهاك لحقوق الإنسان ما دام يقف ضد تحقيق مصالحهم. ولا أدل

S.N.A. Intell 7/3/6

⁽⁴⁰⁾ من سلاطين إلي علي دينار في 1905/2/5م، 13 ذو القعدة 1322هـ

S.N.A. Intell 7/3/6

⁽⁴¹⁾ آخر من سلاطين إلي علي دينار في 1905/2/5م، 13 ذو القعدة 1322هـ

على ذلك مما أثبتته التحقيق مع شيوخ المعالي واقتناع الحكومة بوجهة نظر علي دينار. وقد أصدر علي دينار عفواً شمل هؤلاء الهاربين مما يدل على حسن نواياه. وقد ترك لهم الخيار في القدوم أو عدمه. وترك أيضاً أمر العقوبات لحكومة السودان الأمر الذي يبعد عنه شبهة التشفي والانتقام⁽⁴²⁾.

وتأزمت العلاقة الفورية الثنائية مرة أخرى بسبب القبائل التي تقيم في الحدود وقامت الحكومة الثنائية باتخاذ إجراءات حاسمة كان القصد منها حماية قبائلها. وأعلم السلطان بذلك حيث ورد في خطابها ما يلي: (ولا يخفاكم أن الحكومة مضطرة أن تحمي قبائلها من مثل هذه التعديات.. سعادة الحاكم وأنا قد رأيت أن أفضل طريقة لمنع حدوث مثل هذه الأمور أن نرسل في الشتاء القادم من كردفان دورية من الهجانة مؤلفة من 10 أو 15 إلى بير الملح)⁽⁴³⁾.

ونتيجة لذلك فقد هدأت الأحوال حتى نهاية 1905م. وفي نوفمبر من ذات العام قام السلطان بإرسال التزامه السنوي. وأشار إلى أنه هدية منه لأعتاب الحكومة⁽⁴⁴⁾. والإشارة إلى هدية ذات مرمي وهدف وغاية، حيث لا يريد السلطان أن يطلق عليها ضريبة ذلك اللفظ ذو الظلال المقيتة التي لا يستسيغها. لذا نلاحظ أيضاً أنه قد أكد على هذا المعنى في خطاب بعث به إلى السردار. وبناء على هذا الاعتبار كان إلحاحه وطلباته المتكررة بتزويده بما يحتاجه من سلاح⁽⁴⁵⁾. ويبدو أنه كان يعتقد أن إمداده بالأسلحة هو مقابل ما يقوم بإرساله لها. وكانت الحكومة الثنائية قد اكتفت بهذه الدلالة وذاك الخيط الرفيع على تبعية السلطان لها⁽⁴⁶⁾. ويبدو أن الاثنين كانا يلعبان لعبة القط والفأر.

وذاعت إشاعة مفادها أن حرباً دارت بين جيش السلطان والكبابيش فقام السلطان على الفور في هذا الأثناء بنفيها بقوله: (إن عربان الكبابيش ... حضروا ...

⁽⁴²⁾ أنظر: A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 70-71.

⁽⁴³⁾ من سلاطين إلى علي دينار في 1905/3/6، 12 ذو الحجة 1322هـ S.N.A Intell 7/3/6

⁽⁴⁴⁾ من علي دينار إلى سلاطين في 1905/11/26، 7 رمضان 1322هـ S.N.A: Intell 7/1/7

⁽⁴⁵⁾ من علي دينار إلى السردار في 1905/11/26، 7 رمضان 1322هـ S.N.A Intell 7/1/7

⁽⁴⁶⁾ ثلاثة خطابات آخر من السلطان إلى سلاطين بنفس التاريخ S.N.A. Intell 7/1/7

وأعطيناهم الإذن في جلب معائشهم ... ببطن دارفور والآن اختلطوا هم والأهالي وصاروا حالة واحدة⁽⁴⁷⁾.

وببداية 1906م قامت الحكومة الثنائية باتخاذ خطوة نالت ثناء علي دينار. ألا وهي قرار المفتش العام القاضي بإرجاع المعتدين على حدود كردفان من قبائل الحدود إلى دارفور. ويصف علي دينار هؤلاء المعتدين بعدم التقيد بالأنظمة والقوانين. وتبذلت الهدايا بين الفريقين الثنائي والفواروي⁽⁴⁸⁾.

وكان السلطان علي دينار حريصاً على إبراز دوره القيادي والريادي في الغرب. وأشعار الحكومة الثنائية بأنه على علم بكل ما يجري. وأنه يتمتع بقدر من التأثير على مجريات الأحداث في وداي. وفي خطاب لسلاطين شرح له طبيعة المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين وما يجري على مسرح الأحداث هناك⁽⁴⁹⁾. ولا يستبعد من أنه كان على دراية تامة بما يجري بين الدول الأوروبية من تنافس على المنطقة، ولذلك حاول أن يثير بينها العداوة ويكسب ود أحد المتنافسين. وهو أسلوب سياسي مرحلي ناجح يوظفه السياسي المقتدر المحنك بكفاءة واقتدار.

في هذا الأثناء قامت قبيلة الكبابيش بهجرة جماعية إلى دارفور بدعوى نضوب المراعي في كردفان. فطلبت الحكومة الثنائية إرجاعهم وكذبت ادعاءاتهم⁽⁵⁰⁾. إن القراءة الموضوعية لهذه الفترة التاريخية الهامة تعطي أبعاداً حقيقية لما يجري الآن في دارفور من أحداث، بعيداً عن المزایدات السياسية الوضيعة والتي تدل على دناءة المقصد ورداءة التفكير وقصر النظر من قبل الفريقين حكومة ومعارضة في آن واحد. ربما كانت هذه الهجرة القبلية الجماعية قد تمت بإيعاز من السلطان الذي كان يورد في حساباته حسابات مستقبلية كما تقدم. وعلى صعيد آخر حاول الوشاة نقل إشاعات كاذبة عن السلطان وعن موقفه تجاه الحكم الثنائي فحذر السلطان صانعي

⁽⁴⁷⁾ من علي دينار إلى سلاطين في 28 رمضان 1322هـ، ديسمبر 1905م S.N.A. Intell 7/1/7

⁽⁴⁸⁾ خطابين من علي دينار إلى المفتش في 1906/1/22، 5 ذو القعدة 1323هـ S.N.A. Intell 7/1/7

⁽⁴⁹⁾ A.B. Theobald. OP.Cit. PP.63.

⁽⁵⁰⁾ من سلاطين إلى علي دينار في 1906/2/15م، 28 ذو القعدة 1323هـ S.N.A. Intell 7/3/7

القرار في الحكم الثنائي من إلقاء السمع لهذه الإشاعات بقوله: (... أن لا يسمع فينا الوشاة عند الحكومة) (51).

وفي 1906 قام تارة أخرى بإرسال التزاماته المالية في شكل أبقار (52). وبدأت شكوكه تزداد حول تقديرات الحكومة لقيمتها، إذ تبدو هذه الشكوك واضحة حين اتهم مدير كردفان بسوء المعاملة لرسله ومحاولته زرع بذور الفتنة بينه وبين الحكومة. وورد ذلك في قوله (... حصل ذلك من مدير كردفان وعاكسنا ولا قصد له في ذلك إلا فتنة لنا مع الحكومة ثاني، مرة لا يتعرض للأمور التي تخصنا وما نرسله يتعبوا رسلنا ويجروا مباحة ويوردوا الثمن في خزينة الحكومة) (53).

وظفحت قضية قبائل الحدود تارة أخرى على السطح حيث قام الكبابيش بغارة على الزيادة التابعين لدارفور (54). ذات القضية الثقافية التي طالما أكدنا عليها في كثير مما كتبناه بهذا الصدد. وهي ذات المشكلة الحالية ومشكلة غد وبعد غد، لا حركة مساواة ولا حركة ظلم ولا مؤتمر وطني ولا شيطان رجيم ممن امتلأت بهم الساحة السياسية السودانية يمكن أن يتجاوز هذه المفردات التاريخية والثقافية الهامة. ويبدو أن مشكلة هذه القبائل قد تطورت ولم يستطع الطرفان تقويم أودها فضربت صفحاً عن ذلك دون جدوى. كما هو الحال الآن، وشعرت الحكومة الثنائية يومها بضعفها تجاه هذه المشاكل العويصة كما هو حال الإنقاذ الآن، وما يليها من حكومات مهما كانت مسمياتها وشعاراتها وطرحها، ما لم تتم دراسة هذه الظاهرة الثقافية ذات البعد التاريخي والاجتماعي بموضوعية وبوعي تام لمخزونها التاريخي والثقافي. وما لم يحدث تغيير جوهري في هذه التركيبية الثقافية والاجتماعية وسبل كسب العيش في هذه المنطقة ستظل كل المعالجات سطحية ورهينة بادعاءات سماسرة السياسة في بلادنا من المتبطلين والمتبطلات الذين يأكلون السحت ويبيعون الكذب من القول. هذه هي قضية

(51) من علي دينار إلي سلاطين في 16/5/1906م، 28 صفر 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/8

(52) خطابين من علي دينار إلي سلاطين في 4/7/1906، 12 جمادي الأولى 1324هـ S.N.A Intell 7/1/8

(53) خطابين من علي دينار إلي كل من سلاطين والحاكم العام في 16/11/1906، 2 رمضان 1324هـ،

S.N.A Intell 7/1/8

(54) S.I.R. Nov. 1906:

دارفور أمس واليوم وغداً وستظل ما لم يدرك أهل دارفور والحاديين عليها جذور هذه القضية ويتواضعون علي حلول مرضية بشأنها دون المتاجرة بها أو بيعها في سوق النخاسة الدولية. فهي قضية ثقافية اجتماعية كما قدمت أكثر منها أثنى لأن سكان دارفور مهما تباعدت بينهم الشقة وتباينت الألوان فهم أبناء عمومة. وخلافاتهم ثقافية بين حضر وبدو، أهل زرع وأهل ضرع، مستقرون ورحل، أكثر منها دينية لأنهم جميعاً من أهل الدين والقرآن. وتاريخهم ناصع في هذا أو ذلك الزمان. ولكن يمكن من باب التحليل التاريخي أن نقول أن مشاكل القبائل في دارفور في تلك اللحظة التاريخية كانت مدعومة من الحكومة، كما هو الحال الآن دعم من الحكومة والمعارضة الناظرين تحت أقدامهما دون وعي تاريخي، ودعم من قبل القوي الأجنبية ذات المصلحة الحقيقية في تفتيت وتجزئة السودان إلي فتات يسهل التقاطه والتهامه. و لربما كان ذلك الخلاف يتم تحت عين الحكومة الثنائية وهي تحبذه ولا تدعمه كل هذه الاحتمالات واردة ولها ما يبررها. وفق خطة بعيدة المدى تهدف إلى إضعاف السلطان. وحاولت الحكومة الثنائية أن تفرض عملتها علي دارفور. بيد أن السلطان كان مدركاً لإبعاد ذلك الإجراء السيادي، إذ يعني ذلك قبوله التبعية المطلقة فرفض بذلك الانصياع لهذا التوجه الثاني. حيث أشار إلى أنه حاول إلزام رعيته بقبول التعامل بالعملة الثنائية إلا أنهم رفضوا نتيجة لتوحشهم⁽⁵⁵⁾.

واضح أن السلطان لم يعجز عن فرض التعامل بالعملة الثنائية نتيجة توحش رعيته ورفضها لاقتراحه. ولكن تم ذلك لعدم رضائه هو ونظرته البعيدة إذ كان يرى في التعامل بالعملة الثنائية فرض قدر من السيادة الاستعمارية والاقتصادية علي بلاده. والتعلل بتوحش الرعية القصد منه تجنب الحرج في العلاقات القائمة بين الطرفين. وإلا فإنه يتمتع بنفوذ مطلق، وسلطته نافذة في حدود سلطنته.

وعلى صعيد آخر كان السلطان يرى في غاية علاقته بالخرطوم تبادل المنافع وأنه علي الحكومة الثنائية الإيفاء بطلباته ما دام يستند لها مبلغاً سنوياً. لذا بدأ استغرابه

⁽⁵⁵⁾ من علي دينار إلي السردار في 1906/11/16م، 2 رمضان 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/9

لمطالبة الحكومة له بدفع أثمان أشياء طلبها منها بقوله: (وعشما في عادة الملوك أمثالنا ولا كان نعلم أنها ترسلها إلينا بفلوس ... لم كان طلبناها ومع ذلك ما دام استصوبت الحكومة لأننا ندفعوا أثمانها فلا بأس من أعطى - إعطاء - أثمانها) (56). هنا وردت إشارات ذات دلالة على الاستقلال مثل (الملوك أمثالنا) وهي تدل على الفخامة والتعظيم. ويؤكد لو أنه كان يعلم أن الحكومة تطلب منه ثمناً لهذه الأشياء البسيطة التي طلبها لم يطلبها زهداً فيها. وكان يرى ما دام ملتزماً بدفع التزاماته السنوية فلا غرابة أن يطلب باليسرى كما أعطى باليمنى. بيد أن الحكومة الثنائية كانت جابية لا تعطي إلا بموازنة العائد بالصادر. وهنا يبدو التباين إذ كان كل منهما يهدف إلى تسخير العلاقة بالطرف الآخر لصالحه مما يتعذر حدوثه في كل الأحوال.

وببداية 1907م تكررت اعتداءات الكبابيش ونهبوا جمالاً من المبدوب رعايا السلطان فحذر من ذلك بقوله: (إن عربان الكبابيش لم يريحوا علينا.. فلزم عرض هذا الأمر ... أولاً: تمنع الحكومة المذكورين من تعدياتهم في بلادنا. ثانياً: نرغب في عدالة الحكومة جلب تلك المواشي ورده لأربابه) (57). هذه هي القضية المحورية في دارفور كانت ولا تزال وستظل ما لم يحدث تحول ثقافي واقتصادي هائل يستبدل هذه الأساليب الحياتية والمعيشية بأساليب أخرى.

لقد أزعجت الكبابيش وغيرهم من قبائل الحكومة الثنائية التي تقيم في حدودها منام السلطان. وشعر بعدم الارتياح إزاء تلك الغارات على رعاياه. والإشارة (ببلادنا) ذات ظلال استقلالية. وفي الوقت ذات يطالب باسترداد ما نهبت هذه القبائل. ولا تزال تقديرات السلطان المستقبلية تحتل حيزاً من تفكيره لذا ما أن تصله كمية من السلاح والجبخانه حتى يتجدد طلبه لكمية أخرى. وأبدى استعداده لشراء أي كمية منها. وتجاوزت طلباته ومراسلاته بهذا الصدد سلاطين إلى الحاكم العام محاولاً استغلال صلاته الشخصية به والاستفادة منها في حصوله على مبتغاه (58).

(56) من علي دينار إلى سلاطين في 23/12/1906م، 23 رمضان 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/9

(57) من علي دينار إلى سلاطين في 23 شوال 1324هـ ، 6/1/1907م S.N.A. Intell 7/1/9

(58) من علي دينار إلى السردار في 29/1/1907، 16 ذو القعدة 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/8

وبدأ السلطان يتشكك في تواطؤ الحكومة ورخاوتها في معالجة مشكلة قبائل الحدود التابعة لها والمخ إلى ذلك بقوله: (ورفعنا أمرهم - الكبابيش - للحكومة مراراً ولم ترد لنا إفادة كلية ولا نعلم السبب في ذلك وهل الحكومة راضية بفعلهم هذا أم كيف وهم مازالوا متمادين علي التعدي ونحن كفينا عنهم يدنا لخاطر الحكومة)⁽⁵⁹⁾. فيما يبدو أن السلطان قد وصل الحد المعقول من الصبر ولكنها من جانب آخر هي قضية متكررة واعتداءات يصعب أن تتمكن جهة ما مهما أوتيت من سلطة السيطرة عليها لاسيما في أقاليم شاسعة ومراع واسعة علي هذا القتر.

وأرادت الحكومة حل الأشكال القائم عن طريق إقامة نقطة مراقبة وحراسة علي الحدود الفوراوية الثنائية. ولما كان وجود مثل هذه النقطة التي تقوم بأمرها قوة ثنائية يهدد كيانه الاستقلالي راوغ الحكومة محاولاً إنشاءها عن اتخاذ مثل هذا الإجراء بقوله: (... أن بير الملح لا يخفي علي سعادتك) لأنها من ضمن معادن دارفور... إذا جعلت الحكومة نقطة في ذلك البئر تجاوزها جملة إنسان طمعان في أموال الناس خصوصاً عربان الكبابيش وما يليهم من العربان الحرامية... فتحصل بذلك مضايقة... أقدم سابقاً الحكومة عملت نقطة في كاجا ومع أن كاجا هي من ضمن حدود دارفور من ابتدأها إلى الآخر فقطعناه في ضميرنا وتركناه)⁽⁶⁰⁾.

تبدو وجهة نظره لأن بير الملح واقعة ضمن حدوده. وهي ليست داخل حدود الحكومة. وأقامتها في هذه البئر يعني اقتطاع جزء من أراضيه وتهديداً لاستقلاله. وسبق أن أقامت الحكومة نقطة في كاجا. وهي جزء من أراضى السلطان فاعتبر ذلك تهديداً لكيانه المستقل وخطراً علي عرشه وأن تلك الحادثة تركت في نفسه أثراً لا ينساه. إذ أن اقتطاع أي جزء من أراضيه يعني تعدياً علي سيادته. وحاولت الحكومة الثنائية تبرير موقفها وسأقت أهم الأسباب المقتضية لإنشاء تلك النقطة علي لسان سلاطين بقوله: (أهم الأسباب التي دفعت الحكومة لإنشاء هذه النقطة هي لأجل منع البدايات من الغارة علي الكبابيش ومنع الكبابيش من الغارة علي البدايات. وبهذه الطريقة

⁽⁵⁹⁾ من علي دينار إلي سلاطين في 1907/2/1م، 19 ذو القعدة 1324هـ - S.N.A. Intell 7/1/8

⁽⁶⁰⁾ علي دينار إلي سلاطين في 1907/5/28م، 17 ربيع الأول 1325هـ - S.N.A. Intell 7/1/9

نتمكن من منع التعديات والغارات وتوطيد الأمن والراحة. وإني أؤكد أن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تمد يدها إلى بلادكم أو تتدخل في سلطتكم وشؤونكم⁽⁶¹⁾.

تبدو المغالطة واضحة في ما مضى حيث يذكر السلطان أن هذه المنطقة ليست واقعة في حدود الحكومة ويأتي سلاطين فيقول إن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تمد يدها إلى بلادكم. وهي قد مدت يدها فعلاً لمنطقة سابقة وأقامت فيها نقطة. الآن تأتي مرة أخرى لتمد يدها وتقيم نقطة على أرض فوراوية بدعوى حماية الحدود من التعديات. وبدأ السلطان يشك في نوايا الحكومة وله الحق في ذلك ويشعر بأن تحركات الكبابيش لا تعدو عن كونها ذريعة لإقامة مثل هذه النقطة والتي سبقتها داخل حدود بلاده. لذا ازداد طلبه واستيراده للأسلحة. وأدركت الحكومة الخطورة تجاه تقوية ترسانته لا سيما بعد تطلعه وإقدامه على الاستيراد من أرض الحرمين فقامت بمصادرة هذه الأسلحة. فاحتج السلطان احتجاجاً لطيفاً بقوله: (وما تتوه به من نحو ضبط الأسلحة والجبخانه في مقابلة عدم إذن الحكومة ... والحالة أننا عند ... إرسال المحمل الشريف من هنا أخبرت سعادتكم ... ولوثقنا بالحكومة وثقتها بنا وكوننا حالة واحدة... وما دام سعادتكم أجريتم اللزم نحو وضعها بمخازن الحكومة علي سبيل الأمان لحين ورود مكاتبتنا إليكم فقد أصبتم ... عهدنا كلها مع الحكومة تماماً ... ولا يسوغ لي أن اجلب شيئاً من الأسلحة والجبخانه بدون معلوماتها. وما دام الأسلحة المذكورة محضرة على ذمتنا ولم تكن للتجارة فنرجو تسليمها لأولادنا لإيصالها لنا)⁽⁶²⁾.

وفي خطاب آخر حاول أن يعرض للأسباب التي اقتضت شراء الأسلحة (وحيث أن أرض الحرمين ملكية أمرت جماعتنا بمشترى الأسلحة لحماية أنفسهم فالآن إنكان - إذا كان - السلاح عجب الحكومة هلترسل - فلترسل - لنا أثمانها بحسب مشتراها التي ذكرناها وإذا استصوبت إرسال السلاح ترسلها)⁽⁶³⁾.

⁽⁶¹⁾ من سلاطين إلي علي دينار في 12/6/1907م، 30 ربيع الأول 1325هـ S.N.A. Intell 7/1/9

⁽⁶²⁾ علي دينار إلي سلاطين 25/11/1907م، 16 رمضان 1325هـ S.N.A. Intell 7/1/7

⁽⁶³⁾ Ibid .

فلئلا يكون فيما سبق ما يدعو إلى الشك في نواياه برهن السلطان على أن شراء السلاح لم يكن مقصوداً لذاته. وإنما اقتضته طبيعة مهمة المحمل والدفاع عن النفس في بلاد لا أمن فيها ولا استقرار. عل ذلك المسوغ يقنع الحكومة ببرد أسلحته. وتدرج في حججه من عرض الأسباب إلى أسلوب فيه استفزاز للحكومة عل ذلك يحرك ساكنها. وليطمئن الحكومة علي ولائه ويضمن إرسال الأسلحة إليه قام بإرسال محصله السنوي (64).

وقام بشكوى مدير كردفان لأسلوبه غير المستحسن في مخاطبته. وأرسل نموذجاً من كتابات المدير إلى المفتش العام بتاريخ 1907/11/25م، أردف قائلاً: (إن لويد مدير كردفان قد رأينا منه جملة أمور يكدر الخواطر ... لأن ألفاظ المكاتبات التي تصدر منه ألفاظ غير اعتنا - اعتناء ... إن سعادتكم تعرفوه إذا أراد مكاتبتنا يكاتبنا مكاتبة مستحسنة ... وهذا بعضاً لجنايبكم) (65).

إن مدير كردفان لا يمكن أن تصدر منه عبارات استفزازية تتنافى والسياسة العامة للحكومة الثنائية ودون علمها لا سيما وهي حكومة مركزية القرار. وأن تصرفاً كهذا قد يؤدي بالعلاقات الفوراوية الثنائية إلى الجحيم. وطلب السلطان من المفتش لفت نظره إلى مخاطبة السلطان بالأسلوب اللائق.

وحاولت الحكومة إيجاد طابور خامس داخل دارفور. بيد أن السلطان كان لهذه التدابير بالمرصاد ولعل الإشارة التالية تلقي الضوء على الجهد المبذول من قبل السلطان لحماية بلاده وتأمين استقلاله: (وما أقدم لسعادتكم هو أن منكود الحظ محمد طلعت قدم لدارفور منذ تسعة سنوات بصفة التجارة فوشت به جواسيس السلطان علي دينار أنه ... من الحكومة بصفة جاسوس وأن له إلمام بصنع المدافع والسلاح والبارود فوضعه بالسجن ... مدة خمس سنوات ... أطلق سبيله على شرط أن لا يبارح الفاشر فبقى أربعة أخرى تحت مراقبة رجال المظالم) (66).

(64) Ibid .

(65) خطاب آخر بنفس التاريخ S.N.A. Intell 7/1/9.

(66) اليوز باشا خليل إلى سلاطين في 18/2/1908م ، 1326/1/1 هـ S.N.A. Intell 7/3/9.

هذه الشكوى ضد السلطان ترينا إلى أي مدى كان متيقظاً لتدابير الحكومة الثنائية وتجسسها على بلاده. وأنه كان يبذل جهداً أمنياً عالياً لتأمين بلاده وحمايتها. وأن لديه استخبارات على مستوى عال تكشف خيوط لعبة الاستخبارات الثنائية.

ولئلا تسوء العلاقة الفوراوية الثنائية أو تصل حداً لا رجعة فيه استجابت لطلب سلاطين بشأن الأسلحة المصادرة التي تقدمت الإشارة إليها وبعث سلاطين ب خطاب إلى علي دينار بهذا الشأن ورد فيه (... ونظراً لكون الحكومة على ثقة من صداقتكم لها وامتثالكم لأوامرها فقد وافقت على طلبنا وأمرت بتسليم الأسلحة وهي 46 بندقية من أنواع مختلفة و1480 إطلاقاً جبخانة كبيرة، 449 إطلاقاً جبخانة صغيرة ... وليكن بعلمكم أنه في المستقبل إذا رغب أحد رجالكم يشتري أسلحة وجبخانة من أي نوع كان فعليه قبل المشتري أن يقدم طلباً للحكومة بالأصناف الراغب مشتراها وجنسها والجهة التي راغب المشتري منها⁽⁶⁷⁾.

أشتمل هذا ل خطاب على إشارات تعكس جهود الحكومة الرامية إلى كفكفة حركة السلطان الرامية إلى تقوية ترسانته وبنائها على القدر الذي يرضي طموحاته المستقبلية لحماية بلاده وتأمين استقلاله. وكانت الحكومة من جانب آخر ترمي إلى إحصاء قوة وعتاد السلطان.

في هذا الأثناء تعال السلطان عن تنفيذه لأوامر الحكومة وإيفائه بالتزاماته نحوها بالحصار المفروض على المتمرد سنين حسين⁽⁶⁸⁾. فهو أراد بتلك الإلتفاتة التخلص من التبعية الأسمية للحكومة الثنائية وحاولت الحكومة أن تقف موقفاً سلبياً من الحرب الدائرة بين السلطان والقائد المهديي سنين. فربما كانت تهدف إلى ضرب قوتين وطنيتين ببعضهما البعض. وشعر السلطان بذلك حيث قال (والعساكر المقابلين الحرب يطلبون مساعدة من عدة وجوه والحكومة لا كان تساعدنا لا بجباخين ولا بأسلحة نارية)⁽⁶⁹⁾.

⁽⁶⁷⁾ سلاطين إلى علي دينار في 17 / 2 / 1908م، 1326/1/10 هـ S.N.A. Intell 7/3/9

⁽⁶⁸⁾ السلطان إلى سلاطين، مايو 1908م A.B. Theobald. OP.Cit. PP. 76

⁽⁶⁹⁾ سلاطين إلى السلطان 16/8/1908م ، S.N.A Intell 7/1/9

وحاول سلاطين أن يفند ذلك وأن يبرهن على مساعدة الحكومة للسلطان بإطلاق سراح الأسلحة المصادرة⁽⁷⁰⁾. ولكن من المعلوم أن هذه الأسلحة لم تكن مساعدة. وإنما اشتراها السلطان من خارج أراضي الحكومة الثنائية من حر مال سلطنته. فهي لم تكن هبة أو مساعدة منها بقدر ما هي حق تم الاعتداء عليه من قبلها وتحت إلحاحه وطلبه رد عليه.

وفي هذا الأثناء طارت إشاعة مؤداها أن الحكومة جمعت ركابها واعدت عدتها لاستلام دارفور لذا طلب السلطان إيضاحاً بهذا الخصوص⁽⁷¹⁾ فأجاب سلاطين بقوله: (.. أن الحكومة لا تقصد جمع العساكر على حدود دارفور واستلامها منكم ... إن هذا الخبر محض إختلاق ولا نصيب له من الصحة ... إن هذا الخبر المخلوق ليس إلا أكذوبة سافلة)⁽⁷²⁾.

رغماً عن هذا التأكيد إلا أن السلطان كان في قرارة نفسه غير مقتنع تماماً بهذا التبرير الأمر الذي اقتضى تحرير تأكيد آخر من المفتش العام ورد فيه: (عاهدتكم بشرفي أن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تدخل جنودها إلى دارفور طالما أنكم قائمين بالصدافة نحوها ... وأنها لا تفكر أبداً في إخراجكم من بلد أقامتكم الحكومة عليها وهي كانت تحت أحكام آبائكم وأجدادكم فيما مضى من أيام)⁽⁷³⁾.

ورد في هذه التأكيدات أولاً: أن العلاقة القائمة بين الفريقين هي علاقة ندية وليست علاقة تبعية - وهذه الإشارة ذات مغزى استقلالي ثانيها: إن الحكومة هي التي أقامت السلطان على حكم دارفور. وهذه مغالطة تاريخية غير مسلم بصحتها مقدمة أو نتيجة، حيث أن السلطان قد استلم دارفور بالقوة وتغلب على منافسيه وأعلن نفسه سلطاناً دون موافقة أحد. وإن علاقته مع الحكومة الثنائية ظرف استثنائي ريثما يتقوى ويعيد الكرة على الحكومة الثنائية نفسها كما حدث في أواخر أيامه. ثالثها: إن دارفور

(70) المرجع السابق.

(71) من السلطان إلى سلاطين في 1908/7/22م، 17 جمادي الأولى 1326هـ. S.N.A. Intell 7/3/9.

(72) سلاطين إلى السلطان في 1908/12/28م، 26 شوال 1326هـ. S.N.A.Intell 7/3/9

(73) آخر من سلاطين إلى علي دينار في 1908/12/28م، 16 شوال 1326هـ. S.N.A. Intell 7/3/9.

هي مهد سلطنة آبائه وأجداده هذه حقيقة. رابعها: إن الحكومة لا تفكر في إقصائه عن سلطنة آبائه وأجداده. بهذا أراد سلاطين أن يهدئ من روع السلطان وأن يبدد شكوكه إزاء الحكومة الثنائية. بيد أن عبارة الحكومة لا تفكر أبداً في نزع السلطان فهذا نوع من الاستهلاك الظرفي بحكم العلاقات الراهنة. لأن الخطة الاستراتيجية لوجود بريطانيا في السودان هي الانفرادية بكل حدوده دون استثناء.

وعلى صعيد آخر ما فتئت القبائل التي تقيم على الحدود تواصل هجماتها. ولا زال السلطان يربط بين حركتها ودوافع الحكومة الثنائية لإضعافه وإقصائه. وفي الوقت ذاته كانت الحكومة الثنائية تنظر إلى القبائل الفوراوية من نفس الزاوية. واستغلت هذه القبائل الظرف القائم واستفادت من ذلك تبعاً لطبيعتها البدوية التي لا تلتين قناتها لسلطان مركزي أو تخضع لقانون حكومة أو نظام معين مما جعلها تهرب من الجهة التي تنشد تطبيق عقوبة ما عليها إلى الطرف الآخر مثيرة البلبلة ومسيئة التفاهم بين الطرفين. وهي ذات المشاكل الحالية في دارفور. فدارفور هي دارفور من حيث تركيبها السكانية وأقذارها الثقافية بيد أن الذي تغير الآن هو تسييس القضية وحصرها في ركن آسن من العرقية والإثنية التي تتبرأ منها دارفور وأهالي دارفور عبر تاريخهم المجيد. دارفور القراءان، ودارفور السلطان، ودارفور البوتقة الفريدة.

لذا انزعجت الحكومة الثنائية. ونوهت إلى ذلك بقولها .. (أن نظار قبائل الحمر قدموا لنا عدة تشكيات بخصوص عربانهم الذين يهربون إلى داخل حدود دارفور وتكون في ذمتهم مبالغ مطلوبة منهم من أجل الضرائب المضروبة إلى قبائلهم)⁽⁷⁴⁾. هذا يبدو إستغلال هذه القبائل لوضعيتها هروباً من الإيفاء بالتزاماتها تجاه الجهة التي تقيم بين ظهرانيها.

هذه الفترة امتازت بمطاطية العلاقة بين الفور والحكم الثنائي بالرغم من طولها. وحاول خلالها السلطان جهده لتقوية نفوذه وتثبيت أقدامه. وأبدى حرصاً ملحوظاً بأن لا يخسر جانب الحكومة الثنائية. وحتى لا تتعدد الجبهات ضده إذ كان يواجه سنين من

(74) خطاب آخر من سلاطين إلى السلطان في 1908/12/29 م S.N.A. Intell 7/3/9

الغرب خلال هذه الفترة. و لهذا السبب حاول أن يستفيد من علاقاته معها وأن يستنفد كل ما يمكن الحصول عليه منها لضرب القوة المهدوية الصاعدة على حدوده الغربية، وكانت الحكومة من جانبها ترغب في ضرب القوتين الوطنيتين ببعضهما البعض، ولا يتم ذلك إلا باستعداد إحداهما على الأخرى، حتى يتسنى لها القضاء على البقية الباقية من قوة المنتصر.

ولقد شكل الكبابيش خطورة بالغة على أمن واستقرار حدود دارفور مما جعل علي دينار يشكو أمرهم. وقد ضاق ذرعاً بالحكومة التي رأى في معالجتها قدراً من التواطؤ. وراودت السلطان الشكوك تجاه الحكومة في معالجتها لقضايا الحدود واتخاذها بعض الإجراءات التي رأى فيها اتساعاً لنفوذها وكفكة لجهوده التوسعية. أما الحكومة الثنائية فكانت بحكم واقعها واقعة تحت تأثير ظروفها حيث لم تكن على قدر من القوة التي تمكنها من فرض سيادتها الكاملة علي دارفور. لذ قنعت بالسيادة الإسمية عليها. وحاولت أن تفرض عملتها بيد أنها لم تجد إلى ذلك سبيلاً. وفطن السلطان إلى أبعاد هذه السياسة فتعلل برفض الرعية لهذا الإجراء. وخلال هذه الفترة بالرغم من طولها لم يتمكن مسؤول واحد من دخول دارفور ولو لساعة واحدة .

ومنذ تولية السلطان زمام الأمر وحتى نهاية 1908م لم يغادر العاصمة قيد شبر كما أنه لم يسمح لأي مسؤول من قبل الحكومة الثنائية بدخول بلاده أو إجراء مفاوضات مباشرة بينه وبين الحكومة الثنائية الأمر الذي يدل علي الروح الاستقلالية لدى السلطان.

لقد لعب سلاطين دوراً بارزاً في المحافظة علي مطاطية هذه العلاقات بين الحكومة والسلطان. وكان دوماً يقوم بدور المهدئ للأحوال المتوترة. إلا أنه بالرغم من ذلك لم يحظ ولو مرة واحدة بمقابلة السلطان الذي تعلل واعتذر بعدة أعذار واهية. ولقد ينس سلاطين من مقابلة السلطان فتنع في النهاية بإجراء المفاوضات مع مندوب علي دينار لما لم يكن بد من ذلك.

بإمكان المرء الادعاء بأن هذه الفترة على وجه العموم قد تمتعت بقدر من الهدوء رغماً عن النتوءات إلى بدت هنا وهناك من وقت لآخر نتيجة مشاكل القبائل (الحدودية). أو الوشايات أو رفض السلطان مقابلة كل من سلاطين والحاكم بصورة غير مباشرة أو قيام الحكومة بمصادرة الأسلحة الواردة دارفور من الحجاز.

وقد لعب سلاطين دور الوسيط بحكم وضعيته الوظيفية وإمكاناته الإدارية في إزالة هذه العراقيل التي اعترضت العلاقات الثنائية: إلا أنه بالرغم من ذلك استطاع علي دينار أن يحافظ على شعرة معاوية بينه وبين الحكيم الثنائي مع إدراكه التام أن الحكم الثنائي لا يرغب فيه ولا يرغب في وجوده ولكنه كان أمراً واقعاً. كما كان الحكم الثنائي بالنسبة لعلّي دينار واقعاً لا يمكن تجاوزه دون مراوغة أو لف ودوران. وفي ذات الوقت كان يتمتع بحس أمني عال وبقدرة إستخباراتية جيدة مكنته من البقاء طوال هذه الفترة إذ لو حدث اختراق أمني فاعل لما توانت الحكومة الثنائية في إزالته دون أدنى تردد.

الفصل الثالث

الفترة الثالثة 1909 – 1913م

ببداية سنة 1909م أرسل السلطان علي دينار خطاباً إلى الحكومة الثنائية معلناً إياها بهزيمته الساحقة لخصمه اللود سنين والدرأويش⁽¹⁾، عله أراد بذلك إثبات قدرته على كسر شوكة أعدائه، ونيل رضا الحكومة الثنائية ذات العداء المستحكم ضد الحركة المهدوية في البلاد. هذا في الوقت الذي طرأ فيه عامل جديد ينخر في جسد العلاقة الفورأوية الثنائية، ألا وهو التوسع الفرنسي نحو الشرق، وقد قام علي دينار بإخطار الحكومة الثنائية باعتداء الفرنسيين على حدوده ووصولهم إلى دار تاما. وفي الواقع بذا يكون الفرنسيون قد خرقوا الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية لاسيما المادة الثانية منها والتي تقضي باحترام الحدود التي تقع تحت نفوذ أي من الدولتين العظميين⁽²⁾. وقصد السلطان بإخطار الحكومة الثنائية بهذا الاعتداء أن تلعب دوراً بارزاً في كبح جماح الفرنسيين. وإن تقوم بدور الوسيط الفاعل في الحفاظ على حدوده. وليكسب موقفه قوة قام بإرسال الضريبة السنوية⁽³⁾ معلناً ولاءه من جديد مما يدل على وعي ودهاء ومكر سياسي. وفي الوقت ذاته أعلن احتجاجه على إجراءات الحكومة بشأن حبس بهائمه الأمر الذي عرضها لأمراض ضاع بسببها الكثير "وذكر بأنه: (سوف لا نرسل أي شيء من البهائم إلا إذا أتانا المخابرة من جانبكم)⁽⁴⁾ يعني الماشية التي كان يرسلها إلى الحكومة الثنائية لتسديد الضريبة السنوية بأثمانها.

(1) A.B. Theobald. Op.cit.pp.26.

(2) S.I.R. 190/62, May 1909.

(3) على دينار إلى سلاطين 1909/7/10م، جمادى الآخرة سنة 1327هـ S.N.A. Intel7/1/11

(4) من السلطان إلى سلاطين في سبتمبر سنة 1909م 5 رمضان سنة 1327هـ I bid.

يبدو واضحاً أنه بمنتصف سنة 1909، طفحت هذه المشاكل مرة أخرى على السطح وبات لها أثر واضح على العلاقات الفوراوية الثنائية. مثل مشكلة الفارين من دار فور إلى كردفان. ثم تجددت مشاكل القبائل (الحدودية)، وتكرار حوادث النهب والسراقات والحروب بين قبائل دارفور وشمال الصحراء في الماضي يؤكد على أن هذه الحروب الدائرة رحاها الآن بين قبائل دارفور ليست حديثة العهد، وإنما تشكل ظاهرة لها جذورها التاريخية وأبعادها الثقافية وهي لا تزال وستظل كذلك، ما لم تحدث خلخلة وهزة عنيفة وقوية وفاعلة في التركيبة القبلية والثقافية والاجتماعية وكيمياء عقل الإنسان الدارفوري في دار فور خاصة والسودان عموماً شماله وجنوبه وشرقه وغربه، والاستعاضة عن هذه المفردات الاثنية والجهوية والمواعين العرقية الضيقة التي تشبه حجر الضب، بمفردات وطنية تصب في خانة صالح الوطن الأم. وأحسب أننا في السودان بحاجة إلى صياغة مناهج تربوية حديثة غايتها صياغة الإنسان السوداني وفق رؤي وطنية تعالج ضعف الحس الوطني والانتماء القومي لدى المواطن السوداني لتكون قاسماً مشتركاً، ولتخرج به من حجر ماعون القبلية والعشائرية النتن إلى رحاب الوطن الأم، ولحظتها يكون الانتماء للوطن يعلو على الانتماء للقبيلة والجهة والطائفة والحزب. ومتي نجحنا في هذا المسعى المبارك يمكن أن نبني السودان الجديد وفق رؤية جديدة وبمفاهيم ومواعين حديثة تسع الكل في بلد المليون ميل مربع، وما لم نتجاوز هذه الأطر القديمة وتلك القيادات السياسية والفكرية والروحية العتيقة لا يقوم لهذا البلد قائمة على الإطلاق. ولا شك أن هذه الصراعات في تلك الفترة والآن كانت وستظل تقع ضمن سلسلة الصراعات الطبيعية والقبلية في أفريقيا. ولا شك أن إزكاءها كان ولا يزال يتم بتدخل وبدعم أجنبي وبقصر نظر وطني وبعمالة فاضحة كما هو الحال الآن. وفي ظل هذا الفهم يمكن أن يفسر التقدم الفرنسي نحو المناطق التي لم تتناولها الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية بالتفصيل يومها. والتدخل السافر للدول أوروبية الآن في شأن دارفور يقع ضمن هذا الإطار، سواء أكانت ألمانيا أو إسرائيل أو بريطانيا أو فرنسا ذوات الأمجاد التاريخية الاستغلالية في المنطقة والتي

تسمى زوراً إستعمارية⁽⁵⁾ - أو هكذا شاء لها المترجمون أن تترجم دون وعي أو إدراك - أو وريثتها الشرعية الولايات المتحدة الأمريكية. الأمر الذي احتمل لحظتها عدة تفسيرات أتاح لفرنسا أن تقنن بموجبه تقدمها تجاه سلطنات المساليت والقمر والتاما وسلا، والتي يعتبرها السلطان علي دينار واقعة ضيمن نفوذه. لذا استتجد بالحكم الثنائي⁽⁶⁾.

ومن جانب آخر كان السلطان حريصاً على استقلاله لذا عامل الحكومة الثنائية بالمثل حين تجاوز رجالاته حدود دار فور لجمع الضرائب من القبائل التي فرت من دار فور محتمية بحمي الحكومة الثنائية. ويبدو أن السلطان لجأ إلى هذا التصرف كرد فعل على سلوك سلاطين المتمثل في إرساله خطاباً لقبيلة الرزيقات والتي تعد من قبائل دار فور نتيجة حدوث شجار بينها وبين الدينكا. وإعتبر السلطان ذلك تعدياً على حقوقه وسيادة بلاده. واحتج على هذا التصرف بشدة مما اقتضى اعتذار سلاطين الفوري بقوله: (لأن المشاجرة حصلت في محل بعيد وعلى حدودنا من جهة بحر الغزال فكتب لهم هذا الجواب)⁽⁷⁾. وبالرغم من وجاهة هذا الاعتذار فإن السلطان حينما سلك نفس الأسلوب احتج سلاطين على ذلك، مؤكداً أن الحكومة إذا كان لها غرض أو أمر في داخل حدود دار فور لا ترسل جنودها إلى داخل الحدود لأجل إتمامه بل تكتب لجنايبكم⁽⁸⁾.

هذه الإشارة تكشف قدرًا من التناقض بين القول السابق واللاحق. وفي الوقت ذاته تلقي الضوء على بأس السلطان من معالجة الحكومة الثنائية الرخوة لمشاكل قبائل الحدود. لذا لا عجب أن قام رجالاته بتنفيذ ما يروونه من صواب تجاه هؤلاء الفارين

⁽⁵⁾ لأن مفهوم لفظة أو مصطلح استعمار مغاير تماماً للواقع، فاستعمار تعني في لغة العرب التعمير ومن ذلك قوله تعالى في سورة هود: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) الآية (61)، والمعنى الشائع يعني الاحتلال والاستغلال ولمعرفة الغرب لحساسية المواطن العادي في العالم المستغل ضد مصطلح الاحتلال ألبس الوجود الأجنبي نفسه ثوب زور وبهتان لتمرير أجندته على المواطنين في البلاد المحتلة، وكما يحدث الآن في العراق وفي أفغانستان وفي كثير من الأطروحات التي يرددها الكثيرون من الغفيلين الناقعين في بلادنا وفي بلاد المسلمين والأفارقة دون وعي من أبناء ما يسمى بالعالم الثالث تصيب في هذا الاتجاه .

⁽⁶⁾ A.B. Theobald. Op.cit .pp.882

⁽⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 1909/10/25م 11 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

⁽⁸⁾ آخر من سلاطين على دينار في 1909/10/25م 11 شوال سنة 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

المتمردين على القانون. ويقرر الخطاب الأخير أن هناك اتفاقية معقودة بين الطرفين مؤداها عدم الاعتداء واحترام السيادة الإقليمية لكل من البلدين حيث ورد فيه: (ولا يخفاكم أن دخول جنودكم إلى داخل حدود الحكومة لأجل هذه الغايات مخالف للاتفاقيات المعقودة مع جنابكم)⁽⁹⁾.

هذه الإشارة والسابقة لها تؤكد الفصل الواضح بين حدود الحكومة الثنائية وحدود دار فور باعتبارها بلداً مستقلاً ذا سيادة. وعلى ذلك يعتبر مؤشراً قوياً يؤكد على استقلالية هذه السلطة. وأن إجراء أي أمر داخل حدود الطرف الآخر لا بد أن يتم من خلال الطرف صاحب السيادة على أرضه والحدود الواقعة تحت سلطاته.

وبحلول أكتوبر سنة 1909م تجددت مشاكل قبائل الحدود واعتداءاتها، واحتج السلطان على إيواء الحكومة الثنائية لقبيلتي الميذوب والزغاوة ذاتي الأصل (الدار فوري). وهما قبيلتان مشهورتان بالسرقة والنهب يومها وربما إلى الآن. إذن لم يكن النهب المسلح والاعتداءات الجارية على الساحة في دار فور اليوم غريبة على طبيعة التركيبة الدار فورية في التاريخ الحديث والمعاصر. وإن تدرت الآن ببعض الأطروحات الوافدة علي بلادنا ، فهي إخفاء للحقيقة التاريخية المرة التي ينبغي مواجهتها بموضوعية وشجاعة وتحليل تاريخي ذكي، بغية الخروج من النفق المظلم إلى بلورة رؤية تعترف بالماضي بكل مراراته وحقائقه والحاضر بكل موروثاته ومشاكله ، وصياغة الحاضر واستشراف المستقبل وفق رؤية سودانية محلية بعيداً عن الأجندة الخارجية. وأما مسألة النهب والصراعات علي الكلاً والماء والمتاع في أفريقيا عموماً هي مسألة طبيعية من صميم نسيج التاريخ الإفريقي والسوداني والعربي عبر التاريخ القديم والحديث والمعاصر. وهو موروث ثقافي واجتماعي على قدر من البدائية عرفته البشرية عبر مساراتها التاريخية ليس في أفريقيا فحسب، وإنما في كل أنحاء العالم. وأشار السلطان في احتجاجه على أن هاتين القبيلتين هما سبب كثير من المشاكل وقد قامت الحكومة الثنائية بتعيينها في الجيش. الأمر الذي يوحي بالقصد في سياسية الحكومة وهو أمر غير مستبعد. لذا قاموا بتهديد رسله وظلوا يتوعدونهم بغزو دار

⁽⁹⁾ آخر من سلاطين إلى علي دينار في 1909/10/25م 11 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

فور⁽¹⁰⁾. يبدو أن هاتين القبيلتين كانتا سبباً في إثارة العديد من المشاكل. واستغلنا وضعيتهما بغية الاستفادة من إثارة القلاقل والفتن بين الطرفين. وأبدى السلطان إستعداده في حالة عجز الحكومة عن تقويمهما وإصلاح شأنها أن تردهما إليه وهو كفيل بذلك⁽¹¹⁾.

في هذه الأثناء أطل زعيم الرزيقات برأسه من جديد مظهراً عداوة أقضت مضجع السلطان الذي رأى أن لا فائدة ترجى من مسامحته والعفو عنه لما أورده في خطابه بقوله: (نحن سامحناه - موسى مادبو - وعفونا وأعطيناه الأمان التام ... ثم انه صار يظاهر جماعتنا بالعداوة ويوربهم أصناف الأسلحة والجبخانة مختلفة الأجناس يهدد بها جماعتنا ويفأشرهم بها ويقول أن هذه الأسلحة والجباخين مرسولة إليه من قبل الحكومة)⁽¹²⁾. ولم يقف موسى مادبو عند ذلك الحد بل تجرأ على التمرد المسلح بأن هاجم رجالات السلطان، الأمر الذي أقلق علي دينار⁽¹³⁾. وبدا يتشكك في نوايا الحكومة إزاءه مصداقاً مزاعم موسى مادبو التي قد لا تكون صحيحة. إذ ربما أراد مادبو بهذا التهديد والوعيد، واستعراض الأسلحة تخويف السلطان وإجباره علي معاملته له معاملة الند. ويبدو أن تدخل الحكومة من وقت لآخر لصالح موسى مادبو أمر يدعو إلى الشك والريبة.

هذا في الوقت الذي شكل فيه الزحف الفرنسي من الغرب صداعاً دائماً للعلاقات الفوراوية الثنائية. وأضحى علي دينار ينظر إلى القضية من زاوية واحدة وبمنظار واحد حيث يقول: (إن جميع حدود دار فور التي ملكوها آبائي وأجدادي ما دمت حياً في الدنيا لا نتركها لدولة فرنسا إلا نكون ميتاً)⁽¹⁴⁾. إذأ حدود دارفور هي حدود دولة آبائه وأجداده. وأن حكمه لها عن أحقية تاريخية لا منحة. ولم لا؟ وهي تلك الحدود التي لم يتسن لمسنول أوربي حتى سنة 1909م تجاوزها. هذا بالرغم من ولائه الإسمي

⁽¹⁰⁾ من السلطان إلى سلاطين في 1909/10/28م، 14 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/1/11

⁽¹¹⁾ من السلطان إلى سلاطين في 1909/10/28م، 14 شوال 1327هـ I bid

⁽¹²⁾ خطاب من السلطان إلى سلاطين في شوال 1327هـ - نوفمبر سنة 1909م I bid

⁽¹³⁾ نفسه من السلطان إلى سلاطين أواخر شوال سنة 1327هـ - منتصف نوفمبر 1909م S.N.A. Intel 1/1/2

⁽¹⁴⁾ من السلطان إلى سلاطين أواخر شوال 1327هـ - منتصف نوفمبر 1909م S.N.A. Intel 1/1/2

وعلاقته الودية مع الحكم الثنائي. وبمقتضى هذا الحق التاريخي الموروث فإنه يعرب عن موقفه الثابت تجاه أي إعتداء على بلاده. ويؤكد على المقاومة والوقوف بشراسة ما دام حياً. وعله بذلك أراد تنبيه الحكومة الثنائية إلى طبيعة علاقته بها وأنه رقم صعب في المعادلة السودانية وفي وجه الوجود الأجنبي بالبلاد.

خشيت الحكومة الثنائية من تطور الأحداث وجرها إلى حرب كبرى مع مناقستها في أفريقيا فرنسا. وهذا شأن غربي قديم حديث تركزت معالجته بشفافية في المواجهة الإنجليزية الفرنسية في أكثر من موقف وموقع في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وفي النصف الأول من القرن العشرين كما تكرر أسلوب المعالجة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في النصف الثاني من القرن العشرين في كوبا كاسترو. فحاولت الحكومة الإنجليزية بالسودان تهدئة روع السلطان بتلغراف ورد فيه: (نحيطكم علماً بأن حدودكم معلومة جيداً للفرنسيين ... وسوف لا يخترق الفرنسيين حدودكم ... ويجب ألا تخافوا ما دتم مخلصين ولائكم للحكومة الثنائية)⁽¹⁵⁾. ولم تدع الحكومة الثنائية هذا الظرف يمر دون العزف على وتر الإخلاص للحكومة الثنائية والولاء لها. إذ حاولت انتهاز هذه الفرصة والإلقاء في روعه أن مساعدته في مواجهة فرنسا رهينة بولائه لها. وفي الواقع أن هذا التلغراف لا يعدو عن كونه تهدئة خاطر، و محاولة غايتها المحافظة على العلاقة القائمة بين الطرفين من غير أن يستتبع ذلك حل جذري عاجل، الأمر الذي كانت له آثاره السالبة من خلال هذه الدراسة على العلاقة الفوراوية الثنائية. وقد شكلت هذه المشكلة قضية هامة في مسار العلاقة بين الطرفين مدة حكم السلطان علي دار فور. وببداية سنة 1910م بعث السلطان بخطاب يعكس فيه وجهة نظره إزاء هذه القضية. حيث أكد علي أن السلطنة إرث له من قديم وكذلك الأقاليم التابعة لها. وأنه لن يتنازل عن هذا الحق قيد أنملة حتى آخر قطره من دمه. وهدد بصريح العبارة أنه سيواجه الفرنسيين في حالة اختراقهم لحدوده⁽¹⁶⁾.

(15) تلغراف من مدير المخابرات إلى السلطان في 1909/12/28م A.B. Theobald. Op. cit. pp. 94.

(16) خطابين من وتجت إلى غور ست، في 1910/2/17-16م S.N.A. Intel 1/1/1

ويظهر جلياً أن قضية الغزو الفرنسي لحدود دارفور قد جعلت الحكومة في موقف حرج مع السلطان. وكانت محك تجربة قاسية يصعب تجاوزها دون أن يترك ذلك أثراً بالغاً على العلاقات بين الطرفين. وأبدت الحكومة الثنائية اهتماماً بالقضية، لئلا تفقد ولاء السلطان الأسمى لها على الأقل في الوقت الراهن. وحتى لا تضطر من جانب آخر لتدخل عسكري هي ليست على استعداد لخوضه في ذلك الوقت. لذا قام الحاكم العام بإرسال خطابين إلى المندوب السامي البريطاني بالقاهرة فحواهما: (أن الأوضاع في دارفور ووداي أصبحت غير محتملة. وأن تكوين لجان لمفاوضات ستتعرض للخطر كما أن أي تحرك في الوقت الحالي قد يهز موقفنا لدى السلطان علي دينار فيشك في نوايانا)⁽¹⁷⁾.

وهذين الخطابين كانا رد فعل لخطاب علي دينار إليه حيث أورد في أحدهما قوله: (وفي يوم 16 استلمت خطاباً من علي دينار يشير فيه إلى الغزو الفرنسي لدار مساليت ويطلب إضاءة النور الأخضر له للقيام بهجوم على الفرنسيين. إلا أن سلاطين باشا هدا من موقفه. وبرر له ذلك بأن المسؤولين الفرنسيين في وداي قد ارتكبوا ذلك نتيجة خطأ. وأرى أنه من الأحسن إفهام الفرنسيين بأن دار مساليت داخلية ضمن الحدود الدار فورية. وأن السلطان قد طلب تعويضاً لاخرق حدوده)⁽¹⁸⁾. يعكس ذلك الخطاب مدى القلق الذي عايشته الحكومة الثنائية وخوفها من تطور الأحداث وخروج الأمر وانفلاته من يديها. وتؤكد علي ذلك الخطابات التي تداولتها دواوين الحكومة والدوائر البريطانية في كل من الخرطوم والقاهرة. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر الخطاب الوارد من مدير المخابرات بالخرطوم إلى مدير المخابرات بالقاهرة في 17/2/1910م والذي ورد فيه: (لقد كانت حكومة الخرطوم تكبح جماح علي دينار هذا بالرغم من أن علي دينار قد هدد بالاستجابة للاستفزازات الفرنسية المتكررة والتي وصلت حد الاعتداء على حدوده)⁽¹⁹⁾. هذه دلالة قوية على القلق الذي عايشته الدوائر البريطانية سواء

(17) خطابين من ونجت إلى غور ست، في 16-17/2/1910م S.N.A. Intel 1/1/1

(18) خطابين من ونجت إلى غور ست، في 16-17/2/1910م S.N.A. Intel 1/1/1

(19) B.I.D. 1/1/21

أكانت في القاهرة أم في الخرطوم. ومحاولة الحكومة الثنائية البحث عن حل يحفظ لها ماء وجهها لدى السلطان والقوى الأوروبية المنافسة لها على الحلبة الأفريقية. هذا بالإضافة إلى المصالح البريطانية ذات البعد الإستراتيجي في المنطقة على العموم.

ولم يقتصر الأمر على المشكلة الفرنسية وآثارها المترتبة على طبيعة العلاقة الفوراوية الثنائية. إذ تجددت الشكوى ضد مأمور النهود ممثل الحكومة الثنائية، وارتكابه لبعض المخالفات المنافية لمبادئ العدالة. حيث قام السلطان بمحاربة تجارة الرق. بيد أن تجار الرق قد وجدوا الحماية من مأمور النهود وبدأوا في الانتقام من رجالات علي دينار القادمين من دار فور إلى النهود: (ويخلصوا منه الطاق طاقين وعليه أرجو أن يصدر لمأمور النهود لأنه ثاني إذا حصل مشكل علي بعض الناس التابعين لحكومتنا لا يفصل بينهم بذاك الطرف الأولى أن يرسلهم إلي طرفنا)⁽²⁰⁾. وردت إشارتان هامتان في هذا الخطاب، أولاهما: محاربة تجارة الرق، وهذا وجه مشرق يلقي الضوء على جانب هام من شخصية هذا السلطان ويضاف إلي رصيده الإيجابي، حيث امتاز بروح إنسانية عالية دفعته لمحاربة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان دون وجه حق شرعي. ثانيتهما: أن له حكومة مستقلة، هي التي تطبق القوانين على رعاياها. لذا يرى أن تطبيق أي عقوبة على رعاياه من قبل الحكومة الثنائية يعد تعدياً صريحاً على حقوقه الاستقلالية وحقه السيادي، الذي تنازل عنه الكثيرون من حكام اليوم في بقاع كثيرة من الأرض خوفاً علي كراسيهم القائمة علي كئيبان من الرمل، وإرضاء للقوي الكبرى على حساب كرامتهم وكرامة شعوبهم. فهانوا علي أنفسهم واستهان بهم أعداؤهم من كل حذب وصوب وذلك على المستوى الأفريقي والعربي والإسلامي والآسيوي دون استثناء .

وأرفق السلطان ما مضى بخطاب آخر قرر فيه أن حدود تاما ومسالييت واقعة ضمن حدود سلطة دار فور منذ زمن بعيد. وبعد مجيئه للعرش تحت حماية الحكومة الثنائية التي يطلب منها أن تبدل جهدها في إقناع الحكومة الفرنسية بذلك لوقف اعتدائها

(20) علي دينار إلى سلاطين في 18/2/1910م 8 صفر سنة 1328هـ - bid 2/2/12

على حدوده، وإن لا فإنه على استعداد ثقة بالله للمقاومة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً⁽²¹⁾. بذا قرر أصالة هذا السلطنة. وأنها امتداد لجذور ضاربة في شعب الزمان. وأن النظام القائم ما هو إلا استئناف لما كان قائماً. وإن لا لما كان هناك من داع لادعاء الحق التاريخي في هذه المناطق التي أشار إليها.

وعبارة (بعد مجيء العرش) عبارة ذات دلالة تفيد أن تنصيبه لم يتم وفق إرادة الحكومة الثنائية. لا سيما إذا علمنا الظروف التي وصل فيها إلى العرش والكيفية التي جاء بها. أما الإشارة إلى حماية الحكومة الثنائية فهي مما اقتضاه ظرفه السياسي الراهن، ووقوعه بين مقلب قوتين مفترستين أحلاهما مر. إلا أنه قد سبر غور أحدهما فتزلف إليها ولكن بكبرياء وشمم. حيث احتفظ لنفسه بحق التحرك والاستقلال والدفاع عن تراب بلاده معتمداً على قوة كبرى لا تدانيها قوة على الإطلاق أشار إليها بقوله: (ثقة بالله ... إلا أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً). وهذه أمثلة صورة للتوكل مؤداها إستنفاد كل الوسائل المتاحة وإستخدام كل الإمكانيات المستطاعة. ومن جانب آخر لم تهمل الحكومة البريطانية هذه القضية لإدراكها لأبعاد سياسة فرنسا في المنطقة والتي كانت ترمي إلى الوصول إلى أعالي النيل. وذلك في سياق نطاق سباق القوى الأوروبية حول - أرض النيل - في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي. فإلى جانب بريطانيا كانت هناك فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا⁽²²⁾. لذا لا غرابة أن أولت الحكومة الثنائية والدوائر البريطانية اهتماماً كبيراً. بيد أنه لم يتجاوز المساعي الدبلوماسية حيث أبرق الحاكم العام السلطان بتاريخ 19910/3/26م مفيداً إياه بأن الحكومة الفرنسية قد أكدت بأنها لن تخرق حدود دار فور. وأشار إلى أن الأسلحة التي طلبها السلطان قد تم شحنها من لندن وستصل خلال أيام معدودة. وطلب من السلطان أن يعاقب عددًا من المسلحين الذين اعتدوا على الكبابيش⁽²³⁾.

(21) علي ديتار إلى الحكام العام في 20 فبراير 1910م 10 صفر 1328هـ I bid 2/2/12

(22) Patricia Wright: conflict on the Nile. London First edition. By Cox & wyman LTd. 1972p. ix 63 - 60. See also P.M Holt : A modern history of the Sudan from the Funj sultanate to the present day. third. Ed. redwood ltd. London. 1974. p. 104-5.

(23) S.N.A. Intel. 1/1/1.

يبدو أن الحكومة لعجزها عن عمل شيء حاولت أن تكسب السلطان لجانبها بأي صورة وبأي كيفية، وان تلجأ إلى الوعود الكاذبة والتسويق إذ لا يعقل أن تأتي أسلحة من لندن من أجل السلطان تعزيزاً لسلطته على حسابها في الخرطوم الأمر الذي يمكن أن يهدد استراتيجية احتلال السودان والوجود الإنجليزي في أفريقيا عمومًا. بيد أن الوعود الكاذبة أسلوب استعماري قديم حديث معاصر ينخدع به المغفلون من الساسة وتجار السياسة الذين يفتقدون الحس السياسي، والوعي التاريخي والقدرة على التعامل مع مفردات التاريخ بذكاء. كما يبدو من جانب آخر تداخل المشاكل وتشابكها في هذه الفترة وفي هذه المنطقة بالذات، فبالرغم من خطر التوسع الفرنسي وسيطرته على مسيرة العلاقة الثنائية الفوراوية فإن المشاكل الحدودية كانت تطل برأسها من وقت لآخر على منوال واحد ودون انقطاع كما هو الحال الآن.

وقد اعتمدت الحكومة الفرنسية اللجوء إلى المراوغة حيث اعتمد الحاكم العام البريطاني، في تأكيده الماضي على خطاب جراي وزير الخارجية البريطانية إلى غورست بتاريخ 19 مارس 1910م. والذي ورد فيه أن سفير بريطانيا بباريس قد أكد له بأن الحكومة الفرنسية ستبرق قواتها في وداي لإخطارهم بعدم اختراق الحدود الدار فورية⁽²⁴⁾. فعبارة: (إن الحكومة ستبرق إلى قواتها في وداي بعدم اختراق الحدود الدار فورية. هي عبارة تسويقية لتجد القوات الفرنسية في وداي مبرراً لتحركاتها الآتية، وفي الوقت ذاته فإنها ستعطي الحكومة الثنائية والبريطانية عذراً أمام السلطان، وهي تشكل مخدراً غايته أن يعوق حركة السلطان وأملاً يعلق عليه حل القضية الراهنة التي أصبحت تشغل جل تفكيره. وطلب الحاكم العام من سلاطين أن يكتب خطاباً إلى السلطان بغية تهدئته وإقناعه بأن الحكومة البريطانية قادرة على حل القضية سلمياً بواسطة سفيرها في باريس. وأنه بصدد إرسال مجموعة لتحديد ورسم خريطة للحدود بين الدولتين وداي ودار فور. وطلب منه تهدئة السلطان ما أمكن حتى تنهيا الفرصة لاختيار ممثلين للبلدين لتحديد الحدود بينهما⁽²⁵⁾.

⁽²⁴⁾ F.O. 407/175. sir F. Bertie to Sir Grey, 18 march 1910.

S.N.A Intel 7/5/11

⁽²⁵⁾ الحكام العام إلى المفتش العام في 1910/3/26م

تلقي الإشارة الأنفة الضوء على مدى التسويف الإنجليزي والحرص السياسي الذي وقعت فيه الحكومة الثنائية. فحاولت استخدام كل الوسائل والوعود بغض النظر عن جديتها ومصداقيتها في هذه القضية الهامة. حتى ولو كانت هذه الوسائل أضعف من خيوط العنكبوت. لأن الحاكم العام حتى هذه اللحظة قضارى ما يملكه من معلومات لم يتجاوز خطاب جراي الماضي. والذي لم ترد فيه كل هذه التفاصيل الدقيقة. ومن جانب آخر فقد قام سلاطين بالدور المناط به من إرسال تلغراف الحاكم العام إلى السلطان وإرفاقه بخطاب تفصيلي غايته أن يطمئن السلطان على جدية الحكومة الثنائية وقدرتها على الحل⁽²⁶⁾. وأدركت الدوائر الحكومية الثنائية من جانبها أن السلطان قد ظل يعلق عليها أملاً كبيراً لحل المشكلة القائمة بينه وبين فرنسا⁽²⁷⁾.

ومع كثرة احتجاجات السلطان لجأت الحكومة الثنائية إلى تبرير مواقف الحكومة الفرنسية وتحركاتها. لاسيما بعد حدوث أول اشتباك جري بين القوات الفرنسية والقوات الدار فورية في دار تاما. وأبدى السلطان أسفه من موقف الحكومة الثنائية في حربه ضد الفرنسيين محاولاً استفزاز الحكومة عليها تتحرك بقوله: (... إن كانت للحكومة الثنائية مصلحة داخل دار فور أن تسعى لإيقاف هذه الاعتداءات الفرنسية)⁽²⁸⁾. فبرر سلاطين التحرك الفرنسي بأنه غير مقصود وهو خطأ غير متعمد وأشار إلى أنه بعد الإيضاح سوف لا يتعدى الفرنسيون على حدود دار فور مرة أخرى⁽²⁹⁾.

هذه الخطوات من الحكومة الثنائية لا تعدو عن كونها تهدئة مؤقتة. وكفكة لتحركاته خشية اصطدام الجانبين وإحراج الحكومة الثنائية القائمة بحماية المصالح البريطانية في المنطقة.

وشعر سلاطين بضعف أدلته ومبرراته السابقة التي بعث بها إلى السلطان. فقام بكتابة خطاب آخر قاد فيه أدلة تبرر الهجوم الفرنسي على أنه غير مقصود، فحواها أن

S.N.A Intel 7/3/1

(26) تلغراف من سلاطين إلى السلطان في 1910/3/26

(27) من الحاكم العام إلى غورست المندوب السامي البريطاني في 1910/4/17م S.N.A Intel 7/3/11

S.N.A Intel 1/1/1

(28) من السلطان إلى كل من الحاكم العام وسلاطين في 1910/4/18م

S.N.A Intel 1/1/1

(29) من سلاطين إلى السلطان في 1910/4/23م ربيع الثاني 1328هـ

الأهالي هم الذين أوحوا إلى الفرنسيين بأن تلك الجهات تابعة لودّاي: (وقد حدث إيضاح الحدود الفاصلة بين دار فور وودّاي ووافقت عليها الحكومة الفرنسية)⁽³⁰⁾. وهذا التأكيد جاء باعتباره رد فعل عاجل لموقف السلطان الأخير، والذي اعتذر فيه عن إرسال التزاماته السنوية لانشغاله بجبهة حدوده الغربية⁽³¹⁾.

وفي هذه الأثناء حدثت تعديلات من عربان البديات والقرعان والميدوب على حدود الحكومة الثنائية. فجأ سلاطين بالشكوى نيابة عن عربان الكبابيش⁽³²⁾. أملاً في أن يكبح السلطان جماهم. يؤكد ذلك علي تشابك القضايا واستغلال القبائل الحدودية لوضعها على الحدود. وعدم خضوعها لأية سلطة مركزية وفقاً لطبيعتها البدوية التي لا تدين لقانون أو سلطان بالطاعة المطلقة لتركيبها الثقافية. وأن تحركها كان وما زال وسيظل يتم بعفوية تقتضيها مصلحتها الوقتية من كلاً ومرعي وسلب ونهسب دون إعتبار بالنتائج. إذا قرأنا مفردات الماضي بعوي نستطيع أن نستوعب معطيات الحاضر ونستشرف رؤية المستقبل بعقلانية وبذكاء تاريخي يجنب البلاد والعباد كثيراً من الأخطار المحدقة بهما. وبالتالي فإن ما يجري الآن في دارفور هو مسألة ذات جذور تاريخية ومكانية وعرقية وثقافية وحضارية. بيد أن السياسة وأجندتها قد أضرت بهذه القضية استغلالاً لها بصورة رديئة ونتتة مما دفع بالقوى الأجنبية وبتشجيع من الجهات المتشاكسة سياسياً أن تحشر أنفها في كل دقائق هذه المنطقة. وفي تقديرنا أن الحل بيد أهل المنطقة وأهل المنطقة وحدهم وهم كثر يتبوأون مناصب سيادية وقيادية وعسكرية وسياسية قل ما توفرت لسواهم ولكنها البركة التي نزلت منهم مع كثرتهم وأقدارهم الثقافية والاجتماعية. وما يمكن تقريره في هذا المجال أنه لا يمكن أن يفرض علي دار فور أي مستوى من الحلول من الخارج تحت أي مسمى كان . ومهما كانت المبررات لأن هذه قضية سودانية وستظل سودانية مهما حدث من اختراق أو تجاوز في ظل أي فترة من فترات التاريخ الحديث والمعاصر.

(30) آخر من سلاطين إلى السلطان في 1910/4/23م ، 13 ربيع الثاني 1328هـ S.N.A Intel 7/3/11

(31) I Bid

(32) I Bid

وعلى صعيد آخر شعرت الدوائر الإنجليزية بخطورة الموقف وأرادت الاستعجال لحل الإشكال الفرنسي الفوراوي القائم دبلوماسياً ودون اللجوء إلى القوة. حتى لا تضطر للتدخل غير المفضل في دار فور⁽³³⁾. وحتى لا يتهم من قبل الدول الأوربية المنافسة لها بالضعف إزاء القوة الفوراوية المستقلة. لا سيما إذا ما تمادت فرنسا في تعدياتها وحاولت الحكومة الثنائية بسط يدها على دار فور باعتبارها جزءاً من الأراضي التي تحت حمايتها. وهي في الوقت ذاته مدركة تماماً لنظرة علي دينار وموقفه الاستقلالي وعدم سماحه لأي قوة أجنبية باختراق أراضيه. وإن إقتضى ذلك روحه وزوال سلطانه. ويكفي أنه حتى اللحظة لم يسمح لأي مسؤول أوربي باختراق أراضيه البتة. ووردت للسلطان تهدة أخرى فحواها: (أن الأوامر المشددة قد صدرت من قبل الحكومة الفرنسية لجنودها وقائدها في وڤاي بعدم الإعتداء. إذا استدعى الأمر إلى تحديد الحدود فإننا سنرسل مندوباً من الحكومة لمقابلة المندوب الذي تعينونه للنظر في هذا الإشكال)⁽³⁴⁾.

لا يلوح في الأفق ما يستتبع ذلك الحديث من نتائج. إذ لا يزال الأمر غامضاً والمشاورات في أوساط الدوائر البريطانية جارية بصدد تقديم اقتراح يقتضي إرسال مندوبين عن الحكومة الثنائية والحكومة الفرنسية لحل الإشكال القائم. وكانت الحكومة الفرنسية من جانبها لا ترى إلزامية الاتفاقية القائمة بين كل من فرنسا وبريطانيا سنة 1899م حيث لم تنص صراحة على أن كلاً من دار مساليت ودار تاما واقعة تحت حدود دار فور الأمر الذي جعلها تتحرك بحرية تامة⁽³⁵⁾. الأمر الذي جعل وعود سلاطين لا تعدو عن كونها تهدة أنية. وتكررت بعدئذ الاعتداءات الفرنسية ودخلت القوات الفرنسية داري تاما والمساليت وتلطفت الحكومة الثنائية في اعتذاراتها هذه المرة للسلطان مبررة ذلك بأن هاتين الدارين قد آوتا محمد صالح دود مرة السلطان الوڤاي الهارب وأن دخول فرنسا إليها ليس بقصد الإستيلاء عليهما⁽³⁶⁾. وإنما تم ذلك بقصد مطاردة سلطان وڤاي..

(33) مدير المخابرات ميرالي بالقاهرة إلى السكرتير الخاص في 24 مايو 1910م S.N.A Intel 1/1/1

(34) المفتش إلى السلطان في 1910/6/5م 16 جمادي الأولى 1328هـ S.N.A Intel 1/1/1

(35) أستاذك مدير المخابرات بالقاهرة إلى مساعده بالخرطوم في 1910 /6/14. S.N.A Intel 1/1/2

(36) ملني إلى أستاذك في 14 يونيو سنة 1910م S.N.A Intel 1/1/2

ويبدو أن التقرير الفرنسي للتدخل لا يدعو عن كونه ذر رماد في العيون لئلا تثير القوى الأوروبية المنافسة في المنطقة. ولكي تغلف أهدافها الاستعمارية التوسعية المكشوفة عللت الاستيلاء بالبحث عن عدو هارب وجد ملجأ لدى هذه الديار. ولا يخفي علي الحكومة والبريطانية حقيقة الأمر ولكنها حاولت بقدر الإمكان عدم إثارة حرب في هذه المنطقة في الوقت الراهن لعدم إستعدادها وضعف حجتها. وشعرت الدوائر البريطانية بدقة الموقف. فأجرى سلاطين اتصالات مكثفة أثناء وجوده في لندن. وأعدت مذكرة ضافية عن الخلافات حول الحدود بين وداي ودار فور وقابل كلاً من وزير الخارجية البريطاني ورئيس الوزراء⁽³⁷⁾.

وفي هذه الأثناء تحركت جماعة موسى مادبو⁽³⁸⁾ (الرزىقات) الأمر الذي أغضب السلطان لاسيما في هذا الطرف العصيب وأرسل يتهددهم ويتوعد زعيمهم مادبو وأعلن الحكومة بما سيقدم عليه. ويطلب منها بعدم إيوائه بقوله: (وقد توجهت أفكاري في هذا العام بضربهم وإخراجهم جزاء بما ارتكبوه من العصاوة... وربما موسى المذكور يهرب ويتوجه إلى الحكومة فنرجو أنها لا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً بل يزيد من عدالة الحكومة سجنه أو إرساله إلينا)⁽³⁸⁾. كان بإمكان هذه القوى المحلية الإتحاد وتشكيل خطورة بالغة على القوة الاستعمارية لو تمكنت من تجاوز مطامعها الوضيعة وتفوقت علي أقدارها الذاتية ونظرت بعين البصيرة النافذة. بيد أن ذلك قدر من أقدار هذا الوطن الحبيب بأن يبثلي بقيادات قاصرة النظر لا تنظر إلا تحت قدميها، ولعل المشكلة الأساسية تكمن في تربيتنا التي لا تخلو من اثر صوفي سالب والذي يجعل ذات الفرد هي المحور الأول والأخير علي حساب المصلحة العامة والوطن وما أشبه اليوم بالبارحة، كما أن حب الزعامة وطبيعة القبائل البدوية حالت دون تحقيق ذلك الهدف. وفي المقابل استفادت من هذا الوضع الحكومة الثنائية المحتلة. وحاول السلطان أن يدير خيوط اللعبة ذاتها بذكاء ولكن بعد قوات الأوان كما سيأتي ولم يكن لهذه القبائل (الحدودية) هم سوى السلب والنهب. فهي لا تدعن لسيادة واحدة أو سلطة مركزية ولا

⁽³⁷⁾ مدير المخابرات بالقاهرة إلى مساعده بالخرطوم في 1910/7/21م A.B.Theobald.op.cit.pp 96

⁽³⁸⁾ من السلطان إلى سلاطين في 1910/7/24م 17 رجب 1328هـ S.N.A .Intel 1/1/1

تدين لقانون بعينه. هذا التقرير يشير إلى طبيعة وجذور الصراع الدائر الآن في دارفور، فهو ليس حديثاً وليس له أدنى ارتباط له بنظام سياسي محدد بقدر ما هو قدر ثقافي واجتماعي يرتبط بطبيعة التكوين السكاني والجغرافي في دارفور. وليت الساسة يدركون أبعاد هذه القضية ويتركوا المتاجرة بقضية دارفور في الداخل والخارج، ويجلسوا على بساط واحد ليجتمعوا على كلمة سواء هدفها أولاً وثانياً وثالثاً: السودان ومواطن دارفور الذي لا ناقة له ولا جمل في صراعات تجار السياسة كما قالت فاطمة احمد إبراهيم نائبة الحزب الشيوعي في البرلمان في منتصف الستينات من القرن العشرين.

هذا إضافة إلى أن منطقة دارفور مهما قيل عنها وعن صراعات القبائل فيها ومنذ أزمان بعيدة إلا أنها كانت مقدور عليها محلياً عن طريق الشيوخ والسلطين ورؤساء القبائل. قبل أن يظهر جيل الفنادق والتكسب السياسي في ظل الغيبوبة السياسية التي تسود المنطقة الأفريقية والعربية كلها والسودان علي وجه الخصوص. ولعل من الأخطاء الكبيرة من الناحية التاريخية في السودان حل الإدارة الأهلية بدلاً عن ترقيتها وتحسين أدائها وتطويرها بما يتلائم مع طبيعة المرحلة. بيد الانسياق من غير وعي في كل مرة مع كل طرح جديد والجري وراء أطروحات الشيوعيين الفاشلين في نهاية ستينات القرن العشرين واستجابة المغفلين النافعين من عسكريين وسياسيين يومها لهذه الأطروحات الفطيرة الفجة دون وعي تاريخي أضر بالبلاد والعباد وكان حصاده هذا الذي نراه ونعيشه الآن . وأهلنا يقولون (اللي ما ليهو كبير يفتش ليهو عن كبير) فقد كان هؤلاء الشيوخ والنظار والعمد مكن خبرة وحكمة وتجربة فتناول عليهم من لا اصل له ولا فصل من صنائع اليسار ومن دار في فلكهم دون وعي فقضوا علي هذا الإرث في يوم وليلة دون تدبير بديل يمكن أن يملأ الفراغ. وبشأن الوضع في دار تاما ظل الوضع متوتراً وحاول السلطان أن يستثير حماساً لدى الحكومة الثنائية بنقله مقتل أحد الإنجليز هناك ويعرب عن أسفه البالغ لهذا الأمر بل ويبيدي استعداداً لتدمير دار تاما ثاراً لذلك القتل. وإن اعترضته القوات الفرنسية فإنه لا يبالي بها⁽³⁹⁾. وبتفويض من السلطات البريطانية التقى سلاطين بالمندوب الفرنسي والوزير المفوض في

القاهرة، وناقش معه أمر الحدود بين وُدَّاي ودار فور وحصل سلاطين من المندوب الفرنسي على تأكيدات مؤداها عدم تكرار الاعتداء من قبل الفرنسيين على دار مساليت ودار تاما. ويقتضي الأمر من علي دينار التعهد بعدم إيواء دود مرة. بيد أن الفرنسيين لم يلتزموا بهذا الاتفاق وقاموا بخرقه مما أثار سخط سلاطين فأرسل مذكرة احتجاج ضافية مضمناً إياها تأكيدات المندوب الفرنسي له بعدم الاعتداء علي دارفور (40).

وفي الوقت ذاته لم يتوان سلاطين عن إرسال خطاباته المهدئة للسلطان محذراً إياه من الاعتداء أو إيواء الهاربين من القوات الفرنسية، وواعداً إياه بالحلول الجذرية لمشكلة الحدود. بيد أن ما يدور على المسرح حقيقة كان خلاف هذه التأكيدات. وشعر سلاطين في قرارة نفسه بهذه الحقيقة المرة فعبّر عنها في رسائله إلى الحاكم العام (41). واقتنع الأخير بوجهة نظر سلاطين. وكان مقدراً لموقف الحكومة الثنائية إزاء علاقتها بالسلطان. لذا لا غرابة أن أشار في خطاب بعث به إلي الحاكم العام إلى المندوب السامي البريطاني في القاهرة يبين له فيه بأن الحكومة الثنائية في السودان قد بذلت جهوداً مضنية بصدد هذه القضية. وأجرت مفاوضات مع علي دينار بشأن الحدود بين دار فور وودَّاي (42). وتطرق سلاطين في رواه تجاه القضية مبدئياً تعاطفاً شديداً تجاه السلطان وإحساساً مفرطاً منه بخطورة الموقف حيث أشار في خطابه إلى الحاكم العام: (بأن السلطان غير مسؤول عن السلام ما لم يتم الاعتراف أولاً بحدود دولته التي وافقنا عليها منذ البداية) (43). وعلي صعيد آخر فإن سلاطين كان يقوم بوظيفته علي الوجه الأكمل تجاه السلطان حيث درج علي التسوية ومطاطية الحلول. ومحاولة كبح جماح السلطان والمحافظة على العلاقة القائمة بين الطرفين. وإشعار السلطان بأن الحكومة الثنائية قادرة على حل الإشكال القائم.

يبدو أن هذه التأكيدات قد انطلت على السلطان كما انطلت تأكيدات المندوب الفرنسي على سلاطين من قبل. لذا لا عجب أن أرسل السلطان خطاباً يشكر فيه جهود

(40) S.N.A Intel 1/1/2

S.N.A Intel 1/1/1

S.N.A Intel 1/1/2

S.N.A Intel 1/1/1

(41) سلاطين إلى السلطان في 20 أكتوبر 1910م

(42) من الحاكم العام إلى مدير المخابرات بالقاهرة في 18/11/1910م

(43) سلاطين إلى الحاكم العام 1910/11/23م

الحكومة الثنائية تجاه جلاء الفرنسيين عن كل من داري تاما والمسالييت. ووعده بعدم السماح لأي هارب بتجاوز حدوده. أما فيما يتصل بذود مرة فسيُدفعه إلى اللجوء إلى فزان أو إحضاره إلى الفاشر لإبعاده عن حدوده⁽⁴⁴⁾. إلا أن مجريات الأحداث في نفس اليوم جعلته يجأ بالشكوى تارة أخرى لتمادي الفرنسيين في تغلغلهم في داري تاما والمسالييت، وقد تم قتل رئيس فرقة المسالييت تاج الدين إسماعيل (والبقية من معسكر فرنسا لغاية يومه محاصرين)⁽⁴⁵⁾. يعكس ذلك أن الحصار الفرنسي لا يزال مستمراً على هذين الدارين. وأن السلطان من جانبه بدأ يتشكك فيما تقوده الحكومة الثنائية من مبررات ومسوغات بغية الإمساك بأزمة الأمور إلى حين.

وبعث السلطان في نفس اليوم بخطاب ثالث إلى الحاكم العام وذلك لسرعة الأحداث معلناً إياه بما يحدث على الساحة الغربية بقوله: (كان المفتش بشرني بأنه تكلم مع حكومة فرنسا في كيفية دار فور ... وبوقته أرسلنا ... من طرفنا لرؤساء تلك الجهات ونبهنا عليهم في أوامرنا لأنهم يسلكوا الاستقامة ويكفوا ... وقبل وصول الجماعة المذكورين تلقوهم جماعة مرسلون من رؤساء دار مسالييت حاملين البوسنة لأن جنود فرنسا اعتدوا ورجعوا على مسالييت وحاربوهم حرب شديدة. ومسالييت غلبوا على الجنود الفرنسية قتلوا رئيسهم المدعو كلناد'ومعه عشرة ضباط. واسفكت دماء عالم كثيرة من الفئتين وقتل رئيس فرقة مسالييت المدعو تاج الدين إسماعيل).

يبدو واضحاً أن السلطان كان عاجزاً مادياً عن مواجهة الفرنسيين فلذلك لم يكن أمامه من خيارات أخرى غير محاولة التعويل على حلول الحكم الثنائي في رد الفرنسيين. ومن ناحية أخرى فالحكومة البريطانية نفسها كانت هي الأخرى عاجزة عن تحرشات فرنسا هذه. لذا لا غرابة أن ازدادت احتجاجات السلطان في الفترة الواقعة بين أكتوبر ونوفمبر سنة 1910م مذكراً سلاطين بقوله: بأن فرنسا من الدول الأوروبية العظيمة وأنها تحترم المواثيق وتحترم الكلمة⁽⁴⁶⁾.

⁽⁴⁴⁾ خطاب من السلطان إلى سلاطين بتاريخ 1910/10/24م في 22 ذو القعدة 1323هـ - S.N.A Intel 1/1/2

⁽⁴⁵⁾ السلطان إلى سلاطين في 24 ذو القعدة 1328هـ - S.N.A Intel 7/2/12

⁽⁴⁶⁾ A.B. Theobald, Op. cit. pp. 97

والواقع خلاف ذلك، فالاستعمار الأوروبي لا يعرف ميثاقاً ولا يحترم كلمة. وإنما القضية بالنسبة لفرنسا يومها هي قضية مصلحة الأمة الفرنسية بغض النظر عن الأمم المستعمرة وبغض النظر عن العهود والمواثيق، وكذا الحكومة الثنائية فإن الأمر بالنسبة لها لا يتجاوز حدود المصالح الإنجليزية في المنطقة والتي اقتضت الالتقاء وتقاطع المصالح الذي فرضته الظروف مع السلطان. ولكن بإمكانها التضحية به إن تعارض ذلك مع مصالح أكبر إنجليزية وأهداف استعمارية أوفر للأمة الإنجليزية. أما احترام المواثيق والعهود فهذه مسكنات ومخدرات تستخدم عند اللزوم وعند اقتضاء الحال حينما تكون الأمم المستضعفة هي الأقوى. وما رأيناه الآن في أفغانستان والعراق والسودان من مخالفات ونقض للمواثيق وحقوق الإنسان من قبل الرجل الغربي يؤكد صحة تلك الدعوي والدليل علي ذلك الإغراءات التي ظلت الولايات المتحدة الأمريكية تقدمها لحكومة الإنقاذ للتوقيع علي الاتفاقات مع القوي المعارضة سواء في نيفاشا أو أبوجا. وما أن تقوم الحكومة بتوقيع اتفاقية ما حسب طلب وشروط ماما أمريكا حتي تسحب ماما أمريكا وعودها وتأتي بشروط أخرى لتنفيذ أجندة أخرى علي حسب ما ذكر رئيس الجمهورية السودانية عقب اجتماع الحزب الحاكم بشريكه الحركة الشعبية في شهر مايو 2006م .

ونلاحظ مع قناعة المفتش العام بعدم وجود حل ناجع لهذه المعضلة بيد أنه لازال سادراً في تبريراته هذا بالرغم من عدم قناعته بما يقوده من أدلة وبراهين. مؤكداً للسلطان أن هذا الخرق للاتفاق ناتج عن عدم وصول الأوامر للقيادة الفرنسية في المنطقة. كما أكد علي أن الحكومة الفرنسية ليست لديها أي نوايا للاستيلاء أو التدخل في شأن دارفور. هذا الكلام ينطوي علي سذاجة مقصودة. إذ لا يخفي علي أحد أن القوات المركزية لأي دولة عظمى في قارة فرنسا لا تتحرك إلا بأوامر مركزية ووفق استراتيجية محددة. لاسيما إذا كان هذا التحرك يتضمن مخاطرة متوقعة ويواجه مقاومة مؤكدة للاستيلاء علي قطاع كبير يشمل كلاً من داري تاما والمسالييت. كما أن هذا المسلك من نتائجه المؤكدة تعريض العلاقات الإنجليزية الفرنسية لأزمة وربما لمواجهة. ولا يشك المرء من أن التحرك الفرنسي كان مبنياً علي جانب قانوني وهو

عدم وضوح بنود الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية بشأن الحدود الغربية. كما أن بريطانيا لم تكن في وضع قانوني يمكنها من دفع فرنسا عن التماذي في إعتدائها المتكررة على دارفور. وفي الواقع فإن معالجة هذا الأمر كان يشغل الحكومة البريطانية على أعلى المستويات. وبدأ السلطان يشعر بخطورة ودقة موقفه إزاء تحفز فرنسا وعجز بريطانيا. وعاد سلاطين يدرك ضعف موقفه تجاه السلطان. لذا أخطر الحاكم العام بخطاب أكد له فيه أن الذي جرى على حدود دارفور الغربية يعتبر خرقاً صريحاً للاتفاق الذي تهيأ له مع المندوب الفرنسي بالقاهرة (47).

في هذه الأثناء قام السلطان بضرب عملة محلية 1317هـ أبدى سلاطين نحوها إمتعاضاً وعدم ارتياح، وقاد مبررات بعدم الحاجة إليها لإثباته عن ذلك (48). يعكس ذلك شعور السلطان المفضي إلي الإنفكاك من رباط الحكم الثنائي الأجنبي. وتأصلت فيه الروح الاستقلالية أكثر وأكثر. ولعل ذلك يرجع إلى خيبة الأمل التي أصابته تجاه ما كان يعلقه من آمال في علاقته بالحكم الثنائي. أما سلاطين وهو الرجل الثاني في الحكم الثنائي كان يدرك أبعاد هذا المنحى الفوراوي بضرب عملة محلية. الأمر الذي سيكون له مردوده غير الإيجابي تجاه العلاقات الفوراوية الثنائية، مما يعمق الروح الاستقلالية لدى الفور. ويعطي فرنسا مبرراً أقوى للتدخل في شأن دارفور.

وبدت خيبة أمل السلطان في القوى الأوروبية عموماً بأنها لا أمان ولا عهد ومواثيق لها. ورد عليه سلاطين مدافعاً عن الأوروبيين مؤكداً في خطابه لعلّي دينار على خطأ اعتقاده بقوله: (أن دولة فرنسا لا عهود لها ولا قوانين ... وأنّي أؤكد لجانبكم مستحيل للغاية أن تكون مقاصد فرنسا احتلال دارفور فكونوا براحة بال ... إن السبب في كل هذه الفتن والقلق هو السلطان تود مرة الموجود على الحدود، فينبغي لجنايبكم أن تقبضوا عليه وترسلوه إلى هنا طوعاً أو كرهاً) (49). حاول سلاطين بهذا التبرير الواهن أن يضيع القضية، وأن يلفت النظر عن مقاصد فرنسا الاستعمارية في المنطقة ... ويحيل الكرة إلى ملعب علي دينار وأن يرى ساحة الحكومة الفرنسية

(47) A.B. Theobald. op. cit. pp.97 - 100

(48) من سلاطين إلى الحاكم العام في ديسمبر 1910م ، S.N.A Intel 1/1/1-1328/12/14

(49) آخر من سلاطين إلى السلطان في 14 ديسمبر 1910م ، S.N.A Intel 7/3/11-1328/12/12

بسبب هو غاية في الضعف في مواجهة الأزمة الحالية. وأراد منه جانب آخر أن يشغل السلطان بمطاردة دود مرة بدلاً من رد العدوان الفرنسي على بلاده حتى تتفق القوى العظمى على حل لهذه الأزمة. وألتزم السلطان نصائح الحكومة وقام بترحيل دود مرة بيد أن القوات الفرنسية ما فتئت تهاجم وتعتدي. وعينت لها عميلاً على دار تاما بدلاً من السلطان السابق (عثمان الطوراوي). وفي خطابات من سلاطين إلى الحاكم أكد له فيه أنه قد بذل جهداً في أداء الدور المنوط به إزاء السلطان علي دينار (حتى تظهر نتيجة المفاوضات الفرنسية الإنجليزية بشأن حدوده الغربية)⁽⁵⁰⁾. مما يعني أن دور سلاطين كان ينحصر في المراوغة والتسويق والكذب على السلطان علي دينار لكسب الزمن. هذا بالرغم من أن كل الدلائل تشير إلى عدم استطاعة الحكومة الثنائية وعجزها لإيجاد حل حاسم لقضية حدود دار فور الغربية، إذ أن ذلك يرتبط بقرار أوروبي يصدر على مستوى عالٍ يحدد مناطق النفوذ لكل من فرنسا وإنجلترا. ومهمة الحكومة الثنائية هي مهمة محددة لا تتجاوز إطار المحلية الإدارية وإبداء المشورة وتقديم النصح والتقارير الضرورية لاتخاذ القرار الصحيح. وعلى صعيد آخر وجد السلطان نفسه بين مخلي قوتين أهونهما شر. لذا إحتوى بقوة عرف كيفية التعاون معها لاقتناعه بجديتها. وفي الوقت ذاته كان يتوجس خيفة من قوة لا يدري ماهية أطماعها ومداهها ألا وهي قوة فرنسا لذا ركن إلى القوة الإنجليزية. وبذلك كان يتبع تكتيكاً مرحلياً دعت إليه الظروف المحلية والإقليمية والدولية.

وبعد انعدام كل المبررات والمسوغات لجأ سلاطين إلى سيرته ودندنته القديمة، بأن على السلطان التحلي بالصبر. وأن لا يتوجس خيفة من التعديات الفرنسية مطمئناً السلطان بقوله: (إن حدود دار فور الموجودة تحت إدارتكم معروفة ومعلومة جيدة عند دولة فرنسا فلا ينبغي أن تخافوا من أنها تتعدى عليكم ... إنما من جهة تعديات حكومة فرنسا على حدودكم فهذا أمر يجب ألا تخافوا منه مطلقاً)⁽⁵¹⁾. وحاول إلقاء تبعة الاعتداء على قبائل غير تابعة لفرنسا⁽⁵²⁾.

(50) من سلاطين إلى الحاكم العام في 16 ديسمبر 1910م، 1328/12/14هـ S.N.A Intel 7/3/11

(51) سلاطين إلى علي دينار في 1910/12/21م، 19 ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/

(52) سلاطين إلى علي دينار في 1910/12/21م، 19 ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/

بدأ التكلف واضحاً والتناقض بيناً في مكاتبات سلاطين في الوقت الذي السلطان يرى إعتداء ماثلاً أمامه على حدوده من قبل فرنسا وسلاطين يطب منه ألا يخاف من ذلك لأن حدوده معلومة لدى دولة فرنسا. وواقع دولة فرنسا خلاف ذلك. كل ذلك ينم عن تهرب واضح من لب الموضوع. ومحاولة ترجية الوقت بأمور ثانوية تلهي السلطان ولو إلى حين حتى يتسنى حل القضية الشائكة وفقاً للمصالح الإنجليزية الفرنسية في المنطقة على وجه العموم ومصالحهما الاستعمارية على وجه الخصوص. ورغماً عن هذه الجهود التي بذلها سلاطين لكفكة جموح السلطان فإن الصحف الفرنسية وحملتها المكثفة أدخلت الزعر في قلب السلطان. وتضجر سلاطين من هذه الحملة الإعلامية الفرنسية والاعتداء المتعمد من قبل الفرنسيين على حدود دار فور. وأشار إلى أنه لا يزال مستمراً في سياسته القاضية بإقناع السلطان بأن الاعتداء الفرنسي كان نتيجة خطأ وسوء فهم⁽⁵³⁾. وأشار إلى أنه ظل يعيش في حيرة من أمره تجاه طلب السلطان بإعطائه إجابة قاطعة بشأن الحماية أو السماح له بالدفاع عن نفسه: (ويبدو أن تصريحات الحكومة الفرنسية وصحفها أنها تخيف علي دينار وتعمل على إجبارنا على احتلال دار فور. هذا بالرغم من أنني ضد الفكرة. ولا أستطيع أن أتفادى انتقاد الحكومة الفرنسية)⁽⁵⁴⁾.

كانت فرنسا تعتقد أن دار فور خارجة عن نطاق النفوذ الإنجليزي. وظلت الحكومة الإنجليزية من جانبها تعمل جاهدة لإقناع الرأي العام الأوربي بأن السلطان علي دينار تابع لها. لذا يبدو أن فرنسا من جانب آخر كانت تحاول جهدها لإحراج الحكومة الثنائية تجاه السلطان وإجبارها على الأقدام على احتلال دار فور. إذ ترى في وجود السلطان تهديداً لوجودها في المنطقة. وتحفيزاً للقوى الوطنية للتصدي لمشروعاتها التوسعية في المنطقة. وأكد سلاطين في تقرير أعده بأن السلطان قد تحلى بالصبر اللازم نتيجة للتأكيدات المتكررة من الحكومة الثنائية بواسطة ممثلها سلاطين بأن الفرنسيين سوف لا يعتدون على دار تاما والمسالييت. بيد أنه قد سقطت فعلياً كل

⁽⁵³⁾ سلاطين إلى الحاكم العام أول يناير 1911م، نهاية نو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/1

⁽⁵⁴⁾ سلاطين إلى الحاكم العام أول يناير 1911م، نهاية نو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/1

الأفئدة والتبريرات التي درج سلاطين علي تقديمها أو لبوسها بعد إحتلال الفرنسيين لكل من دار تاما والمسالييت. واتهم سلاطين المسؤول الفرنسي عن هذه الحركة لاسيما بعد إطلاعه على مسودة الاتفاق الفرنسي الإنجليزي الصادر في 13 يونيو 1899م والتي حددت الحدود بين كل من ودّاي ودار فور وفقاً لما كان جارياً سنة 1882م. إلا أن الأمر كان يبدو خلاف ذلك لما أعده الفرنسيون لهذه الخطوة من حملة إعلامية أخافت علي دينار وحدا به ذلك إلى طلب الحماية أو السماح له بالدفاع عن نفسه. ويورد سلاطين في التقرير المطول نصاً نقله عن كتابه السيف والنار (الطبعة الإنجليزية 1895م، ص 10) يلقي الضوء على المشكلة. ويبين أن دار مسالييت كانت دوماً في حرب مع وادي مما يدل على استقلالها عن وادي وأن حدودها خارجة عن حدود وادي) (55). يبدو أن الاعتداءات وتجاوز الحدود والنهب هي ضربة لازب في الحياة القبلية قديماً وحديثاً لاسيما بين القبائل الرعوية والزراعية أو الرعوية والرعوية لإمكانية تجاوز مواشي قبيلة على موضع قبيلة أخرى أو على مزارعها. وفي الحياة القبلية وبناء على التركيبية الثقافية المتدنية فإن الحرب يمكن أن تشتعل لأبسط الأسباب وأضعفها.

وما كان يدور في أوساط الدوائر الإنجليزية سواء في الخرطوم أم في القاهرة أو لندن هو الحل المرتقب لهذه المعضلة، وبحلول يناير تجددت شكاوى السلطان وأعلن نفاذ صبره مشيراً إلى خطورة التحركات الفرنسية بقوله: (ودار تاما الآن عساكرهم فيها ودار قمر كذلك ودار مسالييت ودار كتي هؤلاء الخمسة ديار جميعهم حدود دار فور الأصلية... فإن مسالييت أهالي ضمن رعية دار فور شرذمة قليلة بذلوا أنفسهم في سبيل الله قاتلوا في سبيل وطنهم... فما بال نحن جمهور عالم من المسلمين موحدين رب العباد وموقنين لنلا يصيبنا ألا ما كتب الله لنا) (56). هذه الإشارة تؤكد أن السيل قد بلغ الزبى وإن السلطان راوده التفكير في مواجهة الغزو الفرنسي بمفرده ما دام أن فئة قليلة من رعاياه استطاعت الصمود في وجهه. وفي هذه الأثناء لا تزال المفاوضات جارية في أوساط الدوائر الإنجليزية بشأن الحدود. وساد الجو قلق زائد مبعثه عدم

(55) تقرير حول المشاكل بين فرنسا ودار فور في 10 يناير 9 محرم سنة 1329هـ S.N.A Intel 7/3/1

فهم الفرنسيين للموقف البريطاني الحرج في المنطقة أكد ذلك الحاكم العنام بقوله: (our French friends don't seem to understand the situation and I) trust that nothing will induce our government to give way⁽⁵⁷⁾.

(أصدقائنا الفرنسيون يبدو أنهم غير مدركين للوضع إذ لا يوجد ما يغري حكومتنا ويدفع بها إلى التسليم التام) وفي ذات الخطاب يقول: (وأمرنا واضح أنه لا يمكن أن نخرق تعهدنا لعلّي دينار حيث أن سلاطين يعتقد أن تحديد قضية الحدود وحلها غير ممكن وغير مرغوب فيه)⁽⁵⁸⁾. وفي فبراير 1911م وصلت مذكرة من وزارة الخارجية الفرنسية لم تنل رضا وموافقة الدوائر الإنجليزية في الخرطوم. حيث احتوت على ما يقضي التدخل العاجل من قبل الحكومة الثنائية في دار فور وخرقها لاتفاقها السابق مع السلطان. وعبر الحاكم العام عن وجهة نظر الحكومة الثنائية بقوله: (ويمكن فهم موقف حكومة السودان تجاه علي دينار في ضوء المذكرة المشار إليها - أي التقرير الذي أعده سلاطين - وما كتبه إلى علي دينار في أول مايو 1901، 22 ديسمبر 1903م. الأمر الذي يعرضنا إلى سوء النظر ونقض العهد تجاه علي دينار. هذا بالإضافة إلى أن ما مضى ذكره يتفق وروح الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية في 13 يونيو 1899م. والتي يؤكد لها خطاب (جراي) إلى (سونسيو بيكون) في 14 سبتمبر سنة 1910م)⁽⁵⁹⁾. هذه المحادثات والمراسلات الجارية تعكس مدى الاهتمام وقدرة الجهود المبذولة من قبل الحكم الثنائي لحل النزاع القائم. وعدم رغبة الحكومة الثنائية التدخل في تورط سافر واستيلاء علي دار فور. الأمر الذي قد يعرض أمنها واستقرارها للخطر، وفي الوقت ذاته لا تريد الحكومة الثنائية اتخاذ موقف حاسم أكثر من المفاوضات. هذا بالرغم من اختراق الفرنسيين لحدود دار فور وجار السلطان بالشكوى لأكثر من مرة منذ سنين⁽⁶⁰⁾.

S.N.A Intel 7/2/3
D.S.A Box 300/2
I bid

⁽⁵⁶⁾ علي دينار في 17/1/1911م محرم سنة 1329هـ
⁽⁵⁷⁾ الحاكم العام غورست في 5 فبراير 1911م
⁽⁵⁸⁾ الحاكم العام إلى غورست في 5 فبراير 1911م

⁽⁵⁹⁾ I bid

⁽⁶⁰⁾ I bid

ورؤية الحكومة الثنائية تتلخص في أن لا حل للمشكلة في الوقت الراهن ما لم يتم إجلاء القوات الفرنسية. ثم اللجوء إلى تحديد الحدود بين الدولتين. وقد حملت وجهة نظرها تلك إلى القاهرة ومن ثم إلى لندن⁽⁶¹⁾. في هذه الأثناء تجددت اعتداءات الكبابيش وطالب علي دينار الحكومة الثنائية بالتحقيق فيما جري ورد المظالم إلى أهلها. لاسيما وأن هؤلاء العربان قد قاموا بمصادرة أسلحة تخصه وردته من ليبيا⁽⁶²⁾. ومن هذه الإشارة يبدو أن السلطان بدأ في تدبير مصدر جديد لتوريد السلاح لبناء ترسانة تؤهله للمقاومة. وأنه كان يستفيد من الوقت لتقوية نفسه وإعدادها لمواجهة الغزو الأجنبي. ولربما لجأ إلى هذه السياسة بعد أن تأكد من تسويق الحكومة الثنائية وعدم مصداقيتها في قضية شحن الأسلحة من لندن كما سبق وأن قررنا.

هذا التحول في سياسة علي دينار - التعويل على قدرته الذاتية - ربما كان أمراً مهماً. ذلك أن السلطان لربما قد استنتج أن تلكو الحكم الثنائي في حل مشكلة الاعتداءات الفرنسية قد يكون دليلاً على تواطؤ القوى المسيحية على مملكته. وربما كان لكل ذلك أهمية لتطور أفكاره ونظراته نحو طبيعة الخطر الأوربي - من أنه نوع من الحرب الدينية - وإن الرد عليه يتوجب أن يكون في حدود ذلك الإطار في شكل تحالف إسلامي. وعلى صعيد آخر وجد عدد من المسؤولين في الحكومة الثنائية يرون أن على الحكومة عهداً لا بد لها من الإيفاء به تجاه السلطان وهو حمايته إزاء العدوان الفرنسي⁽⁶³⁾. واتبعت القوات الفرنسية أسلوب المناورات حيث قامت بالانسحاب من دار مساليت. مما أعطى سلاطين فرصة أمام السلطان ليكتب له مشيراً إلى هذا الإجراء بقوله: (قد عرفنا أن حكومة فرنسا قد أخرجت عساكرها من دار مساليت وإن شاء الله سيخرجونهم من دار تاما ... إن خير طريقة في المستقبل لأجل ضمان الأمن والراحة في البلاد هو أن تعين الحكومة كما ذكرت لكم قبلاً بعضاً من الضباط المهندسين وجنابكم تعيينون مندوبين من قبلكم)⁽⁶⁴⁾. استغل سلاطين هذه الفرصة وحاول

S.N.A. Intel 1/1/2

(61) سلاطين إلى الحاكم العام في 5 فبراير 1911م

(62) الحاكم العام إلى مدير المخابرات بالقاهرة ومن الخير إلى وزارة الخارجية البريطانية في 1911/2/24م

S.N.A. Intel 1/1/1

S.N.A. Intel 1/1/1

(63) كلاتون إلى الحاكم العام في 1911/3/1م

أن يعمق في ذهن السلطان أن الحكومة الثنائية قد سعت سعياً حثيثاً آتي ثماره. وأجتهد مؤكداً أن الأمر قد أصبح رهين تعيين مندوبين من قبل الأطراف المعنية. والواقع كان خلاف ذلك. لأن الحكومة الفرنسية حتى هذه اللحظة لم توافق على أي من الاقتراحات الإنجليزية بشأن حل الإشكال القائم بين الدولتين بخصوص دارفور.

وارتابت بعض الدوائر الثنائية حول استيراد السلطان السلاح من الشمال. ورأى البعض أن لا مانع من مصادرة ما يمكن الحصول عليه من قوافله القادمة من الشمال والاستيلاء على أسلحته المستوردة على أن لا يمنع رسمياً من استيراد الأسلحة. ووضعت الدوائر الثنائية احتمالين لاستيراده السلاح من الشمال: إما بغية مقاومة الحكم الثنائي مستقبلاً. وإما بهدف تعزيز نفسه حيال الغزو الفرنسي. ويقترح حاكم الأبيض منعه من استيراده بينما يرى حاكم كردفان أن لا يمنع ولكن ينبغي أن يتم إضعافه عن طريق الاستيلاء على بعض مما يستورده من أسلحة. وهذا الموقف بدأ واضحاً بعد شكوى السلطان من استيلاء الكبابيش على أسلحته المستوردة⁽⁶⁵⁾. الأمر الذي يدل على أن حركة الكبابيش واستيلاءهم على أسلحته كان قد تم بإيعاز من الحكومة الثنائية. وأن هذه القبائل قد بدأ استخدامها على شكل طابور خامس لإضعاف شوكة السلطان. هذا بالرغم من الغزو الفرنسي لبلاده من ناحية حدوده الغربية. ولا يستبعد أن السلطان أضحى يشك في نوايا الحكم الثنائي تجاه بلاده. فحاول أن يؤمن مصدراً آخر لتسليحه أو لبناء ترسانة قوية ضد أي اعتداء مستقبلي لا سيما بعد أن رأى تباطؤ الحكم الثنائي وتلكؤه في إمداده بما يحتاجه من سلاح ونخيرة، بل اعتدائه على أسلحته التي استوردها من أرض الحجاز. بيد أنه في الوقت ذاته لم يوصد الأبواب تماماً تجاه طلباته المتكررة للحكومة الثنائية بتزويده بأسلحة وجبخانه. لأن ما لديه من أسلحة وجبخانه قد نفقت في حروب أهلية في الصعيد⁽⁶⁶⁾. ونجح سلاطين في أن يحافظ على هذا الخيط الرفيع بإرساله بندقيتين ومائتي طلقة له⁽⁶⁷⁾. إشعاراً للسلطان بأن الحكومة لا تمنع من تزويده بما يحتاجه من أسلحة ولكن بقدر وبحساب دقيق. وقام سلاطين من

(64) سلاطين إلى السلطان في 1911/4/18م ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 7/3/12

(65) حاكم الأبيض إلى حاكم كردفان في 1911/4/30، 30 ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 1/1/2

(66) السلطان إلى سلاطين في 1911/4/30، ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 1/1/2

(67) علي دينار إلى سلاطين في 4 مايو 1911م، 11 جمادي الأولى 1329هـ S.N.A Intel 7/2/13

جانب آخر بتهديد ناظر الكبابيش وتوجيهه بعدم الاعتداء على دارفور وإلا فسيعتبر متواطئاً مع الحكومة الثنائية. وأشار ناظر الكبابيش في رده علي سلاطين بأن هناك عداوة قديمة بينه وبين السلطان. وحاول الأخير استمالته إليه فرفض لذا حاول السلطان الانتقام منه والكيد به (68).

هذه المحاولة كان القصد منها تهدئة السلطان والاحتفاظ بصفحته مفتوحة. ويبدو أن قبيلة الكبابيش قد تجاوزت الحد المرسوم لها، وفجرت في اعتداءاتها مما اقتضى تنبيهها من قبل سلاطين. وإلا فإن هجمات الكبابيش التي أغضبت السلطان على سلاحه كانت بإيعاز من الحكومة. هذا في الوقت الذي هدأت فيه العاصفة الفرنسية على حدود دار فور الغربية. وبدأ السلطان يشكو من ظاهرة جديدة مقتضاها تهرب بعض القبائل من دفع الضرائب ولجئها إلى أم درمان وكردفان. الأمر الذي سيعطل دفع الالتزام السنوي للحكومة. لذا طالب الحكومة الثنائية بردهم إلى ديارهم بدلاً من إيوائهم (69). ولم تطل فترة الهدوء تلك حيث عاد السلطان من جديد يشكو الإعتداءات الفرنسية على حدوده الغربية. ويستعجل الحكومة الثنائية في أمر الوساطة المزمعة لحل الإشكال القائم. ويعد بأنه على استعداد تام لتسهيل أمر المفاوضات ومعاونته لأداء مهمته حتى يعبر الحدود (70). جاءت هذه الخطوة بعد خطاب سابق أوضح فيه استمرارية الاعتداءات الفرنسية على حدوده بقوله: (إن جنود فرنسا لم يزالوا من التمادي والتعدي في الحدود... وعلى الدوام أياديهم متطاولة في الحدود بالضرب ومخادعة الأهالي وتحصيلات الأموال منهم بوجه الخدعة ولم تحصل لنا راحة من جهتهم... أرجو أن تعملوا الوسايط اللازمة التي ترد جنود دولة فرنسا في التعدي على حدود دارفور) (71). هذا الخطاب يعكس مدى اهتزاز ثقة السلطان أو ضعفها على الأقل فيما تقوم به الحكومة الثنائية من مساع. وقد راودته الشكوك حول إمكانية اتفاق الطرفين ضده وكشف عن طويته بقوله: (إذا كان تعديهم هذا من معاملة الحكومة فنرتجي

(68) سلاطين إلى ناظر الكبابيش في 11 مايو 1911م ورده في 13 يونيو 1911م، 14 جمادى الثاني 1329هـ

S.N.A Intel 1/5/12

(69) السلطان إلى سلاطين في 1911/11/21م ، 25 ذو القعدة 1329هـ S.N.A. Intel 7/2/13

(70) السلطان إلى سلاطين في 1911/11/21م، 25 ذو القعدة 1329هـ S.N.A Intel 7/2/13

(71) السلطان إلى سلاطين في 20 ذو القعدة 1329هـ، 1911/11/16م S.N.A Intel 7/2/13

عدالتها أنها تكفهم عنا وتمنعهم من التعديات علينا وإن كان ذلك معاملة بينها وبين الحكومة فقد فوضنا أمرنا لله ... والموت سبيل الأولين والآخرين وهذا آخر خطابي لجنابكم⁽⁷²⁾.

لا شك أن هذا الخطاب وما احتواه من مرارة يشكل مرحلة حرجية في مسار العلاقات الثنائية الفوراوية. حيث بدأ السلطان يشك في العلاقات القائمة بين بريطانيا وفرنسا. وتأكد السلطان من أنه مستهدف من قبل القوتين الأوروبيتين ولحظتها أعلن استعداداه لمواجهة كل الاحتمالات⁽⁷³⁾. حاولت الحكومة الثنائية إثناءه عن هدفه باللجوء إلى الوعود السابقة. واستجاب السلطان بأمانة للطلب بعدم الاعتداء على القوات الفرنسية وتحلى بالصبر على أمل أن تحقق الحكومة التزاماتها إزاء الاعتداء الفرنسي⁽⁷⁴⁾. ورفع شكواه تارة أخرى معلناً أنه بالرغم من التزامه خط الحكومة القاضي بالتحلي بالصبر إلا أن الفرنسيين لا زالوا متمادين في اعتداءاتهم وإقدامهم على جمع الضرائب من رعاياه وهو لم يحرك ساكناً أملاً في حلول الحكومة الثنائية⁽⁷⁵⁾. وما أن هدأت الأحوال على الحدود الغربية حتى فتح عليه الكبابيش جبهة أخرى وتوالت شكاوى السلطان ضدهم طلباً من الحكومة إخضاعهم ورد ما سلبوه⁽⁷⁶⁾. ونتيجة لتكرار الشكاوى أجرت الحكومة الثنائية تحقيقاً شكلياً لم يأت بثماره المرجوة. لذا اقترح سلاطين تكوين دوريات على الحدود من شأنها رد الاعتداء والمحافظة على الأمن في المنطقة، والحيلولة دون وقوع نزاع بين الأطراف المتنازعة. وأشار سلاطين إلى أن الحكومة الثنائية ستقوم بتكوين دورية تجوب دار الكبابيش لنفس الغرض. وأورد سلاطين إستفساراً في الخطاب الذي بحث به إلى السلطان عما إذا كان الفرنسيون قد دخلوا داري تاما والمساليات أم لا؟ جئى يمكن أن تتدبر الحكومة أمرها إن كانت الإجابة بالإيجاب⁽⁷⁷⁾. هذا في الوقت الذي بدأت فيه شكاوى السلطان تقوى تجاه الحكومة إزاء معالجتها للمشاكل القائمة بينه وبين الكبابيش أو بينه وبين الفرنسيين.

⁽⁷²⁾ السلطان إلى سلاطين في أول محرم 1330هـ، 1911/12/27م . S.N.A. Intel
⁽⁷³⁾ P. M Holt op. cit. pp. 125
⁽⁷⁴⁾ الحاكم العام إلى كلاتيون في 1912/1/3م S.N.A. Intel 7/5/13
⁽⁷⁵⁾ السلطان إلى سلاطين في يناير 1912م S.N.A. Intel/1/1
⁽⁷⁶⁾ السلطان إلى سلاطين في 1912/2/28م 10 ربيع أول 1330هـ S.N.A Intel 7/2/14
⁽⁷⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 3 ربيع الأول 1310هـ 1912/2/21م S.N.A Intel 7/3/13

بشأن الكبابيش لم يحصل السلطان علي غير الوعود الكاذبة والتباطؤ والميل نحوهم من قبل الحكومة الثنائية وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فالآن ما دام كلامي صار عندكم كذب ومنبوذ فأنتم مخيرين - أي علي الخيار بمعنسى أنتم أحرار في اختياركم)⁽⁷⁸⁾. وأكد انه قد ردع قبيلتي الميذوب والزغاوة اللتين له عليهما سيادة بغية منعهما من الاعتداء على كردفان وإن شاء الله ثاني مرة ما تسمعوا من قبيلة الميذوب أو قبيلة الزغاوة لأنهم ارتكبوا أمراً منكراً فإننا نحكم بكتاب الله وسنة رسوله. وأنتم تحكموا بالقوانين⁽⁷⁹⁾.

مما لا شك فيه أن الجزء الأول من كلامه يشير إلى اليأس والإحباط تجاه معالجة الحكومة لرعاياها مما يدل على أن هناك تواطؤاً بينها وبين هؤلاء الرعايا ضده. والجزء الثاني فيه تعريض بقوانين الحكومة. حيث أن الحكم بكتاب الله يقتضي العدل والحكم بالقوانين الوضعية لا يحقق العدالة والردع المطلوبين بين الأطراف المتنازعة. وهذا الخطاب من ناحية يدل على اعتزازه بقدراته وبهويته الإسلامية وبموروثه الحضاري والثقافي والاستخفاف بموروث الإنجليز القانوني عبر التاريخ. أما مسألة تعديت القبائل وخروجها عن حد المؤلف فيما بينها تؤكد على ما سبق تقريره بأن أقدارها الثقافية والاقتصادية ذات دور فاعل في هذه الصراعات فيما بينها. ولم يكن العامل السياسي بأي حال من الأحوال واحداً من العوامل المؤثرة علي ما يجري في دارفور الآن كما يدعي كثير ممن يجهلون تاريخ دارفور وتكويناتها القبلية والثقافية والاجتماعية والحضارية سواء من السياسيين أو تجار السياسة أو من أدياء الأكاديمية والبحث المجرد أو من الدول ذات الأطماع في هذه المنطقة.

أما فيما يتعلق بالنزاع بين الفرنسيين ودارفور حول الحدود رأى السلطان أن وعود الحكومة الثنائية لا تعدو عن كونها سراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً وأشار إلى ذلك بقوله: (... على أنه سيادتكم كنتم بينتم لأصحاب الحل والعدل بين دولة إنكلتري ودولة فرنسا لأن دار تاما ودار مساليت تابعة لدار فور.

⁽⁷⁸⁾ السلطان إلى سلاطين 23 ربيع الأول 1330 هـ - 1912/12/27 م S.N.A Intel 7/2/14

⁽⁷⁹⁾ السلطان إلى سلاطين في 23 ربيع الأول 1330 هـ - 1912/12/27 م S.N.A Intel 7/2/14

وكنتم أخبرتمونا على أن دولة فرنسا كفت أيديها من تلك الجهات فهذا كلام ساكت لغاية يوم تاريخه. جنود فرنسا عاملين المتغيرات والنقط فيها واستملكوها⁽⁸⁰⁾. الكلام الماضي يرسم تحدياً مكشوفاً، ويرسم صورة واضحة لإسلامية السلطان واعتزازه بما يملك من تراث. والجزء الآخر مما مضى يعكس مدى درجة الإحباط التي وصل إليها السلطان بشأن الوعود التي قطعتها له الحكومة الثنائية. حيث رأى أن هذه الوعود لا تعدو عن كونها سراباً خادعاً هذا فيما يتعلق بالغزو الفرنسي أما عن وجهة نظره بشأن اعتداءات الكبابيش المتكررة فهو يرى إما أن تمنعهم الحكومة أو تأذن له بردهم حيث يقول: (... فان كان عربان الكبابيش ممتثلين لأوامر الحكومة تمنعهم من اعتداءاتهم علينا وإن كان مخالفين أوامر الحكومة فنرجو أن الحكومة تفيدنا وتسرح لنا نأمروا الأهالي يشنوا الغارات عليهم بمثل فعلهم)⁽⁸¹⁾. مما لا شك فيه أن الذي يشير إليه السلطان في هذا الخطاب يفسر كثيراً من الأحداث الجارية الآن في دارفور، ويؤكد على أن الحراك القبلي في دارفور هو حراك ثقافي بحث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأقدار هذه المنطقة الثقافية والاجتماعية أكثر منها العرقية والسياسية. وفي هذه الأثناء تزايدت شكوى الحكومة الثنائية إزاء استيراد علي دينار الأسلحة من ليبيا. وقد قام المفتش بتنبيهه بأن ذلك يعتبر إجراءً ممنوعاً وأن حيازة الأسلحة غير مصرح بها. حيث إن بعض القبائل (الحدودية) حاولت استغلال ذلك الموقف ودرج بعض أفرادها على الادعاء بأنهم موفودون من قبل السلطان لاستيراد الأسلحة لكي ما تقوى نفوذها وتبني نفسها حربياً تحت هذه المظلة. الأمر الذي أزعج الحكومة فاقتضى ذلك التنبيه. أما فيما يتعلق بعلاقته بالكبابيش فيبدو أنه لجأ إلى نفس الأسلوب الذي اتبعه الكبابيش في إضعاف موقفه إزاء الحكومة واتهامهم له بتهريب الأسلحة مما حدا بالمفتش العام أن يطلب منه القبض على المعتدين من رجالاتهم وأن يرد الإبل المسلوبة⁽⁸²⁾.

(80) السلان إلى سلاطين 21 ربيع الأول 1330هـ - 1913/2/27م S.N.A Intel 7/2/14

(81) علي دينار إلى سلاطين في ربيع الأول 1330هـ ، مارس 1912م S.N.A Intel 7/2/14

(82) سلاطين إلى السلطان، خطابين الأول 2/24 والثاني 2/28 1913م S.N.A Intel 7/2/2

مما لاشك فيه أن المبررات السابقة التي قادت بها الحكومة الثنائية لا يستبعد افتعالها لأن الذي أزعج الحكم الثنائي فعلاً هو تزايد قوة السلطان وعجزها في ذات الوقت عن حمايته أمام الزحف الفرنسي. وشعوره هو من جانب آخر بمواجهة الموقف بمفرده ووقوعه بين مخليبي قوتين استعماريّتين. ودرجت الحكومة الثنائية على التبريرات. فقيما يتصل بالكبابيش فقد اتهم السلطان مفتش باراً بالتواطؤ مع الكبابيش وأخذ الرشوة منهم مقابل تقاضيه عن هجومهم على الحدود⁽⁸³⁾. فقام سلاطين برد الاتهامات التي أوردتها السلطان بأن الحكومة بدأت تستمع لأقوال الكبابيش ضده. ونفى سلاطين أن يكون مفتش بارة قد رفع تقارير ضد السلطان للحكومة الثنائية. وعرض سلاطين بحكم السلطان بالشرعية بدلاً عن القوانين الأوروبية معلنين اعتزازه بها. حيث قال: (... إن الحكومة بقوانينها السياسية ومبادئها المدنية قد انتصرت على الخليفة وشنت شمل أعوانه وأنقذتك أنت وكافة أهل البلاد من مخالب ظلمه واستبداده وسهلت لك العودة إلى بلاد آبائك وأجدادك ... أنكم تفخرون بأنكم قادرون على ضبط الرعية وأنكم تحمونهم بموجب الشريعة المحمدية... أن الحكومة بقوانينها السياسية ومبادئها المدنية قد انتصرت⁽⁸⁴⁾). بهذا القول كأنه أراد إقناع السلطان بالعدول عن حكمه بالشرعية والإلقاء في روعه أن حكم الشريعة لم يغن عن السلطان شيئاً. لأن الحكومة بنظامها المدني وقوانينها الوضعية حققت الانتصار على نظام جثم على صدر الأمة في زعمه. هذا بالرغم من أن هذا النظام هو نظام وطني قد جاء في شكل ثورة شعبية وصلت الحكم بدعم شعبي منقطع النظير في التاريخ الحديث والمعاصر باستثناء الثورة الإيرانية. وذلك من حيث الفكرة والأدوات والأهداف. بينما الحكم الثنائي كان مظهراً من مظاهر الاحتلال ليس إلا، جاء متدنراً بثوب المدنية والحرية والعدالة زوراً وبهتاناً، والواقع السوداني قبل مجئ الاحتلال كان خلاف ذلك. إذ أن حكم الخليفة عبد الله لم يعد عن كونه حكماً وطنياً إسلامياً، وأن الثورة المهدية كانت تشكل انتفاضة شعبية ضد الوجود الأوروبي بالبلاد، والقوانين التي حكمت بها الثورة بالبلاد كانت تتبع من عقيدة الأمة ومثلها وبهما تتحقق الأصالة ويتأكد الانتماء. وإن الذي جرى على الساحة من انتصار

للجيش الغازي فقد انتصرت قبله المهدية وحقت أضعاف ما حققه الجيش الغازي ولكنه تزوير للتاريخ وتجيير للحقائق. إذ لا يخفي أن الحركة المهدية في عنفوان حركتها هزمت القيادات الإنجليزية في مواقع مختلفة وفي مواطن كثيرة بقوة الإرادة واتحاد الكلمة والتفاف الجماهير حول قيادة كانت أنموذجاً فريداً توفرت فيه مواصفات القيادة المثال، وخرج الإنجليز منكسرون يجرجرون ثوب الخيبة والهزيمة. وعلى كل يبدو أن افتخار السلطان بالشرع ... يمثل خطوة أخرى في طريق بلورة اتجاهاته الإسلامية لدرجة أغضبت القيادة الإنجليزية وجعلت الحكم الثنائي يتناولها في المراسلات الرسمية مع السلطان علي هذا المستوى من الجدية ويمنحها هذه المساحة من النقاش بين الطرفين.

وحاول سلاطين في خطابه السابق أن يقرر مغالطة مؤداهما أن الذي جاء بالسلطان إلى العرش ليس حكمه بالشرعية وإنما الحكم بالقوانين الوضعية. ومن المعلوم أن السلطان جاء بتخطيط فوراي خالص مدروس ومستقل تماماً عن الجيش الغازي. وأن السلطان قد انتزع العرش عنوة من منافسيه دون مساعدة أو استمداد شرعية من أحد. وما كان من الحكومة الإنجليزية والقيادة الإنجليزية على كل مستوياتها إلا أن تعترف بالأمر الواقع وتبارك تسنمه عرش آبائه وأجداده عن جدارة لا سيما وقد تربع على دينار على عرش آبائه وأجداده عنوة دون منة أو تأييد من أحد أو جهة. وفي يوليو تجددت شكاوى السلطان ضد قبائل الكبابيش ورد مدير كردفان بقوله: (... أن كل فئة تشكو الأخرى وتتظلم وتقيم على ذلك الأدلة والبراهين وهذا ما يجعلني غير قادر على إصدار قراراً نهائياً)⁽⁸⁴⁾. هذا التقرير يعكس مدي الفوضى واللامركزية التي ظلت تعيشها هذه القبائل التي لا تخضع لسلطة مركزية والتي لا تلتين قناتها لقانون أو نظام وفقاً لطبيعتها البدوية وكيميائها الثقافية. بيد أن ذلك، التقلت من الخضوع للأنظمة والقوانين لم يمنع هذه القبائل من الاستفادة منها في إثارة الطرف الآخر. وطلب مدير كردفان إجراء مواجهة بين شيوخ القبائل الحدودية المتنازعة بغية التحقيق عل ذلك

S.N.A Intel 7/3/13

⁽⁸⁴⁾ سلاطين إلى السلطان في 1912/4/21

⁽⁸⁵⁾ مدير كردفان إلى السلطان، أول يوليو 1912م رمضان 1330هـ. S.N.A Intel 7/3/13

يساعد في الوصول إلى الحقيقة وحتى تتمكن الأطراف الحاكمة من فض النزاع القائم⁽⁸⁶⁾. وفي هذه الأثناء لم يدع السلطان فرصة واحدة تمر دون أن يطلب أسلحة، فبمناسبة بلوغ أبنائه الحلم طلب تزويده بعشرة بنادق لتسليحهم⁽⁸⁷⁾.

وفي هذه السنة قام بإرسال الالتزام السنوي للخرطوم. وقد ساد خلال هذه الفترة هدوء نسبي على الصعيدين الفرنسي و(الحدودي القبلي) بيد أن عمليات السرقة والنهب لم تتوقف. مما استدعى طلب تصريح لكل من يأتي بغرض التجارة إلى دار فور... ووافقت الجهات المسؤولة في الحكومة الثنائية على طلب السلطان بهذا الصدد⁽⁸⁸⁾.

وبحلول نوفمبر تجددت نغمة المفاوضات بشأن حدود دار فور الغربية، حيث رفع سلاطين مذكرة إلى الحاكم العام دعم فيها وجهة نظره القائلة بتبعية دار تاما لدار فور، وقاد أدلة منها زواج السلطان بابنة سلطان دار تاما. وأكد علي أن اتفاقاً قد تم عقده بين الطرفين قبل قدوم الفرنسيين إلى وڤاي. وأن المندوب الفرنسي وافق على بعث سفارة من السلطان إلى دار سلا⁽⁸⁹⁾. يدل ذلك على أن سلاطين قد أولى أمر الحدود الغربية والحفاظ على علاقة السلطان بالحكومة عناية فائقة. وكان يشكل حلقة وصل ناجحة. وكانت صلته بالحاكم وثيقة، وصداقته به حميمة، الأمر الذي أدى إلى تبني الحكومة الثنائية وجهة نظر سلاطين القاضية بالتصليب تجاه الاعتراف بداري تاما والمساليات أولاً ثم تخطيط الحدود ثانياً. وذلك في أي مفاوضات يمكن إجراؤها بشأن حدود دار فور ووڤاي⁽⁹⁰⁾.

بذا تكون الحكومة الثنائية قد أوفت بعهودها تجاه السلطان وحققت هدفها الاستعماري القاضي بتبعية دار فور ولو اسماً لها أثناء الإحتلال. واستغلت الحكومة الثنائية قضية السلطان والالتزامات تجاهه حتى تقويت على فرنسا فرصة التوسع نحو الشرق. كما أنها كانت تخشى من الصدام المسلح أو انحياز السلطان إلى فرنسا إذا لم

(86) Ibid

(87) السلطان إلى سلاطين في 1912/7/12، 9 رمضان 1330هـ S.N.A Intel 7/2/20

(88) مفتش كردفان إلى حاكمها في 1912/9/24م والرد عليه في 1912/9/26م S.N.A Intel 7/2/20

(89) سلاطين إلى الحاكم العام في 1912/11/12م S.N.A Intel 1/1/2

(90) الحاكم العام إلى اللورد كتشنر في 1912/11/23م S.N.A Intel 1/1/3

يقتنع بجدوى مساعي بريطانيا الدبلوماسية. وحاولت الحكومة الثنائية خلال هذه الفترة توفير طلبات السلطان بقدر. يتضح ذلك من قول سلاطين: (... قد اجتهدت مع جناب مساعد مدير المخابرات وتحصلنا على خمسة بنادق فقط وثلاثة طبنجات وجدناها أما بقية الأسلحة فقد كتبنا عنها إلى أوربا لأجل إرسالها بدون أدنى تأخير)⁽⁹¹⁾. أبدى الحاكم العام موافقته على إجراءات المفتش هذه بتوفير طلبات السلطان وأعرب عن شكره لما وصله من هدايا من دار فور⁽⁹²⁾.

يلاحظ أنه خلال هذا العام حاولت الحكومة الإبقاء على الأوضاع الراهنة كما هي والعمل على كفاية نفوذ السلطان واتصالاته الخارجية دون علمها. وحاول السلطان من جانبه أن يخلد اسمه على عادة السلاطين والحكام. حيث وردت الإشارة إلى أنه قد قام بكتابة كتاب يحكي قصة حياته وأرسل إلى وكيله في القاهرة ليقوم بطبع ذلك الكتاب. بيد أن السلطات الثنائية ما أن نما إلي علمها ذلك الأمر حتى بذلت جهودا ملحوظة لإبطال مفعول أخراج هذا الكتاب في حينه. حيث زأت الحكومة الثنائية في طبع ذلك الكتاب الذي أسماه (العمران)⁽⁹³⁾ خطورة على الوجود الثنائي في البلاد. وكان الحاكم العام يرى أن هذا الكاتب قد يكون له أكبر الأثر في إثارة الشعب من جديد ضد النظام الإنجليزي المصري في البلاد⁽⁹⁴⁾.

هذا بالإضافة إلى أن طبع مثل هذا الكتاب سيعمق الروح الاستقلالية لدى شعب دار فور. فيما يبدو أن السلطان ما كان لينذر فرصة تمر دون أن يستغلها لصالح بلاده وتوطيد مركزه. ومن جانب آخر يعكس ذلك السلوك الأوروبي مرارة التجربة الغربية التي تتشوق بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان حتى أنها لا تسمح بنشر سيرة ذاتية لشخصية قيادية في وطنها. أن هذه المفارقة العجيبة لم تحدث في العصور الوسطى ولا في التاريخ القديم وإنما حدثت في الربع الأول من القرن العشرين وهو تاريخ معاصر.

(91) الحاكم العام والمفتش العام إلى السلطان في 24-1912/12/25 S.N.A Intel 7/3/13

(92) الحاكم العام والمفتش العام إلى السلطان في 24-1912/12/25 S.N.A Intel 7/3/13

(93) لم أتمكن من العثور عليه أثناء جمعي للمادة ولم أحصل على إشارة له في المجموعات التي قمت بدراستها. ولا يخفى أن العثور عليه بإمكانه إثراء سيرة السلطان أن وجد.

(94) يونان ليب رزق- مصدر سبق ذكره ص 234 - 238.

وحدث من قبل دولة تدعي احترام الدستور وحقوق الإنسان وحق التعبير. مما لا شك فيه أن كتابة سيرة ذاتية من قبل السلطان هو حق مشروع يقره القانون الدولي والدساتير الإقليمية، فكم الآن من إصدارات لا تساوي ثمن الحبر الذي كتبت به تحكي سيرة من لم يبلغ أظفار علي دينار وطنية ومقاومة للوجود الأجنبي بالبلاد، بينما الأحفاد الآن يرثون في أحضان الغرب ويرضعون من ثدييه، إن لم نقل في حقهم أسوأ من ذلك مما نعرفه ومالا يطيق سماعه أهل الأدب والحياء والخلق الرفيع.

وخلال فترة الاحتلال الفرنسي لحدود دار فور الغربية منذ أكتوبر 1909 وحتى نهاية سنة 1912م قام السلطان بالاستعانة بالحكومة الثنائية مرحلياً لدفع الخطر عن بلاده. بيد أن الحكومة الثنائية بالإضافة إلى عجزها عن أن تعمل شيئاً لم تخف مخاوفها تجاه السلطان حيث ظهر ذلك في عبارات دبجت بها معظم الخطابات المرسلة إلى السلطان وهي (ما دمت موالياً) ... (ما دمت وافياً) ... (ما دمت مخلصاً) مما يدل على عدم الثقة ومدى الشك والريبة التي كانت تراود الحكومة الثنائية تجاه السلطان. وببداية سنة 1913م تجددت المباحثات بين كل من إنجلترا وفرنسا حول حدود الحدود الغربية لدار فور ودار الخلاف بين الدولتين حول الأولويات. هل يتم بحث ملكية دار تاما ودار مساليت أولاً أم لا؟ فقد كانت وجهة النظر الفرنسية ترى بحث ملكية المناطق المتنازع عليها أولاً. بينما كانت وجهة النظر الإنجليزية ترى ضرورة الاعتراف بتبعية دار تاما ومساليت أولاً لدارفور ثم تخطيط الحدود⁽⁹⁵⁾. هذا ما سبقت الإشارة إليه وببداية سنة 1913م. ونتيجة لهذا الخلاف فقد ترك إنجلترا الأمر لجراي وزير الخارجية البريطانية لدعوة فرنسا لعقد مؤتمر ثنائي لبحث ملكية مناطق بعينها⁽⁹⁶⁾ سواء في باريس أو لندن ونال هذا الاقتراح تأييد كل من سلاطين والسير ونجت والمعتد البريطاني بالقاهرة (المنسوب السامي). ولكن الحكومة الفرنسية استمرت في تسويق الأمر. وطفق السلطان مواصلاً شكواه ولكن دون جدوى. وبدأ التبرير لهذا التأخير من قبل سلاطين بأن الدول الكبرى مشغولة بمسألة كبرى وهي قضية الصلح بين الدول المتحاربة (دول البلقان وتركيا)⁽⁹⁷⁾.

S.N.A Intel 1/1/3

S.N.A Intel 1/1/3

S.N.A Intel 7/3/4

⁽⁹⁵⁾ الحاكم العام إلى كشنر في 1913/1/16م

⁽⁹⁶⁾ وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد كشنر في 1913/1/17م

⁽⁹⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 1913/1/21م

وفي هذه الأثناء ورد من الحكومة الفرنسية خطاب في معرض ردها على تعيين الحدود مقتضاه بأن هذا لن يتم إلا إذا فرضت الحكومة الثنائية سيطرة تامة على دار فور وأحيل هذا الأمر إلى القاهرة ومن ثم إلى الخرطوم. واعترض عليه سلاطين باشا سنة 1913م. لأن ذلك مكلف كما لا توجد قوة عسكرية يمكنها القيام به بما يلزم لتنفيذ هذا الإجراء. إضافة إلى أن ذلك أن تم يعتبر خرقاً صريحاً للاتفاق المبرم مع السلطان والقاضي بأن يكون حاكماً لبلاده مدي الحياة ما دام مخلصاً وفياً للحكم الثنائي. ويردد كتشنر نفس الآراء التي أورها سلاطين⁽⁹⁸⁾. ولكن يبدو أن فرنسا تنفيذاً لاستراتيجيتها المتعارضة مع استراتيجية بريطانيا في المنطقة كانت تعني ما تقول بقية إخراج الحكومة الإنجليزية وإضعاف قوتها ووجودها في السودان ومن ثم مصر. لقد رأى سلاطين والحاكم العام: (إن وقتاً كبيراً قد ضاع في سبيل تبادل وجهات النظر وتجميع الوثائق اللازمة لبحث الأمر)⁽⁹⁹⁾. ويبدو أنهما قد أدركا تسويق فرنسا. وفي المقابل تنازلت بريطانيا فاقترحت أن يترك هذا الأمر للوسطاء بعد أن تعذر النقاء المسؤولين المباشرين من قبل الدولتين⁽¹⁰⁰⁾. ويبدو أن فرنسا قد استمرت سياسة التسويق. وبذل سلاطين كل ما في وسعه لتهدة السلطان وأنفق آخر ما في جعبته من تبريرات كما مر. وقبل أن ينال الاقتراح البريطاني موافقة الفرنسيين بشأن اقتراح الوسطاء بدأت الحكومة الثنائية في تجميع الأدلة اللازمة استعداداً لعرضها على الوسطاء في حالة موافقة الفرنسيين⁽¹⁰¹⁾. وخلال هذه الفترة قام السلطان بالاتصال المباشر بالفرنسيين الأمر الذي أزعج الحكومة الثنائية لما بين الدولتين من تنافس استعماري. هذا رغماً عن الصداقة الظاهرة بينهما⁽¹⁰²⁾. ولم يقطع السلطان علاقته بالحكومة الثنائية حيث أرسل التزامه السنوي وأعلن المفتش بقوله: (واصلين إليكم أولادنا ... الدودة وما معه لأجل تسديد الجبل المقرر للحكومة سنوياً)⁽¹⁰³⁾. وفي يونيو من ذات العام رفع سلاطين

(98) bid

(99) د. يونان لبيب رزق، ص 254 - 256

(100) الحاكم العام إلى كتشنر في 1913/2/2م ورده في 1913/2/4م S.N.A Intel 1/1/3 .

(101) نفسه S.N.A Intel 1/1/3 .

(102) من سلاطين إلى السلطان في 1913/4/28م S.N.A Intel 7/3/14

(103) السلطان إلى المفتش في 1913/5/26م، 1331/4/23هـ S.N.A Intel 7/3/1

مذكرة تعكس وجهة النظر الرسمية داخل أروقة الحكومة الثنائية. حيث رأت الحكومة في حالة عقد مؤتمر الوسطاء لا بد من استدعاء ثلاثة أشخاص والاستماع لرواياتهم بصدد تحديد الحدود. أول هؤلاء الزبير باشا الذي غزا دار فور سنة 1874م. والثاني سلاطين باشا الحاكم لدار فور (1879-1881). والثالث النور عنقرة حاكم كيكبية (1878-1881) وثلاثتهم أحياء. وقدم سلاطين في 6/20 مذكرة عضد فيها بأدلة قوية تبعية هذه المناطق لدار فور وعدم أحقية ودّاي بها⁽¹⁰⁴⁾. وراودت السلطان فكرة إصدار سجل حافل عن حياته وجمع ذلك في كتاب حاول طبعه في القاهرة كما مر. ولما فشلت محاولته الأولى حاول هذه المرة أن يستغل علاقته بالحكم الثنائي لخدمة هذه القضية بيد أن وجهة النظر الثنائية كانت لا تزال ترى في طبع هذا الكتاب خطورة على الاستقرار السياسي في البلاد. وإن ذلك السفر سيخلق منه زعامة دينية وسياسية تشكل خطورة على الوجود الأجنبي بالبلاد ويرسخ أقدامه. وقد يهز ذلك كيان الحكم الثنائي في البلاد. لذلك حاول سلاطين إنشاء بأسلوب ماهر فيه دهاء مقتضاه أن سيرة الرجال لا تكتب عنهم إلا بعد مماتهم. وإن طباعة هذا الكتاب سيؤدي إلى الطعن في شخصيته. لذا يطلب منه أن يؤجل طبعه في الوقت الراهن⁽¹⁰⁵⁾. هذه محاولة جادة من قبل السلطات الثنائية لعزل السلطان وإضعاف صورة وجوده. ومحاولة محو أي أثر له يمكن أن يشكل جذوة أو رمز مقاومة واعتزاز بالذات ضد الوجود الأجنبي بالبلاد. وفيما يتصل بالحدود فقد ساد الحدود الغربية هدوء تام. وترك الأمر للمساعي الدبلوماسية. ووافق السلطان على فتح حدوده مع ودّاي. بيد أن ذلك الإجراء لم يصحبه هدوء على الحدود الشرقية حيث قام مساعد مدير المخابرات بشكوى رعايا السلطان لما قاموا به من اعتداءات على رعايا الحكومة. ونفى السلطان من جانبه هذه الادعاءات ووصفها بأنها وشايات كاذبة بقوله: (ربما عربان حمر يريدون بها إثارة الفتن والشواشر في دار فور ويلقون لجنايكم فيها الدعاوى الكاذبة)⁽¹⁰⁶⁾.

S.N.A Intel 1/1/3.

S.N.A Intel 7/3/1.

S.N.A Intel 7/2/20 .

⁽¹⁰⁴⁾ مذكرة سلاطين في 1913/6/20م

⁽¹⁰⁵⁾ المفتش العام إلى السلطان في 1913/7/28م

⁽¹⁰⁶⁾ ثلاثة خطابات السلطان إلى مساعد مدير المخابرات 1913/8/22م، 1331/9/19م .

وعلى صعيد آخر بدأ السلطان يتذمر من تهديدات الحكومة الثنائية تجاه علاقاته الخارجية بدولة فرنسا وذلك بعد يأسه من الوعود التي أضحت كالسراب. مشيراً إلى ذلك بقوله: (وكنتم خابرتُموني بعدم المنزعة معهم في الحدود وبشَرتُموني مراراً إنكم تجرون راحتي منهم في حدود آبائي وأجدادي ولذلك تنازلت عن منازعتهم... وللآن لم يحصل لنا منهم راحة) ⁽¹⁰⁷⁾. هذه العبارات القوية والصريحة تؤكد على أن الحدود التي يحكمها والمنطقة الواقعة تحت سيطرته هي منطقة وحدود آبائه وأجداده، وبالتالي لا مجال لمنة أحد عليه بتتصيه أو توليته عليها فهي حق وإرث تاريخي دون منازع. أما بشأن علاقاته بفرنسا وتهديدات الحكومة الثنائية له فأشار بقوله: (وأما من جهة كوني نواصل فرنسا بصفة الخضوع أو الانكسار فحاشا وكلا) ⁽¹⁰⁸⁾. وعن التهديدات قال: (فأني أرى في بعض المكاتبات التي تصدر لنا من جانبكم تحررون إلينا بالتهديدات فما السبب وعلى أي شيء تهددونني. إذ أني بفضل الله ليسني من الناس الذي يلينهم التهديد واعلموا أني لا أخشى من مخلوق إلا من الله) ⁽¹⁰⁹⁾. هذه هي الشخصية الفوراوية شخصية عنيدة وجبارة. من هذا النص يبدو أن العلاقات الفوراوية الثنائية وصلت حد المفاصلة وظهر السلطان على حقيقته. وبدت شخصيته المستقلة القوية التي لا تلين قناتها لتهديد، وبدأ واضحاً أن الحكومة الثنائية لا تملك إملاء سياسة بعينها عليه وأن التهديد لا يجدي معه فتياً. وفي هذه الأثناء قام بتهديد قبيلة الرزيقات ⁽¹¹⁰⁾. التي ربما رأى في إزاحتها حلاً لمشاكل بلاده الداخلية أو لربما كان قصده من ذلك لفت نظر الحكومة الثنائية إلى قوته وإمكانية المقاومة لها.

واقترنت الحكومة الثنائية من جانبها بأنه ليس أمامها من سبيل أو إمكانية لفرض سياستها أو نفوذها على السلطان داخلياً أو خارجياً. وأقرت بذلك على لسان ستيوارت بقوله: (ولا نملك الفرصة لإبلاغ السلطان بأنه يعمل بصورة غير شرعية فيما يتصل بالشؤون الخارجية أو الإدارة الداخلية للسلطنة) ⁽¹¹¹⁾. هذا النص يؤكد وضعا مستقلاً لدار فور ويقرر وجود علاقة خارجية لها. وأن الحكومة لا تملك فرض سياسة معينة

⁽¹⁰⁷⁾ السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ - S.N.A Intel 7/2/15.

⁽¹⁰⁸⁾ السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ - S.N.A Intel 7/2/15.

⁽¹⁰⁹⁾ السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ - S.N.A Intel 7/2/15.

⁽¹¹⁰⁾ استيورات إلى الباشا في 1913/9/22م - S. N.A Intel 1/1/3

⁽¹¹¹⁾ استيورات إلى الخديوي في 1913/9/22م - S.N.A.Intell 1/1/3

عليها سواء في الداخل أو في الخارج. ويشير من ناحية أخرى إلى عدم منطقية الوجود الإنجليزي في البلاد. بيد أن السياسة الغربية تاريخها الأسود في أفريقيا من جنوبها إلى شمالها لا تعرف المنطق لا سيما حين يتعارض أمر ما مع مصالحها الاستراتيجية في المنطقة. فيصبح حينئذ منطقها هو منطق الغاب كما هو الحال الآن في العراق وأفغانستان والجزيرة العربية وفي آسيا وأفريقيا عموماً. وفي الواقع فقد تمتعت دار فور بهذا الوضع المستقل منذ زمن بعيد حيث يذكر الرحالة (أنو. ف. ميلانو) عن رحلته عبر دار فور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. حيث قال: (ومن السودان عبرنا خلال كردفان ومن ثم إلى دار فور)⁽¹¹²⁾. هذه من الأدلة التاريخية القوية التي وردت في مكاتبات المخابرات الثنائية الرسمية والتي تؤكد علي أن دارفور قد تمتعت بوضعية خاصة ومتميزة عن غيرها من أقاليم السودان المختلفة مما يشكل عقبة في تجاوز الحكومة لحدودها واستيلائها على دار فور من يد سلطان يعتبر أن دار فور هي مهد سلطنة آبائه وأجداده .

وفي هذه الأثناء تجددت مشاكل الرزاقات بإيعاز من الحكومة الثنائية. وهي سياسية غربية قديمة حديثة معاصرة. حيث أن الفتى في عضد الوحدة لا يتم إلا عن طريق استخدام عناصر محلية مغفلة نافعة، وبذكاء من قبل هؤلاء الغربيين الذي أصبحوا يمتلكون الآن قدرات أمنية ذات قدرات وإمكانات إعلامية هائلة بإمكانها جعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وأجهزة استخبارات تتمتع بقدرة فائقة على تمرير كل الأجندة الخفية دون وعي أو إدراك من أدواتها المحلية المنفذة، أو عن طريق شراء نهم من لا ذمة لهم ولا خلق كريم ولا أصول لهم أو لهم. لقد رأى السلطان انحرافاً يومها في سياسة الحكومة الثنائية تجاه موسى مادبو. وضاق ذرعاً بعصيان موسى مادبو وقومه وحماية الحكومة الثنائية له وإثباتها للسلطان عن مهاجمته أو تهديده فعبر عن ذلك الامتعاض بقوله: (وأما موسى مادبو جهته معلومة أنها تابعة لنا وجاهر بالعصاوة .. وأمهلهنا ولم يرجع عن العصيان وفساده ... وصاروا أهل الدار يتطاولوا ويقتلوا المستخدمين ويتوجهوا لدار موسى يقيموا بها. وكثيراً ما تطاول وسعى في أمر الفساد وما دام أنه بالتبعية لي معاذ الله أن أتركه على هذا الحال)⁽¹¹³⁾. إن السلطان على

دينار هنا يتكلم باللسان الدارفوري الذي لا يعرف المهاودة أو التنازل. كما ويجسد ترجمة صادقة للتنافس القبلي والطبيعة الجغرافية والتربية والثقافة القبلية في دار فور.

هذا بالإضافة إلى أن مشاكل الحدود الغربية لا تزال تشكل حجر عثرة في وجه العلاقات الفوراوية الوداوية. وقد أشار إلى ذلك سلاطين في مقابلة صحفية بقوله: (أن مشكلة الحدود بين دار فور ووداي لا تزال قائمة ونأمل أن تحل هذه المشكلة بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية إما باتفاقية بين الدولتين أو بواسطة بين الدولتين)⁽¹¹⁴⁾. من خلال هذا التصريح تتضح نوايا الحكومة الإنجليزية في تجاوز أهل البلاد الأصليين. إذ تنصب إنجلترا وفرنسا نفسيهما وصيتان علي مقدرات الأمم والشعوب. وتعتمدان إلى تغييبها عن اتخاذ القرارات المصيرية بشأن أوطانها. وهذا بالضبط ما يحدث الآن بواسطة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا. الأمر الذي يدل على أن مشكلة الحدود لا تزال معلقة. وأن مشاكل الحدود قد تعذر حلها بالطرق الدبلوماسية. وإن لم يتعذر حلها فيمكن أن يقال أن الحلول الدبلوماسية ذات نفس طويل لا يقنع السلطان بجدواها. وفي الواقع فقد تقدمت فرنسا باقتراح مؤداه أن تقوم قوة ثلاثية مكونة من إنجلترا وفرنسا ومصر بغزو دار فور. وتخوفت الحكومة الثنائية البريطانية من هذا الاقتراح لعدة أسباب:

أولها: أن وجود القوات الفرنسية في كل من دار تاما ومسالييت ومشاركتها في قوات الغزو سيثبت حقها في هذه الأقاليم (الدار فوراوية). وبذات الدعوى التي تمكنت بريطانيا بموجبها من التواجد في السودان يمكن لفرنسا أن تثبت بها حقها الإحتلالي الإغتصابي في هذه المناطق في أي مفاوضات دولية قادمة .

ثانياً: عدم امتداد خط السكة حديد حتى النهود سيزيد من تكلفة الحرب والحكومة الإنجليزية المصرية غير مستعدة لذلك.

ثالثاً: هناك أمل كبير في خضوع علي دينار للحكومة الثنائية⁽¹¹⁵⁾.

(113) السلطان إلى سلاطين 1913/10/24م، 26 ذو القعدة سنة 1331هـ S.N.A Intel 7/2/

(114) فاينانشيال تايم عدد 23 أكتوبر 1913م D.S.A Box.121

(115) المخابرات في القاهرة في 1913/10/28م S.N.A Intel 1/1/3

وفي هذه الأثناء تجدد عزم السلطان على تأديب الرزيقات وإن كانت الحكومة الثنائية لا تؤيد هذه الخطوة. ولكن حفاظاً على علاقتها بالسلطان قررت ردهم إلى ديارهم في حالة فرارهم إلى كردفان⁽¹¹⁶⁾. إرضاءً له ومحاولة لخطب وده ولو إلي حين. وقام سلاطين بالاعتذار عن أسلوبه بشأن علاقات السلطان مع فرنسا بقوله: (... أن جل ما أرمي إليه .. هو أن أخلص لكم النصيحة في كل أموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة)⁽¹¹⁷⁾. هذا الاعتذار يوافق موقف الحكومة وضعفها إزاء التدخل في دار فور في الوقت الراهن. إذ إكتفت بالحسني حيث أنها لا تملك القوة لمواجهة الأمور بحزم في دارفور حالياً. فاقترضت الحنكة والسياسة استخدام مثل هذه الألفاظ الرقيقة والشفافة لتهديئة روع السلطان والمحافظة على وده .

بيد أن السلطان قد ازدادت شكوكه لاسيما بعد أن رأى تجاهلاً من قبل الحكومة البريطانية حقيقة، المصرية اسماً لشكواه وتغافلاً قد يكون مقصوداً إزاء الرد على رسائله فعبّر عن ذلك بقوله: (كما أخبرتكم بكلام واقع هنا لم تعتمدوا قولي ولم تصدقوا كلامي بل جعلوه مكنوباً .. رفعت لكم مسائل كثيرة مراراً وتكراراً. وما أفدتموني عنها وقد تعجبت من ذلك وإن كانت الحكومة نقضت عهدها معي نفاذ من سعادتكم لنكون على بصيرة في أمرنا)⁽¹¹⁸⁾. ورأى في عدم اعتماد أقواله تكذيباً له. هذا فيما يتعلق بمشاكله لاسيما مع الرزيقات وتهديداته لهم. ومحاولة الحكومة كفكة جنوحه لتأديبهم من وقت لآخر. الأمر الذي جعله يفقد الأمل ولكنه لم يقطع حبل الوصل ولم يقدم على نقض العهود القائمة بينه وبين الحكومة .

وطلب في ذيل خطابه موافاته بموقف الحكومة حتى يتدبر أمره ويتخذ من الإجراءات ما يحفظ ما وجهه. وهذا التذليل فيه سياسة وحكمة حيث لا يهدف إلى استباق الأحداث والمبادرة بالنقض والعداوة. هذا بالرغم من أن لديه من الدلائل ما يدل على نقض الحكومة لعهودها وموائيقها من عدم تصديقه والتغافل عن رسائله

S.N.A Intel 7/3/14 .

S.N.A Intel 7/3/14 .

S.N.A Intel 7/2/6

⁽¹¹⁶⁾ سلاطين إلى السلطان في 1913/11/27م

⁽¹¹⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 1913/11/27م

⁽¹¹⁸⁾ السلطان إلى سلاطين في 1913/12/7م 10 محرم 1332هـ

ومحتواها. نلاحظ أن هذه الفترة قد طفحت فيها قضايا القبائل الحدودية. وكادت أن تؤدي بالعلاقة الفوراوية الثنائية. لذا حاولت الحكومة التدخل في شؤون السلطان الداخلية فتضجر السلطان من هذا التدخل. وخلال هذه الفترة برزت أيضاً إسلامية توجهات السلطان واعتصامه بمبادئه وافتخاره بترائه وشريعة ربه بوضوح وجلاء. ويمثل ذلك بلورة تامة لاتجاهاته لدرجة حدث بالحكم الثنائي أن يتناولها في رسائله الرسمية مع السلطان. ووصل السلطان إلى قناعة مؤداها عجز الحكم الثنائي عن حمايته. بل بدأ يتشكك في نواياه تجاه بلاده. لذا فكر في فتح علاقات مع قوى أخرى بإمكانها إنقاذه والوقوف إلى جانبه فحاول الاتصال مع الفرنسيين. الأمر الذي أغضب السلطات الثنائية التي شعرت بعجزها تجاه جنوحه الداخلي أو الخارجي. وبدأت الحكومة الثنائية في نهج سياسة تهدف إلى إضعاف قوة السلطان الحربية. واستخدم بعض القبائل في شكل طابور خامس. هذه الفترة تنبئ بحدوث تغيير جوهري وأصيل في مسار العلاقات الفوراوية الثنائية وذلك من خلال ما مر ذكره من بلورة لاتجاهات السلطان الإسلامية وبروز شكوك ترسبت في أعماقه إزاء مواقف الحكم الثنائي تجاه العديد من المشاكل التي تم طرحها. هذا بالإضافة إلى عجز الحكم الثنائي إزاء التدخل الفرنسي فقي بلاده.

الفصل الرابع

الفترة الرابعة 1914-1916م

تشكل هذه الفترة الزاوية الحرجة في العلاقات الفوراوية الثنائية وقد تأثرت بما عم الكرة الأرضية من أحداث لاسيما الحرب الأوربية الأولى والتي تسمى عالمية تجاوزاً، وإن لا فهي حرب أوربية بحتة من حيث الأهداف. ومن حيث النتائج، ولكن من باب تزوير التاريخ وتجيير الحقائق وتضخيم الأحداث وخطط الأكوام لخدمة أهداف غربية ذات طبيعة استراتجية أضفي عليها ثوب عالمية وغدونا نردد ذلك بوعي أو دون وعي. وتركت تلك الفترة جروحاً لم تندمل. كان لها أثرها الواضح على مسار العلاقات بين دارفور والحكومة الثنائية. ولا يخفي أن الغربيين ناجحون في تزوير التاريخ وتجيير الحقائق بما يتفق وأهدافهم الإستراتيجية، ويدخل في هذا المعني ما يسمي بمنظمات المجتمع المدني و منظمات حقوق الإنسان والديموقراطية والحريات العامة الخ... القائمة التي يرددها ببغاوات العالم الذي يسمي ثالثاً دلالة على تخلفه وعدم وعيه وأهله بما يدور ويحاك ضده وضدهم. ففي مستهل سنة 1914م جاءت شكوى من السلطان إلى الحكومة الثنائية بشأن هروب موسى مادبو أحد رعاياه من دار فور إلى كردفان. ووجد هناك مأوى⁽¹⁾.

وبررت الحكومة الثنائية ذلك بأن استقدام موسى مادبو إلى الخرطوم أرادت به تهديد قبيلة الرزيقات إن لم تتصاع لأوامر السلطان فإنها ستدخل هذا الزعيم وقبيلته إلى حدود الحبشة⁽²⁾. وهذا الرد قد يكون فيه دهاء أرادت به الحكومة الثنائية تهدئة خاطر السلطان إلى حين. وهو من باب المسكنات الوقتية إلى حين حسم قضية دارفور مع فرنسا.

(1) السلطان إلى سلاطين في 7 يناير 1914م الموافق 10 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(2) ثلاثة خطابات من سلاطين إلى السلطان في 8 يناير 1914م الموافق 11 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

وقد قام سلاطين بتبديد شكوى السلطان مؤكداً له أن الحكومة لا تزال على عهدهما القديم من الصداقة وإن ما إعتور العلاقة الفوراوية الثنائية لا يعدو عن كونه سحابة صيف أو أمراً طارئاً يتبدد على صخرة العلاقة المتينة القائمة بين الطرفين⁽³⁾. ويبدو أن السلطان من جانب آخر بدأ يتعامل مع القبائل (الحدودية) بالمثل، مما أدخله في حرج إزاء علاقته مع الحكم الثنائي، بيد أنه تلاجى ذلك باعتذار يلطف جو العلاقة إلى حين دفعا لذلك الحرج⁽⁴⁾. في هذا الأثناء قامت بعض العناصر^(*) التي تستفيد من الصيد في الماء العكر بإثارة الفتن والقلق رافعة شكوى كاذبة إلى الحكومة الثنائية ضد السلطان. الأمر الذي أزعج السلطان كثيراً. لاسيما بعد استجابة الحكومة لسماع مثل هذه الشكاوى فقال: (وأما أنا مزهدة نفسي ملكها - دار فور - فإذا كان نجد رخصة من الحكومة بالتوجه للحرمين الشريفين لعائلي وخدامي فو الله وبالله لا ننتظر يوم واحد في دار فور بل نقوم نتوجه ونتركها لأهاليها)⁽⁵⁾. هذا القول يعكس مدى الإحباط الذي وصله السلطان ويكشف عن دور الحكومة الضعيف إزاء نصرته. لذا يبدو أنه قد أراد بهذا الخطاب وهذا القدر من العبارات استدراج عطف الحكومة الثنائية حتى تعرض عن هؤلاء المغرضين حيث لا يتوقع منه التنازل بمحض إرادته عن سلطنة يحسب أنها إرث تاريخي لا ينازعه فيه أحد. وقد نصب نفسه دون مشورة أو موافقة من أحد.

وحق للسلطان أن يتشكك في نوايا الحكومة حيث أن رأيها تجاه قضية الحدود الدارفورية الفرنسية لا يزال غامضاً. وبدأت الحكومة الثنائية تنقض عهودها شيئاً فشيئاً حيث نرى أن اتفاقها السابق بمشاركة السلطان بمندوب في المفاوضات وإيعازها له بذلك قد تلاشى. وأبدت اقتراحاً جديداً وهو ترك الأمر للوسطاء على أن يكون أحدهم بريطانياً وثانيهما فرنسياً والثلاثة الباقون من أقطار أخرى⁽⁶⁾. مما يدل على عدم إيفائها

(3) ثلاثة خطابات من سلاطين إلى السلطان في 8 يناير 1914م الموافق 11 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

(4) السلطان إلى سلاطين في 14/3/1914م الموافق 18 ربيع الآخر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(*) نعني بها القبائل الحدودية مثل الكبايش والزيقات التي ظلت تقتبز أي فرصة للعدوان .

(5) آخر السلطان إلى سلاطين في 14/3/1914م S.N.A. Intel 7/4/1

(6) كابتن كلايتون إلى اللورد كتنر في 18/3/1914م S.N.A. Intel 7/4/1

بما أبرمته من اتفاق سابق مع السلطان باعتباره صاحِب حق ولا شك أن وجوده في مثل هذه المفاوضات ضرورة لازمة. بيد أنها نكصت عن ذلك العهد لأن وجوده في مثل هذه المفاوضات سيضعف ويقلل من نفوذ الوجود البريطاني في المنطقة ويدفع بالكرة لصالح الوجود الفرنسي. هذا النكوص في حد ذاته مؤشر خطير وهام إذ يؤكد علي أن الدول الأوروبية والغربية عموماً في سبيل صالح لعب الورق لصالحها يمكن أن تضحي بكل العهود والمواثيق الإقليمية والدولية والمحلية. وما يحدث الآن وتقلبه كل الفضائيات هو تكرار لما حدث في الماضي خلال القرنين المنصرمين من قبل هذه الدول من دون استثناء. وحاول سلاطين أن يقابل السلطان وفق أي شروط يضعها السلطان كما ترك له اختيار المكان والزمان⁽⁷⁾. بيد أن السلطان لم يرد على هذا الطلب في الحال. ويبدو أنه لم يكن راغباً في ذلك أو لربما رأى أموراً أخرى أهم من اللقاء في الوقت الحالي. لذا يبدو موقف السلطان غامضاً بشأن إجراء هذا اللقاء. ولكن الذي يبدو للمتأمل أن السلطان كان علي قدر من الذكاء والاعتبار بما حدث لأسلافه في هذه المنطقة من قبل الرجل الأبيض الذي لا يؤمن له نجائب. وبعد لأي أرسل خطاباً إلى سلاطين عرض فيه عليه حلاً لمشكلة الحدود بين كردفان ودار فور واقترح السلطان إرسال مأمور أو مفتش من قبل الحكومة ومندوب من قبله لحلها. ولم يتجاهل أمر المقابلة التي طلبها سلاطين بقوله: (وأما عقدكم للنية في إرادة مقابلي معكم فبعد عودتكم من الإجازة إن شاء الله نفيد جنابكم بالمحل الذي نتقابل فيه والرجاء في الله يحصل الخير)⁽⁸⁾. بدأ يتضح أن السلطان غير راغب في مقابلة سلاطين ولكنه لم يصرح بذلك خوفاً من ردة الفعل التي قد تؤثر على مسار العلاقات بين الطرفين في الوقت الراهن علي الأقل لذا لجأ إلى الحيلة والمماطلة عوضاً عن الأسلوب المباشر الذي لا يتفق والحنكة السياسية والدهاء الدبلوماسي.

وبعد مرور شهر قام السلطان باحتجاج علي ما طلبته الحكومة منه إزاء ترحيل المحمل. وأشار إلى أن أمير المحمل كان يحمل مبلغاً كافياً وأضاف: (.... بل ما

⁽⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 1914/3/21م الموافق 1332/4/24هـ S.N.A. Intel 1/1/3

⁽⁸⁾ السلطان إلى سلاطين في 1914/4/23م الموافق 1332/5/28هـ S.N.A. Intel 7/4/1

فعلتموه كان إكراماً منكم. فكان الواجب أن سعادتكم لا تطالبوني بشيء فعلتموه انتم معروفاً منكم. وأما إن كان قصدكم تمنعوني من طريق الحج فاخبروني ظاهراً لأتركه وأفوض أمري إلى الله⁽⁹⁾. لقد السلطان بحساسية مفرطة إزاء تصرفات الحكم الثاني. ودرج على التفسير العدائي لكل ما يأتي إليه من قبل الحكم الثاني الأمر الذي يدل على تمكن الشك من نفسه. وبالتالي فقد تبلور لديه موقف جديد قد عزم على اتخاذه. إلا أنه لم يتوان ولو للحظة عن محاولاته لاستمرار عطف الحكومة إزاء مطالبه ومواقفه. ولئلا يثيرها ضده فقد عبر عن وجهة نظره بأنه يرى أن هذه التسهيلات وهذه الخدمات هي إكرامية مقابل ما يدفعه للحكومة الثنائية من التزام سنوي. وأرفق ذلك بخطاب آخر جاء فيه احتجاج على التدخل في شئونه الداخلية بصورة غير مباشرة، مؤكداً أن الشكاوى التي تصل الحكومة بشأن عدالة حكمه وظلمه للرعية لا تصدر إلا من المغرضين من الحساد (أفواه الحساد المتمردين بالتميمة والغل - الحسد - ، - وذلك لأن - الراحة التي وجدوها في أيامي وفي زماني يعلم الله ورسوله ما فعلها لهم أحد في الملوك الذين سلفوا من قبلي ولا شك إذ أنهم لا يحصل لهم من بعدي)⁽¹⁰⁾. هذه العبارة الأخير تعرض بالحكومة أو من تحدثه نفسه لحكم دار فور بأنه لا يستطيع توفير الأمن والاستقرار، وتحقيق العدالة بين الرعية كما هو الحال في ظل حكمه. وهي في ذات الوقت تعكس اعتداداً بالذات وثقة بالنفس وافترة ولا تخلو من مبالغة. إذ أن من المعروف إن جده عبد الرحمن الرشيد لم يلقب بالرشيد إلا لعدله وتقواه وعلمه وحببه للعلم والعلماء. فالعلم حرز وافي والتقوى مانعة من الظلم. كما أن جده السلطان محمد الفضل قد بسط سلطانه علي رقعة واسعة من الأرض وبسط الأمن في دارفور وما جاورها.

وقد شغلت دار فور خلال هذه الفترة بالحاكم العام، ويبدو أن هناك تدابير بريطانية تحت الطاولة تتخذ بيد أنها لم تر النور. الأمر الذي اقتضى من الحاكم العام أن يقطع إجازته السنوية في بريطانيا ويأتي فوراً إلى السودان ويسارع لمقابلة سلاطين

(9) السلطان إلى سلاطين في 1914/3/21 الموافق 1332/4/24 هـ . S.N.A. Intel 7/4/1

(10) السلطان إلى سلاطين في 1914/4/23 الموافق 1332/5/28 هـ . S.N.A. Intel 7/4/1

والمشاورة معه حول ما يمكن اتخاذه في هذا الصدد، وهذا ما أشار إليه ونجت بقوله: (لقد قررت أن أرجع إلى الخرطوم في تاريخ أسبق، كما كنت قد عقدت العزم عليه وذلك أساساً بهدف مقابلتك قبل رحيلك للشمال للتفكير حول دار فور)⁽¹¹⁾.

وفي محاولة متكررة لمقابلة السلطان حرر سلاطين خطاباً آخر يطلب فيه مقابلة السلطان مرة أخرى. هذا بالرغم من عدم حصوله على الموافقة في المرة السابقة، وتجاهل السلطان طلبه السابق. يطلب منه هذه المرة حصول لمقابلة ولو لساعات قليلة بقوله: (مقابلة شخصية لمدة ساعات قليلة تأتي بعدة فوائد جمّة على البلاد والرعية). ولكنه يبدو أن السلطان كان أكثر ذكاءً ووعياً لأن هؤلاء الأوروبيون لا يؤمن لهم جانب، ولا يحترمون عهداً أو ميثاقاً، وما حدث في دار فور من قبل جسي للإيطالي لسليمان الزبير لا يمكن لعلي دينار أن ينساه بحال. في هذا الوقت الذي شعرت فيه الحكومة الثنائية بأنه قد فقد الأمل في اتصالاتها الدبلوماسية. وحاول السلطان إجراء الاتصالات المباشرة مع الفرنسيين لحل مشكلة الحدود الغربية. حيث قام السلطان بإرسال خطابين إلى حاكم وداي الفرنسي يأمل في أحدهما رد البغاة الذين سلبوا من بعض القبائل أموالاً ومواشي وهم بدار سلا. وفي الخطاب الثاني عرض لمشكلة بخيت أبو ريشة أحد رعايا الفرنسيين لاعتدائه على حدود دار فور ويطلب من الحكومة الفرنسية معاقبته وإفادته. وإن لا فإني أعامله بمثل فعله أن حصل له مني شيء فلا تلموني وما تعملوه يفادنا)⁽¹²⁾. هذا الخطاب يوضح أن السلطان بدأ يتعامل مع الفرنسيين تعاملًا مباشراً باعتباره كياناً سياسياً مستقلاً وحاول أن يثبت وجوده باعتباره سلطاناً مستقلاً مما أثار شكوك الحكومة الثنائية نحوه. فحاولت إثثاءه عن مثل هذه الاتصالات وذلك التوجه وتزهيده في نتائجها وجدواها. وقام سلاطين بنصحه بعدم مكاتبة الفرنسيين بقوله: (لأن مخاطبتكم لها لا تأتي بأدنى فائدة أو نتيجة وكونوا واثقين بأننا مهتمين في هذه الأمور)⁽¹³⁾. ولا زال سلاطين يلح في طلب مقابله ويعدد المبررات المقتضية لذلك ولو لسويعات بقوله: (لأن حكومة فرنسا من جملة الأسباب

(11) ونجت إلى سلاطين في 9/5/1914م الموافق 1332/6/14هـ D.S.A Box 223/1

(12) السلطان إلى الكولونيل الفرنسي في 18/4/1914م الموافق 20 جمادي الآخرة سنة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(13) سلاطين إلى السلطان في 20/5/1914م الموافق 25 جمادي الآخرة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

التي تنتحلها تبريراً لأعمالها فإنها تقول للدول الأوربية إن دار فور ليست تابعة للحكومة الإنجليزية المصرية، إلا بصورة رسمية ظاهرية فقط. وتقرر أقوالها هذه بقولها إنكم منذ رجعتُم إلى دار فور لم تقابلوا واحداً من رجال الحكومة وأنه للآن لم يتوجه واحد من رجالها إلى دارفور وإن كل ما تعرفه عن دار فور مأخوذ من الأخبار التي ترد في جواباتكم⁽¹⁴⁾.

هذه محاولة جديدة من الحكومة الثنائية أرادت به أن تحفظ ماء وجهها أمام الدول الأوربية. هذا بالرغم من اقتناعها بوجاهة الأدلة التي قادتُها فرنسا بشأن دار فور. فعدم دخول أي مسئول حكومي ثنائي إلى دار فور أو استطاعته مقابلة السلطان لأكثر من خمسة عشر عاماً فيه دلالة استقلالية واضحة وأن دار فور لا تخضع إلا خضوعاً إسمياً للحكومة الثنائية. وكان سلاطين يهدف من هذا اللقاء لإيجاد مندوحة تبرر ادعاء الحكومة الثنائية تبعية دار فور لها. بيد أن السلطان من جانب آخر كان يرى أن خروجه من دارفور أو مقابلته لأي شخصية أوربية داخل حدود بلاده أو خارجها قد يعني خلعه وتجريده من سلطانه. وسحب البساط من تحت رجليه. ولم يكن غافلاً عن تدابير الحكومة الثنائية ودعمها لجهات أخرى غيره. وكان حريصاً على سلطنته واستقلالها وحمايتها حتى آخر قطرة من دمه. ولا زال يسعى لتقوية جبهته الداخلية وبناء ترسانته الحربية. ويطلب تزويده بالأسلحة والجبخانه واستجابات الحكومة الثنائية لطلبه ولكن بحذر تام. فجاءته الموافقة بتزويده بالجبخانه. (اللازمة بثمنها الأصلي ... وسيرسل مع الدود عشرة صناديق جبخانه من رمنتون وكرنجل)⁽¹⁵⁾.

وفي المقابل فقد اعتذر السلطان عن المقابلة معللاً ذلك بأسباب صحية نتيجة لرحلته في أرجاء المنطقة. ولم يوصد أبواب الأمل أمام سلاطين حيث ذكر أنه في نيته الالتقاء به ولكن الله لم يرد. وسيتم ذلك إما على الحدود أو أثناء توجهه إلى الحرمين الشريفين⁽¹⁶⁾. وهذا كله من باب الدبلوماسية الناعمة ومحاولة الحفاظ على الشعرة

⁽¹⁴⁾ سلاطين إلى السلطان في 1914/5/25 الموافق 30 جمادي الآخرة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/4

⁽¹⁵⁾ I bid

⁽¹⁶⁾ السلطان إلى سلاطين في 1914/6/17 الموافق 22 رجب 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

القائمة بين الطرفين، إلا أن الحقيقة تؤكد على أن السلطان لم يرد في حساباته ولو لحظة واحدة أن يقابل سلاطين أو أي مندوب من الحكم الثنائي، إذ كان يدرك بعين البصيرة أن مقابلته لأي من المسؤولين يعني خلعه أو تبعيته للحكم الثنائي، وهو يريد أن لا يفهم عنه هذا الأخير، هذا في الوقت الذي أوت فيه الحكومة الثنائية شخصية فوراً من عائلة السلاطين ويدعى (عبد الحامد) ويبدو أنه بإيعاز من الحكومة الثنائية بدأ الاتصال بالشخصيات ذات الوزن في دار فور بغية التأثير عليها وتوظيفها وتوظيف رصيدها الاجتماعي والسياسي لخدمة المشروع الاستعماري الغربي في البلاد مما أثار حفيظة السلطان وأزعج منامه وأشار إلي ذلك بقوله: (إن عبد الحامد الذي أويتموه أصبح يتصل بالناس هنا ويتأمر معهم الأمر الذي أدى إلى سفك الدماء في السنة الماضية. وإذا كان إدعاؤه صحيحاً بإمكانكم إرساله إلى دار فور ليحكمها وفي المقابل سأغادر دار فور إلى مكة أحب البقاع إليّ من أي مكان آخر. بما في ذلك دار فور. وإن لا فأرجو عمل اللازم بمنعه من الاتصال بالناس هنا وإثارتهم)⁽¹⁷⁾. هذه الحادثة لها دلالتها الموضوعية والمنطقية، أولاً: تؤكد على أن السلطان كان شديد الحساسية إزاء الحكم الثنائي، وثانياً: تشير إلي أنه كان يقظاً إزاء هذه السياسة الغربية الماكرة وكانت له عيونه الراصدة، وثالثها: أنه كان لا يزي أن هناك أحق بهذا الأمر منه، فلذا لا يسمح بوجوده، ورابعها: أنه كان مستعداً لكل الاحتمالات، والتي أكد مراراً بأنه علي استعداد للتنازل إذا اتصلت الحكومة عن التزاماتها نحوه. وفي تقدير الباحث أن ذلك كله كان من باب الإستهلاك السياسي إذ كيف يتأتى لرجل مثله بنى حاضره خطوة مشاهداً على الأشواك. وشق طريقه علي الصخر أن يتنازل بهذه الصورة أو بهذه السهولة وتلكم السذاجة. لعل ذلك من المستحيلات الصعبة لدي رجل في قامته وتاريخه وموروثه. لقد أضحي السلطان لا يطيق وجود شخصية في دار فور سواء. لاسيما إن وجدت دعماً من الحكومة الثنائية. وقد تمتعت دار فور بمخابرات قوية الأمر الذي يدل عليه كشف أوراق عبد الحامد ومؤامراته في دار فور.

(17) السلطان إلى سلاطين في 17/6/1914م الموافق 22 رجب 1332هـ D.S.A. BOX. 228

في هذه الأثناء بعث موسى مادبو خطاباً للحكومة الثنائية ذكر فيه أنه قد أوى شيخ الماهرية الذي قد هرب من ظلم السلطان ويطالب موسى مادبو بأن تضم بلاده للحكومة الثنائية هروباً من ظلم السلطان⁽¹⁸⁾. هذا هو ذات المنعطف الخطير وذات المستتقع الأسن الذي تعيشه دار فور الآن استغاثة واستعداد غير مبرر لقوى خارجية لتسوية قضايا ذات طبيعة محلية متكررة وذات جذور تاريخية معروفة وذات دلالة ومغزى ثقافي لا يخفى على أحد. وهو من باب تسييس قضية ثقافية كان يمكن حلها في إطارها الطبيعي عن طريق الشيوخ والعمد والشراتي. يبدو واضحاً أن هذا الكلام على عمومه لا يخلو من مبالغة لاسيما ما ورد في خطابي كل من شيخ الماهرية وموسى مادبو من وصف جائر لدار فور بأنها أرض ظلام وأن كردفان المحتلة هي أرض النور. لا شك أن هذا الوصف الظالم لا ينطبق تمام الانطباق على ما هو جار في دارفور. بيد أن العداء والشحناء بين المتخاصمين تقتضي قدراً من "المبالغة في الجار بالشكوى ويبدو أن روح العداء هي التي إقتضت صدور مثل هذا الكلام.

وقام السلطان بإرسال خطاب آخر يندد فيه بسياسة الحكومة الثنائية الرامية إلى إيواء أعدائه السياسيين لاسيما من أفراد العائلة الحاكمة. الذين ثبت لديه أن لهم اتصالات مشبوهة. وقد نوه لذلك في خطاب سابق وقام مساعد مدير المخابرات هارولد ماكمايكل بنفي ما سبقت الإشارة إليه مؤكداً أن عبد الحامد أحد أفراد العائلة الفوراوية الحاكمة برئ براءة الذنب من هذه الاتهامات التي أوردها السلطان بقوله: (وقد قابلته مراراً ولكني أؤكد لكم أنه لم يذكر لي دار فور ولا من فيها)⁽¹⁹⁾. لربما كانت اتهامات على دينار لقريبه حقيقة حاولت الحكومة تغطية ذلك بالنفي، أو لربما كان الحسد من جراء إيواء الحكومة لأحد أفراد العائلة وإعطائه إمتيازات هو الذي حدا بعلي دينار إلى مثل هذا الاحتجاج والتدبير. وكان السلطان يدرك أن سياسة الحكومة غير مستقرة تجاهه فلربما قد وجدت بغيتها في هذا العمل، وقد رأى السلطان في وجوده تهديداً لكيانه. ولا يستبعد أن تخطط الحكومة الثنائية لذلك أي لإبعاد السلطان

(18) موسى مادبو وشيخ الماهرية حسب الله إلى سلاطين في 12/7/1914م D.S.A. BOX. 228

(19) ماكمايكل إلى السلطان 28/7/1914م الموافق 23 رمضان 1332هـ A.N.A. INTEL 7/4/3

عن الساحة السياسية بعد إضعاف موقفه وإحلال أحد أفراد لعائلة مكانه لتجنب الغضبة المحلية وإشباع الرغبة الاستقلالية لدى الرعية بشخصية تضمن الحكومة ولاءها وفق شروط تضعها عليها. شريطة أن يكون ذلك البديل بمثابة كرزاي أفغانستان أو علاوي العراق أو أشباههما من عملاء العالم الثالث. حيث نلاحظ أن الأسلوب الغربي الإحتلالي بالرغم من اختلاف الزمان والمكان والأحداث والأشخاص فيه درجة من الرتابة والتماثل بصورة تثير التقزز لدى من يقرأ مفردات التاريخ بوعي وذكاء. ولكن للأسف أننا ممتدحون عليها أن لا نقرأ التاريخ ومفرداته بذكاء ودرجنا على أن نلدغ من ذات الجحر مرات ومرات لأننا لسنا بمؤمنين.

وعلى صعيد آخر بدأ عجز سلاطين واضحا حيث بدأ هارولد ماكمايكل*، في بذل محاولات جديدة مستخدماً دهائه وسلطته بغية زجرحه السلطان عن رأيه في إجراء تلك المقابلة وعرض عليه فوائدها بقوله: (حتى يمكنني أن أقنع الحكومة بضرورة إعطائك السلاح والجبخانه لتأييد سلطنتك في دار فور)⁽²⁰⁾ وطلب منه في خطابات سابقة إقامة العدل وتحقيقه بين رعيته. في الواقع أن هذا الإلحاح المتكرر وهذا الطلب المتوالي من أجل إخراجه من دار فور من أجل المقابلة أو دخول أحد الأوربيين إلى بلاده لمقابلته يزيد المرء شكاً على شكه ويجعل السلطان يرتاب أكثر في أمر هؤلاء القادة. هذا أسلوب إغرائي لم يحرك في السلطان ساكناً بالرغم من ضربه وثرأ محبباً لدى السلطان وهو حصوله على السلاح المطلوب. إلا أن شك السلطان كان قوياً في

*- رجل الاستخبارات والإدارة والسكرتير الإداري والأكاديمي البريطاني فقد كان الإنجليز في السودان يعملون باستراتيجية بعيدة المدى غايتها طمس الهوية السودانية. وقد تركت الإدارة البريطانية هذا الأمر لشخصيات بريطانية استخباراتية أكاديمية علي مستوى عال من الدربة لتلعب أدواراً مزدوجة (فهي استخباراتية وإدارية وقضائية وسياسية ودينية وأكاديمية في ذات الوقت). وقد كانوا أساتذة في كلية غوردون للتذكارية لكبار الشخصيات السياسية والاجتماعية والأساتذة السودانيين الذين أصبحوا فيما بعد أرقاماً معتبرة في البلاد بعد خروج الإنجليز حسب الخطة البريطانية لإيجاد البديل الفاعل والوكيل المؤتمن من قبل أسياده في إنجلترا لمسح الشخصية السودانية وفق المواصفات الغربية وقد كان. وبالمناسبة فقد كان هارولد ماكمايكل هو مؤلف كتاب تاريخ العرب في السودان (A History of The Arabs in Sudan) والذي أصبح بتخطيط واستراتيجية مدروسة مصدراً هاماً في الدراسات السودانية. وهو واضع سياسة وقانون المناطق المقفولة عندما كان السكرتير الإداري في منتصف ثلاثينات القرن العشرين الذي ما زال السودان يعاني من آثاره السالبة سواء في الجنوب أو في غيره من مناطق السودان الأخرى.

(20) I bid.

الحكومة، وتدابيرها تجاه سلطنته. بيد أنه لم يترك إشارة ماكمايكل بإقامة العدالة تمر دون احتجاج عليها والتتويه بها. مما حدى بهارولد ماكمايكل مساعد مدير المخابرات أن يعتذر للسلطان صراحة بقوله: (فلا يصح أن يُقال أن رسالتي تهديدية لأنني أنصح وأذكر حتى لا يحصل منكم الغلط وكل إنسان في هذه الدنيا عرضة للغلط)⁽²¹⁾.

وورود عبارة "سلطنتك" في خطاب رجل مسئول في استخبارات الحكم الثاني ذات دلالة قوية ومعتبرة بأن هذه السلطنة هي سلطنة مستقلة. في هذه الأثناء بدأت العلاقات الفوراوية الثنائية تدخل طوراً جديداً من صداقة حميمة إلى علاقة فاترة تتسم بروح التحفظ، بل تصل إلى مرحلة اختراق الحدود والقبض والاعتقال من الجانب الآخر. يعكس ذلك طلب السلطان من الحكومة الثنائية إطلاق سراح أحد أقربائه الذي أعتقل بسبب اختراقه مع مجموعة من رجالات دارفور الحدود الثنائية ولم يجب طلبه إلا بعد إستيفاء دراسته تماماً⁽²²⁾. لم يصل هذا الفتور بالعلاقة الثنائية الفوراوية إلى حد القطيعة التامة. لاسيما وأن الحكومة الثنائية وبحكم إدارتها الإنجليزية فعلياً والمصرية اسمياً لم تكن بمعزل عن مجريات الأحداث العالمية والمتغيرات الدولية. لذا حاولت كسب جانبه، لاسيما في وقت اشتعلت فيه حرب أسموها كونية زوراً وبهتاناً. وهي حرب أوروبية منطلقاً ومنتهى كما حدث في حرب أفغانستان والعراق اللتين أسموهما زوراً وبهتاناً دوليتين وهما في الواقع حرب أمريكية بريطانية إبتداءً وإنتهاءً وهدفاً وغاية. فقام ونجت بإعلام السلطان بنشوب الحرب بين بريطانيا العظمى وبين كل من ألمانيا وتركيا. وزعم له بأن الجيوش الإنجليزية قادمة إلى سيناء وطلب منه أن يقبض على كل من يقوم بترويج الإشاعات ضد إنجلترا وأن يرسله إلى الحكومة الثنائية⁽²³⁾. لكن يا ترى هل يرضى علي دينار بهذا الدور الوضع الذي رضي به الكثيرون في السابق، والآن على مستوى السودان أو على مستوى العالم العربي والإسلامي حديثاً وحالياً؟ من حسن الطالع لم يكن علي دينار من هذا النوع الوضع السافل غاية ووسيلة، ولم تصنعه العناية الإلهية ليقوم بدور البوق والسجان أو الشرطي الحارس

(21) I bid.

D.S.A. BOX. 228
S.N.A. INTEL. 7/4/10

(22) ماكمايكل إلى ونجت في 1914/8/29
(23) ونجت السلطان 1914م من غير تحديد اليوم والشهر

لمصالح الغرب في بلاده. فليته قام من قبره الآن ورأى ما يدور في دارفور وبقيّة أجزاء السودان من أحداث وكيف غفل أهل البلاد عنها، فألبسوا الحروب والمشاكسات ثوب الأثنية جرياً وراء دعاية وأطروحات الأعداء دون وعي أو بوعي. ولئلا يحدث صدع في الجبهة الداخلية طلبت الحكومة الثنائية من السلطان التنازل عن حملته على الرزيقات. وقد استجاب السلطان لهذا النداء بالرغم من شكواه بتأمر موسى مادبو⁽²⁴⁾. أما بشأن المقابلة مع سلاطين أو نائبه فقد اعتذر السلطان تارة أخرى بأن صحته لا تسمح له في الوقت الراهن بذلك. واقترح النقاء مندوبين من قبله مع المفتش العام ومناقشة ما يلزم مناقشته⁽²⁵⁾. هذا الأسلوب يعبر عن موقف السلطان الثابت من رفضه المبدئي لمقابلة سلاطين أو غيره من عصابة الحكام المحتلين الأوروبيين بالبلاد. ومن جانب آخر حاولت الحكومة الثنائية أن تكسب ود السلطان بأي ثمن وتحت أي سقف بأن أرسلت إلى موسى مادبو خطاباً تحذره فيه من الكتابة إلى رعايا السلطان وتحريضهم على الثورة بعد أن وضع السلطان يده على خطابات تحريضية من قبل موسى مادبو. أولهما كان موجهاً إلى المقدم محمد الزين دليل أمين سر السلطان. وثانيهما إلى آدم النور حاكم الهبانية يحرضهما فيهما على الثورة ضد السلطان. وقام على دينار بإرسال هذين الخطابين إلى سلاطين⁽²⁶⁾. بعد الإطلاع على خطاب موسى مادبو المذكور يتضح للباحث أن هذا الخطاب لا يحتوي على تحريض يذكر⁽²⁷⁾. إلا أنه يبدو أن السلطان كان لا يرغب في أي اتصال يجري بين أحد مقربيه وبين خصمه اللدود موسى مادبو.

ومن باب المجاملة والمحافظة على حسن الجوار وبعد إطلاعه على الخطاب رد سلاطين بأن موسى مادبو جاهل ويطلب من السلطان العفو عنه والتجاوز عما بدر منه⁽²⁸⁾. هذا الأسلوب يبدو فيه بعض التنازل في موقف الحكومة لربما كان ذلك لظروف الحرب الأوربية ومحاولة كسب ود السلطان وضمان جبهته في الوقت

(24) S.I.R. 242.

(25) السلطان إلى سلاطين ف 1914/9/25 الموافق 15 شوال 1332 هـ S.N.A. INTEL 7/4/1

S.N.A. INTEL 7/475

S.N.A. INTEL 7/475

S.N.A. INTEL 7/475

(26) موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914 م

(27) موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914 م

(28) موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914 م

الراهن. ولجأ السلطان تارة أخرى إلى أسلوب المناورة السياسية حيث أرسل خطاباً وعد فيه بمقابلة سلاطين. ولذا يلاحظ ولأول مرة ومنذ 1898م يرسل الحاكم العام خطاباً يخاطب فيه علي دينار بلفظ السلطان⁽²⁹⁾. الأمر الذي يدل على تغيير تام في سياسة الحكومة وبدأت حاجتها إلى كسبه واضحة جلية لاسيما وإن الحرب التي أسموها الحرب الكونية الأولى بدأت نذرها تلوح في الأفق، وقد سر الحاكم بموافقة السلطان المبدئية لمقابلة سلاطين. ورأى السلطان ضعفاً في موقف الحكومة فعزم على حصول أكبر قدر من المكتسبات. لذا قام باتهام زعيم الرزيقات بالتآمر والاتصال بالأعيان بغية إثارتهم ورد الحاكم العام على هذا الاتهام بنقاط يبدو فيها ضعف الحكومة وموقفها حيث قال: (إن الرزيقات ومنذ القديم تابعين لدار فور وسلطنتكم ولا يمكن لموسى مادبو أن يؤثر عليهم)⁽³⁰⁾. إن هذا الأسلوب لا يخلو من تجاهل تام لما ذكره علي دينار بشأن موسى مادبو وأثره على قومه وقبيلته. فمن المعروف أن موسى مادبو هو زعيم الرزيقات فكيف لا يكون له أثر على أتباعه. لا شك أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة أراد بها الحاكم العام أن يتهرب من أساس القضية. وتجددت شكاوى السلطان ضد رجالات الحكومة الثنائية في كل من كردفان والنهود ورد الحاكم العام بقوله: (إن كل إنسان معرض في حكمه للخطأ)⁽³¹⁾.

هذا الكلام فيه قدر من الاستعطاف والتنازل عن بروح الكبرياء الاستعمارية حيث كان الرجل الأوربي يعتقد دوماً أنه على صواب. بيد أن ظروف الحرب التي أسموها الحرب العالمية الأولى زوراً وبهتاناً والخوف من حدوث طابور خامس يهدد القوى الاستعمارية في كل البلاد هما اللذان دفعا الحاكم العام للإقرار بهذه الحقيقة وخطب ود السلطان بهذا الأسلوب الذي فيه رقة وتلطف. ولعل مخاطبة السردار لعلي دينار بمصطلح "السلطان المعظم" لأول مرة ذات دلالة سياسية. وفي رده على احتجاج السلطان بشأن وهجرة قبائل من دار فور وهجرهم لها أن ذلك مرده القحط الذي أصاب

دار فور ورأفة الحكومة. وأشار إلى أن الأمر يمكن طرحه على مائدة النقاش بحضور مندوبين من الطرفين⁽³²⁾. هذا الأسلوب اقتضته ظروف الحرب أما تلك التنازلات فقد اقتضتها المصالح وهذا شأن أوربي قديم حديث، حيث شعرت الحكومة الثنائية بأنها بحاجة للسلطان خشية أن تستميله القوى التركية الألمانية إلى جانبها فيشكل طابوراً خامساً داخل البلاد، فيبطل فعالية مشاركتها.

وحاول الحاكم العام أن ينقل للسلطان ما يدور من أحداث. هذا من وجهة النظر البريطانية بقوله: (الحرب قد نشبت بين دولة بريطانيا العظمى والأتراك الذي هم تحت سلطة ونفوذ أنور باشا. الأتراك في كافة أعمالهم كانوا يسرون بموجب إشارة دولة ألمانيا ويعملون حسب رغائبهم... وانتشرت سيطرتهم - الألمان - بين الطبقات الجاهلة من الأمة التركية التي لا تعرف شيئاً عن حقائق الأمور أو مصالح الأمة... إذا تمكن أحد رجال الألمان أو أحد أعوان الأتراك من الدخول إلى دار فور تحت ستار التنكر أو التخفي.. عن طريق السودان أو عن طريق آخر أن تلقوا القبض عليهم وترسلوهم لنا إلى هنا)⁽³³⁾. نسي الحاكم العام أن السلطان مسلم غيور على دينه واع لواقعه مدرك لما يحيط به. تربطه بالعثمانيين روابط العقيدة وأن رؤاه الإسلامية تجاوزت حدود المحلية أو الإقليمية الضيقة، لذا لا غرابة أن عرض بقوة بريطانيا حال استلامه لخطاب السردار وكذا عرض بسطوتها أو جبروتها مقررأ أن هذه الصفات هي لله رب العالمين.

أما بشأن علاقته بالحكم الثنائي فأشار إلي أنها قد انتهت باختراق الحكومة لحدوده. وذكر أنه قد بلغته أخبار منذ قريب مفادها أن الحكومة قد قررت احتلال دارفور. وأكد أنه لا يعلن العداوة ضد أحد ولكن من بادأ العدوان فسيؤكل هو علي الله ويستعينه ويواجه أعداءه⁽³⁴⁾. إن هذا الخطاب بهذا الأسلوب يعتبر أول خروج واضح على الدبلوماسية الناعمة التي اعتاد السلطان على نهجها إزاء الحكم الثنائي مما

S.N.A. INTEL 7/4/3

S.N.A. INTEL. 7/4/3

S.N.A INTEL 7/4/10

⁽³²⁾ السردار إلى السلطان المعظم في 1914/11/11م

⁽³³⁾ السردار إلى السلطان المعظم في 1914/12/12م

⁽³⁴⁾ السلطان إلى السردار في 1914/12/18م

يعني أنه قد وصل إلى خط لا رجعة فيه مع الحكم الثاني، وأنه قد حدد سبيله بوضوح وجلاء. ومن جانب آخر، هذا يعتبر أول علاج صريح لانفكاك العلاقة القائمة بين الطرفين. وفي الوقت ذاته احتفظ السلطان بخط الرجعة مشيراً إلى أنه لا يبادئ أحداً بالعداوة. وربما أراد من هذه الخطوة استنفاد الإمكانيات المتاحة وإستغلال الظرف الراهن بغية الحصول على مكاسب تدعم موقفه. وأراد الحاكم العام أن يلبس الوقوف إلى جانب الحكومة الثنائية شرعية تستمد قوتها من الدين ومواقفة رجالاته. من أمثال علي الميرغي حفيد مؤسس الطريقة الختمية في السودان وعبد الرحمن المهدي، والشيخ يوسف الهندي أحد الأعيان والمشايخ. لعل الحاكم العام أراد أن يلقي في روع السلطان وجوب الوقوف مع بريطانيا في حربها ضد ألمانيا وتركيا. بيد أن السلطان عرض بهؤلاء الشيوخ بقوله: (إن فائدة هؤلاء بعد موتهم لا تعود إلا عليهم)⁽³⁵⁾. وعرض بالحاكم العام بقوله: (إنك غيرت وبدلت في الإسلام). عله أراد بذلك تسفيه محاولة الحاكم العام إضفاء الشرعية الدينية على الوقوف بجانب الحكم الاستعماري الإحتلالي في البلاد ومغامرة بريطانيا في حربها ضد المسلمين. هذا بالإضافة إلى نظرته إلى القوانين التي تطبقها الحكومة وقد عرض بها من قبل وسخر منها كما مر. ويبدو أن السلطان كان متقدماً في وعيه الديني ومستواه الثقافي حيث تمكن من تجاوز عششة الأفكار البالية على عقله من الاعتقاد بصلاحية موقف الشيوخ والزعماء وإن كانوا على خطأ ما داموا أبناء بيوت دينية وتاريخية. حيث ذكر أن صلاحهم أو عدمه يعود عليهم لوحدهم لأن المسؤولية في الآخرة فردية وليست جماعية وبالتالي لا ينبغي لأحد كائناً من كان أن يقلدهم في خطأهم ما دام قد عرف الحق بنفسه.

بهذا الإعلان الصريح بدأت الحكومة تنظر إلى السلطان بعين الريبة والحذر وأصبحت تصلها تقارير دورية عن تحركات السلطان وعددية جنوده، واستغل خصوم السلطان هذه الفرصة بإعطاء معلومات قد لا تكون على درجة عالية من الصحة مما جعل سلاطين يتشكك في صحتها⁽³⁶⁾. وهذه مسألة طبيعية وقد تفسر ما يجري

الآن في دارفور. وبالرغم مما جرى فإن سلاطين لا يزال سائراً في محاولاته الرامية إلى استقطاب السلطان. وزرع الكراهية بينه وبين الفرنسيين طالباً منه عدم مكابلتهم أو استلام أي رسالة منهم بقوله: (وفي حالة تسلمك مراسلات من موظفي الحكومة بودّاي يدعونك للدخول في اتفاقيات ... الرجاء أن ترد على النحو التالي: عليهم: موظفي حكومة ودّاي أن يقوموا بمثل هذه المراسلات من خلال الحاكم العام للسودان)⁽³⁷⁾.

بدأ واضحاً أن نشوب الحرب قد آذن بانفصام العلاقة الفوراوية الثنائية وبغروب شمس المغازلة بين الطرفين. ويعكس الخطاب السابق مدى الشك وعدم الثقة السائدة في أوساط القوى الأوربية التي يضمها معسكر واحد. وضعفت ثقة السلطان بالقوى الأوربية الغربية قاطبة، لاسيما بعد أن علم أن فرنسا وإنجلترا قد دخلتا الحرب حليفين. بذا تحققت شكوكه بأن الدولتين الكافرتين تهدفان إلى الإستيلاء على كل شيء⁽³⁸⁾. ووفقاً لهذا الاتجاه وافق السلطان على قبول دعوة أنور باشا⁽³⁹⁾. وازداد استياء السلطان من الحكومة الثنائية لعدة أسباب أولها: عدم إعطاء الحكومة له ما طلبه من معونة ضد العدوان الفرنسي على حدوده الغربية: (دار القمر - دار مساليت - دار تاما)، ثانيها: عدم معاونته بصورة فاعلة ضد تابعه النائر موسى مادبو. ثالثها: ضعف موقفها تجاه القبائل الفارة من دار فور إلى كردفان مثل قبيلة "الزيادية". رابعها: رفضها مطالبه المتكررة بالسلاح والذخيرة وكانت تلجأ في غالب أحيانها إلى اتحافه بهدايا هو في غنى عنها وإن زودته بسلاح فبقدر ودون الحد المطلوب⁽⁴⁰⁾. وكانت الحكومة الثنائية من زاوية أخرى تنظر إلى السلطان بنظرة مفعمة بالمرارة حيث أثبت التقدم الفرنسي نحو حدود دار فور، أن العلاقات الفوراوية الثنائية أصبحت بحاجة إلى إعادة نظر. ووجدت الحكومة الثنائية نفسها في ضوء هذه العلاقات القائمة مكتوفة الأيدي⁽⁴¹⁾.

S.N.A. INTEL 1/1/2

⁽³⁷⁾ سلاطين إلى السلطان في 1914/1/19م

⁽³⁸⁾ يونان لبيب، مصدر سبق ذكره، ص 376 - 377

⁽³⁹⁾ المصدر نفسه ص 376 - 377

⁽⁴⁰⁾ المصدر السابق ص 373 - 377

⁽⁴¹⁾ المصدر نفسه ص 373 - 377

وأجمل السلطان أسباب عدائه وخصومته للحكم الثنائي في خطاب أرسله إلى علي الميرغني الذي كان يعتبره وكيلاً له فيما يلي: أولاً: عدم إيفاء الحكومة بالتزاماتها. وثانيها: تضيق الخناق على المحمل المرسل إلى الحرمين الشريفين بالتفتيش عن السلاح والجبخانه التي بدأ في إستجلابها من أرض الحرمين⁽⁴²⁾. ولا يدري المرء عما إذا كان السلطان يفعل ذلك عن وعي وإدراك تام لدور ووظيفة علي الميرغني في الحكومة الثنائية أم أنه كان يفعل ذلك بغية خلق مستوى من التشكيك بين الموالين للحكومة. وكانت إجراءات الحكومة تلك طبيعية حيث كانت ترقب بحذر شديد علاقاته الخارجية، متحفزة للتدخل في أي وقت شاءت. وبالتالي بدأت تتخوف من قوته الصاعدة مما يهدد الوجود المصري الإنجليزي في المنطقة بأسرها⁽⁴³⁾. وشعرت الحكومة الثنائية بخطورة الأمر لاسيما بعد أن بلغ مسامعها وجود بعثة سياسية سنوسية في الفاشر فسارعت بإرسال جواسيس للإطلاع على طبيعة الأحوال في دارفور. حيث رأت في ذلك تهديداً لأمن المنطقة⁽⁴⁴⁾.

ولم يكن السلطان غافلاً عن هذه التدابير الثنائية. وبعد أن وضع يده علي جاسوس مخابرات الحكومة الثنائية، بدأ يزوده بإخبار مضللة عن قواته وأسراه. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أخذ يضيف أشياء في التقرير السري للمخابرات المرسل من قبل جواسيس الحكومة في بلاطه⁽⁴⁵⁾. الأمر الذي يدل على قدراته وإمكاناته الاستخباراتية، حيث كان يبطل مفعول كثير من المحاولات الثنائية لاختراق صفوفه.

وبدأ السلطان في دواخله يشعر بمرارة إزاء موقف الحكومة البريطانية تجاهه وعبر عن ذلك في خطاب آخر بعث به إلى علي الميرغني مجملاً ومفصلاً الأسباب التي اقتضت وقوفه ضد الحكم الثنائي في البلاد. أولها: اعتداء الفرنسيين وعدم فعالية الحكم الثنائي. ثانيها: تأمر موسى مادبو وبعض القبائل علي سرقة أسلحته وخیوله وحصولهم على الحماية من الحكومة الثنائية، ثالثها: اعتداء الزيدية على حدوده

(42) المصدر نفسه ص 373 - 377

(43) المصدر نفسه ص 373 - 374

(44) المصدر نفسه ص 238 - 239

(45) تقرير المخابرات في 1915/2/28م

الشرقية وقيامهم بنفس الدور الذي تقوم به القوات الفرنسية من الناحية الغربية. وفي مقابل هذه الشكاوى اكتفت الحكومة الثنائية بتوثيق شكواه دون اتخاذ أي خطوات رادعة تذكر ضد المعتدين، رابعها: نقض الحكومة لعهودها بأن قررت استلام دارفور منذ سنة، خامسها: طلب من الحكومة السماح له بشراء أسلحة من الحجاز بيد أنها أدعت أن ذلك ممكن شراؤه من الخرطوم فأرسلت له جزءاً واستلمت ثمن الجزء الثاني ولم ترسله له بعد سفر سلاطين، سادسها: أن الكفار يجب أن لا يؤمن جانبهم لقوله تعالى: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم). وأهاب بعلي الميرغني بعدم موادنتهم لأنهم أعداء الله. وذهب إلى أن دار فور محمية وأن حمايتها ربانية. وأنه سوف لا يقابل هؤلاء الكفرة ولا يجتمع بهم إلا إذا كانت له قوة في جبل الحلة تحمي ظهره من غدرهم المعهود وهذا هو السبب الحقيقي لعدم مقابله لسلاطين⁽⁴⁶⁾.

لعل هذا الخطاب قد تضمن عدة حقائق تلقي الضوء على جوانب هامة وعديدة من سياسة السلطان الخارجية، وتعامله مع الحكم الثنائي حيث كان يرقب خطواته بخذر شديد ويتخذ من الأحداث الجارية عِبْراً تحدد الإطار لأبعاد العلاقة الفوراوية الثنائية، ولقد اعتبر في حماية الحكومة الثنائية للقبائل (الحدودية) قدراً من الغدر ونقض للعهد. ولم يكن غافلاً عما يجري في الدوائر الثنائية حيث دلت معلوماته على أن تخطيطاً ظل يجري أعداده لاستلام دار فور وقوى عنده هذا الاعتقاد بعد تباطؤ الحكومة الثنائية وتحايلها عليه عندما أراد شراء أسلحة من الحجاز بعد اقتناعه بعدم الجدوى وإمكانية حصوله على ما يطمح إليه من أسلحة من جانب الحكومة البريطانية. وظل يؤكد في النهاية مبدأ قرآنياً إلا وهو عدم موادة الكفار والثقة بهم أو الركون إليهم. لعل هذا السبب الأخير هو الذي اقتضى عدم مغادرته لعاصمته طوال فترة حكمه لمقابلة سلاطين أو غيره من المسؤولين الأوروبيين. وكان يعتقد أن لا سبيل للمقابلة ما لم تتوفر لديه القوة الرادعة في نقطة الالتقاء، لذا لجأ إلى الأعذار الواهية. ولعل هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها النقاب بصورة واضحة وجليّة عن موقفه الثابت إزاء مقابلة أي مسؤول وروبي وهو موقف يقوم على ثوابت الدين وعبر التاريخ مما يعني أنه قاريء جيد لمفردات التاريخ وقيم الدين.

ويعكس هذا الخطاب الجهد الذي بذله السلطان للاتصال بالقوى الإسلامية الوطنية من مشايخ وأعيان بغية إستنهاضهم لمقاومة الحكم الثنائي اسماً البريطاني حقيقة والخارج عن الملة. مما لا شك فيه أن هذا الموقف يعكس أصالة فكرية وبعداً في النظر إفتقر إليه كثيرون من أمثاله في وقته وفي وقتنا الراهن ممن إرتموا في أحضان الغرب دون وعي أو رشد. ولم تقتصر جهوده على ذلك بل حاول توحيد جبهة المسلمين الداخلية وخلق طابور خامس في أراضي الحكومة الثنائية فبعث بخطاب إلى زعامة قبيلة الكبابيش يستنفرهم فيه ضد الحكم الثنائي البريطاني ويعددهم بالقُدوم إلى دارهم. ويناشد زعيمهم القيام بواجبه نحو الإسلام والعمل معاً لنصرة الإسلام وأنه سينال جزاء عظيماً، ويطلب منه الانضمام إليه حين قدومه إلى ديار الكبابيش بيد أن زعيم الكبابيش لم يكن على سعة في الأفق ولم يكن على مستوى الحدث والتاريخ والمسئولية الوطنية شأن كثير من الزعماء الذين عاصروه وكثير من القيادات السياسية والاكاديمية والحزبية المعاصرة. فقام بدور العميل "حيث أرسل خطاب السلطان إلى الحكومة الثنائية⁽⁴⁷⁾. إن هذه المحاولات المتكررة من السلطان تعكس قدرته على الحركة والتأثير وأنه كان يتمتع بقدر من الشجاعة وأصالة الموقف، وأن قناعاته لم تتبدل لحظة من حيث موالاة الكفار والركون إليهم، وأن مواقفه السابقة وتعامله مع الحكم البريطاني وعلاقته به لم تعد عن كونها تكتيكاً مرحلياً. لعل ذلك التصرف من قبل زعيم الكبابيش وكشفه عن سرية هذه الاتصالات يرجع إلى قصر نظر زعيم الكبابيش وعدم ارتفاعه إلى مستوى الأحداث فكشف بذلك أوراق السلطان، وخططه الرامية إلى تأليب القوى الوطنية ضد الحكم الأجنبي.

وبدت للحكومة الثنائية روح السلطان الإسلامية وأن عداؤه لهم أمر يقتضيه الدين، بذا لم ينبت السلطان عن خلفيته الثقافية وتكوينه الفكري ونزعتة الذاتية ذات الاتجاه الإسلامي الواضح. وبدا واضحاً أن السلطان يمكن أن يقوم بالدور المهدوي ويهدد وجودها في البلاد ولكن من منطلق آخر وعلى مسرح آخر. وبوصول خطاب السلطان علي دينار إلى السلطات الثنائية أبدت الأوساط الثنائية دهشتها إزاء هذا النهج السياسي العدائي. واعتبرت ذلك تعدياً صريحاً وتجاوزاً وعدم اعتراف بالحكومة، وتهديداً

(47) علي دينار إلى زعيم الكبابيش في 9 رجب 1333هـ الموافق 2 مايو 1915م S.N.A. INTEL 7/4/10

لمصالحها مما يشكل طابوراً خامساً يشل الحركة الإنجليزية الإستعمارية في المنطقة⁽⁴⁸⁾. ومن ما هو معلوم أن الثورة المهدية مهما اختلف الناس حول مسبباتها وآثارها إلا أنه لا يختلف اثنان حول ما تركته من اعتزاز بالذات السودانية وإضعاف لهيبة الأجنبي في نفوس العامة، وانقسم الناس يومها إلى معسكرين لا ثالث لهما، أما مع الإنجليز وأما مع الوطن والدين وهو ذات الدور الذي قامت به في العصر الحديث الثورة الإيرانية ومجموعة إبن لادن حيث أن الغرب كان ولا يزال في روع بعض ضعاف النفوس وخائري الإرادة أنه القوة التي لا تقهر والجهة التي لا يرد لها طلب. بيد أن بروز مثل هذه الظواهر الايجابية في تاريخ الأيم ترد الأمور إلى نصابها إذ أن القوة التي لا تقهر أو لا تغالب هي قوة الله وحده .

وحاول الحاكم العام رغماً عن حدة اللهجة الفوراوية أن يهدئ ثائرة السلطان وان ينفي كل الإتهامات. وعزا سوء التفاهم الحادث إلى الوشائات المغرضة من قبل أعداء كل من دار فور والحكومة الثنائية⁽⁴⁹⁾. في هذه الأثناء قام السلطان بغارة على الرزيقات مما حدا بالحكومة الثنائية أن ترسل وحدة تطوف بالنهود. بيد أنها في الوقت ذاته كانت تخشى أن لا يفسر الرزيقات ذلك تعاضداً فيسدرُوا في عصيانهم ولئلا يتأزم الموقف مع السلطان⁽⁵⁰⁾. وحاولت القبائل (الحدودية) أن تقطع حبال الوصل القائمة بين الحكومة الثنائية ودار فور حيث قام ناظر الكبابيش بإرسال خطاب إلى الحاكم العام يشير فيه إلى الخطوات والخطابات التي وصلته من السلطان وتهديداته له. وأشار إلى أن السلطان علي دينار يريد أن يقوم بثورة شبيهة بثورة المهدي والخليفة عبد الله لتدمير السودان. وإستعدى ناظر الكبابيش الحكومة طالباً منها حمايته من السلطان⁽⁵¹⁾. في هذا التصرف تبدو النظرة الضيقة ووضاعة الهدف والغاية واستعداد الأجنبي لحل قضايا ذات طبيعة محلية. وهو عين ما يدور الآن على الساحة السياسية في الشرق والغرب والجنوب والشمال، فالجانب الذي يعجز عن الصمود والمقاومة يستعين بالأجنبي لتصفية حسابات شخصية وأن أفضى الأمر إلى الادعاء الكاذب. فعلي دينار

(48) نائب مدير المخابرات إلى السكرتير الخاص في 1915/5/25م S.N.A. INTEL 7/4/10

(49) الحاكم العام إلى السلطان في 1915/5/28م S.N.A. INTEL 7/4/10

(50) ونجت إلى كلايتون في 1915/5/31م D.S.A Box 31/4

(51) على التوم إلى ونجت في 1915/6/20م S.N.A. INTEL 7/4/10

يختلف عن المهدية فكراً وروحاً ومذهباً وسياسة، فوصمه بأنه يريد أن يقوم بثورة شبيهة بثورة الخليفة عبد الله أسلوب رخيص كما يحدث الآن تحت شعار التهميش والاسترقاق والتظهير العرقي والاعتصاب. وصناعة الأسلحة الكيميائية أو أسلحة الدمار، ومحاولة استعداد القوى الأجنبية لتدمير البنى التحتية للوطن كما حدث في العراق والسودان وأفغانستان وهو نوع من التسول الرخيص على موائد الأعداء وهو ضرب من الخيانة الوطنية. ويحدث بصورة ابخس وانتن مما مضى حيث حدثني بعض أعضاء الجالية الكندية بالسودان أن بعضاً من الفاشلين من أبناء هذا السودان المكلوم ممن ضاقت عليهم سبل العيش أو قبضوا في قضايا أخلاقية أو سرقة مال عام وطردها من الخدمة درجوا على القيام بادعاء كاذب وطلبوا اللجوء السياسي وظلوا يكشفون ظهورهم إمام بعض لجان المعايير الكندية وبعض السفارات، ويشيرون إلي آثار التعذيب على أجسادهم من قبل حكومة الإنقاذ وهي في الواقع لا تعدو عن كونها آثار سياط قديمة في حلقة من حلقات الأعراس السودانية لا سيما في الشمال لا يزال الشجاعة إمام البنات والحصول على زغرودة وسمعة. أما عن دعاوى الاعتصاب وبقية الدعاوى الباطلة فحدث ولا حرج وما نعرفه بشيب له الولدان.

وبالتالي يبدو واضحاً أن العزف على وتر المهدية وثورتها وتر حساس يقض من مضاجع الحكومة الثنائية البريطانية وظل يستخدم هذه النغمة كل من أراد أن يستثير غضبة الحكومة ضد السلطان أو تصفية خصومه. وسبق أن استخدم السلطان نفس الأسلوب للقضاء على قوة سنين الصاعدة. وعلى الفور رد حاكم كردفان على ناظر الكبابيش معلناً تأييد الحكومة المطلق لقبيلة الكبابيش واستعدادها لحمايتهم على أن لا يعتدوا أو يدعوا مبرراً معقولاً لاعتداءات السلطان⁽⁵²⁾، الأمر الذي يمكن أن يتيح المجال للحكومة الثنائية أن تتدخل لحسم الأمور في الوقت المناسب وبمبررات مقبولة.

وأفصح السلطان تارة أخرى عن عدائه للحكومة وأكد بأن طبيعة هذا العداء نابع من وجوب عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وفقاً لما ورد في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم

(52) حاكم كردفان إلى ناظر الكبابيش في 1915/6/24م S.N.A. INTEL 7/4/10

فإنه منهم⁽⁵³⁾، وأكد للمرة الثانية على أنه مسلم يرجو النصر من الله القادر على نصره. وأعلن رفضه عن دفع ولو قرش واحد للحكومة الثنائية بعدئذ. هذا الإعلان يؤكد انفصام العلاقة الفوراوية الثنائية ومن ثم توالت تهديداته لناظر الكبابيش وفي الوقت ذاته أعلن السلطان انه لا يضمم القيام بأي اعتداء على الحكومة ولكنه على استعداد إذا ما بادأته الحكومة بالعداوة لأنه يرد بقوة ويدافع عن مكتسباته التاريخية وحقوقه الموروثة. وأكد على نيابته عن المسلمين في الدفاع عن حقوقهم وإحياء السنة النبوية⁽⁵⁴⁾ في هذه البلاد ..

إن الفقرة الأخيرة تشير إلى أثر مهدي ثقافي وفكري فالنيابة عن المسلمين والدفاع عن حقوقهم هذا دور مهدي واضح مثلته القيادة المهدوية وأنفعل به أهل البلاد طولاً وعرضاً واستجابوا لنداء الحق واطروحات الثورة المهدوية. ولا شك أن السلطان لابد وان يكون قد تأثر خلال حياته؛ بل أثناء وجوده في الوسط المهدي لفترة من الزمن بهذا النوع من الطرح الفكري المتقدم الذي يؤسس لأرضية الإنعتاق من التبعية والذيلية ويغرس أقدار الثقة بالذات والاعتداد بالنفس. لاسيما وأن عدداً من مستشاريه واداريه كانوا ممن عملوا تحت الراية المهدوية ربحاً من الزمن⁽⁵⁵⁾ وإنفعلوا بالدعوة قبل بروز نثانة الجهورية والعرقية والأناية في فترة الخليفة عبد الله التعايشي التي أفسدت النكهة المهدوية الصادقة ودمغتها بوسائل وغايات دنيوية وضیعة حيث كثرت المؤامرات وضاعت مكتسبات سنوات النضال والكفاح الصادق تحت كل هذه النتوءات المتعفنة. وهذا عینه ما حدث للحركة الإسلامية المعارضة في السودان التي برزت للوجو بشعارات التجرد والصدق والإخلاص وقيام الليل والأخوة الصادقة وصيام الخميس والاثنين ونظام الأسر وحلقات التلاوة وتربية الأسر التنظيمية. ولكن ما إن وصلت إلى السلطة حتى بدأت سوءاتها تتبدى لكل ناظر تترى قبحاً وتشتتاً وتفرقاً وأناية قاتلة وعرقية وحب ذات بغیض وعدم تجرد مما أفقدها بريقها وأكسبها عزلة وعداء الجميع وأورثها فشلاً في كل المجالات حتي بلغني انه في احدي الوزارات

⁽⁵³⁾ سورة المائدة، الآية (59)

⁽⁵⁴⁾ علي دينار إلى الحاكم العام سنة 1333هـ يوليو سنة 1915م S.N.A. INTEL 7/4/10 S.I.R. 252. ⁽⁵⁵⁾ P.M. Holt OP. eit. Pp 125 .

السيادية لما ألقاه الله بينهم من عداوة وبغضاء وحب ذات وأنانية وتربية ترابية كان مبدؤها وصية شيطانية من شيطانهم الأكبر - الذي غدروا به قبل أن يغدر بهم - بأن يدوسوا علي إخوانهم في سبيل بقائهم في السلطة وقد نفذها الحيران بدقة حتي فاقوا معلمهم الأكبر وتباروا في هذا المجال واخذ بعضهم ينهش في جسد بعض بل غدا يثق بقبائل اليسار المنقرض وديناصوراته المتحجرة أكثر من ثقته بإخوانه رفقاء التاريخ والكفاح والنضال حيث قام بعض الوزراء الإسلاميين بأحادي الوزارات السيادية الخطيرة بتكسير قواعد الخدمة المدنية وترفع احد عشر موظفاً غير كفاء مما لا ذمة لهم ولا خلق من الدرجة الرابعة إلي الدرجة الأولى حيث أصبح اقمؤهم وكيلاً لهذه الوزارة يتحكم في مصائر هذه الأمة المغلوبة علي أمرها بينما ظل من كانوا في الدرجة الثانية والثالثة من ذوي الخلق والأمانة يراوون في مكانهم وهذه مأساة أمة ومأساة شعب يشيب لها الولدان في وطن لا وجيع له.

يلحظ المرء تطوراً ملحوظاً في العلاقة الفورية الثنائية خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ السودان الحديث والمعاصر حيث وصلت منذ مايو سنة 1915م تقارير مؤكدة تفيد بموقف علي دينار الصريح ضد الحلفاء. ولكنه لم يتأكد ذلك بصورة علنية إلا في يوليو سنة 1915م حيث ألغى السلطان ما كان قائماً بينه وبين الحكومة الثنائية من معاملات. هذا بالإضافة إلى كشفه النقاب عن هويته الإسلامية الواضحة. وبعد تأكد انحيازه إلى معسكر دول الوسط (ألمانيا - وتركيا وحلفائهما وعدله عن تأييد دول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وحلفائهما)، اقتضى ذلك أن تتخذ الحكومة البريطانية ضده إجراءات كفيلة بحسر نفوده وإضعاف قوته. فأرسلت الحكومة الثنائية البريطانية عدداً من قواتها إلى النهود. وفي المقابل قام السلطان بتعزيز قواته على حدوده ولجأت الحكومة الثنائية إلى استخدام الطابور الخامس من رزيقات وغيرهم داخل معسكر علي دينار بغية تشتيت جهوده وتصديع جبهته الداخلية⁽⁵⁶⁾. وهو أسلوب استخباراتي ناجح في مجال شل قدرات الخصم وتعويق وعرقلة حركته وجعله ينشغل بنفسه عن أعدائه.

⁽⁵⁶⁾ S.I.R. 259/4-5 Fib. 1916.

ولا زال علي دينار يبذل جهده ودون يأس لكسب علي الميرغني الزعيم الروحي لطائفة الختمية إلى جانبه وعدد له في خطابه مرة أخرى أسباب الخلاف ملخصاً إياها: أولاً: في تفتيش المحمل بحثاً عن السلاح. إضافة إلى الإهانة التي كانت توجهه إلى قادة المحمل من الشيوخ وأشار إلى منعه من إستيراد السلاح من الحجاز، ثانيها: عدم محاكمة من اتّمنهم السلطان على أمواله وهربوا بها إلى ديار الحكومة. ثالثها: عدم وفاء الحكومة الثنائية بما دفع ثمنه من أسلحة. وأخيراً يطلب من علي الميرغني الوساطة بينه وبين الحكومة الثنائية البريطانية لفض هذا النزاع باعتبار أن علي الميرغني وكيلاً له لدى الحكومة. فإذا أوفت بشروطها وعهودها فإنه سيظل كما كان على عهده معها ويلتزم بما إتفق عليه معها. وإن لا فإنه سيظل على موقفه العدائي مع الحكومة حتى يلقي الله تعالى⁽⁵⁷⁾. يبدو أن هذه كانت مناورة سياسية ذكية أراد بها السلطان كسب الوقت لأنه كما تقدم لم يقتصر أمره على نزاع قائم بينه وبين الحكومة البريطانية وإنما تعداه إلى استنهاض تام للأمة. ودعوة شاملة لكافة العناصر الوطنية الإسلامية بإعلان العصيان المسلح والتمرد الصريح ضد الحكم الأجنبي في البلاد. في هذا الخطاب أراد السلطان علي دينار أن يكسب موقفه موضوعية ولمعرفته بمكانة علي الميرغني ونفوذه لدى الحكم الثنائي والبريطانيين على وجه التحديد رأى الاستفادة من هذا النفوذ. هذا بالرغم من علمه بعدم جدوى موادة الكفرة. وما عرضه من طرح موضوعي يعتبر على درجة من الإقناع والواقعية. حيث أن جهوده الرامية إلى بناء ترسانة حربية قوية، ونكوص العهد والاستيلاء على أمواله عنوة وقفل الباب أمامه لاستيراد أسلحة من خارج حدود الحكومة الثنائية، هذه كلها أسباب تقتضي شراسة في العداء، لا سيما من قوة صاعدة تعتمد على مواردها الذاتية.

في هذه الأثناء بدأت الحكومة الثنائية في موادة خصوم السلطان وأبدت نحوهم اهتماماً لا سيما موسى مادبو⁽⁵⁸⁾ مما يدل على بحثها عن بدائل يمكن أن تسوّهن قسوة السلطان وجبهته الداخلية وأن تحل محله ولو إلى حين في إدارة شؤون البلاد. وأراد السلطان من جانب آخر أن يلعب على الحبل مرة ثانية حيث أرسل خطابين أحدهما إلى

⁽⁵⁷⁾ علي دينار إلى السادة الأشراف السيد علي الميرغني في 9/8/1915م 1 S.N.A. INTEL7/4/10

⁽⁵⁸⁾ السردار إلى موسى مادبو في 29/8/1915م الموافق 8 رمضان 1333هـ S.N.A.7/4/6

مدير كردفان والآخر إلى الحاكم العام ناشداً فتح المفاوضات بين الطرفين⁽⁵⁹⁾. ولعبت الحكومة الثنائية على نفس الوتر حيث قام علي الميرغني بتهوين المسألة للسلطان مشيراً إلى أن الأسلحة لا يمكن حلها إلا بحضور سلاطين أما المحمل فإنه لا يعرف عنه شيئاً. أما مسألة القبائل فإنه سيناقش أمرها مع الحكومة. وأكد له أن الحكومة ليس لها قصد للاعتداء⁽⁶⁰⁾. هذا الخطاب لا يعدو عن كونه مناورة سياسية من قبل الحكومة الثنائية استخدمت فيها ثعلباً من ثعالب السياسة السودانية وخبيراً متمكناً بالمناورة السياسية؛ ويعتبر في تقدير الكاتب من أدهى وأمكر وأنجح الساسة السودانيين في هذا المجال وكانت الحكومة الثنائية تهدف من وراء ذلك الجهد إلى إثشاء السلطان عن موقفه ولو إلى حين. لأن الحكومة كانت سادرة في اتجاهاتها بالبحث عن بدائل له وحماية القبائل (الحدودية)، وتنمية قوتها ومعها طابوراً خامساً في دار فور للفت في عضد السلطان. وقامت الحكومة الثنائية من جانبها بجمع معلومات دقيقة عن قوة السلطان الحربية وتحركات جيشه. كما بعثت بعدد من رجالات مخابراتها وعملائها إلى الفاشر لتزويدهم بتقارير وافية عن كل ما تقدمت الإشارة إليه⁽⁶¹⁾. مما يؤكد على عدم جديتها في مصالحته أو الاعتماد عليه وإنما كانت تعتمد القضاء عليه بإضعاف قوته أولاً، وتأليب أعدائه عليه ثم الاستيلاء على دار فور ثانياً، حاول السلطان توحيد جبهته الداخلية وجمع شمل خصومه وكسبهم إلى جانبه، فأرسل في 16 أكتوبر 1915م خطاباً إلى موسى مادبو أكثر تحديداً ذكر له فيه معايب الحكم الثنائي مركزاً على النواحي الروحية. ومتطلعاً إلى إخلاء وداى من المسيحيين. وأبدى موسى مادبو خوفاً من السلطان ولكنه وفي الوقت ذاته أضمّر في نفسه شيئاً ضد الحكومة الثنائية وفي النهاية أبدى تعاطفاً تجاه علي دينار ووعد بمساعدة جامعي الضرائب وتوالت خطابات علي دينار على موسى مادبو بغية إقناعه بيد أن موسى تردد في النهاية فلم يستجب استجابة تامة ونكص عن وعده⁽⁶²⁾. وتشددت الحكومة في تقشيش رعايا السلطان

⁽⁵⁹⁾ السلطان إلى كل من السردار إلى حاكم كردفان S.I.R 259 August 1915

⁽⁶⁰⁾ علي الميرغني إلى السلطان في 1915/9/16 S.N.A. INTEL 7/4/10

⁽⁶¹⁾ المخابرات في أكتوبر 1915م S.I.R. 252 Oct. 1915

⁽⁶²⁾ D.S.A Box 110/6 Macmicheal: Notes on Darfur history. Oct- Nov 1915. p.12-13.

القادمين من الشرق لا سيما من الحجاز واحتج السلطان على هذا التفتيش الذي ضيق الخناق عليه. وهدد مفتش غرب كردفان ليقلع عن هذا الإجراء وان لا يفسد منصبه⁽⁶³⁾.

يبدو أن العلاقات الثنائية قد بلغت حداً لا رجعة فيه، حيث تحددت وجهة كل من الفريقين بصورة واضحة وإنتهى عهد الدبلوماسية والأسلوب الناعم بين الطرفين وكثر كل منهما للآخر عن أنيابه. وتشددت الحكومة من جانبها في تفتيش رسائل السلطان وقوافله الآتية والرائحة لما إنتابها من شك تجاه علاقات السلطان بالحرمين⁽⁶⁴⁾. وقام مدير كردفان بإعلان السلطان بأن الحكومة اتخذت احتياطاتها اللازمة تجاه تهديداته السابقة. وحاولت تهديده وتخويله وإدخال الرعب بإرسال قوة من الهجانة إلى النهود - وهي مركز تجاري هام غرب كردفان - على أمل أن يؤثر هذا الإجراء الصارم في موقف السلطان. بيد أن النتيجة كانت عكسية إذ استفز ذلك العمل السلطان حيث سارع بإرسال قوة إلى جبل الحلة. ورأت الحكومة الثنائية البريطانية من جانبها أن هذا التعزيز معناه الاستعداد من قبل السلطان لمهاجمة حكومة السودان الثنائية، إذا ما أقدمت على الهجوم على حدوده الشرقية .

لذا قرر ونجت تركيز القوات من كل الأسلحة في النهود تحت قيادة الليفتنانت كولنيل. ب. ف. كالي مزودة بكل ما تحتاجه من إمدادات. وقد كان العدد الكلي في حدود ألفين⁽⁶⁵⁾. وبلغ الأمر منتهاه لا سيما بعد صدور بيان من الخلافة العثمانية بدعوة المسلمين إلى الجهاد ضد أعداء الإسلام. ووصلت نسخ من هذا البيان إلى السودان تدعو إلى الخروج على الجيش البريطاني. وتجاوباً مع هذا النداء أصدر السلطان بيانات يدعو فيها إلى الخروج والجهاد في سبيل الله. وأخذ يعد العدة ويعزز من موقف جيشه ليقوم بحملة ضد الجيش البريطاني المصري بعد موسم الأمطار⁽⁶⁶⁾. يبدو أن

S.N.A. INTEL 7/4/10

⁽⁶³⁾ السلطان إلى مفتش غرب كردفان في 1915/11/23م

⁽⁶⁴⁾ مفتش غرب كردفان إلى نائب مدير المخابرات بالخرطوم 1915/12/16م S.A.A. INTEL. 7/4/10

⁽⁶⁵⁾ Sir Reginald Wingate: Darfour Campaign: Supplement to the London Gazette -25 Oct 1915. p. 10366-10367

D.S.A. Box. 30/1

⁽⁶⁶⁾ ونجت إلى وزير الخارجية البريطانية في 1916/1/6م

السلطان بعد أن وصل إلى مرحلة اليأس من فائدة العلاقة الفوراوية الثنائية. واعتملت في نفسه الروح الوطنية وتوقدت في قلبه ومضة إيمانية دفعت به إلى الوقوف بجانب الصف الإسلامي. ولم يكن موقفه موقفاً سلبياً وإنما قام بإصدار بيانات يشن فيها حرباً على أعداء الإسلام من الكفرة اليهود والنصارى. وفي هذه الأثناء حاول استنهاض همم الشيوخ ولأعيان مرتفعاً بهم من مستقع الاستكانة والخضوع للحكم الثنائي للاستجابة إلى دعوة السلطان العثماني. فأرسل إلى الشيخ يوسف الهندي خطاباً ذكر فيه أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا أعداداً كبيرة من الإغطاء. وإنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة بندقية و 400 صندوق ذخيرة⁽⁶⁷⁾. بهذه الأرقام والأخبار السابقة أراد إغراء وتشجيع يوسف الهندي للوقوف بجانب القضية الإسلامية ومقاومة الحكم الثنائي في البلاد. ولكن الذي يبدو أن هؤلاء الشيوخ كانوا أضعف من أن يحركوا ساكناً لوضعيتهم الجديدة. حيث تم استقطابهم واستمالتهم وتدجينهم بواسطة النظام البريطاني فأضحوا هجيناً عجيباً ليس بمقدوره الارتقاء إلى هذا المستوى من المقاومة والتضحية.

وتأكد للحكومة الثنائية في هذه الأثناء عداء السلطان الصريح لها وزادت تهديداته وتكرر وعيده لكل من مدير كردفان ومفتش النهود اللذين قاما بإيصال ما وردهما من قبله للحكومة الثنائية في الخرطوم⁽⁶⁸⁾. حدا ذلك بالحكومة الثنائية والقيادة البريطانية إلى العزم على مبادرة السلطان بالهجوم لاسيما بعد صدور بياناته الداعية إلى الالتفاف حوله ومقاتلة الكفار من اليهود والنصارى⁽⁶⁹⁾. وقد جانبه الصواب حين أعلن توقيته للقيام بالهجوم في بداية سنة 1916م فأتخذت الحكومة الثنائية البريطانية احتياطاتها بحبك خطط معاكسة⁽⁷⁰⁾. حيث خشيت الحكومة الثنائية أن تصله إمدادات من الأتراك أو السنوسي الأمر الذي جعلها تفضل المباغثة قبل أن يحين الوقت الموعود⁽⁷¹⁾. ولا يخفى أن المباغثة أسلوب عسكري ناجح وذلك قبل أن يستجمع الخصم قواه. ولما

(67) علي دينار إلى يوسف الهندي في 1916/1/12م

(68) مفتش النهود إلى نائب مدير المخابرات في الخرطوم 1916/1/16م S.N.A. Intel 7/4/10

(69) ونجت إلى وزير الخارجية البريطاني في 1916/8/6م D.S.A. Box 30/1

(70) ونجت إلى وزير الخارجية البريطاني في 1916/8/6م D.S.A. Box 30/1

(71) I bid.

لم يجد أسلوب الحسنى مع موسى مادبو لجأ السلطان إلى تهديده فاستنجد الأول بالحكم الثنائي⁽⁷²⁾. ويبدو أنه لجأ إلى هذا الأسلوب بعد أن تأكد لديه أن لا فائدة من مهادنته واستمالاته. ورأت الحكومة الثنائية فيه حليفاً قوياً ومركزاً من مراكز القوى والتأثير ضمن استراتيجيتها الجديدة فطلب منه السردار مقابلة نائب المخابرات: "لأن الغايات التي أرمي إليها هي أن أحمي مصالح قومك وأبناء قبيلتك وهذا هو السبب والباعث الوحيد الذي حملني على أن أقترح عليك هذا الاقتراح لأجل تبادل الأفكار والآراء"⁽⁷³⁾. بدا جلياً أن الحكومة الثنائية واستخباراتها بهذه الدعوة كانت ترمي إلى إجراء مقابلة شخصية مع موسى مادبو للتأكد من ولائه ومدى قدرته على تنفيذ خططها. وهذا الاهتمام يبدو على مستوى عال حيث حظي موسى مادبو باهتمام الحاكم العام نفسه مما يدل على انفصام العلاقة الفوراوية الثنائية. وبدأت الحكومة تفكر بجدية في بحث مقاومة جديدة في دارفور بإمكانها الفت في عضد السلطان. وجد البحث عن بديل يمكن أن يكون مقبولاً لدى أهل دار فور ليحل محل السلطان.

وفي الوقت ذاته أوعزت الحكومة الثنائية إلى علي الميرغني بمواصلة الكتابة إلى السلطان بغية إقناعه بالعدول عن موقفه، ومناقشته لإضعاف عزمه وإشعاره بأن ما لديه من قوة لا يؤهله للوقوف في وجه الحكومة الثنائية. وأكد له أن مصيره سيؤول إلى ما آل إليه حال آل المهدي والخليفة عبد الله، وحاول إقناعه بأن الشريعة لا تمنع من الركون إلى حماية الكفار. وقاد أدلة شرعية ليرهن له على مصداقية مقولته حيث عرض تلك الأدلة في شكل أسئلة تقريرية فحواها: ألم يحتم الرسول (ص) ببني هاشم في مكة والمطعم بن عدي؟. وألم يرسل أبنته ومن معها إلى الحبشة؟. ولم ينس بذلك أن يوهن عزيمة السلطان ويلقي الرعب في قلبه بأن عرض بأسلحة السلطان مؤكداً على أنها أصبحت أسلحة ثانوية لا قيمة لها لا سيما بعد اختراع القنابل. ويدعوه إلى عدم الخروج على الحكومة الثنائية⁽⁷⁴⁾. لقد أتبع علي الميرغني أسلوباً دعائياً رخيصاً لمصالح الحكومة الثنائية وقام باستخدام وتوظيف مخزونه المعرفي الديني بغية إخضاع

⁽⁷²⁾ المخابرات S.I.R 258/4-5 Jan. 1916

⁽⁷³⁾ السردار إلى موسى مادبو في 1916/2/2م S.N.A. Intel. 7/4/6

⁽⁷⁴⁾ علي الميرغني إلى السلطان سنة 1916م S.N.A. INTEL 7/4/10

السلطان لحكم أجنبي غادر بكيفية مغلوبة ناتجة عن خلط بين الأوراق وتعمية مقصودة غايتها قتل الروح المعنوية لدى السلطان وإتباعه وإشعاره بضعف إمكاناته وإلباس هذا الموقف لبوساً دينياً ولعل هذا أخطر ما فيه أنه أراد أن يضيف على الخنوع والخيانة والتبعية للغرب في مخططاته الاستغلالية شرعية كاذبة.

لا شك أن أسلوب الخطاب وما قاده مرسله من أدلة يؤكد أن هذا المحتوى قد أوعزت به الحكومة الثنائية إليه. لاسيما الإشارة الأخيرة فيه ونصحه السلطان بعدم الخروج ومحاولة أثثائه عن المقاومة، وكان القصد من العبارات الواردة بإشعاره بأن قواته لا تساوي شيئاً أراد بها بعث الوهن في نفس السلطان وإضعاف عزمه. أما الأدلة الشرعية التي قادها أراد بها إخماد روح الحماس الديني لدى السلطان. بيد أن السلطان كان موقفاً بما أعلنه لا سيما وأن الجهاد واجب ضد أعداء الله في الأرض⁽⁷⁵⁾. فيما يبدو أن الحكم الثنائي قد حاول استخدام كل الأسلحة والأساليب المتاحة. لأن استخدام رجال الطوائف وزعماء القبائل من أخطر الأسلحة سلباً وإيجاباً لأنه بإمكانهم إلباس الحق بالباطل والعكس صحيح لنفّة العامة بهم .. وكان السلطان يدرك أن الدور المنوط به دينياً هو مقاتلة الذين يلونه من الكفار وبالتالي لم تفت في عضده المحاولات السابقة وقد أعرب عن ذلك صراحة بقوله: (.. قد وجهنا أفكارنا كلية وجزئية نحو قتال ما يلينا من طائفة الذين كفروا عملاً بقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)⁽⁷⁶⁾. بذات يتضح أن مستنده ديني في عداته للحكم الثنائي إذ كان يرى في وقوفه بجانب الخلافة العثمانية موالاة للمسلمين وأن وقوفه مع الحكم الثنائي البريطاني موالاة لأعداء الله وهي منهي عنها شرعاً. لذا لم يتنازل قيد أنملة عن موقفه ولعل هذا يلقي الضوء على موقفه من الحكومة البريطانية وعدم مقابله لأي مسؤول أوربي طوال فترة حكمه.

وقام السلطان بمناشدة شيوخ القبائل لمقاومة الحكم الثنائي في البلاد مؤكداً لهم أن الوقوف مع المسيحيين في حربهم لا يتفق والروح الإسلامية وطالبتهم بوقف أي مساعدة

⁽⁷⁵⁾ السلطان إلى حاكم ومفتش كردفان 1916/2/7م 3 ربيع الثاني 1334هـ S.N.A. INTEL 7/4/10

⁽⁷⁶⁾ السلطان إلى أنور باشا سنة 1916م الموافق 1334هـ S.N.A. INTEL 2/3/13

لأعداء الله ودينه. وأتبع ذلك بتهديد مقتضاه محاربة كل من لا يتفق وهذا المفهوم لن لا تتصدع الجبهة الداخلية للمسلمين وليضمن وحدة مواطنيه وليتفرغ لمواجهة أعداء الله الكفرة⁽⁷⁷⁾. مما يؤكد على ترتيب الأولويات لديه، لأن تأمين الجبهة الداخلية هي أول خطوة ينبغي أن يتفرغ منها. إذ لا يخفى على فطنة متأمل أن من أخطر الأشياء في تهديد الجبهة الداخلية وجود طابور خامس يمكن أن يهدد الحصون من الداخل ويفتح ثغرة للأعداء ..

وحرصت الحكومة الثنائية البريطانية على قطع العلاقات الخارجية للسلطان لا سيما بعد وصول أخبار تفيد أن نوري باشا وسيد هلال - وهما من القيادات العثمانية ذات الأثر والنفوذ - سيصلان دار فور في طريقهما من ليبيا وأن وصولهما كان يعني تغلغل النفوذ العثماني في دار فور⁽⁷⁸⁾. مما يعني تهديداً مباشراً من الخلف لخطط دول الحلف في المنطقة. في هذه الأثناء قام موسى مادبو بدور الطابور الخامس مبلغاً عن كل ما يتصل بنشاطات السلطان وتحركاته⁽⁷⁹⁾. الأمر الذي يدل إلى أن كوارث دار فور الحالية هي موروث تاريخي ينبغي دراسته وتحليله وتفكيك طلائمه التاريخية وفهم معطيات حاضره في ضوء هذه المفردات التاريخية الهامة، فالأنانية القائلة بحب الذات وضعف الوازع الأخلاقي والوطني وحب الزعامة هي أدواء عضال سبب كل كوارث هذا البلد وأهله الطيبين. فالسياسة والزعامة في السودان لا تعدو عن كونها (صعلكة) بالمفهوم السوداني أو بالمفهوم الدارجي السوداني (يا فيها يا أطفياها) فالسياسي والزعيم والقيادي خارج السلطة رجل منطق وعقل وحكمة وداخل السلطة أصم أعمى أبكم حيثما يوجه لا يأتي بخير ويكون كلاً على زعامته يضحك إذا ضحكت ويبكي إذا بكث فيلغي عقله وفكره ويسلم مفاتيح أمره للزعامة وإن كانت أقل منه مستوى وعقلاً وفكراً وإن لا فالويل والثبور. فكل الانقلابات المزعومة في السودان هي عبارة عن تسليم وتسليم وضيق طرف بطرح طرف آخر دون اعتبار لمصلحة وطن أو أمة فالكل كاذب في دعواه الوطنية أو الشعبية، فالكل أناني إلى النخاع دون استثناء

⁽⁷⁷⁾ D.S.A. Box 10/5/H.A Macmicheal: Notes on Dar fur history (since 1878) Khartoum 1915-Typescript. p.9-11.

⁽⁷⁸⁾ نائب المخابرات إلى مكمايل في 1916/3/6م S.N.A. INTEL. 131/8

⁽⁷⁹⁾ ضابط المخابرات السياسي إلى موسى مادبو في 1916/3/10م S.N.A. INTEL 7/4/9

أما السلطان ما فتئ يصدر بياناته النارية معلناً الجهاد. وأوضح أن طبيعة حربه مع الحكم الثنائي البريطاني دينية وأنه على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن ينهض ويسارع إلى الجهاد في سبيل الله⁽⁸⁰⁾. هذا موقف بطولي ينبغي أن يسطر بمداد من ذهب لصالح السلطان علي دينار، كما يعتبر واحدة من إيجابيات وجوده في السلطة. ويعكس ذلك فهماً متقدماً قد تجاوز حدود الأثنيات والعرقيات والوقوع في براثن أحضان الاستعمار الغربي بالرغم من خطورة الموقف ودقة الظرف الذي وجد فيه. حيث أن مصلحته الذاتية كانت تقتضي أن يؤثر السلامة على المجازفة، ولكنها المبادئ ورجالات المبادئ، ولكنه التاريخ ورجالاته الذين اصطفاهم الله لأداء هذا الدور لبطولي المتميز. ولقد ركن كثير من القيادات السياسية والروحية يومئذ لهذا الجانب وأثروا جانب السلامة ونالوا نتيجة ذلك الألقاب والأوسمة والأراضي والأملاك مقابل شراء سك السكوت على الوجود الأجنبي في البلاد. وكانوا أردأ سلف لأسوأ خلف ممن بليت وشقيت بهم البلاد ردىاً من الزمن في التاريخ المعاصر حيث كانوا ولا زالوا يشكلون عقبة كأداء في سبيل تقدم ورقي هذا الوطن.

وأعلنت الحكومة الثنائية حربها ضد السلطان واتصلت بزعماء العشائر لاستمالتهم. وتم تعيين الأمير الآي (ب.ف. كالي) وكيلاً عن الحاكم في دار فور بعد غزوها والقضاء على السلطان وأصبح هذا الكولونيل مسئولاً عن إدارة العمليات الحربية في الجبهة الغربية⁽⁸¹⁾. وتعددت جهود الحكومة بغية تصديع جبهة السلطان وزعماء العشائر إلى محاولة مكاتبة رجالات البلاط الفوراوي ومحاولة إغرائهم وتسليمهم وتهديدهم إن لزم الأمر حتى يتخلوا عن مسئولياتهم ويعلنوا إستسلامهم وبذا تسلم نفوسهم وأموالهم⁽⁸²⁾.

وبدأت الحكومة حملة إعلامية واسعة النطاق لتشويه سمعة السلطان فبالرغم من الثناء على حكمه والموافقة على استمرارية وضعه لأكثر من ستة عشر عاماً قام وكيل

⁽⁸⁰⁾ السلطان في 10/3/1916م D.S.A. Box 128/1

⁽⁸¹⁾ الحاكم العام إلى الشيخ ماديو في 10/3/1916م S.N.A. INTEL 7/4/9

⁽⁸²⁾ ضابط المخابرات السياسي إلى عدد من رجالات البلاط الفوراوي 15/3/1916م S.N.A. INTEL 7/4/9

الحاكم العام بتوجيه خطاب عام إلى الجنود جاء فيه: (ومنذ الوقت الذي صار فيه سلطاناً لدارفور فإنه كان يمارس الطغيان والظلم حيال مواطني بلده وكان ينوي بصورة دائمة الثورة ضد الحكومة ولكن الخوف وحده هو الذي أجبره على السكوت)⁽⁸³⁾. هذا شأن استعماري قديم حديث ومعاصر، من رضي بالخيانة والعمالة والخضوع لوصفات الاستعمار الأوروبي أصبح بطلاً وزعيماً قومياً، ومن عارض أو رفض فإنه يصبح بمنطق الاستعمار الغربي خارجاً على الشرعية والقانون والحق. والأمثلة كثيرة كثيرة تثير التقزز في التاريخ الحديث والمعاصر وتفوق الحصر فمعظم الأنظمة الديكتاتورية الموجودة في العالم العربي والإسلامي والأفريقي هي صنيع استعمارية وجدت في الغرب مظلة الحماية وما أن يهدد نظام ما من هذه الأنظمة العملية المصالح الاستعمارية في بلده حتى ترفع ضده وصفة الاستبداد وكبت الحريات وحقوق الإنسان. تلك الوصفات الجاهزة وما أن تبحر سفن التحرر للتخلص من أسر هذه الأنظمة الاستبدادية الفاسدة حتى يهب الاستعمار الأوروبي بكل ما يملك لحمايتها تحت مظلة من المظلات الجاهزة.

لا يخفى أن كلام وكيل الحاكم العام الأنف لا يخلو من حقيقة فصحيح أن السلطان أضمر العداء للحكومة الثنائية البريطانية منذ أول يوم لتوليهِ السلطة في بلاده وأن تعامله معها أمر اقتضته ظروفه الحرجة. يبدو ذلك واضحاً من تجنبه للالتقاء بالأوروبيين منذ أيامه الأولى سواء باستقبالهم بدار فور حيث كان يخشى من تجسسهم، أو بخارجها حيث كان يتخوف على نفسه من غدرهم⁽⁸⁴⁾. وهم ليس لديهم عهود وتجارب التاريخ المعاصر ماثلة أمام عينيه سواء مع الزبير ود رحمة أو أبنة سليمان الزبير. وحتى في التاريخ المعاصر إذ كثيراً ما نلاحظ أن الدول الغربية عموماً لا تحترم العهود والمواثيق كما حدث لنوريقا في أمريكا الجنوبية وصادام في العراق ونظام طالبان في أفغانستان. رغماً عن أن ذلك كان يمثل خرقاً لمواثيق المنظمة الدولية التي أقاموها هم بأنفسهم. أما الإشارة إلى أنه كان ظالماً لرعيته فهذا ما لم نسمعه

⁽⁸³⁾ كالسي إلى الجنود في 1916/3/13م D.S.A. Box. 127/8

⁽⁸⁴⁾ Sir Reginald Wingate .OP. Cit. pp. 10376-8.

طوال الفترة الماضية. مما يدل على أن هذا الادعاء هو استهلاك سياسي اقتضته ظروف العداء الطارئ والفجور في الخصومة وأرادت به الحكومة إيجاد مبرر لأعمالها الحربية في دارفور. ومن المعلوم ومن قراءة الحاضر المعاصر يلاحظ أن الدول الأوروبية والغربية عموماً لا تتورع عن الفجور في الخصومة متى ما رأت أن مصالحها تتهدد. إذ لا تحكمها في هذا الجانب معايير أخلاقية أو إنسانية.

وتقدمت قوات الحكومة نحو جبل الحلة مزودة بكل ما تحتاجه من عتاد وعدد. بيد أن ذلك لم يلن قناة السلطان الذي أعلن عزمه على المقاومة وعلي الصعيد الآخر فقد صدرت الأوامر الثنائية البريطانية باحتلال جبل الحلة وديار قبائل الوسط في بداية مارس 1916م. وفي 16 منه احتلت القوات الثنائية أم شنقة نقطة مراقبة الفور وفي 24 مارس تقدمت القوات الثنائية تجاه جبل الحلة وتم اعتراضها بواسطة قوة فوراًوية تقدر بثمانمائة شخص. بيد أن نيران المدفعية بددتها عن آخرها وكان لاحتلال جبل الحلة أثره المعنوي السيئ على قوة السلطان العسكرية وتفوذه في المنطقة⁽⁸⁵⁾. إذ كانت هذه أول محك تجربة ساخنة. وأول إحتكاك مباشر بين القوات الثنائية البريطانية وبين قوات السلطان الوطنية حيث سلكت فيه القوات الثنائية البريطانية أسلوب المباغثة مما أربك حسابات قيادة السلطان الوطنية. إذ لم يكن السلطان يتوقع هجوماً عنيفاً وتخطيطاً مستعجلاً على بلاده قبل حلول نهاية موسم الأمطار نسبة لصعوبة ووعورة الطرق. وكانت استراتيجيته تتبني على تحين هطول الأمطار مما سيكون له أكبر الأثر في تنفيذ خطته الرامية إلى قطع خطوط المواصلات ضد القوات الأجنبية الغازية وإشغال الحرب⁽⁸⁶⁾.

ولعل ما حدا بالحكومة الثنائية لاستعجال خطواتها هو استقطاب السلطان لعدد من جنود الحكومة الثنائية. وقد أدت حملته الإعلامية دورها في استقطاب عدد من الضباط المصريين الذين يعملون تحت راية الحكومة الثنائية البريطانية وقيادتها العسكرية، وبالتالي خشيت استفحال أمره لاسيما وأن دعوته قد لقيت قبولاً لدى الوجود المصري مما سيؤثر تأثيراً بالغاً على خطط الحكومة البريطانية في المنطقة.

(85) Ibid.

(86) Ibid.

فبعد صدور بيان السلطان الداعي إلى الخروج على الحكم الثنائي البريطاني انضم إليه أحد الضباط المصريين وهو الملازم محمد أفندي عبد الموجود. وقد قام هذا الملازم بعد صدور البيان الحكومي الذي اتهم فيه السلطان بالظلم بتفنيده وذلك بتوجيه بيان إلى إخوانه ضباط النهود، فند فيه دعاوى الحاكم العام الكاذبة. وأكد أن وصف السلطان بالظلم والاضطهاد محض كذب واقتراء. وفند دعاوى الحاكم العام القائلة بأن السلطان يكره كل الوافدين من غير سكان دارفور أن ذلك مجرد أدعاء باطل. وأكد الملازم محمد أفندي على صدق دعواه بأن هناك أتراك ومصريون وغيرهم داخل دارفور وداخل جيش السلطان يقاتلون جنبا إلى جنب ضد القوات البريطانية وأعوانهم من المصريين والسودانيين. وفي المقابل لقد أراد الحاكم تسويق دعاية الإثنية وإثارة العرقية التي لم تكن بحال تشبه دارفور ولا أهلها وما لم ينجح فيه الاستعمار الأوروبي في القرن الماضي نجح فيه الآن للأسف بتقدير امتياز بعض أبناء لغفلة القائمين على أمر دارفور من الطرفين حكومة ومعارضة. حيث كانت دارفور فيما مضى قبلة لكل عنصر مسلم، بغض النظر عن عرقه أو موطنه فهي بلد الإسلام، والجنسية والهوية فيها إسلامية المرء لا لونه كما أراد لها الاستعمار الغربي المعاصر وانخدع بذلك فريق من أبناء دارفور الذين تم التغرير بهم في غياب الإمام بمفردات المنطقة التاريخية وموروثها الحضاري من قاصري النظر في القرن الحادي والعشرين. وتأييداً لدعواه وبرهاناً على كذب دعاوى الحاكم العام فقد ذكر محمد عبد الجواد بأنه قد استقبل هو شخصياً عند قدومه إلى معسكر السلطان بالهتاف وصيحات الله أكبر، الله أكبر. وأشار إلى وجود أشخاص مبعوثين من قبل السلطان محمد رشاد. وأهاب بإخوانه من ضباط النهود المصريين والسودانيين بالثورة والنهوض ضد الكفرة والمشركين وأعوان الجيش البريطاني الغازي الكافر⁽⁸⁷⁾.

هذا الخطاب يلقي الضوء على جوانب هامة من سياسة السلطان وتعامله وسلوكه واتجاهه الإسلامي. وقدرته التأثيرية لجذب عدد من القيادات العسكرية في الحكومة

(87) الملازم محمد أفندي عبد الموجود إلى إخوانه ضباط النهود في 1916/3/27م الموافق 13 جمادي الأولى 1334هـ
D. S. A. Box. 127/8

الثنائية البريطانية على اختلاف جنسياتها وبالتالي فإن حركته لم تكن حركة إقليمية ذات نزعة قومية محدودة بل امتازت بأنها كانت حركة إسلامية انصهرت في بوتقتها العرقية والنزعة الإقليمية العناصر التي استجابت لها متجردة من كل الانتماءات ما عدا انتمائها للإسلام. وإن كنا لا نملك مزيداً من التفاصيل عن تحركات محمد عبد الموجود إلا أنها من ناحية التاريخ القومي والإسلامي ربما تمثل صفحة ناصعة من صفحاته، هذا لما فيها من دلالات نبيلة وسامية وهي تمثل انعكاساً حقيقياً للروح الإسلامية الحقة. وتؤكد على أن الارتفاع فوق الانتماءات المحلية والإقليمية هو قدر إسلامي بحث ذو نظرة فلسفية غابتها نبيلة. ولا يملك المرء حقيقة إلا أن يعجب بهذه الشخصية التي تجاوزت انتماءها القومي وسلامتها الشخصية فاستعلت بإيمانها على المصالح الوطنية ذات الصبغة والآفاق الضيقة وتطلعت إلى أفق الإنسانية الأرحب متمثلة في دعوة الإسلام ونداءاته الكثيفة لإقامة العدالة وتحقيق المساواة بين بني البشر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ومللهم.

وتمثل تحركاته تضحية منقطعة النظير لأن خروجه على قيادته وهو جندي مصري وانضمامه إلى معسكر الخصم الذي لا تجمع به سوى دعوة الإسلام ما يعتبر خيانة في نظير الأعراف والأوضاع الأرضية، ومن المعلوم أن الخارج علي القيادة في الميدان حكمه الإعدام لا شك أن ذلك الموقف البطولي سيظل يمثل شجاعة وبسالة نادرة لأخوة لنا في مصر ويؤكد على أنهم لم يكونوا على رضا تام بما يجري على الساحة. بيد أن الجانب المشرق في تحركاته هو أن هويته الإسلامية كانت أكثر أصالة من هويته الإقليمية. وإن انتماءه الفكري كان أسمى وأنبل من انتمائه المهني، وفق المفهوم الغربي الاستعماري الضيق ووفق التربية العسكرية الغربية البليدة التي تجعل الإنسان آلة صماء تنفذ وإن كان الأمر خطأ ثم تناقش.

وعلى صعيد آخر فإن حركة محمد عبد الموجود ووجوده في معسكر السلطان تنفي نفياً قاطعاً ادعاءات الحكم الثنائي البريطانية القاضية بوصمه بالعنصرية والإقليمية الضيقة وتؤكد أصالة تفكيره ونصاعة اتجاهه الإسلامي، وموضوعية قضيته التي اقنعت عدداً غير قليل من جنود الحكومة وضباطها في النهود وأحدثت صدعاً وسط

القيادة الغربية هناك⁽⁸⁸⁾، الأمر الذي جعل الحكومة تسارع الخطى في استراتيجيتها العسكرية لئلا يبلغ السلطان غايته. واتخذت الحكومة نتيجةً لنجاح سياسة السلطان الرامية إلى تفتيت جيش الأعداء إجراءات صارمة وقاسية ضد كل من اشتمت فيه رائحة التعاطف مع القضية الإسلامية المطروحة من قبل السلطان علي دينار والسلطان محمد رشاد العثماني فقامت بتجريد وحبس بعض القيادات العسكرية في الجيش⁽⁸⁹⁾. يدل ذلك على نجاح سياسة السلطان واتجاهه الإيجابي وطرحه الموضوعي ويؤكد على أن هذه السياسة كان مشكلتها الزمن إذ لو أتيح لها زمن كاف لأتت ثمارها قطوفاً دانية، ولعل ذلك يفسر تعجل الحكومة الثنائية البريطانية واتخاذها لتدابير المباغثة ومبادأة السلطان بالهجوم لئلا يأخذها على حين غرة. وفي تقدير الكاتب أن عدم السرية وكشف السلطان لنواياه هي التي حالت دون بلوغ مرماه ولعل ذلك نتج من اختراق استخباري لخطته واستراتيجياته .

لقد كانت قوات الحكومة الثنائية المهاجمة تتفاوت ما بين ألفين وثلاثة آلاف من القوات المحاربة من رجال المشاة السودانيين والفرق السوداء وقوات الهجانة والفرسان من كردفان. ثم عرب شرق السودان "مشاة العرب والهجانة" ثم قوة من حملة البنادق البريطانية معهم أربعة مدافع مكسيم وكذا المدفعية المصرية⁽⁹⁰⁾. ولقد كان احتلال جبل الحلة مفاجأة وصدمة بالغة للسلطان الذي كان يعد العدة للتقدم نحو الجبل. لاسيما بعد إصداره بياناً يدعو فيه المسلمين قاطبة إلى الجهاد في سبيل الله وكان مقدراً لقواته أن تصل جبل الحلة في صبيحة 1916/3/22م بيد أنها فوجئت بتقدم قوات الحكومة التي استفادت من القبض على أحد الكشافات الفوراويين الفارين والذي حال قبضه والضغط عليه كشف عن خطة السلطان. وبالتالي نجحت الحكومة البريطانية في أن تحبط خطط السلطان العسكرية وملاك ذلك الكشف الحكومة الثنائية البريطانية مفاتيح المباغثة والمبادرة المبنية على المعلومة الصحيحة. لذا سارعت قوات الحكومة الثنائية البريطانية نحو جبل الحلة. وفعلاً تقدمت قوات السلطان نحو ذات النقطة إلا أنها قد

⁽⁸⁸⁾ خطاب من مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار في 18/3/1916م D. S. A. Box. 127/8

⁽⁸⁹⁾ خطاب من مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار في 18/3/1916م D. S. A. Box. 127/8

⁽⁹⁰⁾ يوتان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره ص 384-385 .

فوجئت بوجود البريطانيين وأعوانهم إمامهم لذا رابطت على بعد ميلين من جبل الحلة، وهي تتكون من ثمانمائة فارس على أمل الإحاطة بالعدو بعد سبقه إلى جبل الحلة. بيد أن العدو قد نجح بواسطة نيران مدفعيته الثقيلة من تشتيت قوات الفور مرة أخرى⁽⁹¹⁾. وعلى الرغم من ذلك فقد تمتعت قوات السلطان بقدر عالٍ من العزم والحزم وقوة الإرادة وتكرار المحاولة. فكلما زحزحت عن موقع تجمعت في موقع آخر مبدية بسالة نادرة وإصراراً عجيباً على الدفاع عن دارها وعقيدتها وسلطانها⁽⁹²⁾. وهذا شأن سوداني أصيل حيث يبدي السوداني في ساعات الشدة والنجدة بسالة نادرة وشجاعة عظيمة دفاعاً عن مقدرات بلاده وعقيدته عكس ما عليه أحفاد اليوم من تجار السياسة وباعة الهوى في فنادق أوروبا، فنادق العهر والفسق والفجور وفنادق بعض الدول العربية، ممن أعمتهم أنانيتهم المفرطة وحب الذات عن مفردات التاريخ الوطني المعاصر.

بيد أن استعدادات الحكومة الثنائية البريطانية كان عالياً لا سيما بعد اندلاع الحرب التي أسموها زوراً بالعالمية. وقام السلطان بإرسال خطابات إليها يشتمها فيها ويتوعد (أمنها) بالثبور والهلاك، لذا انصبت جهودها على 'حماية حدودها الغربية في محاولة جادة للقضاء على هذا السلطان لأزاحته عن المسرح السياسي'⁽⁹³⁾. ومما يدل على عدم ملائمة توقيت الهجوم الحالي بالنسبة للسلطان أنه راسل عدداً من شيوخ كردفان ووعدهم بالهجوم على الحكومة الثنائية في يونيو ويوليو ويحثهم على النهوض والثورة ضد الكفار والمشركين ومن والاهم بيد أن هؤلاء الشيوخ ورؤساء العشائر كانوا أكثر تأثراً بالدعاية الثنائية البريطانية⁽⁹⁴⁾ من دعاية السلطان لاسيما وقد رأوا بأم أعينهم ما حاق بالدولة المهدوية. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية بتوزيع منشورات في دار فور وحدودها تحث الشيوخ وزعماء العشائر على عدم مقاومة الجيوش الغازية وتعددهم بالسلام والأمان هذا بعد استيلائها على جبل الحلة⁽⁹⁵⁾. لم يشن ذلك الإجراء

(91) المصدر السابق

(92) كالي إلى الحاكم العام في 1916/3/25م

D. S. A. Box. 127/8

(93) الحاكم العام إلى وزير الحربية البريطاني في 1916/3/2م

D. S. A. BOX. 127/8

(94) S. I. R. 260 march 1916.

(95) D. S. A. BOX 127/8

السلطان بالرغم من عدم استعداده التام وعدم ملائمة الوقت إلا أنه عقد العزم على المقاومة عن وطنه ومجد آبائه حتى آخر قطرة في دمه⁽⁹⁶⁾.

يعكس ذلك الموقف رده الحاسم والقوي على تهديد الحاكم له بقوله: (أما تهديدكم لي فأنا لست دنقلاوي - يقصد محمد احمد المهدي - ولست عبد الله التعايشي فأنا بفضل الله سلطان ابن سلطان ورثت الملك كابراً عن كابر وراثه حقيقية وجلست على عرش آبائي وأجدادي بأمر الله الواحد الصمد وما دام أنكم صرتم تهددوني فإله وبالله ولو بسيفي ورأس حصاني أن شاء الله تعالى أقاتل في سبيل الله وأنصر دين الله)⁽⁹⁷⁾. هذا الخطاب ينم عن قوة إيمانية عالية واعتزاز وافتخار بتاريخ أصيل فحينما يعرض بمحمد احمد المهدي وعبد الله التعايشي كأنه أراد أن يؤكد على أن هؤلاء ليسوا من بيوت حكم أو بيوت أمجاد تاريخية في تاريخ السودان الحديث والمعاصر. وإنهم لم يتعاطوا الحكم نتيجة إرث أصول الحكم من آبائهم كما هو الحال بالنسبة له فهو سلطان ابن سلطان مارس آباؤه السلطنة ورضع هو من ثديها وعاش في كنفها عكس المذكورين أعلاه من ذوي التجربة الفجة الساذجة والتاريخ المنبت فأحدهم كان ابن صانع مراكب والآخر كان ابن مشعوز. ويؤكد هذا الخطاب من جانب آخر على صلابه عوده وقوة شخصيته وقوة عزمته ومضاء إرادته، فهو شخصية عنيدة لا تستجيب للتهديدات إلا بعناد زائد. وهو يجسد طبيعة الشخصية الفوراوية الصلبة.

وأردف هذا الخطاب بخطاب آخر جاء في مستهله: (إلي السردار الذي يزعم أنه حاكم السودان)⁽⁹⁸⁾. في هذا الخطاب كشف السلطان عن هويته ورؤيته الموضوعية للنظام البريطاني الجديد في السودان فهو لا يعترف به ابتداءً، وإن كل الذي حدث في الماضي كان من باب التعبئة وكسب الوقت وتقوية الذات والمداواة ولكنها بحكمة وروية ودون ارتماء في أحضان القوات الغازية كما حدث بالنسبة للزعماء الثلاثة الذين شكلوا جذور الأحزاب الطائفية الموجودة الآن على الساحة السودانية. فقد كان علي دينار أكثر أصالة ووطنية وقوة وإبراكاً لمقتضيات المرحلة من هؤلاء الزعماء

⁽⁹⁶⁾ يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 375.

⁽⁹⁷⁾ علي دينار إلى الحاكم العام 7 ربيع الثاني سنة 1334هـ (1 أبريل سنة 1916م) D. S. A. BOX. 128/1

⁽⁹⁸⁾ Ibid.

الثلاثة: علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي ويوسف الهندي الذين أصبحوا بقدره قادر وبتأييد ودعم من الإدارة البريطانية مكافأة لهم علي عمالتهم وسكوتهم غير المبرر علي مساوئ الحكم البريطاني بالبلاد رموزاً وطنية وقادة سياسيين للبلاد. أما علي دينار بحركته تلك فلقد أشعل فتيلة المقاومة الأولى في الوقت الذي كان يستعد فيه هؤلاء الزعماء لتهنئة انجلترا في انتصارها علي تركيا الإسلامية فشتان بين الموقفين، بين موقف الخزي والعار وموقف البطولة والشجاعة. وما أشبه اليوم بالبارحة بين من يرفض التدخل الأجنبي وهو واع لمفردات التاريخ الحديث والمعاصر وبين أغبياء اجتمع تعيسهم علي خائب الرجاء ممن أكل الدهر عليهم وشرب، داعين القوات الأجنبية للتدخل، ناظرين تحت أقدامهم وواضعين نصب أعينهم مصالحهم الشخصية والشخصية جداً ومؤملين إسقاط حكومة الإنقاذ بأقذر وسيلة وهي التدخل الأجنبي في البلاد، غافلين أو متغافلين عما يلحق بالوطن من أضرار سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية من جراء التدخل الأجنبي وغير معتبرين بما حدث في العراق وأفغانستان من أحداث يشيب لها الولدان.

وحاولت السلطات البريطانية في السودان يومئذ تبرير الموقف الفوراوي بأن السلطان قد فقد شعبيته لذا اعتصم بالدين⁽⁹⁹⁾. يدل ذلك التحليل الفج ولربما المتعمد علي اضطراب في التحليلات السياسية الثنائية البريطانية لموقف السلطان. حيث يناقض ذلك تماماً ما ورد في خطاب القائد البريطاني في المنطقة الغربية (كالي) إلى الجنود الذين تحت أمرته، من أن السلطان ومنذ توليه السلطة لم يكن راضياً عن الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد. وأن الحكومة الثنائية البريطانية لم تعينه وإنما وجدته أمراً واقعاً فلم تكن لديها الرغبة - لعدم قدرتها - في إزاحته في عيئه وهي لم تثبت أقدامها بعد القضاء على ثورة إسلامية قلبت الموازين فأحدثت انقلاباً في الفكر والشعور لدى الأمة السودانية فأحدثت صدي واسعاً تجاوز حدود السودان إلى غيره من بلاد العالم الإسلامي. مما مضى يتضح أن الفريقين كانا يلعبان علي بعضهما الآخر. فالسلطان كما ذكرنا من قبل وكما ذكر القائد البريطاني (كالي) لم يكن راضياً بالحكم الثنائي البريطاني منذ البداية، ولقد كان الحكم الثنائي البريطاني من جانب آخر يبادل له ذات

⁽⁹⁹⁾ يوان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ، ص 375 376.

الشعور بيد انه كان أمراً واقعاً لا محالة من المعاملة معه ومداراته، وبهذا النظر يمكن أن نفسر سياسة السلطان الخارجية إزاء الحكم البريطاني منذ البداية وحتى النهاية.

ومن هذا الجانب كان تخوف الأوربيين ولا يزال إلى يومنا هذا من وجود الزعامات الدينية أو الجماعات ذات الميول الإسلامية والاتجاهات النزيمية في المنطقة. وفي سبيل القضاء عليها فإن الغرب لا يتورع عن اتباع كل الأساليب الأخلاقية والمنافية لكل القيم والمثل الإنسانية لأزاحتها عن المسرح السياسي والاجتماعي وأن يكبت صوتها وان يكتم أفواهها، لذا لا غرابة أن وزعت الحكومة الثنائية البريطانية يومها منشوراً اتهمت فيه السلطان بالجور في أحكامه وإعدام الكثير من رجاله وأنه قد تحالف مع الألمان وغيرهم من الأعداء. ونتيجة لذلك فإن حكومة السودان البريطانية قد أعلنت الحرب ضده وتتعهد بتوفير الأمان والرفاهية لكل سكان دار فور، ولكل من يسلم نفسه للحكومة وضمان ممتلكاته وستوفر الهدوء والسكينة وتحافظ على النظام بين القبائل. وذكر البيان بأن السلطان قد ولي العبيد وعزل الأحرار وأن الحكومة ستولي الشيوخ مسؤولية الخروج على النظام والعدالة⁽¹⁰⁰⁾. هي ذات الوعود والأمان الكاذبة التي وعد بها الشعب الفلسطيني ووعد بها العرب في يقظتهم المزعزعة في النصف الأول من القرن العشرين. وخدع بها الشعب الأفغاني والعراقي في بدايات القرن الحادي والعشرين. وانخدع بها عواجز وثعالب السياسة السودانية في العقد الأول من هذا القرن.

بهذا البيان المخادع أرادت الحكومة الثنائية البريطانية أن تخفي الدافع الأساسي لحرب السلطان. وهو وقوفه بجانب الأتراك ودفاعه عن قضية الوجود الإسلامي الأصيل في المنطقة فأرادت بذكر الألمان تشويه سمعته وتسوية الأمر إذ لا فرق في نظر المتفرج بين الألمان والإنجليز. ولم يشر البيان إلى العثمانيين باعتبارهم قيادة إسلامية رفعت شعاراً استقطب كل غيور على دينه ووطنه، وهي سياسة استعمارية قديمة حديثة لا تخفى على ذي بصيرة ورثتها الآن الولايات المتحدة عن سيدتها في السابق بريطانيا. وقدمت الحكومة أسباباً في غاية الضعف لإعلانها الحرب ضد

⁽¹⁰⁰⁾ بيان إلى عموم سكان دار فور بدون تاريخ اليوم والشهر 1916م D. S. A. BOX 126/6

السلطان وعرضت إغراءات للشيوخ ورؤساء العشائر تشجيعاً لهم على التمرد وضربت على وتر حساس لغرس الفرقة بين طبقات الأمة بغية تقنيت وحدثها وإحياء النعرات الجاهلية في أوساطها هذا بعد أن شعرت الحكومة بأن السلطان قد اعتصم بدينه وبربه وحدد وجهته كما ورد في خطابه السابق حيث قال: (الله ربي ومحمد رسولي والقرآن دليلي وأوامره شرعي والمسلمين والمؤمنين أخوتي اعتمد على الله ولا أحد سواه)⁽¹⁰¹⁾. هذه العبارة تعكس مستوى متقدماً من الفهم والوعي والإدراك متجاوزاً أطر الوطنية الضيقة والأثنية النتنة التي وقع في حبالها قادة اليوم من أهل دار فور وشرانم السياسية دون وعي وإدراك. وقام السلطان في هذا الأثناء بتعزيز قواته في كل من أم عشيشات وأم كدادة وبروش. وبعد دراسة وإعداد مسبق استطاعت قوات الحكومة الاستيلاء على أم عشيشات أولاً ثم أم كدادة ثانياً في 1916/4/4م⁽¹⁰²⁾.

وفي هذا الأثناء شعرت الحكومة بأن موقفها يحتاج إلى تعزيز فطلبت من قيادتها في لندن تزويدها بطائرتين هيلوكوبتر وقد تم بالفعل تزويدها بهما وأرسل أحد الضباط لاختيار المكان للهبوط⁽¹⁰³⁾ مما يؤكد على أن السلطان لم تكن قوة يستهان بها. وحتى هذه اللحظات كانت الحكومة الثنائية وقيادتها البريطانية لا تملك معلومات دقيقة عن قوات السلطان وقدراته العسكرية⁽¹⁰⁴⁾. مما يدل على أن السلطان كان على قدر عال من الحذر واليقظة ولم تتمكن القوات الأجنبية بكل إمكانياتها وتجاربها وقدراتها من اختراق دار فور والإطلاع على حقيقة قوات علي دينار. هذا في الوقت الذي ظهرت فيه في الأفق مشكلة جديدة وهي أن القوات الفرنسية المرابطة في وداي كانت ضعيفة وقد تجددت هجمات السلطان عليها، لذا رأت الحكومتان إشغاله بمناوشات دائمة في الشرق لإلهائه عن غاراته في الغرب وطرد القوات الفرنسية من موقعها⁽¹⁰⁵⁾. وهذا شأن غريب وقضية تحتاج إلى قدر من التأمل إذ أن الدول الأوروبية كانت تتصارع يومها على كعكة أفريقيا بيد أنها كانت تتعاون سراً وتتحد أهدافها حينما تواجه مقاومة

(101) علي دينار إلى الحاكم العام 7 ربيع الثاني 1334، 1916/4/1م D.S.A. BOX. 128/1

(102) Sir. Reginald Wingate: op. cit. pp. 10368.

(103) ونجت إلى الكولونيل كلايتون في 1916/4/4م D.S.A. Box 128/1

(104) D.S.A. Box 128/1 Tel No: 569 Date 3rd April 1916.

(105) كلايتون إلى ونجت في 1916/4/4م D.S.A. Box 128/1

وطنية تدافع عن تراب بلادها. وهذا ما حدث في كل من العراق وأفغانستان في هذا القرن. إذ درجت القوى الغربية بمختلف مشاربها على الاتحاد فيما بينها ضد أي دولة أفريقية أو آسيوية ترفع عقيرتها ضد المصالح الغربية عموماً في أوطانها .

واستقصت الحكومة الثنائية البريطانية عن الطرق الكفيلة بالقضاء على السلطان لا سيما الاستيلاء على مواقع الماء والتي ظلت تشكل نقاط تهديد لأمن وحماية كردفان وفي الوقت ذاته شكلت مواقع إستراتيجية هامة في التقدم نحو الفاشر⁽¹⁰⁶⁾. وافترضت الحكومة الثنائية البريطانية أن الملاذ الوحيد حينئذ للسلطان سيكون صوب جبل مرة⁽¹⁰⁷⁾ وفقاً لمعلومات سابقة. لذا حث الحاكم العام وكيله في الغرب للإسراع بالاستيلاء على أبياد وتأمين الطريق ووعده بإرسال عشرة شاحنات لمساعدته في مهمته وطلب منه مد طريق الشاحنات الثقيلة من أبي رزقة - طويشة - أبياد أو على الأقل إنشاء عدد من النقاط على طول هذا الخط⁽¹⁰⁸⁾. لا يخفى مدى الاهتمام البالغ وتكريس الجهود من قبل القيادة البريطانية للحكومة الثنائية ومدى الدور الذي جعلها السلطان تعيش فيه فنال جل اهتمامها. وبذلت أقصى ما تملك في سبيل القضاء على هذا السلطان الذي أقلق منامها. وبدأت تشعر بأن استمرارية وجوده سيشكل شوكة في خصرتها ومهمازاً يقلق منامها ويؤسس لهجوم تركي ألماني عليها من الغرب .

ففي أبريل سنة 1916م احتلت قوات الحكومة الثنائية أبياد وأبقت على بعض القوات في كل من أم كدادة وأبياد. وفي 4/11 أبرق الحاكم الصحافة البريطانية والإقليمية معلناً بأن احتلال كل من جبل الحلة وأبياد يعني الاستيلاء على أهم بئرين في الطريق بين النهود والفاشر⁽¹⁰⁹⁾. لا سيما وأن الحكومة لم تواجه مقاومة تذكر في أثناء احتلال النقطة الأخيرة⁽¹¹⁰⁾. ولعل الدافع القوي إلى استعجال الحاكم العام باحتلال هاتين البئرين لما لهما من موقع استراتيجي هام لاسيما بعد انقطاع الأمطار. والمياه

(106) الحاكم العام إلى كلايتون بالقاهرة 1916/4/15م

(107) الحاكم العام إلى كلايتون بالقاهرة 1916/4/15م

(108) الحاكم العام إلى كالي في 1916/4/8م

(109) تليفزيون من كالي إلى ونجت ورنجت إلى الصحافة في 10، 1916/4/11م D.S.A Box 128/6

(110) تليفزيون من كالي إلى ونجت ورنجت إلى الصحافة في 10، 1916/4/11م D.S.A Box 128/6

عامل هام في مثل هذه الحروب البرية الصحراوية، وأن الاستيلاء عليها في مثل هذه الحالة يؤمن الإمداد المائي. وهذه مسألة من الأولويات في الأدب العسكري ذو القراءة الجيدة لمفردات المعارك العسكرية عبر التاريخ. وحتى هذه اللحظة لم تكن الحكومة الفرنسية على الاستعداد للمشاركة في حملة موحدة مع الحكومة الثنائية البريطانية للاستيلاء على الفاشر. لذا ما أن علمت بتأجيل الحملة على الفاشر حتى تلقت ذلك الخبر بنشره وأعلنت موافقتها الكلية عليه⁽¹¹¹⁾. مما سبق يتضح أن السلطان باعتباره كياناً وطنياً خطيراً ظل مستهدفاً من قبل القوتين العظميتين المحيطتين به في آن واحد، وإنهما بالفعل كانتا تخططان بإتفاق للقضاء على قوته وإزاحته، تدل على ذلك المراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية والفرنسية حول إحتلال الفاشر. وأن الحكومة الفرنسية قد زودت من قبل حكومة الخرطوم بكل ما يجري على الجبهة الفوراوية الثنائية قبل الغزو الثنائي البريطاني لدار فور⁽¹¹²⁾.

في هذه الأثناء حرصت الحكومة الثنائية على تأمين كل المنافذ فأجرت إتصالاً مع قائد قوات البحر الأبيض المتوسط المصرية تطلب منه تأمين الحدود الشمالية لئلا يتقدم السنوسيون والعثمانيون أو حلفائهما لنصرة السلطان، وسبق لهذا القائد بعد حصوله على إذن من وزارة الحربية البريطانية أن قام بتزويد قيادة الحكومة الثنائية البريطانية بطائرتين بغية القضاء على السلطان⁽¹¹³⁾.

لقد كان القصد من هاتين الطائرتين إلقاء الرعب في نفس السلطان وإجباره على الاستسلام. وفوضت الحكومة الثنائية قائدها البريطاني على الحدود الغربية باتخاذ ما يراه مناسباً من إجراءات إزاء القضاء على السلطان علي دينار. وفي هذه الأثناء أصيب الجنود الإنجليز بإحباط نتيجة لشربهم الدخان الأخضر⁽¹¹⁴⁾. هذا الكلام صادر عن الحاكم العام البريطاني يشكو فيه حالة جنوده وبذا يكون قد شهد شاهد من أهله علي مبعوثي العناية الأوروبية لترقية الشرق الإسلامي والآسيوي والأفريقي. وفي

⁽¹¹¹⁾ كلايتون إلى الحاكم العام في 1916/4/11م

⁽¹¹²⁾ كلايتون إلى الحاكم العام في 1916/4/12م

⁽¹¹³⁾ الحاكم العام إلى أرشيبالد مري في 1916/4/13م

⁽¹¹⁴⁾ الحاكم العام إلى كالي في 1916/4/13م

الوقع هذا نموذج لحملة الحضارة والمدنية للشرق. وهؤلاء هم حملة لواء الحرية والديمقراطية وهم أسلاف قادة اليوم في الغرب، فليت أمتنا تقرأ تاريخها بوعي ورشد وبذكاء وتأخذ حذرهما من الانتقياد دون وعي لأطروحات الغرب. ولعل ما يحكى عن الجيش السوداني الذي كونه هؤلاء المحتلون كان شبيهاً بذلك الحال في الممارسة والسلوك من شرب للخمور ولعب للقمار حتى أن الذي لا يشرب الخمر يومئذ كان يعتبر متخلفاً ورجعياً كما حكى لي نفر من الجيل المخضرم الذي عمل خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وأن تربية اللحية يعتبر كبيرة. ومهما إتقنا وإختلفنا حول شخصية جعفر نميري وفترة حكمه فإن ما أحدثه في المؤسسة العسكرية لا يمكن أن ينسى من استقامة وتعديل مسار وغرس قيم أصيلة.

وعلى صعيد آخر فإن السلطان قد تمكن من اتباع خطة مقتضاها تجنيد كل طاقات الأمة الفوراوية وغيرها من المخلصين الغيورين من أبناء السودان ومصر، والانتظار في الفاشر وقام بتجميع كل قواه في العاصمة بغية تحصينها ودحر الغزو الأجنبي لها⁽¹¹⁵⁾. وفيما يبدو أنه في هذا الجانب قد وقع في ذات الخطأ الذي وقع فيه قبله الخليفة عبد الله التعايشي، وذات الخطأ الذي وقع فيه بعده صدام حسين في العراق في مستهل القرن الحادي والعشرين، ويدل ذلك في مجمله على عدم الاستفادة من عبر معطيات التاريخ المعاصر، ذلك لأن عدداً متفوقاً كهذا العدد وقوة متفوقة كقوة الحكومة الثنائية البريطانية أو قوة الولايات المتحدة وحلفائها يحسن أن تواجهه عن طريق حرب العصابات بواسطة تنظيم دقيق وإشارات متفق عليها لا أن تجمع القوات كلها في العاصمة مما يعني تسهيل مهمة العدو بصورة أو أخرى لحصدها. أما حرب العصابات ومحاولة قطع إمداداته لاسيما وهو يحارب في أرض غير أرضه يشتت جهده ويربك خطته. وفي مثل هذه الحالة وتلك الظروف الاستثنائية ينبغي أن يقلص الظل الإداري العسكري، وتعطى القيادات حرية حركة، وهو بلا شك أسلوب ناجح جداً عمل به في التاريخ المعاصر عبد الرحيم شنان في حركته ضد حكومة 17 نوفمبر العسكرية 1958م. وكادت حركته أن تتجح وتؤتي ثمارها لولا أخطاء بسيطة .

⁽¹¹⁵⁾ D.S.A Box 128/5.

وتحت وطأة هذه الظروف الحرجة تزايد إلحاح طلب قائد الحدود الغربية البريطاني بالسماح له بالهجوم على الفاشر حتى لا يفلت زمام الأمر من يده قبل موسم الأمطار. هذا خوفاً من وصول نجدة سنوسية أو ألمانية تركية إلى تلك المنطقة ومعهم مدافع وذخيرة بالإضافة إلى إمكانية قوة دعوة السلطان الدينية التي قد تؤتي ثمارها العاجلة⁽¹¹⁶⁾ وسط أبناء السودان والذين سبق لهم أن هبوا هبة رجل واحد مع الحركة المهدوية في وجه الغزو الأجنبي للبلاد وذاقت بريطانيا ويلات ذلك وتكبد الجيش المصري بقيادته البريطانية خسائر فادحة وخسرت بريطانيا خبرات قيادية هامة. ورغمما عن هذا التحفز فإن الحكومة الثنائية البريطانية لم تملك حتى اللحظة ما يكشف لها عن حقيقة عددية القوات الفوراوية وقدراتها العسكرية⁽¹¹⁷⁾. وهو ما يحسب في صالح خطة السلطان الأمنية، ولكن في تقدير المؤلف لو تمكن من توزيع قواته إلى وحدات صغيرة في شكل وحدات كمين في أماكن متفرقة من دار فور لأمكنه أن يلحق بالقوات الغازية خسائر فادحة. وهو ذات الخطأ الذي وقع فيه صدام حسين في بداية القرن الحالي. وأيدت القيادات البريطانية في كل من القاهرة والخرطوم ولندن مشروع قائد القوات الغربية البريطاني باستعجال غزو الفاشر وأبدت هذه القيادات استعداداً تاماً لإمداده بكل ما يحتاجه. وتأخرت القيادة البريطانية في الخرطوم في موافقتها علي هذا المشروع في البداية لعدم وصول الطائرتين المصدق بهما والتين من المفترض أن يمدا الخرطوم بالأخبار ويربطانيا بما يجري علي مسرح الأحداث وكان قائد القوات الغربية البريطاني من جانب آخر يرى في التأخير تعزيزاً لموقف السلطان⁽¹¹⁸⁾.

و نتيجة توجس الحكومة الثنائية البريطانية خيفة من الإمدادات السنوسية الألمانية التركية للسلطان تقدمت سريعاً نحو الفاشر الأمر الذي أشار إليه الحاكم العام بقولسه: (وإلى هذه اللحظة فإن تحركنا في دار فور قد سار بصورة طيبة ولكن المهمة الرئيسية ما تزال أمامنا بعد، وإذا كانت الأنباء عن الإمدادات العثمانية الألمانية من الشمال صحيحة فربما أجبرت علي أن أتقدم في وقت مبكر مما كنت قد قررت)⁽¹¹⁹⁾.

D.S.A Box 128/5

⁽¹¹⁶⁾ كالي إلى الحاكم العام في 1916/4/16م

D.S.A Box 128/5

⁽¹¹⁷⁾ الحاكم العام إلى الكولونيل فيلوج. تاليت 1916/4/16م

D.S.A Box 128/5

⁽¹¹⁸⁾ الحاكم العام إلى الكولونيل فيلوج. تاليت 1916/4/16م

D.S.A Box 128/1

⁽¹¹⁹⁾ الحاكم العام إلى السير هنري في 1916/4/17م

وسعيًا وراء وحدة كلمة الأمة وتجهيئتها للنهوض بأعباء الدفاع عن مقدساتها وترابطها قام السلطان بإلغاء الضرائب عن الجميع وأعلن عن التعبئة العامة، مؤكداً عزمه على الدفاع عن السلطنة حتى آخر قطرة من دمه⁽¹²⁰⁾. وهو إجراء طواريء كان لابد منه لكسب قاعدة أكبر من طوائف الأمة لجانبه ولصالح القضية الوطنية الأم. وقام علي الميرغني بدور ثنائي بريطاني بين الحكومة والسلطان، فهو من جانب كان وكيل السلطان ومن جانب آخر كان عميلاً لا يضارع للحكومة الثنائية البريطانية. فقد كانت وظيفته الأساسية ودوره المنوط به هو أن يقوم بدور إحباط محاولات السلطان الرامية إلى صمود المقاومة، وإعداد العدة اللازمة لطرد الحكم الأجنبي من البلاد. ونصح علي الميرغني السلطان بقوله: (الأسلحة النارية أصبحت غير مهمة في مجال القتال حيث أن البريطانيين اكتشفوا غازاً يستخدم في المعارك على شكل الهبوب وأن هناك شكلاً آخر وهو استخدام القنابل وإذا أصبح استخدام الأسلحة النارية غير ذي جدوى)⁽¹²¹⁾. هذا مستوى قذر من الحرب النفسية. وهي تعتبر من أخطر أنواع الأسلحة المعنوية الفتاكة لأنه يجعل عزيمة الخصم تخور أمام هذا النبا الجديد، وهو أسلوب استخدمته الولايات المتحدة في حربها مع أفغانستان والعراق بادعائها إنها اخترعت قنابل يمكن أن تخرق الأرض إلى مسافة مئات الأمتار. مما يعني أن علي الميرغني كان يلعب الأوراق ضمن منظومة الاستراتيجية البريطانية في العالم العربي والإسلامي أكثر منه لاعباً لصالح السلطان باعتباره وكيلاً له. أو القوى الوطنية والإسلامية التي ينتمي لها. وحاول علي الميرغني بدهاء مكر، ومكر خادع تبرئة ساحة الحكومة الثنائية البريطانية ونفي أن يكون لها أي اتجاه عدائي تجاه دار فور بقوله: (بأن ما جرى من قبل الحكومة لم يكن مقصوداً وأن الحكومة الثنائية لا تتوي اتخاذ أي تدابير معادية ضده ... وإنها تحترم الدين وترعى المساجد ولا تتدخل في الشؤون الدينية على الإطلاق .. وإن دخول السلطان الحرب سيقود إلى كارثة وهو استدعاء قوة أجنبية الأمر الذي تترتب عليه نتائج وخيمة)⁽¹²²⁾. هذا الكلام فيه مغالطة

D.S.A Box 128/2

D.S.A Box 128/2

D.S.A Box 128/2

(120) ماكمايل إلى سايمز مدير المخابرات في 1916/4/17م

(121) علي الميرغني إلى علي دينار في أبريل 1916م

(122) علي الميرغني إلى السلطان في أبريل 1916م

تاريخية وفكرية لأن أوروبا الاستعمارية الاستغلالية لا تخدم الدين إلا في حدود ما يخدم مصالحها الحيوية ومفهوم الدين عندها يختلف عن مفهوم الدين عندنا تاريخياً وواقعاً. ولا تعطي أتباع الإسلام من الحرية إلا في حدود ما يخدم مصالحها الحيوية ويلهي القوة الوطنية عن فضحها ومحاربتها.

مما لا شك فيه أن هذا الخطاب كان يهدف إلى إلغاء الرعب في نفس السلطان وإشعاره بضعفه وعدم قدرته على المقاومة وفيه تدليس لبعض الحقائق الهامة، وقلب لما هو واقع حيث ذكر أن الحكومة لا تتوي اتخاذ أي تدابير معادية، والواقع أنه كان يعلم علم اليقين أن الحكومة البريطانية كانت قد استعدت بقضها وقضيضها، واتخذت كل الوسائل والتدابير الكفيلة بتحطيم قوة السلطان وإجلائه عن عاصمة بلاده واحتلال دياره. أما الإشارة إلى أن الحكومة تحترم الدين وترعى المساجد، هذه العبارة كان القصد منها تخدير الروح الدينية المشتعلة لدي السلطان، وقتل الحماس الوطني والاتجاه الجهادي لدى السودانيين والعمل على أبطال مفعول مجهودات السلطان التي يدعو فيها المسلمين قاطبة لمقاومة اليهود والنصارى. وقد استخدم الاستعمار الأوروبي هذه الزعامات الدينية لتخدير الأمة وضربها من الخلف.

وتكررت طلبات القائد الثنائي البريطاني على الحدود الغربية باستعجال الحاكم العام لإصدار أمره بالهجوم على الفاشر. وعزز رأيه بسببين يقتضيان التقدم الفوري أولهما: أن الأمطار ونزولها لا يساعدان كثيراً على إنجاح عملياتنا بقدر ما يمكن أن تشكل عائقاً كبيراً هذا بالإضافة إلى الأحوال الصحية والروح المعنوية المتدنية للجنود⁽¹²³⁾. يبدو أن جنود الغزاة قد بدت عليهم سيماء الاستياء مما حدا بقائد القوات الغربية طلب استعجال الهجوم لئلا تتدنّى وتتهار الروح المعنوية للجنود وبالتالي تذهب خططه أدراج الرياح. وخوفاً من أن تجد دعوة السلطان أننا صاغية لاسيما أن موسم هطول الأمطار يعتبر كسباً يرجح في كفة السلطان، لذا أضحت القضية قضية وقت. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية بإتباع نفس الخطة التي أتبعها قبلاً لاحتلال السودان الشمالي بمد خط السكة حديد أولاً فقامت باستعدادات عالية لمد خط السكة حديد إلى

(123) كالي إلى الحاكم العام في 1916/4/16م . D.S.A Box 128/6

الفاشر. هذا في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الثنائية البريطانية في الخرطوم تطلب من قيادتها الغربية التآني. وأوعزت إلى قائدها البريطاني (كالي) بأن مشروعه لا يزال قيد البحث والدراسة وأمدته بعدد من الجنود⁽¹²⁴⁾. وأبدت الحكومة الثنائية البريطانية من جانبها رغبتها في غزو الفاشر. بيد أن ذلك كان رهين موافقة كل من القيادتين البريطانييتين في كل من القاهرة ولندن. وفي ضوء المعلومات التي توفرت لدى الحكومة الثنائية بالخرطوم فقد أقترح الحاكم العام البريطاني ورجل المخابرات المحنك ريجنالد ونجت على قائده البريطاني كالي إتباع طريق الأبيض - أبو زبد النهود وهو أوفق من طريق الأبيض - الأضية - النهود. ووعده بتزويده بثلاثة طائرات بعد ثلاثة أسابيع من الآن وحذر الحاكم العام قائده من خطأ دقة المعلومات المتوفرة لديهم⁽¹²⁵⁾. مما يعني أن السلطان لو أخذ بزمam المبادرة لأحرز نتائج أفضل لأنَّ الخصم الى تلك اللحظة لا يملك معلومات دقيقة عن السلطان وقواته. وفي ذلك الأثناء درست الحكومة الثنائية البريطانية إمكانية التحالف مع القبائل المعارضة والمستقطبة في المنطقة بغية جعلها طابوراً خامساً يعجل بالقضاء على السلطان ومن خلال البحث والتمحيص رأت أن في الإمكان الاستفادة من الرزاقات بعد تحقيق الجيش لقدر من الانتصارات حيث يمكن وعدهم بالمساهمة في تسليحهم وتمنياتهم بتأمينهم في ديارهم⁽¹²⁶⁾. في هذه الفترة قام أتباع علي الميرغني (ومريدوه) في المنطقة بدور المخبرين للحكومة الثنائية البريطانية حيث كتب محمد شيخ إدريس خليفة خطاباً إلى علي الميرغني ورد فيه: أن علي دينار قد أعدم الشيخ محمد سيمايوي⁽¹²⁷⁾ وعبد الماجد أبو تكية وطلبت الحكومة من استخباراتها في الخرطوم تأكيد ذلك الأمر. فأكدت المخابرات صحته⁽¹²⁸⁾. ولعل لكل قيادة كبرة وسوء تقدير في اللحظات الحرجة، ولها أخطاء لا تغتفر فهذه واحدة من كبوات السلطان وأخطائه الكبرى أن سارت الأمور بهذه الكيفية ودون تحقيق أو جريمة اقتضت ذلك. وإن كانت الحكمة والحنكة السياسية في مثل هذه الظروف الإستثنائية

(124) تلغرافين من الحاكم العام إلى كل من القيادة العامة وقائد القيادة بالنهود في 19/4/1916م D.S.A Box 128/6

(125) الحاكم العام إلى قائد الحدود الغربية ب. ف. كالي في 21/4/1916م D.S.A Box 128/3

(126) الحاكم العام إلى قائد الحدود الغربية ب. ف. كالي في 21/4/1916م D.S.A Box 128/3

(127) هو والد الشيخ علي محمد سيمايوي الذي كان ضمن مشيخة معهد أمدرمان العلمي وقد أصبح شيخاً لمعهد أمدرمان الأوسط خلفاً للشيخ محمد الهادي الخليفة خلال ستينيات القرن الماضي ومنزل العائلة الآن شرق سوق العرضة بأمدرمان وابن شيخ علي لاعب الكرة المشهور .

(128) الحاكم بالخرطوم إلى مكاميل في 21/4/1916م D.S.A Box 128/2

تقتضي جمع الصف وتوحيد الكلمة ومداواة الجروح. لذا ما كان ينبغي على السلطان أن يفقد أهم مستشاريه المؤتمنين كل هذه الفترة نتيجة وشاية أو مؤامرة الأمر الذي أفقده توازنه فيما بعد وأفقده حنكة الشيوخ. هذه المكاتبة دارت بين علي الميرغني وخليفته في الفاشر فلربما قام هو بإيصالها أو أحد أتباعه إلى الحكومة الثنائية البريطانية الأمر الذي يكشف عن دوره المزدوج وهو دور إستخباراتي مما يعني أنه كان أداة من أدواتها وأن ما ناله من حظوة وأملاك ومكانة اجتماعية ودور سياسي كان نتيجة لهذه الخدمات. واستعانت الحكومة الثنائية بالكبابيش لحماية نقاط الاتصال الواقعة بين دار فور والكفرة لئلا يحدث اتصال بين الفور والسنوسية⁽¹²⁹⁾.

هذا في الوقت الذي جاءت فيه الموافقة من مساعد قائد قوات الطيران الملكي البريطاني بالإسماعيلية باستخدام الطيران البريطاني في السودان. وأرقت نشرة تبين الشروط وفوائد استخدامه في طرق الاستطلاع. ووصلت ميناء بورتسودان قافلة بها بعض الصناديق التي تخص سلاح الطيران البريطاني، وعدة شاحنات وبرفقتها ضباط بريطانيون وثلاثون جندياً من مختلف الرتب⁽¹³⁰⁾. ما كان لبريطانيا أن تولي الأمر هذا الاهتمام لولا أهمية هذا الموقع وخطورة الطرق.

ولعل ذلك كله مما يدل على مدى الاهتمام البريطاني بالأمر لارتباطه بموازن القوى المتحاربة ولتأثيره على موقف بريطانيا الدولي في الحرب التي وصفوها بأنها الحرب الكونية يومئذ. وازدادت رغبة الحكومة الفرنسية في تأجيل الحملة الثنائية في الوقت الراهن. إذ كانت تخشى من لجوء السلطان إلى تشاد منطقة النفوذ الفرنسي هذا في الوقت الذي لا تملك بها أي قوة كافية لصدّه. حيث سبق أن أرسلت جزءاً كبيراً من قواتها إلى الكامبيرون وقامت الحكومة المصرية الإنجليزية بتبرير وجهة نظرها وطمأنة الحكومة الفرنسية بأن السلطان على حسب ما وردها من معلومات سيلجأ إلى جبل مرة وأن عملياتها لا تعدو عن كونها دفاعية⁽¹³¹⁾.

(129) مساعد مدير المخابرات إلى حاكم مروي في 1916/4/22م D.S.A Box 128/1
(130) نشرة من مساعد قوات الطيران الملكي إلى الحاكم العام في 1916/4/22م D.S.A Box 128/2 - خطابان من ويلسون إلى الحاكم العام ولواء الخرطوم
(131) ماكما هرن إلى الحاكم العام في 1916/4/23م D.S.A Box 128/2

وأفادت الحكومة الثنائية وقيادتها البريطانية من الكبابيش فسلمت عدداً منهم أسلحة لحماية عدد من النقاط الهامة⁽¹³²⁾. مما يعني نجاحها في استقطاب جزء من أبناء البلد وضرب الفريقين ببعضهما البعض، وهي سياسة غربية قديمة حديثة كما حدث في أفغانستان والعراق والسودان عموماً سواء في دارفور أو في شرق أو في جنوب السودان خلال القرن الماضي والحالي. واتبعت المخابرات البريطانية أساليب تمويه عديدة ومتنوعة لخداع السلطان وإشعاره بأن الذي يجري على الساحة السودانية لم يكن مقصوداً ومخططاً. ووصلت السلطان خطابات عديدة بهذا الصدد بيد أنه قد شك في صحة محتواها وكان ظنه في مكانه وحق له أن يشك⁽¹³³⁾. ذلك لأن بريطانيا كانت تخطط بجدية لإزالة السلطان عن الساحة. فقد طلب الحاكم العام من المندوب السامي البريطاني في القاهرة تزويده بعدد من رجالات المدفعية الممتازين، وفرقة استطلاعية لكشف المواقع التي تتحصن بها قوات السلطان علي دينار. بيد أن المسؤولين البريطانيين في وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الحربية في لندن لم يوافقوا على الخطوات المتفق عليها بين كل من الحاكم العام وقائده على الحدود الغربية لغزو الفاشر تحسباً لحسن العلاقات بين فرنسا وإنجلترا⁽¹³⁴⁾.

وحتى تلك اللحظة لم تملك الحكومة الثنائية بيانات كافية عن قوات السلطان⁽¹³⁵⁾. مما يعتبر دليلاً قوياً على استقلالية السلطنة، وأن تبعيتها كانت رمزية اقتضتها طبيعة وجود قوى كبرى في المنطقة. ويدل ذلك من جانب آخر على حسن إدارة السلطان الأمنية وقوة عيونه في عدم السماح لأي أخبار تتعلق بأمن المنطقة أن تتسرب من دار فور بيد أن موقفه ذلك كان ينبغي أن يكون مسنوداً بعمل استخباراتي خارجي ولكن في تقديري يبدو أن هذا النوع من النشاط لم يكن متوفراً لديه. هذا في الوقت الذي لا زالت فيه محاولات الحاكم العام جارية على قدم وساق لإقناع المسؤولين في كل من القاهرة ولندن للسماح له ببدء الهجوم على الفاشر لاسيما بعد قيامه بشرح طبيعة الأرض

D.S.A Box 128/3

⁽¹³²⁾ نائب مدير المخابرات إلى الحاكم العام في 1916/4/24م

D.S.A Box 128/3

⁽¹³³⁾ المخابرات إلى الحاكم العام في 1916/4/24م

D.S.A Box 128/4

⁽¹³⁴⁾ الحاكم العام إلى الكولونيل كالي في 1916/4/24م

⁽¹³⁵⁾ الحاكم العام إلى المندوب السامي بالقاهرة ووزارة الحربية في 1916/4/24م D.S.A Box 128/1

وأهمية تنفيذ خطة الهجوم في الوقت المحدد وألا ستدور الدائرة على قوات الحكومة البريطانية⁽¹³⁶⁾.

وكان تأني الجهات المسؤولة في العاصمتين ناتج عن النظر إلى القضية من زاوية أكبر تدخل في اعتبارها أهمية العلاقة الإنجليزية الفرنسية وتجنب ما يخدم توثيقها. ولما كان الحاكم العام البريطاني بالخرطوم مصرأ على وجهة نظره أعد خطاباً تفصيلياً بعث به إلى وزير الحربية البريطانية مبنياً فيه أهمية الهجوم في الوقت الراهن، وقاد أدلة منطقية لإقناع الوزارة البريطانية بذلك منها أولاً: ضرورة إنفاذ الحملة قبل هطول الأمطار لأن التأخير وطول الانتظار يؤثر على الروح المعنوية للجنود. ثانياً: لئلا ينتشر جنود السلطان في المنطقة بعد أن تم تجميعهم في الفاشر لحمايتها. أما عن معارضة الفرنسيين للحملة في الوقت الراهن فقد رأى أن دافعها هو الخوف من الاستيلاء الإنجليزي على السلطنات المتنازع عليها بين دارفور والقوات الفرنسية بوداي. وأشار إلى أن الحملة البريطانية قد نجحت في مرحلتها الأولى بالاستيلاء على أم شنقة وأم كدادة وجبل الحلة⁽¹³⁷⁾.

وأبدى الحاكم العام تمللاً من توجس الحكومة البريطانية خوفاً من أن يؤثر ذلك على العلاقات البريطانية الفرنسية. ورأى أن التأجيل سيؤثر على الروح المعنوية للجنود. لا سيما وأن روح التمرد والعصيان لانتشارها بين الجنود اقتضت فصل البعض وإبعاد البعض الآخر. وأن استمرارية ذلك سيعني جلب قوات إنجليزية للسودان وهذا ما لا تستطيعه بريطانيا في الوقت الراهن.. لذا قرر أن تكون الحملة في منتصف مايو. وفي الوقت ذاته أبدى استعدادة لقبول أي اقتراح يصدر إليه من قبل حكومة جلالة الملكة⁽¹³⁸⁾. ولكنه عاد وعزا الموقف الفرنسي إلى المنافسة المعروفة بين البلدين على كعكة إفريقيا. ويرى الحاكم العام البريطاني بالخرطوم أن أي تراجع بلأي مستوى لا يؤثر على الوجود البريطاني في البلاد فحسب وإنما سيتيح ذلك المجال للقوات السنوسية والعثمانية للاتصال بعلي دينار ويساعد في الوقت ذاته على تقوية وتعزيز

D.S.A Box 128/1
S.A Box 128/1
D.S.A Box 128/5

⁽¹³⁶⁾ الحاكم العام إلى المندوب السامي بالقاهرة ووزارة الحربية في 1916/4/24م

⁽¹³⁷⁾ ونجت إلى كتشنر في 1916/4/24م

⁽¹³⁸⁾ ونجت إلى كتشنر في 1916/4/24م

موقفه بعد أن صار معزولاً تماماً عن تلك القوى في الوقت الحالي⁽¹³⁹⁾. إن هذا الخطاب على وجه العموم يصور الحالة النفسية للمسؤولين في السودان حينئذ. ويعكس مدى تخوفهم المتزايد من السلطان وخشيتهم الدائمة من اتصاله بالقوى الخارجية المناهضة للموقف البريطاني في المنطقة. ويعتبر هطول الأمطار ودخول فصل الخريف بطاقة رابحة ترجح كفة السلطان، لذا فلا غرابة أن بدأ القلق يسيطر على قيادة الحكم الثنائي البريطانية في السودان، مما اقتضى أن ينفق الحاكم العام كل ما في جعبته من دفع وحجج، ونثر كنانة منطقته لإقناع المسؤولين في كل من لندن والقاهرة مستخدماً كل الوسائل وساق كل التبريرات لتأييد وجهة نظره وتلبية إلحاح قائده البريطاني في القيادة الغربية للتقدم في الوقت الراهن وإن لا فإن الفرصة ستفقد من أيديهم إلى الأبد. وستجد قوات بريطانية بالسودان نفسها في مأزق لا تحمد عواقبه. ولكن رغباً عن هذه التبريرات والمسوغات فلا تزال القيادة البريطانية في كل من القاهرة ولندن عند موقفها الراض للهجوم والتقدم في الوقت الراهن، وقاد المنسوب السامي البريطاني في القاهرة (ماكماهون) أسباباً مانعة من التقدم نحو دارفور أولها: عدم تقرير ميزانية الحملة بعد. هذا بالرغم من التعاطف الحادث بين كل من القاهرة والخرطوم والنهود في هذا الجانب، ثانيها: مشكلة مدى إمكانية إدارة دارفور إدارة مباشرة وهو ما لا تستطيعه الإدارة الإنجليزية في الوقت الحالي⁽¹⁴⁰⁾. ولكن يبدو أن الحكومة الثنائية البريطانية بالسودان كانت مصممة على تنفيذ خطتها مهما كلف الأمر. لذا استخدمت أشخاصاً عديدين من أمثال الشيخ يوسف الهندي ومحمد حبيب الله الذي كان مقيماً بالفاشر لتزويدها بأخبار السلطان وتحركاته أولاً بأول⁽¹⁴¹⁾.

وبعد شعور الحاكم العام بتعاطف القاهرة معه بدأ في تنفيذ خطته بالرغم من عدم ورود الموافقة النهائية من كل من القاهرة ولندن. ولدى الشروع في التنفيذ بدأت المشاكل تتوالى على قوات الحكومة الثنائية البريطانية تبعاً ابتداءً من إنعدام للمياه وتعبيد للطريق وطلبات ضرورة زيادة القوة الغربية. وشرعت القوات الثنائية

D.S.A Box 128/5

⁽¹³⁹⁾ ونجت إلى كشنر في 1916/4/24م

D.S.A Box 128/5

⁽¹⁴⁰⁾ ماكماهون إلى الحاكم العام في 1916/4/25م

⁽¹⁴¹⁾ المخابرات بالخرطوم إلى الحاكم العام بأركويت في 1916/4/26م D.S.A Box 128/3

البريطانية تحركاتها. من أبياد على شكل فرقتين، وخطط لهما أن يلتقيا على بعد ثمانية وعشرين ميلاً من مليط . ولكن بالرغم من صواب هذه النظرة العملية إلا إن الحكومة الثنائية كانت واضحة في اعتبارها إمكانية عدم الموافقة البريطانية في آخر لحظة. لذا قام الحاكم العام البريطاني بالخرطوم بمحاولات جريئة عن طريق وساطة عدة أشخاص ذوي صلة وثيقة بصانعي القرار في كل من إنجلترا والقاهرة لكي يؤثرُوا على اتخاذ القرار في لندن علي وجه التحديد. وطلب الحاكم العام البريطاني في هذه الأثناء من قائده على الحدود الغربية بإعداد خطة بديلة في حالة ورود عدم الموافقة على غزو الفاشر واحتلال دارفور. وأشار إلى أنه قد أرسل خطاباً إلى السلطان طالباً منه الاستسلام دون إراقة دماء وقد قام يوسف الهندي بالوساطة حول هذا الأمر (142). يشير ذلك إلى أن الحكومة الثنائية البريطانية قد وضعت كل الاحتمالات على الطاولة و شرعت في التعاطي مع كل احتمال حسب مقتضى الحال. وفي تقديري هذا ما يميز العقلية الغربية عن العقلية الإسلامية والعربية والأفريقية أو الآسيوية المعاصرة في التعاطي مع الأحداث والنظر الضيق والتحليل الفج مما أفقدها كثيراً من المواقع المتقدمة في مواجهة أعداء الأمة من الغربيين .

بالرغم من الاستعجال السابق فإن الخطوات العملية للغزو كانت رهينة بموافقة كل من القاهرة ولندن. هذا بإمكانه إلقاء الضوء على بعض الخطابات التي يعثر عليها الباحث في تاريخ هذه المنطقة متبعثرة هنا وهناك والتي يحسب من خلالها أن جهوداً سلمية جارية بين الطرفين وهي ليست على حقيقتها. وإنما كانت تهدف الحكومة الثنائية البريطانية من ورائها إلى حفظ خط الرجعة في حالة عدم حصولها على موافقة كل من القاهرة ولندن. هذا في الوقت الذي بذل فيه الحاكم العام البريطاني جهوداً مضنية للتأثير على وزارة الحربية البريطانية والمندوبية السامية في القاهرة لإقناعهما بخطة الحكومة الثنائية ووجهة نظر قائده البريطاني في المنطقة الغربية بالسماح له ببدء الهجوم على الفاشر قبل موسم الأمطار. لأن هطول الأمطار من المؤكد أن يرجح الكفة لصالح السلطان حيث أن الهجوم المباغت الآن في تقدير قيادة الخرطوم البريطانية

وقيادتها على الحدود العربية هو خير وسيلة لتحقيق نصر عاجل على السلطان على دينار وسيكون معالجة فورية وإدراكاً لحالة الجنود المتردية وإنقاذاً لقيادة الحكومة الثنائية البريطانية في الخرطوم وفي القيادة الغربية وحفظاً لماء وجهها أمام جنودها لئلا يتردى موقفها إلى موقف لا تحسد عليه، في حالة تأجيل مواعيد الغزو عن وقته الحالي، وإلى تلك اللحظة كان الاستعراض يتم بتفصيل دقيق لأحوال الجبهة الثنائية البريطانية في المنطقة الغربية واستعراض وحذر سريع لأحوال الجبهة الفوراوية.

وفي المقابل يمكن أن نلقي نظرة دقيقة على ما كان يجري على الجبهة الفوراوية حيث انتهج السلطان سياسة الصلح وتوحيد الجبهة الداخلية وتقريب ذوي المكانة من شيوخ القبائل. كما حاول إصلاح ذات البين بينه وبين رؤساء القبائل المشاكسة. من ذلك خطابه إلى موسى مادبو رأس الرزيقات في 1916/4/29م حيث شرح له فيه موقفه من الحكم الثنائي البريطاني وأوضح له أن "أي مسلم لا يحق له أن يوالي عدو الله ورسوله وينصح له بالطاعة لله ورسوله وأن يحكم بكتاب الله وأن لا يضع أوامره"⁽¹⁴³⁾. بيد أن موسى مادبو كان أسير النظرة الذاتية والمصلحة العاجلة إذ لم يدرك فحوى اللعبة الدولية الغربية ذات الأبعاد الاستغلالية الاستعمارية في المنطقة، فلم يجب الدعوى ولم يلبي نداء السلطان المطالب بوحدة الصف ومقاومة الحكومة الثنائية البريطانية في المنطقة. ومن جانب آخر أقام السلطان ثلاث نقاط جهازها بإعتبارها نقاط دفاع أمامية فعين على إحداها أحمد ود الميرم وعلى الأخرى موسى الزغاوي. وهذه النقاط كان الهدف منها أن تكون بمثابة نقاط أمامية استطلاعية مهمتها الأساسية التنبيه على تقدم العدو، وتدعم خروج السلطان في الوقت المناسب لمفاجأة قوات الحكومة الثنائية قبل وصولها مليط. ولكن أحبطت الروح المعنوية لدى جنود السلطان واسقط في يده حين علم بهزيمة قواته في أبياد. وقد لعبت المخابرات الثنائية البريطانية دوراً بارزاً في تضخيم هذا الأمر إعلامياً⁽¹⁴⁴⁾. ومعلوم أن بريطانيا كانت تملك آلة إعلامية أشبه ما تكون بآلة الولايات المتحدة الإعلامية الحالية التي تستطيع بواسطتها قلب

D.S.A Box 128/1

D.S.A Box 128/5

(143) السلطان إلى موسى مادبو في 1916/4/29م

(144) ماكمايل إلى السردار في 1916/4/30م

الحقائق وتشويه سمعة من تريد تشويه سمعته دون وجه حق. وترفع أرذل الأردلين من الخونة والعلماء وأشباه الرجال إلى مقامات القديسين .

واستجابة لطلب القائد البريطاني كالي بتعزيز موقفه وافقت الحكومة الثانية البريطانية بإضافة الفرقة العاشرة إلى قواته. ولا يزال الفرنسيون على موقفهم يعترضون على الهجوم ولدى إبلاغ ونجت بذلك الموقف الفرنسي وافق مؤقتاً على التأجيل حتى هطول الأمطار. ولكن في الوقت ذاته لم تتوقف محاولاته المتكررة للضغط على مجلس الجيش في لندن للموافقة على بدء الهجوم الذي رفع بواسطة المندوب السامي البريطاني في القاهرة إلى وزارة الحربية البريطانية في 16/4/1916م⁽¹⁴⁵⁾. وفي الثاني من مايو 1916م جاءت الموافقة من الحكومة البريطانية بالتقدم لغزو الفاشر والاستيلاء على دار فور. وأبلغ السفير الإنجليزي في باريس الحكومة الفرنسية برأي الحكومة الإنجليزية بعدم إمكانية التأجيل إلى ما بعد موسم الأمطار. وأمام الأمر الواقع أصدر الفرنسيون أوامره إلى قواتهم في وداي بتسهيل عمليات القوات البريطانية في دار فور. ونتيجة جهود الحاكم ووساطته الشخصية استطاع خلال ثلاثة أسابيع مليئة بالحركة والنشاط والأحداث أن يحصل على موافقة كل من القاهرة ولندن. ومن ثم تجاوز معارضة الحكومة الفرنسية لبدء الهجوم وأداء الحملة لدورها المنوط بها⁽¹⁴⁶⁾. ولكن مما يدل على عدم موافقة فرنسا تماماً على الخطة تأخرها حيث لم تؤيد القرار ابتداءً ولم تبد استعدادها لذلك إلا في الثامن من مايو لمساعدة بريطانيا في عمليات احتلال دار فور⁽¹⁴⁷⁾.

وعلى الجبهة الفوراوية فإن الانطباع السائد هو أن السلطان سيقاقل خارج الفاشر لربما في مليط وفي حالة فشله سيتجه صوب جبل مرة ومن هناك في أول فرصة تتوفر له سيهاجر إلى السنوسي في ليبيا. وقد قام السلطان بتجنيد عام وبتعبئة شاملة إذ دعا كل قادر إلى الخدمة العسكرية وحمل السلاح ضد العدو الغادر والمحتل الآثم⁽¹⁴⁸⁾.

(145) يونان لبيب، مصدر سبق ذكره، ص 387 - 388

(146) السردار إلى دينل في 1916/5/2م السردار إلى دينل في 1916/5/2م D.S.A Box 128/5

(147) السردار إلى دينل في 1916/5/2م السردار إلى دينل في 1916/5/2م D.S.A Box 128/5

(148) ماكمايل إلى الحاكم العام في 1916/5/14م D.S.A Box 128/1

وبدأت تحركات القوات الثنائية البريطانية في دفعيتين: الأولى تحركت في 5/15 والثانية: تحركت يوم 5/16 من أبياد في طريق وعر لا ماء به مسافة 70 ميلاً وقامت طائرتهم البريطانية بالاستطلاع على قرية مليط فوجدتها محروسة من قبل قوات السلطان التي تقدر بـ 500 جندي وقذفت الطائرة قنبلة بيد أن مدفعية علي دينار أمطرتها بوابل من النيران الكثيفة حيث أصيب من جراء ذلك أحد محرركاتها⁽¹⁴⁹⁾. الأمر الذي يدل ذلك على مدى قوته واستعداده للمقاومة دون الاعتماد على أية مساعدة خارجية، هذا بالنظر إلى ضخامة الاستعدادات الثنائية البريطانية التي استخدمت أحدث ما لديها من امكانيات وقدرات. هذا بالإضافة إلى التدابير والاحتياطات المتخذة ضده. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية في مجال الحرب النفسية وتخطيط الروح المعنوية لقوات السلطان علي دينار بإصدار منشور حاولت فيه تشويه سمعة السلطان وإضعاف عزم أتباعه. الأمر الذي أغضب السلطان وأثار حفيظته حيث كانت هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها دارفور منشور يندد بسياسة السلطان الداخلية والخارجية وينال من شخصه أمام أتباعه، إذ لم يكن بالإمكان توزيع هذا المنشور إلا بإلقائه بواسطة الطائرات. فقام السلطان بالمقابل بإرسال خطاب شديد اللهجة، فند فيه ما ورد في البيان المشار إليه جملة وتفصيلاً مؤكداً أن الكلام الذي ورد فيه كله كذب. وأبدى استعداده التام لمواجهة جيوش الحكومة اعتماداً على الله في حربه ضد الكفار أعداء الله ورسوله، وعنون الخطاب بالعبرة التالية: (إلى السيد النار "السردار" الطاغية الملعون الكلب). وأشار في خطابه إلى أنه سيضع حداً ونهاية لحكم الكفار في السودان، وسيقضي على ونجت ورجالاته⁽¹⁵⁰⁾. إن هذا الكلام على هذا المستوى يدل على مدى الحنق الذي وصل إليه السلطان، ووصف الرجل الأبيض بهذه الصفة الوضيعة تدل على الاعتزاز وعناد الشخصية السودانية في حالة توجيه الإهانة إليها، فإنها لا تتورع في أن تتصرف بتلقائية تسقط فيها كل الحواجز وتتجاوز فيها كل السقوف وتتحقق فيها مقالة أبو سن (للخواجة) الذي قال له في معرض رده على أسلوب غير لائق بمكانته

D.S.A Box 128/6

D.S.A Box 128/3

(149) الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/5/14م

(150) على دينار إلى السيد النار في 1916/5/17م

الاجتماعية وهو شيخ الشكرية إن هذه الشجرة ... ودارت الأيام وجاء "الخواجة" وقد نال وظيفة أكبر فقال لأبي سن أنا أصبحت مفتشاً كبيراً، فقال له أبو سن الشجرة أيضاً كبرت!! وهي قصة مشهورة لدى السودانيين الذين ليس لديهم كبير إلا الله سبحانه وتعالى .

وقام السلطان باستطلاع تحركات العدو فأخذ يعدّ العدة لذلك بعد معرفة الطريق الذي سيأتي منه العدو فقام بحفر الخنادق وعمل التحصينات لمواجهة الغزو وبدأ في صبيحة 5/21 التحرك من الفاشر في اتجاه العدو وحفر الخنادق في خط مواز ومواجه لمعسكر القوات الثنائية البريطانية، وأسند قيادة جيشه إلى كل من رمضان وابنه سليمان⁽¹⁵¹⁾. في ظل هذه الظروف العصيبة استولت القوات الثنائية البريطانية على مليط في مايو وتم أسر ثمانية من كشافة السلطان نتيجة مفاجأة قواته بسبب إلقاء القنابل من الجو، وتقع مليط على بعد 40 ميلاً جنوب الفاشر، لذا عقد السلطان اجتماعاً موسعاً لمجلسه العسكري الذي قرر مواجهة العدو خارج الفاشر وأقسم الجميع على أحد الأمرين النصر أو الموت⁽¹⁵²⁾. ولكن القبض على فرقة إستطلاع السلطان شل حركته وقطع عنه ذلك الأخبار بتحركات العدو مما أثر على خطته ومعلوماته⁽¹⁵³⁾. وفي 22 مايو تقدمت القوات الثنائية بعد استطلاع قامت به طائراتها حتى وصلت إلى بعد إثني عشر ميلاً من الفاشر حيث تعسكر قوات السلطات التي احتلت مركزاً استراتيجياً هاماً⁽¹⁵⁴⁾. هذا بالرغم من شح إمكانياته المادية والعديدية مقارنة بقوات الحكومة الثنائية بطائراتها وقدراتها العسكرية المتفوقة.

ولم تتجاوز قوات السلطان علي دينار يومئذ الثلاثة آلاف والستمائة رجل مسلحين بالبنادق. أما البقية فلا يملكون سوى الحراب شيئاً، وبدأت هذه القوات هجوماً عنيفاً على قوات الحكومة الثنائية البريطانية. إلا أن نيران المدفعية المتفوقة حصدها حصده الأفيال وبالرغم من ذلك صمد هؤلاء الأبطال صمود الأماجد من أبناء السودان حتى

D.S.A Box 128/5

D.S.A Box 128/6

D.S.A Box 128/6

D.S.A Box 128/5

⁽¹⁵¹⁾ ماكميل إلى الحام العام في 1916/5/27م

⁽¹⁵²⁾ الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م

⁽¹⁵³⁾ الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/16م

⁽¹⁵⁴⁾ الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م

أن بعضهم سقط على بعد عشر ياردات من خط النار وقتل في هذه المعركة قائده رمضان وابنه سليمان مما كان له أكبر الأثر على نفسية السلطان⁽¹⁵⁵⁾.

وبلغت الخسائر الفوراوية في تلك المعركة الألف قتيل وثلاثمائة جريح. وبلغت خسائر الجيش الغازي حوالي ستة وعشرين قتيلًا وبقي مع السلطان عدد كبير تنقصهم الدربة لا سيما بعد أن خسر الفور خيرة رجالاتهم وقياداتهم المقتدرة في هذه المعركة غير المتكافئة مع العدو الغازي المعتدي⁽¹⁵⁶⁾. وحاول السلطان بشتى الوسائل أن يخترق هذا الحصار المفروض عليه من قبل هؤلاء الأعداء الظلمة بفرقة استطلاعية بيد أنها قد حصدت بواسطة نيران المدفعية الثنائية⁽¹⁵⁷⁾. بعد أن بلغ مسامع السلطان خبر الهزيمة الثانية في 1916/5/22م انتظر حتى وصول الفارين إليه فأرسل معهم خطاباً إلى السنوسي لتوحيد الجبهة من جديد لإشعال المعركة خارج الفاشر وصمدت قواته صموداً لم يزعزعه إلا وصول طائرة بريطانية أنقذت الموقف. وبالتالي كانت معركة (بيرنقي) هذه تعتبر معركة فاصلة استطاع الفور فيها أن يحققوا نصراً شجع السلطان للقيام بالدور الأخير فهجم بقواته من أقصى جنوب المدينة ولكن تحت وابل من قذائف مدافع وطائرات القوات الثنائية البريطانية تفقهه⁽¹⁵⁸⁾. وتقدمت القوات الثنائية تجاه الفاشر عاصمة دارفور حيث دارت في أرجائها معركة حاسمة من الساعة الخامسة والنصف صباحاً إلى الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كانت بحق ملحمة فوراوية من ملاحم البطولة والوطنية السودانية، وتجسدت فيها روح التضحية والجهاد والإيمان بالمبدأ والدفاع عنه حتى آخر لحظة ورمق. بعدئذ اعتصم السلطان بقلعة داخل الفاشر وتقدمت القوات الثنائية البريطانية مسافة ثمانمائة ياردة إلى موقع أحسن حتى أصبحت على بعد اثني عشر ميلاً شمال الفاشر⁽¹⁵⁹⁾. بكل المقاييس ما يمكن قوله أن السلطان قد صمد وجنوده صمود الأبطال، وأبدى مقدرة على المقاومة في مواجهة

(155) مكاميل إلى الحاكم العام في 1916/6/14م

(156) كالي إلى الحاكم العام في 2005/5/25م

(157) كالي إلى الحاكم العام في 2005/5/25م

(158) يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 390-391

(159) كالي إلى الحاكم العام في 1916/6/25م

D.S.A Box 128/5

D.S.A. Box 128/6

D.S.A. Box 128/6

D.S.A. Box 128/6

أحدث ما وصلت إليه أوربا يومئذ بأسلحة تعتبر ضعيفة وبدائية في مواجهة ما تملكه الحكومة الثنائية البريطانية المدعومة من كل من القاهرة ولندن.

ولكن بالرغم من هذا الصمود في وجه القوات الغازية فقد خسر السلطان في هذه المعركة عدداً كبيراً من قواته وخيرة قياداته، بيد أنه كان مصراً على المقاومة والصمود إلى آخر رمق من حياته شأنه شأن الأنصار من قبله في كرري وأم دبيكرات⁽¹⁶⁰⁾. وفي 24 مايو حلفت الطائرة الثنائية البريطانية فوق كل من مليط والفاشر لمدة ست ساعات حيث قذفت قوات السلطان بوابل من النيران. وردت الأخيرة بالمثل الأمر الذي أدى إلى إصابة قائد الطائرة الثنائية البريطانية في فخذه⁽¹⁶¹⁾. وكانت قوات السلطان لا تزال صامدة ومتجمعة في الفاشر⁽¹⁶²⁾. وبعد وصول الطائرة ترك السلطان الفاشر متجهاً ناحية بئر الطويل على بعد عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً جنوب غربي الفاشر. وبعد فترة قصيرة غادر بئر الطويل بعد أن أقام بها قوة متجهاً صوب جبل مرة، ويبدو أن السلطان علي دينار كان يتوقع هجوماً جويماً حيث حصن الفاشر ببرجين لإطلاق النار على الطائرات⁽¹⁶³⁾. بيد أنهما لم يغنيا عنه كثيراً لمحدودية إمكانياته ولفقده العظيم في معركة سابقة لمعركة الفاشر تماماً حيث فقد خيرة رجاله بما فيهم بعض أبنائه. وفي الخامس والعشرين من شهر مايو سنة 1916م تم الاستيلاء من قبل القوات البريطانية على الفاشر تماماً، وتوالت التهناني من كل من القاهرة ولندن والخرطوم⁽¹⁶⁴⁾. وفي اليوم التالي لدخول الفاشر اقترح القائد البريطاني كالي على الحاكم العام الإنجليزي بالخرطوم جعل جائزة مقدارها مائة وخمسون جنيهاً لمن يأتي برأس علي دينار ومحمد عبد الموجود⁽¹⁶⁵⁾. لعل ذلك العرض يغري ذوي النفوس الضعيفة من أتباع السلطان وأعوانه المقربين لقتله والفوز بالجائزة. وفي يوم 25 مايو 1916م قام السلطان علي دينار بمناورة سياسية جديدة، حيث أرسل خطاباً إلى الحاكم العام البريطاني بالخرطوم أشار فيه إلى أنه قد خدع من قبل كبار رجالات دولته وأنه

D.S.A. Box 128/6

D.S.A. Box 128/6

D.S.A. Box 128/6

(163) I bid

D.S.A. Box 128/5

D.S.A. Box 128/5

(160) كالي إلى الحاكم العام في 1916/6/25م

(161) الحاكم العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م

(162) الحاكم العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م

(164) الحاكم العام إلى كالي في 1916/5/27م

(165) كالي إلى الحاكم العام في 1916/5/26م

دخل في الحرب ضد الحكومة الثنائية البريطانية نتيجة إغرائهم وأنهم انسحبوا منه حين دخلها الجيش الثنائي. وعرض علي القيادة البريطانية الصلح مشيراً إلى عدم رغبته في الحكم والملك. بيد أنه طلب الأمان له ولعائلته ومرافقيه ويأمل في أن يوافيه الحاكم العام البريطاني بالشروط المطلوبة للسلم حقناً للدماء بشرط أن لا تكون هذه الشروط مجحفة ومقبولة⁽¹⁶⁶⁾.

بهذا يكون السلطان قد عرض موافقته على الصلح وحقق الدماء في غير مذلة كما أبان أنه لا يقبل الضيم. وهنا تبرز فيه الشخصية القوية التي لا تستسلم دون شروط مسبقة. ولعله بذلك أراد المراوغة وتهدئة الأحوال حتى يتمكن من جمع شمله ولم شعته والمعاناة من جديد. ولا يخفي أن هذا العرض الذي تقدم به كان من باب المناورة السياسية البحتة ومحاولة ذكية لكسب الوقت، لأن الدارس لشخصية السلطان علي دينار يدرك بأنه كان مراوفاً من الدرجة الأولى وأن قناعاته الذاتية لا يمكن أن تتبدل بهذه السرعة على الإطلاق، ولعل تجربته مع المهدية تعطي خير مثال، فهو سلطان ابن سلطان سليل سلاطين إذ يستحيل أن ينزع عنه هذا الجلد جلد العزة والكرامة والمجد الأصيل ويلبس جلدًا آخر جلد الذلة والمهانة بهذه السرعة وبهذه البساطة الساذجة .

وأبدى الحاكم العام رغبته القوية في استسلام السلطان ورجالاته على أن يعطى مقابل ذلك الأمان وأن تهيب له الحكومة ولعائلته مكاناً آمناً بعد أن يوافق على مقابلة الحاكم العام البريطاني. وذلك بعد إجراء مقابلة أولية مع قمندان الحدود الغربية وترتيب ما يلزم من تحديد عدد الرجال الذين يمكن أن يصحبوا السلطان إلى الخرطوم⁽¹⁶⁷⁾. بعد وصول رد الحاكم العام البريطاني لم يتردد السلطان في الرد على هذا الخطاب مبدئياً استعداده التام بقبول أوامر الحاكم العام البريطاني. ووعده أنه حالما تنزل الأمطار فسيكون بالفاشر. ونفي وجود رجال ذوي أهمية لديه من رجالات دولته سوى الشايب شمس الدين ويطلب من القمندان البريطاني موافاته بالمكان الذي سينزل فيه وتحديد عدد الرجال الذين سيصحبونه⁽¹⁶⁸⁾.

⁽¹⁶⁶⁾ السلطان إلى السردار في 1916/5/29م الموافق 26 رجب 1334هـ - D.S.A Box 101/1

⁽¹⁶⁷⁾ قمندان القوة الغربية إلى السلطان في 1916/5/29م - D.S.A Box 101/5

⁽¹⁶⁸⁾ السلطان إلى القمندان في 1916/5/29م - D.S.A Box 101/5

إن من يعرف سيرة السلطان وسلوكه السابق مع المهدية في حالة القوة والضعف يدرك المراد من هذا الخطاب الذي لا يعدو عن كون نزولاً على الأمر الواقع والاستفادة من الزمن. ولعله كان يهدف إلى تنفيذ خطة أخرى للانقضاض على القوة الثنائية البريطانية أو الفرار بجلده والالتحاق بالسنوسيين في الكفرة وكان يدرك تماماً أن الزمن في صالحه، وإن هطول الأمطار يعني شل حركة الحكومة الثنائية البريطانية والحيلولة دون مواصلة مطاردتها له، وعندئذ يتسنى له أن ينفذ ما يدور بخلد. على صعيد آخر قام القمندان البريطاني بتحديد القوة التي يجب أن تصحب السلطان بأن لا تزيد عن مائة شخص هذا بخلاف عائلته وأولاده الصغار. أما بقية أتباعه عليهم الانتظار خارج المدينة لترتيب ما يلزم من إجراءات واستلام أسلحتهم وهذا يتم بعد إرسال رسول مسبقاً أخبر بقدم السلطان قبل يوم "على الأقل" (169). الأمر الذي يشكك في مصداقية الحكومة البريطانية المعروفة بالغدر الذي هو شيمة غربية أوروبية. ولقد كان السلطان علي دينار انكي من أن تتطلي عليه هذه التدابير البريطانية الماكرة التي توحي بأن هناك تدبيراً خفياً يجري وراء الكواليس لإيقاع السلطان في قبضتها بكل حيلة ممكنة.

بدا الإجحاف واضحاً وبدأت الحكومة الثنائية البريطانية تفكر في وسائل جادة لإبعاد السلطان علي دينار عن السودان عموماً ولئلا يصبح رمزاً للاستقلال في البلاد. ولئلا يقض مضجع النظام الأجنبي الجاثم على صدر الأمة. وفكر الحاكم العام البريطاني جاداً في إقصائه إلى أي مكان خارج السودان. لا سيما مكة بعد وصول الأخبار التي تفيد استسلامه وأكد ريجنالد نجت الحاكم العام بأنه مشغول في الوقت الراهن بأمر الثورة العربية وإشعالها في الجزيرة العربية والتي خطط لها أن يكون على رأسها شريف مكة الحسين بن علي. وأشار إلى نجاح المخطط الاستعماري الأوروبي في ذلك المسعى. هذه هي النكسة العربية الأولى التي ألبت ثوب الثورة زوراً وبهتاناً فهي من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها إنجليزية الصنع أجنبية القسمات، فهي غريبة فكرة وغاية وهدف، والذين أشعلوها لا يعدو عن كونهم خونة

أو مغفلين فكانوا وقود حركة لم يكونوا من منظريها أو مخططيها أو مفكريها بقدر ما كانوا أدوات صماء بكماء لا تعي إلا إشارة السيد الأبيض الذي كشف حقيقتها في هذا التصريح، وهذه هي الحركة التي أسماها بعض المغفلين من الكتاب والساسة وبعض الأكاديميين زوراً وبهتاناً بيقظة العرب وكان الآخري أن يطلق عليها غفوة العرب . وتلك هي مصيبة القيادات غدير الواعية في العالم الثالث التي لا تعدو عن كونها لعباً ودمى في أيد ساسة الغرب تخون أوطانها وأممها وتبيع عرضها وأرضها بثمن بخس. وتتفذ سياساتهم دون وعي أو إدراك أو حبة نكاء. وكان المقصود من إرسال علي دينار إلى مكة التي ستكون تحت قيادة رجل لا يميل إلى الأتراك أن يتم وضعه في حجز تحفظي وإذا لم تتجح الإدارة البريطانية في تحقيق هذا الغرض فسيتم إرساله إلى مالطا أو عدن أو أي مكان آخر⁽¹⁷⁰⁾ بعيداً عن أنظار وأسماع أهل دارفور والسودان عموماً وحتى يتم نسيانه تماماً وتخلو الديار من رجل في قامته يرفع عقيرته ضد الوجود الاستعماري المحتل بالبلاد.

مما لا شك فيه أن هذا الخطاب له أهمية بالغة إذ يعتبر وثيقة غاية في الخطورة لأنه خفايا وأسرار السياسة الاستعمارية ودورها الخبيث الماكر في صياغة وتحريك الأحداث في المنطقة العربية والإسلامية والأفريقية والآسيوية. ويفضح ويعري قامات رجالات كانوا ملء العين والبصر وحسبهم الناسيوميها أبطالا ولكنهم كانوا في الواقع والحقيقة أقزاماً وخونة. كما يعكس هذا الخطاب الدور الاستعماري في المنطقة وومدى الدسائس التي كانت تحاك ضد الأمة الإسلامية على خريطة العالم الإسلامي. ويؤكد على أن الإخطبوط الإنجليزي كان يلعب دوراً بارزاً بالغ الأهمية في كل ما يجري في منطقة ما يسمى بالشرق الأوسط لاسيما وأن الموقف العربي والحركة الاستقلالية ذات النزعة العرقية كان منطلقها خارجياً منشئاً ومنتهى لا يمت إلى الأمة أو تراثها أو أوطانها بصلة. وإنما هو صياغة غريبة شأن معظم الأطروحات الكثيرة التي أصبح يتبناها الآن الأحفاد في دار فور دون وعي وينفذوا مخططات لا تصب في خانة الوطن أو مصلحة شعب دار فور بقدر ما تحقق أجندة غريبة أمريكية ذات استراتيجيات أشبه ما تكون بإستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في كل من أفغانستان والعراق.

ويؤكد لنا هذا الخطاب على صعيد آخر وطنية علي دينار وأصالته في إنتمائه وروحه الديني وهويته الإسلامية التي لم يرض تحت كل الظروف والضغوط التنصل منها أو التنازل عنها وأن رؤاه الإسلامية ظلت هي الطاغية وإن لم تتج من امتزاجها بحب السلطة، وهذا أمر طبيعي في فرد من سلالة بيت حاكم في المنطقة لأكثر من أربعة قرون مضت، وامتاز البيت الفوراوي بتنظيم سياسي وإداري وقضائي وعسكري، افترقت إليه كل السلطنات مما ضمن له الديمومة والاستمرارية حتى مجيء هذا السلطان إلى العرش. والذي أزعج بريطانيا بحق هو موقفه العدائي ضد الحكومة الثنائية البريطانية بالسودان واستراتيجية بريطانيا في المنطقة العربية والأفريقية ووقوفه بجانب تركيا. واتخذت سياسته الخارجية بعد اندلاع الحرب التي أسموها الكونية منحى واضحاً، بأن استجاب لنداء دار الخلافة العثمانية وآل على نفسه معاداة النظام الكافر باعناً بخطابات حادة اللهجة موجهة إلى (حاكم النار) و (حاكم جهنم) يعني بذلك حاكم عام السودان البريطاني، وخشيت الحكومة الثنائية وبريطانيا أن يحدث بعد هطول الأمطار اتصال بينه وبين السنوسيين والأتراك وبذلك يسقط في أيديها ويشكل ذلك الموقف عبئاً ثقيلاً على وجوده. ومن ثم لا يمكن مقاومته أو إزاحته حينئذ⁽¹⁷¹⁾. ورغماً عن خطاب الحاكم العام البريطاني السابق بقبول تسليم علي دينار. إلا أنه لم يخف شكوكه من موقف السلطان، الأمر الذي حتم عليه إرسال فرقة من القوات البريطانية للقضاء عليه قبل أن يتمكن⁽¹⁷²⁾. وعزا ذلك إلى وجود أشخاص مثل محمد عبد الموجود المصري الأصل الذي هرب من الخدمة العسكرية في الحكم الثنائي وأنحاز إلى فئة الحق والإسلام. وأصبح ريجنالد ونجت ينظر إلى مراسلات السلطان علي دينار باعتبارها نوعاً من المراوغة حاول السلطان بها أن يهدئ الموقف ثم يحاول فيما بعد أن يقيم سلطنة صغيرة في جنوب دار فور. وهذا ما سبق أن أكدنا عليه وهي سياسة فيما يبدو ناجحة في بعض الظروف ولكن ليست ناجحة في كل الأحوال. بهذا يكون الحاكم العام البريطاني قد أدرك فعلاً أبعاد سياسة السلطان الراهنة لا سيما وأن

D.S.A. Box 129/6

D.S.A. Box 129/7

(171) الحكام العام إلى كالي في 1916/7/13م

(172) الحكام العام إلى كالي في 1916/6/13م

هذا ديدنه من قبل في مثل هذه الظروف حيث أن موقفه من المهدية يظل خير شاهد. وكان السلطان من جانب آخر يدرك أن المشكلة لا تعدو عن كونها مشكلة زمن وبالتالي عليه أن يكسبها لصالحه بالمرأوة وبواسطة رسائل تذهب منه وتجيء إليه بدون حدوث نتيجة عاجلة وهي نفس السياسة التي اتبعها إزاء الحكم الثنائي البريطاني منذ توليه وحتى مغادرته الفاشر عنوة في مايو سنة 1916م.

ومن باب المرأوة السياسية بدأت مراسلاته تصل الحكومة ويبدى فيها موافقته على أية شروط تعرضها عليه الحكومة الثنائية البريطانية ومنذ نهاية مايو فقد مضى أكثر من شهر والموقف لا يزال كما هو دون تغيير يذكر. وفي 27 يوليو جاءت أخبار تفيد بأن ثورة قد حدثت بين جنود السلطان في معسكره وأنه قد جرح وإن عدداً كبيراً من عبيده قد هرب بيد أن ذلك لم يتأكد. واقترح القائد البريطاني كالي إذا صح الخبر فعلى قوات الحكومة أن تعاجله بضربة مفاجئة أثناء مقاساته من الجرح والقضاء عليه⁽¹⁷³⁾. ووصلت معلومات مفادها أن السلطان لا زال يحتفظ بعدد من الجنود يقدر عددهم بخمسمائة جندي. ومعهم مئتا حصان ويملك من الأسلحة ألفي بندقية وإتباعه يقدرون بألف رجل بما في ذلك جيشه⁽¹⁷⁴⁾. هذه إحصاءات وتقديرات المخابرات البريطانية إذ لا يستبعد أن يكون فيها قدر من المبالغة للتقليل والتهوين من شأنه في نظر المسؤولين البريطانيين في الخرطوم حتى يسمحوا للقوات الغربية بالتقدم ومطاردته والحقاق به. وعليه ينبغي علي الباحث في مثل هذه الوثائق أن يكون حذراً مما ورد بها من معلومات. ولما لم يكن هناك غيرها كان إعتقادها ضرورة مع احتمال الشك في درجة صحتها ويمكن مقارنتها بما كتبه أشخاص مختلفون في هذا الجانب.

في هذه الأثناء قام السلطان بمحاولات لتركيز نفسه من جديد وتطبيق الإجراءات الكفيلة ببقائه: أولها: توفير المال الذي يعد عصب الإدارة والسلطة وقوامها وذلك بإنقاذ حملة لجمع الضرائب من القبائل المجاورة ونتيجة لرفضها جرد عليها حملة بقيادة أبنائه زكريا وحمزة وسيف الدين وآخرين مثل منصور عبد الرحمن وخير الله مقاصر

D.S.A. Box 129/7

D.S.A. Box 130/1

⁽¹⁷³⁾ كالي إلى الحكام العام في 1916/7/27م

⁽¹⁷⁴⁾ كالي إلى الحكام العام في 1916/8/14م

وجرح في هذه الحملة ابنه زكريا وتقدر عندية الحملة بأربعمئة جندي⁽¹⁷⁵⁾. الأمر الذي يؤكد على أن السلطان لا يزال يمارس سلطانه كاملة غير منقوصة وان خطاباته السابقة لا تعدو عن كونها تهدة ومراوغة يرمي من ورائها إلى كسب الوقت. ولعل ذلك كله مما يدل على استمرارية السلطان في ممارسة شؤون الحكم في الرقعة التي تحت يده. وان ما كتبه إلى السردار لا يعدو عن كونه ذر رماد في العيون إلى حين.

وتوجست الحكومة الثنائية خيفة من قوة السلطان الحالية وشعرت بخطورته هذا بالرغم من هروب بعض جنوده ممن تأثر بالدعاية الثنائية البريطانية من معسكره، وضعفت نفسه أمام إغراءات الأمان وشدة الحالة التي وصلها السلطان. وواصل علي دينار هجماته على القبائل الضعيفة بغية توفير إحتياجات جنده وأصبحت الحكومة الثنائية البريطانية تترقب الفرصة السانحة للقضاء عليه⁽¹⁷⁶⁾. وأطلقت المخابرات الثنائية إشاعة فحواها أن الجيش الغازي قد أجلى عن الفاشر. فأرسل السلطان فرقة استطلاعية بقيادة ابنه زكريا للتأكد من صحة هذه الأخبار إلا أنها لم تصل الفاشر مما يؤكد على قوة أمله في جلاء القوات الثنائية البريطانية عن الفاشر ودار فور وعودته لعرش آبائه تارة أخرى⁽¹⁷⁷⁾. وفي الوقت ذاته أقامت الحكومة الثنائية نقاط مراقبة قوية حيث جندت عناصر من أهل البلاد لحراسة الحدود من غرب جنوب حلفا وحتى دار فور وعلى امتداد طريق الأربعين وسلحتهم بأسلحة نارية⁽¹⁷⁸⁾. لفرض حصار عسكري على السلطان لئلا تصله أسلحة أو إمدادات سنوسية أو تركية وهذه المحاولة كانت غايتها قطع أي اتصال خارجي مع السلطان.

وعلي صعيد آخر جرت بين الطرفين اشتباكات في 16/10/1916م أطلقت فيها القوات الثنائية البريطانية النار على قوات السلطان حيث أصابها فزع شديد وتشتت شملها. وشرع السلطان في إعداد العدة للتقهقر إلى كويفا (KOEFA) ولقد جاء في هذه الأثناء ورد طلب من زكريا علي دينار إلى القائد الإنجليزي بالاستسلام وكذلك

D.S.A. Box 130/4

D.S.A. Box 130/4

D.S.A Box 130/4

(178) Sir Reginald Winsale. op. cip. PP. 10368.

(175) كالي إلى الحاكم العام في 13/9/1916م

(176) الحاكم العام إلى ليو وينتال في 6/9/1916م

(177) كالي إلى الحاكم العام في 21/9/1916م

ورد طلب آخر من أحد قادة السلطان في نفس الموضوع⁽¹⁷⁹⁾. هذا في الوقت الذي لجأ فيه السلطان تارة أخرى إلى المراوغة حيث أرسل خطاباً إعتذارياً إلى (هاردليستون) البريطاني قائد القوات الثنائية الذي كان مكلفاً بمطاردة السلطان وأشار له فيه بأنه يرغب في الحضور حالياً إليه بغية الاستسلام⁽¹⁸⁰⁾. لعل خشية السلطان من نقض الحكم الثنائي لعهوده وتجربته الطويلة معه هي التي جعلته يتشكك في صدق نوايا الحكم الثنائي وتلويحه له بالأمان مقابل استسلامه. وفي الرد على تسليم ابنه زكريا رد السلطان بأن ابنه قد مات. وأخذ يلعب بعواطف الحكم الثنائي مرة أخرى بإشارته إلى أنه على استعداد للاستسلام إذا ما أعطته الحكومة الأمان وإن استسلامه مشروط بذلك أولاً. وقام بإرسال وفد إلى هاردليستون قائد الحملة الإنجليزية المصرية بغية أن يتفاوض معه⁽¹⁸¹⁾. إلا أن الأخير عزم على مطاردته والقضاء عليه فقام بحملة على السلطان في 15/11/1916م والذي كان قد اتجه صوب سوغاي (sugai)⁽¹⁸²⁾. ولدي وصول هاردليستون إلى كالوم لم يجد فيها غير الأسلاب ووجد أن معظم رؤوس المية من جهادية علي دينار الذين كانوا معه تركوه وسلموا أنفسهم للجيش الغازي⁽¹⁸³⁾.

وبعد وصوله إلى نفس المكان الذي قتل فيه ابن عمه أبو الخيرات جاءته أخبار بان قوات الحكومة الثنائية البريطانية تتجه نحوه وفي آخر يوم له صلى الصبح على سجاده وتناول القهوة وبعد سماع أول إطلاق ركب حصانه ومعه أمينة حسن سبيل فأصابته رصاصة من نيران القائد البريطاني هاردليستون في أم رأسه حيث ألقته شهيداً في وادي زول (Zuli) وتم دفنه هناك⁽¹⁸⁴⁾. وبموته انطوت صفحة ناصعة من صفحات المقاومة الوطنية في البلاد. مقاومة لم تقدها عناصر شعبية كما هو الحال في المنطقة. بل تمتع قائدها بميزة قيادية متفردة وهي أنه كان سلطاناً جمع بين السلطة والروح الوطنية، وخيمت بموته سحابة الفناء على سلطنة عريقة قاومت عوادي الزمن

D.S.A Box 130/5

(179) مخابرات أبياد إلى مخابرات الخرطوم في 1916/10/24م

D.S.A. Box 130/7

(180) كالي إلى المكتب العسكري في 1916/11/13م

D.S.A. Box 130/7

(181) القيادة الغربية إلى المكتب السري في 1916/11/13م

D.S.A. Box 130/7

(182) ونجت إلى جرائ وزير للحربية البريطانية في 1916/11/12م

D.S.A. Box 130/7

(183) تقرير إلى القيادة العسكرية بالخرطوم في 1916/11/8م

(184) Major Boustead: the youth and the last days of Ali Dinar.

لأكثر من أربعة قرون من الزمان. وأصبحت بعدئذ دار فور مديرية من المديريات التابعة تبعية تامة للحكومة الثنائية البريطانية، وعين عليها الليفتانت الكولونيل سافيلي مديراً لها (185).

نُعدت التبريرات والدوافع التي أُلقت بالسلطان إلى خضم المعركة ضد الحكم الثنائي البريطاني. يرى الحاكم العام البريطاني أن عدم الوصول إلى حلول سريعة وعاجلة بشأن الحدود الغربية أثرت على علاقات علي دينار بالحكم الثنائي البريطاني ومواقفه فأصغى بأذنيه إلى الأعداء وذوي الدعاية الغرضية ضد الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد. ونتيجة لذلك فقد قرر منع أي أوربي من دخول دار فور (186). هذا التعليل لا يخلو من ضعف وتغافل وتجاهل تام لبعض الحقائق الماثلة أولاً: منذ وصول السلطان إلى عرش آبائه وتربعه على سلطنة أجداده. فمن المعروف أن السلطان قد رضي بالحكم الثنائي البريطاني كأمر واقع. وكذلك الحكم الثنائي البريطاني لم تكن لديه القدرة على إدارة دار فور إدارة مباشرة يوم قضائه على الثورة المهدوية بالبلاد. ولم يكن السلطان شخصياً قد بعث لحكم دار فور باسم الحكم الثنائي البريطاني وإنما أخذها عنوة بسلاحه ورجاله. وثانياً : أن السلطان منذ مغادرته أم درمان لم يقابل مسؤولاً أوربياً أو حكومياً بريطانياً من الخرطوم على الإطلاق طوال فترة حكمه التي استمرت لأكثر من ست عشرة سنة. فكيف يستساغ أن يقال أن السبب الرئيسي هو مشكلة الحدود الغربية. وقد رأينا تتصله المستمر من الارتباط الضريبي بالحكم الثنائي البريطاني. ثالثاً: حساسيته المفرضة ضد المسيحيين الأوروبيين وعدم اطمئنانه لجانبهم منذ أيامه الأولى. ولا يفوت المرء أن يقرر على وجه الإجمال أن السلطان قد شكل مقاومة وطنية فريدة في المنطقة جمعت بين السلطة والروح الوطنية وتوشح بهوية إسلامية ضد الحكم البريطاني الأجنبي في البلاد. وتزود بروح حماسية لبها غير دينية صادقة لطرد أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وتطهير البلاد من أرجاسهم. ولعل الفصول التالية تلقي الضوء على أصالة موقفه ومبدأية سياسته وأبعاد استراتيجيته السياسية.

(185) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره ص 394

(186) Sir Reginald Wingate op. cit. pp, 10366.

وقد أجهضت محاولاته لتآمر القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية في المنطقة والتي حاولت جاهدة كفكفة مساعيه الإسلامية وجهوده الوطنية. كما أن السنوسيين والأتراك لم يستطيعوا إدراكه في الوقت المناسب فاعتمد في النهاية على موارده الذاتية وعلى ما جمعه من سلاح قطرة عبر السنين حتى استطاع أن يصمد في وجه قوة ذات درجة راقية ومستوى عال إلى حين ولم يرض بالذل ولم تحدثه نفسه بالاستسلام وإنما رضي لها أن تموت في سبيل مبادئه ودينه ووطنه عزيزة كريمة فكان أذكى من كثير من القيادات المعاصرة على المستوى العربي والإسلامي، لأن من يستسلم لأعدائه أو يمسكوا به يتعرض لمذلة وإهانة باطن الأرض خير لصاحبها من ظاهرها كما حدث لصدام العراق.

الباب الرابع

أ- العلاقات بين الحركة الوطنية
الفوراوية والحركة الوطنية
الليبية السنوسية في الربع الأول
من القرن العشرين 1889-
1916م

ب- سلطنة دارفور ومواجهة خطر
الاحتلال الفرنسي لوداي

الفصل الأول: السنوسية والحركة الوطنية
بدارفور

الفصل الثاني: طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي
الفصل الثالث: الأسباب التي أضعفت الحلف
السنوسي الفوراوي

الفصل الرابع: علاقات دارفور بوداي (تشاد
الحالية)

الفصل الأول

السنوسية والحركة الوطنية في دارفور

1- تعريف بالسنوسية :

السنوسية تعتبر واحدة من الدعوات السنية الإصلاحية التي انتظمت العالم الإسلامي في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي واستمر عطاؤها بقدر وافر حتي النصف الثاني من القرن العشرين. وتعود نشأتها إلي المؤسس الأول محمد علي السنوسي⁽¹⁾ ولقد بزغ فجر هذه الطريقة علي سفح جبل أبي قبيس بمكة (1150هـ أو 1152هـ الموافق 1835م أو 1837م). وذلك بعد وفاة الشيخ أحمد بن إدريس وانقسام أتباعه إلى الإدريسية وأتباع محمد بن علي السنوسي ..

وتعتبر منطقة الكفرة بليبيا معبراً هاماً للقوافل مما زاد من أهميتها الجارية، فقد أنشأ فيها محمد المهدي بن محمد علي السنوسي الكبير مؤسس الطريقة السنوسية (ت1902م) مصنعاً للسلاح ومعدات الحرب. هذا بالإضافة إلى ما يحمل إليها من الساحل وما يحمله الزوار من أشياء من شمال وغرب أفريقيا من النيجر والنيل⁽²⁾. والسنوسية هي حركة جهادية ودعوية عملية من أقوى الحركات التي قامت في القرن التاسع عشر.

(1) هو محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي ينتهي بنسبه إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري ونهاية القرن الثامن الميلادي. وذكر الأمير شكيب أرسلان أنه قد اطلع علي تاريخ للعائلة يصل نسبها بعلي ابن أبي طالب. ولقد بزغ فجر المؤسس في بيت علم ودين في بلدة مستغانم بالجزائر في محلة يقال لها الواسطة وذلك في 12 ربيع الأول 1202هـ 22 ديسمبر 1785م. وتوفي والده وهو لا يزال في طور الطفولة فتولت عمته التي كانت من كبريات الفضليات العالمات في عصرها يومئذ تربيته ورعايته علمياً وتربوياً. محمد فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة/مصر/القاهرة/ دار الفكر العربي 1948م ص10 وأنظر أيضاً نقولاً زيادة: صفحات مغربية /لبنان /بيروت/ ط1 1966م ص297 .

(2) الجريدة العدد 1417 11/11/1911م بقلم نجيب ناصر D.S.A Box 301/6

إذ قامت فكرتها على أساس روحي ونظري وعملي وبنيت فكرتها على الاعتماد على الذات وبنيت في روع أفرادها روح العمل والعبادة والعلم، عكس الطرق الصوفية التي اختزلت الحياة إلى الانقطاع والأنكار والتمايم والرقى والخلوة واعتزال الحياة، فهي حركة إيجابية تركت بصماتها على كل من اتصل بها. وكانت نواة المقاومة للوجود الأجنبي في ليبيا وكل المنطقة العربية. واتصفت بالاتزان والقدرة على التأثير في الجماهير. وتميزت بطرح موضوعي أخذ وهي أول حركة في التاريخ المعاصر والحديث طرحت شعار الاكتفاء الذاتي والاعتماد على الذات وتميزت بنظام إداري وروحي فريد، وبلغ عدد أتباع السنوسية ما يربو على الخمسة ملايين في العالم. وأصبح لها نظام إداري علي قمته الوكيل ومهمته إطلاع المقدمين علي شؤون السياسة العامة. وهؤلاء بدورهم يقومون بتبليغ الأخوان⁽³⁾.

واستطاعت بروحها الكفاحية أن تكسب انتصاراً وينشرها للعلم تمكنت من استمالة أهالي تلك الصحراء والأقطار المجاورة لها لا سيما وان الروح البدوية بخشونتها وجديتها أقرب ما تكون إلى الروح العسكرية بالرغم من ميلها إلى الانفلات. ولكن مع الإدارة المقتدرة والإرادة القوية يمكن تعديلها وتقويمها حسب ما تقتضي مصلحة الجماعة. وهذا ما نجحت السنوسية فيه. فالفكرة الجادة والنظرة الواقعية والطرح المقبول ومصادقية القيادة والقوة الحسنة أكسبها أنصاراً.

فقد كان لكل زاوية شيخها ومزرعتها يقوم فيها بالعمل التلاميذ وعليها يعتمدون وما زاد من دخل يرسل إلى محمد المهدي⁽⁴⁾. فقمنا بحركة هذا دورها وتلك فكرتها أن تكون لها صلاتها بالقوة المحيطة بها بغية تبشيرها بدعوتها وإحداث مناطق نفوذ لها. فقد حاولت السنوسية ومنذ فترة مبكرة أن تمتد ببصرها إلى دار فور. وتطورت هذه العلاقة حتى أصبحت تشكل حلقاً إسلامياً في المنطقة ضد القوى الأجنبية في عهد السلطان علي دينار.

D.S.A Box 301/6

(3) الجريدة المصدر السابق

D.S.A Box 301/6

(4) استطلاع مجلة الهلال السابق

2- علي دينار بين المنفذ التجاري والاستقلال:

كان السلطان علي دينار بعد تربيته على عرش آبائه يتطلع إلى آفاق أرحب تتجاوز حدود بلاده. كما أنه كان حريصاً على الاستقلال والانفلات من قبضة الحكم الثنائي. لذا كان سعيه حثيثاً لإيجاد منفذ تجاري يجعله في حل من مراقبة الحكم الثنائي لقوافله ويؤمن له إحتياجاته الملحة من الأسلحة.

وتبدو أهمية هذا الأمر إذا علمنا أن دارفور تعتمد في اقتصادياتها على التجارة الخارجية. وهي من المناطق الواعدة إقتصادياً على مر التاريخ لما حباها الله به من موقع جغرافي ممتاز. وأن حاجتها للأسلحة يومئذ كانت ضرورة تقتضيها حماية حدودها والدفاع عن استقلالها. والاستقلال هدف استراتيجي بالنسبة للسلطان علي دينار تقتضي حمايته توفير الأسلحة. وتأمين مصادر لتوريده وإمداد البلاد باحتياجاتها منه. هذه الأسباب تشكل في مجموعها إحدى دواعي الاقتراب بين الطرفين السنوسي والفوراي. حيث تشكل ليبيا ظهيراً هاماً وواقياً لدارفور.

لذا يلاحظ بمجرد تسلم السلطان علي دينار العرش فكر في الاستفادة من الطريق التجاري الذي يربطه بالشمال مع ليبيا والعلاقة بين دار فور وليبيا هي علاقة عرقية وثقافية واقتصادية أزلية ضاربة بشعابها في التاريخ فالمساليات هم من مسلاتة الليبية. وكذلك المحاميد لهم أبناء عمومته في ليبيا، وكانت وستظل العلاقة بين دار فور وليبيا هي علاقة متصلة لا يستطيع نظام سياسي أو تجمع جهوي أن يقطعها. فدار فور كانت وستظل بوتقة انصهار عرقي وثقافي ونقطة ارتكاز وتواصل إجتماعي. وإجراء أي عملية جراحية على المستوى السياسي تحاول إنكار هذا الوجود العربي الذي امتزج بالدم الحامي والزنجي لمئات السنين يكون قد تجاوز السقوف المنطقية والعقلانية. ويظل بوقاً غربياً يعزف عزفاً نشازاً بكل المقاييس وبعيداً عن الواقع ودراسة مفردات التاريخ الفوراي بذكاء ووعي. ويعبر موقفه بهذه الكيفية عن بلادة تاريخية وتبلد حسي في مجال الوعي العام. وفي هذه الأثناء زادت شكوك الحكومة الثنائية حول نوعية العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين قوتين ذاتي نزعة دينية وما ينتج عن ذلك من

خطر على القوة المصرية الإنجليزية في السودان⁽⁵⁾. وذلك لما عرفت به السنوسية والحركات ذات الاتجاه السياسي الديني من شراسة تجاه القوى الاستعمارية. والسنوسية كما ذكرنا هي حركة جهادية كما هي حركة صوفية ذات توجه سني. كان لأحمد بن إدريس دفين صبيا بعسير جنوب المملكة العربية السعودية، دور كبير في غرسه في أعماق المؤسس محمد بن علي السنوسي الكبير.

وبدأت الحساسية الإنجليزية تجاه نشوء مثل هذه العلاقات منذ اليوم الأول لحكم السلطان. فقد جاء في أحد تقارير المخابرات ما يدل على وجود علاقة بين السنوسية والسلطان. حيث وردت الإشارة إلى أن رئيس فرقة سنوسية استطلاعية قد دخل الفاشر من غير تأكيد⁽⁶⁾. مغزى هذه الإشارة أن السلطان قد بدأ يتطلع إلى إيجاد منفذ خارجي لتجارته. وفي الوقت ذاته كان يهدف إلى بناء علاقة خارجية تكفل استقلال بلاده. وتبدو عدم صحة ما ورد في مصدر آخر من أن السلطان بدأ علاقاته مع السنوسية سنة 1904م⁽⁷⁾. لما ثبت من أن السنوسي قد أرسل في أول يناير 1900م أربعة مبعوثين إلى السلطان علي دينار. وقد استقبلهم هذا السلطان مبدئياً مظاهر الود وأخفاهم في بيته ولم يرهم أحد⁽⁸⁾.

يشير ذلك إلى إدراك السلطان لأبعاد مثل هذه العلاقة ونظرة الحكومة الثنائية لها. فلا غرابة أن أحاطها بقدر من السرية حفاظاً لإستمراريتها. ويدل هذا الاتصال المبكر على أن هناك قواسم مشتركة ومنذ اللحظات الأولى لمجيئه إلى سلطنة آبائه. وأنه كان يعمل وفق استراتيجية محددة في علاقاته بالخكم الثنائي. ولعل ذلك يفسره عدم السماح لنفسه بمقابلة أي مسئول أوروبي أو السماح لأي أوروبي بدخول بلاده لأكثر من سنة عشر سنة.

(5) S.I.R. MAY 1900

(6) Ibid

(7) A.J. Arkell: The conage of Ali Dinar. S.N.R Avol 23 (1940) Part. 2. p. 157

(8) يونان ليب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 238.

وسعت الحكومة الثنائية جادة للتأكد من صحة وجود مثل هذه العلاقة. فكتب أحد رجال الاستخبارات قائلاً: (إن الأخبار التي أفادتها مصادرنا اتحاد السنوسي وعلي دينار)⁽⁹⁾.

هذه الإشارة وهي مبكرة جداً بكل المقاييس تؤكد وجود علاقات بين سلطان الفور والسنوسية. وحرى بالسلطان بأن لا يجاهر بوجودها لإدراكه بحساسية الحكم الإنجليزي المصري تجاه الحركات الدينية ذات التوجه السياسي. لا سيما وقد ذقت إنجلترا الأمرين خلال الحكم المهدي في السودان. وجدير بها أن لا تسمح بتكرار التجربة مع محدودية إمكانياتها الإدارية والمالية. ولعل هذا ما حدا بها إلى متابعة طبيعة هذه العلاقات بحذر دائم. ولدقة الموقف أرسل السلطان خطاباً إلى مدير كردفان بغية تحويل الأنظار عن صلاته السرية بالسنوسية ورد فيه: (الشريف محمد السنوسي في هذه الأيام تحرك قيامه من محله الذي كان به وأتى زاحفاً حتى قرب الحدود برجاله وعموم جيشه وتم وصوله بمحل يدعى النخل القصار على طريق الأربعين. وبالتأمل أنه قاصد الحج لبيت الله الحرام بطريق دنقلا ولم أمكنا تأخيرهم)⁽¹⁰⁾.

ربما كان القصد من هذه الإشارة إلباس علاقته قدراً من الشرعية. ولعل تحرك السنوسي نحو البيت الحرام هو ما أشارت إليه صحيفة البصير التي تصدر في الإسكندرية في عدد نوفمبر سنة 1900. مشيرة إلى أن السنوسي قد تحرك نحو دار فور قاصداً الاتحاد مع علي دينار ضد الحكومة المصرية الإنجليزية. إن هذه الإشارة لها دلالتها الموضوعية لأن إشاعة على هذا المستوى لا يمكن أن تخرج من فراغ. لا سيما في هذه الفترة المبكرة من وجود السلطان بدار فور. وفي ذات الوقت تدل على عمق العلاقة ومتانتها وجذورها، مما يعني أن علاقة السلطان بالسنوسية لم تكن وليدة أحداث 1914م فحسب. وفي سنة 1903 لم ترد أي أخبار عن العلاقات بين الطرفين وإستمراريتها. حيث شغل سنين جانباً كبيراً من جهد السلطان وكذلك الزغاوة في الشمال واستطاع السلطان بعد هزيمتهم أن يفتح الطريق إلى الكفرة. فأصبح يستورد أسلحة حديثة من هناك⁽¹¹⁾.

⁽⁹⁾ تقارير المخابرات S.I.R. 2/16 Appendix (K) July 1900

⁽¹⁰⁾ علي دينار إلى مدير كردفان في 9 ربيع الآخر سنة 1318هـ - يوليو سنة 1900م INTEL 2/5/14

⁽¹¹⁾ المصدر نفسه.

وفي سنة 1906م عادت المصادر لتؤكد بأن علي دينار قام بمحاولات جادة لفتح طريق إلى الكفرة عن طريق آبار الويطة. ووفق في ذلك حيث أصبح التجار عن هذا الطريق يحضرون الأسلحة من الشمال ويتاجرون فيها لدى الفاشر وأصبح تجار الأسلحة هؤلاء يقابلون مقابلة حسنة⁽¹²⁾ في كل من الفاشر والكفرة وطرابلس.

هاتان الإشارتان تكشفان عن الدور المبذول من قبل السلطان ومحاولاته الجادة لفتح طريق تجاري. وتلقيان الضوء على الحاجة الملحة لإيجاد منفذ تجاري يجعله يتفادى الرقابة المفروضة عليه من قبل الحكومة الثنائية وكذلك مماطلتها في إمداده باحتياجاته من الأسلحة. وشكلت الديار السنوسية مورداً ومصدراً لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لسلطنة دار فور الناشئة.

وبدأ السلطان من جانبه يشجع التجار القادمين من طرابلس حيث استضاف في مارس سنة 1906م إثني عشر تاجراً سنوسياً واشترى كل ما لديهم من أسلحة وأعطاهم حوالي أربعة آلاف ديناراً هدية وتشجيعاً لهم⁽¹³⁾.

وقام السنوسي بتشجيع التجار السنوسيين للذهاب إلى دار فور وبيع الأسلحة بتلك البلاد⁽¹⁴⁾. وتم إيفاد الشيخ عبد القادر الأزرق بوصايا وهدايا وأسلحة لبيعها في دار فور⁽¹⁵⁾.

هذه السياسة الفوراوية يبدو أنها قد حققت جزءاً من الأهداف التي يرمي إليها السلطان، وهي إيجاد منفذ تجاري وإثبات استقلالية بلاده والحصول على مصدر للسلاح يدعم به موقفه ووجوده، ويقوي به ترسانته الحربية تحسباً لأي هجوم أو محاولة عزل له من قبل الحكومة الثنائية التي لا يؤمن لها جانب.

وأبدى أحمد الشريف السنوسي إهتماماً خاصاً بقوافل دار فور وتلقف أخبارها وتزويد السلطان بتحركاتها والتسهيلات المقدمة لها⁽¹⁶⁾. مما يدل على متانة العلاقة بين

(12) S.I.R. 140/4 MARCH 1906

(13) S.I.R. 140/4 MARCH 1906

(14) محمد عابد الشريف السنوسي 13 رمضان سنة 1326هـ S.N.A INTEL 2/3/12

(15) المصدر نفسه

الطرفين منذ فترة مبكرة. ولعل ذلك كله مما يدفع ما تعللت به الإدارة الثنائية من أن السلطان لم يلجأ إلى السنوسية والدولة العثمانية إلا يائساً من حلول الحكومة الثنائية لمشكلة القبائل والحدود الغربية. بيد أن الأمر أبعد من ذلك وأعمق بكثير في تقدير الباحث من سذاجة هذا التحليل.

ومن خلال ما تقدم يتضح أن العلاقة الفوراوية السنوسية لم تكن وليدة أحداث الحرب التي أسموها زوراً الحرب العالمية الأولى. فهناك إشارات تؤكد أن علاقات دار فور مع السنوسية ترجع بجذورها إلى فترة متقدمة جداً من حكم السلطان وقد أثارت مخاوف الحكومة الثنائية منذ فترة مبكرة لا سيما استجلابه للسلاح من طرابلس وغيرها⁽¹⁷⁾.

وكان اتجاه السلطان للتسلح تحسباً للمستقبل وتعويضاً عن خيبة الأمل التي أصابته من عدم إمداده بما يحتاجه من سلاح من الحكومة الثنائية وموقفها تجاه ما يدور على حدوده الغربية. وانفتحت بذلك صفحة مشرقة ما بين دار فور والسنوسية فالقوافل ظلت ذاهبة وآية. وتجار السلاح السنوسيون طفقوا يفدون على دار فور تترى. والسنوسي يلبي طلبات السلطان من الأسلحة دون قيد أو شرط. ولم يقتصر الأمر على أحمد الشريف وإنما ظل إخوانه يقومون بالدور نفسه⁽¹⁸⁾.

وفي سنة 1912م توافد التجار السنوسيون على دار فور بغية الربح وطلب السنوسي من السلطان مساعدتهم⁽¹⁹⁾. وبذا ظل المنفذ التجاري الشمالي مفتوحاً تغدو القوافل وتروح والسلطان يبعث رسله لاستجلاب السلاح ويبعث بالهدايا للسنوسي⁽²⁰⁾.

من جملة ما سبق يتضح أن علي دينار كان حاكماً إسلامياً غيوراً على استقلاله. ولكي يحافظ على هذه الروح الاستقلالية ولكي يثبت أقدامه فلا بد من أن ينال ثقة جيرانه من القيادات الوطنية ذات النزعة الاستقلالية والتوجه الإسلامي. فاعتراف

(16) أحمد الشريف إلى السلطان في شعبان سنة 1328هـ الموافق 1910/7/15م S.N.A. INTEL 2/3/12

(17) جمادي الأولى سنة 1329هـ الموافق 1911/3/4م S.N.A. INTEL 2/3/2

(18) السنوسي بتاريخ 27 محرم سنة 1328هـ الموافق 1911/12/18م S.N.A. INTEL 2/3/12

(19) السنوسي إلى علي دينار بتاريخ 30 ذو الحجة 1330هـ الموافق 1912/11/11م S.N.A. INTEL 2/3/12

(20) علي دينار إلى ابن إدريس السنوسي في سنة 1333هـ الموافق 1915م S.N.A. INTEL 2/3/12

له في كل من مليط وجبل مرة. إلا أن السلطان تماطل في السماح له ببناء هذه الزاوية ولعله كان يتخوف من أن تملأ السنوسية فراغ المهدية. وبالتالي يمكن أن تهدد نفوذه وإرثه الحضاري في دار فور. وأبدى السنوسي عدم ارتياحه من ذلك⁽²⁵⁾ الموقف. هذه المحاولة تعكس الروح التبشيرية الواضحة لدى السنوسية وفي الوقت ذاته ترينا مدى الأناة والحذر اللذين كان يتمتع بهما السلطان تجاه تعامله مع القوى المحيطة لا سيما وهو في بداية المشوار مما يعني أنه كان حذراً إزاء أي نفوذ يمكن أن يشكل خطراً على وجوده في دار فور تحت أي مسمى من المسميات.

ولم يكن هذا التماطل ناجماً عن روح عدائية بل فيما يبدو كان اتجاهاً سياسياً بحتاً أملت الظروف الآنية القصد منه تحويل أنظار الحكم الثنائي عنه. حيث أشار إلى ذلك الشيخ صابر جبريل أحد رجالات المخابرات للثنائية بقوله: كان علي دينار يتظاهر بعدائه للسنوسية ولكن في الواقع كانت صلته الروحية بالسنوسية قوية. والدليل على ذلك وصول اثنين من مندوبي السنوسي احتفل بهما علي دينار وفي الحفل نسي نفسه فسأل أحدهما بقوله كيف حال سيدنا. وما أن تنبه إلى وجود مبعوث الحكومة الثنائية حتى إلتفت إن كان لاحظ ذلك أم لا⁽²⁶⁾. إذاً كان لهذا التباطؤ ما يبرره إذ أحاطت الحكومة الثنائية السلطان بعدد من الجواسيس بغية الحصول على تفاصيل حول ما يدور بين السنوسي والفور. وفي السودان ينبغي أن نقرر بأن تعبير سيدنا هو تعبير شائع. وقد لا تكون له دلالة موضوعية من حيث تبعية علي دينار للسنوسي. فأي شيخ في السودان يقال له سيدنا، وفي أدب الخطاب السوداني، يعني المصطلح أن المقصود به هو شيخ عالم أو شيخ طريقة

بيد أن صاحب الدعوة كان في عجل من أمره حيث بعث بخطاب آخر يطلب فيه إيضاح عدم الرد على خطابه السابق والذي طلب فيه قبول طريقته واستقباله له حين قدومه قاصداً الحج⁽²⁷⁾. هذا في الوقت الذي لم يكن فيه السلطان علي دينار يملك

S.I.R. 42/4 1^{SH} TO 31ST MARCH 1902

(25) تقارير المخابرات

S.I.R. 80/5 9TH feb to 8TH march 1902

(26) تقارير المخابرات

S.I.R. 80/5 Appendix (A) 9TH feb to 31TH march 1901

(27) تقارير المخابرات

الإمكانات الغذائية والأمنية التي يمكنه توفيرها لقوة يفوق عددها على العشرين ألفاً. لذا قام بقل طريق الأربعين وطريق دنقلا⁽²⁸⁾. خوفاً من حدوث انفجار سكاني في بلاده. وخلق بالسلطان أن يتخوف ولما تركز أقدامه بعد من قدوم قوة هائلة كهذه. وتحت الإلحاح أجاب السلطان بأنه يؤيد السنوسي. وعن تهيئة مكان له أثناء عبوره اقترح جبل مرة مكاناً لإقامته⁽²⁹⁾. لم يوافق السلطان وحتى هذه اللحظة ورغم الإلحاح الشديد من قبل السنوسي لإقامة زاوية له في دار فوز. إلا أنه أبدى أعذاراً لطيفة لا تخرج عن حد اللياقة ولم يحاول في رده أن يخسر الكفة السنوسية. وفي الوقت ذاته كان حذراً من قوة ذات تنظيم دقيق وإدارة مقتدرة وعقيدة راسخة من أن تتوغل في بلاده. الأمر الذي قد يهدد وجوده وكيانه المستقل. وتأتي السلطان ناتج من جانب آخر من معرفته التامة بما تعنيه الزاوية السنوسية التي كانت تعني وحدة إدارية وخليّة تنظيمية وسياسية وعسكرية واقتصادية وبعثة دينية ووحدة إعلامية مقتدرة. ولئلا ينقطع حبل الوصل بين الطرفين بعث السلطان بهداياه إلى السنوسي بغية تطيب خاطرهم. ويذكر بعض التقارير أن السلطان شرع في بناء زاوية للسنوسي في جبل مرة⁽³⁰⁾.

وجاءت إشارة أخرى تفيد: (ولد السنوسي البوسطة سارية فيما بينهم مع السلطان علي دينار قريباً أرسل مخلص من طرفه إلى السلطان علي دينار ولغاية الآن رسله موجودين بالفاشر حقيقة حالهم لم تكن معلومة. ومنذ شهرين حضر من الفاشر عثمان محمد الدنقلوي المشهور بكسار الشنيب المتوطن أم دزمان أخبر أنه بوجوده هناك حضرت بوسطة من ولد السنوسي للسلطان صحبت مخصوص بأمره ببناء زاوية... إن هذا الخبر سمعه قمر الدين البرناوي المقرب للسلطان)⁽³¹⁾. هذه الإشارات السوارة في تقارير المخابرات تدل على أن الحكومة الثنائية كانت ترغب عن كذب كل ما يدور بين السلطان علي دينار ومحمد المهدي السنوسي. بعذر بالغ وبدقة متناهية.

(28) المصدر نفسه، وهو ما ذكره الطاهر الحاج عربي بعد رجوعه في مارس سنة 1901 م S.I.R. 80/5

(29) المصدر نفسه.

(30) المصدر نفسه

(31) باش معاون مديرية كردقان إلى المفتش العام في سنة 1901 م S.N.A. Intel 2/5/2

وهذا الخطاب المتقدم يفيد حسن العلاقة وحمل في ذيله اهتمام السنوسي بقضية نشر طريقته وتأسيس خلية لها في دار فور وبناء مركز يكون قاعدة انطلاق لها. وتواترت التقارير الثنائية تصف هذا الاتجاه وموقف السلطان بقولها: (أما السلطان فقد كان مصمماً على أتباع السنوسي وكان يرى في ذلك إنقاذه والمحافظة على استقلاله ببلاده وعقيدته قوية في ود السنوسي الذي إنتهز تلك الفرصة فأرسل إليه علماً عليه اسمه والراتب وأرسل له خادمة. واقترح على السلطان إقامة زاوية ومكان للسنوسية في جبل مرة تحسباً للمستقبل إذا هوجمت الفاشر)⁽³²⁾. ويلاحظ الباحث، أن السلطان لو تمتع بنظرة استراتيجية إقليمية منذ البداية وتجاوز النظرة الضيقة فأقام عدداً من الزوايا للسنوسية في المنطقة لأكسب الوجود السنوسي أرضية صلبة في دار فور تسانده في لحظات الشدة في تثبيت أقدامه ضد الوجود الاستعماري بالبلاد لاسيما حين إعلان الحرب الأوروبية الأولى.

هذه التقارير قد لا تبعد كثيراً عن الحقيقة من حيث اعتماده على قوة ذات جانب. أما من حيث قوة عقيدته يبدو أن السلطان لم يكن اهتمامه بالطريقة عالياً بقدر اهتمامه بفتح الطريق وإستيراد السلاح والتعاطف مع قوة وطنية ذات توجه إسلامي يتعامل معها معاملة الند للند لا التابع للمتبوع. ولعل هذا يفسره تباطؤه وترويه بل تردده في إقامة زاوية بالعجلة التي أرادها (ود السنوسي). ويلقي الضوء عليه أنه كان يبحث عن قوة ذات جانب. لذا لا غرابة أن قام بطرد السنوسيين من بلاده بمجرد موت محمد المهدي السنوسي الشخصية القيادية ذات الجانب⁽³³⁾ المهاب.

ولهذا الطرد مبرراته فلربما لتخوفه من انتشار السنوسية الذي بلغ شأواً بعيد في عهد المهدي حتى بلغت حدود دار فور. وقوة كهذه لا بد من أن يحسب لها حسابها معيداً النظر في علاقاته معها خوفاً من احتوائها له. والسلطان عسرف بحساسيته المفرطة ضد أي تدخل خارجي ذا نفوذ قوي أياً كانت دوافعه حرصاً على استقلالية

(32) تقارير المخابرات، خطاب إلى شيخ جمعة بتاريخ 1901/7/2م الموافق 15 ربيع الأول 1319هـ S.I.R. 58/5

(33) تقارير المخابرات، S.I.R. 140/25-27 1st to 31st 1903

بلادها التي كلفت الفور أرواحاً وجهاداً طويلاً⁽³⁴⁾. ولعل هذا العيب حرمه من إمكانات السنوسية وقدراتها وخبراتها الجهادية والتنظيمية الفائقة. ولعل الشخصية الدار فورية عموماً هي شخصية مترددة وذات شكوك فيمن حولها. لربما مرد هذا القدر من الخذر في التعامل مع الآخرين ناتج من طبيعة الحياة القبلية المتمردة على السلطة المركزية أو لربما يعود الأمر إلى طبيعة الحياة الرعوية والجبالية في بعض المناطق وأقدار التكوين الفسيفسائي للمجتمع الدار فوري.

ويدرك المرء أبعاد القضية إذا علمنا أن عددية زوايا السنوسية قد بلغت ثمانية وخمسين زاوية. وبلغ من نفوذها أن بعض شيوخها أصبحوا سلاطين⁽³⁵⁾. لذا يبدو أن السلطان كان محقاً في تخوفه من قوة محاربة شرسة تتسلح بعقيدة، وتتمتع بقيادة لا ترضى بغيرها بديلاً والتجربة المهدوية لا تزال ماثلة أمام عينيه. ولئلا يخسر الجانب السنوسي نهج دبلوماسية مقتضاها غمر شيوخ الطريقة من أولاد السنوسي الكبير بهدايا. فمن ذلك إرساله مبلغ مائة ريال مجيدي وهدايا تتكون من سمس وعسل إلى محمد عابد الشريف السنوسي⁽³⁶⁾ بغية التأثير على أصحاب القرار في المركز. وهو أسلوب قام بإتباعه مع زعامات الحكم الثنائي وله مردودة الإيجابية السريع. وقد سلكته حكومة الإنقاذ مع كثير من الزعامات الطائفية والقبلية والحزبية فتمكنت من كسر شوكتها وقصصه أجنحتها وتنجينها هذا بالإضافة إلى النفعيين الذين اعتادوا السير في ركاب كل ناعق مادام قادراً على الدفع أكثر.

4- الأطماع الاستعمارية السنوسية في وداي وحاجتها إلى ملجأ:

كان الطرفان الفوراوي والسنوسي مدركان لأبعاد التحركات الاستعمارية في المنطقة. وأن ورود إشارة مبكرة توحى بالاتحاد بين الطرفين فهي ذات دلالة ومغزى سياسي ومؤشر إلى ما يدور على المسرح وتتلقفه المخابرات الثنائية⁽³⁷⁾. وبدأ التقارب

⁽³⁴⁾ D.S.A. Box 114/12: Military notes on western Egypt. Op. cit. pp. 16-12

⁽³⁵⁾ مجلة الهلال، المصدر نفسه. D.S.A. Box 301/6

⁽³⁶⁾ محمد عابد الشريف إلى السلطان علي دينار في 23 رمضان سنة 1326هـ الموافق 1908/9/19م

S.N.A INTELL 2/3/12

S.I.R 22/16 Appendix (k) July 1900

⁽³⁷⁾ تقارير المخابرات

بين الطرفين منذ الوهلة الأولى حيث أوفد السنوسي أربعة مبعوثين أخفاهم السلطان في بيته ولم يرهم أحد⁽³⁸⁾. وذلك نتيجة لما يراود الحكومة الثنائية من حذر تجاه قيام مثل هذه العلاقات بين قوتين وطنيتين ذاتي نزعة دينية واتجاه استقلالي⁽³⁹⁾.

وفي بداية سنة 1901 بدأ التعاطف يتخذ بعداً آخر حيث بعث السلطان خطاباً إلى محمد المهدي السنوسي يطلب فيه منه القدوم إلى دار فور بيد أن الأخير لم يلب الطّلب⁽⁴⁰⁾. وفي ديسمبر سنة 1901م ورد السلطان خطاب من محمد السنوسي يطلب منه فيه إذا ما واجه ضغطاً من الحكومة أن يتعاوننا ويتحدا⁽⁴¹⁾. الأمر الذي يوحى ب بروز اتجاه استراتيجي إقليمي جديد ومنذ الأيام الأولى من تسلم السلطان لكرسي الحكم ويمكن القول لو قدر لهذا التوجه أن يكتمل لأحدث قراءة جديدة للأحداث في المنطقة دون شك.

وبذا تكون العلاقات الفوراوية السنوسية قد اتخذت بعداً سياسياً واتجهت نحو تقارب وشيك أن يؤول إلى حلف خوفاً من الأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وتشير الوثائق إلى أن السلطان كان حريصاً على الاتصال بالقوى المحيطة به في محاولة لإيجاد ركن شديد يمكن الركون إليه⁽⁴²⁾. هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا وبلجيكا وغيرهما من القوى الأوروبية الأخرى تدخل في منافسة قوية مع بريطانيا حول أرض النيل⁽⁴³⁾. وأوشك السلطان نتيجة خوفه من الأطماع الثنائية في بلاده أن يطلب الحماية الفرنسية. بيد أنه بعد استشارة استقر رأيه على طلبها من السنوسي وجاءه الرد بالموافقة على حمايته. إلا أنه في المقابل طلب منه إقامة زاوية له في جبل مرة. وتوالت الهدايا بين الطرفين. حيث أرسل السنوسي مع رسله هدايا إلى السلطان وخطاباً احتوى ثناء عاطراً عليه وقرئ خطابه في المسجد وقام السلطان في المقابل

(38) يونان لبيب رزق، ص 238-239

(39) يونان لبيب رزق، ص 238-239

(40) المصدر السابق.

(41) تقارير المخابرات، S.I.R. 79/10 Appendix (A) 9th Feb. to 31st March 1902

(42) تقارير المخابرات S. I. R. 80/8 9th to 31st March 1901

(43) G. N. Sanderson: England, Europe and Upper Nile first ED. London 1960 P.145

بإرسال أحد رجالاته ويدعي أبو النور محملاً إياه بالهدايا مع ثلاثمائة رأس هدية للسنوسي⁽⁴⁴⁾. يبدو توجه جديد في سياسة السلطان علي دينار فيما يتصل بالقوى المحيطة. ويمكن القول أن بروز هذا الاتجاه كان مبكراً جداً مقارنة بفترة حكمه التي امتدت سبعة عشر عاماً وهو توجه استراتيجي بعيد النظر.

وأضح أن الأطماع والتكالب الاستعماري هو الذي حدا بالسلطان إلى البحث عن حماية وإن التقارب بين الطرفين أمر إقتضته ظروف المنطقة السياسية. وقد صادف تخوف السلطان من الحكم الثنائي ضغطاً فرنسياً عالياً على السنوسية في وڤاي. الأمر الذي إقتضى إنتقال محمد السنوسي من الجغبوب إلى جيرو بالقرب من عاصمة وادي. ونشبت بينه وبين الفرنسيين حروب ضارية نتيجة لحضور جماعة من أولاد سليمان من كانم وطلبهم إقامة زاوية وإبتعاث من يعلمهم العلم. فبعث معهم أحمد البراني أحد رجالاته وأتباعه. إلا أن ذلك العمل لم ينل رضا بعض أهل كانم فأوشوا إلى الفرنسيين بوشاية فحواها أن السنوسي أرسل جماعة أقاموا زاوية بها سلاح وعتاد. فدارت بين الفريقين معركة نتيجة أعداد الفرنسيين حملة صغيرة انتصر فيها السنوسيون. وعاد الفرنسيون الكرة مع زيادة عددهم إلى ألفين وخمسمائة رجل حيث هزم في هذه المعركة السنوسيون⁽⁴⁵⁾.

وشعر السلطان بدقة الموقف وتعاطف مع الموقف السنوسي حيث بعث بوفد رسمي إلى الكفرة مكوناً من عشرين شخصاً، بغية توسيط السنوسي في إنهاء الحرب الدائرة بين وڤاي ودار فور. وكان السنوسي يهدف إلى توحيد جهود السلطانين ضد المسيحيين الإنجليز والفرنسيين⁽⁴⁶⁾. عجلت الأطماع الاستعمارية في المنطقة بتعاطف وتكاتف القوى الوطنية الإسلامية. وتجاوزت بها حدود الإقليمية الضيقة والمحافظة على الكرسي إلى المحافظة على بيضة الإسلام والدفاع عن حماه. فورود كلمة مسيحيين في التقرير الماضي ذات دلالة ومغزى موضوعي من هذه الناحية. ولم يقف

(44) S. I. R. 8/8 9th to 31st March 1901 po. cit

(45) استطلاع مجلة الهلال D.S.A Box 301/6. op. cit

(46) المخابرات، ربيع الأول سنة 1326 هـ S. I. R. 163/25 March 1908

الأمر عند حد الكلمة بل تعدى ذلك حيث يقول الشريف أحمد السنوسي في خطاب إلى السلطان: (والله إنا في غاية الفرح بكم لأنه للأز ليس هناك محل يعتمد في نصرة الإسلام غير محكم ... إن شاء الله لم نزل ساعون في الذي ينوبكم من الجبخانه ولو كان مائة ألف)⁽⁴⁷⁾. هذا الخطاب يؤكد على وجود حلف إستراتيجي وتوافق بين الطرفين على المناصرة والموازية وإن لم يتخذ ذلك شكل الأحلاف الحديثة القائمة على المعاهدات والمخاضر والوثائق والجلسات المشتركة بين الطرفين. وذلك لصعوبة الاتصال واستحالة الانتقال. ولكنه يكشف في الوقت ذاته عن متانة وجذور هذه العلاقة القائمة على العقيدة وهي من أمتن الوشائج التي عرفها الإنسان عبر التاريخ.

لا شك أن هذا الجانب من العلاقات السنوسية والفورانية يعتبر مشرقاً ومضيئاً. وهو بلا ريب يخرج بالعلاقات بين الطرفين من الآفاق الإقليمية الضيقة القائمة على المصلحة الذاتية إلى آفاق الصخوة الإسلامية في وجه التحدي الاستعماري للأمة الإسلامية. ويمكن اعتباره معلماً هاماً في التاريخ الإسلامي الحديث. وإن كلمات أحمد الشريف بحرارتها وقسمها تعتبر قلادة ووساماً يتوشح به السلطان لنفي ما حاولت المخابرات الثنائية إلصاقه به من تشويه لسمعته وحط لقدره، فقد كان حاكماً إسلامياً غيوراً على استقلاله غيوراً على دينه، غيوراً على وطنه، وأصبح قوة ذات وزن ويشكل كياناً يهدد الأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وكانت فرنسا من جانب آخر مدركة لدوره في المنطقة لذا قامت باقتطاع أجزاء من سلطنته مما دعاه إلى التفكير الجاد في بناء ترسانته والاستعداد لأية مواجهة متوقعة بينه وبينها⁽⁴⁸⁾. بذا يبدو أن العداء الفرنسي لكل من السنوسية والفور قد أسرع الخطى بوحدة الفريقين وتماسكهما.

وكانت السنوسية بحاجة إلى ملجأ حصين لا سيما بعد أن اشتدت الوطأة الفرنسية عليها في ودّاي. ففتح السلطان بلاده أمام اللاجئين السنوسيين وقدم لهم ضمانات كافية

(47) أحمد الشريف إلى السلطان في 1911/2/13 الموافق 15 ربيع الأول سنة 1329هـ S. N. A. Intel 2/3/12

(48) تقارير المخابرات، ربيع الثاني 1329هـ S. I. R. 200/6 March 1911

وأماناً مطلقاً. ودخلوا الفاشر بقيادتهم وأسلحتهم وبعد وصولهم اشترط عليهم تسليم أسلحتهم مع ضمان الإقامة الجيدة لهم⁽⁴⁹⁾.

لا ينكر المرء ما لهذا الشرط من الوجاهة. إذ أن وجود قوة مسلحة أو كما تسمى الآن بالمليشيات المسلحة داخل بلاده تحت قيادة مستقلة أمر يهدد الأمن العام، ويشكل خطورة على البيئة السياسية في البلاد. وهو ما لا يسمح به أي نظام ينشد الأمن والاستقرار. فهو لم يأنف من إيوائهم. ولم يرفض دخولهم بلاده. ولعل تصرفه هو عين العقل. ويستطيع المرء إدراك سلامة موقفه وتصرفه مما تعانيه الخرطوم الآن التي سمحت بوجود جماعات مسلحة فيما سبق في عهد الحزبية الثالثة والثانية، وبعد اتفاق الإنقاذ مع بعض المجموعات الجنوبية. ولعل أسوأ نتائجه ما يحدث الآن في منطقة الكلاكلة حيث توجد جماعات مسلحة تهدد الأمن والاستقرار مما يتطلب استعداداً أمنياً على درجة عالية من القوات النظامية. وما حدث يوم الاثنين المشؤوم في عدة مدن من عواصم السودان حيث أنفرط عقد الأمن الاجتماعي وفشلت الحكومة من السيطرة عليها بكل أجهزتها وإمكاناتها.

وفي هذه الأثناء دخلت السنوسية في حروب ضارية مع الإيطاليين واستبسلت قياداتها، فلم يقف السلطان مكتوف الأيدي، فهو إن لم يشارك برجالاته وسلاحه فقد شارك بماله. ويشير إلى هذه الحقيقة أحمد الشريف السنوسي بقوله: (فإنه يديم بقائكم ويمحق أعداءكم ويمحق بسيوفكم رقاب الطائفة الكافرة الخاسرة الماكرة فان الكفر قد عم وطم ولم يكن اليوم ملك على وجه الأرض غيركم. فقد أعزيتم الدين وقهرتم الملحدين)⁽⁵⁰⁾.

هذا بعد أن شكره على ما أرسله إليه من مبلغ لدعم المجاهدين وزوده بأخبار الجبهة السنوسية الإيطالية وأعلمه باستيلاء الإيطاليين على المهاجر البحرية حيث يدل ذلك على الاهتمام بالسلطان ودوره في دعم المعركة. وإطلاعه على مجريات الأحداث

S. I. R. 205/5 August 1911

(49) تقارير المخابرات

(50) أحمد الشريف إلى السلطان في 1911/12/16 الموافق 25 محرم 1330 هـ S. N. A. Intel

الباب الرابع

أ- العلاقات بين الحركة الوطنية
الفوراوية والحركة الوطنية
الليبية السنوسية في الربع الأول
من القرن العشرين 1889-
1916م

ب- سلطنة دارفور ومواجهة خطر
الاحتلال الفرنسي لوداي

الفصل الأول: السنوسية والحركة الوطنية
بدارفور

الفصل الثاني: طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي
الفصل الثالث: الأسباب التي أضعفت الحلف
السنوسي الفوراوي

الفصل الرابع: علاقات دارفور بوداي (تشاد
الحالية)

وعشائر دار فور الآن أكثر من أي وقت مضى. لأنه من المعلوم أن أي تدخل أجنبي لا بد له من ثمن وأن ثمنه غالٍ. قد يكون هذا الثمن إنسان وثروة وأخلاق وقيم دار فور، هذا على أقل تقدير، مما يعني بعثرة إرث عهود من الزمان كانت بمثابة تاج من جوهر يرصع جبين إنسان دار فور ويميزه عن غيره.

5- دخول تركيا في الحرب العالمية الأولى والحمية الإسلامية:

إن دخول تركيا الحرب شجع الخديوي والسنوسي وعلي دينار لتوثيق علاقاتهم، لعل هذه مقولة يتبين صدقها من خلال ما سيأتي. وبداية لا بد من لمحة ومسح لما سبق. فإن تزويد السلطان المتواصل من قبل السنوسية بالسلاح وإطلاعه على ما يدور في الجبهة الإيطالية السنوسية يعتبر دلالة سياسية عميقة في مجال العلاقات بين الطرفين. وأن الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه السلطان للجبهة السنوسية يدل على أن هناك اتفاقاً غير مكتوب بين الطرفين لمواجهة القوى الاستعمارية في المنطقة. كما يدل على وجود تنسيق غير معلن بين الطرفين غايته طرد المستعمر وزعزعة وجوده في المنطقة بغض النظر عن جنسيته، فالاستعمار 'هو استعمار في نظر الرجلين سواء أكان إنجليزياً أو إيطالياً أو فرنسياً فالكل يشكل جبهة واحدة، فالدين والوطنية والأخلاق والقيم تقتضي محاربته بكل الوسائل. لأن الاحتلال بكل أصنافه وألوانه هو وجه لعملة واحدة .

وقام السلطان بدوره المنوط به من إرهاب لأعداء الله من ناحيته حيث قام بحملة إعلامية هائلة لإيهام الحكومة الثنائية بأنه قد وصلته أسلحة هائلة من السنوسية. وأن عدد جنوده بلغ التسعة عشر ألفاً. ووصلت يده إلى تغيير بعض الرسائل التي كانت تبعث ضده إلى قلم المخابرات الثنائية⁽⁵²⁾. مما يدل على وعيه لما يدور حوله وما يحاك ضده.

وفي بداية سنة 1915م أشاد السلطان بجهاد السنوسية ضد أعداء الدين. ودعا الله لهم بالنصر. وأرسل لهم ثلاثين جملاً هدية مساعدة منه في الجهاد ضد أعداء الإسلام

(52) تقارير المخابرات S. N. A. Intel 7/4/10 18TH FEB. 1915

وأرد بين قمحاً. وأرسل أشياء أخرى لبيعها وشراء أسلحة بثمنها⁽⁵³⁾ من ليبيا. ونلاحظ. أن السلطان ووفقاً لإرثه الحضاري كانت يده دائماً هي العليا ولم تسمح له نفسه أبداً أن تكون يده هي السفلى.

هذه الإشارة لها جذورها وارتباطاتها الإسلامية الواضحة من خلال ورود عبارات أعداء الدين، وأعداء الإسلام ... الخ. كما أن استمرارية الهدايا وهي تشكل دعماً مادياً دون انتظار المقابل يدل على مدى بعد نظر السلطان. وتقوية ترسانته أمر يقتضيه وعيه لدوره المنوط به في المنطقة. ولعل هذا ينفي الزعم الثنائي الذي دبجته أقلام المخابرات وعبر عنه الحاكم العام بقوله: (لقد اتجهت أنظار الأتراك والجرمان نحو السنوسية. ولقد تهيأ المجال لوجود عدد من الأتراك كباخ أنفر باشا وغيره من الأشخاص ذوي النفوس الشريرة بجانب السنوسي. وحاولوا إقناعه بصورة مباشرة أو غير مباشرة لإثارة القبائل الموجودة في مصر والقبائل المعادية في دار فور ووداي. ومن هنا بدأت العلاقات بين دار فور والسنوسية. وأصبح السنوسي يأخذ الأموال التركية بهذه الصورة التي هي أفضل من أن يرمي بنفسه كلية في أحضان الأتراك)⁽⁵⁴⁾.

احتوى الخطاب السابق على جملة تناقضات وتجاهل تام لأساسيات، أولها أن القيادة السنوسية هي قيادة إسلامية ذات نزعة استقلالية. ثانيها: أن سلطان دار فور حاكم إسلامي غيور على استقلاله ودينه. ثالثها: أن هناك جامعاً مشتركاً بين كل من تركيا والسنوسية والفور ألا وهو الدفاع عن الحياض الإسلامية. رابعها: وصف من يدافع عن وطنه بالشر أمر يقتضي الوقوف طويلاً. حيث نلاحظ أن ذات العبارات تتكرر الآن من قبل الاحتلال الأمريكي سواء في أفغانستان أو العراق دون خجل أو حياء. ويتجاهل الحاكم العام في الوقت ذاته أن وجوده هو في المنطقة هو الشر عينه. خامسها: أن التقارب السنوسي الفوراوي كان نتيجة لأحداث الحرب الأوروبية الأولى وهذا ينافي ما ثبت أنفاً من أن العلاقة الفوراوية السنوسية ترجع بدايتها إلى أوائل أيام

(53) السلطان إلى إدريس بن السنوسي في 1915م الموافق 1333هـ S. N. A. Intel 2/3/12

(54) الحاكم العام باركوبت إلى الكولونيل فيتر جيرالد في 28 يوليو سنة 1915م D. S. A. Box 131/5

حكم السلطان. وكانت الحكومة مدركة لأبعاد هذه العلاقة. إلا أنها كانت عاجزة عن اتخاذ موقف حاسم تجاه دار فور لظروفها وخوفها من الحيلولة دون حدوث السلام والاستقرار في المنطقة. سادسها: أن السنوسي قد جنى من وقوفه مع تركيا أموالاً فهذا فيه قدر من التجني على حركة عرفت بنظامها الدقيق والتزام أي عضو من أعضائها باقتطاع جزء من دخله لدعم الحركة سنوياً. وهي أول تجربة تحريرية بمعنى الكلمة في أفريقيا، حيث طرحت شعار الاكتفاء الذاتي بأن نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع. فالزاوية السنوسية هي خلية حياتية كاملة، يجد الإنسان فيها الأنس الروحي والغذاء الفكري والسعي الاقتصادي والتعليم المهني. وقد بلغ عدد أعضائها الملايين. سابعها: تجاهل وحدة الأهداف وإن التوسع الاستعماري في المنطقة هو الذي دفع بالحركتين إلى التكاتف. أما ظروف الحرب الأوربية الأولى فقد دفعت بتركيا لتشجيع القوى الإسلامية الوطنية للوقوف أمام الحلفاء وبالتالي عجلت المواجهة وربما كان استيلاء الحكم الثنائي على دار فور ناجم عن ذلك في المقام الأول إلى جانب الأطماع الفرنسية. ثامنها: أن سلطنة الفور هي سلطنة إسلامية عريقة وهي من (ممالك الثغور). أي في تخوم العالم الإسلامي. فأهلها تبعاً لذلك متشبعون بروح الجهاد والغزو لذا لا غرابة أن استجابوا لباعث الجهاد بتلك الصورة. ودارفور هي مهد خلاوى القرآن وشيوخه ومنها إنداحت سلطنة أورقت بظلالها معظم أنحاء السودان وأمتد عطاؤها حتى طال الحرمين ليضع مئات من السنين دون من أو أذى .

ففي أغسطس سنة 1915م وصل أحمد الشريف السنوسي منطقة جبل الميدوب. ووصل دار فور قيس كريم مبعوثاً من السنوسي وجرت مفاوضات تم بموجبها الاتفاق على تزويد السلطان باحتياجاته من السلاح والذخيرة⁽⁵⁵⁾. ووصلت العلاقات السنوسية الفوراوية يومئذ حد التحالف وتبادل المصالح. ونتيجة لموقف الحكومة الإنجليزية تجاه السنوسية في الحدود الغربية فإن العلاقات السنوسية الفوراوية ازدادت قوة وتماسكاً⁽⁵⁶⁾.

(55) S. I. R. 253/4 august 1915

(56) من كلايتون إلى الحاكم العام في 1915/12/24 D. S. A. Box 131/6 TELEGRAM

و درج السنوسي على تزويد السلطان بأخبار الجبهة السنوسية والجبهة الألمانية التركية. حيث نقلت إليه صورة حية عن المعركة الدائرة بين إيطاليا والسنوسية على البر الليبي وبين إيطاليا وألمانيا وتركيا على البحر. وأخبره بأن المعركة ستتحول إلى غرب مصر ومحاصرة طرابلس⁽⁵⁷⁾.

ولقد لعب شيوخ السنوسية في الفاشر دوراً بارزاً في تحسين العلاقات وديمومتها والمحافظة عليها. فكانوا من وقت لآخر يزودون السنوسي بأخبار السلطان واتجاهاته تجاه السنوسية. مما كان له أثر طيب في نفس السنوسي واتجاهه القوي نحو السلطان⁽⁵⁸⁾.

وبنهاية سنة 1915م صدر بيان من الخلافة العثمانية داعياً المسلمين إلى الجهاد ضد أعداء المسلمين. ووصلت نسخ من هذا البيان إلى السودان يدعو المسلمين إلى الخروج على الجيش البريطاني. وأصدر السلطان على دينار بدوره استجابة لهذا النداء بيانات مماثلة تتدد بالحكم الثنائي وتدعو للخروج عليه⁽⁵⁹⁾. وبذا أعلن خروجه وإنفاكه بل محدثه للحكم الثنائي. وبدأ في استشارة الأعيان من ذوي الأثر الروحي في البلاد - وفي عقر دار الحكومة الثنائية - ينقل إليهم أخبار المعارك. فذكر ليوسف الهندي أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء. وأنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين الفين وأربعمائة بندقية وأربعمائة صندوق ذخيرة.

هذه الاستجابة لنداء الخلافة ترقى بالقيادة الفوراوية إلى مستوى القيادات الإسلامية المخلصة في التاريخ الحديث والمعاصر التي لم تلوّث تاريخها أو ماضيها بالارتقاء في أحضان القوى الاستعمارية وتنسى عقيدتها وإنتماءها. كما فعلت كثير من الزعامات والقيادات المحلية والإقليمية التي ارتمت في أحضان الاستعمار الأوربي دون قيد أو شروط وكما تفعل الآن كثير من القيادات والزعامات على مستوى دارفور أو السودان أو العالم العربي والإسلامي، دون وعي ودون اعتبار بمفردات التاريخ الحديث والمعاصر.

S.N.A. Intel 2/3/

⁽⁵⁷⁾ خطاب من محمد عابد الشريف إلى السلطان في 1915/11/5م

D.S.A.BOX.131//6

⁽⁵⁸⁾ من كلايتون بالقاهرة إلى الحاكم العام في 1915/12/25م

⁽⁵⁹⁾ تقرير عن أحوال الجيش الثنائي من الحاكم العام إلى وزير الحرية البريطانية في 1916/8/6م D.S.A.BOX.130/1

ولم ينته دوره عند حد التأييد وإنما تعدى ذلك إلى المشاركة الفعلية بأن أعلن عداؤه للحكم الإنكليزي المصري. وتجاوز حدود بلاده لإحداث ثورة شعبية بغيتها النهوض وتقويض أركان النظام الاستعماري القائم في السودان عموماً.

ولإحداث ثورة في طول السودان وعرضه قام بالاتصال بالأعيان فاتصاله بيوسف الهندي كان من هذا القبيل. وبدل ذلك على وعيه وإدراكه لأبعاد القضية وعدالتها. فقام بتبنيها وطرحها وإعادة عرضها على القيادات السياسية الوطنية في البلاد.

هذا الموقف يلقي الضوء على تعاطفه وتبنيه لقضية كان في قرارة نفسه مقتنع بأنها قضية المسلمين وكل المسلمين. لذا حاول استقطاب القيادات ذات الوزن والنقل الديني والقبلي والثقافي بغية إثارتها وشل حركة الحكومة الثنائية حتى لا تتحرك تجاهه أو تجاه حلفائه في الشمال. واتبع أسلوب الإغراء والتشجيع مع هذه القيادات ناقلًا إليها أخبار المعارك والأسلحة التي وصلتته. وفي الوقت ذاته كان يهدف إلى إرهاب الحكم الثنائي.

ولعل عبارته التالية تلقي الضوء على جانب هام من مواقفه حيث يقول: (ولقد أخذتنا العزة الإسلامية والحمية الإيمانية وعزمنا أن نقوم بحول الله وقوته وقدرته في نصره دين الله لجهاد أعداء الدين الكفرة معاندي الشريعة المحمدية الموجودين حولنا هنا في السودان وقريباً إن شاء الله تعالى نخرج هجرة للجهاد في سبيل الله وسبيل مسامعكم ما يصير منا لأعداء الله)⁽⁶⁰⁾.

إذا القضية كانت في نظر السلطان علي دينار هي قضية إسلام وأن مقاومته هي مقاومة ذات طبيعة إسلامية فالدافع لها هو قول الله تعالى: (والله العزة ولرسوله وللمؤمنين)⁽⁶¹⁾.

(60) خطاب من علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 26 يناير 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1334هـ
S. N. A. Intel 2/3/12

(61) سورة المنافقون - الآية (8)

لقد اشتعلت في نفسه روح إسلامية بغيتها تمكين دين الله في الأرض وجهاداً لأعدائه. فلم تعد القضية قضية إقليمية أو سلامة شخصية بقدر ما هي قضية الإسلام والمسلمين أجمعين. وبذا أردف قائلاً موضحاً ما آل إليه الحال في السودان الشرقي من موالة لأعداء الله فذكر أن أهل شرق السودان اتبعوا النصاري الإنجليز في شرق السودان: (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصاري قصدهم يضلونا). فالحمية الإسلامية تجاوزت حدود السلامة الشخصية لإقليمي دار فور وليبيا وتجاوزت كل ذلك إلى الخوف على بيضة الإسلام من التبشير المسيحي. مما يشكل بعداً آخر لصحوة إسلامية كان السلطان علي دينار أحد أركانها. وتدلنا إشارته السابقة إلى أنه كان فتيلة قابلة للاشتعال فك دخول تركيا الحرب صمام أمانها.

ولقد شكلت السنوسية وسطاً نشطاً لربطه بتركيا حيث كانت معظم خطابه إلى تركيا يتم إرسالها عبر ليبيا مما يدل على الثقة المتوفرة بين الطرفين.

وتوالت تأكيدات في خطاب⁽⁶²⁾ بعث به إلى أحمد الشريف بقوله: (بأنه عما قريب سيعلم الحرب و الجهاد ضد أعداء الله من الإنجليز الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) وأكد بان كثيراً من أهل السودان الغربي قد اعتنقوا المسيحية. وأن الحكومة الثنائية أقرت كثيراً من مشايخ الطرق والوجهاء بالكتابة إليه بغية استقطابه إلى الصف المسيحي في حربه ضد المسلمين. ولعله بذلك يشير إلى محاولات علي الميرغني لإقناعه بالعدول عن موقفه والانحياز لصالح الحكومة الإنجليزية والفرنسية في حربهما ضد تركيا وألمانيا.

هذه الإشارة تكشف عن الدوافع الكامنة لحركة السلطان وقيامه ضد الحكم الثنائي في البلاد. بل تنفي كل ما ألحقته به أقلام الاستخبارات وما حاولت به تشويه تاريخه. فهو حاكم مسلم. جعل العقيدة إحدى همومه بل همه الأول حيث أنكر موالة أعداء الله استجابة للنداء السماوي (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم

(62) خطاب من علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 28 يناير 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1334هـ
S. N. A. Intel 129/7

أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم⁽⁶³⁾ وركن إلى الصف المسلم وحركته الحركة التبشيرية في البلاد وأغاضه استمالة أعداء الله لزعماء المسلمين ووجهاتهم حتى صاروا أولياء ومناصرين للكفرة من الإنجليز. وأصبحوا لا يهتمون بأمر الإسلام ولا الحركة التصيرية في البلاد. وشعر بأن موقفه في خطر، وإن بلاده وشعبه مهددان بالزحف المسيحي. فكان لا بد له من الانحياز إلى الصف المسلم والركن الشديد. وإن أدى ذلك بعرشه وبحكم بلاده. فموت العز أكرم من حياة الذل والاستعباد.

ونتيجة للخطاب الماضي ذكره قامت السنوسية بتزويد السلطان بكميات من الأسلحة. ووافق ذلك تنفيذ جزء من مشروع عام كان مقتضاه إحداث توافق بين المقاومة السودانية الفوراوية للحكم الأجنبي في البلاد والحركة السنوسية. ومحاولة إضعاف الحكم الإنجليزي في كل من مصر والسودان وإزاحته عن المسرح. حيث أن وجود مقاومة في جنوب الوادي لها أثرها الفاعل في إنجاح الخطة التركية الألمانية السنوسية القاضية بإنهاء النفوذ الإنجليزي على مصر⁽⁶⁴⁾ أمر لا ينكر دوره ولا يمكن التغافل عنه من قبل الحلفاء. وهو من زاوية أخرى دور خطير وذو وزن كبير عجزت عن القيام به كل القيادات الوطنية الموجودة بالبلاد يومئذ، كما عجزت عن القيام به كثير من الزعامات الإقليمية على مستوى العالم العربي والأفريقي والإسلامي، فكانت الأقدار أن أثبتت لهذا السلطان تسطير هذه الصفحات المشرفات في تاريخ السودان الحديث والمعاصر بمداد من ذهب.

ولم يأل السلطان جهداً في أداء الدور المنوط به في هذا الحلف حيث قام بإثارة روح المقاومة. وخاطب الأعيان في عقر دار الحكومة الثنائية مهيباً بهم للنهوض والثورة معلناً إياهم الحرب ضد الحكم الثنائي. وناقلاً لهم أخبار الجبهة الإسلامية علناً ذلك يثير فيهم حمية ونخوة إسلامية⁽⁶⁵⁾. بيد أنهم كانوا أحياء أمواتاً عاجزون عن القيام بأي دور ولو أضعف الإيمان، محافظة على حياتهم ومواقعهم المتقدمة في الحكم

(63) سورة المائدة - الآية 51.

(64) استجواب جعفر باشا D. S. A. Box 131/8 Sanusas Affairs

(65) من الحكام العام إلى قائد القيادة بالنهود في 1916/4/6 D. S. A. Box 128/1

الثنائي. حيث أن المقاومة ورفض سلطان الأجنبي والانحياز إلى جانب الحق هو قدر إلهي عظيم. ومن يندب إليه لا بد أن يكون عظيماً، فليس كل من مشى على رجلين مهيناً للقيام بهذا الدور البطولي الذي يقتضي التضحية بكل شيء ولو بالنفس، وقليل ما هم الذين لديهم الاستعداد للتضحية بأنفسهم. وهو ذات الموقف الآن ضد النفوذ الاستعماري الإستغلالي والذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها في العالم الإسلامي بأجنحته القارية المختلفة. فقليل ما هم أولئك الزعماء والمفكرون وذوو الأقلام الحرة يقولون لا بملء أفواههم في وجه المشروع الأمريكي الغادر وكثير ما هم الذين يلهثون وراء مسح حذاء أمريكا وقيادتها وحلفائها من أجل البقاء على كرسي الحكم ومقابل دربهات معدودات أو لذة قانية.

الفصل الثاني

طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي

تجاوزت السنوسية بنظرتها وبخططها وبأهدافها حدود ليبيا. وتطلعت إلى العالم بمعناه الواسع. حيث اضطلعت بدور المبشر للإسلام في أفريقيا. وشكلت الدعوة إلى الإسلام وتمكينه إحدى همومها. وأعدت نفسها من أول يوم إعداداً يؤهلها للقيام بعبء الدعوة والجهاد في سبيل الله كما تقدم في الفصل الأول، وقد كانت مؤهلة فكرياً وروحياً وتنظيماً وإعداداً وتوجهاً استراتيجياً لهذا الدور وتحملت مسؤوليتها التاريخية وفق إمكانياتها وقدراتها لو تمكنت من السير وفق أهداف المؤسس بنظره الثاقب وبخطيطه الدقيق ورؤيته المستقبلية.

وكما رأينا فقد اعتمدت على مواردها الذاتية حتى لا تقع في أحضان أي قوى أجنبية وكان هذا هو عين الحق والصواب. إذ أن الاعتماد على المساعدات والمعونات الأجنبية كانت ولا تزال سبباً في فقدان عدد من الدول لاستقلالها ومسح شخصيتها. وأن الأمة لا يمكن أن تغلح وتحقق ذاتيتها إلا بالاعتماد على نفسها وقدرات أفرادها. ومحاولة تأهيلهم والرفع من كفاءتهم وهذا ما درجت عليه السنوسية بإنشائها لزواياها الكثيرة. وجعل هذه الزوايا خلايا تعليمية وتنظيمية وزراعية وعسكرية وبعثات تبشيرية في أرجاء شمال ووسط أفريقيا وسجلت أسمها بمداد من دماء الشهداء وإخلاص القادة وقامت بدور طليعي في محاربة الاستعمار متسلحة بعقيدتها باحثة عن حقيقة ذاتها. وبهذا ضربت أنموذجاً رائعاً في التضحية والاستبسال والتفاني في خدمة الأهداف والقيم الروحية، ونجحت في تثبيت معان جديدة في أوساط المجتمعات الإسلامية، وقد جاءت بطرح متقدم، يتمثل في التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والروحي حقيقة لا دعوى، وقد مكنت لمبدأ الاعتماد على الذات ورفض الاستعانة بالأجنبي فعلاً

لا شعاراً أجوف كما فعلت كثير من الحركات المعاصرة سواء أكانت علمانية أو دينية على المستوى العربي أو الأفريقي أو الآسيوي دون استثناء وفي حقيقة أمرها هي عملية حتى النخاع. بيد أن السنوسية فكرة وإبتداءً إسلامياً خالصاً إبتداءً وإنتهاءً وإن كان الأحفاد قد نكسوا تحت وطأة الاستعمار الإيطالي فيما بعد .

وكان السلطان سليل سلاطين سلطنة إسلامية ذات تاريخ عريق في المنطقة، وكان لها دور في نشر الإسلام في هذه البلاد كما تقدم في الباب الأول. ولعب سلاطينها دوراً بارزاً في تمكين الإسلام ونشر العلم والمعرفة في هذه الأقاليم.

ولم تكن عودة السلطان علي دينار إلى عرش آبائه سوى إحياء لسلسلة أمجاد أنفرت عقدها بسقوطها على يد الزبير ود رحمة سنة 1874م بإيعاز من الإدارة المصرية.

وقد تجسدت فيه روح الحاكم المسلم الغيور على وطنه ودينه لذا تطلع من أول يوم إلى السنوسية التي تمثل الفكر الأرحب والرؤى الإسلامية الواسعة. وكان من الطبيعي لقوتين وطنيتين متسلحتين بالعقيدة ذاتاً نزعة استقلالية أن يتحدان في كراهيتهما للتغلغل الاستعماري الاستغلالي في المنطقة، وأن يعتمدان على مواردهما الذاتية، لا سيما وأن الأقدار جعلتهما يقفان بين فكي منافسة غربية إحتلالية مستعرة تتداخل مصالحها، فكان لا بد لهما من الالتفاف إلى بعضهما الآخر. ولعل روح الوحدة الإسلامية وطي الخلافات وتجاوز الخصومات والشعور بالواجب في هذا الوقت الحرج من تاريخ السودان الحديث والأمة المسلمة بشقيها الأفريقي والآسيوي هو الذي حدا بالسلطان علي دينار لأن يرسل وفداً مكوناً من عشرين شخصاً بغية توسيط السنوسي في الحرب الدائرة بين دار فور ووداي. ووافق ذلك اتجاهاً سنوسياً يرمي إلى توحيد السلطانيين ضد المسيحيين الإنجليز والفرنسيين⁽¹⁾.

مما تقدم يتضح أن السنوسية كانت ترى أن هذه العلاقة تشكل بعداً إسلامياً ذا أهمية بالغة. ودور ملحوظ في محاربة القوى الاستعمارية في المنطقة. لذا لا غرابة أن سعى أحمد الشريف لأحدث وحدة بين كل من سلطان وداي وسلطان دار فور لما في

وحدثهما من إضعاف للقوى الاستعمارية في المنطقة⁽²⁾. وكان سلطان دار فور يمثل قوة ذات وزن في المنطقة ولله ثقل لا يجهل دوره في كفة موازين القوى في المنطقة. وبحكم ظروف المنطقة ووعورتها وبعدها عن متناول اليد الاستعمارية بسهولة أصبح سلطان دار فور رقماً هاماً يعول عليه في نصرة الإسلام. ويشير أحمد الشريف السنوسي إلى هذا الجانب بقوله: (والله إننا في غاية الفرح بأنه لأن ليس هناك محل يعتمد في نصرة الإسلام غير محكم ... حتى كادت ذواتنا ترقص طرباً من صنيعكم الجميل ... إن شاء الله لم نزل ساعون في الذي ينوبكم من الجبخانه ولو كان مائة ألف)⁽³⁾.

هذا الجانب من العلاقات الفوراوية السنوسية مشرق ومضيء ويخرج بالعلاقات بين الطرفين من الآفاق الضيقة القائمة على المصلحة الذاتية إلى آفاق المصلحة العامة والصحة الإسلامية في وجه التحدي الاستعماري للأمة الإسلامية. وبذلك يمكن اعتباره معلماً هاماً في التاريخ الإسلامي الحديث.

ففي الوقت الذي أحاطت فيه الأطماع الاستعمارية بالمنطقة من كل جانب تكاثفت القوتان الفوراوية والسنوسية من أجل تقويض وإجهاض المصالح الاستعمارية. وعمل السلطان على خلق علاقات ودية في بداية عهده مع القوة النزيهة التي حملت السلاح متزودة بعقيدتها وتراثها ودفاعها عن الأمة الإسلامية وأوطانها. وقد دعا ذلك الموقف المشرف إلى ثناء أحمد الشريف على بطولة السلطان ونصاعة تاريخه وشجاعته وقوة عقيدته. وتطورت هذه العلاقات حتى أصبحت حلفاً يقتضي وقوف كل من الطرفين بجانب الآخر في المحن وكان هذا الحلف بواعثه دينية. ولقد عبر السلطان عن هذه الحقيقة بقوله: (ولقد أخذتنا العزة الإسلامية والحمية الإيمانية وعزمنا أن نقوم بحول الله وقوته وقدرته في نصرة دين الله لجهاد أعداء الدين الكفرة معاندي الشريعة المحمدية الموجودين حولنا هنا في السودان وقريباً إن شاء الله تعالى نخرج هجرة للجهاد وسيبلغ مسامعكم ما يصير منا لأعداء الله)⁽⁴⁾.

(2) أحمد الشريف إلى السلطان علي دينار، 1911/2/13 الموافق 15 ربيع الأول سنة 1329هـ.

S. N. A. Intell 2/3/12

(3) أحمد الشريف إلى السلطان علي دينار 1911/2/13م 15 ربيع الأول سنة 1329هـ S. N. A. INTELL 2/3/12

(4) علي دينار إلى يوسف النهدي في 26 يناير سنة 1916م ربيع الأول سنة 1334هـ S. N. A. INTELL 2/3/12

فلم يقدم السلطان علي دينار على الدخول في هذه المعركة ضد الحكم الثنائي خوفاً على عرشه أو كرسي آبائه وإن كان ذلك احتمال وارد من وجهة تحقيق البحث وفحص القضية بمجهر المنهج العلمي المحايد إلا أن ذلك النظر لا يسقط وجود الدافع والباعث الديني استجابة لقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)⁽⁵⁾. وهذه تفيدها إشارته بمقاتلة الذين يلونه. ولقد استفزه التحرك التبشيري وتغلغل النفوذ المسيحي الغربي في البلاد والذي كان يشكل رأس حربة في التغلغل الاستعماري الاستغلالي في المنطقة الأفريقية والآسيوية على حد سواء. وحزاً في نفسه موالاته المسلمين لأعداء الله فعبر عن هذه الكارثة بقوله: (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم بضلونا)⁽⁶⁾ أشار إلى ذلك بعد تأكيدات بأن كثيراً من أهل السودان الشرقي قد اعتنقوا المسيحية.

وفي خطاب آخر⁽⁷⁾ أشار إلى سياسة الحكومة الثنائية التي أقيمت كثيراً من مشايخ الطرق والوجهاء وكتابتهم إليه بإتباع المسيحية في حربها ضد المسلمين. وفي الوقت ذاته يعلن وقوفه التام بجانب السنوسية في حربها ضد المسيحيين أعداء الله من الإنجليز الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويتفاعل بأنه سيلحق بهم الهزيمة إن شاء الله.

هذا التوجه الإسلامي وهذا الوعي بإدراك ما تدبره الحكومة الثنائية ضد الإسلام وإبعاد الكنيسة القبطية عمداً - تلك الكنيسة التي عاشت الإسلام وأهله مدة ألف عام دون حسابات ودون تفرقة دينية - من المسرح وحاول الاستعمار تحجيم دورها العام سواء في الغرب أو الجنوب لا شك أن ذلك أمر كان يتوجب مقاومته والوقوف ضده بشراسة من قبل الجميع. والإشارة إلى أن الحرب بين الإسلام والمسيحية كل ذلك يعطي دلالة على أن هناك صحوة إسلامية وإن السلطان علي دينار جزء لا يتجزأ عن هذه الصحوة التي يشكل هذا الاتجاه بعداً لها إذ أصبح الأمر لا يقتصر على السلامة

(5) سورة التوبة، الآية 123

(6) علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 19 يناير سنة 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1339هـ
S. N. A.; INTELL 2/3/12

(7) علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي في 28 يناير 1916م ربيع الأول سنة 1334هـ D. S. A. Box 129/7

الشخصية لإقليمي ليبيا ودار فور. بيد أنه قد تجاوزته إلى الخوف على بيضة الإسلام من التبشير الغربي ذو الأهداف الاستغلالية. والذود عن حمى الإسلام وحياضه والدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة في وجه التحدي الاستعماري الإحتلالي، الذي تبدى لذوي البصائر من بين الركام الذي مثلته قيادات عربية وإسلامية وسياسية وعسكرية وروحية انخدعت بأطروحات الغرب وبرامجه الإصلاحية في المنطقة يومئذ وحسبت هذه القيادات أنها قد وجدت شيئاً ثميناً فإذا بها تلهث وراء سراب أعقبته حقبة استعمارية استغلالية تعتبر من أسوأ الأيام في التاريخ البشري عموماً، وفي تاريخ هذه الشعوب المسلمة على وجه الخصوص، التي انخدعت قياداتها فقانتها بأظلافها إلى الإذلال والإهانة والخنوع والرزوح تحت نير الاستعمار الاستغلالي البشع لعشرات السنين.

واليوم فالتاريخ لا يعيد نفسه، ولكن من لا يقرأ مفردات التاريخ الماضي وعبره وصعوده وهبوطه يقع في أخطاء أفدح مما مضى وهذا مما يحدث الآن على صعيد دار فور والعالم الإسلامي والعربي وعلى محيط السودان بشماله وجنوبه وشرقه وغربه، فالحزبية البغيضة العوراء ذات الشخصية المسوخة هي التي تقود البلاد ودار فور إلى الهاوية وإلى الوقوع في قبضة الاستعمار الإحتلالي للمرة الثانية من جديد. وتجري الآن محاولات مدروسة وذات أبعاد إستراتيجية حتمية النتائج إلى إحداث فتنة عرقية ودينية في السودان عموماً ودارفور على وجه الخصوص الأمر الذي يقتضي بضافراً متكاتفاً من قبل المكلفين من أبناء هذا البلد من مسيحيين أقباط وهم شريحة مستهدفة من قبل الغرب لعروبته بذات القدر الذي تستهدف به الشرائح المسلمة العربية من أبناء دارفور والسودان الشمالي والشرقي مما يحتم اليوم قبل الغد أن تتضافر الجهود لإحداث تيار معاكس جارف لهذه المخططات التي ترمي إلى جعل دارفور رواندا وبورندي أخرى في أفريقيا. ذلك لأن الغرب لا يستطيع أن يصطاد إلا في الماء العكر والسودان الذي يشكل ثوراً ضخماً لا بد أن ينهش من أكثر من موضع حتى يتم القضاء على وحدته وشل حركته الحضارية وبنائه الإجتماعي ودوره الريادي في أفريقيا والعالم العربي.

الفصل الثالث

الأسباب التي ضعف الحلف

1-الضعف المادي للطرفين وفشل تركيا وألمانيا في الدعم:

كما مر فإن التقارب بين الطرفين السنوسي والفوراوي قد أتخذ شكل حلف ودفاع كل طرف عن مصالح الآخر. وقد تطور الأمر بعد دخول تركيا الحرب مما قوى قوة الأصرة. وقام كل طرف بما هو منوط به في سبيل مقاتلة الذين يلونه. وهي نظرية قرآنية تتجاوب والتخطيط العسكري السليم وتتناغم وأحدث النظريات العسكرية في عالم اليوم .

وكانت دارفور في مواردها الاقتصادية تعتمد علي التجارة الخارجية. حيث لا يوجد لديها ميناء وإنما كان اعتمادها في تجارتها الخارجية علي طرقها البرية. وقد وجدت أساساً عوائق حالت دون الاستفادة من كل طرقها البرية.

أولاً: طريق ودای لم يكن مأمونا كما أنه لم يؤد دوره في تغذية البلاد وتنشيط الحركة الاقتصادية نسبة لوجود القوات الفرنسية واحتلالها لودای مما أحدث نوعاً من الحصار الاقتصادي علي دارفور من ناحية الغرب.

ثانياً: طريق الأربعين كان يمثل شريان الحياة الاقتصادية في البلاد وكذا العسكرية حيث كانت ترد عن طريقه تجارة الشمال وتغدو تجارة الجنوب وترد البلاد أسلحة طرابلس وغيرها، فمروره عبر مصر يحول دون الاستفادة منه. ذلك لأن الحكم الثنائي في السودان الشرقي ظل يحول دون التعاون مع مصر لأن لمصر وجود رسمي في نظام حكم الاحتلال. ومصر نفسها كانت واقعة تحت مطارق القناصل الأوربيين والمندوب السامي البريطاني في القاهرة.

ثالثاً: الطريق الشرقي وهو الذي يمر بأراضي الحكومة الثنائية. ويعبر البحر الأحمر إلى أراضي الحجاز وعن طريقه كان يقد المحمل الدارفوري إلى الأراضي المقدسة. فوجود الحكم الثنائي شكل عقبة للاستفادة من هذا الطريق بالصورة المثلى.

وقد اعتمدت دارفور على مواردها الذاتية. وبالرغم من ذلك قامت بالمشاركات التي سبقت الإشارة إليها في دعم حركة المقاومة في ليبيا. وفي الوقت ذاته كان علي دارفور أن تسليح نفسها لمواجهة الأحداث وتحسباً للمستقبل الأمر الذي شكل عبئاً ثقيلاً علي إقتصاد البلاد. ولم يكن التسليح أمراً سهلاً مع محدودية الإمكانيات ومحدودية الموارد ومصادر الأسلحة. فقد قامت الحكومة الثنائية بإجراءات متشددة في تزويد السلطان بما يحتاجه من سلاح، لذا فكر جاداً في فتح المنافذ السنوسية ومع تجدد ظروف الحرب الأوربية الأولى ودخول السنوسية حرباً ضروساً ضد الاستعمار الإيطالي كما تقدم⁽¹⁾، مع محدودية إمكانياتها الذاتية. هذا في الوقت الذي أعلن السلطان فيه حربه ضد الحكم الثنائي في البلاد مع إمكانيات الأخير وقدراته. وكان موقفاً بأن المدد سيصله من الشمال. وبالع في بعض الأحيان في وصف ما وصله من أسلحة وذخيرة⁽²⁾. ولعل ذلك كان يمثل ما تصبو إليه نفسه وأيقن بأن السنوسيين والأتراك سيمدونه لتعزيز موقفه. ولربما كان ذلك من باب الحرب النفسية.

وعجزت السنوسية لمحدودية إمكانياتها بإمداده بما يحتاجه من سلاح ونتيجة لشعور القوتين بضعف آلتها وفشل تركيا وألمانيا بإمدادهما بما يحتاجانه من سلاح وخبرات لمواجهة عدة وعناد الغزاة لجأ إلي السحر والأوهام⁽³⁾. هذا التقرير أوردته المخابرات الأمر الذي قد يشكك في مصداقيته وإن كان من جانب آخر قد لا يستبعد لأن التصوف في غرب السودان بمعناه العام قد ارتبط في بعض مظاهره وممارسته بطقوس سحرية. وفي التاريخ الإسلامي العريض نجد إرثاً معتبراً في هذا الجانب لأن

(1) محمد عابد الشريف إلى السلطان في 1915/11/5 S.N.A. Intell 2/3/12

(2) السلطان إلى يوسف الهندي بتاريخ 1916/1/12 S.N.A Intell 2/4/10

(3) مساعد قيادة المخابرات إلى الحاكم العام D.S.A Box 128/3 24th

الإسلام حركة سلمية في تعاملها وتعاطيها مع الثقافات والتقاليد المحلية والوافدة. إذ ليس من شيمه الإسلام الاستئصال من غير منطق يسلم به أهل العقل السليم. لذا لا غرابة أن اختلط السحر بكثير من المظاهر العلاجية والوصفات الطبية والرقية الشرعية المحلية والوافدة.

وفي مقابل عدم وصول الخبرات الفنية والعسكرية وعجز السنوسي عن ذلك بعث السنوسي إلي علي دينار برجلين يحملان حجراً ورسالة خطية. ويحملان خبراً مفاده أن علامة انتصار السلطان أن يلقي بالحجر في قلة مليئة بالماء فيطفح الحجر وإن لا فإن ذلك علامة هزيمته وقد حدث العكس. لذا تأثر السلطان بهذا الحدث⁽⁴⁾. هذه مسألة فيزيائية تتم وفق أوزان وكثافات فما دامت كثافة الحجر أكبر من كثافة الماء من الحتمي أن لا يطفح الحجر إلا إذا تدخلت عوامل قوة خفية. ولعل ذلك يصب في مصلحة التقرير السابق من أن الرجلين بدءاً يلجآن إلى السحر بدلاً من اتخاذ احتياطات القوة المادية المكافئة لقوة الغزاة من الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين .

هذا الخبر على بساطته فيه دلالة واضحة على عجز القوتين وضعفهما المادي. وقصور آلتهم الحربية تجاه وعتاد القوى الاستعمارية الإحتلالية في المنطقة والتي دخلت الحرب بخبراتها وقدراتها الفنية والعسكرية العالية. فحدا بهما ذلك للجوء إلى تلك الأوهام.

وفي هذا الأثناء ازداد إلحاح السلطان بغية تزويده بما يحتاجه من سلاح نتيجة شد الضغط عليه من قبل الحكومة الثنائية التي دخلت الحرب بعدة وخبرة عالية. بيد أن السنوسي اعتذر عن إمكانية إمداده بما يحتاجه⁽⁵⁾. مما يقرر ما سبقت الإشارة إليه من ضعف القوتين المادي وعدم مقدرة كل من تركيا وألمانيا بإمدادهما بما يحتاجانه من سلاح حتى يقوموا بدورهما المنوط بهما.

(4) المصدر السابق April . 1916

(5) يونان لبيب رزق ص 388-389.

2- فشل علي دينار في أحياء الجبهة المحلية :

حاول السلطان علي دينار أن يقوم بدور بارز بعد إصداره بيانات مؤيدة للخلافة العثمانية في الآستانة ومستجيباً بذلك للنداء العثماني وكانت بياناته تؤيد دعوة المسلمين إلى الخروج على الجيش البريطاني. فأتصل بالقيادات الوطنية في البلاد. حيث أرسل خطاباً إلى يوسف الهندي وهو يمثل إحدى القيادات الروحية في البلاد محاولاً استثارتهم ضد الحكم الثنائي. ونقل إليه أخبار المعركة بين تركيا والسنوسية والأعداء من الإنكليز وحلفائهم. فأشار إلى أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء وأنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة صندوق ذخيرة (6) .

وهذا الخطاب وسواه من الخطابات الأخرى تشكل حملة إعلامية ناء بحملها السلطان بغية خلق طابور خامس داخل أراضي الحكومة الثنائية. واتبع أسلوب الإغراء والتشجيع، بنقل أخبار المعارك والانتصارات التي حققها الأتراك .

أما الإشارة التي فحواها أنه قد وصلت كميات كبيرة القصد منها إلقاء الرعب في قلوب أعدائه وإغراء هؤلاء الأعيان بالثورة وإعلان العصيان والتمرد على الحكم الثنائي المباشر، ولمحدودية سقفها النضالي ولضبابية فكرها الاختزالي الهروبي وموقفها الخائر إزاء الوجود الأجنبي بالبلاد ومدى خطورته لم يتحرك لها ساكناً. بيد أن هؤلاء الأعيان وهذه القيادات لم تغلح مساعي السلطان لديها لوقوعها تحت التأثير الثنائي. فلم يكتف هؤلاء بالوقوف في الحياد بل كانوا إيجابيين لصالح الأعداء. وقد أغاظ السلطان أن هذه القيادات وشيوخ الطرق (والأعيان منهم صاروا يخاطبونها ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا). (7)

في هذا الخطاب يشير السلطان إلى خيبة الأمل والإحباط الذي أصابه من جراء عناد هذه القيادات وعدم استجابتها. وليتها وقفت عند هذا الحد بل تجاوزت ذلك بالكتابة

S.N.A. INTELL 7/4/10

(6) علي دينار إلى يوسف الهندي بتاريخ 1916/1/12

(7) خطاب من علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 1916/1/26. 23 ربيع الأول سنة 1334 هـ

S.N.A. Intell 2/3/12

إليه بغية إقناعه بالتنازل عن موقفه. والانحياز لصالح المشروع الغربي الإحتلالي الاستعماري الكبير في السودان والعالم الإسلامي والعربي ومن هنا تبدو خطورتهم وتفوح رائحة عمالتهم باعتبارهم أدوات وأبواق استعمارية أكثر منهم قيادات وطنية يرجي منها أن تقود مقاومة، أو أن تحدث تغييراً اجتماعياً وسياسياً في البلاد، وهي ذات عملة المجموعات التي تسير الآن بدون خجل أو استحياء في ركاب أطروحات الغرب دون وعي، وتردد مقولاته كالبيغاوات دون فهم أو رشد.

أذن حملته الإعلامية تجاه هذه القيادات لم تؤد دورها ولم تفلح في دعوتهم للخروج على الحكم الثنائي في البلاد. ولم تحقق نتائجها المرجوة بخلق طابور خامس يشل من حركة الحكومة الثنائية. هذا بالرغم من قناعتة بعدالة القضية. وينكر موالة هؤلاء للنصارى وهم يرون التبشير في البلاد والنفوذ المسيحي في ازدياد. فقضيته قضية دين ووطن. والغيرة مزدوجة. بيد أن المساعي التي بذلها فشلت في تحقيق نتائجها لاعتبارات عديدة منها محدودية نشاطه في هذه الأوساط أولاً. ثانياً: بعدها عن المسرح ووقوعها تحت تأثير الإعلام الثنائي. فنداءات السلطان لا تعدو في نظرها عن كونها نشاراً. ثالثاً: لربما يعود الأمر إلى شعورها بضعف دول الوسط وخوفها على مواقعها وقد رأت بأم عينها ما حاق بعائلة المهدي والخليفة عبد الله التعايشي. الأمر الذي يجعلها تتردد كثيراً في الإقدام والجرأة حتى لا يحيق بها ما حاق بمن سلف ذكرهم.

3 - تدابير الحكومة الثنائية:

بدأت الحكومة الثنائية ترقب بجدية تامة علاقات السلطان علي دينار بالسنوسية. وعلاقة القوة لسنوسية بدارفور، ومدى أثر ذلك على الحكم الثنائي. وكان طريق الأربعين يشكل الشريان لهذه العلاقات الفوراوية السنوسية، فلذا لا غرابة أن قامت الحكومة الثنائية باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإغلاق هذا الطريق أو تشديد الرقابة. وتهديد أمن القوافل الزاهية والآبية. فقد استعانت الحكومة الثنائية في هذا الصدد بالقبائل التي تقطن منطقة الحدود الواقعة بين دارفور والكفرة مثل الكبابيش لحماية ورقابة نقاط

الاتصال بين دارفور والسنوسية⁽⁸⁾. وبذا تم زرع الصعوبات أمام الاتصالات الفوراوية السنوسية. ويجد المرء حينئذ المبرر والعذر لاعتذار السنوسية وعدم إمكانيتها لإمداده بما يحتاجه من سلاح في وقت الشدة، فقد شكلت الإجراءات الثنائية والتدابير الإنكليزية عقبة كئوداً في سبيل ضعف الحلف القائم بين السنوسية والفور.

ولعل ما تقدم من إجراء يفسر اعتذار السنوسي السابق وعدم إمكانيته لحماية قوافله وإمداده بما يحتاجه من سلاح هذا بالإضافة إلى الضعف المادي لكل من القوتين على حدة أو مجتمعين في مواجهة القوي الأوربية ذات العدة والعتاد.

4- تضعف موقف السنوسية أمام الهجمات الفرنسية الإيطالية:

كانت السنوسية تمثل حركة جهادية قامت بدور فاعل في مقاومة التدخل الأجنبي في شمال وغرب وأواسط أفريقيا. وسبقت الإشارة إلى أنها كانت حركة تبشيرية ذات نشاط واسع. وقد دخلت مع فرنسا في حروب ضحت فيها السنوسية بكرائم قياداتها. وبذل رجالها نفوسهم رخيصة من أجل المبادئ والعقيدة التي آمنوا بها. هذا بالرغم من اعتمادها على قدراتها الذاتية وتفوق فرنسا عدداً وعدة. واحتدم الصدام بين الطرفين في وداي⁽⁹⁾. وفقدت السنوسية عدداً وعدة وفقدت كثيراً من مواقع أقدامها الإستراتيجية فهاجر عدد كبير من رجالها فراراً إلى دارفور⁽¹⁰⁾.

ولم يقف بلاء السنوسية وجهادها على حدود وداي وحدها وإنما خاضت معارك ضارية في شمال أفريقيا ضد الاستعمار الإيطالي وأصبحت السنوسية تقاتل في أكثر من جبهة معتمدة على قدراتها الذاتية، وإمكاناتها المحدودة. ولم تقف قوة على وجه الأرض مع هذه المقاومة الإسلامية الشرسية ذات النزعة الوطنية الصادقة سوى سلطان دارفور الذي أمدّها بإمكاناته المادية، وشاركها بجزء من إمكاناته المحدودة أداء لحق الأخوة في الدين. وقياماً بواجب النصر في سبيل الحق وإقامة شرعة الله في الأرض. وتطهير ديار المسلمين من دنس الاستعمار بشتي مدارسه واتجاهاته. ويؤكد هذا القول

(8) نائب مدير المخابرات إلى حاكم مروي في 1916/4/22م D.S.A BOX 131/8

(9) استطلاع مجلة الهلال السابق D.S.A Box 301/6

(10) المخابرات S.I.R. 205/5 August 1911

ما أشار إليه أحمد الشريف السنوسي مخاطباً السلطان علي دينار بقوله (الله يديم بقاءكم ويقهر أعداءكم ويمحق بسيفكم رقاب الطائفة الكافرة الخاسرة الماكرة. فإن الكفر قد عم وطم ولم يكن اليوم ملك علي وجه الأرض غيركم فقد أعزيتم الدين وقهرتم الملحدين⁽¹¹⁾، هذا ورد في سياق شكره له علي دعم الجبهة السنوسية مادياً. ونقل صورة حية عما يدور من معارك.

يبدو أن السنوسية بلغت حداً من الضعف وهي ذات العددية الملتزمة والعضوية المتزايدة مما جعلها تنتظر مساعدات السلطان المحدودة الذي يعتبر بكل المقاييس أقل منها تنظيماً وإعداداً. وبالرغم من ذلك فإن ما مضى تقريره يقرر أن السلطان علي دينار كان يمثل قوة إسلامية صاعدة في المنطقة تجسد فيها بعد النظر وتجاوز حدود الإقليمية الضيقة والخوف على العرش، إلى آفاق الأخوة الإسلامية الأرحب. ومناصرة دعوة الحق بغض النظر عن جنسيتها أو مسقط رأسها.

وتحت مطارق الهجمات الفرنسية والإيطالية على السنوسية ضعف موقفها فلم تعد قادرة على إمداد السلطان بما يحتاجه من سلاح وخبرة. لا سيما حينما بدأ موقفه يتخذ أبعاداً خطيرة تجاه الحكم الثنائي في البلاد، كانت السنوسية على الطرف الآخر قد وقعت بصورة مباشرة تحت وطأة الهجوم الفرنسي الإيطالي ووصلت حداً من العجز جعلها ليست بقادرة على إدخال خيط في سم خياط ناهيك عن إمداده باحتياجاته وتزويده بالخبرات الفنية والعسكرية التي يرمي الحصول عليها منها. ولعل اعتذار السنوسي للسلطان عن إمداده بما يحتاجه يلقي الضوء على صدق المقولة السابقة⁽¹²⁾. ويقرر أن القوتين قد وقعتا بين فكي عدو لا يرحم هذا في الوقت الذي لم تتمكن فيه تركيا من إسعافهما في الوقت المناسب بالرغم من أهمية تخريبهما.

(11) أحمد الشريف إلي علي دينار 1911/12/16 (25 محرم سنة 1330 هـ) S.N.A Intell 2/3/12

(12) يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ص 388-389.

الفصل الرابع

علاقات دارفور بوداي (تشاد الحالية)

(تشاد) تحت السلطنة الإسلامية والاحتلال الفرنسي:

وداي تعني اسم رجل في لغة الوطنيين وهي إحدى الممالك الإسلامية التي برزت إلى الوجود سنة 1640م. والقطر كان يعرف أول الأمر بدار مابا وأخيراً أصبح يعرف بدار برقو⁽¹⁾ والصلة بين السودان وتشاد تعتبر علاقة أزلية. ولعل الوجود البرقاوي الآن بالسودان خير شاهد على جذور وأبعاد هذه العلاقة. فمعظم العاملين بالبقالات وأصحابها والمالكين لها هم من البرقو، وهم أصلاً تشاديون استقروا وتزاوجوا وانصهروا واندمجوا في النسيج السوداني، وإن ظل البعض منهم محتفظاً ببعض السمات المميزة. ويعتبر البرقو من أنجح العناصر في إدارة واستمرارية هذا النوع من التجارة. وقد نجح قطاع كبير من بني صليح في مسائل المقاولات والمنشآت واستقر جزء من هذا الفرع الأخير في مناطق الشايقية وتبنوا ثقافتهم وأصبحوا جزءاً من ذلك النسيج كالحواجمير (آل حاج نور في منطقة نوري). والبعض الآخر من هذا الفرع موزع على أجزاء كبيرة من السودان شرقاً وغرباً ولم يتداخل كثيراً مع الأجناس السودانية إلا في حدود ضيقة.

يفصل بينها وبين دارفور وادي سونقا⁽²⁾. ووداي صلتها بالشرق قوية لاسيما دارفور منذ نشأتها⁽³⁾.

(1) سلاطين تقرير سنة 1910م S.N.A. Intell 1/1/1

(2) Gostav nachtigal: sahara and sudan trans. by allan. humphry fisher 4 vol. london 1971 vol 4 p. 239

(3) سلاطين تقرير سبتمبر 1910م S.N.A intel 1/1/1

بعد استسلام سليمان الزبير ودرحة لجسي الإيطالي في 1879م انفصل عنه أحد القادة - الذي أدرك المؤامرة الأوربية - ويدعي رابح الزبير (وليست له صلة قرابة بالزبير باشا سوى أنه أحد قادته). واسمه الحقيقي هو رابح فضل الله وهو جنوبي من بحر الغزال اشتراه الزبير ود رحمه إنقاذاً لحياته وأعتقه وولاه قيادة عسكرية في قواته لما ظهر منه من قوة وشكيلة وقدرة على التنظيم والإدارة والجدية والمثابرة وقد رفض الاستسلام ومعه قوة من رجال الزبير. ولعله بهذا التصرف أثبت جدارة قيادية وذكاء ووعياً فائقاً. فأسس في البداية سلطنة في جنوب غرب بحر الغزال. ومن هناك غزا دار كوتي - كتي واتسعت عملياته حتى دار دنجا. والاثنتان تابعتان لوداي⁽⁴⁾.

وبنهاية سنة 1890م اتجهت قواته ناحية الشمال الغربي. وترك على المواقع التي استولي عليها أحد إتياعه ويدعي محمد السنوسي - لا صلة له بعائلة السنوسي. بيد أن أباه كان من أعضاء الطريقة السنوسية. ويقال أنه جاء من باقيرمي - حيث حكم محمد السنوسي هذا الجزء الغربي من وداي. وفي سنة 1893م وصل رابح إلي باقيرمي وطرد سلطانها. وفي السنوات التالية غزا بورنيو حيث هزم سلطانها وحكم هذه المناطق لمدة سبع سنوات⁽⁵⁾ إمبراطورية عظيمة الشأن .

لعب رابح الزبير دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه المنطقة علي وجه العموم. وأثره لازال أهالي تلك المناطق يدركونه ويحتفظون له بالذكري الطيبة. بيد أن التكالب الاستعماري الاستغلالي الميطن بالحق الصليبي هو الذي دفع الدول الغربية ذات الثقل السياسي أن تتغلغل في هذه المناطق وتقضي على أية قوة صاعدة يشم منها رائحة الإسلام.

وكان يحكم في الجزء الشرقي والأوسط من وداي في هذه الفترة السلطان محمد يوسف والذي تعاطف مع ثورة الفور ضد الحركة المهدوية. وتدخل للإصلاح بين أبكر إسماعيل سلطان المساليت وأبي الخيرات ابن عم السلطان علي دينار، وسليل العائلة

⁽⁴⁾ A.B.theobald. Ali dinar the last saltan of dar fur first. Ed western printing service Bristol(1965). P.59-61.

⁽⁵⁾ المصدر السابق.

الفوراوية المالكة. لربما الذي قادة إلى اتخاذ هذا الموقف هو خوفه من امتداد نفوذ المهدية إلى دياره. عثر قائد المهدية عثمان آثم على أكثر من سبعين رسالة من البرقاوي (السلطان محمد يوسف) إلى أبكر إسماعيل حرضه فيها على القتال ومناه في بعض منها بالتأييد والمؤازرة⁽⁶⁾. هذه الإشارات تؤكد على التداخل العرقي والسياسي بين هذه المناطق، كما تلقي الضوء على الأحداث الجارية الآن في دارفور وأهمية دور تشاد حكومة وشعباً فيما يدور في الساحة الفوراوية. إذ لا ينبغي أن تعزل عن موائد المفاوضات الدائرة الآن أو في المستقبل إذ تملك تشاد بعض مفاتيح اللعبة في هذه المنطقة بعيداً عن المؤثرات الغربية ذات الأجندة الخفية.

بعد وفاة السلطان محمد يوسف سادت وداي انقسامات أسرية على العرش اتفق خلالها رجالات البلاط على اختيار ابنه الأصغر إبراهيم ليكون سلطاناً وهو ابن مملوكة. وبعد فترة شعر إبراهيم بأنه قد وقع تحت قبضة رجالات البلاط فأراد التخلص منهم إلا أنه خسر الجولة وظهر أمامه ثلاثة متنافسين هم أحمد الغزالي، وعسيل حفيد السلطان محمد الشريف، ومحمد صالح (دود مرة أي أسد مرة) ومرة هي قرية تقع على الطريق بين أبشي والفاشر⁽⁷⁾.

هنا يبدأ دور السلطان علي دينار إذ تدخل لاختيار أحمد الغزالي ومناصرته على منافسه سنة 1902م وأرسل خطاباً إلى الحاكم العام يعتذر فيه عن تأخير مكاتبته له بسبب انشغاله بأحداث وداي والنزاع الدائر بين أفراد الأسرة الحاكمة هناك. وكأنه أراد بذلك أن يوحى إليه بأنه قد أصبح له دور إقليمي في حسم النزاعات المحلية وفي الدول المجاورة. وأشار إلى أنه قد وجه أمره مع رسل وداي لتتصيب محمد الغزالي ويأمل تسوية الأمور بعد وصول رسله وداي⁽⁸⁾.

يتضح أن وداي كانت تشكل إحدى اهتمامات السلطان علي دينار. وكانت حدود سلطنة دارفور الغربية تشكل صداعاً دائماً لعلي دينار. حيث كان يرى أنها تقع ضمن

(6) موسى المبارك مصدر سبق ذكره ص 173-177.

(7) A.B.Theobald. op.cit pp. 60-61

(8) علي دينار إلى الحاكم العام في 1901/6/16 S.N.A INTELL 7/3/11

الباب الرابع-العلاقات بين الحركتين الوطنية الفوراوية والليبية السنوسية

حدود دارفور القديمة. وبالفعل نجح في إخضاع سلطنة المساليت التي اتخذت شكلاً ووضعاً خاصاً من حيث الإدارة خلال فترة الحكم المصري وأيام المهديّة⁽⁹⁾.

وفي أقصى الغرب نجح الفرنسيون في القضاء علي رابح الزبير⁽¹⁰⁾. ووفقاً للمتغيرات السياسية والتطلعات الاستعمارية في المنطقة إضافة إلى الخلافات الأسرية داخل وداي جعلت القوي الاستعمارية لا سيما فرنسا تطمع في وداي. فبعد اغتيال إبراهيم يوسف سنة 1900م أعلن أحمد الغزالي نفسه سلطاناً. ولكنه نوفس من قبل كل من عسيل ومحمد صالح (دود مرة) وتم قتله. ونسبة لأن أم محمد صالح (دود مرة) من غير الأسرة الحاكمة. فقد نافسه عسيل الذي إحتمي بالفرنسيين طالباً حمايتهم⁽¹¹⁾. هذه الإشارة تؤكد دوماً علي حقيقة تاريخية وهي أن الأجنبي لا يأتي إلا إذا وجد مساعدة من المواطنين وهذا ما حدث في تشاد في بداية القرن العشرين وفي السودان وفي مصر وفي العراق وفي دارفور. المدخل الاستعماري الإحتلالي لأي بلد هو عنصر محلي مجرد من الوطنية ويكون في المقام الأول قد عجز عن المواجهة وترسيخ أقدامه فيلجأ إلى الاستعانة بالأجنبي. ومن المعلوم أن الأجنبي لا يندفع بصورة مباشرة أو غير مباشرة أو يقدم علي دعم جهة ما إلا إذا كانت هذه الجهة تحقق له أهدافاً استراتيجية ومصالح يرمي إلي تحقيقها. فلا يعطي الإحتلال بيد إلا إذا ضمن الأخذ بيد أخرى، وكان أخذه أكثر من عطائه. وهذا عين ما حدث في السودان في بداية القرن الماضي وأفغانستان فردوس الإسلام المفقود في ظل غيبة وعي العالم الإسلامي في نهاية القرن الماضي، وفي العراق في بداية القرن الحادي والعشرين الحالي.

ولما كان الاستعمار يتحرك وفق إستراتيجية وأوليات وبالرغم من وجود مدخل جيد إلا أنهم لم يقدموا له شيئاً لاتشغالهم برابح. وفي سنة 1903م أهدق خطر آخر بالسلطان علي دينار. ذلك أنه بعد القضاء علي رابح سنة 1900م. وبعد مقتل رابح والقائد الفرنسي في معركة واحدة. أنشأ الفرنسيون مناطق عسكرية ونقاط حماية.

⁽⁹⁾ يونا زلييب رزق مصنر سبق ذكره: ص248.

⁽¹⁰⁾ سبتمبر سنة 1910م S.N.A NITELL.1/1/1

⁽¹¹⁾ سبتمبر سنة 1910م S.N.A NITELL.1/1/1

صحب ذلك تقدم نحو وداي. وبدأت مخاوف علي دينار من أن يلجأ سلطان وداي دود مرة نحو الشرق. إذ من الممكن أن يصبح منافساً خطيراً في دارفور. لذا اضطر علي دينار إلى إرسال قوة لمراقبة تحركات دود مرة قرب الحدود لمنعها من دخول دارفور⁽¹²⁾. وسيأتي تفصيل مؤداه أن لمحمد صالح دود مرة علاقة عرقية بالسلطان علي دينار الأمر الذي يمكن أن يهدد وجود علي دينار في دارفور. وقد حاول السلطان علي دينار في أوائل أيام حكمه أن ينشئ علاقات تجارية مع وداي دون علم الحكومة الثنائية. الأمر الذي جعل الحاكم العام يطلب منه إعلامه بما يجري بينه وبين وداي⁽¹³⁾.

ويبدو أن الحكومة الثنائية كانت في شك من أمرها في وجود مثل هذه العلاقة التي تريد أن تكون رقيباً عليها. إلا أن السلطان علي دينار كان يتصرف تصرف السلطان المستقل. ويرى أن له في وداي يدأً علياً من حيث اختيار السلاطين وتعيينهم كما مر.

ولكن بلجوء عسيل إلي الفرنسيين وجد ا ذريعة للتدخل فبدأت المناوشات تدور رحاها بين الفريقين دود مرة يساعده السنوسيون وعسيل يساعده الفرنسيون⁽¹⁴⁾. يستطيع المرء أن يستمد الخلفية السياسية لمشاكل اليوم من أحداث الأمس في هذه الرقعة. إذ لم يتغير على المسرح سوى الأشخاص والأسماء، والمسألة على كل كانت أكبر من النزاعات المحلية. لأن تفكير الدول الأوروبية لتوسعة أملاكها في المنطقة وخلق نفوذ سابقان لهذه النزاعات حيث أن كلاً من إنجلترا وفرنسا أبرمتا اتفاقية صدر بشأنها بيان في لندن بتاريخ 1899/3/21م - لتحديد مناطق النفوذ لكلا الدولتين العظميين. وورد تحديد الحدود بين دارفور ووداي بالفقرة الثانية من الاتفاقية⁽¹⁵⁾. وصدر ملحق لهذا البيان كان أكثر تحديداً لنقاط النزاع وكيفية تسويته في 1899/6/13م⁽¹⁶⁾.

(12) يونان ليبب مصدر سبق ذكره رزق ص 248 انظر أيضاً A.B. Tilleobald. Op.cit pp.61.

(13) الحاكم العام إلي السلطان في 1900/1/4م.

(14) تقرير سلاطين سبتمبر سنة 1910م S.N.A INTELL. 1/1/1.

(15) تقرير أعده سلاطين بشأن النزاع القوراوي الفرنسي علي الحدود في 1911/11/10م.

(16) تقرير أعده سلاطين بشأن النزاع القوراوي الفرنسي علي الحدود في 1911/11/10م.

ووقع الاتفاقية وملحقها كل من وزيرى خارجيتي الدولتين ولم تكن دار تاما ومساليت من المناطق المتنازع عليها أصلاً⁽¹⁷⁾ . وقامت هذه الاتفاقيات الأوربية على اعتبار أن إفريقيا منطقة خلو من السكان الذين يحق لهم السيادة. وهي ذات الفكرة العالمية التي تحكم دهاليز المنظمات الدولية الموجودة اليوم. فالأمر كله بيد خمسة دول وقد آل الأمر بعد اختلال التوازن في القوة بعد سقوط الإتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين، آل الأمر إلى دولة واحدة هي التي أصبحت تقرر مصائر العالم وفق رؤيتها ومصالحها، وتتحكم في استصدار القرارات التي يزعم أنها أممية وفق مزاجها وهواها. فهي التي تجرم من تجرم وتبرئ ساحة من تبرئ، دون وجود وحدة معيارية من الناحية الأخلاقية أو القانونية أو الروحية.

وقد كتب سلاطين تقريره المشار إليه ينتقد فيه حكومة فرنسا لعدم تبليغها الحكومة الإنكليزية بالخطوات التي تنوي القيام بها بناء على الاتفاقية المبرمة بين الدولتين. ويتضح للمتأمل قصر النظرة الاستعلائية الغربية التي تجرد أصحاب الدعوى الحقيقية من أبسط حقوقهم في حق تقرير مصيرهم، مما يعني أن الرجل الأبيض كان ولا يزال لا يحترم حقوق الآخرين. وأن كل دعاويه فيما يتصل بحقوق الإنسان والمساواة والديمقراطية هي شعارات غير مستهدف بها جنس آخر من البشر سوي الأوروبيين أو الرجل الأبيض. أما من عداهم من بني الإنسان فهم غير معنيون بهذه الأطروحات. وهذه النظرة هي إرث يهودي بغيض ولكن من زاوية أخرى. حيث يرى اليهود أن من عداهم لا يعدو عن كونهم قطيعاً من الماشية ليست لهم حقوق، وقد دمغت هذه النظرة الانتقائية الاستعلائية الرجل الأبيض في قاراته الثلاث بهذه العنصرية البغيضة مضافاً إليها الاستغلال الإقتصادي والتنافس غير الشريف من أجل الكسب الرخيص، بأي صورة وعبر أي وسيلة، ولو كان عن طريق بيع الإنسان لأخيه الإنسان أو قتله أو سجنه. وبالتالي تتكشف ضحالة رؤية من يجري الآن ويلهث من الدارفوريين وراء الفرج الأوروبي أو الأمريكي الذي لا يعدو عن كونه محاولة جديدة لاستغلال ولاستعمار جديد بوسائل جديدة وبرؤي علمية جديدة !!. والآن القوى الأجنبية هي سبب كثير من الخروقات الإنسانية والأخلاقية في البلاد سواء على مستوى الإتحاد

(17) يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ص 249 أيضاً S.N.A INTELL 1/1/2

الأفريقي أو الإتحاد الأوروبي أو القوات التابعة لما يسمى بالأمم المتحدة. حيث نلاحظ أن القوات التابعة للإتحاد الأفريقي جاء بعضها يحمل داء الإيدز بصورة كثيفة للبلد، وليس لهم من شاغل علي حسب إفاة شهود عيان قادمون من دارفور سوى شرب الخمر ومخادنة النساء. والقتل والنهب على أشده في البلاد، فإذا ما قتل فرد من الأجناس العربية يتم التغاضي عن ذلك الأمر، كما يحدث لأحد أفراد بني هلبة في شهر أكتوبر 2005م. فلم تتحرك حينها القوى الدولية أو المحلية أو الإقليمية. الأمر الذي حز في نفس القبيلة فجهزت ألف فارس بألف جواد وأحاطوا بنيالا مما اضطر السوالي الحالي المهندس الحاج عطا المنان للتحرك كما جاء في المثل: (مجير أخاك ولا بطل) فلقد تحرك بصورة ملحوظة لإدراك وتحصيل بعض ما اندلق من ماء وجهه ووجه حكومته لتهدئة الأحوال من باب نحن هنا لا أكثر ولا أقل. والتزم شفاهة بالكشف عن الجناة وهو مقيد في حركته وإجراءاته لتوفير الأمن ومعاقبة الجناة بهذا الوجود الأجنبي المفروض علي البلاد فرضاً.

ولا يستبعد أن تكون الخلافات المحلية والانشقاقات بالإضافة إلى المطامع الذاتية لكل منافس قد وجدت دعماً من هذه القوى الأجنبية التي كانت تتطلع إلى الاستيلاء على هذه الرقعة وسلبها خيراتها. وتغريب هذه الشعوب وإبطال مفعول البواعث التي تقتضي وحدتها وتحديد هويتها الإسلامية. فقد كانت الحركة الاستعمارية مدعومة ومصحوبة بحركة تبشيرية ذات كفاءات ومستويات عالية. متدثرة بأحقاد صليبية قديمة ذات بعد إقتصادي مادي بحت، لا تعرف حقوقاً مشروعة أو حق العيش بأمان وسلام لهذه الشعوب في ديارها. لا سيما وقد سقطت ورقة التوت خلال القرن الماضي وهذا القرن الحادي والعشرين عن سوءة الدعاوى الغربية الفارغة. وبدأت تظهر بشاعة عدم مصداقية هذه الأطروحات الكاذبة لكل ذي بصيرة نافذة، وأمن لديه أدني معرفة بمفردات التاريخ الحديث والمعاصر.

والاتفاقية المشتركة بين الدولتين تشير إلي الغربة عن هذه الديار وعدم معرفتها بها معرفة وثيقة. حيث اكتنف الغموض خط الحدود بين كل من دارفور ووداي. فقد ورد في الاتفاقية أن خط الحدود في المنطقة الواقعة بين خطي طول 21، 23 شرقاً

سوف يعين بصورة يفصل بها مملكة وداي عما يكون عام 1882م. مديرية دارفور (18).

على وجه العموم أن ضعف القيادات المحلية وعدم اختيارها الوقت المناسب لنشر غسل خلافاتها - وفي محاولتها لتحقيق أطماعها الذاتية - استعانت بالقوة الأجنبية فشكل ذلك دافعاً قوياً شجع الاستعمار للتغلغل في هذه المنطقة. وتمكن من أن يقاتل كل جبهة على حدة بعد ضرب المتحاربين ببعضهم البعض الآخر. وليت الأمة التشادية اليوم تكون على وعي مما يحاك بها الآن ويدور على مسرح أحداثها من أحداث الأمم وخلفيتها السياسية وكذلك سكان دارفور وقادتها وزعمائها الآن هم بحاجة لقراءة هذه المفردات بوعي وبتأمل دقيق وبعين ثاقبة وبفكر متأن.

وقام الاستعمار بعدئذ بتصفية كل جيب على انفراد. فإن عدم وجود الوحدة لأبناء الوطن الواحد أو الأوطان المتجاورة هو الذي شجع الاستعمار الإحتلالي لدخول هذه البلاد. فيما بين سنة 1902م لجأ الفرنسيون إلى تثبيت أقدامهم بعد قتال مرير مع كل من رابح والسنوسية. وفي سنة 1903م اتهم عسيل بالميل إلى السنوسية وتم اعتقاله مما اقتضى تفرق أتباعه. وقد بدأت المناوشات المتقطعة بين كل من الفرنسيين والوداويين بقيادة محمد صالح دود مرة خلال سنة 1904م، 1905م.

وبدافع من تأمين المناطق الخلفية والحصول على مواطني أقدام جديدة قرر الفرنسيون التحرك نحو الأمام مع تعزيز المناطق التي يستولون عليها بنقاط حراسة دائمة. في هذا الأثناء أعلن دود مرة الجهاد. فتقدم جيشه بيد أنه هزم بقيادة محمد بشارة في 16 يونيو سنة 1908م. وصارت القوات الفرنسية على مرمي حجر من أبشي العاصمة. وأثرت هذه الهزيمة على سمعة السلطان دود مرة وهرب عدد من أتباعه شرقاً وغرباً حتى إن بعضاً منهم لحق بمنافسه الذي تم إطلاق سراحه لاستخدامه عند اللزوم من قبل القوات الغازية. وفي نهاية مايو سنة 1909م تقدمت فرقة فرنسية صغيرة تمكنت من الاستيلاء على أبشي العاصمة الوداوية، وتفرق أتباع دود مرة شذر

مذر. وهرب هو تلقاء الشرق⁽¹⁹⁾. إن حدوث اشتباكات دامية وغزو أجنبي لبلد آمن يقتضي حدوث حركة هجرة واسعة نحو المناطق الآمنة والبلاد المجاورة. ولعل هذه واحدة من المشاكل التي خلفها الاستعمار الغربي لتظل قنابل موقوتة، يجد بسببها مجالاً لحشر أنفه متى شاء في تقرير مصائر هذه المنطقة أو تلك.

لذا كان السلطان علي دينار على الجبهة الفوراوية يرقب التقدم الفرنسي بعين الحذر والريبة. وقد تزايدت مخاوفه بعد وصول القوات الفرنسية قرب العاصمة أبشي . وهجرة أعداد كبيرة إلى دارفور. وقد حصل علي معلومات في غاية الدقة عما يجري علي الجبهة الوداوية الفرنسية. وقد أفاد الحكومة الثنائية بذلك في سنة 1906م⁽²⁰⁾. مما يدل على متابعته للأحداث واهتمامه الزائد بوداي. وشعوره بأن ذلك سيؤثر علي سياساته الخارجية وعلاقاته التجارية بوداي وعلى أمنه الإجتماعي والسياسي. لأنه من المعلوم في مثل هذه الظروف يحدث انفلات أمني وانفراط لعقد الأمن الإجتماعي والأخلاقي. إذ يحدث استغلال بشع لحاجة هؤلاء الفارين وأولئك الفارات بصورة تتافي المعايير الأخلاقية والإنسانية من ذوي النفوس الضعيفة. وهذا عين ما حدث في العراق وقبلاً في أفغانستان في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي من تجارة بلحوم البشر الناعمة من أجل الحصول على دريهمات معدودة حيث أضحت الماجدات العراقيات وقبلهن الماجدات الأفغانيات يبعن ويشترين بأبخس الأثمان في سوق النخاسة الدولية نتيجة الغزو الأمريكي وحلفاء أمريكا من شذاذ الآفاق، هذا الغزو الآثم لهاتين الدولتين المسلمتين دون وجه حق وبدعاوى كاذبة لا يبيندها منطق، والمسلمون في حالة وهن وضعف يتفرجون مغلوبون علي أمرهم تحت مظلة أنظمة جبانة رعديدة لا تملك الشجاعة لتقول ل: (ماما) أمريكا لا، ناهيك عن أن تشهر في وجهها سلاحاً أو أن ترفع صوتاً.

وقد تأكد أن لهذه المخاوف ما يبررها من الواقع. حيث جاء في أحد تقارير المخابرات⁽²¹⁾ أنه نتيجة للحرب الفرنسية الوداوية فإن التجارة بين دارفور ووداي قد

(19) A.B. Theobald. op. cit. pp.62-63

(20) السلطان إلي سلاطين 1906/3/26-2/25 محرم سنة 1324 هـ .S.N.A. INTELL 7/1/8

(21) S.I.R. 140/4 march 1903

تأثرت تأثراً ملحوظاً. حيث أصبح السن الذي كان يجد طريقة فيما مضى إلى وداي يصدر في الوقت الراهن إلى أم درمان.

بذا قد شكل الوجود الفرنسي خطراً أولي أثاره بذت واضحة على تجارة السلطان الخارجية، والتي أراد لها تعدد المصادر والموارد. هذا هو شأن الجبهة الوداوية. أما أبعاد العلاقات الفوراوية الوداوية تقتضي تفصيلاً يعد هذا العرض الموجز.

يبدو أن السلطان علي دينار فكر في توسعة رقعة مملكته غرباً حينما رأى خطراً أجنبياً أراد نهب البلاد وأهلها متناحرون. فقام بهجوم على قبائل المحاميد التي تقطن وداي وقبض من أبلهم الكثير. فقتل منهم خلقاً كثيراً وقبض على جزء آخر منهم. وكأنه أراد بذلك أخذ حظه من غنائم وداي حماية لمصالحه الحيوية وتأميناً لجبهته الغربية.

وفي المقابل قام السلطان في وداي باتخاذ إجراءات صارمة منتههاها القتل لكل من يقوم بزيارة الفاشر كردة فعل لحملة علي دينار ضد المحاميد⁽²²⁾.

يعكس ذلك أن السلطان الوداوي الحالي لم يكن على وفاق مع سلطان الفور لأنه جاء بعد خلع السلطان احمد الغزالي الذي رشحه علي دينار سنة 1902م. وأضحت قبيلة المحاميد تشكل الدرع الواقى للسلطان الجديد.

وتعرضت دارفور أيضاً لغارة من قبل محمد السنوسي أكد ذلك السلطان بقوله: (ومع ذلك تصادف بأن جماعة الشريف السنوسي غاروا بأطراف ديارنا بدار الريح وعينا لهم من لزم لرفعهم)⁽²³⁾.

وتحت ضغط التقدم الفرنسي أراد محمد صالح دود مرة أن يعدد مصادر دخل بلاده، وأن يوسع رقعتها من ناحية أخرى فقام بجمع الضرائب من المساليات سنة 1905م. وأقدم الآخرون على قتل الجباة الوداويون فاستدعي ذلك تحرير حملة وداوية عليهم. فنجح السلطان علي دينار في القضاء على هذه الحملة بواسطة قائده محمود

(22) السلطان إلى سلاطين في 12 ربيع الآخر سنة 1332هـ (1904م) S.N.A INTELL

(23) G.B.Lampen History of darfur, S.N.R, Vol 31 Khartoum (1950) part 2.P. 198.

الداد ينقاوي. واخضع المساليت لسلطانه تماماً. بعدئذ انشغل دود مرة بأمر الفرنسيين. وشجع علي دينار بخيت أبو ريشه بدار المساليت لرفض دفع الجزية التي فرضها عليه الفرنسيون⁽²⁴⁾.

في مستهل سنة 1906م جاءت شكوى من السلطان علي دينار تفيد قدوم بعض الأعراب الذين يدعون (المغاربة من الغرب نتيجة للحملات الفرنسية عليهم، وتخریب ديارهم فأخترقوا حدود دارفور)⁽²⁵⁾. لربما كان يعني بذلك المحاميد، لأنه من المعلوم تاريخياً وعرقياً أن المحاميد هم من القبائل المشتركة بين كل من السودان في (دارفور) ووداي (تشاد) وليبيا.

وبنهاية سنة 1907م نصب الفرنسيون عميلهم عسيل بعد إطلاق سراحه ليكون سلطاناً على وداي. وكانت أقصى نقاط الفرنسيين في أتيا (125) ميلاً شرقاً، وعلي بعد (100) ميلاً من أبشي العاصمة، واستدعوا دود مرة لعقد إتفاق معه إلا أنه أجاب بشن غارة يرد بها الفرنسيون تقدمهم فيما بعد.

وبالرغم من عدااء السلطان علي دينار لدود مرة إلا أنه كان مهتماً بأخبار وداي والفرنسيين إهتماماً بالغاً. جاء ذلك في خطاب بعث به إلي الحكومة الثنائية ورد فيه: (وأما أحوال البرقو ما زالوا للآن متقابلين مع فرنسا ولهم مدة طويلة في محلهم وفرنسا في محلهم، ولم ينتجوا نتيجة)⁽²⁶⁾.

في هذا الأثناء دارت معارك بين كل من الفور والوداويين مما يدل على قصر وجهة النظر الوداوية. حيث كان يتوجب في مثل هذه الظروف الحرجة من تاريخ المنطقة توحيد الجهود والاتحاد مع القوى المجاورة بدلاً من مصارعتها وتشيت جهودها وإتاحة الفرصة أمام المحتل المستعمر الذي تتبنى سياسته على فرق تسد.

يبدو أن هذا الاعتداء كان قد حدث من قبل وداي دون وجه حق حيث هدأ المفتش كعادته من ثائرة السلطان بقوله: (أن ما علمته من المحاربة التي حصلت بينكم وبين

(24) السلطان إلي سلاطين فبراير سنة 1906م (محرم 1324هـ) S.N.A INTELL 7/1/8

(25) السلطان إلي سلاطين فبراير سنة 1908 (18 ذو القعدة سنة 1326هـ) S.N.A INTELL 7/1/9

(26) سلاطين إلي السلطان في مارس/ أبريل سنة 1908م S.N.A INTELL 7/1/8

الباب الرابع-العلاقات بين الحركتين الوطنية الفوراوية والليبية السنوسية

دار برجو قد كدرني كثير مع علمي أن الذنب عليهم والغلط حصل منهم. ولكنني اعتقد أن خير وسيلة هو أن تسعى لعقد الصلح مع دار برجو ... لاسيما أنني علمت أن السلطان محمد صالح (دود مرة) ينتسب إليك من جهة والدتك⁽²⁷⁾.

تلقي هذه الإشارة الضوء على الرابطة العرقية بين السلطانيين. كما أنها تزهّد السلطان في تجاوز حدوده وكفكفة أطماعه التوسعية والتي قد تتعارض مع الاتفاقية الإنكليزية الفرنسية. ولقد قام الوداويون بهذا العدوان في الوقت الذي كان السلطان علي دينار يسعى فيه لتوحيد الجبهة الفوراوية الوداوية والإقليمية ضد الغزاة الفرنسيين. حيث سبق له أن أرسل في بداية العام الحالي وفداً إلى طرابلس بغية توسيط السنوسي في الحرب الدائرة بين سلطان وداي ودارفور. وطالب بتوحيد جهودهما ضد المسيحيين الإنكليز والفرنسيين⁽²⁸⁾. هذه المحاولة ترينا بعد نظر السلطان علي دينار وإدراكه لمجريات الأحداث في المنطقة. ومحاولته الجادة للتخلص من ربة النفوذ الأجنبي في بلاده والأقطار المجاورة.

بيد أن هذه المساعي لم تؤت ثمارها حيث تم إغلاق الطريق التجاري بين كل من وداي ودارفور تماماً نسبة لسوء العلاقة الفوراوية الوداوية⁽²⁹⁾.

ما بين مارس ويونيو سنة 1908م تمكن الفرنسيون من هزيمة جيش السلطان دود مرة حيث تم القضاء عليه في 16 يونيو سنة 1908م حينما أراد الاستيلاء على أتيا كما تقدم. ومن حيث المبدأ نصب الفرنسيون عسيل على المناطق الوداوية باعتباره أداة طيعة وعميلاً في يد الغزاة الذين خبروه خلال السنوات التي قضاها معهم⁽³⁰⁾.

ومنذ أن وطئت أقدام الفرنسيين وداي بدأت شكوك السلطان علي دينار تزداد في نوايا الفرنسيين تجاه حدوده⁽³¹⁾. ويبدو أن سوء المواصلات والاتصالات قد حالت دون تكوين حلف قوى وفاعل مع القوى المحلية ضد الوجود الأجنبي في البلاد بشقيه الإنكليزي والفرنسي.

(27) S.I.K 165/7/feb . 1908

(28) S.I.R 179/4 Junc 1908

(29) G.D.LAMPEN .op. cit pp. 199/.See also.A.B. Theobald. Op. cit-63

(30) S.I.R 189/7 April 1909

(31) A.B.Theobald. op. cit. pp. 63.

وفي مايو سنة 1909م تم الاستيلاء على أبشي العاصمة الوداوية بعد معركتين حاميتين بين الفرنسيين ودود مرة⁽³²⁾. بعدها اتجه مرة أخرى دود مرة بلقاء دار مساليت⁽³³⁾. ومنذ الوهلة الأولى لم يكن موقف الفرنسيين بعد احتلالهم لوداي واضحاً تجاه حدود دارفور. ووجدوا مبرراً بدخول دود مرة إلى دار مساليت حيث أدعوا ملكية وأيلولة دار تاما ودار مساليت لوداي الأمر الذي أدى إلى حدة بين الطرفين أي السلطان علي دينار والفرنسيين⁽³⁴⁾. من طرف آخر.

بعد احتلال الفرنسيين لأبشي أصبحوا محاطين بأعدائهم من كل الجهات في شبه دائرة. من الشمال السنوسية في أندي. وهناك السلطنات شبه المستقلة في الشرق قمر وتاما ومساليت وسيلا. ودارفور هي أقوى هذه السلطنات شرقاً. وفي الجنوب محمد السنوسي ومعه ما بين (3000) إلى (4000) جندي مسلح. هذا بالإضافة إلى السلطان المخلوع دود مرة والذي تجمع حوله عدد من المواطنين دفاعاً عن أراضيهم. لقد كان لدي فرنسا ما بين خمسمائة إلى ألف جندي سنغالي. ولكن بالرغم من ذلك فقد تمكن الفرنسيون من احتلال كل المنطقة التي تشملها وداي. بعدئذ أصدر الفرنسيون أمراً بتسليم كل الأسلحة التي لدى المواطنين في يوليو سنة 1909م. وبعد شهرين فقط من احتلال العاصمة أبشي تحصل الفرنسيون على 3500 بندقية. مما يعني عدم وجود خطة حربية رصينة ووجود قيادة عسكرية نافذة ذات نظرة استراتيجية وخطة عسكرية محكمة. إذ لو توفر قدر من التخطيط والتعاون بين القوى المحلية الموجودة لما تمكن الفرنسيون من البقاء والاستمرار إطلاقاً في هذه المنطقة ولحدث تهديد للوجود الإنجليزي في الشرق بيد أن ضيق النظر وقصره حال دون ذلك.

وفي الوقت ذاته تحركت فرقة صغيرة من الجيش الفرنسي شمالاً وشرقاً وجنوباً. وفي أكتوبر سنة 1909 طالب الفرنسيون بدار تاما وسيلا وقمر والتي كانت ضمن الحدود المتنازع عليها بين وداي ودارفور⁽³⁵⁾ بعد أن علم السلطان علي دينار بالأمر

(32) G.D. Lampen. Op. cit. pp 193

(33) . G.D. Lampen. Op. cit. pp 193

(34) A.B. Theobald. Op. cit . pp. 81-82

(35) السلطان إلي المفتش في يوليو سنة 1909م (21 جمادي الأولى سنة 1327هـ) S.N.A INTELL 7/1/9

بعث بخطاب إلى السلطان محمد صالح دود مرة بغية إيوائه وتوفير المناخ الملائم له في الفاشر واعلم الحكومة الثنائية بهذه الخطوة (36).

ونتيجة لهذا الادعاء والتدخل الفرنسي في أرض يعتبرها السلطان ضمن حدوده احتج احتجاجاً شديداً للجهة لدى الحكومة الثنائية. وأوضح موقفه تجاه هذا الاعتداء بقوله: (إن جميع حدود دارفور التي ملكوها آبائي وأجدادي ما دمت حيا في الدنيا لا نتركها لدولة فرنسا إلا أن نكون ميتا ولا نبالي في مدافعتهم ما دام أنهم جاوزوا الحدود وتعدوا علينا نحاربهم إن شاء الله ولو أننا نكملوا عن آخرنا (37). وفي هذا الخطاب أول تهديد ضمنى للحكومة الثنائية من باب إياك أعني واسمعي يا جارة .

ومن زاوية أخرى يعتبر هذا أول احتجاج رسمي يصدر عن السلطان بشأن انتهاك حرمة حدوده الغربية. ويؤكد على إستراتيجية مؤداها أنه يعتقد أن دارفور هي ملك له ورثها عن آبائه وأجداده وإن وجوده على رأس الأمر في دارفور هو حق تاريخي وإرث طبيعي. إذا استحيل أن يتنازل عن شبر واحد من دارفور لأي سبب من الأسباب ومهما كانت الظروف، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه على استعداد تام للدفاع عن كل شبر من دارفور حتى آخر رفق من حياته دون هوادة.

لربما هذا الاعتداء هو الذي جعل السلطان يعرض عن أي تعاون بينه وبين السلطان الوداوي الجديد الذي نصبه الفرنسيون. فلم يستحب علي دينار للنداء بفتح الطريق بين الفاشر وأبشي من قبل الحكم الثنائي. بل قام برد فعل معاكس وهو التعاون مع السلطان المخلوع والتلويح له بإعطائه الأمان إن قدم الفاشر (38). مما يعني تعارض المصالح بين الفريقين الثنائي والفوراري

كان السلطان علي دينار يأمل في عون الحكومة الثنائية لإيقاف المد الفرنسي داخل حدوده. حيث كتب خطاباً في 27 أكتوبر سنة 1909م يفيد بأن الفرنسيين قد احتلوا دار تاما. ويعد ذلك انتهاكاً واضحاً لحدود دارفور (39). ولعل مما خفى عليه أن العلاقات بين الدولتين تحكمها معاهدات ومواثيق ومصالح مشتركة.

(36) السلطان إلى سلاطين (1327هـ) (1909م) S.N.A INTELL 7/1/11

(37) S.I.R 182/4- 5. Sep . 1909.

(38) A.B.theolbald . op. cit. pp. 92.

(39) السلطان إلى المفتش في نوفمبر سنة 1909م (13 اشوال سنة 1327هـ).

ولم يقف السلطان عند حد الأمل المعقود، وإنما أراد إلزام الحكومة الثنائية الحجة بأن حدود دارفور معروفة لدى سلاطين. وقد ورد ذلك في قوله: (إن حدود دارفور معلومة عندكم من حالتها الابتدائية ولغاية ما صارت بيد الحكومة المصرية ولا يخفى عليكم من حدودها شيء وإذا نحن في تلك المداولات ندافع عنها إلي أن عودها الله في حيازتنا بحماية الحكومة العلية. والآن الفرنسية جاوزوا الحدود ودخلوا بدار تاما حازوها الآن مقيمين فيها وأنها من أصل حدودنا وإصدار الأوامر لأن تكف يدها عن بلادنا بحسب القوانين الجاري بها العمل بين الدول وأن لم يكن بين الحكومة ودولة فرنسا قانون يردها ... أفيدونا نتوكلوا على الله وندافع عن أنفسنا⁽⁴⁰⁾).

وفي 1909/12/21م جاءه تأكيد من قبل نائب المخابرات يطمئنه بأن لا يخشى شيئاً ما دام مخلصاً للحكومة الإنكليزية المصرية وهذا نصه .

(with regards to the aggression of the French Government on your frontier, you need never be afraid of this as you are loyal to the Anglo Egyptian Government).

وبالنظر إلى عدوان الحكومة الفرنسية على حدودكم فينبغي ألا تتخوف منها أبداً مادمت مخلصاً للحكومة الإنكليزية المصرية⁽⁴¹⁾. يمكن القول بأن الحكومة الثنائية قد بدأت في استصدار المهندات وفقاً لظروف السلطان. والتلويح له بقدرتها على كبح جماح الفرنسيين وربطها ذلك العمل بمدى إخلاصه لها كان أمراً مقصوداً في حد ذاته. لإشعاره بأن مناصرته ضد الفرنسيين مرهونة بإخلاصه للحكومة حتى تحافظ عليه ولو أسمياً. وهي بهذا تريد أن تؤكد على أن دارفور تابعة لها وتريد أن تجد لها حجة قانونية أمام الدول الأوروبية عن طريقها يتم إقناع المؤتمر بتبعية السلطان لها بصورة أو أخرى.

أما على الصعيد الفرنسي فقد قامت حملة استطلاع فرنسية في 1910/1/6م دخلت حدود دار مساليت. بيد أنها واجهت نهاية مرة حيث قتل قائد الفرقة في بئر

(40) نائب مدير المخابرات إلى السلطان S.N.a INTELL 7/1/1188

(41) S.N.A INTELL 1/1/2 Major . II. H wade . the Conquest of wadai (1910-1912) the united

Service magazine p-641-645

الطويل. وأصبح وضع أبشي مهدداً للفراغ الذي خلفه القائد الفرنسي. وسرعان ما تم اختيار قائد جديد هو مول (Moll) بدلا من سالفه Fiegenchuh⁽⁴²⁾ وفي تقديري لسو أحسن القادة المحليون التوقيت لأحدثوا خللاً في الوجود الفرنسي في المنطقة.

في هذا الأثناء قام السلطان علي دينار بالاتفاق مع دود مرة وتاج الدين سلطان دار مساليت بغزو دار قمر في يناير سنة 1910م. وتم طرد السلطان العميل إدريس منها⁽⁴³⁾. الأمر الذي يؤكد على أن أي قدر من التعاون لو توفر في تلك الفترة لأحدث نتائج مرضية. يمكن أن تتمثل في خلق ثغر لا يمكن رتقه من قبل الوجود الإنجليزي والفرنسي على حد سواء .

وفي فبراير سنة 1910م غزا المساليت دار تاما وهرب سلطانها حسين الذي عينه الفرنسيون. بيد أن الفرنسيين سرعان ما استردوا دار تاما⁽⁴⁴⁾. وأستطاع أحد القادة من جيش السلطان - آدم رجال - استعادة السلطنة متوغلا في وداي. وأصبح الفرنسيون علي الحدود الغربية في دارفور في وضع لا يحسدون عليه⁽⁴⁵⁾.

رغماً عن هذه الاعتداءات فإن تأكيدات الحكومة الثنائية لعللي دينار جاءت بما يلي: (لقد سبق إخطاركم بأن الفرنسيين لا يجرؤون علي اختراق حدودكم وإذا ما حاولت أي قبيلة من وداي فعل ذلك فعليكم صدهم سلمياً أو حرباً وإذا طلبت منكم الحكومة الفرنسية عمل شيء أو مكاتبات فعليكم أن تلفتوا نظرهم أن ذلك يتم عن طريق الحاكم العام في الخرطوم ... وأنا لا نسمح وسوف نقف في وجه أية قوة أجنبية تتصدى لك)⁽⁴⁶⁾. فيما يبدو أن الحكومة الثنائية كانت عاجزة تماماً عن فعل شيء في مثل هذه الظروف. وكان كل همها ينصب علي أن تحصل علي دليل يدعم حجتها أمام الدول الأوروبية بتبعية دارفور لها إذ لا يهمها في حقيقة الأمر استمرارية السلطان

(42) G.D. Lampen. Op ,cit .pp 84

(43) A.B.Theoblad op. cit. pp. 84.

(44) A.B.Thesbald. op. cit. pp 84

(45) سلاطين إلي السلطان في 1910/1/19م S.N.A. INTELL. 7/3/11

(46) مساعد المدير المخابرات إلي مدير المخابرات بالقاهرة في 1910/1/19م

أو عدمها بقدر ما كانت تهتم بإثبات تبعية دار فور والحصول على برهان وإقرار من السلطان بهذا الأمر .

تقول الحكومة الثنائية ذلك في الوقت الذي كان (مول) يستعد فيه للانتقام لسالفه. ومع قوة لهجة الخطاب، وصدي كلماته الحاد، ألا أنه قد احتوى على قدر من عدم الوضوح ففي الوقت الذي تعلن الحكومة فيه مسئوليتها التامة عن كل ما يجري على الحدود الغربية. إلا أنها تشجعه لصد غارات القبائل الوداوية. ومعلوم أن هذه القبائل تخضع للإدارة الفرنسية وأن اتخاذ أية إجراءات تأديبية وردعية ضدها يعني تدخلا فرنسيا في شؤون بلاده وكان هو على وعي تام بهذا الأمر.

وتؤكد هذه الوثيقة أن القوى الأوروبية في المنطقة لا يأمن بعضها بعضاً. لا سيما وأن الدولتين المعنيتين هما دولتان استعماريّتان متنافستان اقتضت المصالح وتضاربها اتفاقهما كما حدث في أفغانستان والعراق والسودان.

قام السلطان علي دينار بأعلام الحكومة الثنائية بما يجري على الحدود الغربية واختراق الفرنسيين لحدوده. وأفصح عن عزمه على التوجه لحسم الأمر رغما عن تهديده سلاطين له وتذكيره إياه بأن الحكومة الثنائية ستتولى حل المشكلة بنفسها⁽⁴⁷⁾. الأمر الذي يدل على عدم رؤيا واضحة في السياسة الخارجية للحكومة الثنائية. ففي الخطاب الأول ذاته نلاحظ أنها فوضته في مواجهة القبائل للوجود الفرنسي. وفي الخطاب الثاني تحاول كبح جماحه وتعهده بأنها ستتولى الأمر بنفسها.

بدأت تراود الشكوك السلطان حول صدق وعود الحكومة الثنائية في ردع القسوي الفرنسية المعتدية. لذا قام بحسم الأمر فتمكنت قواته من أن تهزم الفرنسيين في معركة حاسمة في دار مساليت. ولعل ذلك كان أول مارثون أو اختبار حقيقي لقدرات قواته القتالية مع قوى أوروبية. ونقل الخبر إلي مسامع الحكومة الثنائية في 1910/2/3م⁽⁴⁸⁾ بيد أن الشكوك كانت قوية حول صحة الخبر لدي الحكومة الثنائية⁽⁴⁹⁾.

(47) السلطان إلي مفتش غرب كردفان 1910/2/3م محرم سنة 1328هـ

(48) حاكم الأبيض إلي نائب مدير المخابرات في 1910/2/5م (24محرم سنة 1328هـ) S.N.A. INTELL 7/5/11

(49) حاكم الأبيض إلي نائب مدير المخابرات في 1910/2/5م (24محرم سنة 1328هـ) S.N.A. INTELL

إن هزيمة الفرنسيين في ذلك الوقت ذات مغزي ومدلول هام لا بد وأن ينال جل التفكير في الدوائر الثنائية علي وجه الخصوص. فهزيمة الوطنيين لقوة أوربية يمكن أن يعني إجراء ذات القاعدة على الحكومة الثنائية. لا سيما وأن الحكومة الإنجليزية لها تجربتها المريرة في السودان من قبل في العهد المهدوي والتي لا يمكن أن تتغافل عنها في الطرح أو التعاطي مع الأحداث المحلية وتحليلها وفق منظور استراتيجي في إطار مفردات تاريخية معاصرة. حيث أنها منيت بالهزيمة على أيد سودانية من قبل.

وكانت الحكومة الثنائية حتى هذه اللحظة تسعى بكل ما لديها من قوة منطق وحجج بأن لا يتسرع السلطان باتخاذ خطوة عملية لكي تتمكن من إرسال مجموعة لرسم خريطة للحدود بين كل من وداي ودارفور⁽⁵⁰⁾.

هذه الوعود شكلت سراباً في نظر السلطان حيث لم يعد يثق في جدية الحكومة الثنائية لإيجاد تسوية عادلة وحماية لحدوده.

في مارس سنة 1910م قام المساليت والفور بغزوة تغلغت حتى بئر الطويل⁽⁵¹⁾. الأمر الذي يدل علي فقدان الثقة في خطوات الحكومة وعدم الانصياع لأوامرها. وبهذه الخطوات أراد السلطان أن يلقي في روع الحكومة الثنائية بأنه قادر على تقرير مصير بلاده بنفسه كما عمد إلى أن يبرهن علي قدرته على الردع لكل معتد على بلاده.

وكانت الحكومة الفرنسية غير جادة في وعودها. مما توضحه تأكيداتها للحكومة البريطانية بأنها سوف لا تعتدي أو تخترق حدود السلطان علي دينار. وأنها سوف ترسل تعليماتها بذلك إلى قواتها المرابطة هناك، كما أشار إلى ذلك وزير الخارجية البريطانية بقوله: (لقد وعدت الحكومة الفرنسية بإرسال تعليماتها فوراً تلغرافياً لتفادي أي اشتباك مع علي دينار أو اختراق لحدوده. وأكدت لنا بأن هذه التعليمات ستصل مندوبها فوراً⁽⁵²⁾).

(50) G.D. Lampen.op .Cit. pp. 199 7/5/11

(51) جراي إلي غورست في 1910/3/19م S.N.'A INTELL.7/2/12

(52) سلاطين إلي السلطان في 1910/3/26م S.N.A. INTELL. 7/3/11

وبناء على هذا أبرق سلاطين السلطان بقوله: (أن حكومة دولة فرنسا قد أصدرت الأوامر المشددة لجيشها الموجود في وداي بأن لا يتعرضوا بوجه من الوجوه على حدود دارفور طالما أنها تابعة لحكومة السودان!! ولهذا السبب فأنا نطلب منكم أن تعطوا الأوامر الشديدة لجنودكم بأن لا يتجاوزوا مطلقاً حدود وداي أو يتعدوا عليها⁽⁵³⁾).

بيد أن الفرنسيين وبالرغم من هذه التأكيدات الواردة منهم لم يتنازلوا عن الانتقام من المساليت والفور حيث قام في السابع من أبريل سنة 1910م القائد الفرنسي القسيس جوليان بمطاردة الفور⁽⁵⁴⁾. وهذه طبيعة غريبة قديمة حديثة لأن المتبع للسياسة الغربية عموماً يلاحظ إضطرادها في هذا المجال سواء كانت إنجليزية أم فرنسية أم أمريكية. فان إنشاء كلية غردون واستعمار السودان كان محاولة إنجليزية لرد الاعتبار، وكان القصد من إنشائها إهانة الشعب السوداني الذي قتل غوردون، وكان من المقدر لهذه الكلية بحق أن تصبح فيما بعد مفرخاً لحملة لواء التخريب الثقافي في البلاد. وقد أنشئت بترعات سخية من قبل الشعب الإنجليزي الذي اعتبر فيها رد كرامة مرقها السودانيون بقتل بطل من أبطال الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس على حسب زعمهم. وهذا الذي اعتبروه بطلاً يومها كان غازياً ومعتدياً ومحتلاً لبلاد آمن. ولكنه المنطق الغربي الأعور الذي لا يملك معيارية أخلاقية أو إنسانية في تعاطيه مع الواقع إذ يجعل ببساطة وغباء متناهٍ وسذاجة ممجوجة الحق باطلاً والباطل حقاً. والبطل الحقيقي إرهابياً وخائناً، والخائن لوطنه ودينه والعميل والغابر والمحتل والغازي بقدره الآلة الإعلامية الغربية الضخمة، والإعلام الغربي المأجور يمكن أن يصبح هؤلاء جميعاً أبطالاً ومفكرون وقادة عالميون وقوميون ولم تكد جواء لهم مثيلاً ما داموا مغفلين نافعين للغرب وآلات صماء بكماء تخدم ساداتها وكبرائها في الغرب. ولو نظر الناظر إلى تخطيط شوارع الخرطوم في عهد كتشنر يجد أنه قد تم بخبث على منوال العلم البريطاني إمعاناً في الإهانة لهذا الشعب الأبي. وعلى صعيد آخر لا يخفى على دارس

(53) G.D. Lampen op. cit. pp. 199.

(54) السلطان إلي جميع القادة والأمراء والملوك ورؤساء البعية تحت قيادة آدم رجال في 17/4/1910م (7 ربيع الآخر سنة

1328هـ) S.N.A. INTELL 2/3/12

للتاريخ أن محاولة فرنسا الآن لفرض عقوبات على السودان في عهد الإنقاذ ومطالبتها بمحاكمته لا تخرج عن هذا الإطار باسترداد حق تاريخي مزعوم لها في دارفور وتشاد. ولعلها تريد بذلك أن تتكأ جراحاً كان ينبغي عليها في مقابل ما تقوم به الآن أن تعمل على مداواة هذه الجروح وتصحيح وتعويض ما أحدثته من خراب في الأرواح والممتلكات وسرقته هي وبريطانيا من خيرات هذه المنطقة.

وقام السلطان علي دينار بتوجيه خطاب إلي جميع الأمراء والقادة بحثهم فيه علي الجهاد في سبيل الله والقيام بأمر الله وإعلاء علاء كلمته وسحق أعدائه الكفرة المشركين من الفرنسيين مذكراً إياهم بآية التوبة: (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) الآية (111) وأورد طائفة أخرى من آيات الله التي تحت على الجهاد⁽⁵⁵⁾.

هذا في الوقت الذي كان يتسلم فيه السلطان خطابات متتابعة من قبل الإدارة البريطانية بغية تهدئته ونصحه للتحلي بالصبر⁽⁵⁶⁾. ويعكس هذا الخطاب روحه الإسلامية الواضحة. ويؤكد هذا الموقف الشجاع على إصراره على المقاومة بأي ثمن، واستعداده التام في مجال تحمل مسؤوليته التاريخية والدفاع عن وطنه وشعبه وأمته

وفي أبريل حدثت مواجهة أخرى بين القوات 'الفوراوية' والفرنسية انتصرت فيها القوات الفرنسية وجرح في هذه المعركة قائد السلطان آدم رجال.

وبرر الفرنسيون هجومهم هذا بأنهم قد عثروا على خطابات تشتمل على خطة مركزة بين الفور والمساليت ودود مرة والسنوسية للقيام بهجوم موحد على الفرنسيين. بيد أن هذا التحالف بعد هذا الهجوم الفرنسي أرجع السلطانين المواليين للفرنسيين إدريس وحسن إلى قمر وتاما على الترتيب. واسترد الفرنسيون كثيراً مما فقدوه وتقهقر الفور. ولجأ دود مرة إلى سلطان المساليت تاج الدين.

(55) استأك إلي الحاكم العام في كيونيو سنة 1910م S.N.A INTELL 1/1/2

(56) A.B.Theobald. op. cit. pp. 86-88.

ونتيجة للأمطار توقفت المناوشات حتى سبتمبر حيث وصلت الإمدادات الفرنسية. فقام الفرنسيون بحملة تأديبية ضد المساليت. هزم الفرنسيون فيها شر هزيمة⁽⁵⁷⁾. ولا شك أن الهزائم التي لحقت بالفرنسيين قد حفزت علي دينار وجرأته ضد الأوروبيين سواء أكانوا إنجليزاً أو فرنسيين.

ولعل هذه الهزيمة هي التي أشار إليها السلطان علي دينار في خطابة التالي بعد أن أفصح عن الحدود التي يرى أنها ضمن سلطنة الفور بقوله: (فأما من جهة الحدود التي بين دارفور ودار وداي فهي الحاجز المشهور بالترجى الكاين بغرب دار تاما ودار مساليت الموجود الآن الذي لا يزال واضحاً جلياً وكان تجاوزها العسكر الفرنسيات ودخلوا بالحدود وحضروا بدار تاما وتطاولوا لغاية ما وصلوا بدار قمر وخرّبوا الدار خراب شديد. وأما عساكرهم الذين دخلوا بهم تاما البعض منهم قتلوهم مساليت. وباقيهم قتلوهم بدار تاما حين حربهم لجنودنا الذين أرسلناهم لإقامة الحدود. والأخبار الواردة إلينا من جهتهم أنهم صاروا يؤجرون الناس للعسكرية. وتجمعوا قصدهم الإعادة ثانياً ونحن مستعدين قصدنا التوجه إليهم بنفسنا وتأخرنا لأجل دخول الخريف⁽⁵⁸⁾).

ولم يخل الخطاب من الإشارة إلى الانتصارات التي حققها المساليت علي الفرنسيين نكاية بهم. ووردت الإشارة إلي أنه كان يرى أحقيته بهذا الدور لذا عزم علي تقرير مصيرها بنفسه ورسم حدودها مما أدى إلي اشتباك جنوده مع الفرنسيين. وما كان لينتظر أن يقرر أمرها غيره. لأنه كان يرى أنه السيد الوحيد في هذه المنطقة وأن ملكه حق تاريخي وأنه المسؤول عن استعادة أملاك أجداده وآبائه وهيبة أمجاده الغابرة.

ولقد ركز الفرنسيون هجومهم بغية القضاء على السلطان الهارب وانتقاماً للقائد الذي هزمه المساليت وأودوا بحياته⁽⁵⁹⁾. وفي هجمة أخيرة قام بها القائد الفرنسي يصحبه فيها حسن الجالنجاي سلطان دار تاما الذي عينته الحكومة الفرنسية مكان

(57) السلطان إلي الحاكم العام في 26 يوليو سنة 1910م (رجب سنة 1328هـ) S.N.A INTELL 7/2/12

(58) A.B. theobald .op.cit.pp 68-88

(59) تقرير سلاطين عن أوضاع وأحوال دارفور قبل بداية الحكم الثاني في سنة 1910م

S.N.A INTELL 1 /1/2 A.BTHEOBALD . op. cit.pp 102-3.

السلطان عثمان الطوراوي المعين من قبل السلطان علي دينار والسلطان إدريس القمر اوي بغية رد الاعتبار وتلقين السلطان درساً لا ينساه .

وفي المقابل قام السلطان علي دينار بإرسال تعزيزات لدار تاما لحماية سلطانها عثمان الطوراوي ضد منافسه حسن الجالنجاي بيد أنها لم تجد فتيلاً. حيث دارت رحي معركة فاصلة حامية الوطيس تم بمقتضاها دخول دار تاما ثم مساليت. وأودت المعركة بحياة تاج الدين سلطان دار المساليت وجرح دود مرة في 9 نوفمبر سنة 1910م⁽⁶⁰⁾. وبذا فقد السلطان أقوى حليفين له في المنطقة وأضحى في مواجهة مباشرة مع الفرنسيين وعملائهم في المنطقة الغربية .

قد يكون مبرر الهجوم الفرنسي هو إيواء السلطان دود مرة وقد يكون التوسيع الاستعماري الاستغلالي وتأمين الجبهة الشرقية التي سببت صداماً من أول يوم للقوات الغازية. إضافة إلى الثأر لرد اعتبار السمعة الفرنسية في المنطقة والتي أثر فيها قتل وهزيمة القائد الفرنسي تشوفولت على يد المساليت. هذا مع العلم بأن الدور الثلاث كانت خاضعة لعلي دينار وهو الذي كان يعين سلاطينها⁽⁶¹⁾. وحقه فيها هو حق تاريخي منذ أجداده الأوائل الذين أوجدوا سلطنة تمتعت بنفوذ وبعلاقات خارجية تجاوزت أفريقيا إلى معظم قارات الدنيا. وشاركت تلك السلطنة في التنمية البشرية والاجتماعية والثقافية في السودان وفي بلاد الحرمين وكانت قبلة للعلم والعلماء.

ومما يعجب له المرء رغماً عن احتجاج الحكومة الثنائية على الخطوات التي قامت بها الحكومة الفرنسية تجاه كل من داري تاما ومساليت ورود عبارة في تقرير سلاطين السابق مقتضاها الإعجاب بالقائد الفرنسي الذي حقق هزيمة كل من الدارين. وذلك في قوله: " يجب أن اعبر عن إعجابي البالغ بشجاعة وبطولة القائد الفرنسي مول: " Moll وضباطه للمغامرة التي قاموا بها⁽⁶²⁾ .

⁽⁶⁰⁾ S.N.A INTELL 1/1/2 Major . H.H Wade. Op. pp 645-646

⁽⁶¹⁾ تقرير سلاطين السابق سبتمبر سنة 1910م S.N.A INTELL 1/1/2

⁽⁶²⁾ سلاطين إلي السلطان في 1910/10/20م S.N.A INTELL 1/1/2

هذا فيه دلالة على أن هناك اتفاقاً غير معن لتعطيم القوة الفوراوية الصاعدة وأن هناك تعاطفاً أوروبياً على وأد أي مقاومة إسلامية نزيهة في المنطقة. وأن الحكومة الثنائية كانت تنظر إلي نزاع الفور ومشاكل الحدود الغربية مع الحكومة الفرنسية بشيء من التربص بغية القضاء على السلطان علي دينار، وأنها كانت تعمل على إضعافه لا على تقويته أو تثبيته.

فلو كانت الحكومة الثنائية تعتبر أن دارفور محمية لها وأن هاتين الدارين فعلاً تشكلان جزءاً من حدود الحكومة الثنائية فلا يجرؤ سلاطين على التشاء علي قائد اخترق حدود دولة يخدم هو تحت رايتها. وإن لا فبالرغم من تعارض ذلك مع مصالح دولته التي يخدم تحت لوائها أخذته النزعة العصبية ضد أهل البلاد، وضد أهل الحق الشرعي في تحقيق ذواتهم وتقرير مصائرهم بأنفسهم دون تدخل من أي قوى استعمارية استيطانية.

إلا أن سلاطين لم ينس الدور المنوط به مشيراً إلى المحاولات الجارية على طاولة الحوار بين الحكومة الفرنسية والثنائية وما جرى من اتفاق عبر الاتصالات الدبلوماسية بقوله: (لقد سبق أن أجرينا اتصالاً مع الحكومة الفرنسية بالنظر لشؤون وداي فأتفقت معنا بإرسال التعليمات الضرورية ليكامها بعدم التدخل أو الاعتداء على دارفور⁽⁶³⁾). ويبدو أن السياسة الفرنسية كانت تقضي بالمماطة والاستفادة من الوقت. ولربما كانت هناك أجندة خفية لأن بريطانيا وفرنسا لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يصرحان فيها بأمر ظاهره الرحمة ومن قبله العذاب. هؤلاء الأوروبيون خدعوا العرب في الحرب الأوروبية الأولى بوعود كاذبة كان مؤداها منحهم الحق في تقرير مصائرهم ومصائر بلادهم في الوقت الذي كانت فيه كل من فرنسا وبريطانيا تجتمعان سراً وتتوزعان مناطق النفوذ العربية فيما بينهما، وخدعوا العرب مرة أخرى لأن الآخرين لا يقرأون مفردات تاريخهم بذكاء ووعي ورشد، خدعهم في حرب أفغانستان وفي حرب العراق كما حدث من بريطانيا وأمريكا في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي. والقائمة قد تطول عن عدم مصداقية الغربيين ولا يخفى ما

(63) السلطان إلي سلاطين في 1910/11/24م (22 ذو القعدة سنة 1328هـ) S.N.A INTELL I/1/2

حدث في حرب حزيران 1967م. والآن هناك محاولات خبيثة أخرى تحاك من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها غايتها تجريد الأمة المسلمة من أي مظهر من مظاهر القدرة على تحقيق الذات والمقاومة. إذ تجري الآن محاولات على قدم وساق لقصصة أجنحة المقاومة اللبنانية والفلسطينية وتفكيكهما وحرمان الأمة من بصيص الأمل الذي أشعلا جذوته في نفوس أبناء هذه الأمة. والأمر لا يختلف كثيراً بالنسبة للدفاع الشعبي في السودان وهلم جراً. وذلك بعد نجاحها وحلفائها في تفكيك شبكة عبد القادر خان وحرمان الأمة المسلمة من الأبحاث النووية التي قامت ويمكن أن تقوم بها هذه الكوكبة من العلماء المخلصين الذين لم يبيعوا ضمائرهم ومعارفهم مقابل دراهم معدودة للاستخبارات العالمية.

إذن لعبت الحكومة الفرنسية على الحبل مستفيدة من جهود الحكومة الثنائية الرامية إلى شل حركة السلطان والإلقاء في روعه أن الاتصالات الدبلوماسية ذات جدوى. وعاد السلطان من جديد ليؤكد أنه بالرغم من التأكيدات الفرنسية فإن الفرنسيين قد اعتدوا على داري تاما والمسالييت⁽⁶⁴⁾.

هذا مما دعا سلاطين ليؤكد من جديد: (أن دار تاما ودار المسالييت كما ذكرت في لندن أنها كانت تحت إدارتي في الفترة الواقعة بين (1879-1883م) وأن علي دينار ليس مسؤولاً عن السلام ما لم يتم الاعتراف بحدود دولته أولاً⁽⁶⁵⁾).

يبدو من مخاطبة سلاطين لو نجت أنه كان متعاطفاً مع السلطان إلى حد لإقناعه بسلامة منطق السلطان. وأن ما يجري على الحدود الغربية يشكل اعتداء صارخاً على حدود دارفور .

وبذا أبدي تعاطفاً ملحوظاً نحو السلطان وحقوقه المشروعة في تأمين حدوده. ويقرر عدم مسؤوليته تجاه ما يجري على الحدود الغربية دفاعاً عن حدوده واسترداداً لكرامته.

(64) سلاطين إلي ونجت في 1910/11/23م (21 ذو القعدة سنة 1328). S.N.A INTELL 1/1/1

(65) سلاطين إلي السلطان في 1910/12/14م. S.N.A. INTELL 7/3/11

واستجابة لنداءات الحكومة الثنائية بكف يده عن القيام بآية عمليات ضد الوجود الفرنسي في المنطقة قام السلطان بتوجيه نداء إلى جميع أتباعه بكشف أيديهم عن الفرنسيين. هذا بعد أن وصلته تأكيدات جديدة تفيد بأن حكومة السودان قد توصلت إلى اتفاق مع فرنسا بشأن الحدود. والتزمت فرنسا من جانبها بعدم الاعتداء على حدود دارفور. ولم يلبث أن فوجئ رسل السلطان بقادمين من دار مساليت ودار تاما يشكون اعتداءً فرنسياً مما يؤكد أن الوعود الفرنسية السابقة لا تعدو عن كونها خدعة. وأشك في أن الحكومة الإنجليزية لم تكن علي علم بتلك التحركات الفرنسية في المنطقة .

وأعلم السلطان الحكومة بما جري طالباً منها أن تكف عنه: (جور الفرنسيين وتصدها بالقوانين السياسية التي بينكم وبينها. وأن لم يكن ذلك أقدم فيدون عاجلاً فتوكلوا على الله ونتربصوا معهم ماداموا أنهم قصدونا في أرواحنا ظلماً وعدواناً فنحن لا نبخل بأرواحنا في سبيل الله نحاربهم إن شاء الله).

كان السلطان يعلق آمالاً عريضة في الحلول الدبلوماسية ولكنه في الوقت ذاته لم يرض لنفسه بالهزيمة والاستسلام. وهذه الآمال من باب استنفاد استخدام الوسائل المتاحة وعدم الإهمال في باب دون طرق. والإشارة إلى بذل الأرواح في سبيل الله ذات دلالة عميقة من حيث إسلامية الرجل واستمساكه بدينه في لحظات الشدة وهذا جزء من الإيمان.

ورد سلاطين على ذلك بخطابين ذكر له في أولهما أنه سيقترح تكوين لجنة لتعيين الحدود. وأن يكون لعل دينار ممثلون فيها لمقابلتي الممثلين الفرنسيين⁽⁶⁶⁾.

وعلى صعيد آخر فإن القضية قد شغلت الأوساط الثنائية على مستوي عال حيث يذهب الحاكم العام إلى أن المشكلة تكمن في أنه ليس هناك تحديد واضح للحدود بين دارفور ووداي فلا يعرف المساليت مثلاً أين تنتهي الحدود الفرنسية، ومن أين تبدأ الحدود الإنكليزية⁽⁶⁷⁾.

S.N.A. INTELL 1/1/1

⁽⁶⁶⁾ الحاكم العام إلى السكرتير الخاص في 1910/11/30م

⁽⁶⁷⁾ المصدر السابق.

هذه العبارة لا تخلو من مغالطة تبدو واضحة في اللهجة الإنكليزية حيث سبق للسلطان علي دينار أن حدد حدود دولته بالموقع الفاصل بينهما وبين وداي. والمسالييت يعرفون حدودهم قبل قدوم الغزو الاستيطاني الاستعماري للمنطقة.

وإن كان الفرنسيون والإنكليز يجهلون ذلك فلم يوردوه في اتفاقيتهم فليس ذلك ذنب المواطنين الذين هم أدري بشعابهم. ويمضي الحاكم العام في قوله: (وباحتلال الفرنسيين لأبشي اكتسبوا عدااء المسالييت وهرب دود مرة إلى المسالييت بعد هزيمته وتأثر سلطان المسالييت في موقفه تجاه الفرنسيين بموقف أهل دارفور).

ورفض المسالييت اللهجة الشديدة التي طلب بها الحاكم الفرنسي في أبشي إقصاء دود مرة أو تسليمه له. وبذا تكونت فرقة فرنسية وقامت بالهجوم على دار تاما ومسالييت خسر فيه الفرنسيون الكولونيل مول (Moll) وسبعة آخرين من الفرنسيين وخسر المسالييت سلطانهم تاج الدين كما تقدم. وجرح سلطان وداي⁽⁶⁸⁾.

أما خطاب سلاطين الثاني فقد جاء فيه: (ورد إلي تلغراف من بلاد فرنسا في أوربا عرفت منه أنه قد حصل قتال جديد بين المسالييت وفرقة من عساكر دولة فرنسا. وأنه قد قتل في هذه الواقعة الكولونيل مولس القومندان وثلاثة ضباط وأربعين عسكري وصف ضباط وجرح تسعة وستون عسكري وأن المسالييت خسروا ما يزيد عن ستمائة رجل من ضمنهم السلطان تاج الدين وأولاده وأولاد - السلطان أبكر وأن السلطان دود مرة أصيب بجراح عرفت من جوابكم أنكم تظنون أن دولة فرنسا تريد امتلاك دارفور لا تجعلوا هذا الفكر يخطر لكم علي الإطلاق لأن هذا أمر مستحيل وذلك لأنكم تابعون للحكومة الإنكليزية... وقائمين بواجباتكم)⁽⁶⁹⁾. وعزا سبب الحرب إلي مقتل الكابتن فيكنشو في السنة الماضية حينما دخل خطأ إلي دار مسالييت.

بدأ واضحا أن أي اعتداء على دار مسالييت يعني الاعتداء على دارفور. لأن سلطان المسالييت تاج الدين كان يعتبر ممثلاً للسلطان علي دينار لا سيما وأن الفرنسيين قد دمروا الديار وخربوها.

القضية كانت واضحة حيث جاء الفرنسيون بالموالين لهم مثل حسن الجالنجايوي بدلا عن عثمان الطوراوي وبإدريس القمرأوي أحد أعداء علي دينار⁽⁷⁰⁾. ونتيجة لهذا فكر السلطان جاداً في الخروج من هذه المحاصرة. فشن غارة قتل من جرائها القائد الفرنسي مول (Moll) وبعض الضباط الفرنسيين الآخرين⁽⁷¹⁾. هذا يعني أنه اشترك في المعركة التي أشار إليها سلاطين والتي قتل فيها السلطان تاج الدين وجرح فيها دود مرة. ولكنه لم يعلن ذلك حتى لا يعيق الجهود الدبلوماسية المبذولة من قبل الحكومة الثنائية .

أجرت في هذا الأثناء الحكومة الثنائية اتصالاً يهدف إلى تذكير الحكومة الفرنسية بتأكيدات القنصل العام الفرنسي (Rox) لسلاطين بأنه سيرق قواته بأوامر صارمة بعدم التدخل في شؤون دارفور. بيد أن الذي حدث خلاف ذلك⁽⁷²⁾.

يبدو أن الأمر كان تخطيطاً علي مستوي عال يجري تدبيره في باريس وينفذ على الحدود الغربية. وأن التأكيدات الفرنسية لا تعدو عن كونها مهدناً وقتياً بغية الاستعداد لإجراء جديد لأنه عقب كل هذه التأكيدات كانت تأتي غارة علي حدود السلطان.

وأدرك سلاطين أبعاد الغدر الفرنسي وعدم منطقيتيه وواقعيته فضمن ذلك في تقريره الذي أعده عن العلاقات بين دارفور وفرنسا سنة 1911م حين أشار إلي أن الفرنسيين كانت لديهم نية مبيتة لغزو كل من دار مساليت ودار تاما. وذلك انتقاماً للهزيمة التي لحقتهم من المساليت في يناير سنة 1910م. وحاولوا تغطية ذلك بعدة أقنعة منها مطاردة دود مرة الذي حسب زعمهم بأنه قد طفق يجمع أعداداً كبيرة لغزو أبشي واسترداد سلطنته. والأوروبيون من طبعهم اختلاق المبررات من أجل تحقيق مصالحهم الحيوية والإستراتيجية في المنطقة التي يريدون احتلالها واستغلالها. وألا لنا أن نتساءل وأن نطرح مجموعة من الأسئلة المشروعة: فهل كان صدام ياترى يمتلك سلاحاً نووياً يهدد السلم العالمي أكثر من بريطانيا وأمريكا وفرنسا؟ وهل كانت أفغانستان تهدد الأمن الدولي وتنتهك حقوق الإنسان أكثر من الولايات المتحدة

(70) سلاطين إلي الحاكم العام في 1910/12/17م (1328/12/15هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(71) الحاكم العام إلي رسل 1910/12/30م (1328/12/28هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(72) تقرير أعده سلاطين في 10 يناير سنة 1911م عن العلاقات بين فرنسا ودارفور S.N.A INTELL 1/1/2

الأمريكية في غوانتانامو وسجن أبي غريب؟ وهل ما كان فيها يفوق أو يشكل واحد على المليار مما تفعله إسرائيل (دلوعة أمريكا) كل يوم في فلسطين المحتلة؟ وهل كان السودان يمتلك في مصنع الشفاء أسلحة نووية أو يملك مفاعل نووي؟ وهل في دارفور الآن اغتصاب وانتهاك لحقوق الإنسان؟ وهل وهل؟

ومعلوم أن هذا التبرير كان واه جداً لأن الجيوش الغازية دخلت أراضي كل من داري تاما والمساليات تحت أرشاد كل من السلطان حسن الجالنجاي الأداة الفرنسية بغية تنصيبه مكان عثمان الطوراوي والذي جرت العادة على تعيينه من قبل علي دينار. والسلطان إدريس القمرأوي كان عم علي دينار وأحد أعدائه اللدودين⁽⁷³⁾.

يعكس هذا التقرير أبعاد الغدر الفرنسي والمقاصد المقنعة التي أرادت فرنسا تبريرها بتعليلات متعددة ومسوغات مختلفة فمثلاً أوت دار المساليات دود مرة فقد أوت فرنسا خصمه. وفي الواقع أن دخول فرنسا إلى دار المساليات ليس القصد منه هو إخراج دود مرة أو القبض عليه بقدر ما كان القصد منه خلع السلطان تاج الدين والى علي دينار وتعيين أداتهم مكانه. تأميناً لجبهتهم الشرقية وكسباً لمواقع قدم جديد يمكن أن يصلح كبطاقة رابحة في المفاوضات بين الدولتين المحتلتين فرنسا وبريطانيا في مجال توزيع مناطق النفوذ في أفريقيا فيما بينهما .

وكان من الطبيعي أن يعزز سلطان دارفور موقفه وأن يشد بمن أزر نصيره. ولازال السلطان علي دينار يتعجب من هذا الغزو الفرنسي مع وضوح الحدود الفاصلة لدارفور عن وداي منذ جده محمد الفضل. ووصف الجنود الفرنسيين بأنهم أوباش لا يعرفون شيئاً عن الحضارة واحترام القوانين. ويتساءل عما إذا كان اختراقهم لحدود دار تاما ومساليات وقمر يتفق والاتفاقية المعقودة معكم⁽⁷⁴⁾.

وفي خطاب آخر وبنفس التاريخ يذكر فيه (فأولاً دار الداو حدودنا فيها مع دار وداي جبل الكنوز. فالآن هم استلموها ودار تاما لأن عساكرهم فيها ودار قمر كذلك مساليات ودار كبي هؤلاء الخمسة ديار جميعهم حدود دارفور الأصلية⁽⁷⁵⁾).

(73) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/17م (محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 2/1/3

(74) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/17م (6محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 13/2/7

(75) القنصلية البريطانية بالقاهرة إلي وزارة الخارجية البريطانية في 1911/1/22م S.N.A INTELL 1/1/1

وتبعية الديار الخمس لعللي دينار ليست بحاجة إلي كل هذه التأكيدات، فهناك عدة براهين علي تبعيةها له منها ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين قطعوا هذه البلاد وزاروها. وهناك الزبير باشا ود رحمة الذي غزا دارفور وهو لا يزال حياً. كما أن الأشخاص الذين عاصروا الثورة المهدية لا يزالون أحياء وسلاطين باشا نفسه كان مديراً لدارفور بعد غزوها (1879-1883م). وتشكل رحلة التونسي سنة 1845م مصدراً حياً وتسجيلاً واقعياً لما شاهده التونسي وسجله. ورحلة ناكيتجال، ج. بروان الرحالة البريطاني (1794م) فلدي هؤلاء جميعاً توجد أدلة قاطعة علي تبعية هذه الديار - لا سيما دار تاما ودار مساليت - لدارفور وليست بأي حال من الأحوال تابعة لوداي. وبعد الحركة المهدية لجأ سلاطين إلي هذه المناطق إلي الخارج واحتموا بوداي⁽⁷⁶⁾.

يبدو عمق الروح الوطنية، والكراهية لكل ما هو أجنبي وإياء النفوس علي الرغم مما قام به الفرنسيون خلال سنتين كاملتين لترسيخ أقدامهم ولتغريب هذه الديار. وإتيانهم بأدوات محلية ضعيفة يمكن توجيهها حسب إرادة الغزاة لم تتجح في حكم البلاد وإدارتها كما هو شأن أدوات أفغانستان والعراق من أمثال كرزاي أفغانستان وجلبي وعلاوي العراق. ذلك لأن شعبية الرجال وحبهم لا تخلقان بالقوة. ولا يمكن أن تصنع أحدهما قهراً. لذا نصب المساليت سلطاناً آخر حسب الفرنسيون أنه سيخلص لهم بيد أنه سرعان ما رفع عقيرته ضد المطامع الفرنسية في المنطقة. الأمر الذي أجبر السلطات الفرنسية للقيام بحملات متكررة أودت أخيراً بحياة الأمير محمد أندوكه سلطان المساليت الذي خلف تاج الدين. فقاموا باستلام دار المساليت⁽⁷⁷⁾ عنوة وقهراً مما يعني أن الفرنسيين وأشباههم لا يحترمون إرادة الشعوب وحقها في تقرير مصائرهم إلا بالطريقة التي تحقق مصالحهم.

وقد بدأ للسلطان علي دينار الاتجاه الفرنسي العدائي واضحاً بواسطة مبعوثيه وبواسطة أعمال الفرنسيين وغزوهم لداري تاما والمساليت وتخريبهما الذي يناقض

(76) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/29م (28 محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 7/1/13
(77) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/29م (28 محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

الباب الرابع-العلاقات بين الحركتين الوطنية الفوراوية والليبية السنوسية
تأكيداتهم بعدم الاعتداء⁽⁷⁸⁾. ومحاولات الحكومة الثنائية لكفه عن الحرب والاستجابة
الوقتية لاستفزازات القوات الفرنسية.

وشعر سلاطين باشا بدقة الموقف وعدالة مطالب السلطان، وعدوان الفرنسيين
عليه واختراقهم لحدوده. وهناك التزام أدبي تجاهه بموجب الاتفاق من قبل الحكومة
الثنائية وتأكيداتها المستمرة حيث يقول: "لقد قمت بإرفاق صورتين من خطابين
أحدهما من سعادتك ومؤرخ بأول مايو سنة 1901م. والثاني مني بتاريخ 22 ديسمبر
سنة 1903م إلي السلطان علي دينار يحددان الحدود كما كانت تحت إدارتي. ومن
الواضح أن دار مساليت ودار تاما كانتا جزءا من توابع دارفور⁽⁷⁹⁾. هذه الإشارات
تؤكد أن سلاطين بدأ يشعر بالخرج إزاء مخاطباته للسلطان ولئلا يكون في موقف
الكاذب حاول أن يستعجل سلطات الخرطوم لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية إزاء ما
يتعرض له السلطان.

ثم يضيف قائلا: وبالرغم من أن علي دينار كان يرى في تدخل الفرنسيين في دار
تاما ومساليت خطرا عليه إلا أننا استطعنا وحتى الآن أن نحول بينه وبين القتال معهم.
ولم تكن الحدود بينهما مغلقة لمدة ثمانية أعوام. وبعد هزيمة دود مرة من قبل
الفرنسيين وبناء على التعاليم الإسلامية استقبل علي دينار دود مرة باعتباره لاجئا يحرم
دمه. وزاد غزو الفرنسيين لدار تاما ومساليت من غضبه وتشدد علي دينار
تجاههم⁽⁸⁰⁾. هذا الكلام احتوي علي قدر من التجاوز في بعض العبارات لاسيما إصدار
الأحكام النهائية بشأن منطقي لسلوك السلطان وسياستته الخارجية.

يعتبر تدخل الفرنسيين اغتصاباً لأرض سلطنة دارفور واعتداء على حدودها
وانتهاكاً لحرمتها وللاتفاقية القائمة بين كل من إنجلترا وفرنسا سنة 1899م. حيث لم
تكن دار تاما ومساليت من المناطق المتنازع عليها بين الدولتين العظميين⁽⁸¹⁾.

(78) سلاطين إلي الحاكم العام في 5 فبراير سنة 1911م (9 صفر سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(79) سلاطين إلي الحاكم العام في 5 فبراير سنة 1911م (9 صفر سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(80) تقرير سلاطين في 10/1/1911م (9 محرم سنة 1329هـ) S.N.A . INTELL 1/1/2

(81) الحاكم العام إلي المندوب السامي البريطاني في 9/2/1911م S.N.A INTELL 1/1/1

وبالفعل فإن الخطر الخارجي ووحدة العقيدة استدعيا النقاء كل من دود مرة والسلطان علي دينار. واقتنعت الحكومة الثنائية بوجهة النظر الفوراوية بإجلاء القوات الفرنسية أولاً ثم اللجوء إلى تحديد الحدود بين الدولتين⁽⁸²⁾.

لذا كان لابد من تهدئة الأحوال وإلقاء السلاح إلى حين الوصول إلى اتفاق بين الطرفين المتنازعين. ولا زال السلطان يعرض على جمر من جراء الاعتداءات الفرنسية والادعاءات بأيلولة كل من دار تاما ومساليث إلى "وداي". وفي الواقع فإن التحركات الفرنسية لم تكن مرهونة باعتبار الأحوال السياسية أو الوعود المقطوعة لعلی دينار. هذا بالرغم من التزامه بعدم الاعتداء على أمل ظهور نتائج المفاوضات الجارية⁽⁸³⁾ بين الدولتين بريطانيا وفرنسا اللتين يحيطان بإجراءات هذه المفاوضات السرية التامة .

وكانت الحكومة الفرنسية مترددة بشأن إجلاء قواتها عن المناطق المتنازع عليها. هذا بالرغم من تظاهرها بالافتتاح بعملية تحديد الحدود. بين دارفور ووداي. ومعلوم أن أية مساع دبلوماسية لا يمكن أن تؤتي ثمارها ما لم يتم الاعتراف مسبقاً للسلطان بحقه المشروع في كل من دار تاما ودار مساليث⁽⁸⁴⁾. ولكن فرنسا في ذات الوقت كانت تحفزها مطامع استيطانية ومنافسة مع بريطانيا على هذه المنطقة حيث كانت لاتسلم بحق بريطانيا المطلق في دارفور. وكانت بريطانيا من جانبها تحاول أن تمسك بخيوط العنكبوي لتثبت أن لها حقاً تاريخياً وقانونياً في دارفور وتحاول أن تقنع السلطان بالتبعية لها ولو إسمياً لتجد ما تحتاج به رصيفاتها في المؤتمرات الأوروبية

ومعلوم لدى الأطراف المعنية أن هاتين الدارين كانتا من الناحية التاريخية والواقعية تابعتان لدار فور. ذلك لأن الحكومة المصرية حين احتلالها للسودان أقرت بعدم تبعية هذه الأجزاء لإدارتها⁽⁸⁵⁾.

(82) S.I.R.199/9. Feb. 1911

(83) الحاكم العام إلى السكرتير الخاص في 1911/3/2م S.N.A. INTELL 1/1/1

(84) الحاكم العام إلى نائب مدير المخابرات في 1911/4/6م (7 ربيع الثاني سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

الحاكم العام إلى أستاذك في 1911/4/8م (9 ربيع الثاني سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(85) سلاطين إلى السلطان في 1911/4/18م (9 ربيع الثاني سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

لعب سلاطين دوراً بارزاً في إقناع السلطان بجدية المساعي الدبلوماسية وبعث بتأكيد عقب انسحاب القوات الفرنسية من دار مساليت للسلطان يقول فيه: (قد عرفنا أن حكومة فرنسا قد أخرجت عساكرها من دار مساليت وإن شاء الله عما قريب سيخرجونهم من دار تاما⁽⁸⁶⁾).

لربما كان ذلك تكتيكا من القوات الفرنسية اقتضته ظروفها المحلية ويلوح سلاطين تارة أخرى بجدية المساعي الدبلوماسية واهتمام الحكومة ومتابعتها لما يستجد من أحداث بقوله: (قد عزمنا إن تنازلت حكومة فرنسا عن مطالبتها في دار تاما ومسلات أن تعين لجنة خصومة لأجل تعيين الحدود وستتدب الحكومة اثنين من الضباط المهندسين. وبصحبته مندوبين من قبلكم. حيث يقابلون المندوبين الذين تعينهم حكومة فرنسا والحكومة الإنكليزية بخصوص دار فور وحدودها. وسنرسل لكم أوراقاً رسمية بهذه الحدود وسيدوم الاتفاق إلى أجيال طويلة بعدكم ويتمتع به أولادكم⁽⁸⁷⁾). اعتراف صريح بأن للسلطان ولأسرته حق وراثي في حكم دارفور. ولو سار السلطان في ركب بريطانيا لضمنت له ذلك ولكن السلطان كان رجل مبادئ. وأصحاب المبادئ لا يبيعونها بثمن بخس. وإن كان هذا هو شأن السياسيين الذين يباعون ويشترون في سوق نخاسة السياسة يميناً ويساراً بأثمان زهيدة مقابل بقائهم وسلامة أبدانهم.

لا يخلو هذا الكلام من إغراء وفي الوقت ذاته ليس فيه تجاهل لدور السلطان في المفاوضات وتعيين مندوبين من قبله كما سبق وعده بذلك. كما أن خبراً يتضمن تنازل فرنسا عن ادعاءاتها السابقة في كل من دار تاما ومساليت مما يبعث الأمل في جدية المساعي الجارية. ويهديء من روع السلطان ويبعث في نفسه الأمل بهدوء الأحوال على الجهة الغربية لبلاده

وعبارة أن هذا الاتفاق يستمتع به أولادكم هي مخاطبة للرغبة الإنسانية بحب الملك واستمراريته في الذرية من بعد. ولكن في الوقت ذاته فإن لهذه العبارة دلالة موضوعية وتاريخية هامة إذ تتضمن استقلالية السلطان بدارفور.

⁽⁸⁶⁾ سلاطين إلى السلطان في 1911/4/29م (30 ربيع الثاني سنة 1329هـ) 7/3/12. S.N.A INTELL 1/1/1.

⁽⁸⁷⁾ الصحيفة الفرنسية لاماتير 1911/6/5م (جمادى الثانية سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL. 1/1/2.

وفى الواقع فإن قوات الحكومة الفرنسية كانت تتحرك بدافع الخوف من القوى المحيطة بها فى وداى. ونتيجة خوفها من دارى تاما ومسالييت لتبعيتهما لدارفور⁽⁸⁸⁾. أصبحت ترى الخطر أمامها ذا شقين داخليا وخارجيا وقد عبرت عن هذا المعنى إحدى الصحف الفرنسية بصراحة ووضوح وجلاء، حيث ورد فيها ما نصه. (الأوضاع فى وداى ليست ممتازة. وأصبحنا نشعر بخطر مائل داخليا وخارجيا فمن الشرق يمكن الخطر فى دار فور التى تهدد وجودنا فى المنطقة)⁽⁸⁹⁾.

وكانت الرؤية الفرنسية لهذه التقنية واضحة حيث أن القوى الفوراوية تُشكل خطراً مائلاً على وجودها فى المنطقة. لذا من الطبيعي أن تتكرر هجماتها على حدودها بغية كسر شوكتها دون اعتبار لأي اتفاق أو معاهدة. ولربما يفسر هذا أن السياسة التي تحرك القوات الفرنسية مرسومة فى باريس. وان هذه القوات كانت تحسن تنفيذ ما يوكل إليها من مهام بدقة متناهية.

ونتيجة للهجمات الفرنسية المتكررة حدث انفجار هجرة تجاه دارفور مما شكل عبئاً ثقيلاً على سلطنة دار فور هذا بالرغم من محدودية إمكانياتها والحصار المفروض عليها من الشرق والغرب. وبالرغم من ذلك فقد أجرى السلطان على دينار اتصالات مستمرة لاستقدام دود مرة بيد أنه لم يقرر بعد القدوم إلى الفاشر. وفى هذا الأثناء عينت السلطات الفرنسية سلطاناً على دار تاما. بيد أن قوات السلطان على دينار تمكنت من إعادة الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها⁽⁹⁰⁾. وذلك لشعوره بأن تعيين سلطان موال للسلطات الفرنسية يعني تضيق الخناق عليه وتجاوزاً للسقف المسموح به في العلاقات الخارجية في المنطقة.

وتطاولت السلطات الفرنسية فى وداى بان أقدمت على جباية الأموال من المواطنين المقيمين داخل حدود سلطنة دار فور. وتضجر السلطان من ذلك الإجراء غير المبرر بقوله: (ولم تحصل لنا راحة من جهتهم) ويأمل من الحكومة الثنائية أن

(88) المصدر نفسه.

(89) S.I.R. 205/5. August 1911.

(90) السلطان على سلاطين فى 1911/11/5م (14 ذو القعدة سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL 7/2/1

تقوم بـ (الوسايط اللازمة التي ترد جنود دولة فرنسا في التعدي-على حدود دارفور)⁽⁹¹⁾. ولعل كل تلك المحاولات تصب في خاتمة زعزعة الأمن والاستقرار فني دارفور فقد يكون بعضها جس نبض لقوة السلطان ومدي تمسكه بهذه السلطنات وقدرته على الدفاع عنها. وهو من جانبه كان يري ذلك من الأمور التي لا تقبل الجدل إذ تشكل سقوفاً وخطوطاً حمراء لا يسمح لأحد بتجاوزها لأن فرض الضرائب وجمعها من المسائل السيادية والتغاضي يعني التنازل عن سيديته على هذه المناطق وتلك الرعية في تلك الفترة.

وضاق السلطان علي دينار نرعا بسلطان وداي. حيث حاول معه كل الوسائل لاستقطابه ومقابلته في الفاشر للاتفاق على خطة إلا أن دود مرة لم يزد بذلك إلا نفوراً، لذا فكر في مطاردته وقبضه حياً⁽⁹²⁾. الأمر الذي يعكس نوعية القيادات ومحدودية سقوفها في المنطقة، ولعل ذلك هو الذي حال دون تعاونها واتفاقها. الكل كان ينظر تحت قدميه ومن زاوية مصلحته الضيقة ولا يدري أن الطوفان قادم كما هو الحال الآن بالنسبة للقيادات السياسية في دارفور سواء كانت بالداخل أم بالخارج والتي لم تعتبر بمفردات التاريخ وبمعطيات الواقع سواء في أفغانستان أم في العراق .

وتأزم الموقف الفرنسي الفوراوي. حيث لاحظ القادمون من بورنو أن الفرنسيين قد قاموا بغزو دار المساليت. وعسكرت الجيوش الفرنسية في تيرقا (Terga). وفي مقابلها الجيوش الفوراوية. وبدأ السلطان في استعراض جنوده. هذا في الوقت الذي أصبح فيه أهل دارفور في قلق دائم من جراء الاعتداءات الفرنسية المتكررة على حدود دار فور بعد استيلائهم على وداي⁽⁹³⁾.

وفي ينا ير سنة 1902م تم إخضاع السلطان بخيت أبو ريشة للفرنسيين وعزل السلطان عسيل ووضع مكانه إداري فرنسي هو الكولونيل (largeau). ومنح سلطان المساليت استقلاله بعد أن أمضي اتفاقية مهينة تنازل بموجبها عن ثلث دار مساليت، غربي وادي أسنجا وكوجا⁽⁹⁴⁾. مما يوحي بأن التجربة الفرنسية لم تتجح في استقطاب

(91) السلطان إلي سلاطين في 1911/5/15م (أو القعدة سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL 7/2/13

(92) S.N.A. INTELL 2/2/13. NOV. 1911.

(93) A.B. THEOBALD. Op. cit. pp. 91

(94) مذكرة حول الحدود بين دارفور وداي في 1912/1/1م (2 محرم سنة 1330هـ) S.N.A INTELL 1/1/3

الحكام المحليين فبعد أن بدأت باستخدام العصا والجزرة لجأت إلى استخدام العصا دون جزرة وهو ذات السلوك الاستعماري الاستغلالي المعاصر في أفغانستان والعراق والآن دارفور، لم تحقق التجربة الأوربية مع القيادات الأفريقية هدفها لإيجاد عميل في هذه المنطقة يزجي لها إخلاصاً ويحقق عمالة مستقرة. فهناك أكثر من تجربة فرنسية في المنطقة لم تأت أكلها. إذ تميل هذه القيادات الأفريقية إلى الاستقلال حالما حققت قدراً من النفوذ ونالت التأييد. فالروح الوطنية والولاء للتراب أعمق أثراً وأبعد جذوراً من الإنبيات والتعلق بقوة أجنبية.

لربما تفيد هذه الخلفية في تبرير كثير مما يدور علي المسرح السياسي الآن في معظم البلدان الأفريقية والعربية والآسيوية. فمحمد أندوكه نصبه الفرنسيون بيد أنه سرعان ما خرج عليهم. وأما عسيل فقد عاونه هؤلاء الغزاة ولكنهم سرعان ما اكتشفوا عدم إخلاصه لهم. فسجنوه أول مرة ثم أطلقوا سراحه ونصبوه علي بلاده. بيد أنهم اكتشفوا أيضاً بعدئذ عدم ولائه لهم بعد أن تمكن. هذا علي سبيل المثال لا الحصر.

وعلي صعيد آخر لا تزال الحكومة الثنائية في مجال مساعيها الدبلوماسية تقوم بجمع الأدلة التاريخية والواقعية فيما يتصل بالنزاع بين الفرنسيين في وداي والسلطان علي دينار في دارفور. ففي مناقشة الحدود الفاصلة بين دارفور ووداي جاء في مذكرة تفصيلية ما يلي. (من الأدلة التاريخية أن نزاعاً دار بين سلطان وداي ومساليت علي الحدود وتم حسم ذلك النزاع بواسطة مؤتمر حضر فيه ممثلو البلدين. وبعض هؤلاء الوداويين لا يزالون أحياء وأيضاً هناك حجر نصب علي الحدود، وعليه نقوش تفيد بأن القبائل علي الحدود تدفع الجزية أو الضريبة إلي وداي، ولكنها في المقابل تدفع مقابل الشرب رسماً إلي المساليت. ودارت بين التاما ووداي تحروب سابقة⁽⁹⁵⁾).

رغماً عن هذه المساعي وتحلي السلطان بالصبر حيال الاعتداءات الفرنسية المتكررة، وتعلقه بأمل نجاح هذه المساعي فإن الفرنسيين قاموا باختراق حدوده تارة أخرى. مما أزعج الأوساط الإنكليزية في كل من الخرطوم والقاهرة ولندن⁽⁹⁶⁾.

(95) الحاكم العام إلي كلايتون في 1912/1/3 S.N.A INTELL 7/5/13

(96) الحاكم العام إلي كشنر في 1912/4/25 (14 ربيع الأول 1330 هـ) S.N.A INTELL 1/1/3

الباب الرابع-العلاقات بين الحركتين الوطنية الفوراوية والليبية السنوسية

وكانت وجهة النظر البريطانية في الخرطوم تذهب إلى عقد مؤتمر ثنائي سواء في لندن أو باريس علي أن يحضره سلاطين باعتباره أعرف الحاضرين بتاريخ دارفور وحدودها⁽⁹⁷⁾. ونلاحظ أنه في هذه الفترة بدأ استبعاد العنصر الوطني صاحب الحق الأصيل. ولاشك أن تغييب العنصر الوطني أمر مقصود لأنه بغيابه يمكن تحقيق الاستراتيجيات وإبرام الصفقات بين الطرفين المتناقصين علي نهج أفريقيًا دون اعتراض.

وخلال سنة 1912م هدأت الأحوال على الحدود الفوراوية الوداوية الأمر الذي أدى إلي فتح الطريق التجاري بينهما. حيث غادرت قافلة مكونة من مائة جمل ومائتي حمار متجهة صوب وداي⁽⁹⁸⁾.

وقد أشار إلى ذلك السلطان بقوله: (فإن التجار والخوارج الموجودين بالفاشر من شدة ما حصل من المضايقة بعدم المخارج لتسكيك البضائع الحوا علينا كثيراً ورغبوا في فتح الطريق لحد دار وداي وكان نحن منعنا ذلك منهم خشية من ضياع حقوقهم. فأعطيناهم الإذن بالتوجه وخبرنا بهم قائد جنود دولة فرنسا الحاكم بدار وداي. وتوجهوا من يوم 27 شعبان سنة 1330، 11 أغسطس سنة 1912م⁽⁹⁹⁾).

إذن بدأ السلطان يتعامل مع القوى المحيطة به معاملة الند للند وبصورة استقلالية. وحاول أن يفتح صفحة دبلوماسية مع السلطات الفرنسية في وداي. ولا يخفى أن مخاطبته المباشرة لدولة أوربية دون أخذ إذن مسبق من الحكومة الثنائية يضيف علي وضعيته درجة عالية من الاستقلالية في رسم سياسته الخارجية. بيد أن ذلك التوجه لم يكن لينال رضا الحكومة الإنجليزية في الخرطوم لأنه يدعو إلي شك تعاطف الحكومة الفرنسية في تبعيته للحكومة الثنائية.

وكما سبقت الإشارة إلى أن القيادات الوطنية في البلاد الأفريقية مبالغة إلي الاستقلال وهو طبع قبلي مكيّن حيث أن الحياة الاجتماعية الأفريقية والتركيبية

(97) S.I.R.214/5-6 may 1912

(98) السلطان إلي نائب مدير المخابرات 9 رمضان سنة 1330م (سنة 1913م) S.N.A INTELL 7/2/20

(99) وزير الخارجية البريطاني إلي اللورد كشنر أكتوبر سنة 1912م S.N.A INTELL I/1/3

الاجتماعية الأفريقية أقرب إلى البداوة منها إلى الحضرة فلذا فإن هذا الميل هو فطري مرتبط بالبيئة والنشأة، نلاحظ ذلك واضحاً في موقف عسيل الذي قاوم جيش الاحتلال حال تمكنه. وقام بتأييد العناصر الوطنية في المساليت. لذا رأى الفرنسيون أن لا محالة من أيلولة الإدارة المباشرة إلي أياد فرنسية كما تقدم⁽¹⁰⁰⁾. إذ أن الاعتماد علي عناصر وطنية لم يعد مأمون الجانب. الأمر الذي يوحي بأن تلك العناصر الوطنية كانت أكثر عمقاً وبعداً في النظر من القيادات السياسية الحالية. إذ كانت تدرك بثاقب نظرهما أن الأجانب إذا أعطوك باليمين سيأخذوا منك بالشمال وإذا عينوك بالشمال سيخلعونك باليمين وهذا ما قاله علي الميرغني للكاتب السوداني حسن نجيلة حينما سأله عن سبب رفضه الموافقة لأن ينصب ملكاً للسودان في العشرينات من القرن العشرين من قبل إنجلترا⁽¹⁰¹⁾.

وفي الواقع فإن السلطان علي دينار امتزجت فيه الروح الوطنية بالروح الديني الفياض. ففي اتصالاته بوداي بعث بخطاباته مع القوافل التجارية إلي بعض الشخصيات والزعامات يستفسرهم فيها عن أحوال وداي وعما إذا كان هناك اعتداء من قبل الفرنسيين علي قافلة الحج الأمر الذي يجب إعلام المسلمين في السودان بصدد⁽¹⁰²⁾ حيث أنتدب نفسه للدفاع عن المكتبات الإسلامية وتعيين نفسه حامياً لها .

كما أن الاتصال بالعناصر الوطنية المسلمة في وداي يدل على أن السلطان علي دينار كان يأمل في استنهاض الهمم في تلك البلاد. وأن اهتمامه بقافلة الحج ينبع من دور السلطنة الرائد في حماية الحجيج منذ عهد أجداده وآبائه فكأنه أراد بذلك الحفاظ علي تقليد السلطنة وإحياء مراسمها.

ولهذا الأمر دلالاته الوجدانية. ففيه تحديد لهوية السلطان، حيث أراد أن يثبت حقه في الدفاع عن الإسلام وقضاياه وشعائره وحماية الخارجين في سبيل الله ابتغاء مرضاته.

(100) (انظر كتاب ملامح من المجتمع السوداني/السودان/الخرطوم/وزارة الثقافة/د.ت).

(101) سايمنز إلي السكرتير الخاص في 1912/11/3م (21 ذو القعدة سنة 1330هـ). S.N.A. INTELL I/1/3.

(102) الحاكم العام إلي اللورد كتشنر في 23 نوفمبر سنة 1912م (2 ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL I/1/3.

وبدل ذلك على أن البواعث الدينية لديه ذات جذور أصيلة. وأن شعوره بالمسؤولية إزاء المسلمين وقضاياهم لم تكن وليدة لحظات ضعفه. وأن استمساكه بالدين لم يكن ملاذاً اعتصم به حين فقد الحول والطول. كما حاولت الكتابات الغربية وأقلام الاستخبارات العميلة أن تصفه به. وهذا شأن إستعماري قديم حديث معاصر. إذ يمكن أن يتغاضى الغرب عن سوءة الدكتاتوريين وجلاذى الشعوب والظلمة إذا أيدوا الاستراتيجية الغربية ويمكن أن يلوثوا ويلطخوا سمعة أبرأ الخلق و أطهرهم إذا وقف ضدهم وكشف دسائسهم. وإذا أردنا البرهنة على هذا الأمر فإن القائمة ستطول والناظر إلى أحوال وتاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر يصاب بالغثيان من كثرة هذه النماذج العميلة والخائنة لأوطانها والخارجة على دينها بنعومة .

ويبدو أن دعوته للجهاد (1914م-1916م) لم تكن طارئة وإنما كانت أصيلة وكانت حساسيته تجاه الصليبيين الأوربيين المستعمرين مرهفة. ولاشك هم عكس إخوتنا الأقباط الذين عايشوا المسلمين وعاشهم المسلمون قروناً طويلة دون حساسية وإنما تعاملوا مع بعضهم الآخر كأهل بيت واحد دون تفرقة أو عصبية وفيما يتصل بالنزاع القائم لازال السلطان يعلق آمالاً عريضة على الحلول الدبلوماسية. ولا تزال فرنسا تدعي حقاً لها في كل من دار تاما ودار مساليت وتذهب الحكومة الثنائية ووجهة النظر الإنكليزية إلى الاعتراف أولاً بأن دار مساليت ودار تاما هما جزءاً من دارفور ثم المفاوضة⁽¹⁰³⁾.

في هذا الوقت أراد السلطان أن لا يقف مكتوف الأيدي لا سيما أمام التسويف الفرنسي والاعتداءات التي لم تتوقف رغماً عن هذه المساعي الدبلوماسية. لذا دأب على خلق طابور خامس داخل وداي. فراسل الشيوخ والأعيان في وداي يحثهم على الثورة والتمرد ضد القوات المحتلة. ولضمان نجاح نشاطه السياسي وتأمينه فتح باب علاقات تجارية مع السلطات الفرنسية. وشعرت الحكومة الثنائية بدقة الموقف خوفاً من أن يفلت زمام الأمر من يدها. وأن تتجح فرنسا في فتح حوار مباشر مع السلطان مما يبطل مفعول الوجود الإنكليزي في المفاوضات. لذا لأمه سلاطين علي عدم إخباره بما

(103) سلاطين إلى السلطان في 1912/11/25م (في 14 ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL. 7/3/13

جري بقوله: (أن هذه الأخبار وصلت إلينا من حكومة فرنسا وإني أطلب منكم أن تكونوا علي الحذر دائما ولا ترسلوا خطابات إلي جهة حكومة فرنسا. لأن الحكومة هناك تدعي أنكم ترسلون السلاطين هناك بجوابات فيها الكثير من المطاعن والانتقاد علي حكومة فرنسا وتحقيرها⁽¹⁰⁴⁾). إن هذا الخطاب يؤكد علي أن السلطان بدأ يتحرك بفاعلية بغية التأثير علي الوطنيين في تشاد للثورة علي الوجود الأجنبي في البلاد وكانت الحكومة الفرنسية عن طريق استخباراتها ظلت ترقب هذا التحرك بحذر. وبدأت تشعر بخطورته وأثره علي وجودها، ولذا حاولت الطلب من الحكومة الثنائية إيقافه.

يبدو أن القوات الفرنسية كانت من جانبها تتحلل الأسباب لتبرير هجماتها علي أراضي دارفور. فمن ذلك هجومها علي الزغاوة الذي أشار إليه السلطان علي دينار مبيناً ملايسات ما جري بقوله: (... والسلطان عبد الرحمن مزني بشارة الزغاوة الكباري بالنظر لأنه مرضان مرض شديد عليل الفراش ... فلا يشعر آلا وقد هجموا عليه جنود دولة فرنسا بيوم الاثنين الموافق 22 ذو الحجة سنة 1330هـ. وفي الحين قتلوه وجميع من وجدوه معه لم يفلت منهم أحد وبوقته رجعوا أن جنود دولة فرنسا يصيلوا علينا في كل وقت ويهجموا ويقتلوا رجالنا ثلة بعد ثلة فلا راحة لنا من جهتهم. وعجلوا بما يطمئن البلاد من جهة دولة فرنسا وأن لا أتركونا نموتوا معهم فلا أسفا علينا إذا متنا في ديننا⁽¹⁰⁵⁾). كلمات ذات دلالة موضوعية وتاريخية تتم عن رجولة وعن نصاعة مبادئ وقيم، ليت الأحفاد يدرسوا هذه المفردات ويتعاطوا معها بموضوعية وبواقعية فدارفور كانت ترى أن دورها هو حماية البيضة لا أن تفتح أبوابها لشذاذ الآفاق ليعبثوا في دارفور القراءان، دارفور السلطان دارفور الأمجاد. كما هو الحال الآن مع القيادات السياسية التي فقبت توازنها العقلي فاستجابت لأجندة خفية تريد استعادة دورات التاريخ في السودان مرة أخرى في ثوب استعمار إستغلالي جديد.

(104) السلطان إلي سلاطين في 1912/12/10م (ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL 7/2/14

(105) سلاطين إلي سلطان في 1913/1/21م (11 صفر سنة 1331هـ) S.N.A. INTELL 7/3/4

الباب الرابع-العلاقات بين الحركتين الوطنية الفوراوية والليبية السنوسية

تعددت الاعتداءات الفرنسية على دياره. ويرى بأم عينيه رجالاته وأنصاره يتساقطون. لذا حاول الاستعانة بقوى أوروبية وعلق عليها آمالاً كبيرة لإنقاذه مما هو فيه. وعلى الصعيد الآخر لم يأل جهداً في القيام بتعبئة شعبية داخل بلاده لمواجهة الموقف بأن أعد جيشه. وعلى الصعيد الخارجي حاول الاتصال بالقيادات الشعبية الوداوية بغية إثارتها وإقناعها لإعلان العصيان والتمرد ضد الحكم الفرنسي في البلاد.

أما سلاطين لازال يكرر في دندنته القديمة بأن المساعي السلمية الدبلوماسية ستؤتي ثماراً دائية. بيد أن انشغال الدول الكبرى بقضية الحرب في البلقان بين تركيا ودول البلقان هو الذي أخر بحث المسألة⁽¹⁰⁶⁾.

ولكن رغمًا عن هذه الأحداث التي زعم سلاطين أنها شغلت الساحة الأوربية، فنالت كل اهتمام الدول الكبرى فإن الاعتداءات الفرنسية على حدود دارفور لم تنقطع. آخرها كان على حدود التعايشة أشار إليه السلطان بقوله: (إن فرقة من جنود فرنسا هجمت عليهم وأخذت جملة أموالهم ولا نعلم بالأسباب التي جرت على ذلك⁽¹⁰⁷⁾).

وفي الوقت ذاته درجت فرنسا على التلويح بموافقتها على طرح الأمر على الوسطاء ليكونوا حكماً في الخلاف القائم على أن لا يكون السلطان علي دينار طرفاً في التمثيل الدبلوماسي للمناقشة⁽¹⁰⁸⁾. مما لاشك فيه أن إسقاط علي دينار من أن يكون رقماً في المفاوضات هي محاولة القصد منها إسقاط واقع التاريخي في هذه المنطقة وهي خطة مرسومة تسير بخطى وثيدة.

ولا يخفى أن الموافقة على هذا الاقتراح من قبل الحكومة الثنائية يعتبر مخالفاً لما قطعت من وعود للسلطان، وفيه استبعاد لصاحب الحق من تقرير مصيره. ولو كانت بريطانيا حريصة على مصلحة البلاد وأهلها لما رضيت بهذا الاقتراح ولكنها كانت تعلم علم اليقين أن حضور السلطان علي دينار سيعزز من موقفه. وقد يجعل الأمر يخرج من السيطرة ولربما كان ذلك اتفاقاً سرياً بين الدولتين المحتلتين واقرحت

(106) السلطان إلي سلاطين في 1912/3/31م (23 ربيع الأول سنة 1331هـ) S.N.A INTELL 7/2/15

(107) استاك إلي الحاكم العام 1 مايو سنة 1913م (24 جمادي = الأولي سنة 1331هـ). S.N.A. INTELL 1/1/3

(108) المصدر نفسه.

الخارجية البريطانية اللورد كتشنر ليكون ممثلاً لبريطانيا في مائدة المفاوضات⁽¹⁰⁹⁾. أهل البلاد أهل الحق الأصيل مغيبون عن حق تقرير مصيرهم!! ولعل هذه الموافقة البريطانية تؤكد ما سبقت الإشارة إليه في إمكانية وجود اتفاق سري بين الطرفين مقتضاه إبعاد العناصر الوطنية من مائدة المفاوضات فيما يتصل بتقرير مصير هذه المنطقة وهو شأن استعماري إستغلالي قديم حديث.

وفي مايو 1913م تأكدت الحكومة الثنائية من صحة المعلومات التي أوردها السلطان قبل شهرين من أن الفرنسيين قاموا بهجوم على التعايشة⁽¹¹⁰⁾. وكانهم أرادوا بذلك أن يدخلوا آلي قاعة المناقشة وأن يجلسوا على مائدة المفاوضات وهم في موقف قوة ولهم وجود على الأرض. وبالتالي يؤكدوا بأن لهم شرعية الأمر الواقع في حالة الوصول آلي تسوية بين الدولتين في تقسيم (كعكة) دارفور. وبالتالي فلنذهب الوعود السابقة للسلطان هباء لأن المهم في هذه المعادلة هو المصلحة الإنجليزية والفرنسية أولاً وثانياً وثالثاً. وهذا الأسلوب الذي أتبعه الفرنسيون هو أسلوب قديم حديث أتبعته كثير من الحركات المعاصرة وحركاته والتمرد ضد حكوماتها قبل الجلوس على مائدة المفاوضات. ولعل ذلك يؤكد قوة مخبرات السلطان وصدق أحذوثة.

وفي يونيو سنة 1913م أعد سلاطين مذكرة تفصيلية بشأن النزاع الفوراوي الفرنسي على الحدود بين دارفور ووداي. برهن في هذه المذكرة على تبعية داري مساليت وتاما لدارفور. وركز على أهم النقاط التي تثبت ذلك حصرها فيما يلي:-
أولاً: أن الذين حكموا في الفترة ما بين (1874م - 1884م) لا يزالون أحياء ويمكن استجوابهم.

ثانياً: أن جامعي الضرائب من هذه المناطق لا يزالون على قيد الحياة.

ثالثاً: أن الحرب التي دارت بين وداي وتاما كانت بشأن المياه التي على الحدود.

رابعاً: أن هناك نقطة على الحدود يحجز عندها المسافرين حتى يأخذ الأذن ذهاباً وإياباً .

⁽¹⁰⁹⁾ S.I.R. 226/6 may 1913 .

⁽¹¹⁰⁾ مذكرة أعدتها سلاطين في 1913/6/30م. S.N.A INTELL I/I/3

خامسا: قرية (بورو) التي حاول سلطان وداي في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر أن يجمع منهما الضرائب فدارت بين الفريقين حرب من أجل ذلك لتبعيتها لدارفور .

سادسا: تيريبيا والتي أنشئت إلى الغرب من خط الاتصال تيرقا (Terga) مع وداي اسنغا (asunga) لتحديد أقصى نقطة نحو الشرق لحدود سلطنة وداي⁽¹¹¹⁾.

لا تخفي أهمية وقوة هذه النقاط التي برهن بها سلاطين على صحة دعواه والتي تثبت تبعية كل من دار تاما والمساليب لدارفور. ومن الوجهة التاريخية تشكل حججا دافعة وبراهين قاطعة. وفي تقديري أن المسألة ليست بهذه السذاجة فهي قضية أطماع استعمارية في المنطقة ودعوى أوروبية باطلة تؤكد على أن أفريقيا هي منطقة خلو وملك مباح ولذا هجمت عليها القوى الأوروبية هجمة الوحوش الضارية كما هي الحال الآن. بيد أن الأفارقة حتى اللحظة لم يدركوا أبعاد اللعبة الغربية ونحن في السودان عموماً وفي منطقة دارفور نعاني من غيبوبة تاريخية من حيث التعاطي والقراءة الذكية والوعي التاريخي. ومن جانب آخر أعدت الحكومة الثنائية هذه المذكرة بغية تقديمها لمؤتمر الوسطاء. بيد أن القضية بالنسبة لفرنسا ظلت قضية استراتيجية عسكرية في المنطقة، وقضية توسع استعماري إستغلالي وجوعه عارمة للحصول على مستعمرات لا ترددها الأدلة ولا البراهين المنطقية. لأن النهمة الاستغلالية الاستعمارية منطقتها القوة ودافعها الأطماع. وما قدمته الحكومة الثنائية لم يكن من أجل عيون السلطان بل من أجل إثبات حق النفوذ في هذه المناطق. ولربما هذا ما حدا بها في النهاية أن تتجاهل تمثيله في مفاوضات تقرير مصير بلاده. رغما عن الوعود التي قطعتها على نفسها تجاهه وله.

ويبدو أن سلاطين قد وجد وترأ وعوداً جديداً للعزف عليهما وهما انشغال الدول الأوروبية بالحرب البلقانية التركية وإيطاليا. وأكد بأن حدود دارفور لبعدها عن مسرح الأحداث لم تتل ما تستحقه من اهتمام. بيد أن الأمر سيأخذ مجراه من الاعتبار لا سيما بعد طمع فرنسا في كل من دار تاما والمساليب⁽¹¹²⁾.

⁽¹¹¹⁾ سلاطين إلى السلطان في 1913/7/28م S.N.A INTELL 7/3/14

⁽¹¹²⁾ المخابرات القاهرة في 1913/10/28م S.N.A INTELL I/1/3

هذا ودون استحياء أخذت فرنسا في عزو كل الإضطرابات في المنطقة إلي وجود السلطان علي دينار. وبدأت تتحلل أسباباً عديدة تبرر غزو دارفور. وتطلعت إلي اكتساح دارفور وإبعاد السلطان عن مسرح الأحداث. وقدمت مقترحاً بهذا المعني للحكومة الثنائية للقيام بعمل مشترك في هذا المجال. إلا أن الحكومة الثنائية لم تكن مهيأة لذلك، لذا لم تبد موافقتها⁽¹¹³⁾. علي هذا الاكتساح لأنها قدرت لو أن ذلك تم فسيكون لفرنسا في دارفور من الحق ما كان لإنجلترا في السودان مع مصر حين أدعت مساعدتها وقد تم ذلك باستراتيجية بعيدة المدى بغية إزاحتها عن حقها التاريخي.

إذن القضية كما سبق فهي ليست قضية إقناع أو حق مشروع بحاجة إلي إثبات بقدر ما هو تغول علي حقوق شعوب بأكملها. وكان من قدر السلطان علي دينار في هذه الفترة الحرجة أنه قد تولي مسؤولية بلاده. هذا في وقت تكالبت فيه القوى الاستعمارية علي المنطقة. ورأت أن لا حق لأهل البلاد الأصليين في إدارة بلادهم أو تولي مسؤولياتها. وفي ظل هذا المفهوم فالويل للغادر والثبور لمن يقاوم .

مرة أخرى حاول السلطان أن يكسر الطوق وأن يجري مفاوضات مباشرة مع القوى الفرنسية المعتدية. فقام بإرسال خطابين في يوم واحد يشكو في أحدهما أن اعتداءات جرت بين قبائل في دارفور، وما أن تغلب فريق حتى وجد طريقه إلي دار سلا التي وقعت تحت الحماية الفرنسية فراراً من وجه العدالة. فيأمل أن ترد إليه الأموال والهاربين⁽¹¹⁴⁾.

ولم يقف الأمر عند حد الاعتداء وإنما تجاوزته إلي تشجيع عملائها علي تجاوز حدوده. فمن هؤلاء بخيت سلطان دار سلا. وأشار السلطان علي دينار في خطابه الثاني للقائد الفرنسي إلي أن بخيت سلطان دار سلا قد أعدي علي حدود دارفور وأكد له بأنه سوف لا يعتدي علي أحد تحت إدارة وحماية الحكومة الفرنسية ما لم يخطر لها لردعه وأن لا فـ: (إني أعامله بمثل فعله أن حصل له مني شيء فلا تلوموني وما تعملوه يفادنا منكم)⁽¹¹⁵⁾.

⁽¹¹³⁾ السلطان إلي الكولونيل الفرنسي في 18/4/1913م (25 جمادي الأولى سنة 1322 هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/1

⁽¹¹⁴⁾ السلطان إلي الكولونيل الفرنسي في 18/4/1913م (25 جمادي الأولى سنة 1322 هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/1

⁽¹¹⁵⁾ سلاطين إلي السلطان في 25/4/1913م (30 جمادي الثانية سنة 1322 هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/3

وفي مقابل هذا السلوك الحضاري والمطالب العادلة لردع المعتدين وتقويم الخارجين علي النظام والقانون قامت القوات الفرنسية بالتوغل مرة أخرى في حدود دارفور. إمعاناً في تنفيذ إستراتيجيتها القاضية بإخراج الحكومة الثنائية لاتخاذ خطوة إيجابية إزاء احتلال دارفور عن طريق عمل مشترك وتقسيم المنطقة بين الطرفين في جلسة مفاوضات شأن الضياع الأفريقية الأخرى التي تم احتلالها. ووصلت القوات الفرنسية حتى حدود الزغاوة مما أثار السلطان. هذا في الوقت الذي يلح فيه سلاطين علي السلطان بالتحلي بالصبر ويوحى إليه بأن القضية يمكن حلها عما قريب. ويؤكد له بأنه قد بسط الأمر لسعادة الحاكم العام والمندوب السامي البريطاني اللورد كتشنر⁽¹¹⁶⁾.

ولكن يبدو من خلال المراسلات التي تقدمت الإشارة إليها من السلطان علي دينار إلي القائد الفرنسي أن السلطان بدأ يفكر جدياً في إجراء المفاوضات المباشرة مع الفرنسيين، بعد أن استبان له عدم جدية الحكومة الثنائية وتكرار وعودها الكاذبة له، وقدر أن هذه المفاوضات المباشرة أجدي حيث رأي أنها أدعى لحسم الأمر. ولربما من ناحية أخرى قد فقد الثقة في ددنة سلاطين وعوده التي لا تعدو عن كونها سراباً بقيعة .

وفي فبراير سنة 1913م سبق أن أغلق السلطان حدوده مع وداي تماماً وأوقف تجارته الخارجية معها. الأمر الذي يدل على حدوث تطورات هامة. وإحساس بالخطر من قبل السلطان علي دينار إزاء القوات الفرنسية التي لا هم لها سوي الاعتداء والسلب والنهب.

ربما كان ذلك من الدوافع القوية التي جعلت السلطان يعيد النظر في علاقاته بالقوى الأوربية المحيطة به. وبالتالي ألقى بنظره بعيداً عن هذه القوى التي تضرر له العداء، وتتطلع إلي القضاء عليه، والتي لا يجمعها معه دين ولا وطنية. لذا كان من الطبيعي أن يلبي نداء الجهاد ضد أعداء الإسلام من إنجليز وفرنسيين. هذا إذا علمنا أن الروح الديني والحس الإسلامي كان عميقاً في نفسه. وأن الأثر المهدوي لا يستبعد أن

يكون قد ترك بصماته علي شخصيته ونظرته للأوربيين من حيث عدم الثقة بهم وانتمائهم. فقدان الثقة الدائم فيمن حوله من قوي أوربية وشعوره وإدراكه لأبعاد أطماعها في بلاده، وتزوده بالروح الاستقلالية، وتشبعه بفيض إيماني عميق بدينه وتراثه، وتسلحه بالدين يعتبر ذلك من أقوى العوامل التي شجعت له لتلبية نداء الدعوة الجهادية في العالم الإسلامي وجعلته يقف وحيداً في هذه المنطقة ضد الأطماع الأوربية الاستغلالية. وكان على استعداد للتعاون مع أية قوة إسلامية في المنطقة لطرد النفوذ الأجنبي من بلاد الإسلام.

لاشك أن هذه الصفحات المشرقات من تاريخ علي دينار وحكمه لدارفور كما إن الأحداث التي شهدتها دارفور خلال تلك الحقبة الهامة من تاريخها ومن تاريخ المنطقة العربية والأفريقية تشكل أرضية صلبة وقاعدة راسخة ومعطى يتطلب دراسة وتأملًا. وأن أجيال اليوم ينبغي أن تقرأ مفردات هذه المنطقة بوعي تاريخي يقظ وبحس عقلائي متقد راشد. لأن ما يحدث اليوم من سيناريوهات وأدوار لا يعدو عن كونه صدى لأحداث الأمس. وإن أي محاولة لجر دارفور لحرب أثنية أو عرقية أو حرب تطهير عرقي لا تعدو عن كونها معولاً لهدم أمجاد هذه المنطقة التي تمكنت باقتدار وبفاعلية أن تغدو بوتقة انصهار لمدة خمسة قرون من الزمان نتجت عنها شخصية سودانية متميزة ثقافة ووجوداً وفكراً وروحاً وخلقاً وقيماً وأعرافاً. وأن وصف ما يدور في دارفور الآن بأنه حرب بين عرب وزنوج هو ضرب من الهرطقة وقدر من الجنون ومستوى من العمالة المغلفة التي ترمى آلي ضرب السودان في أهم مفاصلة التاريخية التي يستمد منها وجوده. لأن ما ينبغي تأكيده أولاً لا توجد عرقية خالصة في أفريقيا فالعرب جاءوا رجالاً بدون نساء فتزاوجوا من أهل البلاد الأصليين وإذا أخذنا بنسبة مئوية فإن الساميين جرت في عروقهم دماء حامية وإن الحاميين جرت في عروقهم دماء عربية ويمكن الرجوع إلي كتابنا بهذا الصدد - العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ - لاكتشاف حقائق هذه النماذج وأن بروز مفاهيم القومية والعنصرية والعرقية هي مفاهيم مستوردة غربية على ماضينا وتاريخنا وموروثنا الثقافي والديني والروحي وإجتماعي .

الباب الخامس

العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر

الفصل الأول:

العلاقات بين دارفور والحجاز

الفصل الثاني:

العلاقات الفوراوية العثمانية ومصر

الفصل الأول

العلاقات بين دارفور والحجاز

إن صلة سلطنة الفور الإسلامية بأرض الحرمين صلة طبيعية درجت عليها أغلب الممالك الإسلامية في العصور الإسلامية الوسيطة، والحديثة والمعاصرة. وذلك بسبب الحج والذي يحتل مكاناً خاصاً في قلوب مسلمي شمال وغرب أفريقيا وبلاد السودان⁽¹⁾.

كما أن مرور طريق حجاج غرب أفريقيا عن طريق البحر الأحمر بعد قيام الممالك الإسلامية في السودان النيلي بالإضافة إلى طريق شمال أفريقيا ربط دار فور تلقائياً بحركة الحجيج. وبالتالي لقد أضحت تشكل محطة التقاء هامة ونقطة ارتكاز ضرورية وبوتقة انصهار عرقي متفردة.

ومما لا شك فيه أن الحج كان يمثل نافذة هامة لهذه الممالك يربطها بمنابع الإسلام وكثيراً ما استقدم وكلاء السلاطين الفور العلماء من الحجاز بتكليف من السلاطين والتزم السلاطين الفور إزاء تلك المسؤولية التاريخية والمكانية التزاماً أدبياً وفعالياً بأداء خدمات أوجبوها على أنفسهم إزاء الحرمين. يعكس ذلك رسالتان بعث بهما إبراهيم قرص (1873-1874م) آخر سلاطين الفور إلى عبد الله شريف مكة ورد في أولهما (من أمير دولة الفور السلطان إبراهيم إلى حضرة ... الشريف عبد الله وأصل إليكم الحاج إدريس وصحبته ثلاث آلاف ريال ... يصل حضرتكم وما باقي يصير بتصرفه⁽²⁾). إن هذا المبلغ بكل المقاييس كان يشكل إعانة كبيرة ودفعاً قوياً للسلطة

⁽¹⁾ Umar AL-Nagar "The Pilgrimage Tradition In West Africa Sudan.Khartoum" Khartoum University Press (1972) p. 4 - 34.

⁽²⁾ دار الوثائق القومية المصرية د 1/3/104.

القائمة في مكة وهو التزام أدبي وروحي ظلت دار فور تقوم به إزاء مكة والمدينة، لمدة خمسة قرون من الزمان بدون من أو أذى في فترات الشدة وضنك العيش الذي كانت تواجهه بلاد الحرمين. وهو مساهمة كبيرة وذات اثر بالغ. وبالتالي يؤكد بأنه كان للسودان الحالي يد طولى على بلاد الحرمين وأن هذه السلطنات كانت داعماً قوياً ودائماً لبلاد الحرمين دون انقطاع.

ولم يقتصر دعم دار فور على المال وإنما تعداه إلى الرجال حيث ورد في رسالة أخرى لإبراهيم قرض بعث بها إلى شريف مكة (قد أرسلنا الحاج إدريس صحبة المذكورين. ست اغوات - متوجه للحرمين معه صرة لمكة واغوات لخدمة البيت، وصرة لمدينة الرسول ومعها اغوات لخدمة الحرم الشريف)⁽³⁾.

من هنا يتضح أن دار فور كانت مصدراً هاماً للاغوات. وكانت تقوم بواجب الإنفاق عليهم بعد وصولهم لأرض الحرمين وقيامهم بواجب السدانة. وهذا قدر من الالتزام الطوعي الذاتي يقوم به سلاطين دار فور طوعاً واختياراً تعبيراً عن رابطة العقيدة القوية التي تربطهم بالبيت الحرام والمسجد النبوي الشريف. يشكل هذا الجهد تاريخاً ناصعاً لدار فور ينبغي أن يكتب بمداد من ذهب وحق لدار فور وأهلها أن يفتخروا بهذا التاريخ المجيد. وأن يرتقوا الآن إلى مستوى هذه المكانة التاريخية السامية لا أن يتقاتلوا من أجل تحقيق ذواتهم الفانية والكسب الرخيص .

وفي الوقت ذاته فقد شاركت دار فور بهذا الجهد المادي السنوي في رفع مستوى الفرد الاقتصادي في كل من مكة والمدينة. هذا بواسطة إرسال صرة الحرمين لإنفاقها على الفقراء في هاتين العاصمتين الإسلاميتين. وبذا تكون قد حققت ما أمكنها من أقدار التكافل الاجتماعي والاهتمام بأمر المسلمين. ولعل الوثيقة التالية تلقى الضوء على ما مر حيث ورد فيها: (من أمير دولة فور السلطان إبراهيم المعتصم بالله تعالى أمين إلى حضرة المتسلم كبير الاغوات خادم الحرم المدني... واصل إليكم ألف ريال وباقي الصرة لكم تفريقها على يد الحاج إدريس⁽⁴⁾). أن كان هذا الأمر قد يحدث في الماضي

(3) دار الوثائق القومية المصرية ج 1/3/104.

(4) دار الوثائق القومية المصرية: المصدر نفسه.

البعيد فإن هذا الخطاب قد صدر مثيله في الربع الأول من القرن العشرين. كما يدل ذلك على أن سلاطين الفور كانوا يعتبرون ذلك إلتزاماً أخلاقياً وأديباً إزاء الحرمين وسلطانها وإزاء ضيوف الرحمن وهو من باب السقاية والإطعام.

غني عن القول أن هذا الارتباط بمنابع الدولة الإسلامية ربما كان يمثل مذاقاً خاصاً ويحتل أهمية عالية في نفس على دينار. حيث كان يحس بخطر ماثل من التغول المسيحي على الدين الإسلامي يستشف ذلك من مراسلاته مع السنوسي عن طبيعة هذا الخطر حيث أكد في إحداها أن أهل السودان الغربي قد اعتنقوا المسيحية⁽⁵⁾. أما أهل السودان الشرقي فقد اتبعوا النصارى (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا)⁽⁶⁾.

ولا يغفل أن اهتمام السلطان على دينار بالحجاز ناتج عن إدراكه لدور الحكومة المصرية في القضاء على ملك آبائه بواسطة جيوش الزبير ود رحمة. ولما لم يكن منذ البداية مطمئناً إلى استمرارية التعامل التجاري المعهود بين دارفور ومصر عن طريق درب الأربعين كان من الطبيعي أن يبحث عن منافذ تجارية جديدة لبلاده التي تعول كثيراً في اقتصادها على التصدير.

وقد رأينا أن تقاربه مع السنوسي كان يحمل في طياته هذه الأهداف الاقتصادية البحتة إلى جانب الروابط الأخرى. وربما كان يأمل أن تكسو حركة قوافل الحج محاولاته لاستيراد السلاح قناعاً دينياً يحميها من رقابة الحكم الثنائي الذي كان ينظر إلى تلك المحاولات بعين الشك والريبة. وأخيراً يجب أن لا ننسى أن حرص السلطان على المحمل كان وراءه مقصد الدعاية للسلطنة الوليدة والتعريف بها وكسب الشرعية لها من مختلف القوى الإسلامية. ولكي يقر مبدا إرسال المحمل وينتزع اعترافاً ثنائياً بذلك قدم له بمقدمة فحواها: (بغاية الوفا إذ كانت المدة الماصية السابفة زمن المتقدمين آباءنا سلاطين دار فور لهم عوا يد وشروط وحدود معلومة وهدايا تقدم لوالى مصره ومحمل يرسل لبيت الله الحرام ويؤذن لنا بإرسال هدية بيت الله الحرام في كل

(5) المصدر السابق.

(6) السلطان إلى أحمد الشريف في 1916/1/28م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ) D. S. A. Box 129/2.

عام⁽⁷⁾. إن مساعدة مصر ومساعدة بلاد الحرمين وسلطانها في إدارتها كان تقليداً وقدرأ موروثاً والتزاماً اقتضته المروءة من قبل سلاطين دار فور. وهو التزام ذاتي دافعه ديني أخوي في المقام الأول مما يوحى بسعة أفق الفور وتفوقهم على ذواتهم فيما مضى عكس ما يجري الآن على الساحة من ضيق أفق ومحدودية أهداف وذاتية رؤية وقصور نظر لدى كل التنظيمات التي تتولى النظر وإدارة الأمر في دار فور حيث وقعت أسيرة نظرة حزبية وعرقية ننته، فأرادت تشويه جمال تاريخ يعج بالإنجاز والإبداع والإقدام والابتكار وفعل الخير، حيث اختزلت كل ذلك في جملة أهداف وضیعة غايتها تحقيق الذات الإنطوائية ذات النزعة الضيقة والميول العرقية .

ما مر سرده يؤكد على أن حكمه امتداد لمسيطرة فوراوية. وإن فترته هي إحياء لمجد سلطنة الفور الإسلامية. لذا لا غرابة أن قام بأداء التزامات السلطنة ومراسيمها وتقاليدها أمعانا في الاستقلال وتأكيدا لحقه في الحكم.

أبدى السلطان رغبة أكيدة في الارتباط بأرض الحرمين حيث طلب من الحكومة الثنائية تيسير الطريق وحمايته لقافلة الحج الفوراوي. حتى يتسنى له إرسال المحمل الذي اعتاد أسلافه على إرساله سنوياً إلى كل من مكة والمدينة. وأجابه الحاكم العام بأنه على استعداد لتسهيل ما يمكن لبلوغ المحمل مجله⁽⁸⁾ .

ولئلا يثير السلطان شكوكاً حول الأهداف المستكنة للمحمل أكد للحكومة الثنائية في خطاب سابق أن المحمل هو إرسال هدية بيت الله الحرام. هذا بعد أن قرر أن سلطنة الفور هي سلطنة عريقة ذات أمجاد ضاربة في شعاب الزمن. وذات صلات خارجية قديمة. وهو يبغى نهج سلفه ثم يردف قائلاً: (.... ويؤذن لنا بإرسال هدية بيت الله الحرام)⁽⁹⁾.

وهدية بيت الله الحرام هي ما يعرف بصره الحرمين التي اعتاد سلاطين هذه البلاد إرسالها بغرض تفريقها على فقراء الحرمين. هذا بالإضافة إلى الكسوة وأموال أخرى ترسل إلي القائمين بأمر الحرمين لتصرف شؤون بلادهم.

(7) ونجت إلى السلطان أول مايو سنة 1901م (محرم سنة 1319هـ) S.N.A.INTELL. 1/1/2

(8) السلطان إلى السردار في 11/1900م (9 رمضان سنة 1318هـ) S.N.A.INTELL. 7/1/2

(9) السلطان إلى السردار في 9 شوال سنة 1318هـ (12 يناير سنة 1901م) S.N.A.INTELL. 7/1/2

وبعد حصوله على الموافقة بتسهيل إجراءات المحمل حيث لا منفذ إلا عبر أراضي السودان الشرقي وهي واقعة تحت نفوذ وسيطرة الحكم الثنائي. بدأ يعد العدة لاستئناف ما أنقطع من سيرة أسلافه

وكان السلطان مثل غيره من مئات ملايين المسلمين الذين يتطلعون إلى رؤية بيت الله الحرام وزيارة مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وهو شوق سوداني متين نابع من حب خاص للرسول صلى الله عليه وسلم لدى أهل السودان تعبر عنه أشعارهم العامة والفصيحة وأمثالهم ومأثوراتهم المنقولة في الأدب الشعبي فيما يسمى بأدب المدائح. وعبر السلطان على دينار عن هذا الشوق في خطاب بعث به إلى شريف مكة في سنة 1321هـ، سنة 1902م مبدياً رغبة أكيدة في زيارة الأراضي المقدسة، ويذكر أن من فضل الله عليه أن أعاده إلى عرش آبائه وأجداده. وبعث بألفي ريال مجيدي، ألف منها يوزع في مكة على الفقراء وخدم البيت الحرام. والألف الآخر يقسم في المدينة على نفس الأساس⁽¹⁰⁾. كرم وإيثار وتضحية ظلت دارفور موئلاً لهذه المآثر. بيد أن ذلك بعيد كل البعد عن ممارسات النهب المسلح الآن وقتل الأبرياء واستعداد القوى الأجنبية على هذه المنطقة التي جسدت طرازاً متميزاً من حيث العطاء والمبادرة إلى فعل الخيرات في يوم من الأيام، بينما أمست الآن لقمة تمضغها كل أجهزة الإعلام وجيفة تتصارع عليها ثعالب وكلاب وخنافس وعقارب وبنات أوى العالم الغربي دون استثناء. وأبناء دارفور ومفكروها وسياسيوها في غيبوبة الوعي السياسي والفكري والاجتماعي غير قادرين على تحمل المسؤولية التاريخية.

يبدو أن هذه الرغبة حال دون تحقيقها خوفاً من أن يورط نفسه بمقابلة مسؤولي الحكومة الذين لا يؤمن جانبهم. وعكس في هذا الخطاب شعوره بالنعمة التي منحها الله إياه بإعادته إلى عرش آبائه وأجداده.

وفي العام التالي وصله خطاب شكر على إرسال محمل تلك السنة من قبل أمير المدينة يثنى فيه على حماسه الديني⁽¹¹⁾.

(10) على دينار إلى شريف مكة في 1321هـ (1902م) S.N.A.INTELL. 2/3/12

(11) S.I.R. 108/3 1st AUGUST 1903

وإمعاناً من السلطان في اتجاهه الإسلامي الأصلي حاول القضاء على الدعاة حتى في حدود الحكومة الثنائية. وذلك بإرسال مبعوثين لإحضار كل الداعرات بواسطة إغرائهن بالزواج أو بوسائل أخرى. وبعد إحضارهن إلى الفاشر فمن تابعت منهن ورضيت بالزواج الشرعي عفي عنها ومن لم ترضى قضى عليها بالرجم⁽¹²⁾.

ولا يخفى أن ذلك الإجراء فيه مطعن على الحكم الثنائي الذي يسمح بممارسة البغاء في ظله. ومن البديهي أيضاً أن الحكم الثنائي لا يستطيع أن يقف في وجه السلطان فيما يتصل بأمر البغاء. لاسيما في بلد لا يزال اثر الثورة المهدية فيه قوى بيد أن الاستعمار من أهدافه الاستراتيجية هو تدمير الجانب الأخلاقي في الأمة وانتشار الدعاة إحدى هذه الوسائل التي عن طريقها يمكن أن يبثد طاقة المجتمع ويهدد كرامته. وهو نهج ماسوني قديم حديث إذ أن كل الانهيارات الأخلاقية والقضاء على رجولة كثير من القيادات السياسية والاجتماعية والفكرية هو عمل مخطط. كما أن اختراق كل الجدر الأخلاقية في المجتمع المسلم هو هدف استعماري ذو أبعاد استراتيجية. وللأسف أن معظم أشباه الرجال من هذه القيادات بمستوياتها المختلفة هي التي تبوأ المناصب وقادت الأمة إلى البوار والهلاك .

أن هذا الإجراء العملي الذي اتخذته السلطان بصدد تطهير المجتمع المسلم وتنقيته من شوائب الفساد. متجاوزاً مفهوم حدود بلاده وأقليمته له دلالاته وإبعاده من حيث شمول النظرة الإسلامية التي تمتع بها السلطان. ومن حيث الشعور بالواجب. وتدل على قراءته الذكية لمعطيات الواقع في محاولة جادة لإبطال المشاريع الاستغلالية الاستعمارية في المنطقة. وبذلك أثبت أنه أنكى من كل القيادات السياسية الآن.

ومنذ أن بدأ السلطان في إرسال المحمل سنوياً إلى الحرمين الشريفين لم يتأخر سنة واحدة. وأصبح يعين أميراً للمحمل كل سنة ويطلب من الحكومة الثنائية تسهيل إجراءاته حتى يبحر من سواكن حيث يقول سنة 1321هـ : (إني قد وجهت الأفكار بإرسال الوقف للحرمين الشريفين وقد تجهز والآن قادماً لأرض الحجاز المعين من

ملوكنا المكرم صالح على ... فغاية الأمل ... يقوموا بواجبات سفره بكافة من معه وتحرروا له لمديرون المحطات بربر ولغاية سواكن ولا يأخذون منهم أجره في ذهابهم وإيابهم⁽¹³⁾.

وحفاظاً على حسن العلاقة معه قامت الحكومة الثنائية مراعاة لشعوره بكل التسهيلات اللازمة للمحمل. وبالفعل قد عاد المحمل (ومن معه من المعنيين بالسلام)⁽¹⁴⁾.

ولم يقتصر دور المحمل على الصرة والأوقاف التي تسدى إلى الحرمين بقدر ما كان يرمى إلى أن يقوم بنشاط تجارى وتبادل اقتصادي يعتبر اتجاهاً أصيلاً في سياسة السلطان الخارجية. حيث أن تعدد المصادر والموارد من الأهداف الرئيسية في سياسة السلطان. وتحت قناع المحمل ولكي يحمي تجارته الخارجية من وطأة ضرائب الحكومة حين مرورها عبر أراضيها. لذا طلب من الحكومة الثنائية أن لا تفرض ضرائب علي صادراته. وأن تسمح، له بحرية التجارة سواء في داخل أراضي الحكومة أو خارجها. وأن يترك تقدير الربح والخسارة والمكاسب الاقتصادية لقادة المحمل بقوله: (لنا أحد عشر قنطار سن فيل ونصف قنطار سن فيل وسبعة عشر مربوع ريش نعام وثلاثين نعام أسود وأربعة وثلاثين رطل ريش ريده مرسوله منا للحجاز ... تعطوهم تصريح بعدم تعرض أحد إليهم أن جماعتنا أن وجدوا أثمان السن والريش متحسنة بأم درمان ورغبوا مباعها امنعوا صاحب الدخولية (الضرائب أو الجمارك) بحيث لا يأخذ منهم شيئاً وأن لم يوافقهم الثمن وتوجهوا بها للحجاز أعطوهم تصريح بعدم تعرض إليهم)⁽¹⁵⁾ إن المحمل الفوراوى كان يمثل سفارة بكل معانيها الثقافية والروحية والفكرية والإجماعية والتربوية والإعلامية والسياسية والعسكرية.

(13) على دينار إلى سلاطين في 6 رجب سنة 1321هـ (1903/10/6م) S.N.A. INTELL. 7/1/5

(14) على دينار إلى سلاطين في 1604/9/20م (27/ جمادى الآخرة سنة 1322هـ) S.N.A. INTELL. 7/1/6

(15) علي دينار إلي مفتش عموم السودان في 1906/9/18م (18 شعبان سنة 1324هـ) S.N.A. Intell 7/1/8

وتعدي دور المحمل النشاط الروحي والثقافي الكائن بنقل العادات والتقاليد والمعارف إلى النشاط الذي يقتضي تبادلاً تجارياً واسعاً. ثم النشاط العسكري الذي استدعي استجلاب الأسلحة وتوفير إحتياجات السلطنة من هذا الجانب. فكان المحمل عبارة عن بعثة دينية وعلمية وتجارية وعسكرية ولعل ما يأتي من نصوص يلقي الضوء علي هذه الحقائق حيث يطلب السلطان من الحكومة الثنائية التسهيل للشيخ محمد سيمائي قائد المحمل بقوله: (أن المحمل الشريف تعين من طرفنا ومرسول للحجاز برفقه مرسولنا محمد الشيخ سيمائي، ومن معه من الفقهاء وأولادنا وغيرهم لرغبتنا في سرعة توجههم نرغب حال وصولهم الخرطوم سفروهم بوقتهم بالسكة حديد ويتحرر سواكن يركبهم علي الوابور لجدة ولا يأخرهم).⁽¹⁶⁾

إشارة المحمل الشريف تحمل أبعاد القداسة للمقصود حتى سمي به القاصدون. المحمل إذن تضمن سفارة كاملة بشتي تخصصاتها من مسؤول عن المحمل ومبعوث تجاري وبعثة توعية وإرشاد .

أما النص التالي فيلقي الضوء علي الجانب العسكري للمحمل حيث يقول علي دينار (في المرة الأولى العرب البدو إن تعرضوا بجماعتنا بطريق المدينة وضابقوهم ولأجل ما صار منهم أعطينا جماعتنا أسلحة نارية متوجهين بها لأجل حفظ نفوسهم وأيضاً أعطوا مرسولنا محمد الشيخ سيمائي أمر كافي تأذنه فيه بمشتري الأشياء التي تليق بنا ويكون من آلات السلطنة ويجدها هناك يشتري بها ويحضرها إلينا ولا يتعرض له فيها أحد بكافة جهات الحكومة).⁽¹⁷⁾

يلقي هذا النص الضوء علي الحالة الأمنية التي كانت تسود الحجاز. ويحكي عن الحالة التي كانت تسود هذه المنطقة قبل هيمنة الحكومة السعودية علي منطقة الحرمين الشريفين وما جاورها، كما يلقي هذا الخطاب الضوء علي الدور المنوط بالمحمل لأداء دوره كاملاً بأن يقوم بحماية أفراد من بدو الجزيرة العربية قطاع الطريق الذين درجوا علي نهب كل ما تحمله قوافل الحجيج وزوار البيت العتيق. ومما لا ريب فيه أن

⁽¹⁶⁾ السلطان إلي السردار في 1906/9/8م (18 شعبان سنة 1324هـ) S.N.A INTELL 7/1/8

⁽¹⁷⁾ علي دينار إلي سلاطين في 1906/9/18م (18 شعبان سنة 1324هـ).

محملاً في عددية وأهمية محمل دار فور لابد أن يكون كامل الإعداد والعتاد. وذلك مما اقتضى السلطان أن يسلح أفراد محمله لضمان أداء المهمة الموكلة إليهم وللا يفاء بالالتزامات التي أوجبتها السلطنة في عهده علي نفسها سيراً علي نهج أسلافه. ولقد كان محمل دار فور يتوف علي المائتين والخمسين شخصاً⁽¹⁸⁾. مما يدل علي عظم الجهد المبذول لأعداده من حيث النظام والإنفاق ووسائل النقل وتكاليف الزاد والحفاظ علي سلامة أفرادهم، ولعبت الحكومة الثنائية حفاظاً علي حسن الجوار دوراً هاماً في مجال التسهيلات المطلوبة. حيث ذكر المفتش في خطاب للسلطان ما نصه: (أن رسولكم محمد الشيخ سيمايي أمير المحمل ومن معه من الفقهاء والمشايخ قد وصل وقابل سعادة أفندم السردار والحاكم العام وشاهد المحمل وكامل المعدات التي أرسلتموها وقد كتبت للحكومة بالخرطوم لمصلحة السكة حديد بأن يرحلوا الشيخ سيمايي ورجالكم إلي سواكن. أما السفر من سواكن إلي جده بحراً والحجاز ... أن الواجبات التي تنقل الركاب لا علاقة لها بالحكومة بل هي ملكاً لتجار وشركات أجنبية).⁽¹⁹⁾

كان السلطان بعد شعوره بموقف الحكومة الحذر تجاه تزويده بما يحتاجه من سلاح قد ازداد حرصه علي تعدد مصادر استيراد السلاح. ويبدو أن طلب الآن بحمل السلاح لحماية المحمل لم يكن صادراً عن غير قصد. بل إن الهدف من ذلك التمويه وجعل الحكومة تغفل جانب تفتيش الأسلحة. ألا أنها كانت حذره تجاه علاقات السلطان بالحرمين الشريفين. وقامت بضبط كميات من الأسلحة تم استيرادها من أرض الحرمين الشريفين رفقة المحمل ويشير السلطان في خطاب احتج فيه علي إجراءات الحكومة السابقة ويفند مبررات الحكومة بقوله: (أن أتباعنا رفقاء المحمل الملكي عادوا من الحجاز وأنهم أحضروا معهم عدداً من الأسلحة الثارية والجباخين بدون معلومية الحكومة ... والحال عندنا أننا عند إرسال المحمل الشريف من هنا أخبرنا سعادتكم بمقدار الأتني قنطار سن فيل والريش الذي بيد المحمل، ولو ثوقنا بالحكومة وثقتها بنا

⁽¹⁸⁾ S.I.R 149/2. 4th. Nov. 1906

⁽¹⁹⁾ سلاطين إلي السلطان في 1906/12/3 م S.N.A INTELL 7/3/7

وكوننا حالة واحدة معها، وبالنظر أن عربان البدو قطاع طريق الحرمين الشريفين أمرنا أمناء المحمل أن يشتروا الأسلحة النارية من خالص حقنا ليحفظوا بها أنفسهم). (20)

هذا الخطاب تبدو فيه نعومة الخطاب الدبلوماسي. ويعكس مدى ذكاء السلطان وقدرته على المراوغة وأنه كان يعد نفسه لليوم الأسود ولكن بنفس طويل، كما يقرر الخطاب السابق دور المحمل العسكري في تسليح السلطنة وتوفير احتياجاتها العاجلة من الأسلحة من أرض الحرمين الشريفين. ولم تكن الحكومة الثنائية بدورها غافلة عن هذا الدور. لذا لا غرابة أن بدأت بتفتيش المحمل ومصادرة الأسلحة المستوردة حتى تضيق الخناق على موارد السلطان الخارجية. وتكون الحكومة الثنائية بهذا الإجراء الإحترازي قد أبطلت مفعول كثير من المحاولات الفوراوية الرامية إلى تقوية سلطانها وترسيخ أقدامها وتمكين استقلالها.

وقام السلطان بجهد ملحوظ بغية تخليص الأسلحة المصادرة والتي استجلبت من الحجاز. وتحت ضغط المطالبة وإلحاحها وافق المفتش العام على إطلاقها⁽²¹⁾. إذن كانت المصادرة هي محاولة من الحكومة الثنائية لأشعار السلطان بأنه تحت المجهر والمراقبة التامة. وينبغي عليه ألا يكرر المحاولة أو ذات الأسلوب مرة أخرى. وبذا تكون الرسالة قد وصلت إلى السلطان على دينار بصورة أكثر وضوحاً وجلاء بهذا الأسلوب الثنائي المباشر.

يؤكد ما مضى أن دور المحمل كان أوسع وأكبر من أداء الفريضة ورفع مستوى الحالة الاقتصادية لأهل الحجاز، وتحقيق قيمة التكافل الاجتماعي بمفهومها الذي يتجاوز حدود الإقليمية الضيقة والوطنية البغيضة إلى ميدان الإسلام الأرحب. هذا بإرسال صرة الحرمين. وإنما كان للمحمل هدف عسكري كما تقدم.

وشعر السلطان بتضييق الخناق عليه من قبل الحكومة الثنائية ومماطلتها له في إمداده بما يحتاجه من عتاد وسلاح. ولم يكن تفكيره في فتح منافذ أخرى لاستيراد

(20) السلطان إلي سلاطين في 1907/9/23م (16 رمضان سنة 1325هـ) S.N.A. INTELL 7/1/9

(21) سلاطين إلي السلطان في 1908/12/17م (15 محرم سنة 1326هـ) S.N.A. INTELL 7/3/9

السلاح أمراً مقصوداً لذاته. بقدر ما دعت إليه الحاجة والتفكير المستقبلي الجاد في توفير احتياجات سلطنته الحربية وخلق علاقات سياسية ينتزع بها اعتراف القوى الإسلامية المحيطة. ويؤكد بها استقلال بلاده تماماً سواء من الحكم الثنائي أو غيره من القوى الاستعمارية الأخرى التي بدأت تتمدد على حدوده الغربية، لأنه أصبح في فوهة نارين أحلاهما مر وبين فكي كماشة. الاستعمار الألماني والفرنسي في الغرب والإنجليزي في الشرق.

وفي سنة 1327هـ - أنفذ السلطان المحمل الذي أصبح يعرف في الدوائر الثنائية (بالمحمل الشريف)⁽²²⁾. إن هذا اللقب بهذا الشكل يضاف على المحمل هبة أراد بها السلطان أن يحمي تجارته الخارجية في ظلها. ويعكس هذا الاهتمام الفوراوى بالمحمل الذي يعتبر بحق بعثة دبلوماسية تقوم بدور هام في مجال العلاقات الفوراوية الحجازية.

وبلغت عددية المحمل سنة 1327هـ - مائة وخمسة وثلاثون حاجاً تحت قيادة الشيخ محمد سيماوى. ووصل الخرطوم في 15/11/1909م. وسواكن في 30/11/1909م⁽²³⁾.

ويبدو أن علاقات السلطان الخارجية بالحجاز تجاوزت حدود إنعاش الحالة الاقتصادية وتحقيق التكافل الاجتماعي في الحجاز إلى مائدة النقاش والمفاوضة المباشرة مع الحسين بن على حول موقفه من تركيا الأمر الذي حدا بالأخير أن يكتفي بالعبارة التالية في رده: (جناب صاحب دار فور الأعز على دينار سلمه الله وصل كتابك ولولا حشمة حامله الشيخ محمد لم نجيب عليه وإما ذكر تحرر)⁽²⁴⁾. هذا الكلام المقتضب وحدته غير المعهودة تعكس حقيقة مؤداها أن شريف مكة كان متورطاً في علاقته مع الحلفاء حتى النخاع، وأنه كان مخدوعاً حال كثير من القيادات العربية التي لا تعي عبر التاريخ فيما مضى وحالياً. والآن ما يجرى في دار فور هو فصل من

(22) السلطان إلي سلاطين في 10/7/1907م S.N.A.INTELL. 7/1/9

(23) S.I.R. 184/4-5, Nov. 1909

(24) الحسين بن على إلي السلطان في 7/12/1909م (25 ذو الحجة سنة 1327هـ) S.N.A. INTELL. 2/3/12

فصول الغباء السياسي والقراءة غير الذكية والواعية لمفردات الماضي ومعطيات الحاضر وفق رؤية استراتيجية. وليت الشريف (شريف مكة) استيقظ من غفوته وسبائه العميق واستجاب لنداء العقل وانحاز إلى معسكر الخلافة الإسلامية. ولكنه لم يفعل وانجرف مع تيار الكثرة الكاثرة والأغلبية المغفلة وظن أن خلف السراب ماء.

هذه المحاولة الفوراوية هي في الواقع حث للشريف بالتزام الجماعة ووحدة الصف الإسلامي بمراجعة علاقاته مع السلطان العثماني - العاهل الأكبر للمسلمين آنذاك. وكان الهدف من كل ذلك الوقوف أمام تحديات الغرب المسيحي في ديار المسلمين. مما يوحي بأن السلطان على دينار بكل المقاييس كان أكثر وعياً وذكاء من القيادات المعاصرة على مستوى السودان بل على مستوى العالم العربي وهو أنكى من قيادات اليوم سواء في الخرطوم أو في دار فور أو في فنادق العالم أو حانات أوروبا.

ويبدو أن تحركات السلطان على دينار قد تجاوزت حدود مملكته. هذه التحركات لا يمكن أن تنسب أبداً إلى أطماع شخصية. بل هي قد تجاوزت دون شك تلك الأفاق المحدودة. وفي الواقع فإن تلك السياسة في مجملها ترتفع على دينار من حاكم محلي صغير متسلط - كما تصوره مخابرات الحكم الثنائي في بقية أنحاء السودان من خلال دسائس الاغتيال الشخصي كما مر في الباب الثالث - إلى طليعة زعماء العالم الإسلامي الذين أدركوا دون غيرهم ومنذ بدايات القرن العشرين طبيعة ما يتعرض له الإسلام والمسلمون من أخطار من جراء التوغل الأوربي. فأهابوا بالمسلمين بضم صفوفهم والوقوف أمام ما يتهددهم. وبينما كان أغلب الدعاة من أولئك النفر من بين رجال الفكر كالأفغاني ومحمد عبده أو رجال الحرب كعرابي ومحمود سامي البارودي، فإن على دينار ينفرد عنهم بأنه سلطان سليل سلاطين. ومن هذا الجانب فلم يسبقه سوى محمد أحمد المهدي وخليفته الذين تجاوز اهتمام دعوتهما حدود السودان. ودعيا سائر المسلمين إلى الهبة أمام فساد الحكم التركي.

وهنا يرد سؤال هل كان علي دينار وريثاً لتلك الدعوة؟. في الحقيقة إن علي دينار انف من التبعية للمهدية أيام دولتها. إلا أنه غني عن القول تأكيد تأثيره بطرحها للقضايا الأساسية والرامية إلى ضرورة دعوة المسلمين إلى نقاء العقيدة الأولي. وإن الخلاص النهائي لا يمكن أن يكون جهداً إقليمياً معزولاً. ولكنه يجب أن ينتظم العالم الإسلامي بأكمله. وإن مجيئه إلى أم درمان لم يكن عن رغبة حقيقية واقتناع فكري بالطرح المهدوي ولكن تعبيراً عن قراءة موضوعية وتعاط ذكي مع مفردات ومعطيات الواقع وتكتيكياً مرحلياً إلى أن تحين الفرصة، وقد حانت تلك بمجيء القوات الغازية إلى أم درمان. وبالرغم من ذكاء الخليفة وحذره إزاءه فقد أثبت السلطان أنه كان أذكى من الخليفة حيث كان يقوم بتجنيد أتباعه ويعددهم لساعة الانفصال عن الدولة المهدوية واستعادة مجد آبائه.

وتوقف إرسال المحمل بعدئذ لأكثر من عامين. ربما كان ذلك لسوء العلاقة الفوراوية الحجازية نتيجة لسوء التفاهم الذي تعكسه العبارة السابقة. أو لربما نتج ذلك عن سوء الحالة الاقتصادية الفوراوية نسبة لظروف الحرب الفوراوية الفرنسية التي استنزفت جهد البلاد وطاقتها و أنهكت اقتصادها. وقد يكون السبب غير هذا أو ذاك حيث لا تكشف المصادر النقاب عن ذلك. وما مضى لا يعدو عن كونه استنتاجاً واستخلاصاً بل استقراء على وثيقة تالية تبينه. ويطلب السلطان من الحكومة الثنائية تسهيل مهمة المحمل وتهيئة الظروف أثناء عبوره⁽²⁵⁾.

وبالفعل وصل المحمل تحت إمارة الشيخ محمد سيماي إلى الخرطوم وتوجه من ثم إلى سواكن⁽²⁶⁾. وظلت العلاقات الفوراوية الحجازية قائمة على أساس التبادل التجاري والثقافي. وشكلت دارفور لفترة طويلة من الزمان مصدراً اقتصادياً هاماً للحجاز. وأضحى الحجاز بدوره مورداً هاماً لتزويد دارفور بالسلاح. وكانت هذه العلاقة على قدر من المتانة وثق عراها الرابط العقدي ولعل ما مضى يمكن إدراكه في ضوء المعطيات التالية. حيث كان المحمل يشكل وفد دارفور لأداء الشعيرة الإسلامية

(25) السلطان إلى سلاطين 1631/8/9م (15 شوال سنة 1331هـ) S.N.A.INTELL. 7/2/15

S.N.A.INTELL. 7/3/14

(26) سلاطين إلى السلطان في 1913/10/16م

سنوياً. وفي الوقت ذاته كان هذا المحمل يمثل دفعة اقتصادية هامة للحجاز بما يحمل من بضائع وهدايا و مبالغ لرفع المستوى الفردي والرسمي في الحجاز كما تقدم.

ولئلا تقف الحكومة تارة أخرى حجر عثرة في وجه سياسته العسكرية الرامية إلى بناء ترسانته الحربية. طلب السلطان من الحكومة الثنائية السماح لرسوله بشراء أسلحة وجبخانه من جدة (27).

هذا الخطاب بدوره يلقي الضوء على دور العلاقة الفوراوية الحجازية في تزويد سلطنته بالسلح لازم. وبذا أصبح الحجاز منفذاً جديداً عليه يعوض مماثلة الحكومة الثنائية في إمداده بما يحتاجه. وتعكس تلك المحاولات التي لا تعرف اليأس بعد نظراً على دينار ورؤيته المستقبلية ومدى قدرته على الإمساك بكل خيوط لعبة العلاقات بيده في آن واحد لبلوغ أهدافه وغاياته.

ويبدو أن العلاقة الفوراوية الحجازية قد شهدت تحسناً خلال هذه الفترة. حيث أن وجود هدايا متبادلة بين الطرفين تؤكد على ذلك (28).

ولقد كان للسلطان صلة قوية بالأغوات ونفوذ قوى بينهم. وكان دوره بارزاً في تهدئتهم حيث يلاحظ أنه في سنة 1333هـ قام بإرسال خمسة خطابات إلى مستلم الحرمين الشريفين والأغوات يطلب فيها من الأغوات الإنصياع التام والإخلاص في خدمة الحرم الشريف (29).

يبدو أن الصلة بين الأغوات وسلاطين الفور قديمة حيث سبق أن أكد إبراهيم قرض على هذه الحقيقة. وقام السلطان إبراهيم قرض آخر سلاطين الفور (1874م) بإرسال مجموعة من الأغوات لخدمة كل من الحرم المكي والمدني (30).

وكان السلطان من جانب يشعر بوجوب الإنفاق على هؤلاء الأغوات. وفي الوقت ذاته كانوا ينتظرون محمله بفارق الصبر. وقد تستغرب الأجيال الشابة الآن من

(27) السلطان إلى سلاطين في 1914/4/23م (27 جمادى الأولى سنة 1332هـ) S.N.A.INTELL.7/4/1

(28) على دينار إلى مدير المخابرات في 1914/11/25م (11/ محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL 2/3/13

(29) السلطان إلى الشيخ عبيد الحمدي في 1914/11/25م (11 محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL. 2/3/13

(30) دار الوثائق القومية المصرية 1/3/104

السعوديين ممن نشأوا في ظل النعيم بعد استخراج البترول من هذا الكلام بيد أن الكبار من الشيوخ من ساكني جزيرة العرب يحلون عن تلك الأيام الخوالي بصدق وكيف أن السودان كان للكثيرين منهم بقصد التجارة وتحصيل الأرزاق وإن السودان كان بقرة حلوباً بسخاء. نبعثاً من هذا المنطلق قام السلطان سنة 1333هـ بالاعتذار إلى الشيخ عبيد الحمدي من أولاد الشيخ بخيت مقوم المسجد النبوي مشيراً إلى سوء الحالة الاقتصادية في بلاده وشحها ويبدى اهتمامه وقلقه لما يدور في بلاد الحرمين من حركات وفتن ويعد بأنه سيرسل (ما يجبر خاطركم ويشرح صدوركم عند حضور محملنا) (31).

هذا الخطاب ذو أهمية بالغة في مجال العلاقات الحجازية الفورية حيث يكشف النقاب عن طبيعة هذه العلاقة كما أنه يعطى قراءة اقتصادية صحيحة لمنطقة الحجاز في الربع الأول من القرن العشرين الذي كان ينتظر محمل دارفور بفارق الصبر. وقد استنكر أحد الأساتذة المناقشين لبحثنا عن سياسة الفور الخارجية وهو من السعوديين النجديين وممن نشأوا في كتف النظام السعودي الحالي بعد استخراج البترول بسنوات عديدة وتمتع المملكة العربية السعودية بوضع اقتصادي مميز. استنكر وردد هذه العبارة ذلك لأنه قد تفتحت عيناه على دولة بترولية لم تنعم بما نعمت به إلا بعد عقد الستينات في القرن العشرين ولكنها كانت قبل ذلك دولة فقيرة يغترب أبنائها في طلب المعاش وجلب الضروري من المغاش .. وفي ذات الوقت يلقي هذا الخطاب الضوء على سياسة السلطان الخارجية. ولم يكن السلطان يومها على وفاق مع السياسة العربية القاضية بالخروج على الدولة العثمانية. إذ كان يعتبرها رمزاً إسلامياً لا بد من وجوده. وفي الوقت نفسه لم يكن غافلاً عن حركة الأشراف في مكة والمدينة. ولم يخف قلقه واهتمامه الزائد بما يدور في هذه الديار. الأمر الذي يلقي الضوء على بعد نظره وعمق تفكيره لأنه لم يكن على وفاق مع السياسة الأجنبية في البلاد الإسلامية. ولعله كان ينظر إلى الأمر من باب أهون الشرين لأن الاستعمار مهما اختلفت وجهات النظر فهو أشر محض لا ينخدع باطروحاته إلا مغفل متخلف عقلياً ولا ينحرف وراء وعوده إلا متبلد الحس السياسي قصير النظر كما هو الحال الآن على مستوى العالم الإسلامي

(31) على دينار إلى الشيخ عبيد الحمدي في 1914/11/25م (11 محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL.2/3/13

والعربي الأفريقي. وبقراءة سريعة لخارطة العالم الاسلامي نرى بقعاً سوداء كثيرة من هؤلاء السياسيين والمفكرين والقادة الذين شكلوا أقدار شؤم ونزر انحطاط لهذه الشعوب وتكلم الأمم فكانوا كالغربان حيث قادوا أممهم وشعوبهم إلى حتفها بظلفها دون وعي أو رشد .

ففي الشمال أقام السلطان علاقة طيبة مع القوى الإسلامية الوطنية ضد الاحتلال الأجنبي. وفي بلاده كان يعد العدة للانقلابات من قيد ربة السيطرة الأجنبية. وفي الحجاز كان يحث القوى الوطنية بالانصياع للقيادة المحلية. ولعل ذلك أراد أن يفتح حواراً مفتوحاً مع هذه القوى الوطنية إلا أن ذلك لم يأت ثماره كما تقدمت إشارة الحسين بن علي في عدم رده على السلطان. لأنه كان قد تورط مسبقاً ولطخ يديه بالتعاون مع الحلفاء فأصبح تخليصه من قبضتهم شبه مستحيل كما هو الحال الآن مع القوى الإقليمية والمحلية التي وقعت في ربة فك القوى العظمى فاضحى أمامها حل واحد ألا وهو الانصياع المطلق على حساب أوطانها وشعوبها وضمايرها وموروثها الروحي والأخلاقي. وتسليم المخلصين من أبناء أمتهم لهولا الفرنسيين الذين لا يرقبون ألا ولا زمة في مسلم أو وطني غيور وأوضحوا شرطة للقوى العظمى ويقومون بدور الجلادين لشعوبهم لمصلحة المشروع الصهيوني الأمريكي والغربي في بلادهم مقابل بقائهم في سدة الحكم فباعوا ضمائرهم ووطنيتهم ومصلحة بلادهم مقابل دريهمات معدودة فبنس الثمن وبنس القابض وقام السلطان بإرسال خطاب بنفس المعنى إلى مستلم الحرم المدني وشيخ الأغوات محمد سرور يشكرهما فيه على وصول الهدايا المرسلة مع الشيخ محمد سيماوي. ويعتذر عن عدم إرسال المبالغ السنوية لانعدام النقد ببلاده. هذا بالإضافة إلى عدم أمن الطريق وقيام الفتن والحركات (والشواشر) وإن شاء الله ما دمنا على قيد الحياة يصلكم منا ما يجبر خاطركم ويشرح صدوركم⁽³²⁾.

بدأت الحكومة الثنائية تشعر بقوة الرابطة الفوراوية الحجازية و أدركت خطورة الدور الفوراوي في الحجاز. ولم تغفل أثر ذلك على السياسة الاستعمارية في البلاد العربية على وجه العموم والسودانية على وجه الخصوص وهذا ما توضحه الفقرة التالية:

(32) السلطان إلى مستلم الحرم النبوي وشيخ الأغوات سنة 1332 هـ S.N.A.INTELL. 2/3/13

أما السلطان فقد اتخذ من المحمل ذريعة للاتصال بالقوى الإسلامية في المنطقة وأراد بناء سياج وطني في وجه القوى الإستعمارية. فبدأ يكتب خطابه إلى الأغوات وشريف مكة بغية إثارتهم وتوحيد جهودهم وانحيازهم إلى القوى التركية التي تمثل الإسلام وتحمي بيضته. وإنطلاقاً من خطورة هذا الموقف بدأت المخابرات الثنائية تنسج خططها القاضية بتفتيش المحمل في سواكن تفتيشاً دقيقاً. ومن ذلك خطاب أرسله نائب مدير المخابرات إلى المفتش بسواكن يفيد بأنه وفد على دينار قادم إلى سواكن وعلى حسب تعليمات الحاكم العام يطلب التسهيلات لهم مع تفتيشهم تفتيشاً دقيقاً وغير ملفت لانتباههم وخداعهم بأن التفتيش جمركي فقط (33).

ولم يكن إحساس الحكومة الثنائية بهذا الخطر كاذباً كما لم تكن الاستنتاجات السابقة ظنية. الأمر الذي يكشف النقاب عن سوء التفاهم الذي حدث بين السلطان والشريف حسين بن علي في عبارته السابقة والتي "لم تردنا تفصيلاً على كلماتها المقتضبة بموجباتهم وإغلاق باب الحوار بين الطرفين لفترة من الزمن. ففي 1915/5/30م، ورد خطاب من المفتش بسواكن يفيد بأنه قد عثر على خطابات من على دينار ونداء يحث فيه المسلمين على الجهاد في سبيل الله بالدم والمال ويدعو فيه إلى تأييد السلطان التركي. ومن ضمن هذه الخطابات خطاب إلى محمد سرور أغا وآخر إلى شريف مكة إضافة إلى النداء المذكور (34).

كل ذلك يبين ذلك أن دور السلطان كان فاعلاً لاسيما في علاقته مع الحجاز. وكانت سياسته إيجابية. وقد تولى عبء المسؤولية التاريخية الواقعة على عاتقه والمتمثلة في الدعوة إلى وحدة الصف المسلم في المنطقة. وندب نفسه بجدارة إلى تسوية الخلافات بين أبناء الأمة الإسلامية وتشجيعهم لطرح الخلافات ونيل الفرقة والالتفاف حول قيادة إسلامية واحدة. وشكل ذلك السعي الحثيث لبلوغ هذه الغاية شطراً كبيراً من سياسته الخارجية. ففي السودان لقد اتصل بالشيوخ والأعيان والقيادات الإسلامية داخل الأراضي الثنائية بغية توحيد جهودهم وإثارتهم ضد الحكم الأجنبي في

(33) نائب مدير المخابرات إلى مفتش سواكن في 1915/5/26م /16 شعبان سنة 1333هـ S.N.A.INTELL. 2/3/13

(34) مفتش سواكن إلى نائب مدير المخابرات في 1915/5/30م S.N.A.INTELL. 2/3/13

البلاد. أما في الحجاز فقد قام بمجهودات كبيرة لتوحيد الأطراف المختلفة ذات الوزن والنقل السياسي فيها للوقوف بجانب الخلافة الإسلامية. هذا رغماً عما اعتورها من ضعف وسوء إدارة. إلا أنها كانت تمثل رمزاً للوحدة الإسلامية في نظره.

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة بأبعادها تلك تشكل خطراً جسيماً على القوى الاستعمارية في المنطقة الإسلامية بأثرها. لذا لا عجب أن عملت على وأد هذه الجهود في مهدها. وسارعت إلى كفكة أطرافها وحسر أثارها الإيجابية. الأمر الذي يؤكد على أن سياسة علي دينار واتصالاته الخارجية بدت تشكل خطراً على السياسة البريطانية في المنطقة وعلى موقف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

وبدأت الحكومة الثنائية من جانبها تجند عقليات مخابراتها لوأد هذا الاتجاه بعد إدراكها لخطورته وأبعاده. فبدأت أولاً بإجراء تحقيقات صارمة مع رسل السلطان ومبعوثيه. وأضحت ثانياً تفتش قوافله الذاهبة والآية⁽³⁵⁾.

إن هذه السياسة الثنائية آتت ثمارها عاجلة لاسيما إذا علمنا أن الجانبين الفوراوي والحجازي أدركا خطورة الموقف فالغيا من الاعتبار الرسائل الكتابية. واستخدما بدلاً من ذلك الرسائل الشفاهية. وبدأت المخابرات الثنائية تتخذ كافة التدابير للقضاء على سياسة السلطان القاضية بالاتصال بالقوى الوطنية الإسلامية في المنطقة وإثارتها ضد السيطرة الاستعمارية على مقدرات وثروات الأمة الإسلامية. وحثها على الوقوف بجانب رمز الوحدة تركيا.

لذا قامت الحكومة الثنائية بالتحقيق مع الحاج علي كنجارا الذي كان يصحب مجموعة الأغوات - وهم الخصيان الذين يعملون في الحرمين - من الفاشر إلى المدينة. وتم حبسه رهن التحقيق بعد رجوعه من الحجاز وتم حبسه بسجن بور تسودان وهو يحمل رسالة شفوية إلى علي دينار من قبل متسلم الحرم النبوي الشريف⁽³⁶⁾. يبرز هذا السلوك ذكاء ودهاء السلطان علي دينار ومدى قدرته على تجاوز العقبات والتعاطي مع الواقع بفاعلية.

(35) السكرتير الخاص إلي نائب مدير المخابرات في 1915/12/20م S.N.A. INTEL. 2/3/13

(36) نائب مدير المخابرات إلي السكرتير الخاص في 1915/12/20م (8 ربيع الأول سنة 1334هـ)

هذه الإشارة السنايقة تؤكد أن دارفور كانت مصدراً هاماً للأغوات وأن السلطان على دينار جرى على نهج سلفه بتزويد الحرمين الشريفين بخدامه. ولقد ظلت مفاتيح التأثير على هذا الوجود المعبر من الاغوات بالحزمين الشريفين بيد سلاطين دارفور فحاول السلطان على دينار استثمار هذا الجانب لصالح المشروع الاسلامي الكبير مقابل ابطال المشروع الاستعماري الاستقلالي في المنطقة .

وتوضح أيضا أن السلطان لم يأل جهداً في الاستفادة من علاقاته الخارجية بالحجاز. ولم يقتصر جهده القاضي بتأليب كل القوى ضد المخطط الاحتلالي الاستعماري في المنطقة على حدود بلاده أو اراضى الحكم الثنائي وإنما بذل قصارى جهده لكسب الإشراف إلى صفى القوى التركية الإسلامية ويحاول أن يستفيد من صلاته الطيبة بالأغوات بغية التأثير على القرار السياسي في الحجاز بيد أن الأمر كما يبدو كان أكبر من مجهوداته المحدودة. فقد وقع معظم هؤلاء القادة في العالم الإسلامي في ربة المخطط الأوربي دون وعى، وبالتالي فإن السلطان على دينار مهما يكن من أمر فهو أنكى من كان ببلاده يومئذ.

وكان الحجاز من جانب آخر يمثل نقطة التقاء المستشارية مع مختلف السلطات المتبلاط التركي. الأمر الذي يسمح بتبادل وجهات النظر. بهذا لم تكن طرابلس هي الوسيط الوحيد لتقوية علاقاته بالأتراك وإنما كانت مكة بمؤتمرها الجامع الذي يؤمه الناس من كل حذب وصوب فرصة مناسبة لالتقاء بالعثمانيين (37).

لقد أرهبت سياسة السلطان الخارجية واتصالاته المباشرة بالحجاز القوى الإنكليزية في المنطقة. وتلاحظ أن السلطان دائماً كان لا يبعث على رأس وفد بلاده إلى الحجاز أي شخص سوى مستشاره الخاص الشيخ محمد سيمأوى. الأمر الذي له دلالاته السياسية ومغزاه الموضوعي من حيث محتوى تبادل الرسائل الكتابية والشفهية التي لا يوثق بشخص آخر لإيصالها واخذ ردها سوى هذا المستشار القدير والشيخ الوقور. وقد وردت إشارة الحسين بن على صريحة لإيضاح هذا الأمر. حيث أجبرته هيئة وسمت الشيخ على أن يقوم بالرد المقتضب السالف.

ويبدو أن الشيخ محمد سيماي كان ممثلاً دبلوماسياً بارعاً وسفيراً ممتازاً. وفي الوقت ذاته كان يتمتع بمكانة علمية مرموقة الأمر الذي أهله لأن يكون المبعوث الخاص والدائم للحجاز. وأصبح أهلاً لثقة الطرفين. أخاف ذلك السلطات البريطانية في الحكم الثنائي. وخشيت من تردد هذا الشخص على الحجاز دون أن تتمكن مخابراتها من الحصول منه على معلومات تتعلق بطبيعة العلاقات الفوراوية الحجازية طيلة فترة توليه السفارة بين البلدين⁽³⁸⁾.

وكان السلطان يتمتع بالمعزة أهله لاختيار عناصر مقتدرة مناسبة لإدارات معينة، أعطاها ثقته فلم تأل جهداً في خدمته والقيام بأدوارها على أحسن وجه.

كانت هناك صلة وثيقة بين سياسة على دينار الخارجية وإرساله المحمل للحرمين الشريفين وما يدور في الرقعة الإسلامية على وجه العموم. حيث يقول في خطاب بعث به إلى السلطان محمد رشاد العثماني: (لقد اعتدنا على إرسال المحمل سنوياً إلى الحرمين الشريفين هدية لخدمة الحرمين الشريفين. ولقد درجنا على النصيح والتعليمات لرأس المحمل أن يقوم بالاتصال بكم في الحج ولكن الإنكليز درجوا على تعيين جواسيس يراقبون تحركات رأس المحمل ذهاباً وإياباً. ومنذ سنة 1318هـ اعتدنا على إرسال المحمل سنوياً أو كل سنتين في بعض الأحيان من غير انقطاع)⁽³⁹⁾.

ما ورد من إشارة في هذا الخطاب على يفسر "انقطاع المحمل لمدة سنتين في أيام الشريف الحسين بن علي - ربما لسوء الأحوال الاقتصادية.

ويبرز هذا الخطاب دور المحمل والصلة الوثيقة بينه وبين السياسة العثمانية في المنطقة. فلم يكن الوفد مهمته أداء الفريضة فحسب بقدر ما كان منوطاً به أدواراً أخرى منها أداء أموال لتوزيعها على فقراء العاصمة المقدستين، ثانيها: إيصال صرة الحرمين الشريفين إلى شريفي مكة والمدينة لتصريف أمورهما. ثالثها: أداء أموال إلى مستلم الحرم الشريف النبوي والمكي توزع على الأغوات. رابعها: إجراء مفاوضات

(38) الحاكم العام إلى اللورد كاتسندر ووزارة الحربية في 1916/4/24 D.S.A. BOX.128/5

(39) السلطان على دينار إلى السلطان العثماني محمد رشاد 1916/4/1م (8 جمادى 1335هـ) D.S.A. Box. 128L5.

سياسية مع شريفي مكة والمدينة. خامسها: الالتقاء برجالات البلاط العثماني وإن أمكن الخليفة العثماني نفسه لتبادل وجهات النظر حول مستقبل المنطقة وتدارس الأخطار المحيطة بديار الإسلام من وجهة النظر الإسلامية واتخاذ التدابير الكفيلة لدرئها.

وكان السلطان يشعر بأنه مسؤول عن القيام بهذا الدور نيابة عن الدولة العثمانية. لذا كانت محاولته للتأثير على القوى صاحبة القرار في الحجاز. بيد أن القوى الأجنبية كانت محيطة به إحاطة السوار بالمعصم فعملت جاهدة على وأد كل جهوده الرامية إلى الاتصال بالقوى الإسلامية في المنطقة. وإبطال مفعول إثارتها ضد الوجود الاستعماري في البلاد.

ولقد أدركت القوى الاستعمارية المعادية للسياسة العثمانية والمناهضة لها دور القوى الوطنية ذات الميول الإسلامية الواضحة. وأدركت أن من أبعاد السياسة العثمانية وحدة الأمة الإسلامية وقهرها للعدو الجاثم على صدر بعض البلاد الإسلامية. وفي الوقت ذاته فإن السياسة الاستعمارية لم تسقط من حسابها التأثير على اتجاهات بعض القوى الوطنية في البلاد العربية لاسيما الحجاز.

ولإدراك السلطان لخطورة الموقف وشعوره بأهمية الوحدة الإسلامية لذا ما أن أعلن الحرب ضد الوجود الإنكليزي في البلاد حتى أعلن انحيازه التام للجانب العثماني وقام بالاتصال بالحجاز عن طريق الرسائل الكتابية والشفهية. بيد أن هذه الاتصالات لم تؤت ثمارها لأن اللعبة الاستعمارية في المنطقة كانت بحاجة إلى جهود وطاقات وإمكاناته أكبر متضافرة. وكان مجهوده محاطاً بتدابير محكمة ومدروسة، وطاقاته محدودة، وإمكانات موثقة بحدود بلاده. لاسيما وأن القوى الوطنية في الحجاز كان قد تم استيعابها واستقطابها من قبل القوى الاستعمارية في المنطقة. لذا لا غرابة أن فكر الحاكم العام في إقصاء السلطان في حالة استسلامه إلى مكة. هذا بعد ورود أخبار بأنه قد عزم على الاستسلام. وذكر الحاكم العام في معرض حديثه أنه مشغول بإشعال نار التمرد في الجزيرة العربية ضد العثمانيين على شكل ثورة يكون رأسها شريف مكة وقد نجح في ذلك⁽⁴⁰⁾. ولعل هذه الإشارة من قبل الحاكم العام في السودان في تلك

(40) الحاكم العام إلى كالي في 13/6/1916م D.S.A.BOX.129//6

الفترة نلقي الضوء على بعض أسرار النخبة الإنكليزية الكبرى في المنطقة العربية والأفريقية، وكيف أن كثيراً من القيادات والزعامات العربية والإسلامية كانت دون المستوى من حيث التفكير والتخطيط وأنها قد وقعت فريسة سهلة في شباك الخطط الاستعمارية بدون وعي وإرادة منها. وإن شعار البقطة العربية كان ستاراً لسوء الاستعمار الاستغلالي لهذه البلاد وتلك الشعوب وما أشبه اليوم بالبارحة وليست القادة والمفكرون وحملوا الأقاليم يتبعطون من سياهم وغيبه وعيهم. يبدو أن القضية كانت قضية تسابق على العاصمة المقدسة قبله المسلمين. وتدل سياسة السلطان الخارجية تجاه الحجاز على بعد نظر وعي وإدراك لمعطيات فترته. حيث اتجهت أنظاره إلى هذه الديار ومنذ فترة مبكرة بغية كسبها إلى جانب الصف الإسلامي. بيد أن جهوده لم تكل حظها من النجاح لمحدودية إمكاناته ووقوع منافذ اتصاله تحت سيطرة الحكم الثنائي. ويكشف خطاب ونجت السابق وإشارته هذه إلى أن الحركة العربية أو الثورة العربية الكبرى أو سمها النكسة العربية الكبرى والتي قدر لها أن يكون على رأسها شريف مكة قد تمت بإيعاز من القوي الاستعمارية في المنطقة. وأنها حققت أهدافاً استعمارية أكثر منها أهدافاً وطنية أصيلة بخروجها على الدولة العثمانية وتمرداً على طاعة الخلافة. وهذا الخطاب بدوره يلقي الضوء على وطنية السلطان وأصالة تفكيره ولزاهة صلاته الخارجية.

وإشارة الحاكم العام بقوله: (وقد نجحنا في ذلك) (41). أي في إثارة شريف مكة ضد الوجود العثماني ترمينا إلى أي حد كان للإدارة البريطانية دور فيما جرى بين شريف مكة والدولة العثمانية. وأن تخطيط ما سمي زوراً وبهتاناً بالثورة العربية لم يكن مجلياً وإنما نسجت الخيوط في الخارج. وتم استيراد المواصفات والأشكال والكيفيات، وقام بتنفيذها وتحقيق أقدارها أيناء المنطقة. ولذا قررت السلطات البريطانية إبعاد السلطان على دينار في حالة استسلامه إلى (مكة التي ستكون تحت قيادة رجل لا يميل إلى الأتراك - لأن تلك القيادة - ستضعه في حزمه وإن لا فساد رسله إلى خالطة أو بعدن أو أي مكان آخر) (42).

(41) المصدر السابق.

(42) المصدر السابق.

هذا هو قرار الحاكم العام الذي يمثل السلطات البريطانية في الحكم الثاني في السودان. وكان هو الذي يقوم بدور فاعل في الثورة العربية. وافتخر بنجاحه في إشعالها في الجزيرة العربية بعد فشل جهود السلطان على دينار في تحقيق أهداف وحدة القوى الوطنية الإسلامية ذات الارتباط العقدي. إن كان السلطان على دينار بطلاً إسلامياً وقيادة إقليمية أكثر منها قيادة محلية ينحسر دورها في حدود دارفور. وكان يتطلع إلى لعب دور إسلامي يتجاوز حدود الوطنية الفارغة والعرقية الننتة إلى رحاب العالم الإسلامي ونصرته في كفاحه ضد الوجود الاستعماري في أنحاء الرقعة الإسلامية.

الفصل الثاني

العلاقات بين دار فور والدولة العثمانية ومصر

سبق القول بأن سلطنة دار فور هي ضمن سلسلة السلطنات والممالك الإسلامية التي انتظمت وسط أفريقيا. وقد احتفظت باستقلالها بيد أنها لم تلغ من اعتبارها الرباط الإسلامي بدولة الخلافة. حيث بادلت هذه السلطنة دار الخلافة الود وكانت لها صلات حميمة مع كل من الخديوية بمصر والسلطنة العثمانية. وهذه الصلات لا تعدو عن كونها التزام أدبي. وشعور بواجب التعاون والتكافل.

وهناك وثيقة عبارة عن خطاب بعث به آخر سلاطين القصور إبراهيم قرص (1873-1874) إلى الخديوي جاء فيه: (من أمير مملكة دار فور السلطان إبراهيم ... إلى الخديوي الأعظم ... يكن بعلمكم الزكي أنه قد توفي والدنا محبكم السلطان حسين ألزمتنا الله وإياكم الصبر ... وكان هو له مودة مع الحضرة الخديوية ... وصل لطرف الحضرة الكريمة الحاج حمزة وأخيه محمود سر تجار دار فور الذي تشرف بالأعتاب الخديوية حين أرسله الوالد وصحبتهم جوابات ووصايات)⁽¹⁾. هذا الخطاب يكشف عن أفق العلاقات الفوراوية الخارجية وأن سقفا كان عالياً وأن صلتها بالخلافة العثمانية ومصر علاقة ندية وود واحترام متبادل.

امتدت فترة حكم السلطان حسين ما بين (1839-1870م) وتفصح هذه الوثيقة عن العلاقة الحميمة القائمة بين سلطنة الفور والخديوية في مصر بعد أن عدلت عن غزو دار فور. وكلمات السلطان محمد الفضل الساخنة التي تقدمت الإشارة إليها في الباب الأول من هذا البحث. والتي يؤكد فيها بأن سلطنة دار فور هي سلطنة إسلامية

(1) دار الوثائق القومية. المصرية 1/3/104

الباب الخامس - العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر

ذات تاريخ وروابط حميمة بالسلطات الزمنية في كل أنحاء العالم الإسلامي. وبالتالي لا يوجد أدنى مبرر لغزوها في عقر دارها من قبل قوى إسلامي صديقة .

بدأت بعدئذ العلاقة على ما كانت عليه وأصبح هناك مبعوثون ورسائل وأعمال تجارية وهدايا تتم بين البلدين. وحفاظاً على عمق هذه العلاقة قام السلطان إبراهيم بمواصلة المسيرة حيث بعث بخطاب بهذا المعنى جاء فيه: (وصل من أمير دار فور للحضرة الخديوية عشرون سنة من سن الفيل وزنها قنطار وعشرة)⁽²⁾.

يوضح ذلك أن دار فور قد تمتعت باستقلالها بيد أنها لم تهمل الرباط الفكري والثقافي بمصر. وفي الوقت ذاته لم تغفل عن توثيق علاقاتها بدولة الخلافة التي كانت رمزاً للوحدة الإسلامية. وسبق أن رأينا إنها لم تتجاهل أيضاً الرباط الديني بقبلة المسلمين وبمسجد الرسول (ص). إن هذا الرباط بالحرمين يجسد شوقاً سودانياً خاصاً، ويؤكد على أن دارفور لم تخرج عن هذا الإطار السوداني العام المتمثل في حب الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا المنطلق فإن علاقة دار فور بتركيا هي علاقة اقتضتها وحدة العقيدة والثقافة. بيد أنها لم تصل حد التبعية المطلقة أو الذوبان المطلق في رقعة الدولة العثمانية والخضوع التام لها. وإنما تمتعت دارفور بالسيادة على حدودها واستقلال سيادتها عن أي وجود سياسي ولكنها في ذات الوقت فتحت أبواب التعاون بينها وبين جيرانها وظلت دار فور محافظة على هذا الاستقلال بيد أن الخديوية المصرية نتيجة لأطماع ذاتية ورغبة قوية في الاستيلاء على دار فور التي استعصت على الغزو أكثر من مرة أخيراً وجدت بغيتها في طموح قدير أوعزت إليه بالقيام بذلك الدور. وبحكم الظروف الراهنة للسلطنة ولضعف إمكانياتها العسكرية استطاع الزبير باشا ود رحمة أن يقضي على آخر سلاطين الفور إبراهيم بن السلطان حسين في منواشي في 25 أكتوبر سنة 1875م. بيد أن هذا السقوط الظاهري للنظام السياسي والإداري في دار فور لم يلن القناة الفوراوية. إذ كان الفور يتمتعون بوجود تنظيم فوراوي قدير تمتع

(2) المصدر السابق.

بنظام فريد ودقيق. الأمر الذي جعلهم يحافظون على وجود سلاطين لهم في الظل طوال العهد التركي في السودان والعهد المهدي. لقد صمد هذا التنظيم وهو يحمل راية المقاومة ويبيدي تحدياً لأكثر من ثلاثة وعشرين عاماً. وظل الفور يناهضون كل أنواع الحكم الأجنبي في دار فور أياً كان اتجاهه أو لونه⁽³⁾. مما يعنى أن هذه المنطقة ظلت عنيدة في الانصياع للمركزية وشرسة في مواجهة التواجد الأجنبي بالبلاد عكس ما يحدث الآن. حيث نلاحظ أن بعضاً من القيادات الفوراوية تطالب اليوم بتدخل دولي في قضية دارفور الأمر الذي يعكس مفارقة عجيبة.

وتوج الفور كفاحهم بتربيع السلطان علي دينار على العرش وتمكن من استعادة الحقوق الفوراوية المسلوبة ولم يتجاهل العلاقة الفوراوية العثمانية. وبدا منه هذا الاتجاه لأنه كان يعتبره إحياء لمراسم السلطنة وعاداتها وتقاليدها بغية إحياء تراث أندثر وكانت محاولته تلك هي مد جسور قد انهار بسبب الأطماع الفردية وسوء التفاهم.

ويؤكد السلطان علي دينار في أوائل أيام حكمه هذه الحقيقة بقوله: (بغاية الوفاء إذا كانت المدة الماضية السابقة زمن المتقدمين آباؤنا سلاطين دار فور لهم عوائد وشروط وحدود معلومة وهدايا تقدم لوالي مصر ومحمل يرسل لبيت الله الحرام)⁽⁴⁾.

العلاقة القائمة بين دار فور ومصر وتركيا والحجاز هي ليست علاقة تبعية وإنما هي علاقة ودية. تقوم على أساس الندية ولكن تحكمها نصوص التعاون والتكاتف والتآخي والمناصرة الدينية. وفي هذه الأثناء دارت تكهنات في الأوساط الثنائية حول علاقة السلطان بتركيا. لا سيما بعد انطلاقة السلطان علي دينار ومحاولاته المستمرة للاتصال بكل القوى الوطنية الإسلامية في المنطقة وقد تناولت الصحافة ذلك حيث جاء في جريدة مصر ما يلي: بأن السلطان: (قد أرسل وفداً إلى القسطنطينية بواسطة طرابلس وهذا الوفد يحمل معه هدايا للسلطان العثماني في تركيا. ولربما يهدف السلطان علي دينار من ذلك إلى فتح علاقة معه. كما يدل ذلك على وقاء المسلمين

(3) الباب الأول من هذا البحث.

(4) السلطان إلى السردار في نوفمبر 1900م الموافق 29 رمضان 1318هـ S. N. A: INTELL 7/1/2

وطاعتهم لسلطان الإسلام وإن تباعدت ديارهم. ويقال إن الهدف من هذه الزيارة هو إعلان خضوع دار فور للسلطنة العثمانية إلا أن العثمانيين في الوقت الراهن يعسون دورهم وقوتهم تماماً. وإن كانت حتى الآن لم تبدر من السلطان علي دينار بادرة تدل على أنه تخلى عن ولائه للحكومة الثنائية على الإطلاق حيث أن الهدايا والضرريبة السنوية لا تزال بينه وبين الحكومة).

هذه الإشارة المبكرة وتلك الاستقراءات لا تخلو من حقائق. صحيح أن السلطان علي دينار كان يهدف إلى انتزاع اعتراف بوجوده كقوة مستقلة ذات كيان من قبل كل القوى الإسلامية ذات الوزن السياسي في المنطقة. أما إعلان خضوع دار فور للدولة العثمانية فهذا أمر بعيد. وتذكر حقيقته باستقراء الكفاح الفوراوي من أجل استعادة السلطنة ودور علي دينار في استرداد حق أبناء جلدته في الاستقلال. لأن هؤلاء السلاطين كانوا يدركون جيداً بأن قيام أو استعادة سلطتهم هو واجب تاريخي ووطني وأن التفريط بالتبعية لأي جهة يعني خيانة القضية.

وهذه العلاقة المبكرة تدل على الوفاء الإسلامي تجاه رمز الوحدة الإسلامية في العالم الإسلامي. ويدل إرسال الوفد عن طريق طرابلس علي بعد نظر السلطان ووعيه السياسي. فلم يقم بإرسال ذلك عن طريق الخديوية في مصر لأنه أدرك بالظروف السياسية الراهنة. إذ كان يدرك أن الخديوية واقعة تحت سيطرة النفوذ الإنجليزي لذا أراد أن يحيط علاقته بتركيا بقدر من السرية لئلا يفسد ذلك عليه علاقته القائمة مع الحكم الثنائي الذي يعتبره قدراً من أقداره الراهنة. وفي ذات الوقت لا يريد أن يرهق إرادته وحركته لهذا القدر. فبدأ يستخدم كل المعطيات وكل الممكنات لتجاوز ما وجد نفسه فيه من إحاطة أجنبية وقوة معادية في محاولة جادة لكسر طوق هذه العزلة لذا لا غرابة أن قام بالاتصال بإخوانه المسلمين بغية التعاون. لاسيما في دولة الخلافة المغلوبة على أمرها يومئذ من أجل توحيد الرؤى واتخاذ موقف موحد على صعيد السياسة الدولية. في محاولة جادة لإبطال المشروع الاستغلالي الاستعماري في المنطقة الإسلامية والأفريقية.

وكانت دار فور رغباً عن هذه الروح الاستقلالية على استعداد لموازرة المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، وسبابة إلى التعاون والتآزر مع كل القوى الوطنية الإسلامية، كل ذلك على أن لا يقضي على استقلاليتها وشخصيتها الاعتبارية.

وفي الوقت الذي فتح فيه السلطان علي دينار صفحة علاقات خارجية مع الدولة العثمانية لم يقدم على إشعار الحكم الثنائي بتغيير أحواله أو تبدلها تجاهه. وذلك ليتمكن لنفسه ويعيد ثقة الآخرين فيه في إدارة بلاده ومقدرته الإدارية والسياسية وليعيد للأذهان مجد أجداده وآبائه.

ولعل ما يؤكد ارتباط دار فور الوثيق بالسلطنة استخدامها للعملة العثمانية. وهي تشير إلى قدر من التأثير الثقافي والاقتصادي مما لا يغفل دورهما في مجال العلاقات السياسية. ويتبين ذلك من النص التالي الذي جاء فيه علي لسان السلطان علي دينار: (أنه بعث بألفي ريال مجيدي ... ألف منها يوزع في مكة ... والألف الآخر يقسم في المدينة)⁽⁵⁾.

وعلي صعيد آخر أراد السلطان علي دينار أن يمد جسراً مع الخديوية في مصر وسعى إلى ذلك بواسطة صديقه القديم سلاطين باشا مفتش عموم السودان. وقد حاول سلاطين أن يحقق لقاء بين الخديوي والسلطان. فقام علي دينار بشكره على هذه المحاولات. ولتطبيع العلاقة بين النظامين طلب علي دينار من سلاطين أن يقترح له نوع الهدية التي يمكن تقديمها للخديوي حيث لم يسبق لـه التعامل معه من قبل⁽⁶⁾.

هذه فيما يبدو أول مبادرة صلة بين علي دينار وعباس حلمي خديوي مصر. وتقدم أن صلات السلطان بتركيا سابقة بسنين عديدة على علاقاته بالخديوية. فلربما أن وقوع الخديوية تحت نفوذ السيطرة الإنجليزية هو الذي أخرج حدوث هذه العلاقة، وأضعف من الصلات المباشرة بينها.

(5) السلطان علي دينار إلى شريف مكة 1321هـ - 1902م S. N. A. INTELL 2/3/12

(6) علي دينار إلى سلاطين في 1909/7/10م الموافق 20 جمادى الآخرة سنة 1327هـ S. N. A. INTEL 7/1/11

ومرة أخرى لا ننسى أن الخديوية هي التي أزالَت سلطنة الفور الأولى على يد الزبير باشا ود رحمة. فمن البديهي أن يكون السلطان متحفظاً بعض الشيء في علاقاته معها. لا سيما وهو يدرك أن الخديوية نفسها تستمد شرعيتها من الخليفة العثماني. فمن الطبيعي إذاً أن يداري الأصل قبل الفرع.

وعلى وجه العموم فإن علاقة السلطان علي دينار الخارجية بتركيا تميزت بأبعاد وآثار يمكن أن تلقى الضوء على طبيعة هذه العلاقة. فهي علاقة عميقة لها جذورها ولها أبعادها السياسية. والعلاقة الفوراوية التركية لم تكن علاقة منبثة برزت فجأة وبحكم ظروف الحرب الأوربية الأولى وحاجة تركيا إلى مناصرة كل القوى الإسلامية في المنطقة. أو تحت وطأة الظروف السياسية للسلطان علي دينار. فمن الناحية التاريخية فإن تسمية عبد الرحمن الرشيد جاءت من تركيا لما اشتهر به هذا السلطان الفوراوي من علم وعدل وتقوى. وقد حكم في الفترة 1787-1802م⁽⁷⁾. وجاء هذا اللقب لصلة سلطنته الوثيقة بدولة الخلافة لعدة قرون خلت.

أما بالنسبة للسلطان علي دينار فإن ما ورد في سجلات المخابرات الثنائية ومنذ فترة مبكرة ينفي كل المزاعم السابقة التي بها قد حاولت المخابرات تشويه سمعة السلطان وسياسته الخارجية فيما بعد باعتبار أن سياسته إزاء الدولة العثمانية كانت اضطرارية اقتضتها ظروف عزلته وموقف الحكومة الثنائية. مما لا شك فيه أن موقف السلطان علي دينار إزاء الدولة العثمانية هو موقف أصيل ذو أبعاد تاريخية وموروث حضاري لم تمله عليه الظروف فحسب. ولعل ما أثبتته الشيخ محمد سيمائي يلقي الضوء على عمق العلاقة وأبعادها السياسية والدينية والثقافية حينما سئل عن التأثير التركي في دارفور لا سيما بعد التغيير في موقف تركيا الأخير. فذكر من العادة أن كل يوم جمعة أن يدعي لسلطان تركيا على المنبر بالاسم. فتح السلطان بلاده ومنذ اليوم الأول للأثر العثماني ولم يقف حجر عثرة في وجه أي جهد عثماني. ولعل الدعوة المتكررة للخليفة العثماني كل يوم جمعة على المنبر تدل على وجود تقليد فوراوي

(7) الباب الأول من هذا البحث الفصل الثاني S. I. R. 184/4 4TH NOV. 1909

متين. ويؤكد ذلك على قوة الرباط بين الدولتين عبر التاريخ. ومما لا شك فيه أن لهذه السياسة ذات الأهداف الواضحة أثر في تشويه سمعته من قبل المخابرات الثنائية وتفسر اتجاه إسدال الستار على الجوانب المشرقة والطيبة في فترة حكمه. مما يدور على السنة الكثيرين ممن استهوتهم الدعاية الثنائية بأجهزة مخابراتها المقتدرة. وترك ذلك بصماته على الخلفية الثقافية تجاه السلطان علي دينار لدى الكثيرين ممن لم يطلعوا على سجل حياته أو يتعرفوا على أدواره الإيجابية في المجال الوطني والإسلامي على وجه العموم. ولعل هذا الحكم يطال الكثير مما كتب عن الرموز الوطنية الشجاعة التي تمتعت بنصاعة التاريخ وصلابة المواقف وقوة الرأي إزاء الوجود الأجنبي في البلاد. فحاولت أقلام الاستخبارات الأجنبية تشويه سمعتهم ووصمهم بكل منقصة مع أن الواقع كان خلاف ذلك. وفي المقابل حاولت من رفع شأن أضدادهم ممن كانوا خونة وعملاء وجواسيس. فأغدقت عليهم النعم والأنوال ومنحتهم الأراضي والأملاك في قلب العاصمة المثلثة لا شيء سوى مدفوع مقدم لما أسدوه للسلطة الأجنبية من خدمات لا تقدر بثمن. وهذا هو شأن الاحتلال قديماً وحديثاً. وبحلول نذر الحرب الأوربية الأولى كان السلطان علي دينار على علم تام بما يدور وكان موقفه متوطناً. وبدأت الحكومة الثنائية تشكك في نواياه إلا أنها لم تملك أدلة قاطعة تكشف اللثام عن سياسته الخارجية ومواقفه المتوقعة. هذا وكان السلطان على إطلاع تام مما يدور على الجبهة التركية وخططها وتحركاتها. وزود بأخبار وخطط الأتراك. وعلم من مصادر مطلعة أن السلطان محمد رشاد والسنوسي قد انعقدت معاهدة بينهما على محاربة الإنجليز لا سيما في السلوم⁽⁸⁾.

هذا مما يرفع الروح المعنوية لدى السلطان علي دينار ويدعوه بشراسة لمناهضة الحكم الإنجليزي المصري في البلاد. والعمل على كسر شوكته في السودان. كل ذلك يحدث في وقت لم تتوفر فيه وسائل الاتصال الحديثة مما يوحي بالإصرار والعزم في التواصل مع الدولة العثمانية والقوى الإسلامية ذات التوجه التحرري في المنطقة.

(8) محمد عبد الرحيم الحاج صالح إلى السلطان، 1914/10/7م S. N. A. INTEL 2/3/12

وفي الوقت ذاته لم تهمل الدولة العثمانية دورها الطبيعي ولم تغفل علاقاته السابقة. فقد أرسل إليه أنور باشا وزير الحربية التركية خطاباً أشتمل على استتفار عام ودعوة لعلّي دينار لمحاربة الحكم الثنائي في البلاد. وبدأ الخطاب بإسباغ الصفات التبجيلية على السلطان علي دينار. وعرض الخطاب لشرح واف لبداية الحرب بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية على حدود البحر الأسود. وأكد أن الروس هم الذين بدأوا بالاعتداء. بيد أن جنود الدولة العثمانية ردوهم على أعقابهم. وشرح له طبيعة الاتفاق القائم بين الألمان والنمسا والدولة العثمانية مشيداً بانتصارات الألمان على الفرنسيين. واستثار في علي دينار الروح الدينية ووجوب الخروج على الكفار وسحقهم وإبعادهم من العالم الإسلامي، الذي يجب أن يهب وينتـهـز هذه الفرصة التي قد لا تتوفر له مرة ثانية في التخلص من نير الاستعباد والذل والاستعمار لأعداء الله ورسوله. وذكر بان جنود الدولة العثمانية مئات الألوف يتقدمون إلى قنال السويس. وقد حاول الإنجليز التقدم إلينا ولكن أسود العرب البواسل ردوهم. وسرد عدداً من الآيات والأحاديث تقوية للنداء وطلب منه في نهاية الخطاب أن يكون عاقلاً كما هو متوقع. وأن يعمل جهده في القضاء على الحكم الثنائي في السودان. وأشار إلى أنه قد أرسل خطاباً إلى السيد أحمد الشريف السنوسي مع أخيه البمباشي نوري بك وختم ذلك بقوله: (وأرسلت لك خطابي هذا مع جعفر بك وذلك بعد صدور الفتوى من المشيخة الإسلامية أو هيئة الإفتاء وتوجيهها النداء إلى كل المسلمين في العالم الإسلامي وندائها لهم ومطالبتها لهم بالاتحاد والاستجابة لنداء الجهاد)⁽⁹⁾.

بذا بذلت الدولة العثمانية جهداً موفوراً لوضع السلطان في الصورة ومما يؤكد على أنه كان رقماً استحق كل هذا التتوير وهذا الإسهاب في إطلاعه على أدق التفاصيل. وتم الاتصال معه على مستوى عال في الدولة. وزود بتفاصيل الوضع الراهن وأعطى إجابة لكل التساؤلات المطروحة حول الدولة العثمانية وموقفها واتفاقاتها. وهي مسائل غاية في الدقة و تملك المعلومة الصحيحة جزء من الاعتراف بكيئونة المخاطب وقدره ومكانته.

(9) أنور باشا إلى السلطان في 3 فبراير سنة 1915م الموافق 18 ربيع الأول 1333هـ D. S. A. Box. 129/2

واحتوى الخطاب قدراً من الإغراء بإشعار السلطان أن هذه الفرصة السانحة التي قد لا تتكرر إذا ما أراد التخلص من ربه القيود الاستعمارية المحيطة به. والإشارة إلى أن الألوف من جنود الدولة العثمانية قادمون إلى قناة السويس لا تعدو عن كونها إغراء، وفي ذات الوقت تكشف هذه الإشارة النقاب عن نوايا وخطط مستقبلية. ومما لا شك فيه أن تحرك السلطان ودوره في شل حركة الإنجليز من الأمور التي قد تساعد حلف ما يسمى بدول الوسط (تركيا وألمانيا وحلفائها).

ومن هذه الناحية فإن الاهتمام به قد يكون أمراً اقتضته المصلحة. وكانت التلبية سريعة وإيجابية من قبل السلطان الذي كان يتوق أبداً ويتطلع إلى الإنعتاق من ربة التبعية الإسمية للحكومة الثنائية. ومن أهدافه تحقيق الحرية والاستقلال. ومما يعطي المسألة بعداً إسلامياً هو إرفاق صورة من فتوى المشيخة الإسلامية الأمر الذي أولاه السلطان عناية فائقة. لا شك أن هذا العمل الذي قام به السلطان العثماني إزاء على دينار يشير إلى مدى أهمية الأخير وما يمكن أن يلعبه من دور في هذه القضية المصيرية. ووفقاً لذلك أصدر البيان السابق ذكره داعياً الأمة السودانية بمختلف قطاعاتها واتجاهاتها إلى نبذ الفرقة والاعتصام بأمر الدين والخروج غصبة لله وجهاداً في سبيله بغية إخراج الكفرة أعداء الله ورسوله من ديار المسلمين. وفي الواقع لم يكن بيانه محلياً وإنما كان ذا صبغة عالمية موجهة إلى جميع المسلمين بغض النظر عن وطنيتهم أو جنسائتهم أو ألوانهم مهيباً بهم للالتفاف في وقت الشدة حول القيادة الإسلامية ورمز الوحدة الخليفة العثماني.

وما تلي من أحداث كان نتاجاً طبيعياً فبمجرد وصول أنباء الحرب الأوربية الأولى ونشوب الحرب بين تركيا وبريطانيا. أبدى السلطان انحيازه وميله نحو الأتراك علناً. واتخذ موقفاً عدائياً من الحكم الثنائي في أبريل سنة 1915م. وأعلن حينئذ فض ما بينه وبين الحكومة الثنائية من معاهدات واتفاقيات. وأفصح عن انضمامه رسمياً إلى الأتراك الذين كانوا على صلة وثيقة به⁽¹⁰⁾.

ولم تكن صلات السلطان بتركيا تتم عبر قناة واحدة وإنما درج على تعدد القنوات التي عن طريقها يستطيع الاتصال بدولة الخلافة. فحين حاولت الحكومة الثنائية أن تضيق الخناق على طريق القوافل المتجهة إلى طرابلس كان هو بدوره قد اتجه إلى منفذ آخر وهو طريق الشرق تحميه مظلة المحمل الشريف. بيد أن الحكم الثنائي كان له بالمرصاد حيث بدأ في تفتيش المحمل تفتيشاً دقيقاً بغية محاولة العثور على خطاب مرسل إلى أحد المسؤولين الأتراك⁽¹¹⁾.

وترجم السلطان السياسة العثمانية ترجمة صادقة مصدراً بياناً ونداءً على قرار النداء العثماني يحث فيه المسلمين قاطبة ويهيب بهم أن يجاهدوا في سبيل الله بالدم والمال. ودعا فيه إلى وحدة الصف والتزام خط الجماعة بتأييد السلطان العثماني. وقام بإرسال نسخة من هذا البيان مع خطاب إلى أحمد الشريف السنوسي وآخر إلى شريف مكة بغية كسبهما إلى جانب الصف العثماني في جهاده المقدس ضد الكفار أعداء الله وأعداء رسوله⁽¹²⁾. وأولته الدولة العثمانية عناية إهتماماً خاصاً حيث بعث إليه الخليفة ميدالية، وهدايا في شكل سيف وسرج ومدفع مزخرف ومسدس ونظارات حقل. وتم إطلاعه على مجريات الأمور ليكون على دراية تامة بالأوضاع⁽¹³⁾. وتم إطلاعه على أحوال الجبهة السنوسية في الشمال⁽¹⁴⁾ ولعل هذا يعكس أن دارفور وسلطتها السياسية أضحت في قلب الحدث وغدت أحد اللاعبين الرئيسيين علي مستوى السودان، ولم تقف على الرصيف متفرجة وإنما كانت فاعلة ومثلت وجه السودان المشرق في وقت قل فيه الشجعان وتوارت فيه كثير من القيادات الوطنية والسودانية والإقليمية عن الأنظار خوفاً من بطش الحلفاء ومداراة لهم.

لم يكن تحرك السلطان على دينار عشوائياً وإنما كان مبنياً على حسابات دقيقة وفقاً للمعلومات التي تيسرت له. وإدراكاً منه بالواقع وشعوراً بالواجب وأداءً للأمانة ووفاء بحق الدين عليه كان انحيازه إلى معسكر الخلافة العثمانية طبيعياً. لذا لم يتوان

(11) نائب مدير المخابرات إلى مفتش سواكن في 19/5/1915م (16 شعبان 1333هـ) S.N.A. INTEL/3//13

(12) مفتش سواكن إلى نائب مدير المخابرات في 30/5/1915م (20 شعبان سنة 1333هـ) S.N.A. INTEL/3/1

(13) نوري بك أخ وزير الحربية إلى السلطان على دينار 14/8/1915م D.S.A.BOX.128/3

(14) نوري بك أخ وزير الحربية إلى سلطان على دينار 14/8/1915م D.S.A.BOX.128/3

فى الرد على أنور باشا صهر الخليفة ووزير الحربية العثماني بقوله: (من حيث إنتساب الحرب ولحد تحرير مكاتبكم ... قد وجهنا أفكارنا كلية وجزئية نحو قتال ما يلينا من طائفة الذين كفروا عملاً بقول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) إننا منذ إنتساب الحرب بين جلالة سلطان الإسلام وبين الأعداء الكفار الفساق الإنكليز وفرنسا وما يليهم. فمن وقته قطعت ما بيني وبين الزعماء الملعونين من العليق الودية وجاهرتهم بالعداوة وأعلنتهم بالحرب، واستعديت بقدر ما استطعتني من القوة غيرة في دين الله. ومن وقتئذ ملتفت لورود المخابرة من جهة سلطان الإسلام ليفهمني كلمة الموافقة على القيام للجهاد في سبيل الله فبادرت قبل ذلك بإرسال مكاتبات لجلالته رأساً ومكاتبات إلى السيد أحمد الشريف السنوسي بما فيه الكفاية للموافقة وذلك فهو لما تحقق لدينا أن الجهاد في هذا الزمان صار فرض عين على كافة المسلمين المنتشرين في الأرض⁽¹⁵⁾.

وفى الوقت ذاته لم يكن السلطان عجولاً إنما هدف إلى تنسيق الحركة وأداء الدور المنوط به بانتظار المخابرة وإضاءة النور الخضر. وورود عبارة الانتظار توحى بالتزام تبعية قيادة حربية واحدة. ولعله أراد بذلك أن تتحمل تركيا دورها كاملاً في المسؤولية تجاهه وهو على استعداد للقيام بالدور المنوط به حتى لا يصبح منعزلاً فيسهل استئصاله. والمسألة الثانية هي ضمان وحدة الخطة. ولا يغفل المرء تباعد المسافات واستحالة المتابعة التفصيلية في مثل هذه الظروف التي قد تنجح فيها اللامركزية. مما يعنى أنه كان على وعى وذكاء وقراءة صحيحة لمفردات ومعطيات المرحلة. وحمل السلطان لواء المبادرة لوحدة الصف المسلم. وأن اتصالاته بالسنوسي يمكن أن تفسر في ضوء ذلك. ويمكن أن تصب في خاتمة توحيد الجهود وتقوية الجبهة الداخلية، والخروج من إطار المحلية إلى رحاب الماعون الإسلامي الكبير لتلعب دور فور دورها التاريخي بعيداً عن الإثنية والعرقية والجهوية التي تحاول الآن جهات جاهلة بدارفور وتاريخها أن توظفها فيها وأن تضطرها إلى جحرها الضيق الذي

(15) السلطان إلى وزير الحربية العثماني ووكيل القمندان الأعظم في (1334م) (1915م) S.N.A. Intel 2/3/12

سيعزلها عن ماض تليد وموروث خالد. كل ذلك من أجل مآرب شخصية ومصالح ذاتية. أو علي حسب ما يورده عامة السفهاء (يا فيها يا أطفئها). وبالتالي يمكن أن نقول أن السياسة في السودان هي ضرب من (الصعلكة المستترة). فالحزبي حينما يكون خارج إطار الحكومة يفلح في النقد والتنظير، وما أن يركب صهوة أدنى سلطة حتى يضم أذنيه ويغمض عينيه عن الحق وأهله ويلجم لسانه عن قول الحق. وهذا شأنهم جميعاً في السودان طائفيين أو علمانيين بشتى قبائلهم من موسكو إلي واشنطن أو إسلاميين بشتى مسمياتهم وألوان طيفهم من إسلام آباد إلي طنجة.

ولم يخف السلطان مشاعره حتى نحو أحد أصدقائه حينما حاول الأخير التأثير عليه لاتخاذ قرار يقضى بانحيازه إلى دول الحلفاء (بريطانيا - فرنسا وحلفائهما). وأشار السلطان في رده عليه إلى أنه قد علم من خطاب المذكور أخبار الحرب الدائرة بين سلطان الإسلام وبين بريطانيا ويؤنبه على رغبته في أن ينتصر المسيحيون على المسلمين. ويختم السلطان خطابه بأن يسأل الله أن يجعل الدائرة على المسيحيين وأن ينتصر الإسلام أهله⁽¹⁶⁾. هذا تعبير صادق عن مشاعر إسلامية حميمة وعاطفة دينية عميقة، وانتماء حقيقي غير زائف الأمر الذي يجافي ما يدور في دار فور الآن من حيث البداية ومن حيث الأهداف. فدارفور الماضي كانت محور الأحداث على المستوى الإقليمي والعالمي من حيث طموحاتها وأهدافها. والآن يحاول أحفاد هؤلاء الأماجد أن يحشروها في جحر ضب من العرقية والجهوية وحب الذات والكسب الرخيص أموالاً علي حساب تاريخها الناصع وماضيها المجيد وتراثها الفريد. وحاول نوري بك من جانب آخر أن يزود السلطان بكميات من الأسلحة من بنادق وذخيرة كافية. الأمر الذي يشد من أزره ويقوى من عزيمته. أرسلت إليه الأسلحة من ليبيا وفقاً لتعليمات السنوسى بعد تأكده من علاقته الطيبة مع السنوسيين الموجودين في الفاشر⁽¹⁷⁾.

وشعر السلطان على دينار بخطورة الموقف وعدم تجاوب الأعيان والمشايخ وتأثرهم بالدعاية الإنكليزية في البلاد فأرسل خطاباً إلى السلطان محمد رشاد مطلعاً إياه

(16) السلطان إلى عبد المسيح الانطاكى في 1915/10/26م (17 ذو الحجة سنة 1333هـ) S.N.A. INTEL/4/10

(17) كلايتون إلى الحاكم العام في 1915/12/25م D.S.A.BOX.131/6

على الأحوال الجارية في البلاد حيث يقول: (فبدى أن النصارى الإنكليز بعدما ملكوا السودان جميع المسلمين بشرق السودان العلماء والفقهاء ومشايخ الطرق وغيرهم ارتدوا وصاروا على ملة النصارى واتبعوهم في أقوالهم وأفعالهم وخرجوا عن دين الإسلام وأعيانهم صاروا يكاتبونا ويبتثوا على دولة الإنكليز ويمدحوها وردت لنا بالجراند شهادات من أعيان السودان وأهالي النواحي مصادحين فيها دولة الإنكليز بتمويهات مكذوبة. وقد بلغنا أن جلاتكم أعلنتوا الحرب مع أعداء الدين الكلاب الإنكليز وفرنسا والطلليان وكافة النصارى. فالله سبحانه وتعالى هو المسؤول أن ينصر دينه ويؤيده ... ويعلى كلمة الحق في عموم أقطار الدنيا)(18).

هذا الخطاب يلقي الضوء على علاقة السلطان على دينار بالحكم الثنائي منذ الوهلة الأولى. فهو يرى أن الحكم الثنائي عبارة عن سيطرة الإنجليز وهي سيطرة ذات وجه مسيحي في السودان. وإشارته إلى أن الأعيان والعلماء ومشايخ الطرق قد ارتدوا ربما أراد بذلك سير السידين والشريف يوسف الهندي في ركاب الحكم الثنائي البريطاني. وترينا هذه الكلمات التي وردت بهذا الشأن مدى غيظه من سلوكهم غير السوي وإتباعهم لأعدائه الكفار ومما لآتهم للنصارى ضد المسلمين. لاسيما بعد ورود شهاداتهم التي توحى بعدالة وصلاحيّة الحكم النصراني في البلاد. ومعلوم أنه لا يحق لأي مسلم موادة الكفار. وذلك بعد أن تعين فقهاً الجهاد ضده وضد أعوانه. وقد وردت بذلك آيات محكمة في سورة المائدة: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) الآية (51)، (52) هذه الآيات تشكل مرتكزاً للسلطان على دينار قوياً في دعواه واتهامه للذين يسيرون في ركاب الحلفاء من الزعماء المحليين الذين انحازوا للصف الكافر ضد تركيا دولة الخلافة وحامية بيضة الإسلام.

(18) السلطان على دينار إلى السلطان محمد رشاد 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1333هـ) S.N.A. INTEL/3/12

وكان السلطان موقناً في قرارة نفسه بأن ما جاء من قبل هؤلاء الأعيان والخطابات التي أرسلوها له بغية إقناعه للانحياز للإنكليز هي لا تعدو في مجملها عن كونها تمويهات مكذوبة وقع فريستها هؤلاء الشيوخ والفقهاء والأعيان - ممن قعدت بهم الهمم وقصرت نظرتهم عن الشمول. أحاط على دينار رسائله إلى السلطان العثماني بقدر من السرية البالغة. هذا لضمان وصول خطاباته والحصول على ردها حيث قام بإرسال خطاب عن طريق أحمد الشريف بواسطة مبعوث خاص من قبله. وطلب من السيد أحمد الشريف كتمان أمر هذه الرسالة حتى وصول الرد من تركيا وإعطائه لمبعوث على دينار الخاص.⁽¹⁹⁾

وفي الخطاب ذاته ذكر بأن رسالته للسلطان محمد رشاد تتضمن أموراً في غاية الأهمية والخطورة. وأثر تزويد مبعوثه بها ليبلغها لأحمد الشريف شفاهة. ويشير إلى تشديد الرقابة من قبل الإنجليز أعداء الله ورسوله. ويأمل كتمان السر والتصرف بحكمة⁽²⁰⁾.

يبدو أنه أراد أن يحيط خطابه ذلك بالسرية لما تضمنه من معلومات في غاية الخطورة والأهمية وهي كشف الخطط الاستعمارية في السودان التي اقتضت استقطاب كبار رجالات القبائل والمشائخ والعلماء. ووصل بهم الحد إلى أن يصدروا بيانات يدعون فيها كل أهل السودان إلى الانضواء تحت راية الإنجليز والفرنسيين أعداء الله. وأن الله تعالى لا بد أن يحقق نصره. وإعلان الجهاد في مثل هذه الظروف كفيل بتحقيق هذه الغاية. وأرفق مع ذلك الخطاب بعض البيانات والمطبوعات في جريدة السودان والتي تثبت صدق مقولته. وليطلع السلطان محمد رشاد على حقيقة الأوضاع في السودان⁽²¹⁾. من خلال ما مضى يتضح مدى قراءة على دينار لمعطيات الواقع قراءة موضوعية ومنطقية تتسق وسلامة فكرة وتتسق ذاته وأنه كان متفوقاً على زمانه وذاته تحليلاً وموضوعاً وقراءة وذكاء. فالإسلام فكر والتزام ودعوة ومنهاج ليس

⁽¹⁹⁾ السلطان إلى أحمد الشريف في 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ) S.N.A. INTEL/3/12

⁽²⁰⁾ السلطان إلى أحمد الشريف في 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ)

D.S.A. INTEL/3/12 D.S.A. BOX. 129/7

⁽²¹⁾ على دينار إلى السلطان محمد رشاد في 1915/12/25م. S.N.A. INTEL/3/12. See also. D.S.A. Box 129/7.

جلباباً يلبس ويخلع وفقاً لمقتضى الحال كما فعل غيره ممن فعل في السودان من بعده وفي خارج السودان.

فمنطلق على دينار في حربه وخروجه على الحكم الثنائي في البلاد مؤسس أولاً: على قناعة ذاتية لحمتها وسداها عدم مولاة الأعداء من الكفار. وقد تواترت النصوص الشرعية دالة على هذه المعاني. ثانيها: أن الكفار قاموا بالاعتداء على بلاده ولابد من ردهم بالقوة. وهذه من الحالات التي يتعين فيها الجهاد من وجهة نظره وهذا هو عين الصواب شرعاً حيث وردت طائفة من آيات القرآن وأحاديث المصطفى (ص) بهذا المعنى. ومما لا شك فيه أن هذه من الحالات التي يتعين فيها الجهاد وينتقل من فرض الكفاية إلى فرض العين حسب ما هو مقرر في الفقه الإسلامي.

ولعل هذه القناعة بأهداف التحرك وشرعية الموقف العثماني جعلتاه يرسل الأعيان بغية إقناعهم وإغرائهم بنقل أخبار الجبهة العثمانية والسنوسية إليهم ففي خطاب بعث به إلى الشريف يوسف الهندي ذكر له فيه أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسى قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء. وأنهم قد أرسلوا إليه تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة بندقية وأربعمائة صندوق⁽²²⁾. تلك محاولة جادة من قبل السلطان لإغراء هؤلاء الزعماء وتحفيزهم للنهوض ضد الحكم الثنائي إلا أنهم كانوا أضعف من أن يحركوا ساكناً أو يقتلوا ذبابة ما لجرح بميت إيلام.

وفي يناير سنة 1916م. فض السلطان ما بينه وبين الحكم الثنائي تماماً وأعلن عداوته له. وقد قصد من ذلك إرهاب الحكم الثنائي وإشعاره بأن موقفه الحالي قد اتخذته نتيجة سياسة عثمانية فوراوية موحدة⁽²³⁾. وتوالت خطباته بعدئذ مؤكدة موقفه السابق وميله إلى سلطان تركيا والدفاع عن الأهداف التي وضعتها سلطان تركيا نصب عينيه.⁽²⁴⁾ وتأصيلاً لهذا الدور فقد أرسل خطاباً إلى نائب الخليفة العثماني والقائد العام. في هذا الخطاب يذكر السلطان على دينار أن سبب إثارته للحرب ضد قيادة الحكم الثنائي في السودان هو الاستجابة الفورية لنداء الدولة العثمانية وتنفيذاً لأمر الله

(22) على دينار إلى السلطان محمد رشاد في 1915/12/25م S.N.A. INTEL/4/10

(23) السلطان إلى مفتش وحاكم ردفان 3 يناير سنة 1916م S.N. A. INTEL /4/10.

(24) تقارير المخابرات 5 Feb. 1916 - S.I.R. 259/4

بمحاربة الذين يلونه من الكفار. حيث أضفى بذلك بعداً جيداً على موقفه بتأكيد أنه لا يوجد مسلمون متمسكون بدينهم الحق لا علماء ولا أشراف. وكأنه بذلك يعرض بمن ينتمون إلى الأشراف من أمثال الشريف يوسف الهندي وعلى الميرغنى وعبد الرحمن المهدي الذين يقطنون الخرطوم ولم يحركوا ساكناً خوفاً من بطش الإنجليز وغيرهم من الناس الذين يقطنون دارفور. إن هذا الخطاب بمفرداته الأنفة الذكر يوحي بأنه قد ينس من هؤلاء الشيوخ وأولئك الزعماء والأشراف. وأنهم كانوا في حقيقة الأمر دون الدور المنوط بهم تاريخياً في مقاومة المحتل الغاصب، بل أصبحوا بوعي أو دون وعي وبرغبة أو برهبة أبواقاً وأدوات إستعمارية أوروبية كما هو شأن الأحفاد الآن علي مستوي دارفور أو على مستوى السودان عموماً. وظل السلطان في كل مناسبة ينتهز الفرصة ليؤكد على أصالة موقفه وموروث سلطنته إذ يعرف نفسه ودولته بأنها سلطنة قامت منذ القديم وضعفت بمرور الأيام ويصف أسرته بأنها عباسية تنتمي إلى بيت الرسول (ص). وأشار إلى أنه لا يملك في الوقت الراهن سلاحاً ولا ذخيرة كما هو الحال بالنسبة إلى الدولة العثمانية التي تملك العتاد والرجال بيد أن دارفور تملك إرادة ورجالاً وخيلاً وإيماناً بالله وحده واعتماداً عليه وثقة به.⁽²⁵⁾ إشارة إلى أنه يملك قوة معنوية وكافة الأسباب الممكنة للنصر ويؤكد بأنه على استعداد لبذل أقصى ما يمكن في سبيل دينه وعقيدته متى ما توفرت لديه قوة أكبر وعتاد أوفر. وذكر "سَم الثنائي بخطورة الموقف فاقتضاه ذلك تجهيزات وترتيبات عالية. وشن على السلطان حملة إعلامية قوية بغية تشويه سمعته ووصمه بالخيانة وإلى ذلك يشير القائد الإنجليزي (كالي) بقوله: (إن على دينار قد استلم خطابات من الأتراك و الألمان تعزز من موقفه وتشجعه على الخروج على الحكومة الثنائية. وقصد أولئك من هذا هو شغل الحكومة الإنجليزية وجيشها حتى لا يرسل إلى جبهة أخرى. أما بالنسبة إلى على دينار فإنه قد أصبح ضحية لهذا المخطط ليواجه مصيره المحتوم. وأضاف قائلاً بأن السلطان رجل غير متحضر وجاهل غير مهذب وقد أصبح مغروراً ومعتزاً بأمجاده مخدوعاً بمن حوله)⁽²⁶⁾.

⁽²⁵⁾ السلطان على دينار إلى انتر باشا بواسطة حسين عارف في 12 مارس سنة 1916م (8 جمادى الأولى سنة 1334هـ) D.S.A.BOX. 129/3

⁽²⁶⁾ كالي إلى جميع الضباط وقيادة الهند في 191/3/13 D.S.A.BOX.127/8

أراد الحكم الثنائي بهذه الكلمات الفجة أن يشوه ستمعة السلطان وقلب ظهر المجن لسه، مما يعبر عن مدى الغيظ والحنق الذي يعتل في نفس القيادة الثنائية الإنجليزية تجاه وقوف السلطان في صف الجماعة المسلمة وعدم موالاته للكفرة والنصارى. وكان الغرض من هذا الخطاب هو تهدئة الأحوال بعد ظهور بوادر التمرد بين قطاع الجيش الثنائي الإنجليزي المصري في الجبهة الغربية. وحاول بعض من الضباط المصريين الغيورين علي أوطانهم ودينهم الاتصال بالسلطان والتنسيق معه رغباً عن إرادة قياداتهم العملية كما أشار إلى ذلك كالي في خطابه⁽²⁷⁾

ولربما يفسر ذلك الموقف البطولي للسلطان وصف (كالي) للسلطان بأنه غير متحضر وجاهل إلى غير ذلك من ألفاظ السب والبهتان التي قصد منها ترهيد الناس في إتباعه وهو أسلوب سياسي رخيص قديم حديث تنتهجه الحكومات والأحزاب والجماعات ضد من يرفع عقيرته عليها أو من ينسلخ عليها. والآلة الغربية الإعلامية الحالية تتبع هذا الأسلوب بعلمية ومنهجية دقيقة لحرق أوراق كل من لا يقف ومصالح الغرب في خندق واحد ... وقد أتت هذه السياسة الثنائية البريطانية ثمارها حين عاد الناس ضحية للدعاية الإنكليزية حيث حجبت أدواره المسترقة وبطولاته الإيجابية عن الأمة وعن أجيالها الصاعدة التي أضحت تردد المقولات الغربية بغباء. مما جعل الناس وحتى الباحثين لا يعرفون عنه كثير شيء سوى ما كتبه بعض الباحثين الغربيين وإن كان ذاك الذي كتب لا يخلو من تحليلات مغرضة هي في كثير من جوانبها لصالح أمة الكاتب⁽²⁸⁾. والآن نحن ندرك ونرى ونسمع ما تقوم به الآلة الإعلامية الغربية والأمريكية في مجال قلب الحقائق من حيث جعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والجهان بطلاً والبطل جباناً وخائناً والمدافع عن وطنه وبلده إرهابياً والبائع لبلده والإرهابي الغادر بطلاً قومياً، والجاهل البليد مفكراً والمفكر الحر الذي لا يشق له غبار منبوذاً، الأمر الذي يقتضي مراجعة شاملة من قبل عقول وأقلام حرة لتاريخنا وفقاً لوثائق وتحليل موضوعي ومنطقي بعيداً عن المؤثرات الخارجية فتاريخ أي بلد أدري الناس

(27) المصدر السابق

(28) النظر A.B. THEOBALD. OP.CIT

به هم أهل البلد لا الأجانب الذين حوروا وبدلوا وفق أهوائهم كثيراً من الحقائق التاريخية واجبروا الجيل الأول من الباحثين في بلادنا علي تبني آرائهم وإرضائهم حتي يتمكنوا من الحصول منهم علي شهادات عليا من جامعات الغرب، وينبغي الانغتر بحرية البحث والتفكير وحيدة المناهج التي غدت أكثوبة لا تتطلي إلا علي مغفل نافع أو عميل مباع في سوق النخاسة الماسونية في المؤسسات الأكاديمية الغربية أو الشرقية عموماً. فكل ثمن سياسياً أم أخلاقياً أم دينياً.

يبدو واضحاً أن السلطان قد تمكن من أن يحدث تمرداً داخل الجيش الثنائي البريطاني في البلاد. وأعرب عن عدالة قضيته ووضوح رؤاه وسلامة منطقته حيث أقنع كل ذلك عدداً من الضباط والجنود المصريين بسلامة موقف السلطان، وأثبت لهم شرعية الموقف العثماني ووجوب الوقوف بجانبه. وأقتضى ذلك الحكم الثنائي أن يقوم بتصفيات وسط القيادة الغربية وخسران عدد من القوة الغازية. وتم حبس بعض الشخصيات القيادية في النهود⁽²⁹⁾، ويُنست القوات الثنائية وقيادتها من استقطاب السلطان علي دينار وشعرت بخطورته وتهديده لوجودها. ولعل مما يؤكد نزاهته ووطنيته وأن كثيرين ممن جهلوا حياته وسيرته وقبوا ضحية الدعاية المغرضة ضده من قبل الحكم الثنائي ما جاء علي لسان الملازم محمد أفندي عبد الموجود الذي وجه خطاباً إلى إخوانه الضباط والجنود العاملين في الجيش الثنائي، أكد فيه أن الكلام الذي ذكره كالي قائد القيادة الغربية والحاكم العام في حق السلطان علي دينار من الظلم والاضطهاد لا يعدو عن كونه كذباً صراحياً. ونفى الزعم القائل بأن السلطان عنصري يكره كل الوافدين من غير سكان دارفور، فقرر أن ذلك كله كذب محض. فهناك في دارفور أتراك ومصريون وغيرهم. وأشار محمد أفندي إلى أنه حين قدومه دار فور استقبل بحفاوة بالغة. وهتف الجنود (الله اكبر، الله اكبر) وأشار أيضاً إلى وجود عدد من الأشخاص مبتعثين من قبل السلطان محمد رشاد في دارفور. ودعا محمد أفندي الجنود والضباط المصريين والسودانيين في النهود في ختام خطابه إلى النهوض ضد الوجود الأجنبي والثورة على الكفار والمشركين وأعوان الجيش الغازي الكافر⁽³⁰⁾.

(29) مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار في 18/3/1916م D.S.A.BOX.127/8

(30) الملازم محمد أفندي عبد الموجود 17/3/1916م (13 جمادى الأولى سنة 1334هـ) D.S.A.BOX.127/8

مما مضى يتضح أن السلطان لم يكن عنصرياً معصباً بعرقية بغیضة كما حاولت الحكومة الثنائية وصفه بذلك. ولم يكن ظالماً حيث صورته الدعاية الإنكليزية متهمة إياه باضطهاد أتباعه. ولعل الكثيرين من الباحثين والمفكرين السودانيين الأوائل وقعوا فريسة هذه الدعاية الاستعمارية الغربية الحاكمة التي تطاولت على شموخ كل القيادات الوطنية في القرن التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن العشرين محاولة تبخيس دورها البطولي في التضحية والاستبسال والدفاع عن العباد والبلاد. ولا يخفي أن وجود جنسيات متعددة، وشعار الله اكبر، والاتصال العثماني الفوراوي هذه كلها مؤشرات تضع السلطان فوق كل الاعتبارات الإقليمية المحدودة من حيث الجهد والتخطيط والفكر. فهذه هي دارفور التاريخ والمواقف التي يريد الاستعمار الحديث والمعاصر وأعدائه أن يقلصوا دورها الريادي وأن يكفكفوا تاريخها ويعملوا على حصرها في دائرة ضيقة وأن يضطروها إلى حجر العنصرية والإثنية المظلم.

وقام السلطان على دينار من جانبه بالاتصال بالخدوي عباس حلمي ولعب هذا الدور الخطير الشيخ محمد سيماي فقام بالسفارة بين الرجلين أثناء تواجده في مكة. حيث التقى عباس حلمي وتذكر إحدى الوثائق ما نصه: (لقد ظهر جلياً أن الشيخ محمد سيماي قد قابل الخديوي المخلوع في الحج وأجرى معه محادثات الأمر الذي كان له أثره الواضح على موقف السلطان على دينار تجاه خلع عباس حلمي وعدائه للخدوي حسين)⁽³¹⁾.

العلاقة بين الخديوي عباس حلمي والسلطان على دينار لم تنشأ بعد خلع الخديوي. وإنما بدأت منذ فترة مبكرة سبقت الإشارة إليها. ولعب سلاطين باشا النمساوي دوراً هاماً في نشوء هذه العلاقة. وتؤكد هذه العلاقة أن السلطان على دينار لم يكن يعاشر حكام مصر أو المصريين بصورة عمياء - على الرغم من أن الخديوية هي التي هدت عرش الفور، وزعزعت أركانه منذ الغزو الأول سنة 1822م بانتزاع إقليم كردفان - يؤكد ذلك ما مر ذكره عن محمد عبد الجواد. وهو مصري المولد والمنشأ والثقافة بيد أن قاسم الدين وهو أقوى من كل القواسم الأخرى دفع به إلى الانحياز إلى جانب الحق.

(31) الحاكم العام إلى كتنر ووزارة الحرية البريطانية في 1916/4/24. D.S.A.BOX.128/3.

وفي الواقع أن دارفور هي المنطقة الوحيدة في السودان التي قد ارتبطت بمصر ارتباطاً ثقافياً مستمراً عن طريق الرواق الدارفورية بالأزهر، واقتصادياً عن طريق مصالح اقتصادية حيوية منذ القدم (طريق الأربعين) - ولذلك فإن القول بأن الفور كانوا ينظرون إلى هذه العلاقات بصورة عاطفية (حب أو كراهية) أمر لا يستقيم. ذلك لأنها علاقة أزلية وعلاقة ثقافية وروحية توطدت أركانها وتوثقت عراها بعد قيام سلطته الإسلامية حيث قدمت عوائل مصرية أقامت بدارفور وتمازجت مع أهل البلاد الأصليين، وأضحت دارفور منطقة جذب سياسي واقتصادي وروحي وفكري خلال خمسة قرون إلا قليلاً من الزمان. وهي فترة ليست بقصيرة بكل المقاييس.

ويؤكد ذلك أيضاً إدراك السلطان على دينار لاتجاهات النظام السياسي في مصر. فصدقة على دينار للخديوى عباس ناتجة عن ميول الأخير للدولة العثمانية ووقوفه مع القضية الإسلامية، والتزامه جانب الصف المسلم. وهذه ذات الأسباب التي اقتضته - أي السلطان - الخروج على الحكم الثنائي البريطاني في البلاد وإعلان الحرب ضده. وعداوته للخديوى حسين ناتجة عن كون الأخير أمسي دمية في يد القوى الأوروبية المعادية التي كانت سبباً في تنصيبه.

لذا أبدى السلطان معارضة قوية لخلع السلطان عباس حلمي. وعرض بالحاكم العام الإنجليزي وقدرته على تغيير أو تبديل شيء، بقوله أن الملك لله يؤتیه من يشاء. وذكر بأن الحاكم العام أضعف من أن يصل إليه ناهيك عن خلعه. كما أكد بأن عباس حلمي موجود وسيعود إلى العرش⁽³²⁾. هذا الخطاب قد صدر بلهجة حادة وقوية مما يوحي بأنه رد على مراسلات دارت بين الطرفين - الحاكم العام والسلطان على دينار. وفيه إيماءة إلى ورود تهديد من قبل الحاكم العام له بخلع الخديوى. وأن مصيره سيكون مصير عباس حلمي. وسخر السلطان من الحاكم العام وقدرته على زحزحة شخص أو الوصول إليه وخلعه. ويعكس هذا الخطاب أن الصفوف قد تمايزت وأن المواقف قد تحددت وأن التهديد لم يعد ليجد شيئاً مع السلطان وأن إيمانه قوى بأن النصر من عند الله .

(32) الحاكم العام إلى كتشنر وزارة الحربية البريطانية في 1916/4/24. D.S.A. Box. 128/30

ومعارضة السلطان على دينار لخلع الخديوى نابعة من وحدة الهدف والوفاء لما هو قائم بين الطرفين من اتفاق يلحمه المرء - بين سطور الوثيقة بقوله: أن الخديوى موجود وأنه سوف يعود. هذه التأكيدات لا يستبعد أن تكون ناتجة عن اتصال وتخطيط مشترك بين الجانبين. وبالتالي فإن السلطان قد تجاوز حدود المحلية الضيقة إلى آفاق التنسيق الإقليمي والدولي. وما فتئ السلطان على دينار يؤكد مواقفه الإسلامية وبكره محاولاته للاتصال بالدولة العثمانية، محاولاً اختراق الحواجز الإنجليزية المصرية. ولكن يبدو أن التدابير الثنائية كانت على قدر من الإحكام حيث يقول السلطان على دينار: (لقد حاولنا إرسال رسلي إلي مصر لمقابلتكم ولكن الإنجليز قاموا بمراقبتهم فلم يتمكنوا من أداء مهمتهم حيث فتشواهم ولم يتركوا معهم شيئاً مما أرسلناه إليكم وحتى الآن ومنذ إعلانكم الحرب سنة 1332هـ . ولم يصلنا منكم خطاب ولا خبر واحد ولكن نحن من جانبنا ما أن علمنا بخبر الحرب وقطعنا صلاتنا معهم. وعند وصول خطابنا هذا إليكم نرجو إعلامنا بالذي يجب اتخاذه من خطوات)⁽³³⁾. لم يأل السلطان على دينار جهداً في الاتصال بالدولة العثمانية رغماً عن كل التدابير الثنائية التي قطعت الصلة القائمة بينه وبين الدولة العثمانية. فعمل على فتح قناة أخرى عن طريق الشمال بواسطة ليبيا والثانية عن طريق مصر والثالثة عن طريق الحجاز. بيد أن التدابير الثنائية كانت مطبقة على محاولاته من كل الجهات. ولا يزال السلطان يقرر أن طبيعة الحرب المعلنة من قبله هي حرب طبيعتها دينية.

وفي خطاب آخر كشف فيه السلطان على دينار عن خطط الحكومة الثنائية الرامية إلي مكاتبة عدد من الشيوخ والعمد والمسؤولين في سلطنة دارفور لإثراء السلطان عن مواقفه⁽³⁴⁾. وهو إجراء طبيعي لهذه البنية من الداخل من قبل الحكومة الثنائية أو خلق ما يسمى بالطابور الخامس لنقل أسرار وخطط السلطان إلي الجهة المعادية له. ولكن من جانب آخر فإن خطاب السلطان المتقدم يدل على تنبيهه لما يجري حوله من تدابير عدائية وإطلاعه على مجريات الأحداث ومتابعته المستمرة وتطلعه

(33) على دينار إلي السلطان محمد رشاد أبريل 1916م (8 جمادى الثانية سنة 1334هـ) D.S.A. Box. 129/3

(34) على دينار إلي السلطان محمد رشاد في مايو سنة 1916م D.S.A. Box. 129/3

لمعرفة ما يدور في الساحة الإسلامية الواسعة التي تتجاوز حدود دولته. وإن ارتفاعه عن الإقليمية الضيقة هو الذي جعله لا يستجيب لمحاولات الحكومة الثنائية. وأن هذا الارتقاء كان ناتجاً عن عقيدة وفكر أكثر من أي شيء آخر.

ولا زال تفكير الحكومة الثنائية قاصراً تجاه سياسة السلطان الخارجية إذ كانت تعتبر أن السلطان قد راح ضحية للدعاية التركية الألمانية. وهذا في حد ذاته يعتبر تجاهلاً تاماً للحركة الذاتية والقناعة العقدية التي شكلت لبنة ثورة علي دينار واقتضت عداوته لهذا الحكم الكافر. وهو مستوى من التبخيس المتعمد والتقليل من شأنه واختصار مواقفه البطولية واختزالها بصورة مخلة تزهيداً في الإقْدَاء به أو إتباعه. وهو أسلوب إستعماري قديم حديث. وسبقت الإشارة إلي أن علي دينار هو الذي بدأ بمراسلة السلطان العثماني. ولا يخفى أن المحاولات الإيجابية للاتصال بالدولة العثمانية كانت دوماً من قبل علي دينار. والواقع يقرر أن المسألة قد تجاوزت حدود الاستقطاب أو الوقوع فريسة سائغة لدعاية بعينها. فالسلطان علي دينار كان مسلماً معتزاً بدينه، وبموقفه الإسلامي، وعداؤه لأعداء الإسلام قد تجاوز كل الاعتبارات وفاق التصورات الثنائية، ولا أدل على ذلك من إشارة الحاكم العام بقوله: (منذ أربعة أشهر من الآن أعلن علي دينار الجهاد ومنذ سنة بدأت خطاباته تحمل الشتم وذلك بعد نجاحه في أن يحصل على أسلحة من السنوسية. ولأن خطة الأتراك والألمان هي إشعال حرب في غرب السودان ومصر. وذلك بعد نجاحهم في أن يستقطبوا السنوسى إلى جانبهم واستخدامه كوسيط بينهم وبين علي دينار. ونجح الأخير في الاتصال بعلي دينار وإمداده بالسلاح فازدادت لهجة علي دينار حدة)⁽³⁵⁾.

صحيح أن الخطة التركية الألمانية كانت تقتضي إشعال حرب في غرب السودان. ولكن لولا وجود شخص غيور على دينه متسلح بقناعة ذاتية، لما وجدت هذه المقاومة الشرسة من يقودها. ومن المعلوم أن صلات سلطنة الفور بالدولة العثمانية لها أبعاد تاريخية ووشائج روحية منذ ما قبل عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد الذي أطلق عليه لقب الرشيد من قبل السلطان العثماني. وقد كان البلاط الفوراوى مركزاً علمياً ومحوراً

(35) SIR REGINALD WINGATE. OP. CIT. PP.10307-8.

من المحاور الهامة في العالم الإسلامي وقبلة للعلماء والمحتاجين. ومصدراً لمحمل تواصل عطاؤه لمصر وبلاد الحرمين مدة خمسة قرون من الزمان فما من حاج إلا وناله قدر من نواله وما من حاكم لمكة والمدينة ألا لدارفور عليه يد ودين مستحق. وعلى وجه العموم حالت تدابير الحكومة الثنائية دون استمرارية الاتصال المباشر بين القوى العثمانية والفوراوية. ولم تتمكن الدولة العثمانية من نجدة وإمداده بما يحتاجه من سلاح وعتاد. ولربما يعود هذا إلى انشغال الجبهة العثمانية بنفسها في متعددة. ولم تتمكن ألمانيا أيضاً من إمداد حلفائها بما يحتاجونه. ولم تتجح القوة الألمانية التركية في تأمين طرق الاتصال وإبطال مفعول التدابير الإنجليزية التي حالت بين هذه القوى الفوراوية وبين حصولها على ما تحتاجه من مدد وسلاح حتى تؤدي دورها كاملاً. ولو قدر لها ذلك لتغيرت معالم السياسة الدولية ولأضحى للسودان شأن آخر.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1- المصادر الأولية :

المادة الأرشيفية (غير منشورة) :

1- SUD INTEL :

Intel	1/1/1-5 (A) 1/30 1/70 2/1/3-7(B) 2/3/12-14	خطابات من والى السلطان علي دينار ما بين (1899م-1916م) هذا بالإضافة إلى تقارير مخبرات، والمجموعات غير منظمة وتسمى (منوعات)
Intel	7/1/1-18 7/2/1-20(C) 7/3/1-14 7/4/1-10 7/5/1-13 (D)	خطابات من والى السلطان ما بين (1899-1916م) منظمة ومرتبطة تاريخياً منوعات (1900-1914م)

2- Win. Papers :

Intel	30/1-3 (F) 31/1-5 101/5,28-29 104/4-6 112/1 114/12 126/6 127/2-8 128/1 7 129/1-8 130/1-12 131/1-10 223/1-3 (H) 228/1-3 2/1-3 234/5,6, 270/6,300 301/6	تشمل مكاتبات رسمية وشخصية ويوميات ومذكرات مرتبة تاريخياً وتغطي الفترة من (1900-1916م) .
-------	--	---

3- أوراق س. S. Papers:

121/1-5	1/1/1-5	خطابات رسمية وشخصية كسابقتها على وجه العموم
403/6-16	1/30 (W)	
260	1/70	
	2/1/3-7	
	2/3/12-14	

4- أوراق MAC :

110/1-7

246/1-10 (M)

5- وثائق مجلس الوزراء:

104/3-15 (Z) 1885-1869م

3/305 و 1899-1919م

مطبوعات SUDAN INTEL REP:

تقارير المخابرات السودانية هي تقارير شهرية يبعث بها مدير المخابرات إلى سردار الجيش المصري ومن ثم إلى وزارة الحربية البريطانية. وهناك يتم طبعتها وتوزيعها على الجهات المختصة بشؤون الأمن والمخابرات وكل تقرير منها يغطي شهراً. وقد تم الرجوع إلى التقارير من 60 - 26 ما بين 25 مايو 1898 - 1916م.

2- المصادر العربية والأجنبية:

: LONDON GAZETTE

أ- الكتب العربية المطبوعة :

1- إبراهيم فوزي: السودان بين يدي غردون وكنتشتر - جزئين - مصر. القاهرة.

مطبعة الآداب والمؤيد 1319هـ .

- 2- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: الجغرافيا. تحقيق وتعليق إسماعيل العربي. لبنان . بيروت . المكتب التجاري. الطبعة الأولى - 1970م .
- 3- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - 14 جزء. مصر. القاهرة. المؤسسة المصرية للتأليف والنشر 1963م .
- 4- سلاطين باشا: السيف والنار في السودان. أم درمان. طبعة عالم الكتب - 1978م.
- 5- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت 626هـ). معجم البلدان 5 مجلدات. لبنان. بيروت. دار صابر. (1955 - 1957م).
- 6- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808 هـ): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. مصر. القاهرة . دار الطباعة الخديوية ببولاق - (1284هـ) .
- 7- عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. تحرير ونشر أ. كوريلي وآخرين - جزءين - إيطاليا. نابولي. معهد الدراسات الشرقية (1970 - 1971م) .
- 8- لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي - ترجمة عجاج نويهض، تحقيق وتعليق شبيب أرسلان في أربعة أجزاء. لبنان. بيروت. دار الفكر. الطبعة الثالثة 1971م.
- 9- محمد بن عمر بن سليمان التونسي: تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. تحقيق خليل محمود عساكر. مصطفى محمد مسعد - مصر. القاهرة. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. 1965م.
- 10- نعيم شقير: تاريخ السودان. تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم - لبنان. بيروت. دار الجيل. 1981م.

ب- الكتب الأجنبية المطبوعة:

- 1- E. A. Wallies. Budge (1857-1934). Egyptian Sudan. Its History and monuments 2vols. USA. New York. Boston public library 1978.

- 2- Gustavo Nachtigal: Sahara & Sudan. wadai & Darfur voyage (1874). trans. by Allan. G. B. & Humphrey Fisher. England. London 4vols. (1971).
- 3- H. A. Macmicheal: A history of the Arabs In the Sudan & Account of the Peoples who preceded them of the tribes Inhabiting Darfur. 2. Vols .England .Cambridge 1922.
- 4- W. S. Churchill: the river war. London. Eyre & Spirtiswood ltd. third cd. 1951.

2- المصادر الثانوية:

ج- المصادر العربية والأجنبية الحديثة:

أ- العربية :

1- توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. مصر. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة. (1947م) .

2- الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط. مصر. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1972م.

3- صلاح الدين محمد كردوس: جغرافية العمران في مديرية دارفور- السودان. الخرطوم. جامعة القاهرة فرع الخرطوم. 1977م .

4- عبد الكريم غرابية: دراسات في تاريخ أفريقية العربية (1918- 1958م) سوريا. دمشق . جامعة دمشق. الطبعة الأولى. 1960م.

5- عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث. لبنان. بيروت. دار الثقافة للطبع والنشر- 1967م.

6- محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان (1900- 1969م). ترجمة هنري رياض ووليم رياض، الجنيد علي عمر. لبنان. بيروت. جامعة الخرطوم. 1980م.

- 7- محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله. مصر. القاهرة. لجنة التأليف والنشر. 1951م.
- 8- محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة. الطبعة الأولى - مصر. القاهرة. دار الفكر العربي. 1948م.
- 9- موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (1882-1898م) السودان. الخرطوم - جامعة الخرطوم. 1964م.
- 10- نقولا زيادة: صفحات مغربية. لبنان. بيروت - دار الطليعة. الطبعة الأولى. 1966م.
- 11- يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (1898-1924م). مصر. القاهرة. معهد البحوث والدراسات العربية. 1976م.

ب- الأجنبية :

- 1- A. B. Theobald: Ali Dinar the last sultan of Darfur (1898-1916). USA. Bristol. Western printing service ltd. 1965.
- 2- A. J. Arkell: A history of the Sudan from the earliest times to 1821 .England. London 1961.
- 3- L. A. Fabunmy: the Sudan in Anglo - Egyptian relation a case study in power politics. England .London. 1964.
- 4- P. M. Holt: A Modern History of the Sudan. From the fung Sultanate to the present day. Third Ed. redwood burn. London. 1974.
- 5- P. M. Holt: the History of the Sudan from the coming of Islam to the Present day. England London. .third Ed. 1979.
- 6- Patricia Wright: Conflict On the Nile: the Fashoda incident of 1898 .England. London. Cox and wy man ltd - First Ed 1972.
- 7- Rexson Ofahey: the growth and Development of the Kiera Sultanate of Darfur .England. London.

- 8- Omar al- Nagar: the Pilgrimage Tradition in the African west. Sudan. Khartoum. Khartoum University. 1972.

PERIODICALS

S.N.R. KHARTOUM:

- 1- A..C. Beaton, the Fur. Vol. 29 Part 1 (1948) 1-38 .
- 2- A . J Arkell:- Darfur Antiquities (1) Vol 19 (1936) P. 301-10.
- 3- The Coinage of Ali Dinar Vol 23 Part (1) (1940). P.151- 60.
- 4- The History of Darfur A.D 1200-1700. Vol 32 Part (1) (1951) P. 38 - 68.
- 5- The History of Darfur Ad 1200-1700 Vol33 (1950) P. 207-37.
- 6- G. B. Lampen, History of Darfur. Vol31 Part 2 (1950) P.177 - 209,.
- 7- J.E.H Boustead: The Youth and Last Days of Ali Dinar Vol 22 (1939) P. 149-53.
- 8- Samuel Bey Atiya, Senin and Ali Dinar. Vol.7 Part 2 (1924) 63 - 69.

Bibliotheca Alexandrina



0666618

